رائدة المرأة الحديثة

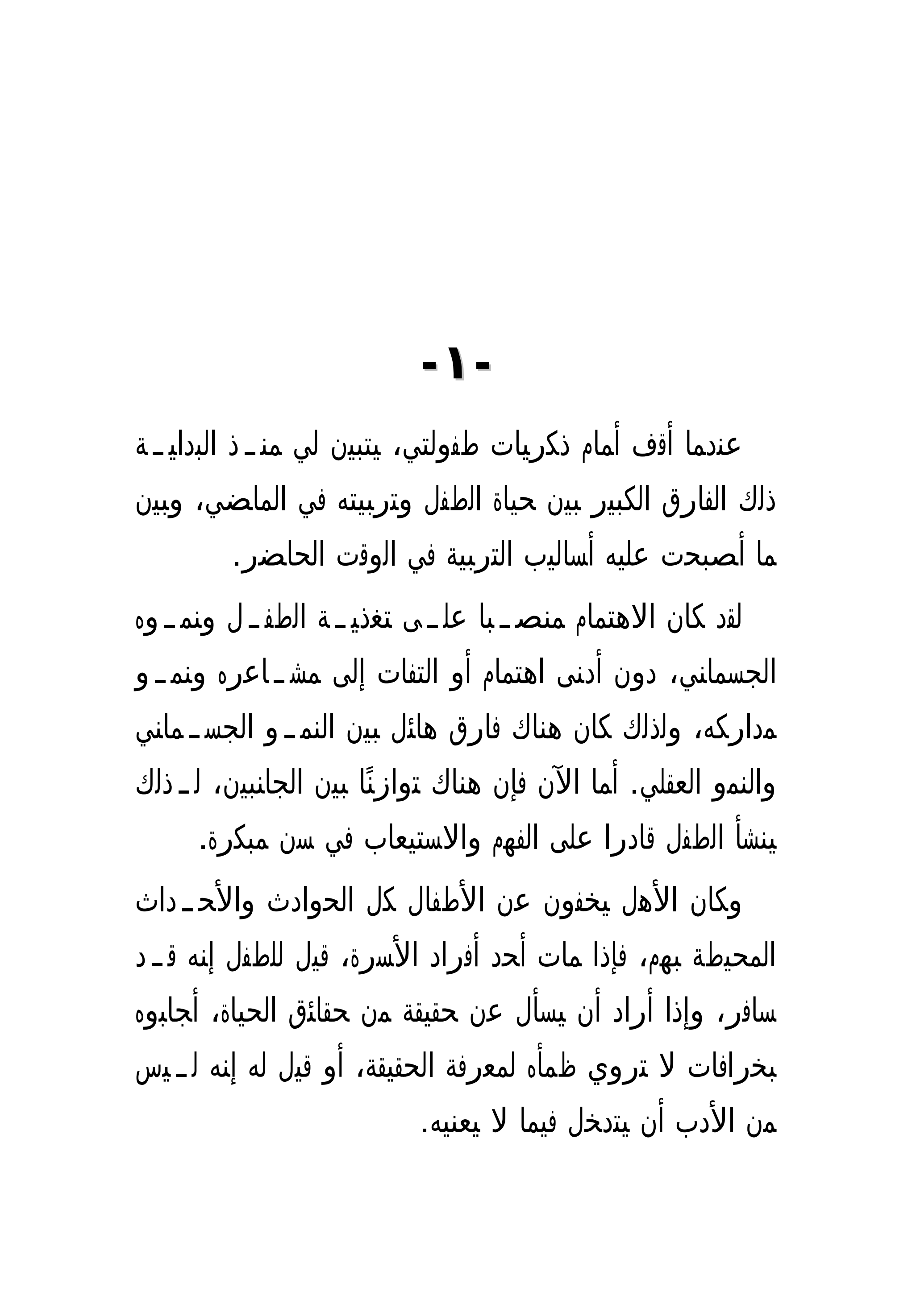
مذكرات هدى شعراوي

مذكرات

هدى شعراوي

رائدة المرأة الحديثة

طبقا لقوانين الملكية الفكرية



-١-

عندما أقف أمام ذكريات طفولتي، يتبين لي منذ البداية ذلك الفارق الكبير بين حياة الطفل وتربيته في الماضي، وبين ما أصبحت عليه أساليب التربية في الوقت الحاضر.

لقد كان الاهتمام منصبا على تغذية الطفل ونموه الجسماني، دون أدنى اهتمام أو التفات إلى مشاعره ونمو مداركه، ولذلك كان هناك فارق هائل بين النمو الجسماني والنمو العقلي. أما الآن فإن هناك توازنًا بين الجانبين، لذلك ينشأ الطفل قادرا على الفهم والاستيعاب في سن مبكرة.

وكان الأهل يخفون عن الأطفال كل الحوادث والأحداث المحيطة بهم، فإذا مات أحد أفراد الأسرة، قيل للطفل إنه قد سافر، وإذا أراد أن يسأل عن حقيقة من حقائق الحياة، أجابوه بخرافات لا تروي ظمأه لمعرفة الحقيقة، أو قيل له إنه ليس من الأدب أن يتدخل فيما لا يعنيه.

ولقد كنت واحدة من هؤلاء الأطفال، وكان يعني بنا خدم جهلاء يخفون عنا ما كان يجب أن نعرفه من حقائق، ويحيطوننا بسياج من الخرافات التي تؤثر في العقول الصغيرة الساذجة.

ولأنني كنت قليلة الالتصاق بوالدي، فإنني لا أذكر من حياتنا العائلية في طفولتي إلا القليل، ومن ذلك أنني كنت أذهب إلى غرفة والدي كل صباح لأقبل يده، وكان يصحبني في هذه الرحلة الصباحية أخ لي من أم ثانية اسمه "إسماعيل"، وكنا نجد أبي متربعا على سجادة الصلاة يسبح بمسبحته، فنقبل يده ويقبلنا، ثم ينهض ويفتح خزانة كتبه ويخرج لكل واحد منا قطعة من الشيكولاته، فنأخذها ونخرج متهللين.

ثم جاء ذلك اليوم الذي لا يمكن أن أنساه أبدا.. كنت ألعب مع شقيقي "عمر" عندما تناهى إلينا فجأة صراخ عال يملأ أرجاء البيت وملأ الخوف قلبي، وتعلقت أنا وأخي بمربيتنا، وفي ذلك الوقت أقبلت مرضعتي مهرولة، وهي تتشح بالسواد، وتصيح قائلة: لقد تحقق خبر الباشا.. فاعطني يا

"سياج" الطفلين لأذهب بهما إلى منزل مسعود باشا.. حتى لا يزعجهما الصراخ والعويل.

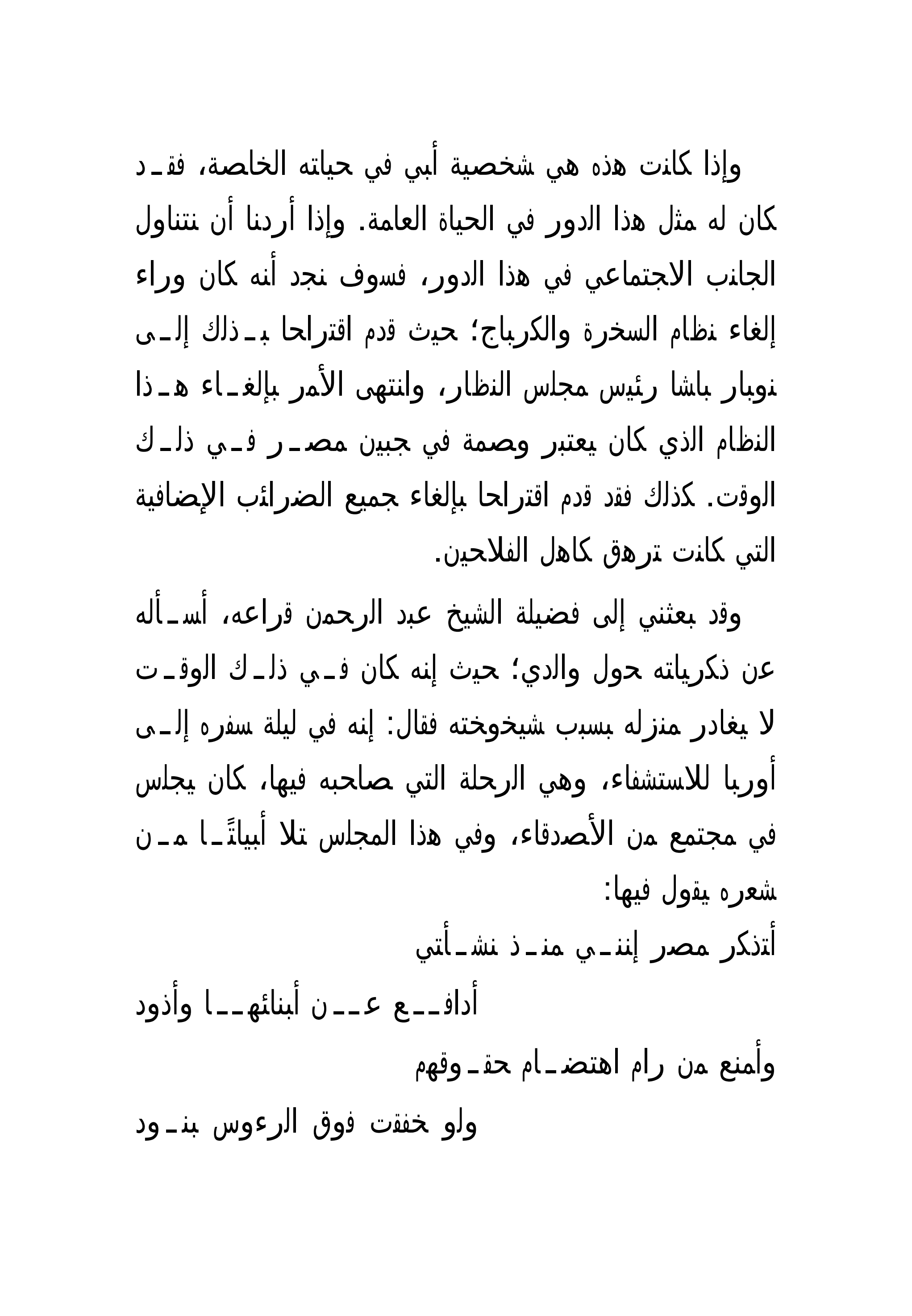
إن هذه الجملة لا تزال ترن فـي أذنـي حتـى اليـوم، ولا تزال تحدث صداها في أعماقي.. ولا تزال حرارتها في قلبي ونفسي..

كنت في الخامسة من عمري عندما وقـع هـذا الحـدث الجسيم، فقد توفي والدي المرحوم محمد سلطان باشا يوم ١٤ أغسطس ١٨٨٤ في مدينة جراتس بالنمسا، كان قد سافر إلى سويسرا للاستشفاء، ثم ذهب إلى جراتس بعد ذلـك، وكـان يعاني من صدمتين عنيفتين أثرتا في حالته الصحية إلى حـد بعيد؛ لدرجة أن الأطباء لم يجدوا دواء لدائـه إلا أن يسـافر بحثًا عن العلاج، وكانت الصدمة الأولى هـي وفـاة أخـي إسماعيل الذي كان يعقد عليه أبي كل آماله في المستقبل، فقد كان ذكيا يبدو أكبر من عمره في كل شيء، في الوقت الذي كان فيه شقيقي "عمر" ضعيف البنية والأمل في حياته ضئيل جدا.. أما الصدمة الثانية فكانت تلـك المأسـاة التـي أودت باستقلال البلاد إثر الحوادث العرابية، وما ظهر من سوء نية

الإنجليز بعد دخولهم مصر؛ حيث بدا واضحا أنهم لن يفكروا في الجلاء عنها!..

ولقد كان بودي أن أتحدث طويلاً وتفصيليا عن حياة أبي وأعماله، ولكن للأسف عندما فكرت في كتابة مذكراتي، كان كثيرون من الذين عاشوا هذا التاريخ وعرفوا أبي عن قرب قد فارقوا الحياة، ولم يكن أمامي إلا فهمي باشا الـذي لازم أبي خلال سنواته الأخيرة.

ولقد عرف عن أبي أنه كان يميل إلـى مجـالس الأدب والعلم، وقد تغنى كثير من الأدباء والشعراء بصفاته الطيبـة وأخلاقه الحميدة، وكان من أبرز شـيمه: الكـرم والوفـاء والترفع والتمسك بشعائر الدين، وتميز بالإخلاص والصراحة والشجاعة في إبداء الرأي والنزاهة والتجرد عـن الغايـات. كذلك فقد كان بارا بأهله في حياته وبعد مماته؛ حيث أوقـف عليهم جانبا كبيرا من ممتلكاته، كما فعل الشيء نفسه بالنسبة للفقراء، حتى لا يجد واحد من الذين كان يعولهم مشقة فـي الحياة من بعده، وقد أوقف على الحرمين الشريفين والأزهر الشريف والمساجد والمدارس جانبا من أوقافه.



وإذا كانت هذه هي شخصية أبي في حياته الخاصة، فقـد كان له مثل هذا الدور في الحياة العامة. وإذا أردنا أن نتناول الجانب الاجتماعي في هذا الدور، فسوف نجد أنه كان وراء إلغاء نظام السخرة والكرباج؛ حيث قدم اقتراحا بـذلك إلـى نوبار باشا رئيس مجلس النظار، وانتهى الأمر بإلغـاء هـذا النظام الذي كان يعتبر وصمة في جبين مصـر فـي ذلـك الوقت. كذلك فقد قدم اقتراحا بإلغاء جميع الضرائب الإضافية التي كانت ترهق كاهل الفلاحين.

وقد بعثني إلى فضيلة الشيخ عبد الرحمن قراعه، أسـأله عن ذكرياته حول والدي؛ حيث إنه كان فـي ذلـك الوقـت لا يغادر منزله بسبب شيخوخته فقال: إنه في ليلة سفره إلـى أوربا للاستشفاء، وهي الرحلة التي صاحبه فيها، كان يجلس في مجتمع من الأصدقاء، وفي هذا المجلس تلا أبياتًـا مـن شعره يقول فيها:

أتذكر مصر إنني منـذ نشـأتي
أدافـــع عـــن أبنائهـــا وأذود

وأمنع من رام اهتضـام حقـوقهم
ولو خفقت فوق الرءوس بنـود

وفي تلك الليلة، تحدث عن ابنه الراحل "إسماعيل"، وتلا أبياتًا من قصيدة كان قد كتبها في رثائه. وفيها يقول:

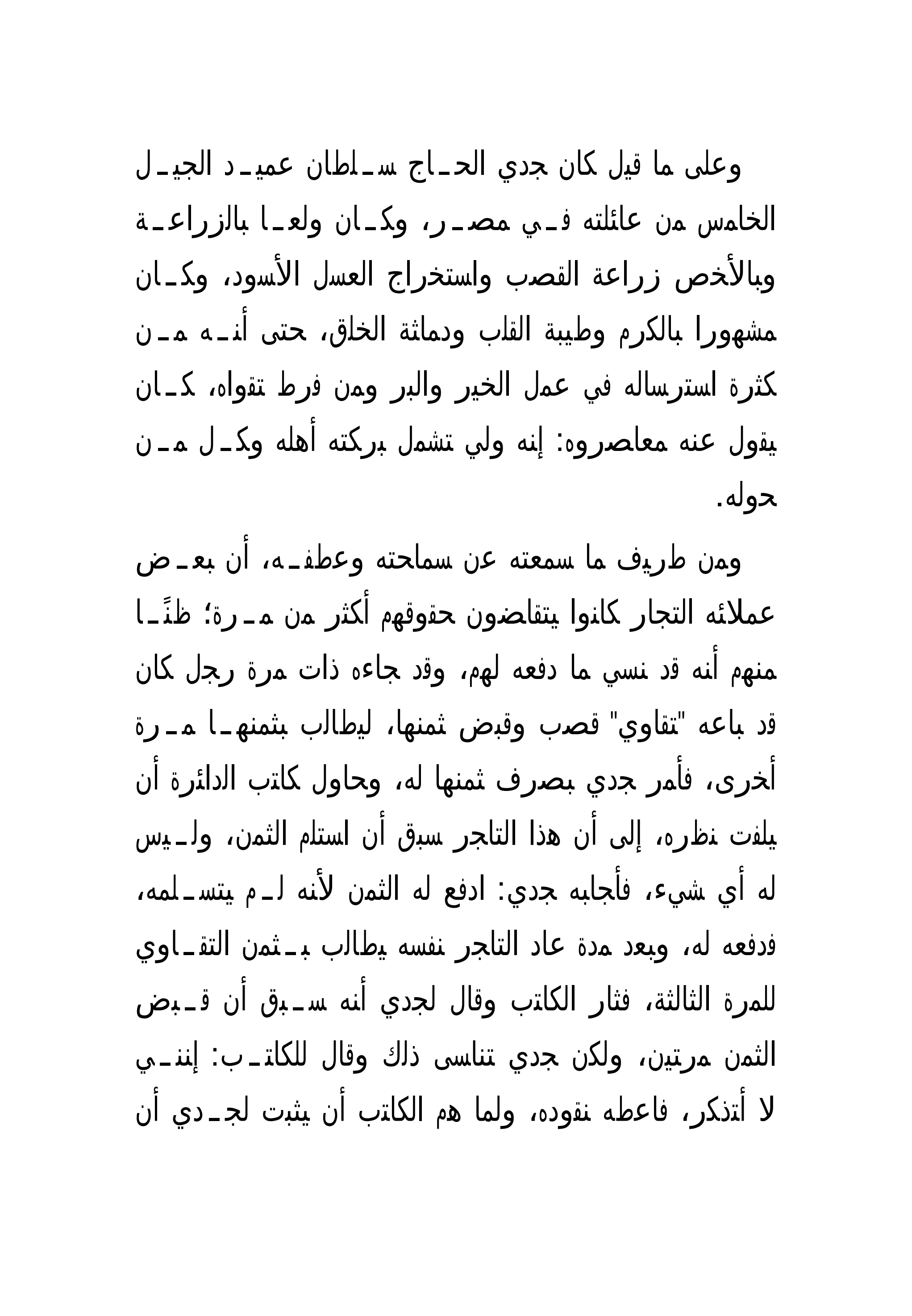
دعوني فـي اكتئـابي وابتئاسـي
أقاسي من زماني مـا أقاسـي

دعوني أسكب العبـرات وحـدي
فما لجـراح قلبـي قـط آسـي

ولقد عاش أبي صدر حياته بعيدا عن المناصب الحكومية، فقد كان عليه أن يرعى إخوته وأسرته، ثم اختيـر مـأمورا لقسـم قلوصـنا، وحـاول أن يعتـذر عنـه، فلـم يجـد إلا الإصرار.

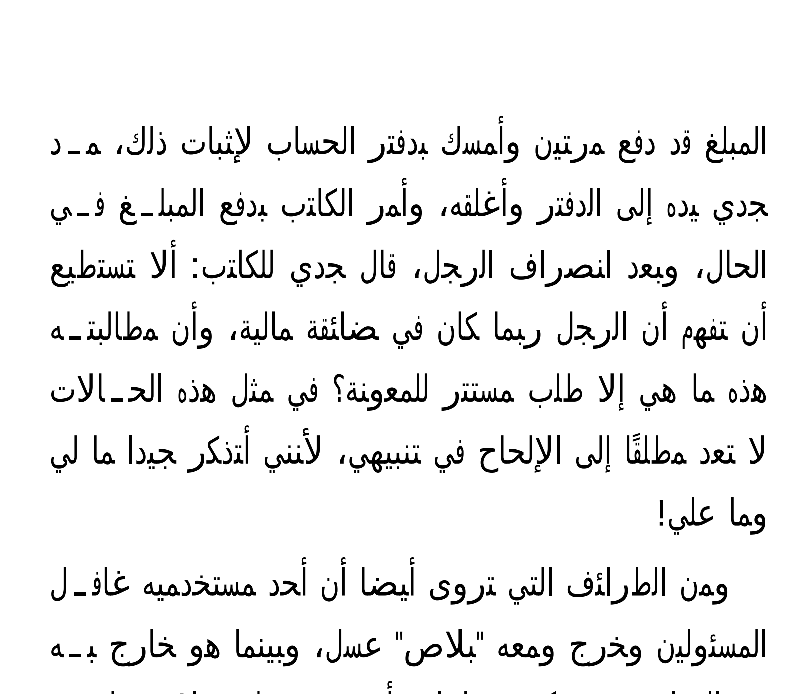
وتدرج بعد ذلك ليصبح وكيلاً لمديرية بني سـويف، ثـم مديرا لها، ثم مديرا للفيوم، ثم مديرا لأسـيوط، ثـم مـديرا للغربية، ثم مفتشًا عاما للوجه القبلي، ثم رئيسا لمجلس النواب ومجلس شورى القوانين ثم قائم مقام الخديوي.

وقد سمعت من بعض أقاربنا نقلاً عن آبائهم وأجدادهم أن والدي من أصل عربي، وقد استوطن أجداده أرض الحجاز، وهاجر نفر منهم إلى مصر قبل عهد علي باشـا واتخـذوها موطنًا لهم، وتزوجوا من مصريات.



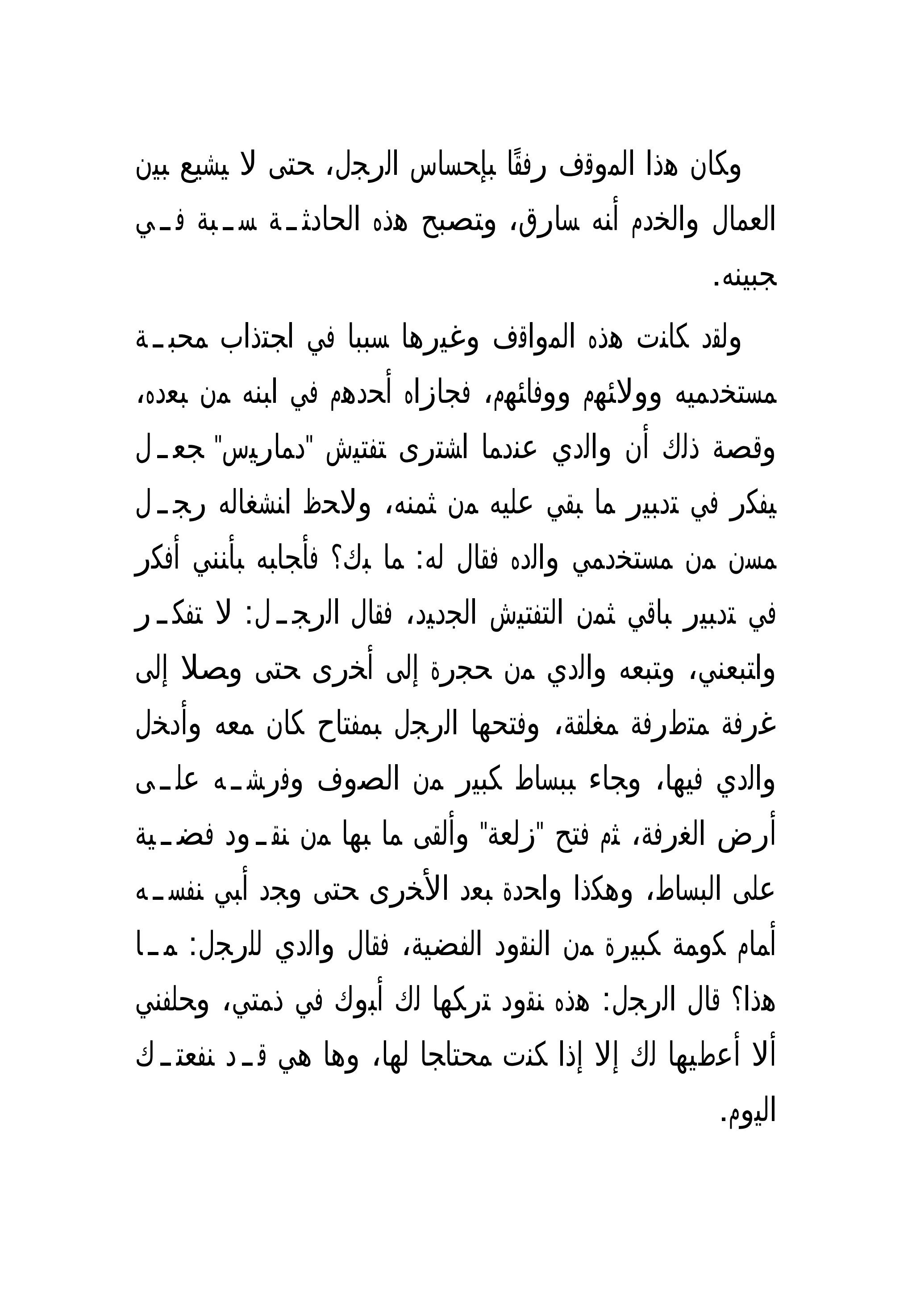
وعلى ما قيل كان جدي الحـاج سـلطان عميـد الجيـل الخامس من عائلته فـي مصـر، وكـان ولعـا بالزراعـة وبالأخص زراعة القصب واستخراج العسل الأسود، وكـان مشهورا بالكرم وطيبة القلب ودماثة الخلق، حتى أنـه مـن كثرة استرساله في عمل الخير والبر ومن فرط تقواه، كـان يقول عنه معاصروه: إنه ولي تشمل بركته أهله وكـل مـن حوله.

ومن طريف ما سمعته عن سماحته وعطفـه، أن بعـض عملائه التجار كانوا يتقاضون حقوقهم أكثر من مـرة؛ ظنًـا منهم أنه قد نسي ما دفعه لهم، وقد جاءه ذات مرة رجل كان قد باعه "تقاوي" قصب وقبض ثمنها، ليطالب بثمنهـا مـرة أخرى، فأمر جدي بصرف ثمنها له، وحاول كاتب الدائرة أن يلفت نظره، إلى أن هذا التاجر سبق أن استلم الثمن، ولـيس له أي شيء، فأجابه جدي: ادفع له الثمن لأنه لـم يتسـلمه، فدفعه له، وبعد مدة عاد التاجر نفسه يطالب بـثمن التقـاوي للمرة الثالثة، فثار الكاتب وقال لجدي أنه سـبق أن قـبض الثمن مرتين، ولكن جدي تناسى ذلك وقال للكاتـب: إننـي لا أتذكر، فاعطه نقوده، ولما هم الكاتب أن يثبت لجـدي أن



المبلغ قد دفع مرتين وأمسك بدفتر الحساب لإثبات ذلك، مد جدي يده إلى الدفتر وأغلقه، وأمر الكاتب بدفع المبلغ في الحال، وبعد انصراف الرجل، قال جدي للكاتب: ألا تستطيع أن تفهم أن الرجل ربما كان في ضائقة مالية، وأن مطالبته هذه ما هي إلا طلب مستتر للمعونة؟ في مثل هذه الحالات لا تعد مطلقًا إلى الإلحاح في تنبيهي، لأنني أتذكر جيدا ما لي وما علي!

ومن الطرائف التي تروى أيضا أن أحد مستخدميه غافل المسئولين وخرج ومعه "بلاص" عسل، وبينما هو خارج به من الدوار، وقد ركب حمارا، رأى جدي على خلاف عادته في الظهيرة جالسا أمام باب الدوار، فأسقط في يد الخادم واضطرب؛ لأنه كان يريد الترجل لتحية مخدومه، وأدرك جدي ما كان يعتمل في سريرة الخادم، فأسرع إليه وأمسك طرف عباءته وهو راكب، وغطى به البلاص وقال له: إذا لم يكن هذا الذي أمرت لك به كافيا لعيالك، فتعال إلي غدا لآمر لك بواحد آخر.



وكان هذا الموقف رفقًا بإحساس الرجل، حتى لا يشيع بين العمال والخدم أنه سارق، وتصبح هذه الحادثة سبة في جبينه.

ولقد كانت هذه المواقف وغيرها سببا في اجتذاب محبة مستخدميه وولائهم ووفائهم، فجازاه أحدهم في ابنه من بعده، وقصة ذلك أن والدي عندما اشترى تفتيش "دماريس" جعل يفكر في تدبير ما بقي عليه من ثمنه، ولاحظ انشغاله رجل مسن من مستخدمي والده فقال له: ما بك؟ فأجابه بأنني أفكر في تدبير باقي ثمن التفتيش الجديد، فقال الرجل: لا تفكر واتبعني، وتبعه والدي من حجرة إلى أخرى حتى وصلا إلى غرفة متطرفة مغلقة، وفتحها الرجل بمفتاح كان معه وأدخل والدي فيها، وجاء ببساط كبير من الصوف وفرشه على أرض الغرفة، ثم فتح "زلعة" وألقى ما بها من نقود فضية على البساط، وهكذا واحدة بعد الأخرى حتى وجد أبي نفسه أمام كومة كبيرة من النقود الفضية، فقال والدي للرجل: ما هذا؟ قال الرجل: هذه نقود تركها لك أبوك في ذمتي، وحلفني ألا أعطيها لك إلا إذا كنت محتاجا لها، وها هي قد نفعتك اليوم.

وقيل لي إن هذه النقود قد عبئت فـي جـوالات كثيـرة، وحملت على الدواب إلى المراكب حيث أرسلت للبنك.

وخلال الفترة التي كان فيها أبي في قلب الحياة العامـة، وقعت الحوادث العرابية، وقد تكون هذه فرصة لكـي أذكـر بعض ما أعرفه عن بعض مدعي الوطنية الذين اتهموا والدي بأنه ساعد على دخول الإنجليز نزولاً على إرادة الخـديوي توفيق.

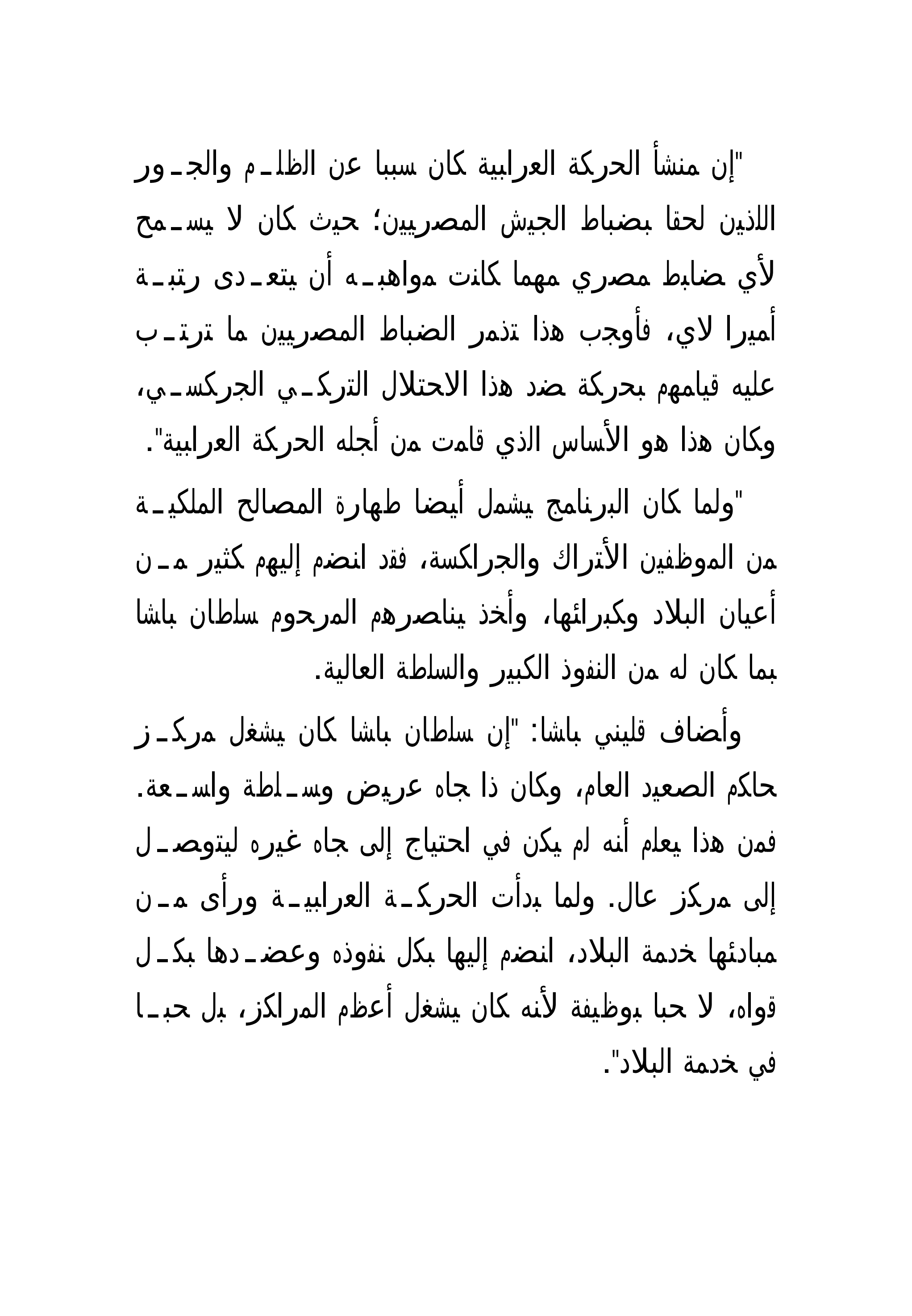
وليس أدل على أن ما ذكر كان مجافيا للحقيقـة، مـن أن الصحف كانت قد نشرت مذكرات منسوبة إلى عرابي باشـا بعد وفاته، وكان ما نشر يصادف هوى لدى أولي الأمر فـي ذلك الوقت. فلما تركوا زمام الحكم، جاء إلى عبـد السـميع أفندي عرابي يطلب مني المساهمة في طبع مذكرات أبيـه، فلما أبديت له دهشتي من أن يطلب طبع هذه المذكرات على نفقتي وفيها طعن في وطنية والدي كـذبا وبهتانًـا، أبـدى استعداده لحذف هذا الجزء من المذكرات، وكانت دهشتي هذه المرة أشد من سابقتها، وقد رفضت ذلك مقتنعة بأنه كما أراد حذف هذا الجزء بشرط المساعدة، فإنه لابد قد وضعه بشرط مثله خدمة لغرض آخر، وأسـفت أن هـذا حـدث شـفويا،

وإلا لكنت قد أدليت بالبرهان على كذب ما جـاء فـي هـذه المذكرات لعرابي باشا، ومع ذلك فسوف يأتي الحديث فيمـا بعد عن خطابين أرسلهما إلي عبد العزيـز وعبـد السـميع عرابي ابنا عرابي باشا.

وكان عبد السميع قد كتب مقالات في جريدة المحروسـة، ذكر فيها أن سلطان باشا كان من رؤساء الحركة الوطنيـة، وكان يظن أنه يستطيع بمواهـب عرابـي وقـوة الجـيش الحصول على رئاسة البرلمان، فأيـد عرابـي فـي جميـع الأحوال إلى أن فازت الأمة بالمجلس النيابي. ولكنه لما رأى الأمة تتحدث باسم عرابي بكل إعجاب وثناء تسرب الحسـد إلى نفسه. ولما تشكلت وزارة محمود باشا سامي كان يطمع أن يكون فيها وزيرا فلم يتحقق أمله.

وعلى ذلك أخذ يضلل أعضاء مجلس النـواب وغيـرهم وينفرهم من عرابي ويغريهم بالتخلي عنه. ولكنه لم يفز لأن الأمة بكل طبقاتها كانت في جانب عرابي إلى النهاية.

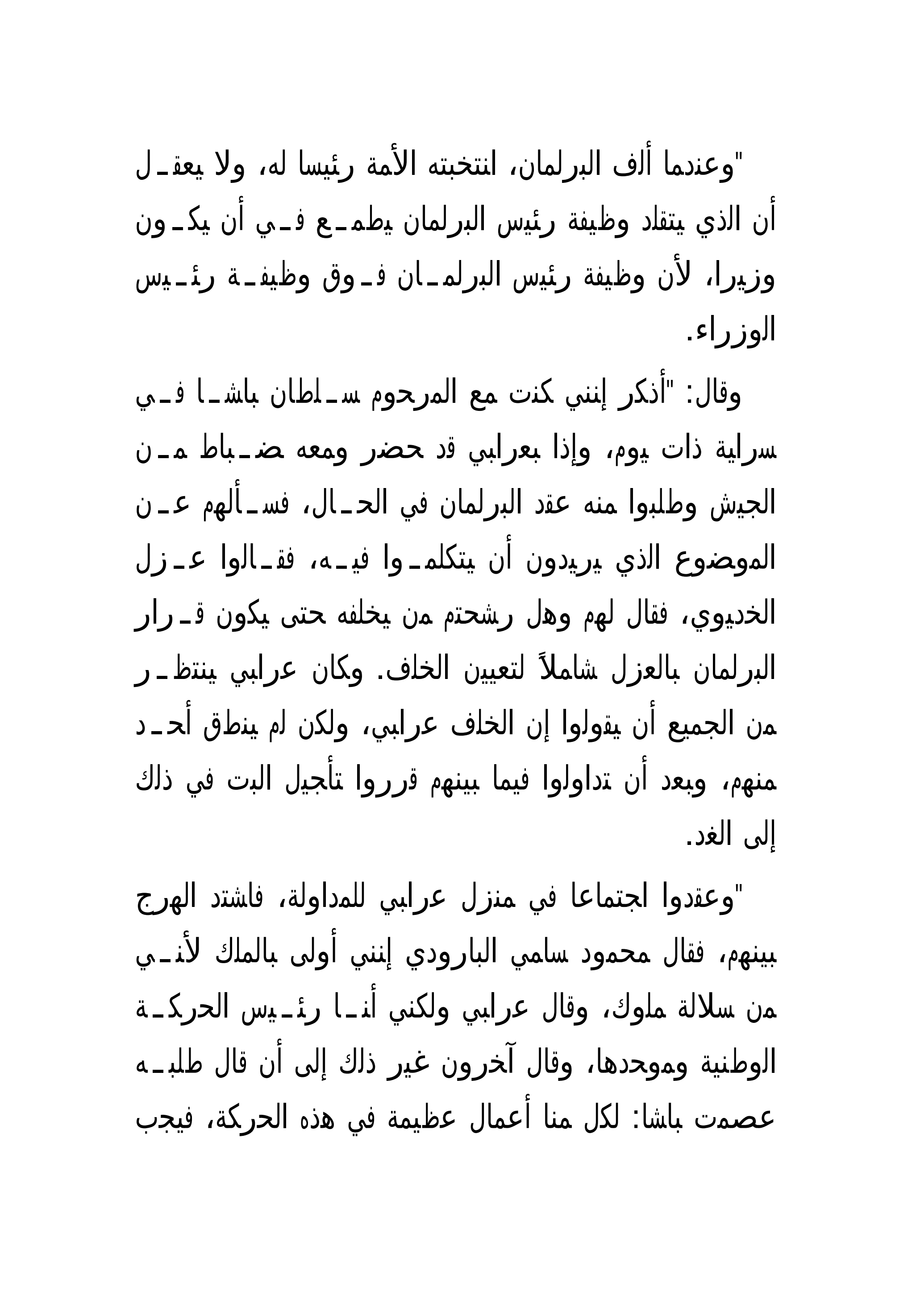
وقد تصدى له قليني باشا فهمي؛ حيث نشـر مقـالاً فـي جريدة المقطم يوم الأربعاء نوفمبر ١٩٢٣ قال فيه:



"إن منشأ الحركة العرابية كان سببا عن الظلم والجور الذين لحقا بضباط الجيش المصريين؛ حيث كان لا يسمح لأي ضابط مصري مهما كانت مواهبه أن يتعدى رتبة أميرا لاي، فأوجب هذا تذمر الضباط المصريين ما ترتب عليه قيامهم بحركة ضد هذا الاحتلال التركي الجركسي، وكان هذا هو الأساس الذي قامت من أجله الحركة العرابية".

"ولما كان البرنامج يشمل أيضا طهارة المصالح الملكية من الموظفين الأتراك والجراكسة، فقد انضم إليهم كثير من أعيان البلاد وكبرائها، وأخذ يناصرهم المرحوم سلطان باشا بما كان له من النفوذ الكبير والسلطة العالية.

وأضاف قليني باشا: "إن سلطان باشا كان يشغل مركز حاكم الصعيد العام، وكان ذا جاه عريض وسلطة واسعة. فمن هذا يعلم أنه لم يكن في احتياج إلى جاه غيره ليتوصل إلى مركز عال. ولما بدأت الحركة العرابية ورأى من مبادئها خدمة البلاد، انضم إليها بكل نفوذه وعضدها بكل قواه، لا حبا بوظيفة لأنه كان يشغل أعظم المراكز، بل حبا في خدمة البلاد".


"وعندما ألف البرلمان، انتخبته الأمة رئيسا له، ولا يعقـل أن الذي يتقلد وظيفة رئيس البرلمان يطمـع فـي أن يكـون وزيرا، لأن وظيفة رئيس البرلمـان فـوق وظيفـة رئـيس الوزراء.

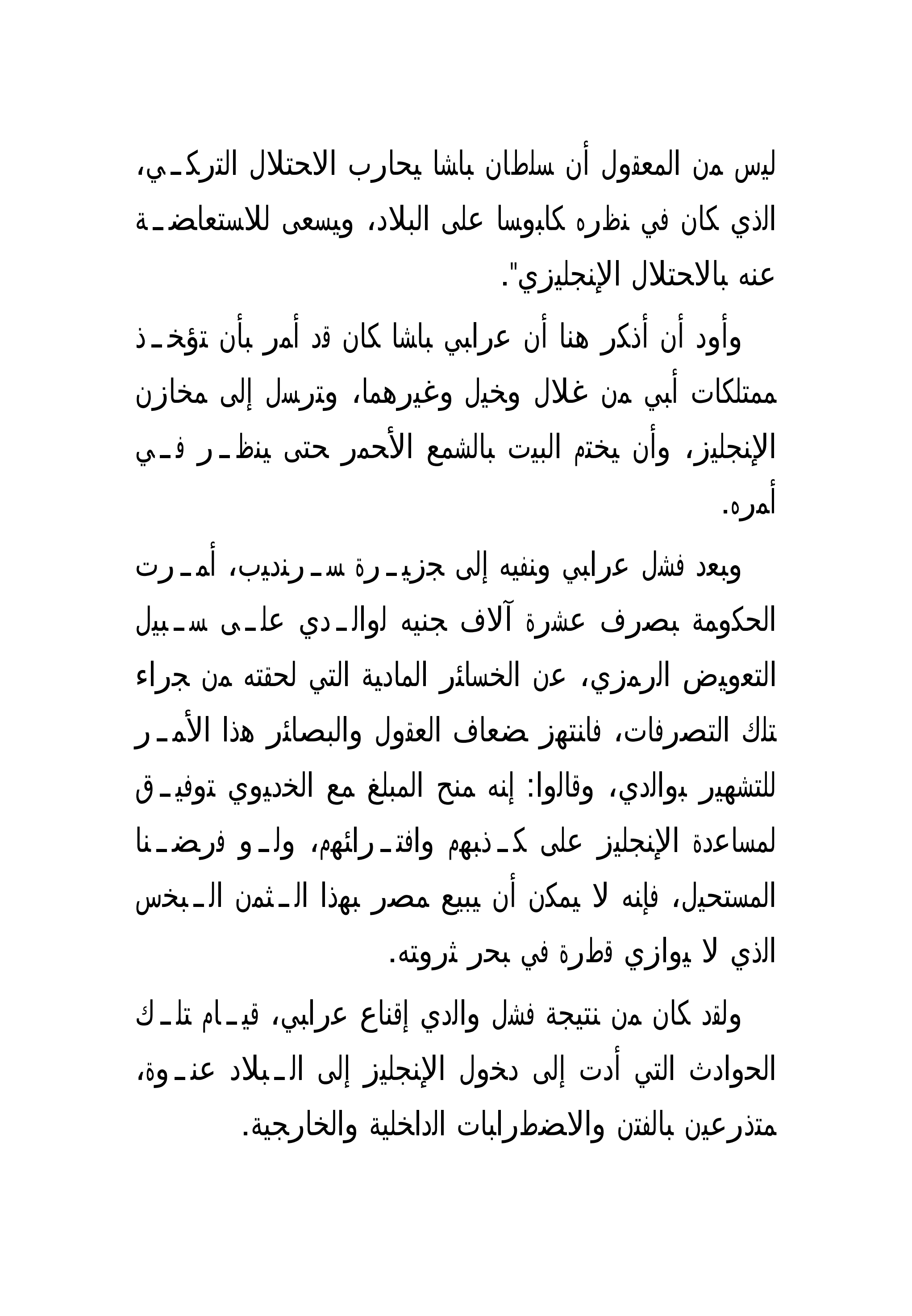
وقال: "أذكر إنني كنت مع المرحوم سـلطان باشـا فـي سراية ذات يوم، وإذا بعرابي قد حضر ومعه ضـباط مـن الجيش وطلبوا منه عقد البرلمان في الحـال، فسـألهم عـن الموضوع الذي يريدون أن يتكلمـوا فيـه، فقـالوا عـزل الخديوي، فقال لهم وهل رشحتم من يخلفه حتى يكون قـرار البرلمان بالعزل شاملاً لتعيين الخلف. وكان عرابي ينتظـر من الجميع أن يقولوا إن الخلف عرابي، ولكن لم ينطق أحـد منهم، وبعد أن تداولوا فيما بينهم قرروا تأجيل البت في ذلك إلى الغد.

"وعقدوا اجتماعا في منزل عرابي للمداولة، فاشتد الهرج بينهم، فقال محمود سامي البارودي إنني أولى بالملك لأنـي من سلالة ملوك، وقال عرابي ولكني أنـا رئـيس الحركـة الوطنية وموحدها، وقال آخرون غير ذلك إلى أن قال طلبـه عصمت باشا: لكل منا أعمال عظيمة في هذه الحركة، فيجب

أن نعامل كلنا بالسواء بلا تمييز واحد على الآخر، فيحسن أن نجعل كل مديرية خديوية قائمة بنفسها، وكل منا يكون خديوا لها. وحينئذ يئس عرابي، واستحسن مع الـبعض أن تبقـى الحالة كما هي عليه. وبعد ذلك توجه عرابي إلـى سـراي سلطان باشا، وشكره على نظره البعيد.

"نظر سلطان باشا إلى كل هذه الأحوال، وقال للعـرابيين إنه يحسن بالجيش المصري أن يقف عند هـذا الحـد، لأن الأجانب قلقون جدا من العسكرية الدائمة، فلم يرق هذا القول للعرابيين وعدوه خيانة مـن سـلطان باشـا، ولـم يعبئـوا بنصيحته، بل ظلوا على تهديد العرش مما استوجب مخاوف الخديوي، فاستغاث بأوربا لتساعده على خلاص عرشه مـن التهديد.

"وعند دخول الإنجليز إلى مصر، أراد سـلطان باشـا أن يتحقق إلى أي حد ترمي المقاصد الإنجليزية. فأكد الجنـرال دلسلي قائد الحملة أن مهمتهم هي إخماد الفتنة العرابية وحفظ العرش من التهديد. وبانتهاء ذلك تكون مهمتهم قـد انتهـت وينصرفون إلى بلادهم.. أكدوا هذا لسلطان باشا الذي كـان مشغوفًا بحب وطنه وخائفًا من سيطرة الإنجليز عليه، لأنـه



ليس من المعقول أن سلطان باشا يحارب الاحتلال التركـي، الذي كان في نظره كابوسا على البلاد، ويسعى للاستعاضـة عنه بالاحتلال الإنجليزي".

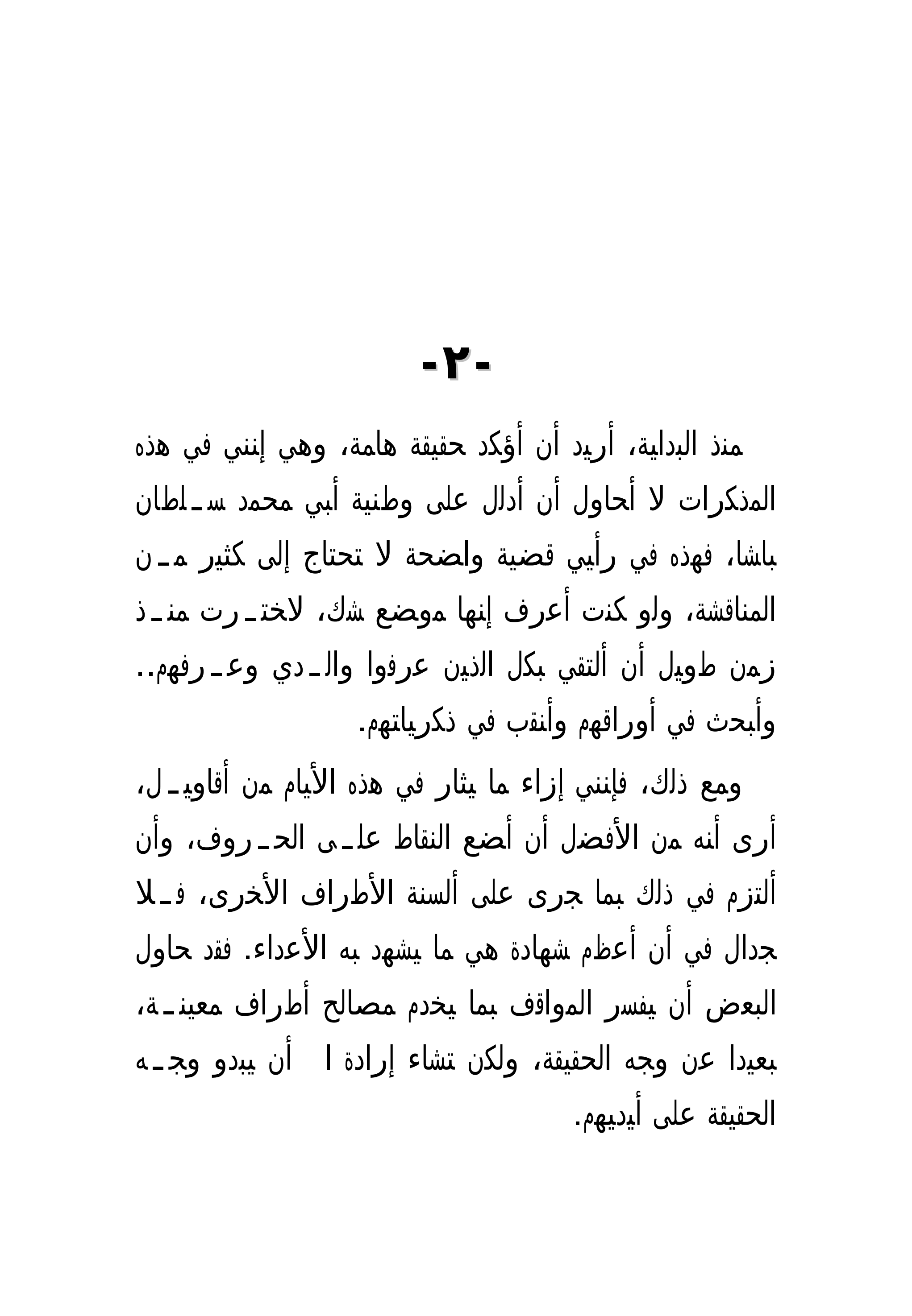
وأود أن أذكر هنا أن عرابي باشا كان قد أمر بأن تؤخـذ ممتلكات أبي من غلال وخيل وغيرهما، وترسل إلى مخازن الإنجليز، وأن يختم البيت بالشمع الأحمر حتى ينظـر فـي أمره.

وبعد فشل عرابي ونفيه إلى جزيـرة سـرنديب، أمـرت الحكومة بصرف عشرة آلاف جنيه لوالـدي علـى سـبيل التعويض الرمزي، عن الخسائر المادية التي لحقته من جراء تلك التصرفات، فانتهز ضعاف العقول والبصائر هذا الأمـر للتشهير بوالدي، وقالوا: إنه منح المبلغ مع الخديوي توفيـق لمساعدة الإنجليز على كـذبهم وافتـرائهم، ولـو فرضـنا المستحيل، فإنه لا يمكن أن يبيع مصر بهذا الـثمن الـبخس الذي لا يوازي قطرة في بحر ثروته.

ولقد كان من نتيجة فشل والدي إقناع عرابي، قيـام تلـك الحوادث التي أدت إلى دخول الإنجليز إلى الـبلاد عنـوة، متذرعين بالفتن والاضطرابات الداخلية والخارجية.

وما الذي كان يستطيع والدي أن يفعله إزاء الجيوش التي هزمت جيش عرابي؟

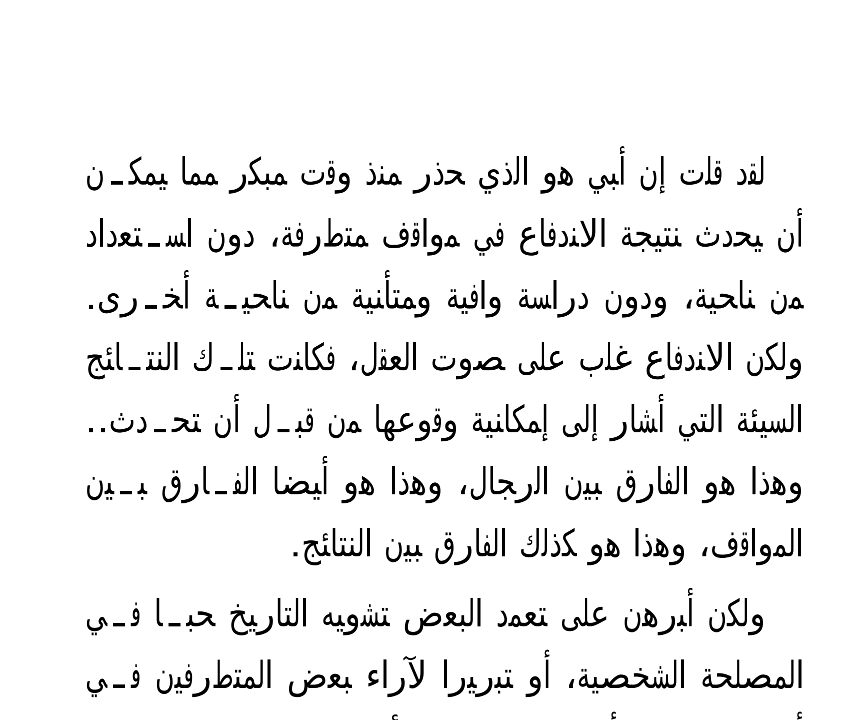
هل كان في إمكانه محاربتها والتغلب عليها، أو تصـديق ما كان يقال من إنهم مدافعون عن العرش واستتباب الأمـن وحماية الأجانب، بدلاً من أن يدخلوا فاتحين بحد السيف؟



-٢-

منذ البداية، أريد أن أؤكد حقيقة هامة، وهي إنني في هذه المذكرات لا أحاول أن أدلل على وطنية أبي محمد سـلطان باشا، فهذه في رأيي قضية واضحة لا تحتاج إلى كثير مـن المناقشة، ولو كنت أعرف إنها موضع شك، لاختـرت منـذ زمن طويل أن ألتقي بكل الذين عرفوا والـدي وعـرفهم.. وأبحث في أوراقهم وأنقب في ذكرياتهم.

ومع ذلك، فإنني إزاء ما يثار في هذه الأيام من أقاويـل، أرى أنه من الأفضل أن أضع النقاط علـى الحـروف، وأن ألتزم في ذلك بما جرى على ألسنة الأطراف الأخرى، فـلا جدال في أن أعظم شهادة هي ما يشهد به الأعداء. فقد حاول البعض أن يفسر المواقف بما يخدم مصالح أطراف معينـة، بعيدا عن وجه الحقيقة، ولكن تشاء إرادة ا أن يبدو وجـه الحقيقة على أيديهم.



لقد قلت إن أبي هو الذي حذر منذ وقت مبكر مما يمكن أن يحدث نتيجة الاندفاع في مواقف متطرفة، دون استعداد من ناحية، ودون دراسة وافية ومتأنية من ناحية أخرى. ولكن الاندفاع غلب على صوت العقل، فكانت تلك النتائج السيئة التي أشار إلى إمكانية وقوعها من قبل أن تحدث.. وهذا هو الفارق بين الرجال، وهذا هو أيضا الفارق بين المواقف، وهذا هو كذلك الفارق بين النتائج.

ولكن أبرهن على تعمد البعض تشويه التاريخ حبا في المصلحة الشخصية، أو تبريرا لآراء بعض المتطرفين في أفكارهم، فإنني أسجل هنا كلمة الأستاذ حسن القاياتي التي نشرت بجريدة الأهرام الغراء بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٢٠ بعنوان "حول عرابي". وفيها يقول:

"كتب عبد السميع عرابي في "المنبر" الكلمة الآتية فيما يدافع به عن أبيه زعيم الثورة. قال: في يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ كان عرابي يصلي الفجر، فسمع ضرب المدافع بشدة، ولما تفقد الأمر وجد الضرب على طول خط الاستحكام، وأن الاستحكامات تضرب المركز العمومي الذي يبعد عنها نحو أربعة آلاف متر، ولما لم يكن هناك غير

الأهالي المتطوعين مع (المدعو) الشيخ محمد عبـد الجـواد وأخيه وجابر بك من بندر ببا، وكانوا جميعا نحـو الألفـين، دعاهم للهجوم على بطارية الأعداء فامتنعوا. وما زال بهـم يذكرهم بالوطن وواجب الجهاد إلى آخر عبارات الاسـتفزاز المشتعلة في مثل هذا المقام حتى يئس مـن نفعهـم وحتـى تفرقوا جميعا فرارا من هول الموقف".

"تلك كلمة عبد السميع بك عرابي فيما يفصح به عن أبيه ويؤيد به فعلته في ذلك الموقف. أما أنا فلم تتقدم بي العـين إلى شهود تلك الموقعة، وأنا أؤيد بأن أباه كان رجلاً مخلصا بر الطوية نبيل النزعة في ثورته، ولكني على ذلك ناقل هذه الحقيقة عمن شاهدها، فأدى ما سمع وأبلغ مـا رأى؛ قضـاء لحق التاريخ والعلم".

"حدثني رجل خصيص بالشيخ محمد عبد الجواد القايـاتي (والد كاتب هذه الكلمة) حضر معه الموقعة. قـال: بعـد أن وقعت الهزيمة على الجيش المصري العرابي، وحقت كلمـة الفشل والخزي، لم يرعني إلا عرابي باشا على فرس ضامر ينهب به الأرض نهبا ويطير به في كـل مطـار، حتـى إذا اجتاز السرادق الذي كان فيه الشيخ محمد عبد الجواد وأخوه

الشيخ أحمد عبد الجواد، جعل ينادي ويهتـف: "يـا سـيدنا الشيخ.. لقد ضاعت البلد.. دافعوا عن المسلمين" في أمثـال هذه الكلمات الجوفاء، فأجابه الشيخ محمد عبد الجواد بكلمات فيها شتم وتحقير ورمي بالخيانة.. ثم مر عرابـي لا يلـوي على شيء، وكيف تستطيع المتطوعة القتـال بعـد هزيمـة الجيش؟؟".

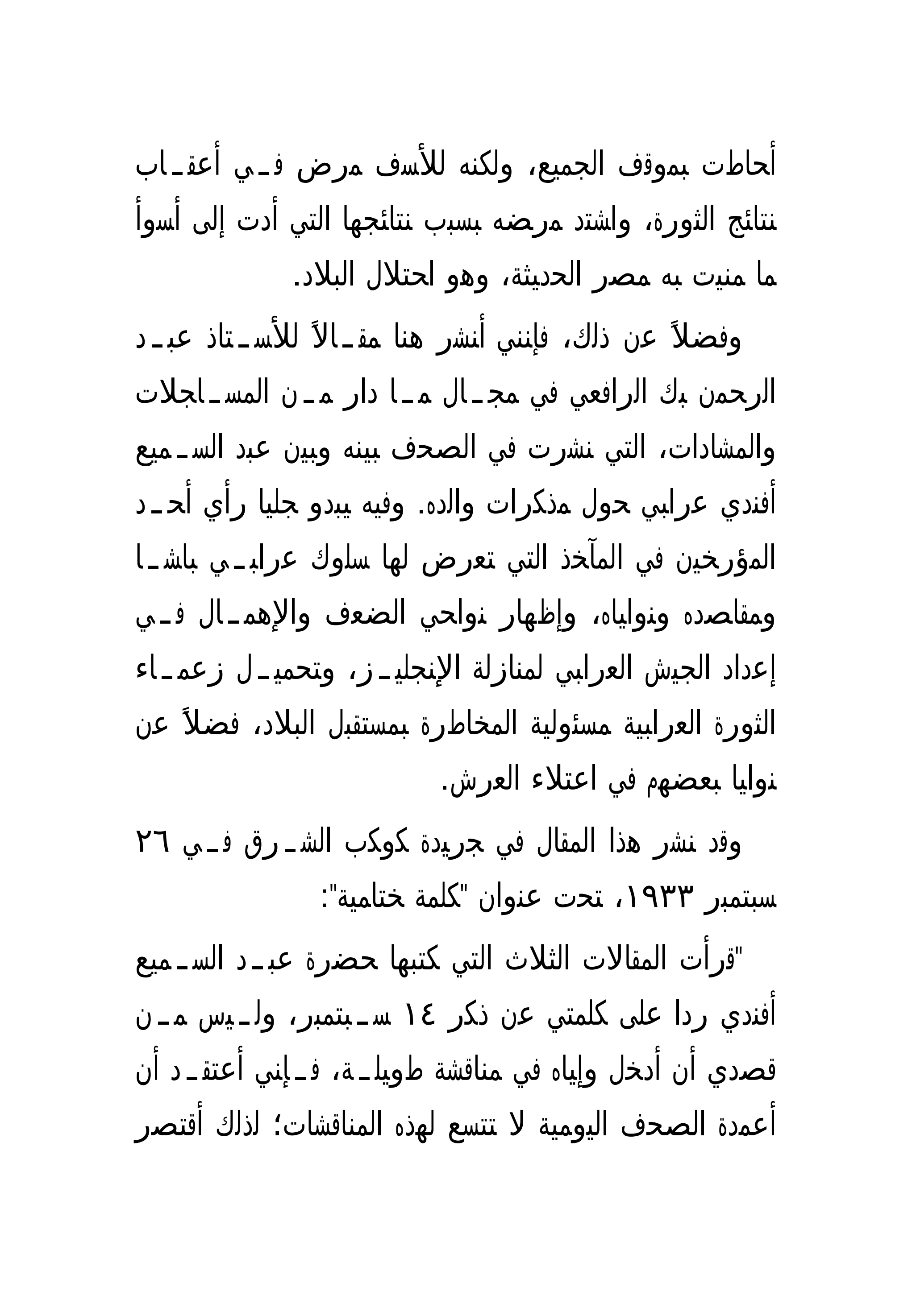
ومن ناحية أخرى، فقد وصلني خطاب من الأستاذ عبـد السميع أفندي عرابي بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٢٦، وفي هـذا الخطاب يسترعي الالتفات عبارة يقول فيها: "هذه المجهودات الوطنية وما لبيتكم من الآثار الجليلة فيهـا". وأعتقـد تمـام الاعتقاد أن هذا الوضع هو المطابق تمام المطابقة لما جـاء في المذكرات الأصلية لعرابي باشا، لأنه ما كـان يسـتطيع تدوين غير الحقيقة هو وغيره من المعاصرين له على قيـد الحياة. ولو كان الموقف بالنسبة لوالدي غير ذلك، لما أقـر واعترف عبد السميع أفندي كتابة بما بيننا من الآثار الجليلـة في هذه المجهودات الوطنية، وإلا لكان مخالفًا لواقع وحقيقـة مذكرات والده، ولكن المحير في الأمـر أن يعتـرف عبـد السميع أفندي بالآثار الجليلة لبيتنـا فـي هـذه المجهـودات

الوطنية قبل طبعها، ثم يرمي والدي بضد هذه الآثـار بعـد الطبع؟!

ومما يحقق اعتقادي بعدم صحة كل ما أثاره المغرضـون حول والدي، خطاب آخر وصلني من عبد العزيـز أفنـدي عرابي مع نسخة مهداة إلي من الجـزء الأول مـن تـاريخ والده، وفيه يسجل قراره بخطه أن والدي قد اشترك في تلك الثورة؛ إذ قال: هذه نسخة من الجزء الأول من تاريخ والدي رحمه ا عن الثورة العرابية التي اشترك فيها ساكن الجنان سلطان باشا، وكان فيها من المبرزين. ويقول أيضا: فحسبي أن أتقدم بهذه الهدية وفاء لوالدك الذي له حقه علينا.

ولعل مثار دهشتي من الخطابين اتفاقهما قبل الطبع علـى ذكر أفضال والدي، والإشادة بمواقفه ومجهوداته والرغبة في خدمة الحقيقة والتاريخ، ثم ظهور بعض الشوائب التي أحيط بها والدي، الذي كان بـالأمس محـل التقـدير لمجهوداتـه الوطنية، والذي كان من المبرزين في تلك الثورة!..

ومن هذا الاستشهاد وغيره من مجريات الحوادث يستطيع القارئ أن يتبين أين الحقيقة، ولو عاش والدي بضع سـنين أخر، لاستطاع أن يكشف النقاب عن كثير من الأسرار التي

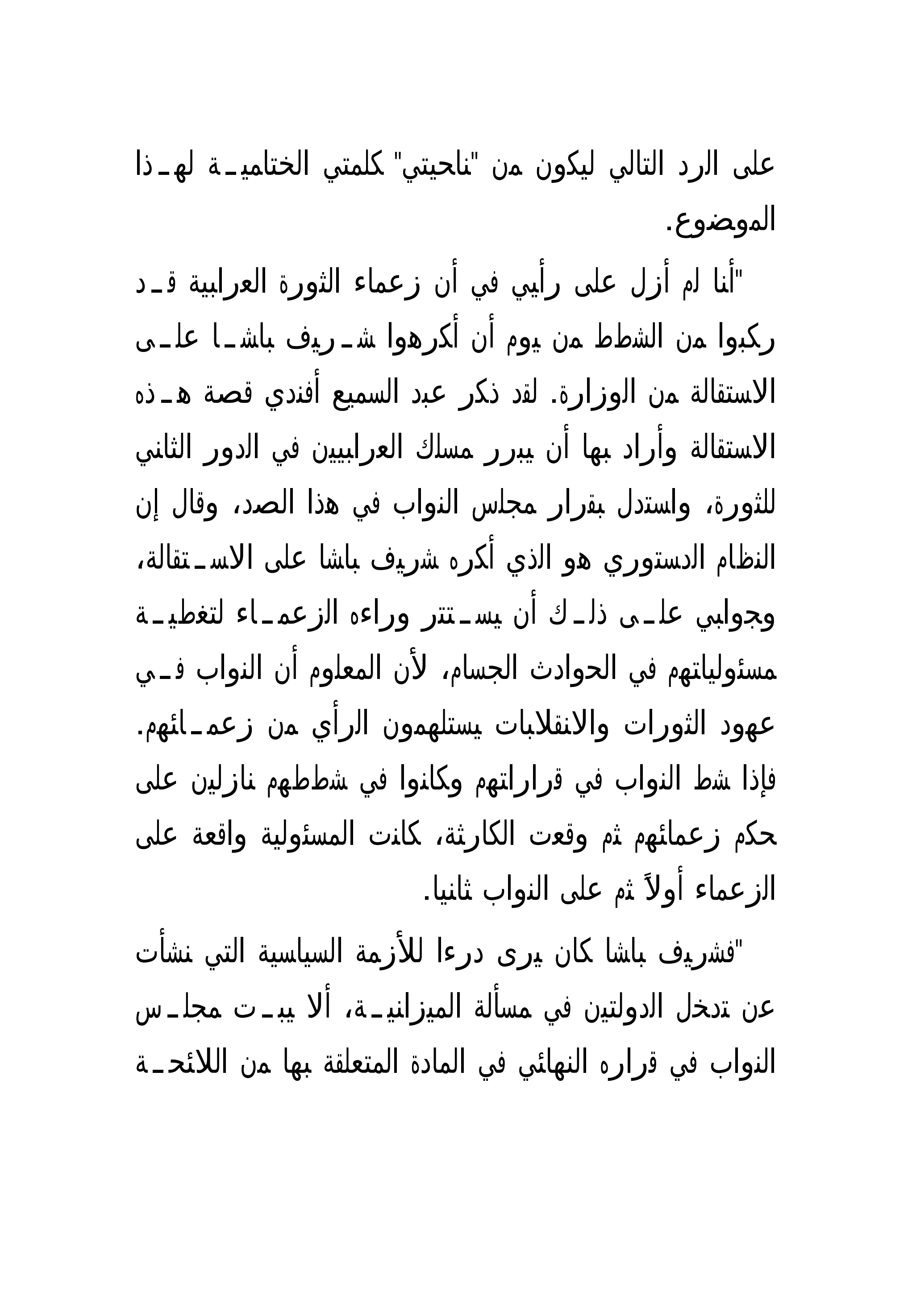


أحاطت بموقف الجميع، ولكنه للأسف مرض فـي أعقـاب نتائج الثورة، واشتد مرضه بسبب نتائجها التي أدت إلى أسوأ ما منيت به مصر الحديثة، وهو احتلال البلاد.

وفضلاً عن ذلك، فإنني أنشر هنا مقـالاً للأسـتاذ عبـد الرحمن بك الرافعي في مجـال مـا دار مـن المسـاجلات والمشادات، التي نشرت في الصحف بينه وبين عبد السـميع أفندي عرابي حول مذكرات والده. وفيه يبدو جليا رأي أحـد المؤرخين في المآخذ التي تعرض لها سلوك عرابـي باشـا ومقاصده ونواياه، وإظهار نواحي الضعف والإهمـال فـي إعداد الجيش العرابي لمنازلة الإنجليـز، وتحميـل زعمـاء الثورة العرابية مسئولية المخاطرة بمستقبل البلاد، فضلاً عن نوايا بعضهم في اعتلاء العرش.

وقد نشر هذا المقال في جريدة كوكب الشـرق فـي ٢٦ سبتمبر ١٩٣٣، تحت عنوان "كلمة ختامية":

"قرأت المقالات الثلاث التي كتبها حضرة عبـد السـميع أفندي ردا على كلمتي عن ذكر ١٤ سـبتمبر، ولـيس مـن قصدي أن أدخل وإياه في مناقشة طويلـة، فـإني أعتقـد أن أعمدة الصحف اليومية لا تتسع لهذه المناقشات؛ لذلك أقتصر



على الرد التالي ليكون من "ناحيتي" كلمتي الختاميـة لهـذا الموضوع.

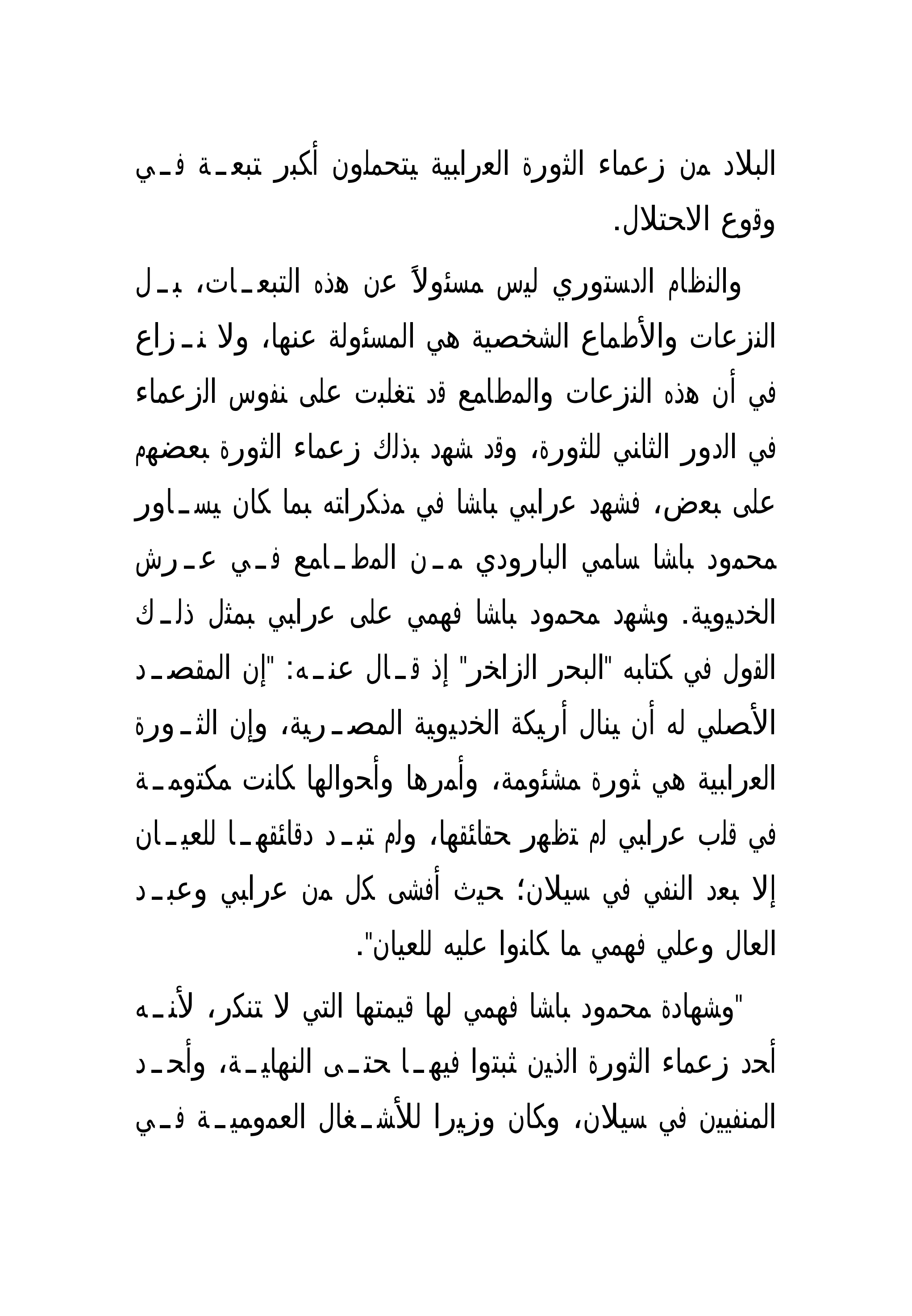
"أنا لم أزل على رأيي في أن زعماء الثورة العرابية قـد ركبوا من الشطط من يوم أن أكرهوا شـريف باشـا علـى الاستقالة من الوزارة. لقد ذكر عبد السميع أفندي قصة هـذه الاستقالة وأراد بها أن يبرر مسلك العرابيين في الدور الثاني للثورة، واستدل بقرار مجلس النواب في هذا الصدد، وقال إن النظام الدستوري هو الذي أكره شريف باشا على الاسـتقالة، وجوابي علـى ذلـك أن يسـتتر وراءه الزعمـاء لتغطيـة مسئولياتهم في الحوادث الجسام، لأن المعلوم أن النواب فـي عهود الثورات والانقلابات يستلهمون الرأي من زعمـائهم. فإذا شط النواب في قراراتهم وكانوا في شططهم نازلين على حكم زعمائهم ثم وقعت الكارثة، كانت المسئولية واقعة على الزعماء أولاً ثم على النواب ثانيا.

"فشريف باشا كان يرى درءا للأزمة السياسية التي نشأت عن تدخل الدولتين في مسألة الميزانيـة، ألا يبـت مجلـس النواب في قراره النهائي في المادة المتعلقة بها من اللائحـة

الأساسية ويرجئها إلى حين تنتهي الغمـة؛ وبـذلك يتفـادى التدخل المسلح من جانب إنجلترا وفرنسا.

والتأجيل في ذاته لم يكن مضـيعا لحقـوق الأمـة؛ لأن وضع الدستور قد يستغرق زمنًا يطول أو يقصر على حسب الظروف والملابسات، والتأجيل كثيرا ما يكون وسيلة لحـل بعض الأزمات السياسية، ولكن العرابيين رفضوا الأخذ برأي شريف باشا؛ لأنهم رأوا في هذه الأزمة فرصـة للاسـتئثار بالحكم وتولية أحد زعمائهم رئاسة الـوزارة بعـد إقصـاء شريف باشا عنها. وقد تم لهم ما دبروه واستقال شريف باشا، وتولى الرئاسة محمود باشا سامي البارودي. ومـن يومئـذ تلاحقت الأحداث والخطوب حتى انتهت بالاحتلال.

"فالعرابيون قد عرضوا البلاد للتدخل المسلح من جانـب إنجلترا.. ويا ليتهم عرضوها لهذا التدخل بعـد أن أحسـنوا الاستعداد للحرب والقتال، فإن الحكمة والسياسة تقضي على أقوى الدول الحربية أن تأخذ عدتها للحرب قبـل أن تغـامر فيها. ولكن العرابيين غامروا بمستقبل البلاد في وقت كانـت عوامل الضعف والارتباك قد نالت من قوة الجيش ومكانتـه. فكان ما كان من هزائم سنة ١٨٨٢. فالذين خاطروا بمستقبل



البلاد من زعماء الثورة العرابية يتحملون أكبر تبعة في وقوع الاحتلال.

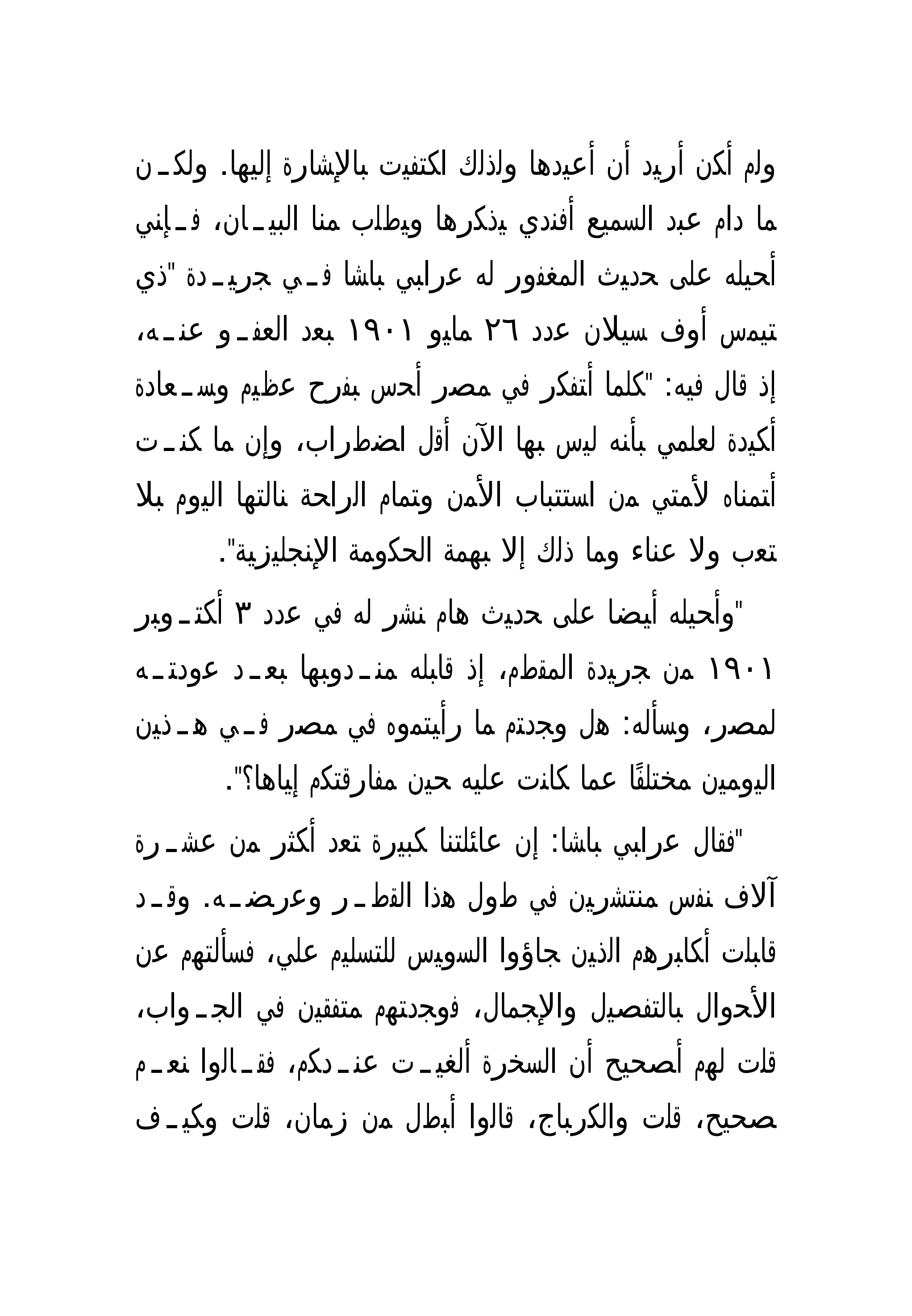
والنظام الدستوري ليس مسئولاً عن هذه التبعات، بل النزعات والأطماع الشخصية هي المسئولة عنها، ولا نزاع في أن هذه النزعات والمطامع قد تغلبت على نفوس الزعماء في الدور الثاني للثورة، وقد شهد بذلك زعماء الثورة بعضهم على بعض، فشهد عرابي باشا في مذكراته بما كان يساور محمود باشا سامي البارودي من المطامع في عرش الخديوية. وشهد محمود باشا فهمي على عرابي بمثل ذلك القول في كتابه "البحر الزاخر" إذ قال عنه: "إن المقصد الأصلي له أن ينال أريكة الخديوية المصرية، وإن الثورة العرابية هي ثورة مشئومة، وأمرها وأحوالها كانت مكتومة في قلب عرابي لم تظهر حقائقها، ولم تبد دقائقها للعيان إلا بعد النفي في سيلان؛ حيث أفشى كل من عرابي وعبد العال وعلي فهمي ما كانوا عليه للعيان".

"وشهادة محمود باشا فهمي لها قيمتها التي لا تنكر، لأنه أحد زعماء الثورة الذين ثبتوا فيها حتى النهاية، وأحد المنفيين في سيلان، وكان وزيرا للأشغال العمومية في

"وزارة الثورة" التي كان يرأسها البارودي، وفيها كان عرابي وزيرا للحربية، وكان فوق ذلك رئيسا لأركان حرب الجيش العرابي في وقائع سنة ١٨٨٢ فأقواله حجة، وثمـة شـهادة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فإنه كان يتوقع الشـر مـن الثورة العرابية، ويقول "إنها قد تجر إلى البلاد احتلالاً أجنبيا يستدعي تسجيل اللعنة علـى مسـببه إلـى يـوم القيامـة". وقد تحقق مع الأسف ما كان يتوقعه، وأنهت الثورة باحتلال الإنجليزي الذي تعانيه البلاد إلى اليوم.

"أما طعن عبد السميع أفندي في أمثال الشيخ محمد عبـده ومحمد باشا فهمي، فنحسب أنه لا ينقص من قيمة آرائهمـا شيئًا، وثمة كلمة أخرى أرد بها على عبد السميع أفندي، فإنه يسألني: "ما هي تلك الآراء والتصريحات التـي أدلـى بهـا عرابي حين عودته إلى مصر وكـان فيهـا تأييـد مطلـق للاحتلال الإنجليزي؟ هذه تهمة خطيرة يحسن ألا يقذف بهـا هكذا جزافًا من غير أن تقترن بالبينة"؟

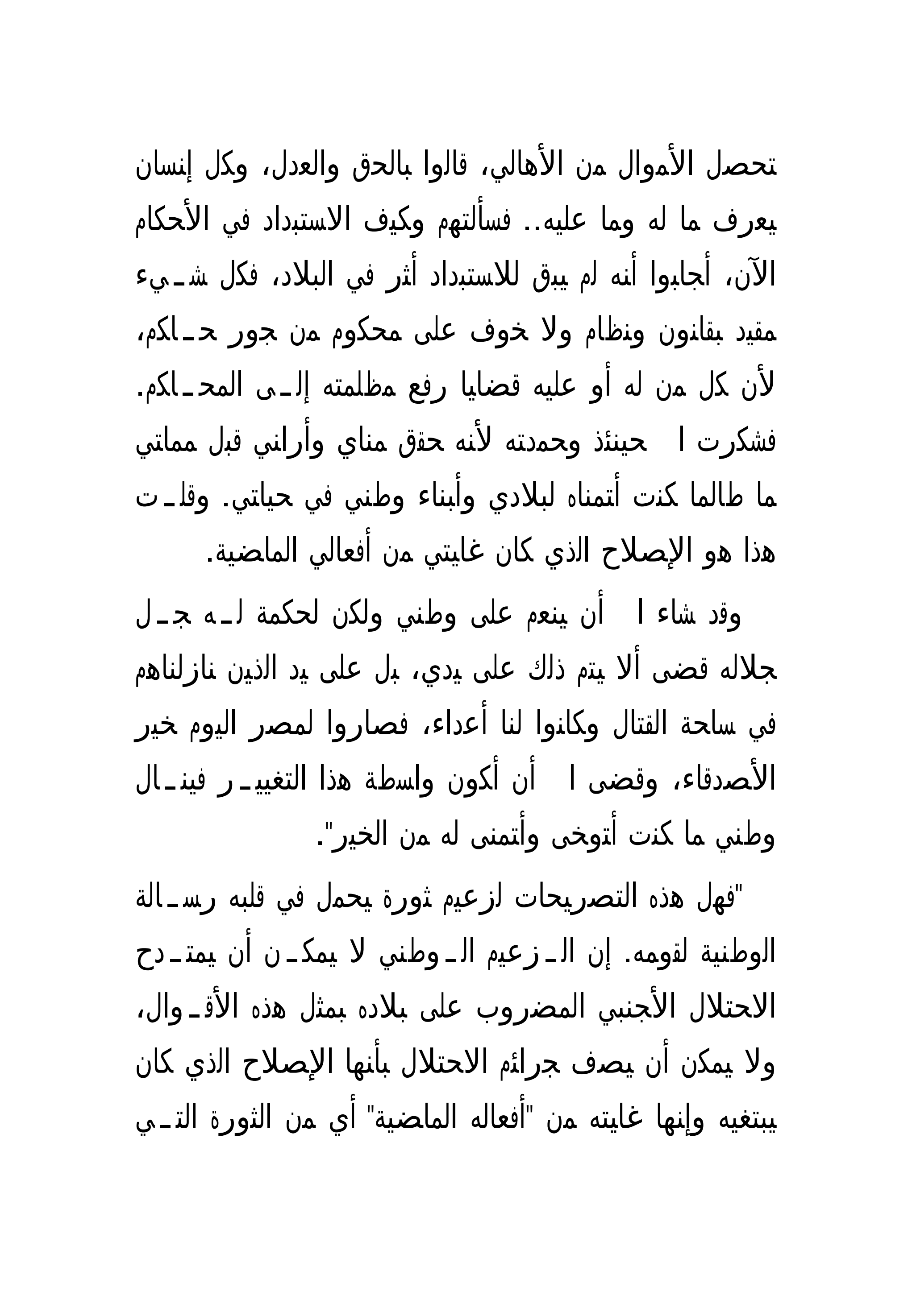
"ويلوح لي أن هذا السؤال هو من قبيل تجاهل العـارف، فإن عبد السميع أفندي وهو أحرص الناس على كل مـا لـه علاقة بتاريخ عرابي باشا، لا يمكن أن تفوته تلك الأحاديث.



ولم أكن أريد أن أعيدها ولذلك اكتفيت بالإشارة إليها. ولكـن ما دام عبد السميع أفندي يذكرها ويطلب منا البيـان، فـإني أحيله على حديث المغفور له عرابي باشا فـي جريـدة "ذي تيمس أوف سيلان عدد ٢٦ مايو ١٩٠١ بعد العفـو عنـه، إذ قال فيه: "كلما أتفكر في مصر أحس بفرح عظيم وسـعادة أكيدة لعلمي بأنه ليس بها الآن أقل اضطراب، وإن ما كنـت أتمناه لأمتي من استتباب الأمن وتمام الراحة نالتها اليوم بلا تعب ولا عناء وما ذلك إلا بهمة الحكومة الإنجليزية".

"وأحيله أيضا على حديث هام نشر له في عدد ٣ أكتـوبر ١٩٠١ من جريدة المقطم، إذ قابله منـدوبها بعـد عودتـه لمصر، وسأله: هل وجدتم ما رأيتموه في مصر فـي هـذين اليومين مختلفًا عما كانت عليه حين مفارقتكم إياها؟".

"فقال عرابي باشا: إن عائلتنا كبيرة تعد أكثر من عشـرة آلاف نفس منتشرين في طول هذا القطـر وعرضـه. وقـد قابلت أكابرهم الذين جاؤوا السويس للتسليم علي، فسألتهم عن الأحوال بالتفصيل والإجمال، فوجدتهم متفقين في الجـواب، قلت لهم أصحيح أن السخرة ألغيـت عنـدكم، فقـالوا نعـم صحيح، قلت والكرباج، قالوا أبطل من زمان، قلت وكيـف

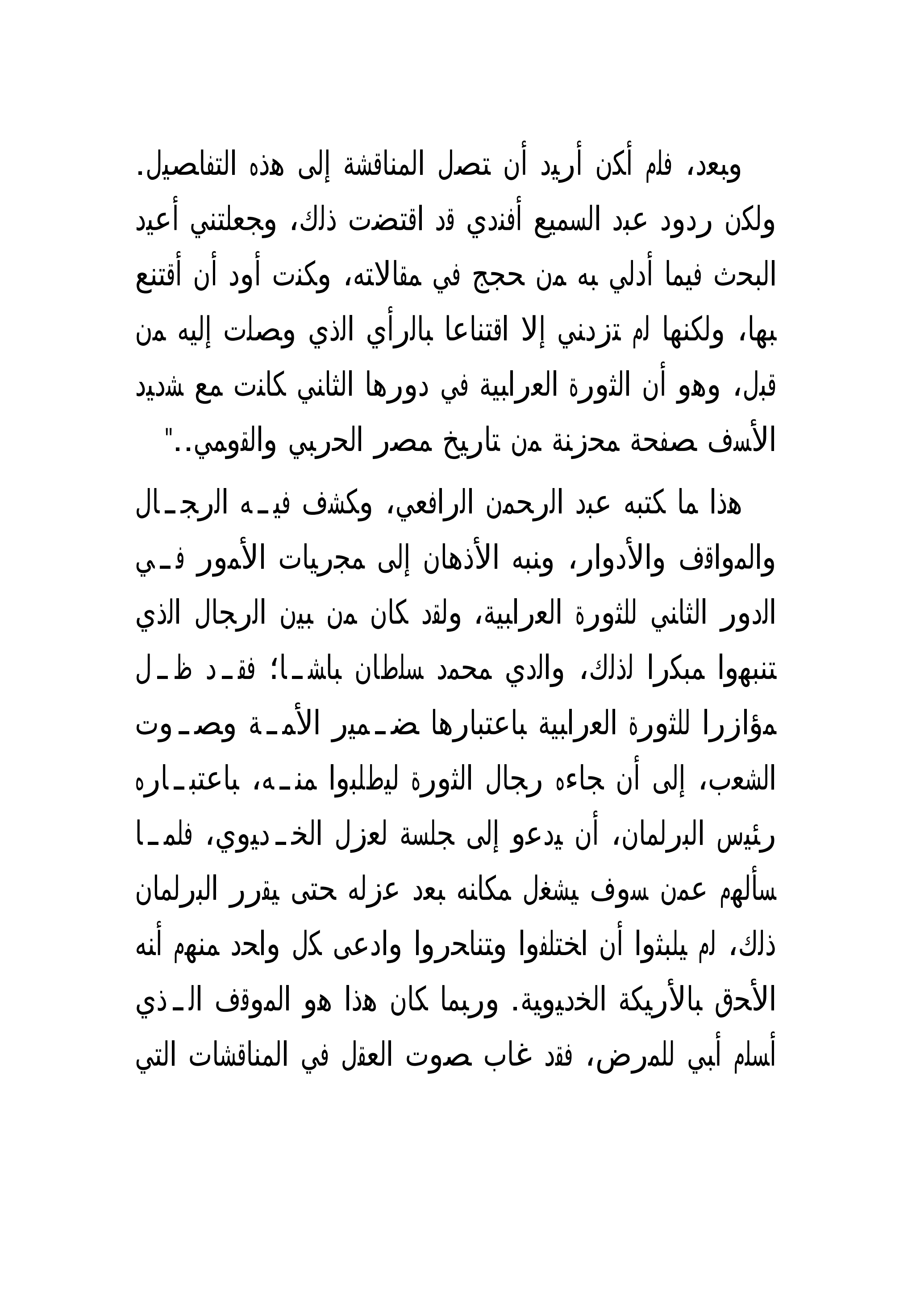

تحصل الأموال من الأهالي، قالوا بالحق والعدل، وكل إنسان يعرف ما له وما عليه.. فسألتهم وكيف الاستبداد في الأحكام الآن، أجابوا أنه لم يبق للاستبداد أثر في البلاد، فكل شـيء مقيد بقانون ونظام ولا خوف على محكوم من جور حـاكم، لأن كل من له أو عليه قضايا رفع مظلمته إلـى المحـاكم. فشكرت ا حينئذ وحمدته لأنه حقق مناي وأراني قبل مماتي ما طالما كنت أتمناه لبلادي وأبناء وطني في حياتي. وقلـت هذا هو الإصلاح الذي كان غايتي من أفعالي الماضية.

وقد شاء ا أن ينعم على وطني ولكن لحكمة لـه جـل جلاله قضى ألا يتم ذلك على يدي، بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال وكانوا لنا أعداء، فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء، وقضى ا أن أكون واسطة هذا التغييـر فينـال وطني ما كنت أتوخى وأتمنى له من الخير".

"فهل هذه التصريحات لزعيم ثورة يحمل في قلبه رسـالة الوطنية لقومه. إن الـزعيم الـوطني لا يمكـن أن يمتـدح الاحتلال الأجنبي المضروب على بلاده بمثل هذه الأقـوال، ولا يمكن أن يصف جرائم الاحتلال بأنها الإصلاح الذي كان يبتغيه وإنها غايته من "أفعاله الماضية" أي من الثورة التـي

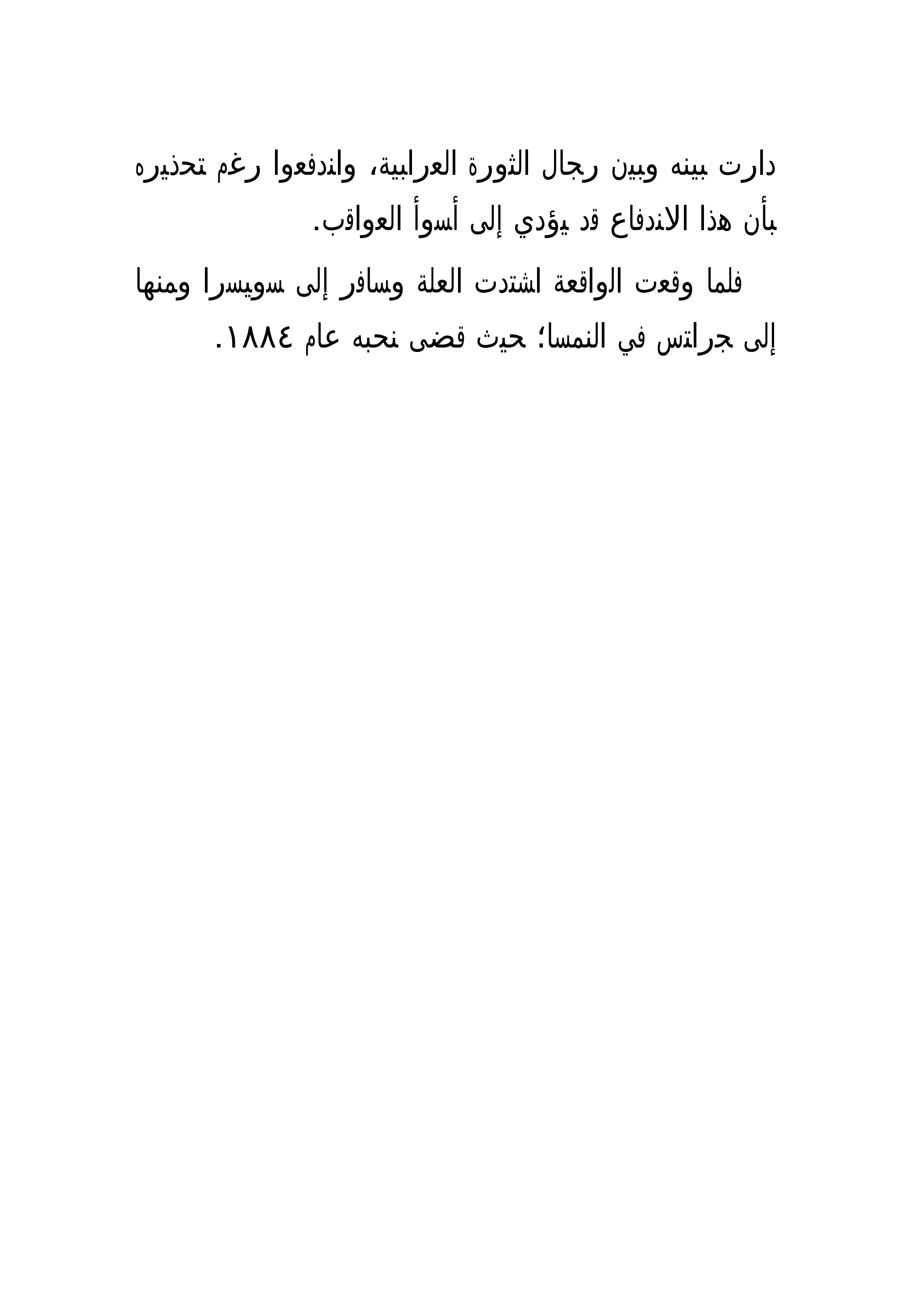
حمل لواءها وتولى زعامتها. هذا إلى أن عرابي باشا يمـن على بلاده في هذا الحديث بأن الإنجليز قد أبطلـوا السـخرة والكرباج ونظموا المحاكم وأقاموا منار العدل فيهـا، وهـو لعمري قد ظلم مصر بقوله هذا ولم ينصف الحقيقة والتاريخ، فإن السخرة والكرباج قد أبطلا في عهد وزارة رياض باشـا الأولى سنة ١٨٨٠ قبل الاحتلال، ونظام المحاكم الحالي قـد تقرر بادئ ذي بدء في عهد وزارة شـريف باشـا الثانيـة بمقتضى المرسوم الصادر فـي ١٧ سـبتمبر ١٨٨١ قبـل الاحتلال أيضا.

"ومن تهكم الأقدار ومن المؤلم حقًا أن زعيم الحركة التي قامت في الأصل لتخليص الجيش من سيطرة شـرذمة مـن الشراكسة، يغتبط بوقوع مصر تحت سيطرة الإنجليز. وكانوا يوم أن أدلى بهذا الحديث قد مضى عليهم عشـرون عامـا قضوا فيها على استقلال البلاد وحريتها، وسلخوا السـودان عنها، وجعلوا أملاكها ومرافقها نهبا مقسما بينهم وبين الدول الاستعمارية، واغتصبوا سـلطة الحكـم وأفسـدوا الجـيش والإدارة والتعليم والأخلاق في البلاد.



وبعد، فلم أكن أريد أن تصل المناقشة إلى هذه التفاصيل. ولكن ردود عبد السميع أفندي قد اقتضت ذلك، وجعلتني أعيد البحث فيما أدلي به من حجج في مقالاته، وكنت أود أن أقتنع بها، ولكنها لم تزدني إلا اقتناعا بالرأي الذي وصلت إليه من قبل، وهو أن الثورة العرابية في دورها الثاني كانت مع شديد الأسف صفحة محزنة من تاريخ مصر الحربي والقومي.."

هذا ما كتبه عبد الرحمن الرافعي، وكشف فيـه الرجـال والمواقف والأدوار، ونبه الأذهان إلى مجريات الأمور فـي الدور الثاني للثورة العرابية، ولقد كان من بين الرجال الذي تنبهوا مبكرا لذلك، والدي محمد سلطان باشـا؛ فقـد ظـل مؤازرا للثورة العرابية باعتبارها ضـمير الأمـة وصـوت الشعب، إلى أن جاءه رجال الثورة ليطلبوا منـه، باعتبـاره رئيس البرلمان، أن يدعو إلى جلسة لعزل الخـديوي، فلمـا سألهم عمن سوف يشغل مكانه بعد عزله حتى يقرر البرلمان ذلك، لم يلبثوا أن اختلفوا وتناحروا وادعى كل واحد منهم أنه الأحق بالأريكة الخديوية. وربما كان هذا هو الموقف الـذي أسلم أبي للمرض، فقد غاب صوت العقل في المناقشات التي



دارت بينه وبين رجال الثورة العرابية، واندفعوا رغم تحذيره بأن هذا الاندفاع قد يؤدي إلى أسوأ العواقب.

فلما وقعت الواقعة اشتدت العلة وسافر إلى سويسرا ومنها إلى جراتس في النمسا؛ حيث قضى نحبه عام ١٨٨٤.

-٣-

كانت والدتي لم تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها بعـد عندما مات والدي في مدينة جراتس بالنمسا.

إنني ما زالت حتى الآن أتذكر يوم وصل إلينا نعي والدي الحبيب. ثم أيام الحزن العميق التـي اجتزناهـا، والسـنين المدلهمة الطويلة التي جال فيها السواد كـل أثـاث المنـزل ورياشه.

لقد وقع الخبـر مثـل الصـاعقة علـى رأس والـدتي، وما زلت أذكر صورتها وهي طريحـة الفـراش يعودهـا الأطباء من آن لآخر، وكانوا يأخذونني أنـا وأخـي فنقـف بجانب فراشها، وإذ ذاك تنظر إلينا بحزن ثم تخنقها العبرات وتدس رأسها تحت الغطاء، وهي تقـول: أبعـدوا الطفلـين عني!..

وعندما كنا نذهب إلى الغرفة المجاورة.. عند والدة أخـي إسماعيل.. التي كنا نناديها باسم "ماما الكبيرة".. كنا نشـاهد منظرا أقسى لشابة أخرى فقدت ابنها قبل وفاة زوجها، ففقدت كل أمل في الحياة، ومرضت مرضا ألزمها الفراش طـوال السنوات الثماني التي عاشتها بعد ولدها، وعندما كـان يلـح عليها من حولها لترك الفراش وترييض جسمها، كانت تذعن في النهاية تحت إلحاحهم، فتتمشى من غرفة إلى أخرى، وكنا نفرح لذلك كثيرا ونجري أمامها مهللين مصـفقين، فتعلـوا شفتيها القرمزيتين – بفعل الحمى- ابتسـامة باهتـة واهنـة ممزوجة بالأحزان التي تنبع من أعماق قلبها. كنت أحب هذه السيدة حبا عظيما، وكانت تبادلني الحـب وتعطـف علـي، وكانت هي الوحيدة التي تجاذبني الحـديث بصـراحة فـي مختلف الأمور والشئون، وقد لاحظت ما كنـت أحـاول أن أخفيه من آلام نفسية؛ بسبب تفضيل أخي علي سـواء مـن جانب والدتي أو أهل البيت جميعا، فكانت تحاول أن تقنعنـي بأن هذا ليس تفضيلاً، ولكن لأن الولد هو الذي يحمل اسـم الأسرة وهو الذي يحمل مسئوليتها.

وكان بيتنا مفتوحا لكل زائرة ولكل قاصد، ذلك أن والتي كانت خيرة وديمقراطية، ولذلك كان منزلها لا يكاد يخلو من الضيوف يوما واحدا، وكثيرا ما كانت تطول تلك الضـيافة نظرا لما يجده الضيوف من حسن الوفاء وكـرم المعاملـة، وكثيرا ما وفد الزائرون فجأة، في الأوقات المناسبة وغيـر المناسبة. ولذلك كانت مائـدتنا مسـتعدة دائمـا لاسـتقبال الضيوف، وكانت الغرفة معدة لإقامة النازلين، وكثيـرا مـا كنت أثور على هذا التطفل الذي يضطرني إلى ترك غرفتي لإحدى الضيفات أو قبولها شريكة لي فيهـا، وكنـت دائمـا أفضل الحالة الأولى، لأنني أتألم من بعض الروائح ومن عدم تجدد هواء غرفتي.

وكان "السلاملك" هو مهبط الأقارب والموظفين، وكنـت أحتفي بمن أصطفيهم من هؤلاء، وفي مقدمتهم زوج أختـي الكبيرة إسماعيل بك لأنه كان يبالغ في ملاطفتي وكان مـع كبر سنه لطيفًا، واسع الصدر، يدلعني ويقربني منه، كـذلك كنت أؤثر من أقاربي أحمد حجازي ابن عم والدي الذي كان كثير الاهتمام بأمري، وكان يحدثني عن أبي ويقـص علـي بعض صفاته وتاريخه، كذلك كنت أفرح لمجيء أحمـد بـك

مرزوق لأنه كان مرحا خفيف الروح، وكان يمـلأ البيـت سرورا بفكاهاته وصوته العالي.

وعندما كان يحضر علي بك شـعراوي الوصـي علينـا وناظر أوقاف والدي، وكان يأخذونني أنا وأخي للسلام عليه، وبعد ذلك كنت أتحاشى الذهاب إلى السلاملك لأنه لـم يكـن يلتفت إلي على الإطلاق، وكان يوجه كل حديثه واهتمامه إلى شقيقي الذي كان يحبه حبا جما. وكان منزلنا يتخذ شكلاً غير مألوف طوال مدة إقامته بسبب الخوف الذي كـان يسـتولي على الخدم وعلى الأقارب والزائرين.

ومن الزائرين الذين كنا ننتظر قدومهم بلهفة وشوق جدتي وأخوالي، وكانوا يأتون من تركيا كل سنة أو سنتين تقريبـا لزيارتنا، ويغمروننا بهداياهم الكثيرة التي كانت تزيد علـى حاجتنا فنهدي منها للجيران والأصدقاء.

كانت جدتي على خلاف والدتي، قصيرة القامـة ليسـت بالبدينة أو النحيفة، ناصعة البياض، زرقاء العينين، ترتـدي الثياب البيضاء، وتضع على رأسها طرحة بيضـاء تتخللهـا ضفيرتان من شعرها الأبيض تكادان تعادلان جسمها طـولاً،

وكانت تبدو في هذا البياض الشامل كالقديسة وكانت السماحة تشيع في محياها فتكسبها إشراقًا وطيبة.

ولقد أحببت جدتي كثيرا، وإن كنت لم أستطع التفاهم معها إلا بالإشارة لجهل كل واحدة منا بلغة الأخرى، ولكن هذا ما كان ليمنعنا من تبادل العواطف وكانت تدللني ببعض كلمات وأغان شركسية ما زلت حتى الآن أحفظ الكثير منها.

وكان خالي الكبير يوسف شديد الشبه بوالدته في طوله وسماحة وجهه ودماثة خلقه، أما خالي إدريس – والد حواء وحورية - فكان شديد الشبه بوالدتي في رشاقته وجمال قسمات وجهه، وكان طويل القامة، نحيف القوام، رقيقًا في حركاته ومعاملاته، وكان يحبنا الحب كله ويقضي معظم أوقاته معنا لدرجة أنه كان لا يغادر المنزل إلا قليلاً.

كان هؤلاء الأهل يقضون معنا فصل الشتاء، حتى إذا أقبل الصيف بدأت جدتي تتأثر بحر بلادنا، فتلتهب أجفانها وتدمع عيناها ويحمر وجهها، فتطلب العودة إلى تركيا، ولكن خالي إدريس كان يبقى معنا لميله الشديد إلى تعلم اللغة العربية، فكان يتتلمذ معنا على أيدي مدرسينا.

ولما توفيت جدتي، وكان خالي الكبير قد تزوج، جـاءت معه زوجته، فقلت له يوما: لماذا لا تبقون معنا هنا ولم يبـق لكم في الآستانة أحد بعد وفاة جدتي؟ فابتسم وقال: لقد عرض علي المرحوم والدك ذلك، ولكنني اعتذرت لأن في ذلك هدما لبيتنا ومحوا لاسم عائلتنا.

قلت: وهل بندرته التي تقطنونهـا كانـت بـلاد آبـائكم وأجدادكم؟ ألستم من القوقاز لا من الأناضول؟

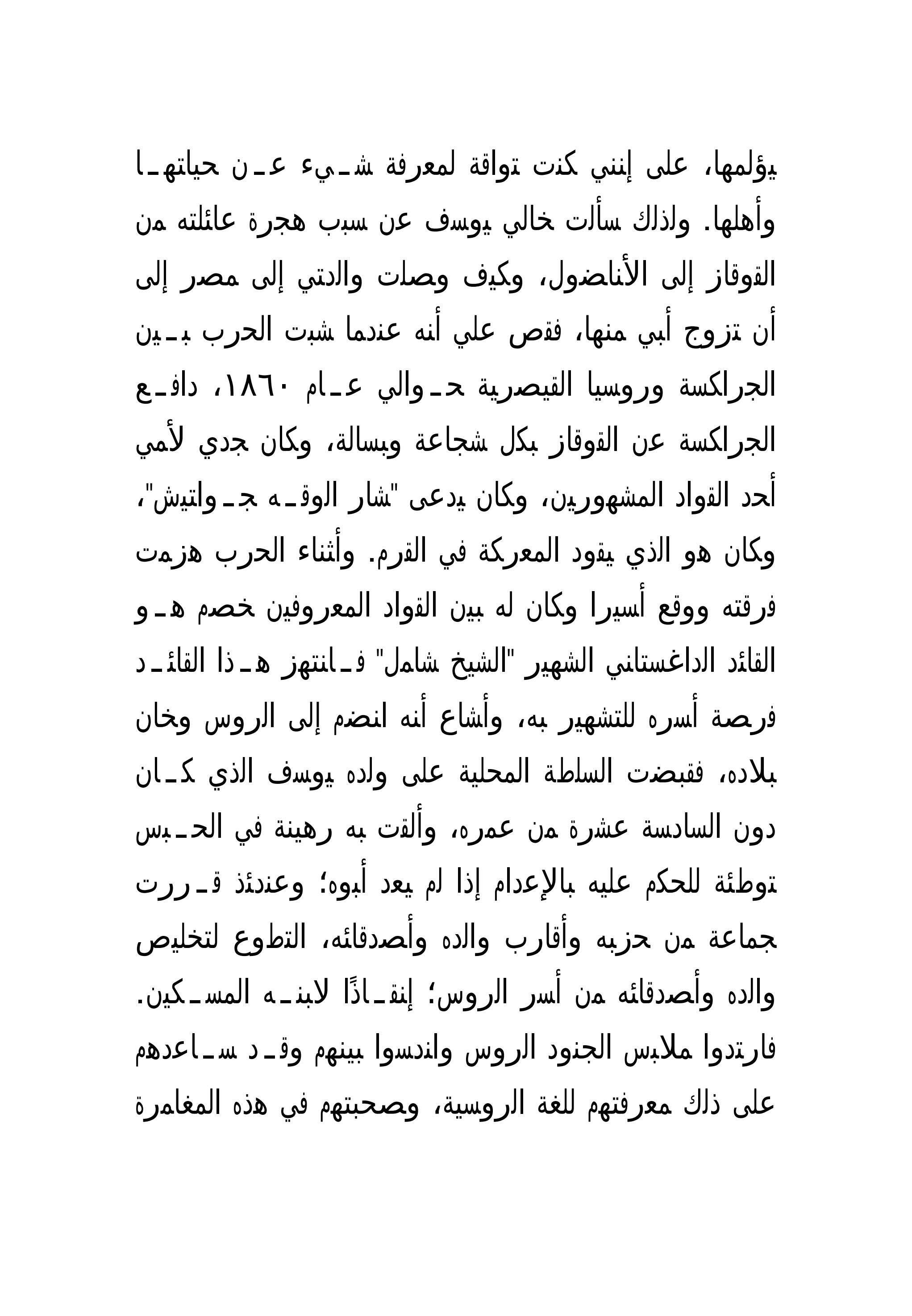
فابتسم مرة ثانية وهز رأسه قائلاً: هذه الألفاظ نفسها قـد سمعتها من والدك عندما ألح علينا للبقاء في مصر، ولترغيبنا وعدني بأن يكل إلي إدارة أعماله الزراعية ويـدخل أخـي المدارس ليتم تعليمه، ولكنني لم أقبل حفاظًا على اسمنا فـي بلادنا، كما اعتذرت عن عدم استبقاء أخي، لأن كل من أتـم تعليمه من أفراد عائلتنا مات ميتة غير طبيعية.

وبعد ذلك بمدة، تخلف خالي إدريس وبقى بيننا يتعلم، ولما ألحت عليه والدتي في الزواج، أراد أن يتزوج مـن مصـر ويبقى بجوارنا، فخطبت له إحدى فتيات البيـوت العريقـة، وعندما تحـدد موعـد القـران اشـترط أهـل العـروس ألا تفارقهم ابنتهم، وألا تسافر معه إذا سافر، ورفض هو هذا

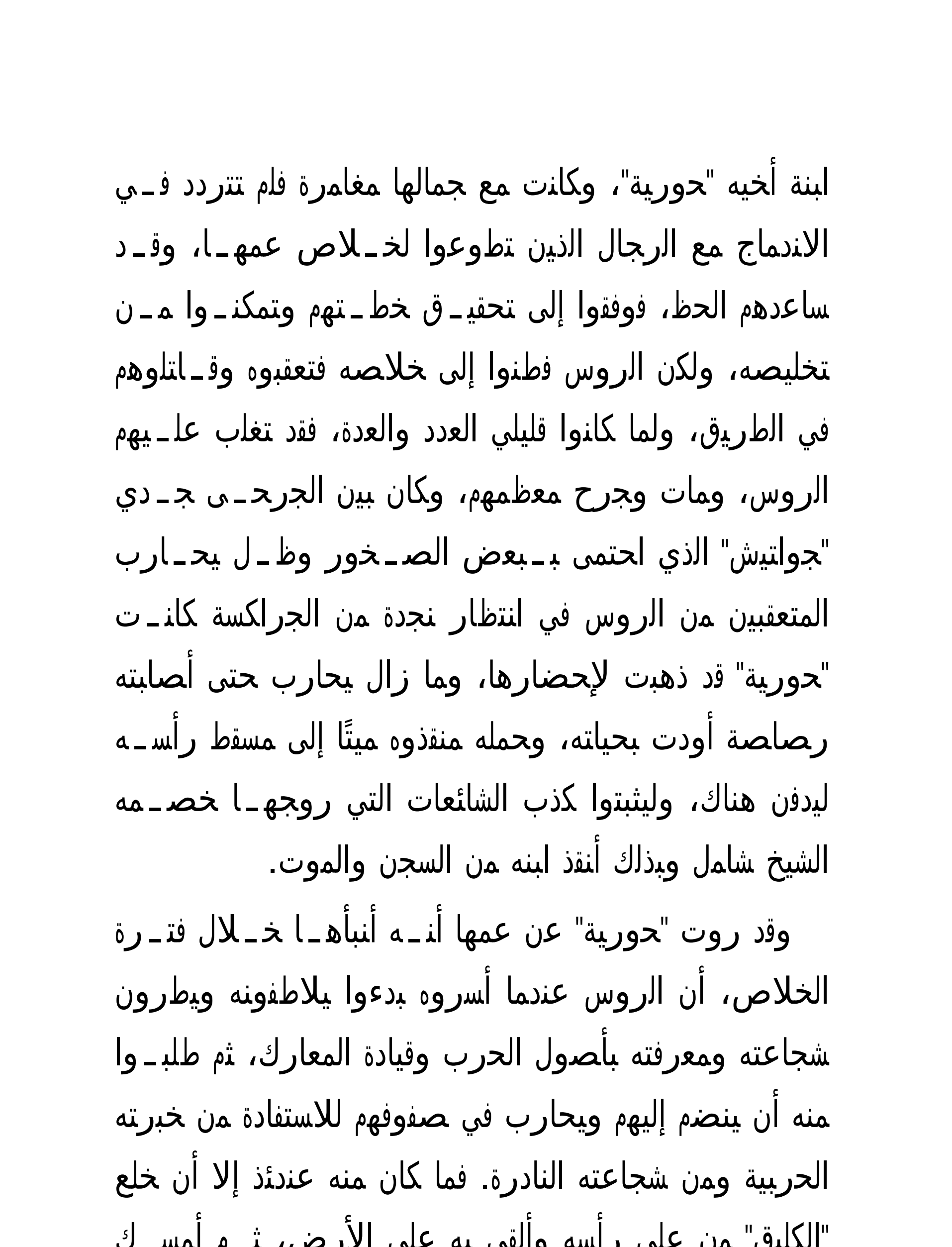
الشرط قائلاً إن الزوجة لابد أن تتبع زوجهـا فـي حياتـه وتنقلاته، وسافر إلى بلاده وتزوج هناك، وأنجب ابنتيه حواء وحرية.

وذات يوم دعي هو وأخوه مع أهل القرية لحضور فـرح في قرية مجاورة، وكانت العادة هناك أن يركب المـدعوون عربات تجرها الثيران، وطلب خالي الكبير مـن أخيـه أن يصحبه في هذه العربات، ولكنه اعتذر لوجود ضيوف عنده، ووعد بأن يلحق به على ظهر جواده الجديد السريع، وكـان الجواد قويا فجمح به أثناء الطريق وصدمه مقدم السرج فـي صدره؛ فسقط من فوق الجواد ميتًا، وانقلبت الأفراح أتراحا، وتحقق بذلك اعتقاد خالي الخبير بأن من يتم تعليمه من أفراد الأسرة يموت ميتة غير طبيعية، وهكذا قضى خالي المسكين تاركًا طفلتيه الصغيرتين حواء وحورية، وكبراهما لم تبلـغ الثانية بينما الصغرى ما زالت رضيعا.

والحقيقة إنني لم أجرؤ في يوم من الأيـام علـى سـؤال والدتي عن أصلها وسبب نزولها في مصر، فقد كانت رحمها ا زاهدة في الكلام عن نفسها، قليلـة الشـكوى والجهـر بآلامها، تتحكم في عواطفها وتخفي في قرارة نفسها كل مـا

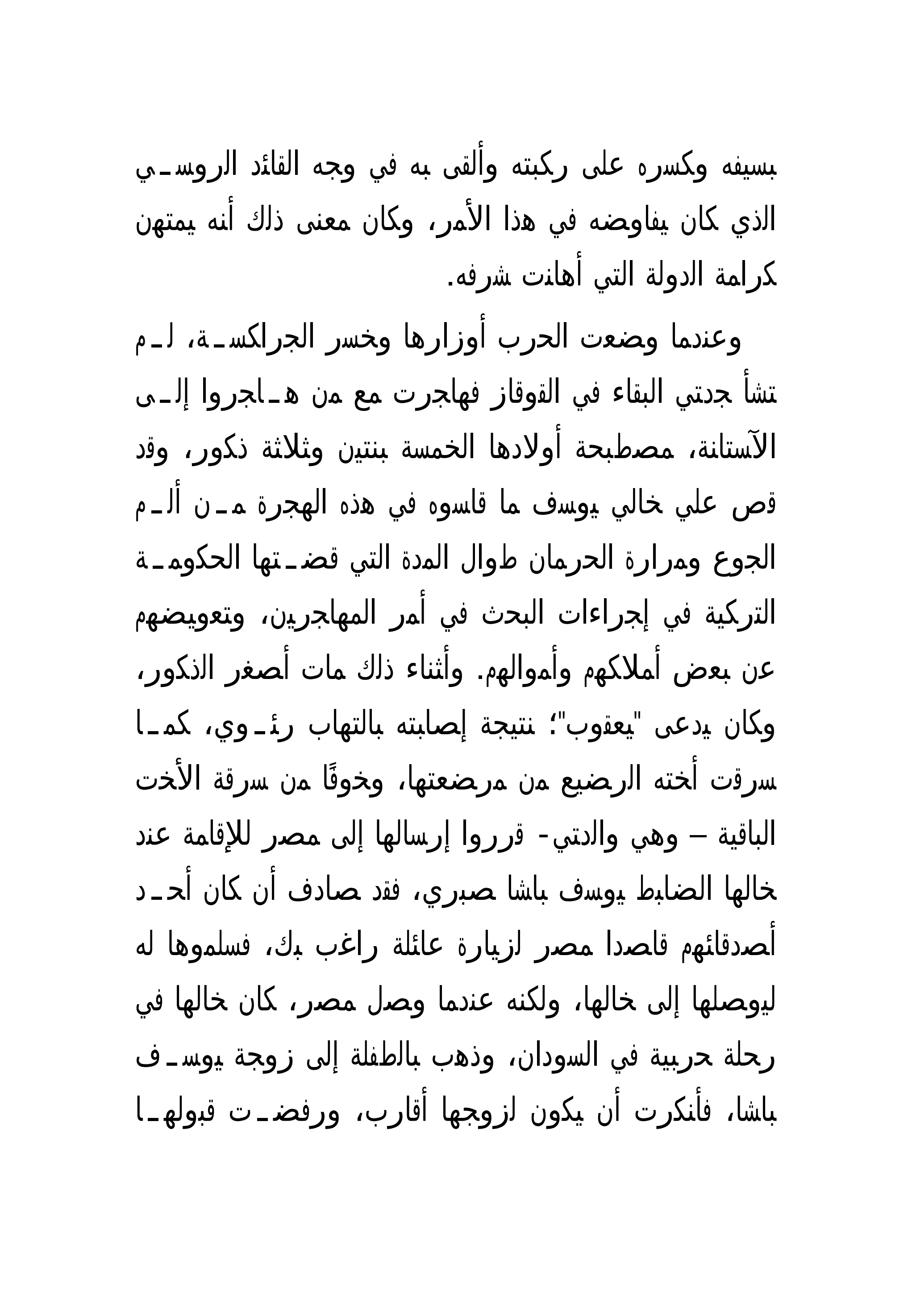


يؤلمها، على إنني كنت تواقة لمعرفة شـيء عـن حياتهـا وأهلها. ولذلك سألت خالي يوسف عن سبب هجرة عائلته من القوقاز إلى الأناضول، وكيف وصلت والدتي إلى مصر إلى أن تزوج أبي منها، فقص علي أنه عندما شبت الحرب بـين الجراكسة وروسيا القيصرية حـوالي عـام ١٨٦٠، دافـع الجراكسة عن القوقاز بكل شجاعة وبسالة، وكان جدي لأمي أحد القواد المشهورين، وكان يدعى "شار الوقـه جـواتيش"، وكان هو الذي يقود المعركة في القرم. وأثناء الحرب هزمت فرقته ووقع أسيرا وكان له بين القواد المعروفين خصم هـو القائد الداغستاني الشهير "الشيخ شامل" فـانتهز هـذا القائـد فرصة أسره للتشهير به، وأشاع أنه انضم إلى الروس وخان بلاده، فقبضت السلطة المحلية على ولده يوسف الذي كـان دون السادسة عشرة من عمره، وألقت به رهينة في الحـبس توطئة للحكم عليه بالإعدام إذا لم يعد أبوه؛ وعندئذ قـررت جماعة من حزبه وأقارب والده وأصدقائه، التطوع لتخليص والده وأصدقائه من أسر الروس؛ إنقـاذًا لابنـه المسـكين. فارتدوا ملابس الجنود الروس واندسوا بينهم وقـد سـاعدهم على ذلك معرفتهم للغة الروسية، وصحبتهم في هذه المغامرة



ابنة أخيه "حورية"، وكانت مع جمالها مغامرة فلم تتردد في الاندماج مع الرجال الذين تطوعوا لخلاص عمها، وقد ساعدهم الحظ، فوفقوا إلى تحقيق خطتهم وتمكنوا من تخليصه، ولكن الروس فطنوا إلى خلاصه فتعقبوه وقاتلوهم في الطريق، ولما كانوا قليلي العدد والعدة، فقد تغلب عليهم الروس، ومات وجرح معظمهم، وكان بين الجرحى جدي "جواتيش" الذي احتمى ببعض الصخور وظل يحارب المتعقبين من الروس في انتظار نجدة من الجراكسة كانت "حورية" قد ذهبت لإحضارها، وما زال يحارب حتى أصابته رصاصة أودت بحياته، وحمله منقذوه ميتًا إلى مسقط رأسه ليدفن هناك، وليثبتوا كذب الشائعات التي روجها خصمه الشيخ شامل وبذلك أنقذ ابنه من السجن والموت.

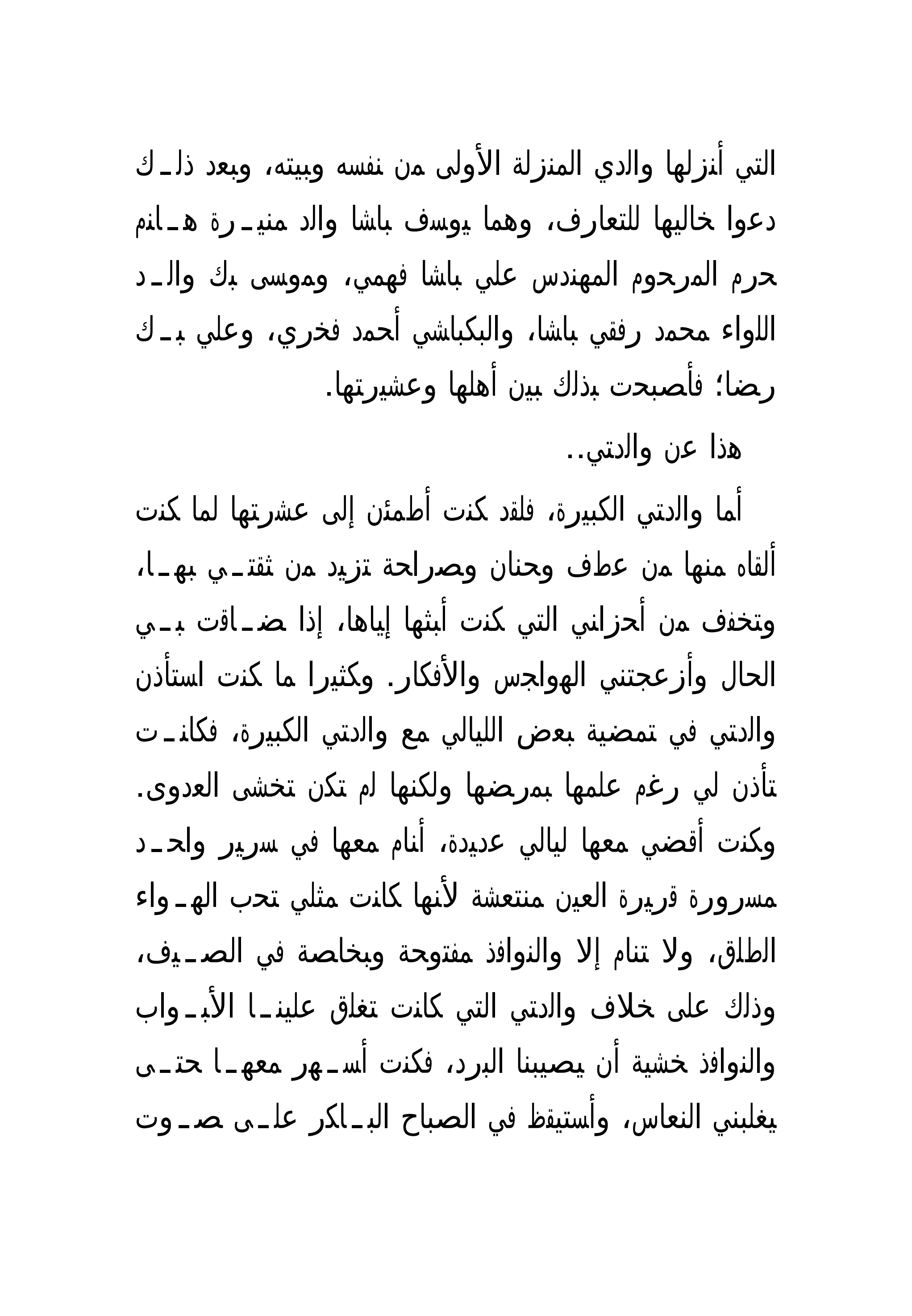
وقد روت "حورية" عن عمها أنه أنبأها خلال فترة الخلاص، أن الروس عندما أسروه بدءوا يلاطفونه ويطرون شجاعته ومعرفته بأصول الحرب وقيادة المعارك، ثم طلبوا منه أن ينضم إليهم ويحارب في صفوفهم للاستفادة من خبرته الحربية ومن شجاعته النادرة. فما كان منه عندئذ إلا أن خلع "الكلبق" من على رأسه وألقى به على الأرض، ثم أمسك


بسيفه وكسره على ركبته وألقى به في وجه القائد الروسـي الذي كان يفاوضه في هذا الأمر، وكان معنى ذلك أنه يمتهن كرامة الدولة التي أهانت شرفه.

وعندما وضعت الحرب أوزارها وخسر الجراكسـة، لـم تشأ جدتي البقاء في القوقاز فهاجرت مع من هـاجروا إلـى الآستانة، مصطحبة أولادها الخمسة بنتين وثلاثة ذكور، وقد قص علي خالي يوسف ما قاسوه في هذه الهجرة مـن ألـم الجوع ومرارة الحرمان طوال المدة التي قضـتها الحكومـة التركية في إجراءات البحث في أمر المهاجرين، وتعويضهم عن بعض أملاكهم وأموالهم. وأثناء ذلك مات أصغر الذكور، وكان يدعى "يعقوب"؛ نتيجة إصابته بالتهاب رئـوي، كمـا سرقت أخته الرضيع من مرضعتها، وخوفًا من سرقة الأخت الباقية – وهي والدتي- قرروا إرسالها إلى مصر للإقامة عند خالها الضابط يوسف باشا صبري، فقد صادف أن كان أحـد أصدقائهم قاصدا مصر لزيارة عائلة راغب بك، فسلموها له ليوصلها إلى خالها، ولكنه عندما وصل مصر، كان خالها في رحلة حربية في السودان، وذهب بالطفلة إلى زوجة يوسـف باشا، فأنكرت أن يكون لزوجها أقارب، ورفضـت قبولهـا

وهكذا بقيت والدتي في بيت راغب بك على أمـل أن يعـود خالها ويطلبها، ولكن يبدو أن زوجته أخفت عنه هذا الخبـر، وكان أن استمرت والدتي في رعاية ابنة راغب بـك التـي أحبتها كثيرا وعنيت بأمرها ولكن بعـد أن تزوجـت هـذه السيدة، دبت الغيرة في قلبها من والدتي التي كانـت علـى جانب كبير من الجمال، وأرادت التخلص منها، وكـان مـن حسن حظها أن اختارها والدي زوجة له.

وذات يوم، كانت تساعد والدي علـى ارتـداء ملابسـه، وتصادف أن كانت قريبة من النافذة المطلة علـى الحديقـة، فدمعت عيناها، وهنا سألها والدي عن سبب بكائها، فقالت له إنها لمحت بين الزائرين الوافدين إلى السلاملك شـابا يشـبه أخاها يوسف، فلم تتمالك نفسها من البكاء، فسألها والدي عن أهلها وعشيرتها، ولما قصت عليه قصتها، أرسل على الفور إلى منزل علي بك راغب من يستفسر عن عنـوان أهلهـا، ولحسن الصدف كان قريبهم الذي أحضر والدتي موجودا في مصر، فحضر عند والدي الذي كلفه بإحضار العائلة بعد أن سلمه تكاليف السفر، وبالفعل سافر إلى بندرته وأحضـرهم؛ فكان لهذا اللقاء فرحة عظيمة وتأثير كبير في حياة والـدتي



التي أنزلها والدي المنزلة الأولى من نفسه وبيته، وبعد ذلك دعوا خاليها للتعارف، وهما يوسف باشا والد منيرة هانم حرم المرحوم المهندس علي باشا فهمي، وموسى بك والد اللواء محمد رفقي باشا، والبكباشي أحمد فخري، وعلي بك رضا؛ فأصبحت بذلك بين أهلها وعشيرتها.

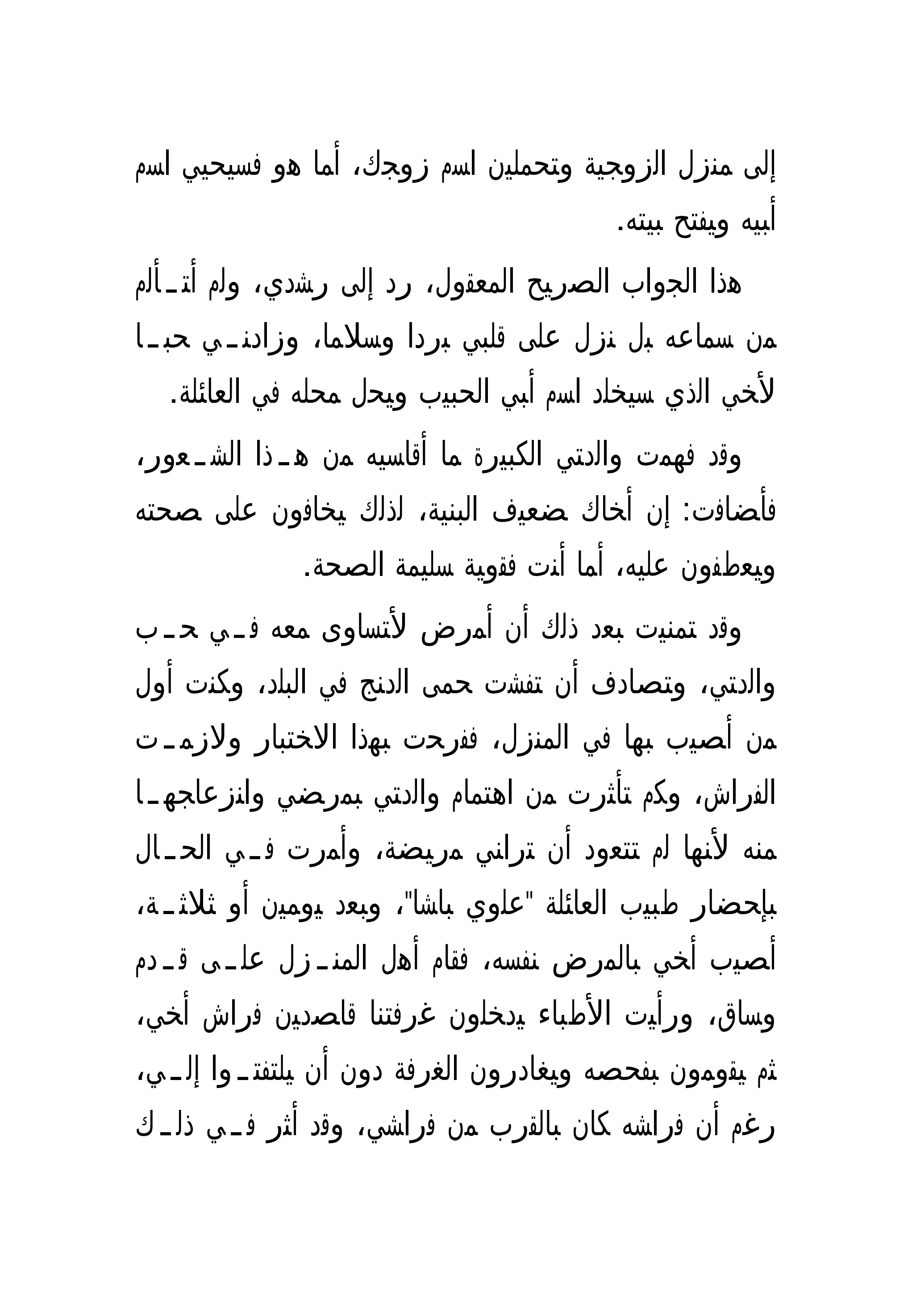
هذا عن والدتي..

أما والدتي الكبيرة، فلقد كنت أطمئن إلى عشرتها لما كنت ألقاه منها من عطف وحنان وصراحة تزيد من ثقتي بها، وتخفف من أحزاني التي كنت أبثها إياها، إذا ضاقت بي الحال وأزعجتني الهواجس والأفكار. وكثيرا ما كنت استأذن والدتي في تمضية بعض الليالي مع والدتي الكبيرة، فكانت تأذن لي رغم علمها بمرضها ولكنها لم تكن تخشى العدوى. وكنت أقضي معها ليالي عديدة، أنام معها في سرير واحد مسرورة قريرة العين منتعشة لأنها كانت مثلي تحب الهواء الطلق، ولا تنام إلا والنوافذ مفتوحة وبخاصة في الصيف، وذلك على خلاف والدتي التي كانت تغلق علينا الأبواب والنوافذ خشية أن يصيبنا البرد، فكنت أسهر معها حتى يغلبني النعاس، وأستيقظ في الصباح الباكر على صوت

الأطيار وتغريدها، وكانت الطبيعة بما فيها من جمال وجلال تأخذني فأسبح في جمالها إلى ما لا نهاية، وأشعر بالسعادة والهناء لما ألقاه من عطف وما أسبح فيه من خيال.

وكان يلذ لي أن أشارك هذه السيدة البارة الرحيمة أفكارها لتشابه أذواقنا في كل شيء، كانت تحب اللبن البارد المغلي في المساء والمغطى بالقشدة، فكنا نغمس فيه الخبز اليابس ثم ننتهي بالفاكهة. وفي ليالي الشتاء كنت أجلس القرفصاء بجانب الموقد للتدفئة وأضع الكستناء على الفحم المتوهج واحدة بعد الأخرى، وكلما فرقعت إحداها، قفزت من مكاني ضاحكة، فتضحك هي الأخرى وهي ترنو لي بعين الشفقة والحنان.

وأتذكر إنني طلبت منها ذات يوم أن تفسر لي حكمة تفضيل شقيقي علي، فأجابتني في ابتسامتها الحلوة: ألم تشعري الآن بالفارق الذي بينك وبينه، قلت: نعم ولكني أنا الأكبر وأنا الأولى، ويجب أن يكون نصيبي أوفر منه ومركزي أعلى من مركزه. قالت: ولكنك فتاة وهو غلام. وليس هذا فحسب، بل أنت لست الفتاة الوحيدة وهو الولد الوحيد الذي عليه عمار الدار، أنت عندما تتزوجين ستذهبين



إلى منزل الزوجية وتحملين اسم زوجك، أما هو فسيحيي اسم أبيه ويفتح بيته.

هذا الجواب الصريح المعقول، رد إلى رشدي، ولم أتألم من سماعه بل نزل على قلبي بردا وسلاما، وزادني حبا لأخي الذي سيخلد اسم أبي الحبيب ويحل محله في العائلة.

وقد فهمت والدتي الكبيرة ما أقاسيه من هذا الشعور، فأضافت: إن أخاك ضعيف البنية، لذلك يخافون على صحته ويعطفون عليه، أما أنت فقوية سليمة الصحة.

وقد تمنيت بعد ذلك أن أمرض لأتساوى معه في حب والدتي، وتصادف أن تفشت حمى الدنج في البلد، وكنت أول من أصيب بها في المنزل، ففرحت بهذا الاختبار ولازمت الفراش، وكم تأثرت من اهتمام والدتي بمرضي وانزعاجها منه لأنها لم تتعود أن تراني مريضة، وأمرت في الحال بإحضار طبيب العائلة "علوي باشا"، وبعد يومين أو ثلاثة، أصيب أخي بالمرض نفسه، فقام أهل المنزل على قدم وساق، ورأيت الأطباء يدخلون غرفتنا قاصدين فراش أخي، ثم يقومون بفحصه ويغادرون الغرفة دون أن يلتفتوا إلي، رغم أن فراشه كان بالقرب من فراشي، وقد أثر في ذلك

كثيرا، وارتفعت الحمى من فرط تأثري، ولكن أحدا لم يهـتم بأمري إلا بعد أن ازدادت حالتي سوءا.

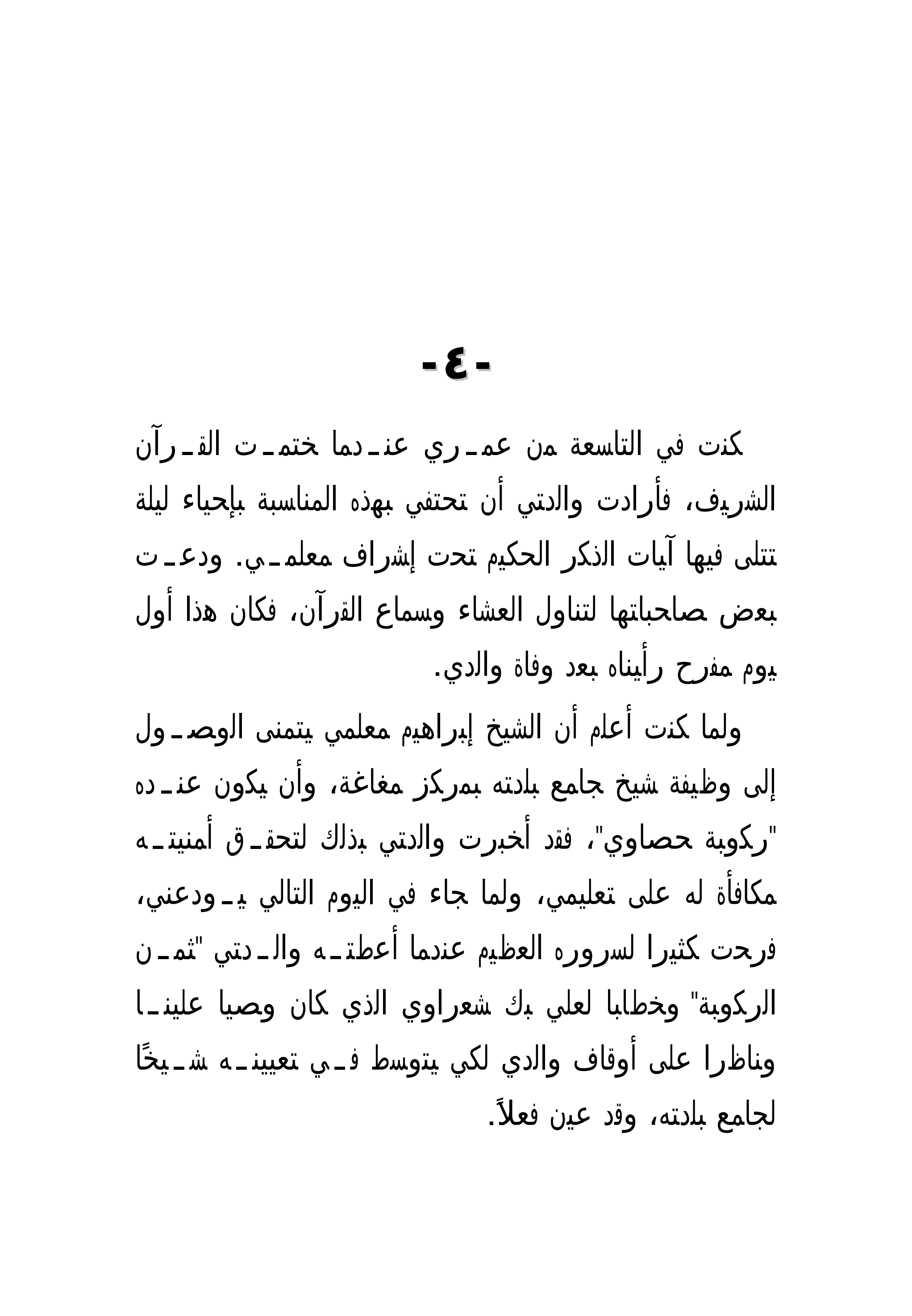
ولقد زادتني هذه التجربة المريرة انكماشًا وحقدا على من حولي، فصرت أقضي معظم أوقات الفراغ بعد الدرس فـي حديقتنا التي كانت أشـبه بغابـة صـغيرة، وكنـت أحـب الحيوانات، وكان يخيل إلي إنها تفهمني وترثي لحالي، كمـا كنت أرى في الأشجار مرتعا للألعاب الرياضية التي كنـت مشغوفة بها.

وكنت أجد تسلية كبرى في أوقات الدرس، إذ كنا نمضي كل صباح في تلقي مختلف العلوم من المدرسـين باللغـات العربية والتركية والفرنسية، وكنت مغرمـة جـدا، باللغـة العربية. وكان يحضر الدرس معنا مربينا "سعيد آغا" الـذي كان يلازمنا في كل مكان. وكان صاحب الأمر والنهي على الخدم وعلى معلمينا. وبهذه المناسبة أذكر أنه لتعطشي للغـة العربية، سألت أستاذي يوما عن السبب في عدم إمكاني قراءة القرآن مثله دون خطأ، فقال لأنك لم تتعلمي قواعد النحو.

ولما سألته إن كان في إمكاني أن أقرأ مثلـه بـلا لحـن ولا خطأ بعد تعلمي القواعد، أجابني بالإيجاب، فرجوتـه أن

يعلمني القواعد، ففرح وقال لي: بكل سرور، وفـي اليـوم التالي أتى يحمل تحت إبطه كتاب النحو، فسأله سـعيد آغـا بعظمة وكبرياء: ما هذا الكتاب؟ قال: كتاب النحـو، طلبتـه الآنسة نور الهدى لتتعلم القواعد، فقهقه الآغا وقال له: خـذ كتابك.. لا لزوم للنحو، لأنها لن تكون محاميـة يومـا مـن الأيام!

وقد أثرت هذه الصدمة الجديدة في نفسي تـأثيرا شـديدا، وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبي ويتولاني الملل حتـى أهملـت دروسي، وصرت أكره أنوثتي لأنها حرمتني متعـة التعلـيم وممارسة الحياة الرياضية التي كنت أحبها، كما كانت تحول بعد ذلك بيني وبين الحرية التي كنت أعشقها..



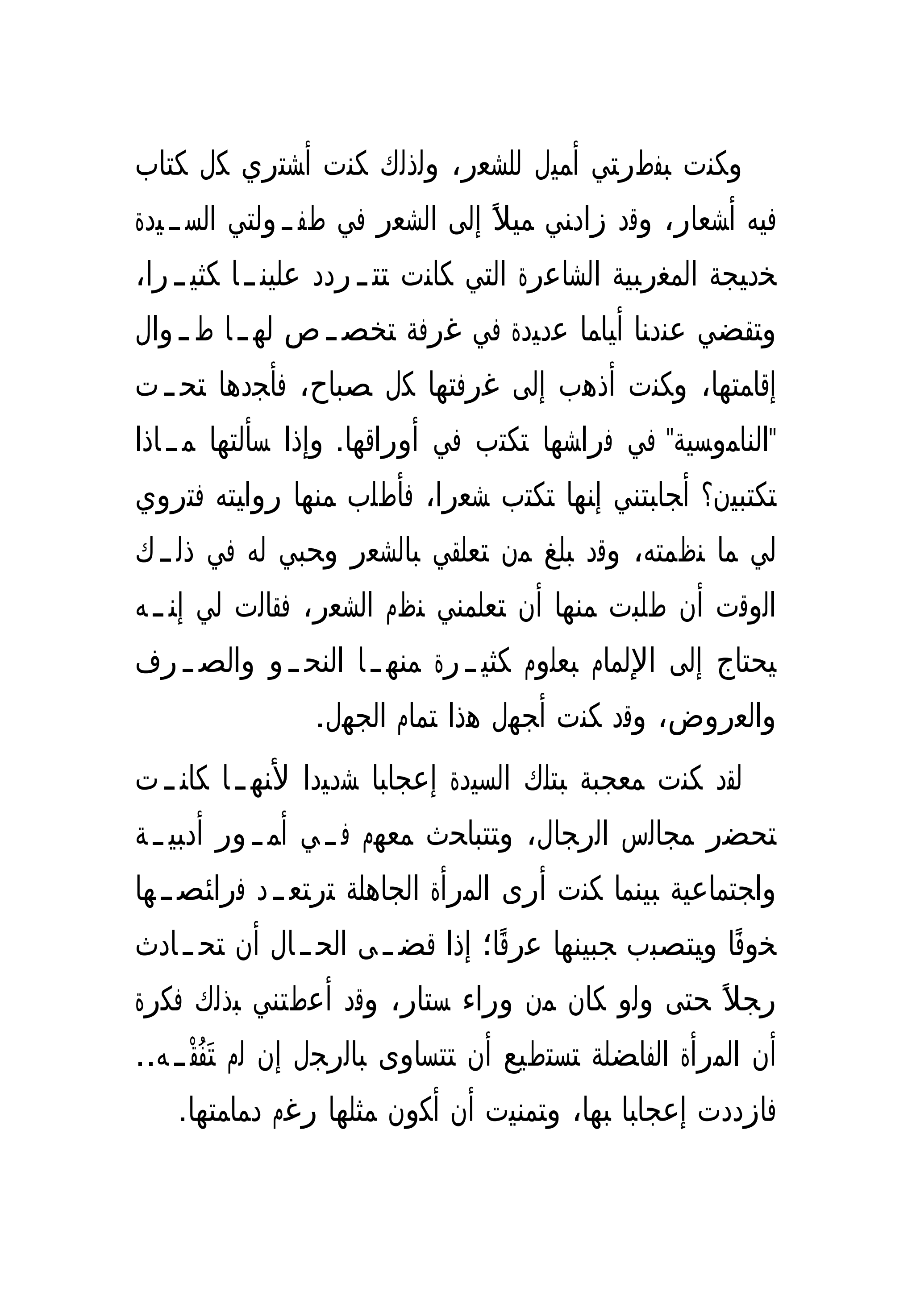
- ٤ -

كنت في التاسعة من عمـري عنـدما ختمـت القـرآن الشريف، فأرادت والدتي أن تحتفي بهذه المناسبة بإحياء ليلة تتلى فيها آيات الذكر الحكيم تحت إشراف معلمـي. ودعـت بعض صاحباتها لتناول العشاء وسماع القرآن، فكان هذا أول يوم مفرح رأيناه بعد وفاة والدي.

ولما كنت أعلم أن الشيخ إبراهيم معلمي يتمنى الوصـول إلى وظيفة شيخ جامع بلدته بمركز مغاغة، وأن يكون عنـده "ركوبة حصاوي"، فقد أخبرت والدتي بذلك لتحقـق أمنيتـه مكافأة له على تعليمي، ولما جاء في اليوم التالي يـودعني، فرحت كثيرا لسروره العظيم عندما أعطتـه والـدتي "ثمـن الركوبة" وخطابا لعلي بك شعراوي الذي كان وصيا علينـا وناظرا على أوقاف والدي لكي يتوسط فـي تعيينـه شـيخًا لجامع بلدته، وقد عين فعلاً.

ختمت القرآن، فظن من حولي إنني ملكت ناصية اللغـة العربية والديانة. ولكني في الحقيقة لم أكن أسـتطيع قـراءة شيء غير القرآن لأنه مشكل، ولا أعرف من علوم الديانـة إلا كيفية الوضوء والصلاة والصوم ومع ذلك فقد سـاعدني على فك الخط والكتابة دراسة اللغة التركية التي تلقيتها على أيدي معلمين أكفاء مثل أنور أفندي وحسن أفنـدي الخطـاط المشهور وحافظ أفندي.. وكان الأخير رصينًا فـي الإلقـاء ومجيدا في ترتيل الشعر التركي والفارسي، وقد نهجوا فـي تعليمي للغة التركية الطريقة الصحيحة، فتعلمـت قواعـدها والخط الرقعة والنسخ، وقد أفادني ذلك بالنسبة للغة العربيـة نظرا لتماثل حروف اللغتين.

وكنت أشتري من أمام الباب خلسة الكتب العربيـة مـن الباعة المتجولين، وكان ذلك محظورا علينا، ولم أكن أميز ما أشتريه، ولكن الكتاب الذي كان يسهل علي فهمه، كنت أفرح به وأقرظه وأقول أنه كتاب جيد، أما الكتـاب الـذي كنـت لا أفهمه، فقد كنت أحكم عليه بأنه كتاب رديء وأهمله فـي دولاب صغير عندي.



وكنت بفطرتي أميل للشعر، ولذلك كنت أشتري كل كتاب فيه أشعار، وقد زادني ميلاً إلى الشعر في طفـولتي السـيدة خديجة المغربية الشاعرة التي كانت تتـردد علينـا كثيـرا، وتقضي عندنا أياما عديدة في غرفة تخصـص لهـا طـوال إقامتها، وكنت أذهب إلى غرفتها كل صباح، فأجدها تحـت "الناموسية" في فراشها تكتب في أوراقها. وإذا سألتها مـاذا تكتبين؟ أجابتني إنها تكتب شعرا، فأطلب منها روايته فتروي لي ما نظمته، وقد بلغ من تعلقي بالشعر وحبي له في ذلـك الوقت أن طلبت منها أن تعلمني نظم الشعر، فقالت لي إنـه يحتاج إلى الإلمام بعلوم كثيـرة منهـا النحـو والصـرف والعروض، وقد كنت أجهل هذا تمام الجهل.

لقد كنت معجبة بتلك السيدة إعجابا شديدا لأنهـا كانـت تحضر مجالس الرجال، وتتباحث معهم فـي أمـور أدبيـة واجتماعية بينما كنت أرى المرأة الجاهلة ترتعـد فرائصـها خوفًا ويتصبب جبينها عرقًا؛ إذا قضـى الحـال أن تحـادث رجلاً حتى ولو كان من وراء ستار، وقد أعطتني بذلك فكرة أن المرأة الفاضلة تستطيع أن تتساوى بالرجل إن لم تَفُقْـه.. فازددت إعجابا بها، وتمنيت أن أكون مثلها رغم دمامتها.

ولم يعد يكفيني ما اشتريه من الكتب بين الحين والآخر، وإنما أصبحت في مطالعة كتب والدي، لعلمي أنه كان رحمه ا يحب الأدب والشعر، وكان دائما محوطاً بالشعراء والأدباء، ولذلك كنت أتحين الفرص لأتمكن من فتح مكتبه بتجربة المفاتيح التي كانت تحت يدي، وكانت معي فتاتان في سني تربيتا معي، إحداهما شركسية والأخرى مصرية، فكنت أعهد إليهما بمراقبة الدهليز في الوقت الذي أحاول فيه فتح خزانة الكتب، وكانت موجودة في غرفة التدريس. وأخيرا تمكنت من فتحها. وكم تألمت لما فوجئت بمنظر الشيكولاته التي كان يحتفظ بها والدي لنا، وقد أذابتها السنون، فسالت على الأوراق وتركت بها أثرا، ولكن حب الاستطلاع تغلب على عاطفتي، ودفعني إلى مد يدي المرتجفة إلى تلك الكتب، فآخذ منها كتابين دون معرفة ما بهما، وكان أحدهما الجزء الثاني من "العقد الفريد"، والثاني "ديوان أبو النصر" أحد شعراء ذلك العصر، وما زالا عندي حتى الآن. وأذكر أن أول قصة قرأتها هي قصة "المملوك الشارد" تأليف جورجي زيدان، وقد حببت إلي قراءة القصص التاريخية.

أما اللغة الفرنسية، فقد بدأت أتعلمها وأنا في سن التاسـعة بعد ما ختمت القرآن. وكانت معلمتي إيطالية الجنسية تحسن تعليم الموسيقى أكثر من تعليم الفرنسية. وبهذه المناسبة أذكر كيف بدأت دراسة البيانو في تلك السن.

أشار الطبيب الذي كان يعالج أخي أن يشتروا لـه مهـرا صغيرا "سيسي" ليتعلم ركوب الخيـل – وهـو إذ ذاك فـي السابعة من عمره - لأن الركوب رياضة سامية تقوي الجسم وتنشط حركة الأمعاء وفي الوقت نفسه لا تتطلـب مجهـودا كبيرا، فطلبت أنا أيضا أن يشتروا لي مهرا لأركـب مثلـه، وحاولوا إقناعي بأن ركوب الخيل لا يليق بالبنـات، ولكنـي دحضت زعمهم هذا بحجة دامغة، فضربت لهم مثلاً بجارتنا ابنة الضابط لمعي بك التي تركب الخيـل وتقـود عربتهـا الصغيرة بنفسها، ولما عجزت والدتي عن إقناعي، خيرتنـي بين الحصان والبيانو، وكانت تعرف ميلي الشديد للموسـيقى فنجحت إذ فضلت البيانو على الحصان، قائلة فـي نفسـي: أكسب البيانو وأتمتع بركوب حصان أخي كلما أردت..

ويمكن هنا أن أروي ما أتذكره من برنامج حياتنا اليومية، فقد كنا ننتهي أنا وشقيقي وفتاتان تربيتا معـي مـن تلقـي

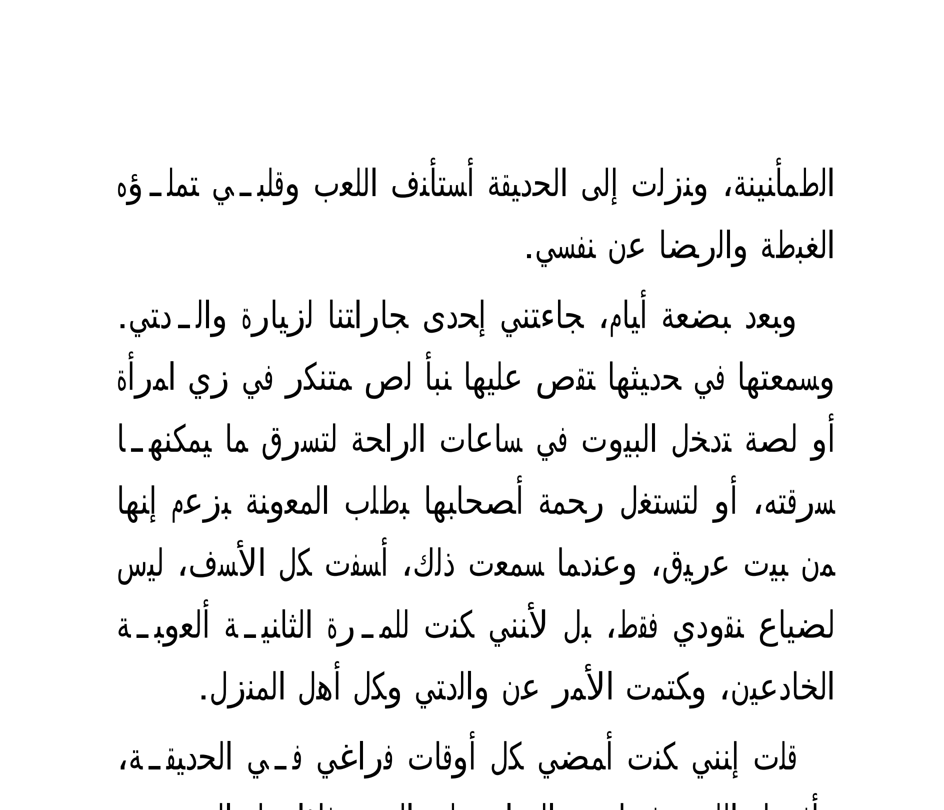
الدروس في الظهر، وبعد تناول الغداء، كانوا يأخذون أخـي إلى غرفة النوم للراحة. أما أنا فكنت أنزل إلى الحديقة لألعب على الأرجوحة أو أقوم بتجاربي في تسلق الأشجار والأسوار أو تنسيق حديقتي الصغيرة؛ إذ كان لكل منا قطعة صـغيرة في وسط الحديقة يزرعها كيف يشاء. وأذكر إنني بينما كنت أشتغل بزراعة حديقتي، كان يساعدني أحيانًا فـي تنظيمهـا وإرشادي إلى فن الزراعة بستاني يدعى "متى" وكذلك الساقي الذي كان يخدم والدي، وهو عبد حبشي اسمه "عنبـر" كـان كثير المزاح والضحك، وقد أوهمني يوما بأن الدراهم تزرع وتؤتي ثمرها فأبديت رغبتي في زراعتها، فصار يأخذ منـي قروشًا ويدفنها أمامي في الأرض، ثم يوصيني بـألا أخبـر بمكانها أحدا حتى لا تسرق، وقال إنها إذا سرقت لا نجنـي من وراء زرعنا ثمرا، واستمر الحال هكذا مدة طويلة وكنت كلما سألته على انفراد: لماذا تأخر ظهور شـجر الـدراهم؟ أجاب إن هذه الأشجار ليست كغيرها في سرعة نباتها، ولذلك فإن الدراهم غالية ولا يملكها كل إنسـان. فـانتظرت ولمـا أعياني الانتظار ولم أجد الأرض قد أنبتت ذهبا ولا فضـة، سألت "متى" البستاني قائلة: هل الأغنياء يجنون كثيـرا مـن

النقود من زراعتهم الواسعة؟ فقال لي: نعم، فقلت له: لمـاذا إذًا لم تثمر نقودي؟ فقصصت عليه القصة، فقهقه طويلاً وقال لي: هل يعقل أن تزرع المعادن وتنبت؟ فكان ذلك درسا في إساءة الظن بالناس وعدم التسليم بما يقال؛ ليدون تحكيم عقلي أو الاسترشاد بمن حولي فيما لا أعرفه قبل القيام بمثل هـذه المشروعات.

وقد زادني يقظة وحرصا، اختبار آخر أودى بما كنت قد ادخرته منذ عام من المصروف اليومي الذي كانت تعطيه لي والدتي ووالدتي الكبيرة.

كنت ألعب بعد ظهر أحد أيام رمضان في الحديقة كعادتي عندما رأيت سيدة ملثمة تهرول نحـو المنـزل، ولـم أكـن أعرفها، وقد عجبت لمجيئها في مثل هذه الساعة على خلاف العادة في رمضان؛ حيث تجري الزيارات ليلاً بعد الإفطار، فتبعتها وصعدت السلم خلفها ثم رجوتها أن تنتظر في البهـو حتى أخبر والدتي لمقابلتها. ولما دخلت غرفة والدتي وجدتها مستغرقة في النوم، فقصدت إلى غرفـة والـدتي الكبيـرة، وكانت مستيقظة، فأخبرتها بوجود زائرة، فرفضت مقابلتهـا وأشارت إلى الخادم بإغلاق باب غرفتها، فرجعت إلى السيدة

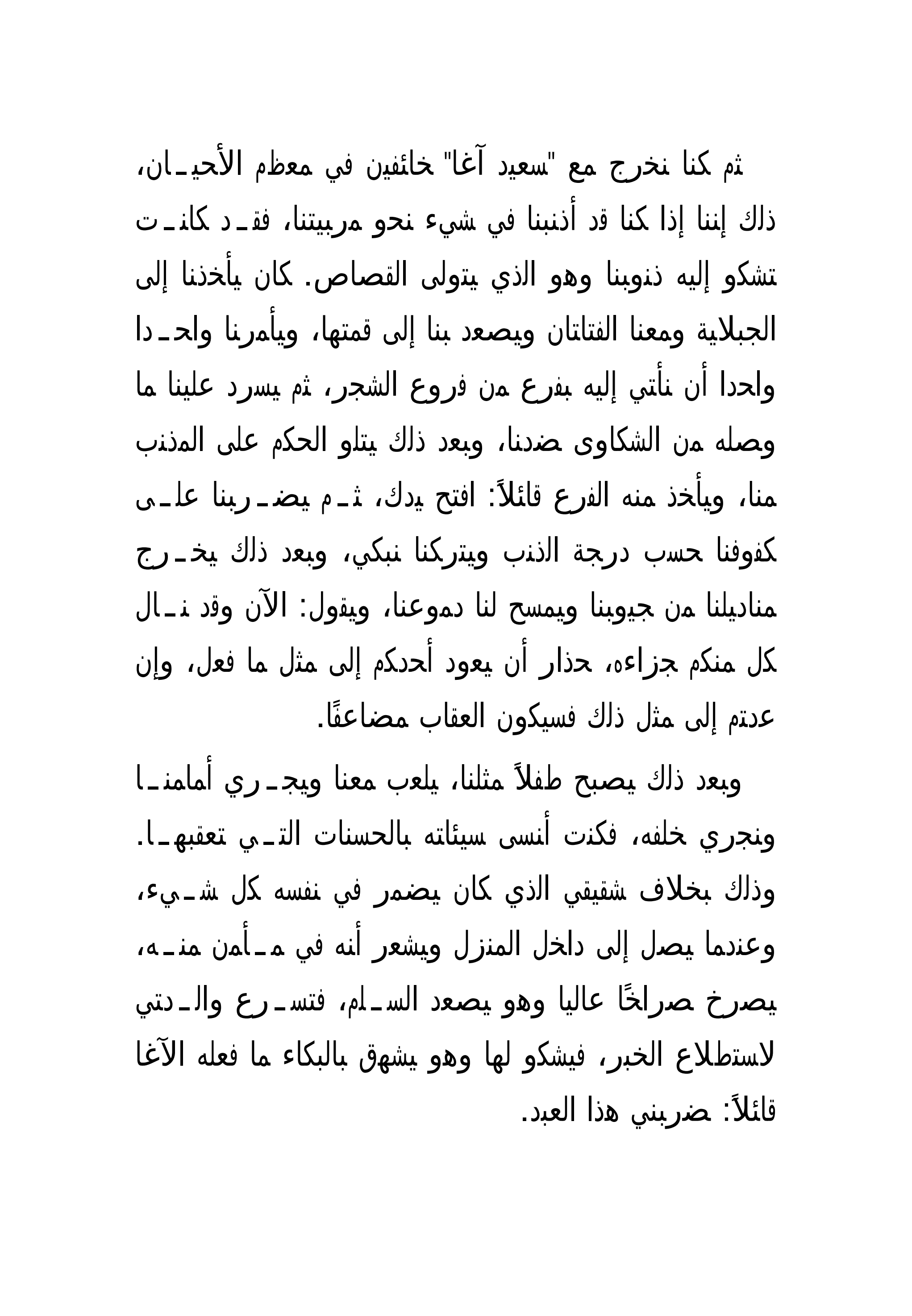
التي بقيت متسترة في برقعها الكثيف لأعتذر لها وأنا في شدة الخجل بأن كل من في البيت نـائمون الآن. وسـألتها عـن حاجتها، فقالت إنها زوجة أحد الباشوات من جيراننا، تـوفي زوجها الثري بعد أن فقد كل أمواله فـي أخريـات حياتـه وتركها هي وأولادها في حالة سيئة من الفقر والبؤس حتـى أنهم كثيرا ما ينامون جياعا. وكانت قد أتت لتطلب المعونـة من والدتي، فتأثرت بما سمعت وعدت إلى غرفـة والـدتي لأوقظها ولكني لم أجرؤ على ذلك، وتذكرت المبلـغ الـذي وفرته من مصروفي لشراء بعض اللعب واللـوازم، وكـان داخل دولاب في غرفة والـدتي، فمشـيت علـى أطـراف أصابعي وفتحته برفق واحتراس كي لا أوقظهـا، وأخـذت المبلغ كله – وكان سبعة جنيهات - وأعطيته لها في خجـل نظرا لضآلته، وكدت أصعق عندما اختطفـت منـي النقـود وتركتني مهرولة نحو السلم دون أن تشكرني، فبقيـت فـي مكاني لا أبدي حراكًا، ولكني تغلبت على ذلك ورجعت إلـى حسن ظني قائلة في نفسي لابد إنها من فرحها واسـتعجالها لشراء الطعام لأطفالها نسيت واجب الشكر. وبذلك عاودتني



الطمأنينة، ونزلت إلى الحديقة أستأنف اللعب وقلبي تملؤه الغبطة والرضا عن نفسي.

وبعد بضعة أيام، جاءتني إحدى جاراتنا لزيارة والدتي. وسمعتها في حديثها تقص عليها نبأ لص متنكر في زي امرأة أو لصة تدخل البيوت في ساعات الراحة لتسرق ما يمكنها سرقته، أو لتستغل رحمة أصحابها بطلب المعونة بزعم إنها من بيت عريق، وعندما سمعت ذلك، أسفت كل الأسف، ليس لضياع نقودي فقط، بل لأنني كنت للمرة الثانية ألعوبة الخادعين، وكتمت الأمر عن والدتي وكل أهل المنزل.

قلت إنني كنت أمضي كل أوقات فراغي في الحديقة، وأفضل اللعب فيها بعد الغداء على النوم، فإذا حل العصر، خرج "سعيد آغا" من غرفته، وأمرني في عبوس أن أصعد لتغيير ملابسي استعدادا للخروج للنزهة مع شقيقي الذي كان يقول لي بتهكم: أما تستحين من بقائك طول الوقت في الحديقة، وأنا مع كوني ولدا أمضي أكثر أوقاتي داخل المنزل؟ فكنت أرد عليه بحسرة قائلة: غدا ستنعكس الآية، وأنا التي سأبقى في البيت وتكون أنت خارجه.


ثم كنا نخرج مع "سعيد آغا" خائفين في معظم الأحيـان، ذلك إننا إذا كنا قد أذنبنا في شيء نحو مربيتنا، فقـد كانـت تشكو إليه ذنوبنا وهو الذي يتولى القصاص. كان يأخذنا إلى الجبلاية ومعنا الفتاتان ويصعد بنا إلى قمتها، ويأمرنا واحـدا واحدا أن نأتي إليه بفرع من فروع الشجر، ثم يسرد علينا ما وصله من الشكاوى ضدنا، وبعد ذلك يتلو الحكم على المذنب منا، ويأخذ منه الفرع قائلاً: افتح يدك، ثـم يضـربنا علـى كفوفنا حسب درجة الذنب ويتركنا نبكي، وبعد ذلك يخـرج مناديلنا من جيوبنا ويمسح لنا دموعنا، ويقول: الآن وقد نـال كل منكم جزاءه، حذار أن يعود أحدكم إلى مثل ما فعل، وإن عدتم إلى مثل ذلك فسيكون العقاب مضاعفًا.

وبعد ذلك يصبح طفلاً مثلنا، يلعب معنا ويجـري أمامنـا ونجري خلفه، فكنت أنسى سيئاته بالحسنات التـي تعقبهـا. وذلك بخلاف شقيقي الذي كان يضمر في نفسه كل شـيء، وعندما يصل إلى داخل المنزل ويشعر أنه في مـأمن منـه، يصرخ صراخًا عاليا وهو يصعد السـلم، فتسـرع والـدتي لاستطلاع الخبر، فيشكو لها وهو يشهق بالبكاء ما فعله الآغا قائلاً: ضربني هذا العبد.

وكنت أحدق فيه ببصري ليسكت، ولكن عبثًا كنت أحاول إسكاته، ولما كانت والدتي تحقق في سـبب عقابنـا، كـان يخبرها الآغا بأننا كنا نستحق هذا العقاب، ويقـص عليهـا الأسباب، فكانت تهدئ من ثورة أخي قائلة: هذا مربيك ولـم يفعل ذلك إلا لصالحك..

كنت أحب "لا لا سعيد آغا" لأنـي كنـت أشـعر بحبـه وإخلاصه لنا رغم ما يظهره من القسوة أحيانًـا، ولا أنسـى مدى الحياة ساعة خطر رأيته فيها يضمنا إلى صدره ناسـيا نفسه، وكان ذلك ذات يوم توجهنا فيه إلى الجزيرة للنزهة في عربتنا، وكان يرجها جوادان روسيان كبيران في غاية القوة، وكانا لم يخرجا منذ بضعة أيام، وما كدنا نجتاز كوبري قصر النيل حتى جمحا على جسر الجزيرة متجهين إلى منحدر نحو النيل. فذعر "سعيد آغا" وأخذنا بين ذراعيه وصرخ بـأعلى صوته: آه يا أولاد سيدي..

وكأن ا قد أراد أن يكافئ إخلاصه هذا بنجاتنـا؛ حيـث شكم السائق الجوادين بقوة، فوقفا تماما، ونزلنا مـن العربـة حتى هدأت ثورتهما، ثم استأنفنا نزهتنا.

كان "لا لا سعيد" أبيا، معتدا بنفسه، مفاخرا بانتسابه لبيتنا، وكانت والدتي تعزه كثيرا وتعطف عليه لأن والدي اشـتراه صغيرا وعني بتربيته، وتعليمه في المدارس، وكـان يحـب والدي إلى درجة العبادة، ولما كبر، وجه حبه إلينا، وكانـت والدتي تقدر فيه الحب لوالدي ولنا من بعده، وقد شببت وأنـا أقدره وأعرف له فضل تربيتنا، وكان تأثير ذلك علي كبيرا.

كانت الأعياد والمواسم من أكثر عوامل بشرنا وسرورنا.. وكنا ننتظرها بفارغ الصبر ونستعد لها من قبل حلولها بمـدة طويلة، وكنا نهتم بإعداد ثيابنا لهذه المناسبات، ولكن كثيرا ما كانت هذه الثياب تنغص علي وتعكر صفوي وتسلبني بهجـة العيد وفرحته إذا ما حيكت على خلاف ما كنت أود. وكـان يزيدنا حزنًا وألما إنني لا أستطيع أن أجهر بذلك، فقد كـان علي دائما أن أتسلمها صاغرة شاكرة دون إبداء أية ملاحظة أو اعتراض.

وكلما فكرت أنه كان من السهل تحاشي ما ينغص علـي من جراء ذلك أو غيره من الأسباب، وددت لو أن العـادات وقتئذ كانت تسمح للصغار بإبداء ما يجول بأنفسهم في شيء من الصراحة.. فالصراحة هي أساس حسـن التفـاهم بـين

الناس.. وقد حرمتني تلك العادات والتقاليد القديمة من التمتع بمزاياها وفوائدها، بحجة أنه لا يليق بالصغير أن يعـارض أو يبدي رأيا، وإنما يجب عليه أن يأخذ كل ما يقال قضـية مسلما بها، وأن يتقبل كل ما يعـرض عليـه دون مناقشـة أو معارضة.

ولقد كانت والـدتي – رحمهـا ا - محافظـة متمسـكة بالتقاليد.. وكانت ميالة إلى الخير والإحسان، ولـذلك كـان للفقراء في كل أعيادنا نصيب كبير من برهـا.. ففـي ليلـة السابع والعشرين من رجب، تحتشد جمـوع السـائلين فـي الشارع على جانبي الطريق دون سابق دعوة إليهم، بل بحكم عادتهم في مثل هذا اليوم. وكانت والدتي تنزل إلى صـحن الدار الفسيح لتشارك بنفسها في إعداد الفت واللحم والأرز.. وكانت الأبواب تفتح لأفواج السائلين فوجا بعد فـوج، حتـى يشبع الجميع ويحمل كل منهم في وعائـه عشـاء زوجتـه وأولاده وأهل بيته.

كان هذا المنظر يؤلمنا ويؤثر فينا، إذ كنا نرى بين هؤلاء المتسولين الضرير والأعرج والمقعد والمريض والعجـوز..

فكنا نطلب من والدتنا أن تأمر بإعطاء من كان يستدر عطفنا بسوء حالته نقودا أكثر من غيره.

وكان لكل منا متسول أو أكثر يتردد بعد ذلك يوميا تقريبا. وكان متسولي رجلاً مبتور الساق، وكان ينبهني إلى وجـوده بقوله "يا رب".. وكان هناك أيضا مداح يدعى "عبد الـرحيم" وكان خفيف الروح، يرتجل المدائح والمواويل وقد ظل يتردد على منزلنا إلى أن تقدمت به السن، فخصصـنا لـه مرتبـا شهريا، ويطول استمرار هذا الحال حوالي أربعين عاما، كان يعتبر نفسه كأحد المستحقين فيطالبنا بكل ما يلزمه، وقد توفي إلى رحمة ا عام ١٩٣٨.

وكذلك كانت تفعل والدتي في ليلة النصف مـن شـعبان وبعد انتهائنا من إطعام الفقراء، كنا نجتمع في غرفة واسعة، وتأتي "الشيخة جلسن" لتجلس في وسط الغرفة وتقرأ علينـا دعاء نصف شعبان، ونحن نردد بصوت عال، وكـان لهـذا الدعاء في نفوسنا رهبة وروعة.

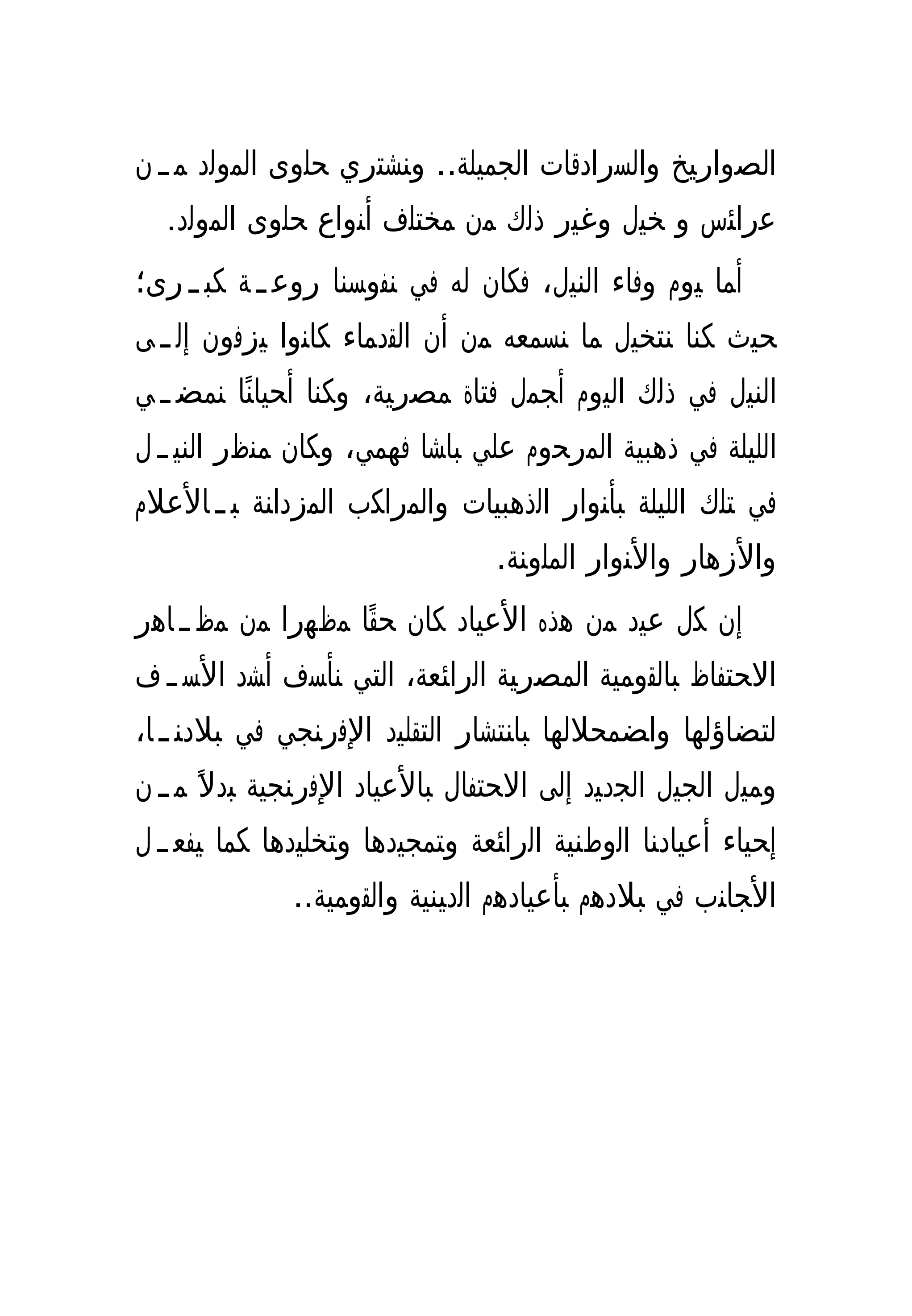
أما في ليلة القدر، فقد كنا نتوضأ قبل النوم ونصلي، ثـم يترقب كل منا ظهور "طاقة النور" التي يستجاب الدعاء عند ظهورها، حتى يغلبنا النعاس.

وعندما كان يحل عيد الفطر.. كنا نستيقظ في الصباح الباكر، ونرتدي ثيابنا الجديدة.. ثم نخرج لزيارة أصدقائنا، وكنا نمضي باقي النهار في منزل ثابت باشا نلعب في حديقته، أو كان أولاده يأتون عندنا، وكانوا أقرب جيراننا.

وكنا نترقب عيد الأضحى الذي تنحر فيه الذبائح، فنستيقظ مبكرين لنرى توزيع اللحوم على المستخدمين والفقراء. وكانت "دادتي" تعد لنا الكبد المحمرة للإفطار قائلة إن السنة تقضي بأن نذوق لحم ذبائح العيد.

وكانت الاستعدادات لعاشوراء تبدأ قبل موعدها بيومين أو ثلاثة أيام، وكنا نحن الصغار نشترك في نقش الصحون والأواني بالزبيب والصنوبر والجوز والفستق، وكانت الأسر الكبيرة تتبادل إهداء العاشوراء، وكم كان منظر الشوارع جميلاً وهي مزدحمة بحاملي هدايا العاشوراء ما بين رائح وغاد، وجميعهم في ملابسهم الشاهية أو الحرير يتمنطقون بأحزمة جميلة ويحملون على رءوسهم الصواني ذات الغطاءات الزاهية.

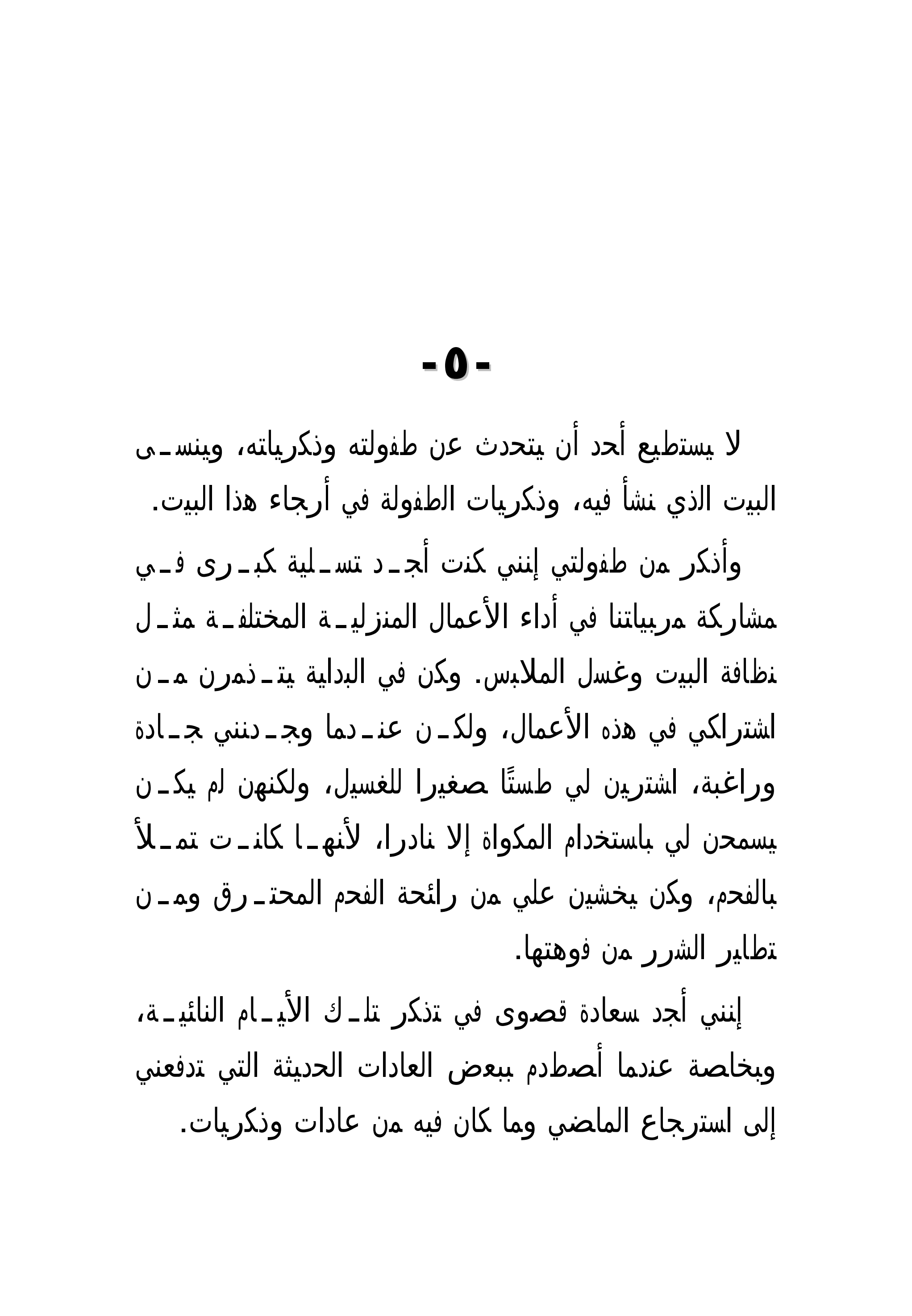
ومن الأعياد التي كانت تدخل السرور علينا، مولد النبي صلى ا عليه وسلم؛ حيث كنا نخرج في المساء لنشاهد



الصواريخ والسرادقات الجميلة.. ونشتري حلوى المولد من عرائس و خيل وغير ذلك من مختلف أنواع حلوى المولد.

أما يوم وفاء النيل، فكان له في نفوسنا روعة كبرى؛ حيث كنا نتخيل ما نسمعه من أن القدماء كانوا يزفون إلى النيل في ذلك اليوم أجمل فتاة مصرية، وكنا أحيانًا نمضي الليلة في ذهبية المرحوم علي باشا فهمي، وكان منظر النيل في تلك الليلة بأنوار الذهبيات والمراكب المزدانة بالأعلام والأزهار والأنوار الملونة.

إن كل عيد من هذه الأعياد كان حقًا مظهرا من مظاهر الاحتفاظ بالقومية المصرية الرائعة، التي نأسف أشد الأسف لتضاؤلها واضمحلالها بانتشار التقليد الإفرنجي في بلادنا، وميل الجيل الجديد إلى الاحتفال بالأعياد الإفرنجية بدلاً من إحياء أعيادنا الوطنية الرائعة وتمجيدها وتخليدها كما يفعل الأجانب في بلادهم بأعيادهم الدينية والقومية..



- ٥ -

لا يستطيع أحد أن يتحدث عن طفولته وذكرياته، وينسى البيت الذي نشأ فيه، وذكريات الطفولة في أرجاء هذا البيت.

وأذكر من طفولتي إنني كنت أجد تسلية كبرى في مشاركة مربياتنا في أداء الأعمال المنزلية المختلفة مثل نظافة البيت وغسل الملابس. وكن في البداية يتذمرن من اشتراكي في هذه الأعمال، ولكن عندما وجدنني جادة وراغبة، اشترين لي طستًا صغيرا للغسيل، ولكنهن لم يكن يسمحن لي باستخدام المكواة إلا نادرا، لأنها كانت تملأ بالفحم، وكن يخشين علي من رائحة الفحم المحترق ومن تطاير الشرر من فوهتها.

إنني أجد سعادة قصوى في تذكر تلك الأيام النائية، وبخاصة عندما أصطدم ببعض العادات الحديثة التي تدفعني إلى استرجاع الماضي وما كان فيه من عادات وذكريات.

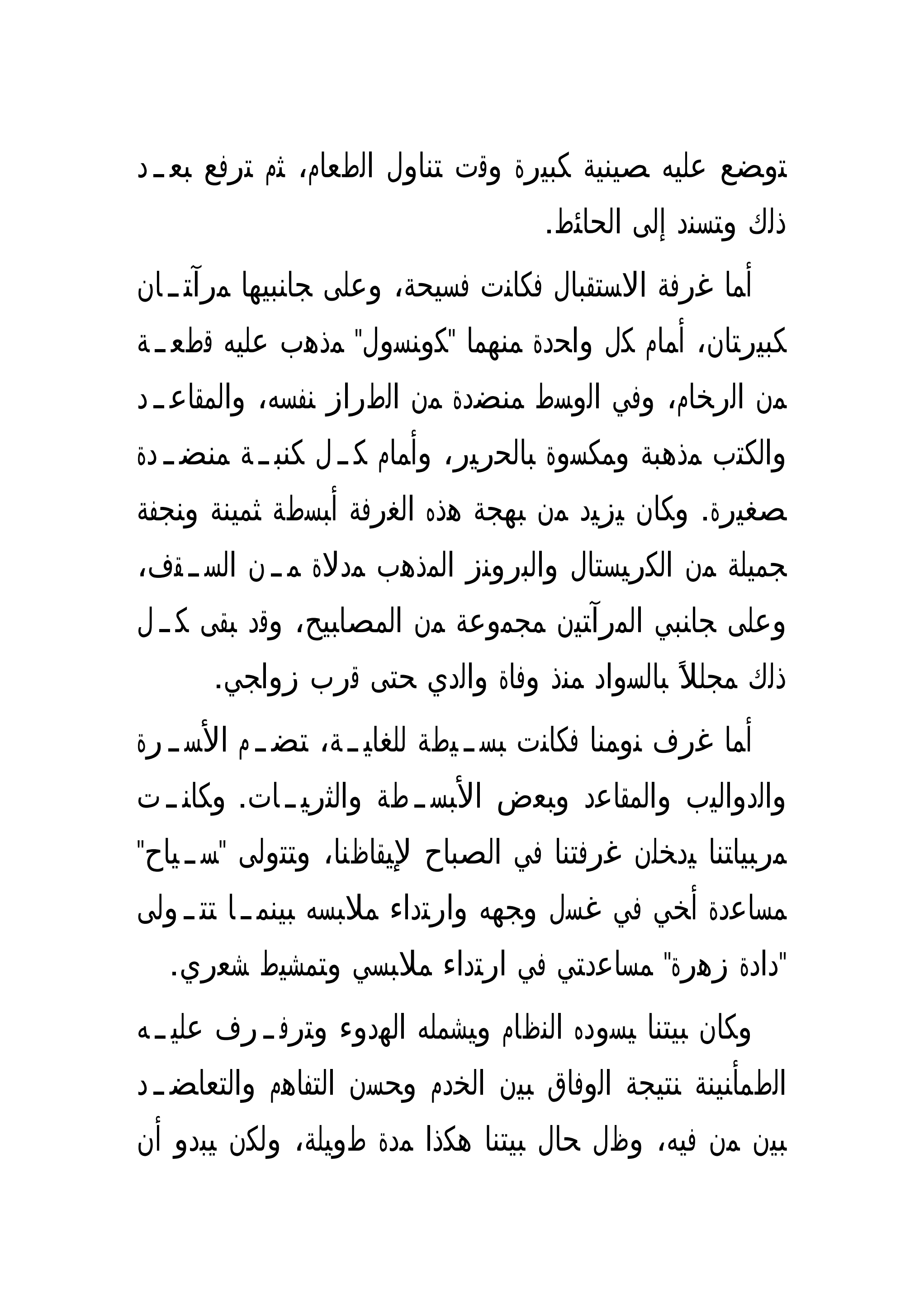
أذكر مثلاً بيتنا الكبيـر ذا الحجـرات الفسـيحة والبهـو الواسع، والذي كان يغص بالجواري والمماليك. كانوا مدربين على العمل، مخلصين في أداء واجباتهم، شاعرين بالمسئولية الملقاة على عواتقهم، محترمين مخدوميهم، محافظين على ما بين أيديهم من الأشياء، محبين لصغار مخدوميهم الذين ولدوا بين أيديهم، كل واحد يقوم بعمله خير قيام، ويشـاركنا فـي السراء والضراء، ولا تمتد يده إلى شيء مهما كانت قيمتـه، ولا يطمع إلا في رضاء أولياء أمره. وكنا نبادلهم هذا الحب، ونقدر لهم هذا الإخلاص.

واليوم، أغمض عيني وأستعيد ذكريات الغـرف الخاليـة واحدة بعد الأخرى، فأرى والدتي جاثية على ركبتيها تفصل ثيابنا فوق ملاءة بيضاء مفروشة على البسـاط فـي وسـط غرفتها، أو جالسة على الشلتة وأمامها ماكينة اليد التي تحيك بها ثيابنا، أو تلعب الطاولة أو الورق مع صديقاتها مبتسـمة متهللة إذا كانت هي الغالبة، أو تناقش بعض الأمور فيرتفـع منها الصوت الذي تعودناه هادئًا، وهي تـدافع عـن وجهـة نظرها.

ثم أتحول إلى غرفة والدتي الكبيرة، فأراها مستلقية على سريرها وبيدها المصحف ترتل آيات القرآن الحكيم، أو تذكار الدرس اليومي الذي فرضته على نفسها حبا في تعلم اللغة العربية وتعلقًا بها. وأراها مرة أخرى جالسة في فراشها ومن خلفها خادمتها الصغيرة تدلك ظهرها بيديها الصغيرتين، فإذا رأيتها على هذه الحال، دنوت منها ورجوتها أن تسمح لي أيضا بتخفيف آلامها، فتضحك وتصرف الفتاة وتقول لي: قومي بدورك، فأصعد إلى السرير، وأتفنن في تدليكها بكل ما عندي من قوة.

وأتجول في أنحاء البيت، فأرى الجواري كالنحل يصعدن في الصباح الباكر إلى الدور العلوي، وتتوجه كل واحدة منهن إلى موقعها لتقوم بأداء ما هو مطلوب منها، بعد أن يشتركن جميعا في تنظيف البهو الفسيح.

وكانت غرفة المائدة لا تتميز عن باقي الغرف إلا بوجود دولابين في الحائط لحفظ الأطباق الفضية والأكواب، وحمالة الطست والإبريق التي كانت تشغل ركنًا بجانب الباب، وكرسي مرتفع مستدير في وسط الغرفة

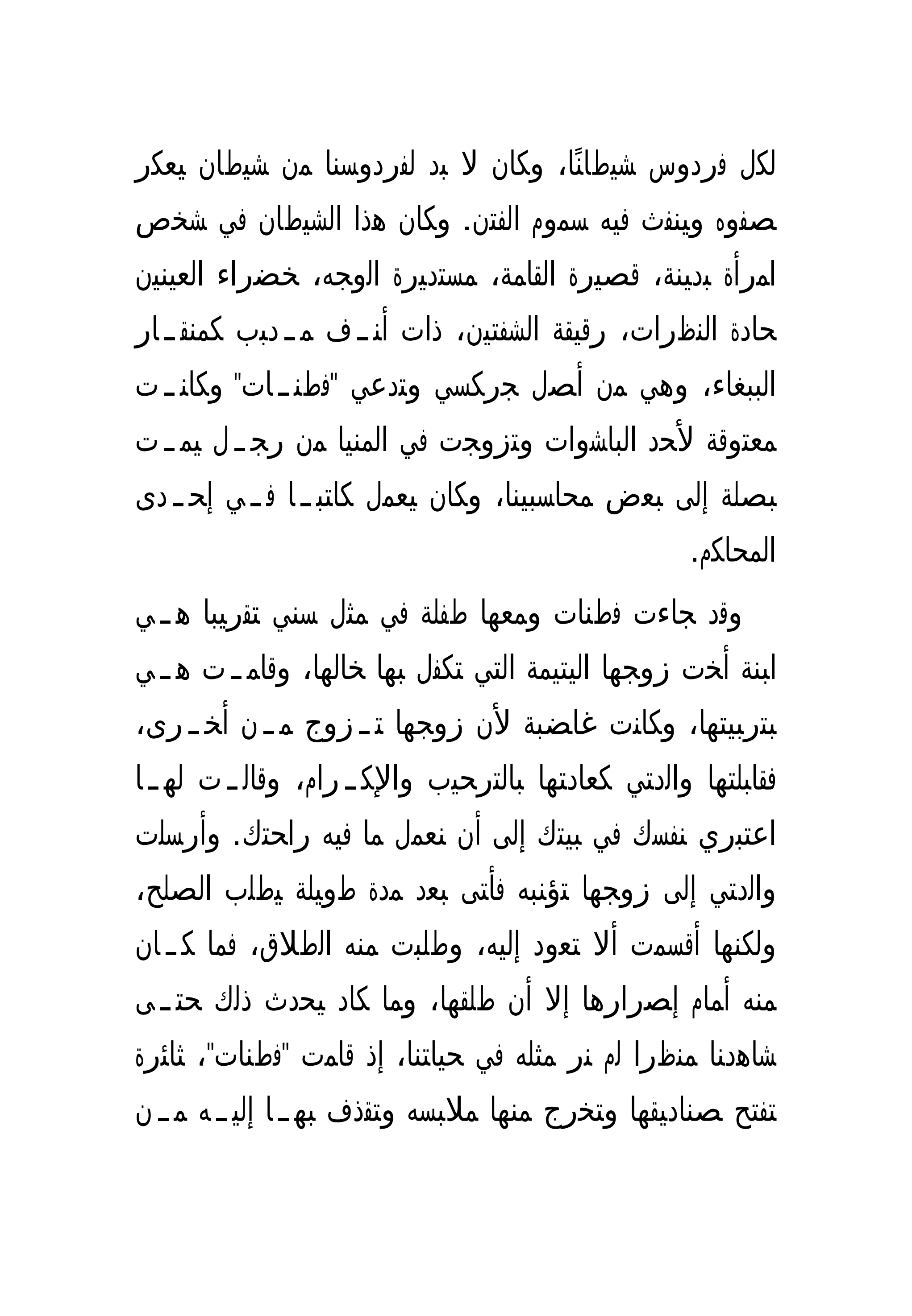


توضع عليه صينية كبيرة وقت تناول الطعام، ثم ترفع بعـد ذلك وتسند إلى الحائط.

أما غرفة الاستقبال فكانت فسيحة، وعلى جانبيها مرآتـان كبيرتان، أمام كل واحدة منهما "كونسول" مذهب عليه قطعـة من الرخام، وفي الوسط منضدة من الطراز نفسه، والمقاعـد والكتب مذهبة ومكسوة بالحرير، وأمام كـل كنبـة منضـدة صغيرة. وكان يزيد من بهجة هذه الغرفة أبسطة ثمينة ونجفة جميلة من الكريستال والبرونز المذهب مدلاة مـن السـقف، وعلى جانبي المرآتين مجموعة من المصابيح، وقد بقى كـل ذلك مجللاً بالسواد منذ وفاة والدي حتى قرب زواجي.

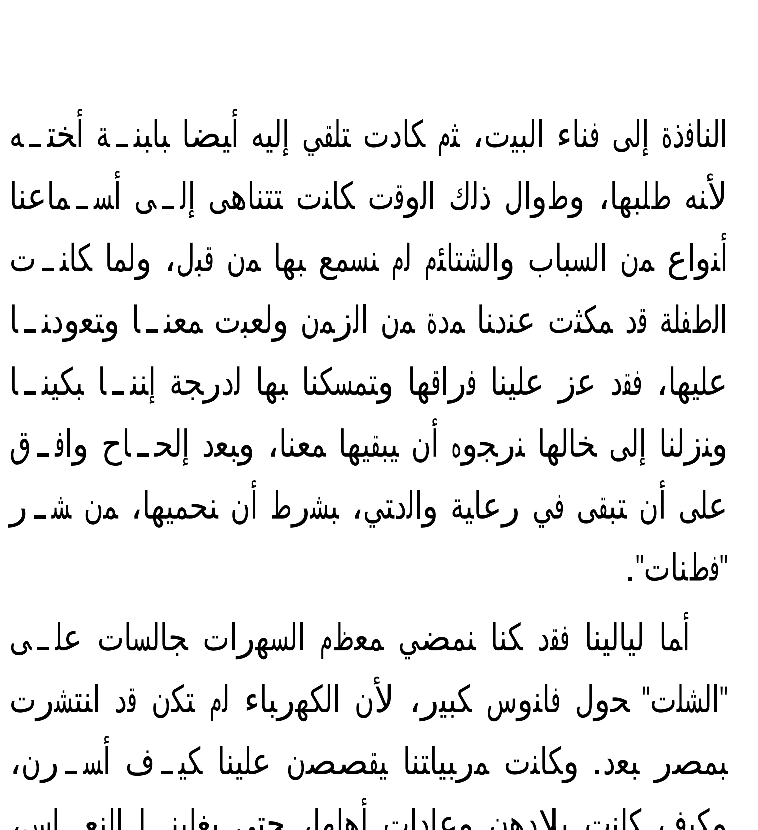
أما غرف نومنا فكانت بسـيطة للغايـة، تضـم الأسـرة والدواليب والمقاعد وبعض الأبسـطة والثريـات. وكانـت مربياتنا يدخلن غرفتنا في الصباح لإيقاظنا، وتتولى "سـياح" مساعدة أخي في غسل وجهه وارتداء ملابسه بينمـا تتـولى "دادة زهرة" مساعدتي في ارتداء ملابسي وتمشيط شعري.

وكان بيتنا يسوده النظام ويشمله الهدوء وترفـرف عليـه الطمأنينة نتيجة الوفاق بين الخدم وحسن التفاهم والتعاضـد بين من فيه، وظل حال بيتنا هكذا مدة طويلة، ولكن يبدو أن



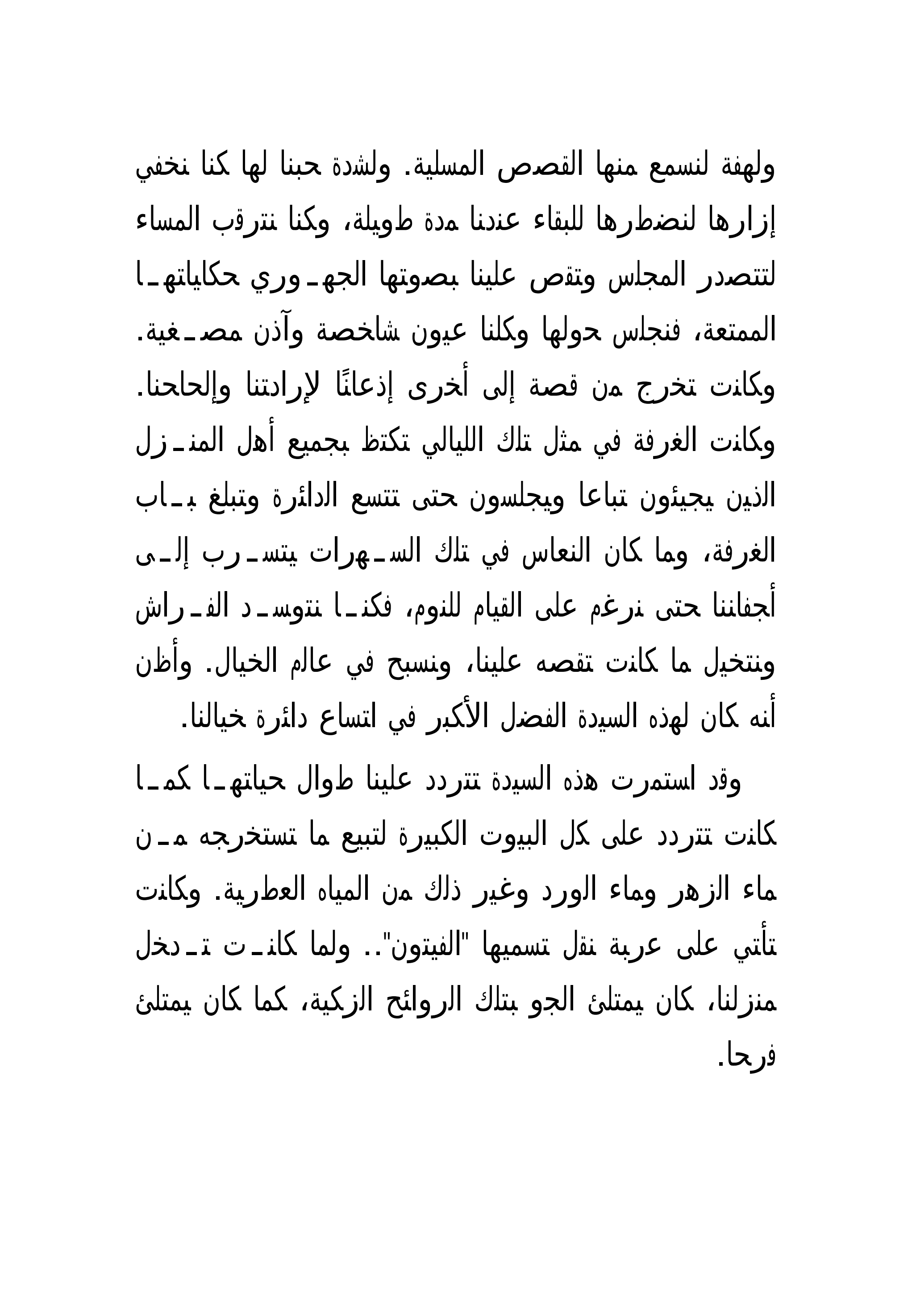
لكل فردوس شيطانًا، وكان لا بد لفردوسنا من شيطان يعكر صفوه وينفث فيه سموم الفتن. وكان هذا الشيطان في شخص امرأة بدينة، قصيرة القامة، مستديرة الوجه، خضراء العينين حادة النظرات، رقيقة الشفتين، ذات أنف مدبب كمنقار الببغاء، وهي من أصل جركسي وتدعي "فطنات" وكانت معتوقة لأحد الباشوات وتزوجت في المنيا من رجل يمت بصلة إلى بعض محاسبينا، وكان يعمل كاتبا في إحدى المحاكم.

وقد جاءت فطنات ومعها طفلة في مثل سني تقريبا هي ابنة أخت زوجها اليتيمة التي تكفل بها خالها، وقامت هي بتربيتها، وكانت غاضبة لأن زوجها تزوج من أخرى، فقابلتها والدتي كعادتها بالترحيب والإكرام، وقالت لها اعتبري نفسك في بيتك إلى أن نعمل ما فيه راحتك. وأرسلت والدتي إلى زوجها تؤنبه فأتى بعد مدة طويلة يطلب الصلح، ولكنها أقسمت ألا تعود إليه، وطلبت منه الطلاق، فما كان منه أمام إصرارها إلا أن طلقها، وما كاد يحدث ذلك حتى شاهدنا منظرا لم نر مثله في حياتنا، إذ قامت "فطنات"، ثائرة تفتح صناديقها وتخرج منها ملابسه وتقذف بها إليه من



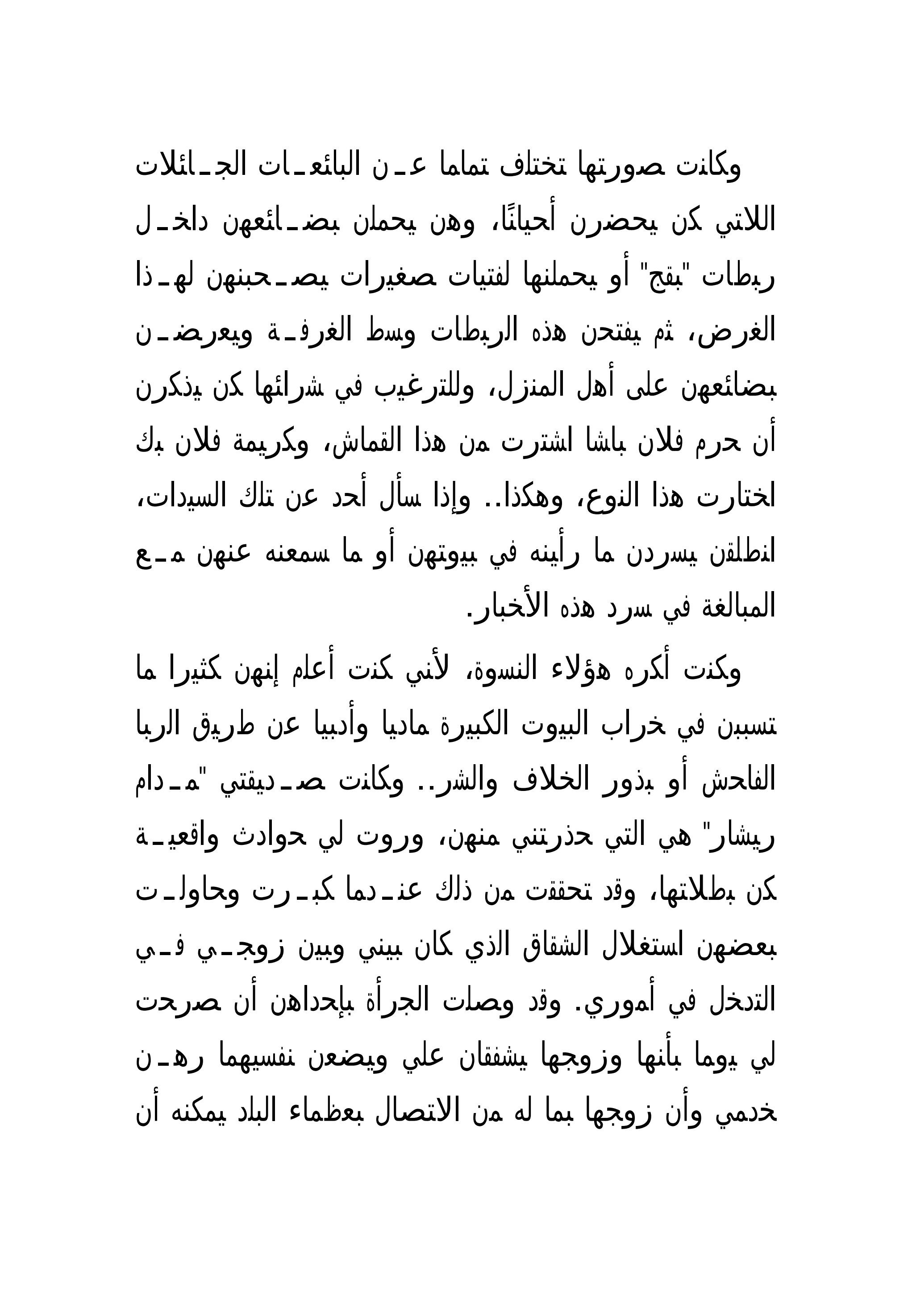
النافذة إلى فناء البيت، ثم كادت تلقي إليه أيضا بابنة أخته لأنه طلبها، وطوال ذلك الوقت كانت تتناهى إلى أسماعنا أنواع من السباب والشتائم لم نسمع بها من قبل، ولما كانت الطفلة قد مكثت عندنا مدة من الزمن ولعبت معنا وتعودنا عليها، فقد عز علينا فراقها وتمسكنا بها لدرجة إننا بكينا ونزلنا إلى خالها نرجوه أن يبقيها معنا، وبعد إلحاح وافق على أن تبقى في رعاية والدتي، بشرط أن نحميها، من شر "قطنات".

أما ليالينا فقد كنا نمضي معظم السهرات جالسات على "الشلت" حول فانوس كبير، لأن الكهرباء لم تكن قد انتشرت بمصر بعد. وكانت مربياتنا يقصصن علينا كيف أسرن، وكيف كانت بلادهن وعادات أهلها، حتى يغلبنا النعاس، فنأوي إلى فراشنا. وكانت تلك السهرات تطول وتكتسب كثيرا من الأهمية والبهجة عندما كانت تحضر لزيارتنا سيدة كانت تستخرج ماء الزهر ونسميها "الست الزهارة". كانت طويلة القامة، ضخمة الجسم، مستديرة الوجه، عليها سيماء الهيبة والوقار، ترتدي دائما الملابس البيضاء وعلى رأسها طرحة بيضاء. وكنا نحبها كثيرا وننتظر زيارتها بشوق



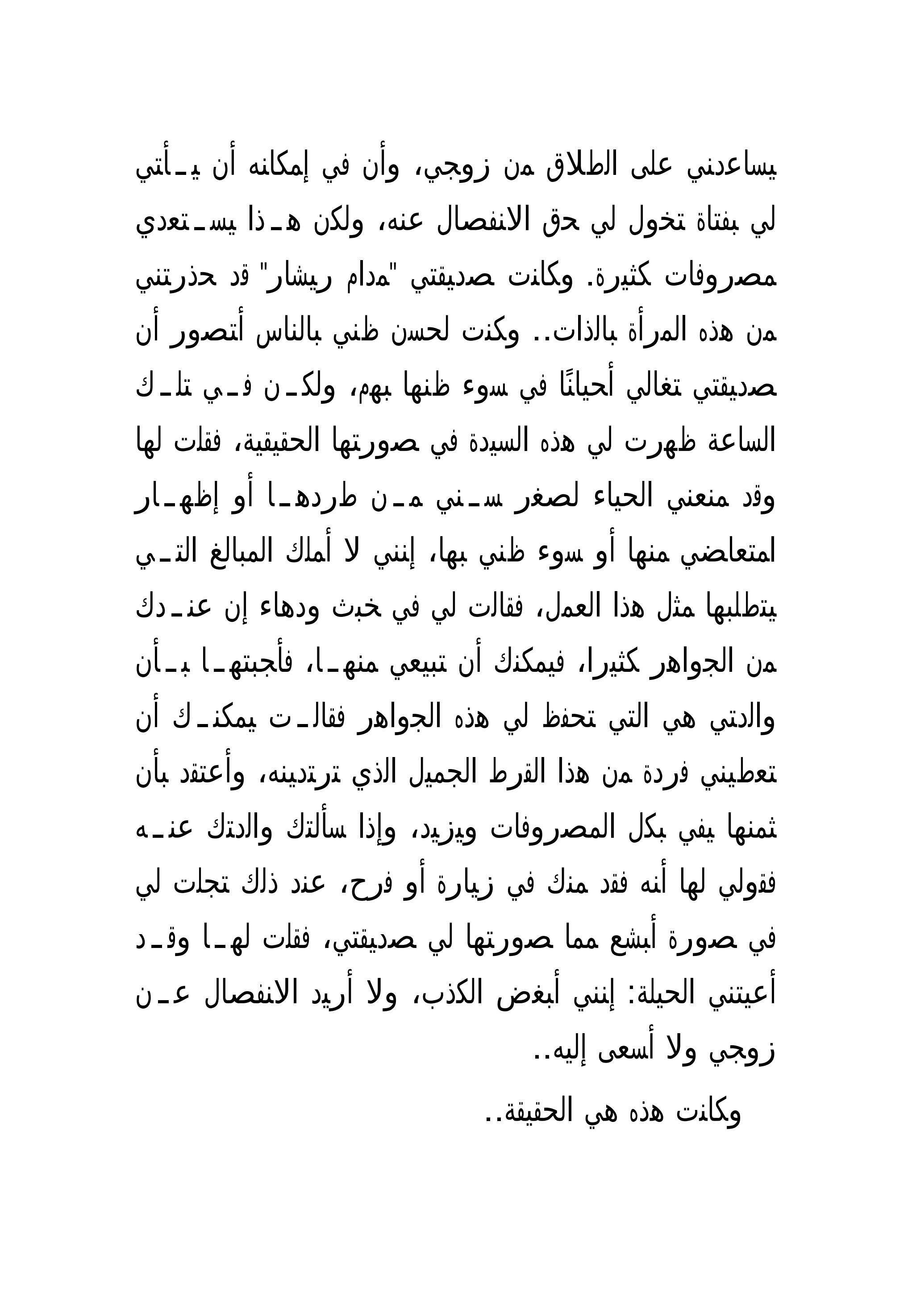
ولهفة لنسمع منها القصص المسلية. ولشدة حبنا لها كنا نخفي إزارها لنضطرها للبقاء عندنا مدة طويلة، وكنا نترقب المساء لتتصدر المجلس وتقص علينا بصوتها الجهوري حكاياتها الممتعة، فنجلس حولها وكلنا عيون شاخصة وآذن مصغية. وكانت تخرج من قصة إلى أخرى إذعانًا لإرادتنا وإلحاحنا. وكانت الغرفة في مثل تلك الليالي تكتظ بجميع أهل المنزل الذين يجيئون تباعا ويجلسون حتى تتسع الدائرة وتبلغ باب الغرفة، وما كان النعاس في تلك السهرات يتسرب إلى أجفاننا حتى نرغم على القيام للنوم، فكنا نتوسد الفراش ونتخيل ما كانت تقصه علينا، ونسبح في عالم الخيال. وأظن أنه كان لهذه السيدة الفضل الأكبر في اتساع دائرة خيالنا.

وقد استمرت هذه السيدة تتردد علينا طوال حياتها كما كانت تتردد على كل البيوت الكبيرة لتبيع ما تستخرجه من ماء الزهر وماء الورد وغير ذلك من المياه العطرية. وكانت تأتي على عربة نقل تسميها "الفيتون".. ولما كانت تدخل منزلنا، كان يمتلئ الجو بتلك الروائح الزكية، كما كان يمتلئ فرحا.



وكانت صورتها تختلف تماما عن البائعات الجائلات اللاتي كن يحضرن أحيانًا، وهن يحملن بضائعهن داخل ربطات "بقج" أو يحملنها لفتيات صغيرات يصحبنهن لهذا الغرض، ثم يفتحن هذه الربطات وسط الغرفة ويعرضن بضائعهن على أهل المنزل، وللترغيب في شرائها كن يذكرن أن حرم فلان باشا اشترت من هذا القماش، وكريمة فلان بك اختارت هذا النوع، وهكذا.. وإذا سأل أحد عن تلك السيدات، انطلقن يسردن ما رأينه في بيوتهن أو ما سمعنه عنهن مع المبالغة في سرد هذه الأخبار.

وكنت أكره هؤلاء النسوة، لأني كنت أعلم إنهن كثيرا ما تسببن في خراب البيوت الكبيرة ماديا وأدبيا عن طريق الربا الفاحش أو بذور الخلاف والشر.. وكانت صديقتي "مدام ريشار" هي التي حذرتني منهن، وروت لي حوادث واقعية كن بطلاتها، وقد تحققت من ذلك عندما كبرت وحاولت بعضهن استغلال الشقاق الذي كان بيني وبين زوجي في التدخل في أموري. وقد وصلت الجرأة بإحداهن أن صرحت لي يوما بأنها وزوجها يشفقان علي ويضعن نفسيهما رهن خدمي وأن زوجها بما له من الاتصال بعظماء البلد يمكنه أن



يساعدني على الطلاق من زوجي، وأن في إمكانه أن يـأتي لي بفتاة تخول لي حق الانفصال عنه، ولكن هـذا يسـتعدي مصروفات كثيرة. وكانت صديقتي "مدام ريشار" قد حذرتني من هذه المرأة بالذات.. وكنت لحسن ظني بالناس أتصور أن صديقتي تغالي أحيانًا في سوء ظنها بهم، ولكـن فـي تلـك الساعة ظهرت لي هذه السيدة في صورتها الحقيقية، فقلت لها وقد منعني الحياء لصغر سـني مـن طردهـا أو إظهـار امتعاضي منها أو سوء ظني بها، إنني لا أملك المبالغ التـي يتطلبها مثل هذا العمل، فقالت لي في خبث ودهاء إن عنـدك من الجواهر كثيرا، فيمكنك أن تبيعي منهـا، فأجبتهـا بـأن والدتي هي التي تحفظ لي هذه الجواهر فقالـت يمكنـك أن تعطيني فردة من هذا القرط الجميل الذي ترتدينه، وأعتقد بأن ثمنها يفي بكل المصروفات ويزيد، وإذا سألتك والدتك عنـه فقولي لها أنه فقد منك في زيارة أو فرح، عند ذلك تجلت لي في صورة أبشع مما صورتها لي صديقتي، فقلت لهـا وقـد أعيتني الحيلة: إنني أبغض الكذب، ولا أريد الانفصال عـن زوجي ولا أسعى إليه..

وكانت هذه هي الحقيقة..

ولكن هذا الموقف لم يثن من عزمها، بل أخـذت تتحـين الفرص للتقرب مني واستغلال سذاجتي لتصل إلى الاستفادة المادية التي تنشدها، فلما اشتريت قطعة الأرض التي بنيـت عليها فيما بعد منزلي الحالي، كان الشراء بوساطة زوجـي الذي كان وكيلاً عنا، وقد حاولت هذه السيدة أن تدس عليـه، فسألتني يوما عن ثمن المتر من هذه الأرض، فأجبتها، فقالت لي: كم يظلمونك. إن هذه الأرض لا تساوي نصف ثمنهـا. فأثر في ذلك وصدقته إلى حد ما، ولكن لم يمض شهر حتى عادت تقول لي أن زوجها وجد مشتريا لهذه الأرض بالقيمة التي دفعت فيها، ونصحتني بأن أنتهز هذه الفرصة فأبيعهـا وأشتري بثمنها قطعة أفضل منها، فرفضت.

وعادت بعد أسبوع تعطيني فيها ٥٠% زيادة على ثمنهـا الأصلي، فأظهرت لها دهشتي من عرض هذه الزيادة وقـد كانت منذ حين تبخس قيمة هذه الأرض، وظلت تتردد بـين الحين والآخر تزيد في الثمن حتى بلغ ما عرضـته ثلاثـة أضعاف الثمن الأصلي، وكان نصيبها الرفض في كل مرة.

ولقد وصلت الجرأة بزوجها إلى أن يتسلم عربونـًا لبيـع الأرض أثناء غيابي عن مصر، دون تفويض منـي يخولـه

ذلك، كما أرسل إلي برقية يخبرني فيها أنه تسلم العربون ويطلب موافقتي على البيع، فكان ردي هو الرفض البات، فأثار هذا حقده، وحول مؤامراته للدس لي عند زوجي وشقيقي بخطابات مجهولة الإمضاء يحمل علي فيها، ولما ضقت به ذرعا، سردت على صديقتي حرم المغفور له حسين رشدي باشا هذه القصة، وسلمتها خطاباته لتطلع زوجها عليها، وكان لدي خطاب منه بخط الخطابات المجهولة نفسه.. وكان رشدي باشا يشغل في ذلك الوقت منصبا كبيرا في وزارة الحقانية، فما كان منه إلا أن استدعاه وهدده بالنفي من مصر في ظرف أربع وعشرين إذا لم يرتدع، وبعد ذلك لم أسمع عنه أو عن زوجته شيئًا. وهكذا نجوت منهما.

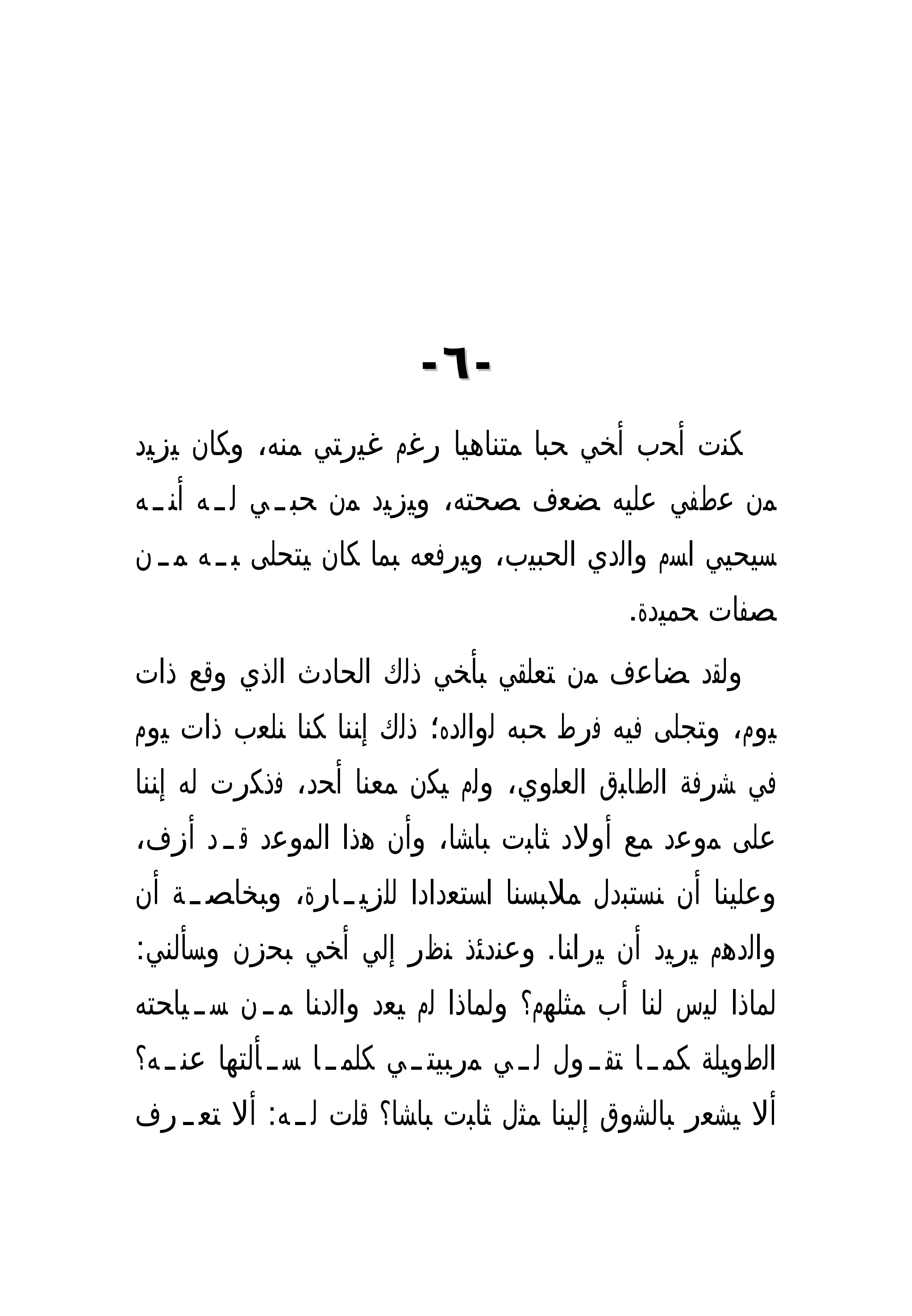
ولعل هذه القصة تكون درسا للسيدات والفتيات، فيأخذن حذرهن من أمثال هؤلاء النسوة اللاتي يترددن على البيوت، ويمشين بالشر بين أهلها.

كانت هذه هي صورة تسليتنا في حياتنا العائلية على ما كان بيتنا فيه من حداد. وكان يزيد في اغتباطنا زيارة أصدقاء المرحوم والدي لنا، وحدبهم علينا، واهتمامهم بنا،

وأذكر منهم الزبير باشا والشيخ علي الليثي والأنبا كيـرلس بطريرك الأقباط وقليني فهمي باشا وحسن حسني باشا وثابت باشا الذي كانت تربطنا بأبنائه أواصر صداقة منـذ الصـغر لأنه كان جارنا وصديقًا لوالدي، كما كانت والدتهم صـديقة لوالدتي. وكنا نقضي أغلب أوقاتنا في اللعب والمـرح فـي حديقتهم الفسيحة المترامية التي كانت تشغل كل الأرض التي بنيت عليها لوكاندة سافوي القديمة وعمارة بهلـر الحديثـة. وكان ممرنا الموصل إليها حديقة قطاوي باشا التـي كانـت تمتد من شارع الشريفين إلى ميدان سليمان باشا. وكثيرا مـا كنا نلعب في تلك الحديقة ومعنا أنجال قطاوي باشا.

ومن كثرة اختلاطي بالصبيان ولعبـي معهـم، تطبعـت بطباعهم وشببت عليها، وهنا أقرر أن اختلاط الجنسين منـذ الصغر إن لم يكن له تأثير حسن في تربية الأطفال، فلـيس من ورائه الضرر الذي يحدث مـن الاخـتلاط فـي أدوار المراهقة وما بعدها، لأن اختلاط الأطفال يجعلهم يشبون على عدم الفوارق وتربطهم الصداقة البريئة ومـن كثـرة تعـود بعضهم على بعض يصبحون كأنهم إخوة.

وأؤكد أن كثيرا من الفتيات اللاتي تآخين منذ الصغر مـع زملائهن من الفتيان؛ لكن أقل علما بكثير من الأمـور التـي عرفتها أترابهن ممن تعارفن في سن كبيرة، فما من شك في أن الفوارق والنزعات في هـذه الأعمـار تكـون ظـاهرة ومحسوسة.. أما الاختلاط منذ الصغر وبين أولاد من طبقـة متساوية تربوا على أساس من الحشمة والاحترام، فهو قليـل الشوائب والأخطاء.



-٦-

كنت أحب أخي حبا متناهيا رغم غيرتي منه، وكان يزيد من عطفي عليه ضعف صحته، ويزيد من حبـي لـه أنـه سيحيي اسم والدي الحبيب، ويرفعه بما كان يتحلى بـه مـن صفات حميدة.

ولقد ضاعف من تعلقي بأخي ذلك الحادث الذي وقع ذات يوم، وتجلى فيه فرط حبه لوالده؛ ذلك إننا كنا نلعب ذات يوم في شرفة الطابق العلوي، ولم يكن معنا أحد، فذكرت له إننا على موعد مع أولاد ثابت باشا، وأن هذا الموعد قـد أزف، وعلينا أن نستبدل ملابسنا استعدادا للزيـارة، وبخاصـة أن والدهم يريد أن يرانا. وعندئذ نظر إلي أخي بحزن وسألني: لماذا ليس لنا أب مثلهم؟ ولماذا لم يعد والدنا مـن سـياحته الطويلة كمـا تقـول لـي مربيتـي كلمـا سـألتها عنـه؟ ألا يشعر بالشوق إلينا مثل ثابت باشا؟ قلت لـه: ألا تعـرف

السبب؟ قال: لا. فهل تعرفينه أنت؟ قلت: نعـم، ولكـن إذا أطلعتك عليه فهل تعدني بأن تحتفظ بهذا السر دون أن تبوح به لأحد؟ قال: نعم.. تعدني بذلك، قلت لـه: إنهـم يكـذبون علينا.. إن والدنا لن يعود إلينـا أبـدا.. فقـال فـي دهشـة واستغراب: لماذا؟ قلت: لأنه قد مات!..

وكم ندمت على خروج هذه الكلمة من فمي، لأنـه كـاد يصعق من هول المفاجأة، وارتمـى علـى الأرض يبكـي وينتحب ويصرخ صراخًا عاليا، وانحنيت عليه باكية أحـاول أن أهدئ من روعه وأكفكف عبراته.. ولكن حناني لم يهون عليه شيئًا، بل ظل على هذه الحالة إلى أن سمعته والـدتي، فهرولت نحونا صارخة: مالك يا خطاب؟

وعندئذ تواريت خلف الباب وأنا أرتعـد خوفًـا وفزعـا، مخافة أن يطلعها أخي على ما قلته له، فتحقد علي، ومالـت عليه والدتي ورفعته عن الأرض وضمته إلى صدرها وهـو ما زال يبكي دون أن يجيب عـن أسـئلتها.. فظنـت أنـي ضربته، فالتفتت إلي غاضبة وسألتني: هل ضـربته؟ فـرد عليها وهو يشهق قائلاً: لا... أبلة لم تفعل لي شيئًا!..

وتعجبت والدتي من أمره، وظلت تحاول تهدئته إلى أن نام في حضنها، وأمضينا ليلة سوداء، لأن ذلك الانفعال أثر في صحته الضعيفة، فقضى يومين أو أكثر دون أن يقوى على مغادرة فراشه، واجتهدت والدتي أن تعرف منه السبب، فلم يعترف لها بشيء. ولما كان لا يعرف الكذب، فإنه لم يستطع أن يهدئ خاطرها.

وهكذا بر أخي الصغير بوعده، وشب على هذه الفضيلة، ولم يعد يسأل بعد ذلك عن أبيه لأنه عرف مكانه، ومنذ ذلك اليوم زاد تقديري لأخي، وتضاعفت محبتي له، وشعرت أنه يغمرني بحبه أكثر من ذي قبل ويسر إلي بخفايا نفسه، وقد ظل الحب بيننا متبادلاً وكبيرا حتى فرق بيننا القدر، وكانت وفاته أقسى صدمة واجهتني في حياتي.

كانت في حياتنا الأسرية صداقات وطيدة، وفي مقدمة السيدات اللائي كنت أكن لهن الحب والاحترام، المغفور لها سمو الأميرة أمينة إلهامي قرينة الخديوي توفيق، فقد كنت أجد منها العطف والمجاملة، ولذلك ظلت منزلتها في نفسي كما كانت حتى الآن.

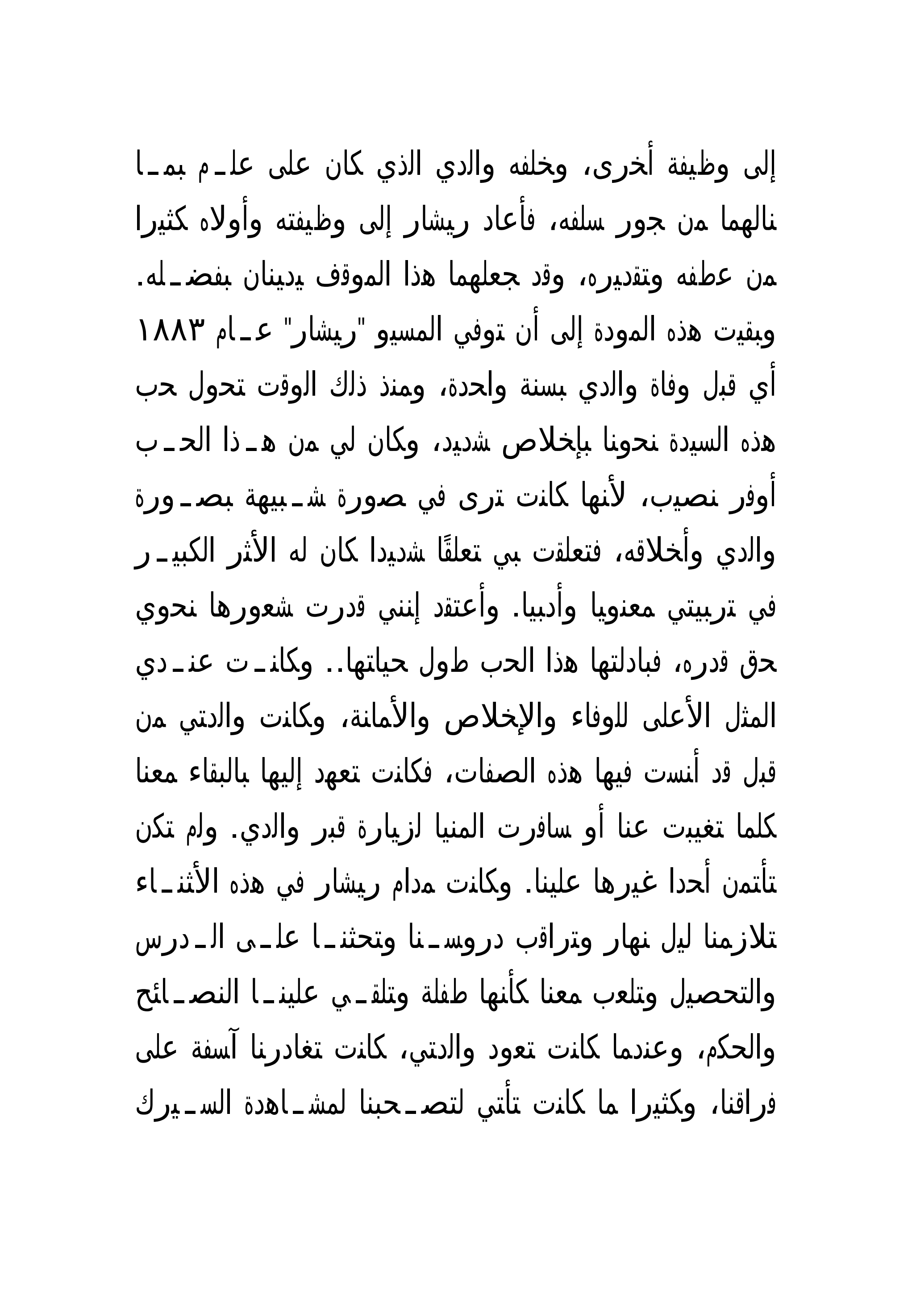
وقد عرفتها وأحببتها وأعجبت بجمالها وجلالها وأنا طفلة بعد وفاة والدي، إذ كانت والدتي تأخذنا معها إلى السراي كلما التمست المساعدة في أمورنا وأشغالنا، أو حسم النزاع بالنسبة لبعض مشاكل الميراث، وأذكر إنها كانت تنظر إلينا في حنان، وتأمر الجواري بأن يذهبن بنا إلى غرفة أولادها الأمراء والأميرات، فكنا نلعب معهم حتى تنتهي زيارة والدتي وتستأذن للانصراف.

وأذكر أن أخي الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره، قد أعجبته ذات مرة لعبة كبيرة من لعب الأميرات، وأصر على ألا يخرج بدونها، وعندما عرفت الأميرة الوالدة أمرت بإعطائها له، فخرج مسرورا بينما كنت أتصبب عرقًا من الخجل لأني بحكم السن كنت أدرك أكثر منه ما يليق وما لا يليق.

ومن بين هؤلاء أيضا سيدة فرنسية كانت زوجة أحد كبار مهندسي الري في الوجه القبلي، وكانت قد جاءت إلى مصر مع خالها وهو مهندس أيضا؛ حيث لم يكن لها من عائل سواه إذ كانت يتيمة الوالدين. وقد أحبها ريشار وتزوج منها، ثم مات خالها وبقيت هي مع زوجها في مصر.

وكانت هذه السيدة خفيفة الروح، رقيقة الحاشـية، جذابـة أكثر منها جميلة، وكانت ذات عينين سوداوين فاتنتين مثـل شعرها الفاحم. وكان زوجها يفوقها جمالاً تزينـه الرجولـة والشجاعة والمروءة. وكانت زوجته مكروهة مـن النسـاء، وكان هو أيضا مكروها من الرجال، لأن حبهمـا المتبـادل الوثيق لم يسمح لأحد أن يطمع في الوصول اليهما.

وفي ذلك الوقت، كان أحد الباشوات يشغل منصب مفتش عام الوجه القبلي، قبل أن يشغل والدي هذا المنصب، فكـان بحكم وظيفته رئيسا للمسيو ريشار، وكثيرا ما كان يدعوه مع زوجتـه إلـى سـراياه ويحتفـي بهمـا حفـاوة بالغـة. وقد فهمت مدام ريشار من مجاملته لهما وكثرة تردده عليهما أنه يقصد استمالتها إليه، فصارت تحتجب عنه وتعتذر عـن قبول دعوته وإذا أتى للزيارة في غياب زوجها امتنعت عـن مقابلته، وكان من نتيجة هذا الصد مـن جانبهـا أن فصـل زوجها من عمله، ولما كانا فقيرين لا مورد لهما إلا الوظيفة، فقد ذاقا مرارة العيش وبؤسه مدة طويلة، تحملاها بصبر في سبيل الذود عن شرفهما وكرامتهما. ولم تشأ عدالة السماء أن يستمر عذاب هذين الزوجين البريئين طويلاً، فنقل هذا الباشا

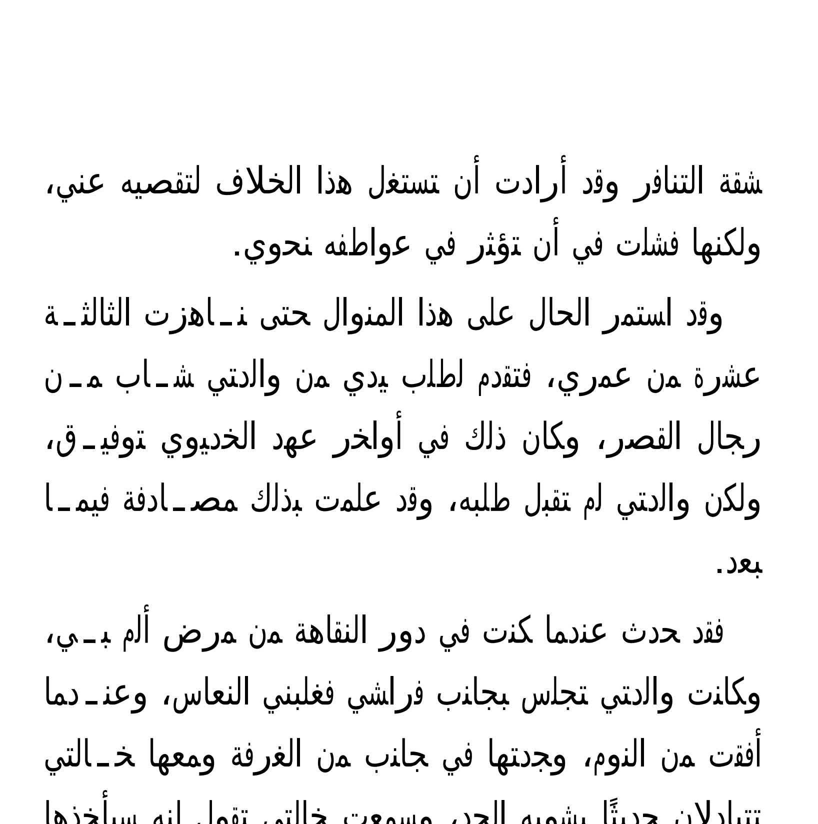


إلى وظيفة أخرى، وخلفه والدي الذي كان على علـم بمـا نالهما من جور سلفه، فأعاد ريشار إلى وظيفته وأولاه كثيرا من عطفه وتقديره، وقد جعلهما هذا الموقف يدينان بفضـله. وبقيت هذه المودة إلى أن توفي المسيو "ريشار" عـام ١٨٨٣ أي قبل وفاة والدي بسنة واحدة، ومنذ ذلك الوقت تحول حب هذه السيدة نحونا بإخلاص شديد، وكان لي من هـذا الحـب أوفر نصيب، لأنها كانت ترى في صورة شـبيهة بصـورة والدي وأخلاقه، فتعلقت بي تعلقًا شديدا كان له الأثر الكبيـر في تربيتي معنويا وأدبيا. وأعتقد إنني قدرت شعورها نحوي حق قدره، فبادلتها هذا الحب طول حياتها.. وكانـت عنـدي المثل الأعلى للوفاء والإخلاص والأمانة، وكانت والدتي من قبل قد أنست فيها هذه الصفات، فكانت تعهد إليها بالبقاء معنا كلما تغيبت عنا أو سافرت المنيا لزيارة قبر والدي. ولم تكن تأتمن أحدا غيرها علينا. وكانت مدام ريشار في هذه الأثنـاء تلازمنا ليل نهار وتراقب دروسـنا وتحثنـا علـى الـدرس والتحصيل وتلعب معنا كأنها طفلة وتلقـي علينـا النصـائح والحكم، وعندما كانت تعود والدتي، كانت تغادرنا آسفة على فراقنا، وكثيرا ما كانت تأتي لتصـحبنا لمشـاهدة السـيرك

والحفلات المختلفة، وعندما كان يسألها أحد عمـا إذا كنـت ابنتها، كانت تطير فرحا وتقبلني قائلة: إذًا هدى تشبهني.

كانت "فطنات" وصيفة والدتي تكرهني كرهـا شـديدا.. وكانت أيضا تكره مدام ريشار من أجلي لأنها كانت تـدافع عني وتحميني من شرها. قد حاولت هذه الوصيفة مرارا أن تشي بمدام ريشار عند والدتي، وقد نجحت فعلاً فـي آخـر الأمر، وكان علي أن أدافع عن صديقتي وأنفي عنها ما كانت ترميها به "فطنات" من تهم.

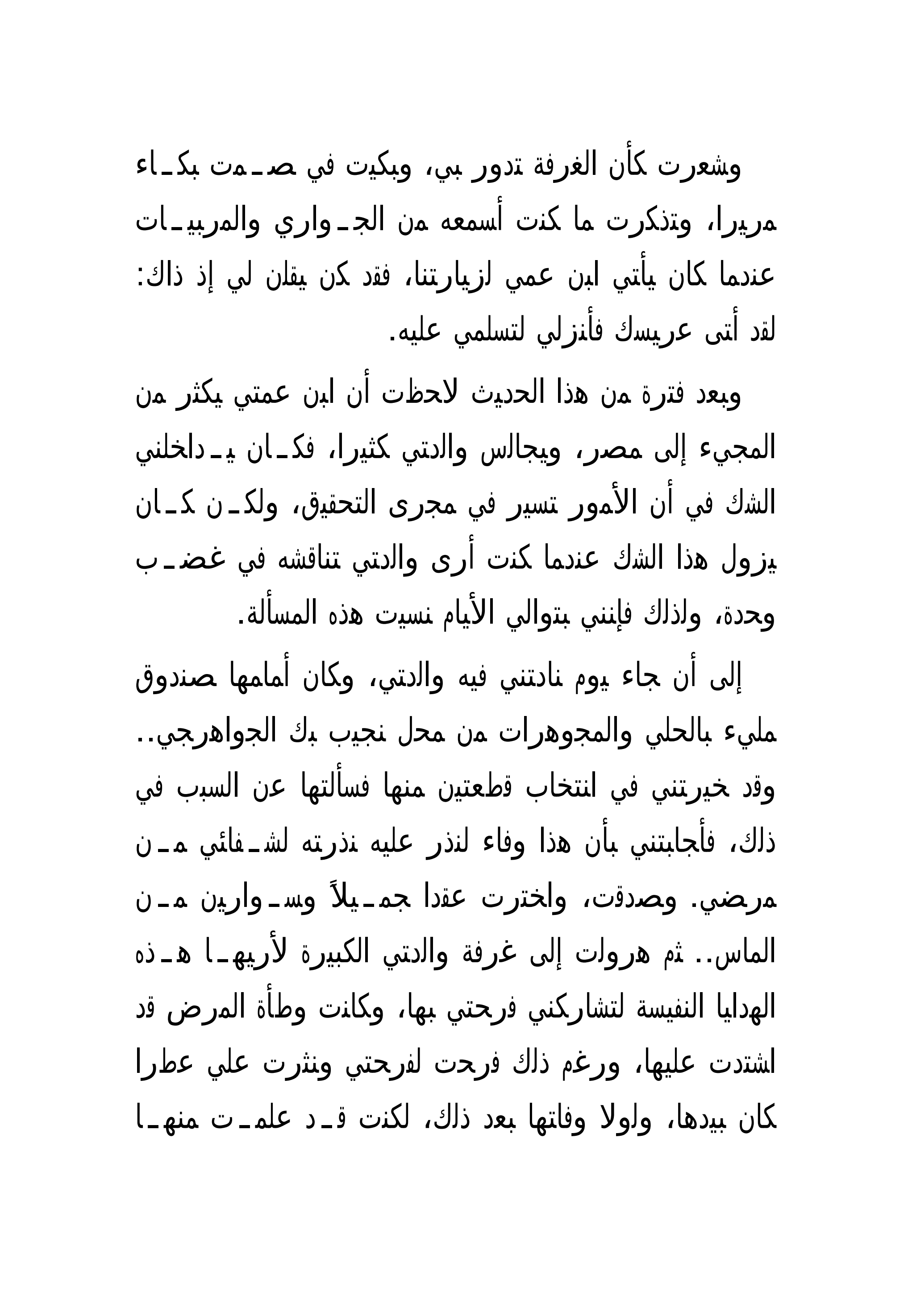
وكانت تتمادى في الإساءة إلى من فـي البيـت، وفـي مقدمتهم فتاتان مصريتان تربيتا معي.. وقد ظلت كذلك إلـى أن هربت الأولى "فردوس" من المنزل، ولجـأت إلـى دار الحرية، ورفضت العودة إلى البيت؛ رغم حبها الشديد لـي، وبقيت أنا والفتاة الأخرى "ياسمين" نتقاسم اللعنات التي كانت تصبها علينا، وفضلاً عن ذلك فقد كـان علـي أن أواجـه محاولتها بذر الشقاق بيني وبين أخي، فقـد كنـت أنصـحه بالمواظبة على دروسه والجد في طلب العلم، بينما كانت هي توحي إليه بأنه غني ومثله ليس في احتياج للتعليم. وما زالت وراءه تحضه على التراخي والتكاسل حتى اتسعت بيني وبينه



شقة التنافر وقد أرادت أن تستغل هذا الخلاف لتقصيه عني، ولكنها فشلت في أن تؤثر في عواطفه نحوي.

وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى ناهزت الثالثة عشرة من عمري، فتقدم لطلب يدي من والدتي شاب من رجال القصر، وكان ذلك في أواخر عهد الخديوي توفيق، ولكن والدتي لم تقبل طلبه، وقد علمت بذلك مصادفة فيما بعد.

فقد حدث عندما كنت في دور النقاهة من مرض ألم بي، وكانت والدتي تجلس بجانب فراشي فغلبني النعاس، وعندما أفقت من النوم، وجدتها في جانب من الغرفة ومعها خالتي تتبادلان حديثًا يشوبه الجد، وسمعت خالتي تقول إنه سيأخذها رغما عنك لأنه سيطلبها من الخديوي، وحينئذ لا يمكنك إلا الإذعان لأمره. فردت عليها والدتي قائلة: وهل ابنتي بلا عريس؟ إنني سأزوجها من ابن عمتها، فقالت خالتي: حرام عليك أن تفعلي ذلك، وتزوجي هذه الطفلة من رجل له أولاد أكبر منها سنًا، فقالت لها أمي: أنه ابن عمتها وصاحب الأمر في كل شيء.. عندئذ غضبت خالتي وقالت لها سنرى من الذي يفوز في النهاية؟..



وشعرت كأن الغرفة تدور بي، وبكيت في صـمت بكـاء مريرا، وتذكرت ما كنت أسمعه من الجـواري والمربيـات عندما كان يأتي ابن عمي لزيارتنا، فقد كن يقلن لي إذ ذاك: لقد أتى عريسك فأنزلي لتسلمي عليه.

وبعد فترة من هذا الحديث لاحظت أن ابن عمتي يكثر من المجيء إلى مصر، ويجالس والدتي كثيرا، فكـان يـداخلني الشك في أن الأمور تسير في مجرى التحقيق، ولكـن كـان يزول هذا الشك عندما كنت أرى والدتي تناقشه في غضـب وحدة، ولذلك فإنني بتوالي الأيام نسيت هذه المسألة.

إلى أن جاء يوم نادتني فيه والدتي، وكان أمامها صندوق مليء بالحلي والمجوهرات من محل نجيب بك الجواهرجي.. وقد خيرتني في انتخاب قطعتين منها فسألتها عن السبب في ذلك، فأجابتني بأن هذا وفاء لنذر عليه نذرته لشـفائي مـن مرضي. وصدقت، واخترت عقدا جمـيلاً وسـوارين مـن الماس.. ثم هرولت إلى غرفة والدتي الكبيرة لأريهـا هـذه الهدايا النفيسة لتشاركني فرحتي بها، وكانت وطأة المرض قد اشتدت عليها، ورغم ذلك فرحت لفرحتي ونثرت علي عطرا كان بيدها، ولولا وفاتها بعد ذلك، لكنت قـد علمـت منهـا

الحقيقة، ولكن للأسف لم يعد بعد وفاتها من يكاشفني الحقائق أو يفسر لي ما يتعسر علي فهمه.

ولقد حزنت عليها حزنًا عميقًا، وكانت قد أهدت لي خاتما يوم ختمت القرآن، فأصبح هذا الخاتم تذكارا خالدا وعزيزا لا يفارق إصبعي.

وقد لاحظت بعد ذلك أنه كلما أتت زائرة لوالدتي، صعدت "فطنات" إلى الطابق العلوي، وأخرجت قطعتي الماس من الدولاب وعادت بهما إلى غرفة الضيوف لتتفرج عليهما الزائرات. وكنت أبدي دهشتي لذلك، وأخجل من أن يظن الناس أننا حديثو نعمة!.

ثم لاحظت بعد ذلك أن "فطنات" وبعض الجواري يهيئن "الشور" وهي عبارة عن قطع مربعة من الحرير أو التيل الأبيض مزركشة بخيوط الذهب أو الفضة.

ولما كنت أدرك أن هذه القطع تهدى للمدعوين يوم عقد القران، فقد سألت لمن تعدون هذه "الشور" فقيل لي إنها لقران ابنة أحد الباشوات الذي سيعقد قريبا..

ثم رأيت بعض إصلاحات تجري في المنزل، وقررت والدتي أن نقضي فصل الشتاء في حلوان إلى أن يتم

الإصلاح.. فاستأجروا لنا بيتًا صغيرا بالجهة الشرقية قـرب الأرض المقامة عليها المصحة الآن.. وكانت من قبل خاليـة تؤدي إلى الجبل. فسافرنا إلى حلوان دون أن يسـاورني أي شك من ناحية هذه الاستعدادات.

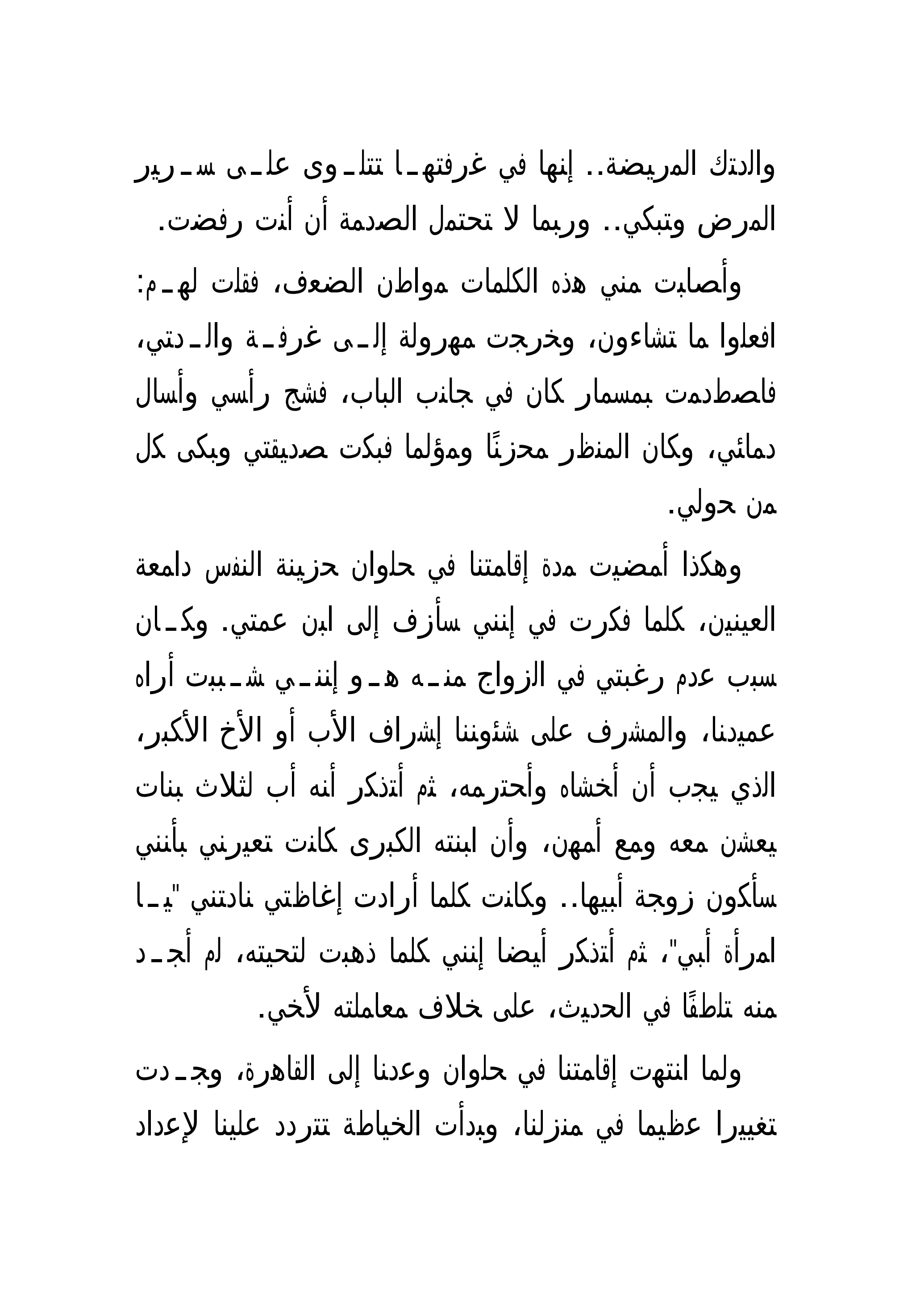
وقد أعجبتني تلك الضاحية الرائعة التي كانت في أبهـى حال بهجتها في ذلك الوقت؛ حيث كـان الخـديوي توفيـق يتخذها مشتى له، كما كانت أغلب العائلات الكبيرة تقضـي فصل الشتاء فيها. ويؤمها في أيام الجمع والآحاد والأعيـاد معظم أهل القاهرة للنزهة وقضاء الوقت في الكـازينو ودور التمثيل. وكان الشيخ سلامة حجازي رحمه ا يمثـل فـي مسرح الكازينو روايات تاريخية غاية في الإتقان والإبـداع، ولما كنت أميل كثيرا للروايات المسرحية وأحب الموسـيقى، فقد صادفت حلوان في نفسي قبولاً وسرورا، فضلاً عـن أن المرأة لم تكن تخرج كثيرا في المدن في ذلك الوقت، ولـذلك كانت تجد في حلوان بعض الحرية التي لا تتمتع بهـا فـي القاهرة فتخرج النساء للنزهة هناك.

وقد حدث ذات يوم أن جاءت إحدى صديقاتي من القاهرة لتقضي معي بضعة أيام في حلوان، وفرحت كثيرا، وخرجت

معها بعد الظهر، لأطلعها على ما في حلـوان مـن روعـة وجمال، ولم نكد نتجه إلى المحطة حتى فوجئت بقدوم "سعيد آغا" عابسا ليقول لي: إلى أين أنت ذاهبة؟ عودي إلى البيـت فورا.

وأذعنت لأمره رغما عني.. وعدت ومعي صديقتي. فلما دخلت أدهشني وجود معلمة اللغة التركية بالباب. ولما سلمت عليها، وجدت بيدها طرحة بيضاء وضعتها على رأسي فـي الحال، ثم وضعت مصحفًا تحت إبطي، فازدادت دهشتي من هـذا العمـل الـذي لـم أتعـوده أو أفهـم لـه معنـى. ثم جاء سعيد آغا وخلفه علي بك فهمي وزوج خالتي سـعد الدين بك، فهرولت إلى غرفتي.. وعندما وجدتهم يتبعـونني، لجأت إلى النافذة وأعطيتهم ظهري ففاجأني علي بك قـائلاً: إن ابن عمتك علي بك شعراوي يريد الزواج منـك.. فمـن توكلين منا؟

في تلك اللحظة بالذات، فهمت معنى كل تلك الاستعدادات وهذه الأشياء التي لم يمكنني تفسيرها من قبل. وأخذت أبكي وأنا مولية لهم ظهري.. ولما طال وقوفهم، تقدم "سعيد آغـا" وهمس في أذني: أتريدين إغضاب روح والدك والقضاء على



والدتك المريضة.. إنها في غرفتهـا تتلـوى علـى سـرير المرض وتبكي.. وربما لا تحتمل الصدمة أن أنت رفضت.

وأصابت مني هذه الكلمات مواطن الضعف، فقلت لهـم: افعلوا ما تشاءون، وخرجت مهرولة إلـى غرفـة والـدتي، فاصطدمت بمسمار كان في جانب الباب، فشج رأسي وأسال دمائي، وكان المنظر محزنًا ومؤلما فبكت صديقتي وبكى كل من حولي.

وهكذا أمضيت مدة إقامتنا في حلوان حزينة النفس دامعة العينين، كلما فكرت في إنني سأزف إلى ابن عمتي. وكـان سبب عدم رغبتي في الزواج منـه هـو إننـي شـببت أراه عميدنا، والمشرف على شئوننا إشراف الأب أو الأخ الأكبر، الذي يجب أن أخشاه وأحترمه، ثم أتذكر أنه أب لثلاث بنات يعشن معه ومع أمهن، وأن ابنته الكبرى كانت تعيرني بأنني سأكون زوجة أبيها.. وكانت كلما أرادت إغاظتي نادتني "يـا امرأة أبي"، ثم أتذكر أيضا إنني كلما ذهبت لتحيته، لم أجـد منه تلطفًا في الحديث، على خلاف معاملته لأخي.

ولما انتهت إقامتنا في حلوان وعدنا إلى القاهرة، وجـدت تغييرا عظيما في منزلنا، وبدأت الخياطة تتردد علينا لإعداد

ثياب الجهاز، فكنت أرفض ارتداءها ولا ألتفت إلى شيء مما يدور حولي، إلى أن اقترب موعد الزفاف وبدءوا في إقامـة الزينات، وقد لاحظت أن والدتي كانت خلال هذه الفترة دائمة الثورة والغضب، تماما كما كانت عندما خطبت، ولكني لـم أعلم سبب ذلك لأنني كنت أتجنب السؤال عن أي شيء.

وحتى يوم حفلة زواجي، كنت أجهل الاسـتعدادات التـي عملت من أجلي، ولا أعرف الجناح الـذي أعـد لـي فـي المنزل.. فأخذتني والدتي للفرجة عليه، وهنا أعترف بأن ما رأيته من الرياش الفاخر قد أدخل على نفسـي شـيئًا مـن السرور، وغابت عني الحقيقة التي كنت أخشاها أمـام هـذا الجمال الساحر.

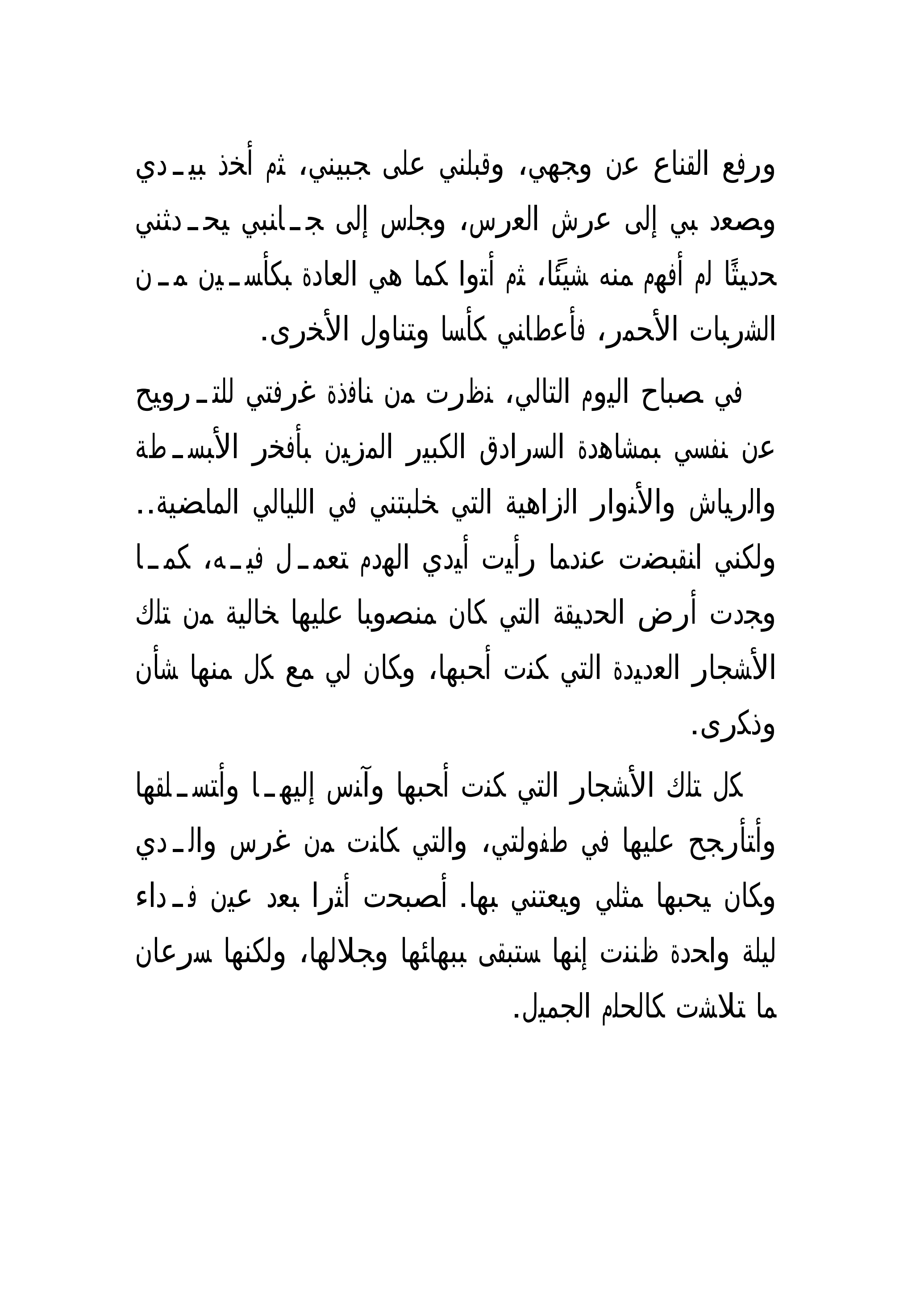
ولما بدأت ليالي الفرح الثلاث، أخرجني ما سـمعته مـن الموسيقى وما رأيته من المظاهر المفرحة عن تلك الأحاسيس التي كانت تنتابني، وكنت أضحك وأمرح مع زميلاتي اللائي يحضرن هذه الليالي، حتى ظن أهل البيت أن الحالة الأولـى لم تكن إلا مظهرا من مظاهر الخجل التـي تسـتولي علـى الفتيات في مثل هذه الظروف. وزاد من فرحي ما رأيته ليلة الزفاف من العناية الفائقة بشخصي، وكدت أطير من الفرحة

عندما دخلت غرفة الزينة وارتديت حلة العرس المزركشة بالذهب والفضة، وأذهلني لمعان الماس والجواهر التي حلوا بها صدري وتوجوا رأسي وزينوا ساعدي. وتصورت إنني سأبقى في هذا الزي وعلى هذه الحال إلى ما شاء ا .

ولما أقبلت المغنيات لزفافي إلى الجناح الذي أعد لي، وكان على مسافة طويلة، وبدأت أشعر بثقل هذه الأشياء، فصرت أتوكأ على زميلاتي فتيات الشرف وأنا أسير بين الشموع المتوهجة ورائحة الأزهار الزكية حتى وصلت إلى البهو الكبير، وهناك رأيت حشدا ضخما من السيدات المصريات والأجنبيات في ثياب السهرة البديعة، وكلهن عيون شاخصة إلي، مليئة بالتأثر والحنان.

وعندما أجلسوني على عرش العرس، جاءت السيدات الأجنبيات كل بدورها تضم يدي وتقدم إلي باقة من الورد أو تضعها تحت قدمي في شيء من التأثر. ولم أفهم وقتئذ أن هذا الشعور كان رفقًا بطفولتي لتزويجي في تلك السن المبكرة.

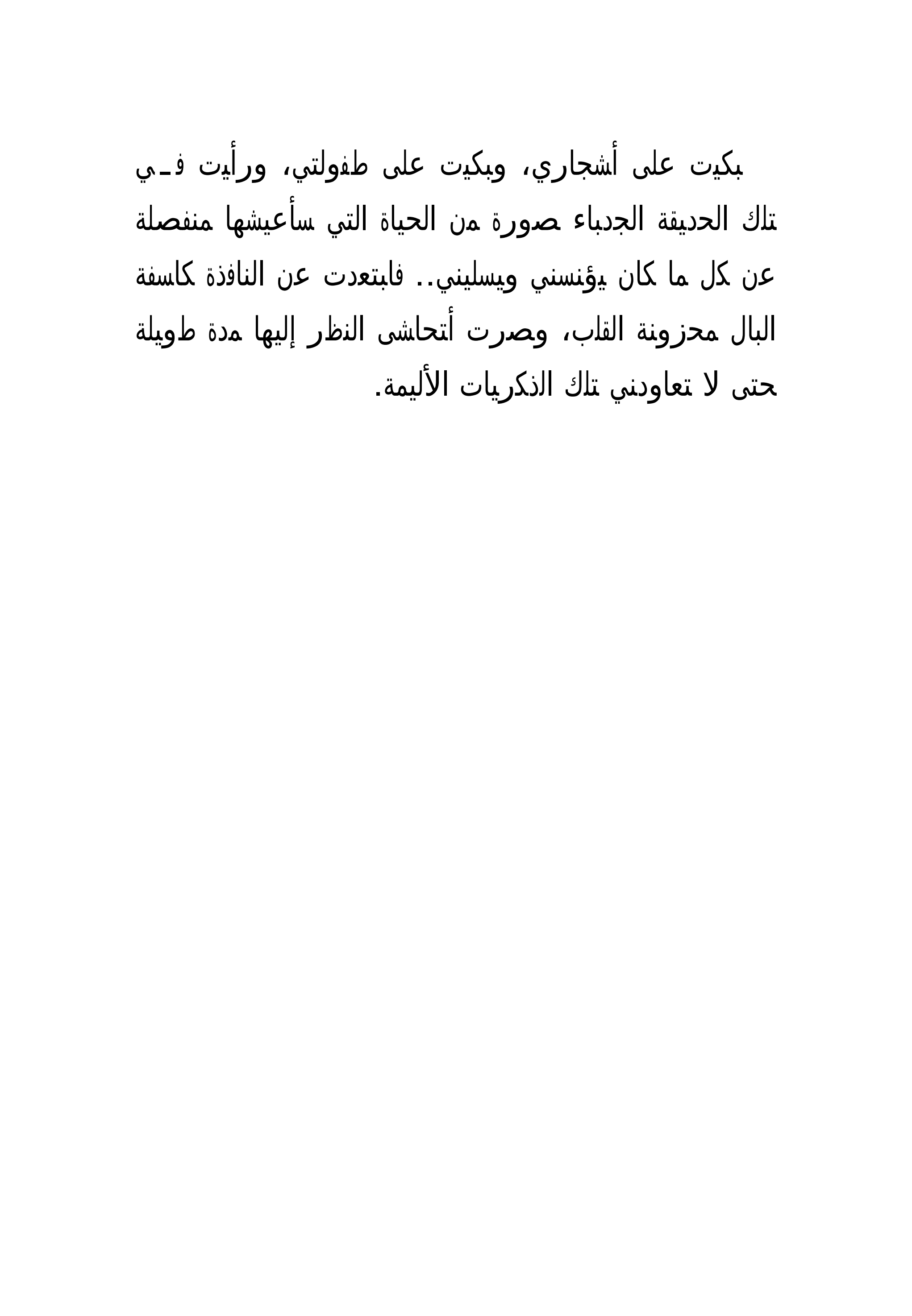
وعلى قرع الطبول، انصرفت السيدات ودخل الآغا معلنًا قدوم العريس. ودخل وصلى ركعتين، ثم قام وأقبل نحوي



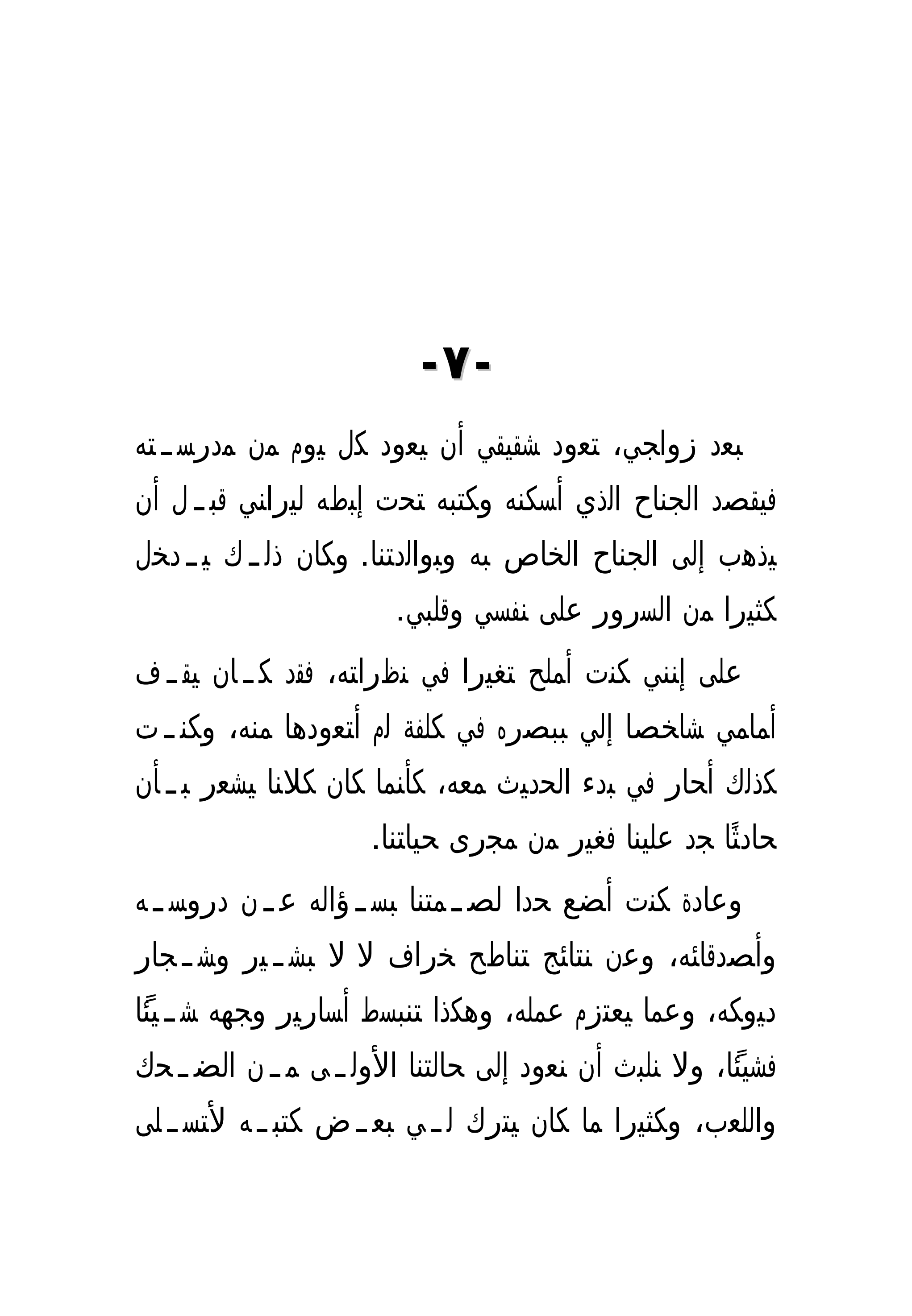
ورفع القناع عن وجهي، وقبلني على جبيني، ثم أخذ بيـدي وصعد بي إلى عرش العرس، وجلس إلى جـانبي يحـدثني حديثًا لم أفهم منه شيئًا، ثم أتوا كما هي العادة بكأسـين مـن الشربات الأحمر، فأعطاني كأسا وتناول الأخرى.

في صباح اليوم التالي، نظرت من نافذة غرفتي للتـرويح عن نفسي بمشاهدة السرادق الكبير المزين بأفخر الأبسـطة والرياش والأنوار الزاهية التي خلبتني في الليالي الماضية.. ولكني انقبضت عندما رأيت أيدي الهدم تعمـل فيـه، كمـا وجدت أرض الحديقة التي كان منصوبا عليها خالية من تلك الأشجار العديدة التي كنت أحبها، وكان لي مع كل منها شأن وذكرى.

كل تلك الأشجار التي كنت أحبها وآنس إليهـا وأتسـلقها وأتأرجح عليها في طفولتي، والتي كانت من غرس والـدي وكان يحبها مثلي ويعتني بها. أصبحت أثرا بعد عين فـداء ليلة واحدة ظننت إنها ستبقى ببهائها وجلالها، ولكنها سرعان ما تلاشت كالحلم الجميل.



بكيت على أشجاري، وبكيت على طفولتي، ورأيت في تلك الحديقة الجدباء صورة من الحياة التي سأعيشها منفصلة عن كل ما كان يؤنسني ويسليني.. فابتعدت عن النافذة كاسفة البال محزونة القلب، وصرت أتحاشى النظر إليها مدة طويلة حتى لا تعاودني تلك الذكريات الأليمة.



-٧-

بعد زواجي، تعود شقيقي أن يعود كل يوم من مدرسـته فيقصد الجناح الذي أسكنه وكتبه تحت إبطه ليراني قبـل أن يذهب إلى الجناح الخاص به وبوالدتنا. وكان ذلـك يـدخل كثيرا من السرور على نفسي وقلبي.

على إنني كنت ألمح تغيرا في نظراته، فقد كـان يقـف أمامي شاخصا إلي ببصره في كلفة لم أتعودها منه، وكنـت كذلك أحار في بدء الحديث معه، كأنما كان كلانا يشعر بـأن حادثًا جد علينا فغير من مجرى حياتنا.

وعادة كنت أضع حدا لصـمتنا بسـؤاله عـن دروسـه وأصدقائه، وعن نتائج تناطح خراف لا لا بشـير وشـجار ديوكه، وعما يعتزم عمله، وهكذا تنبسط أسارير وجهه شـيئًا فشيئًا، ولا نلبث أن نعود إلى حالتنا الأولـى مـن الضـحك واللعب، وكثيرا ما كان يترك لـي بعـض كتبـه لأتسـلى

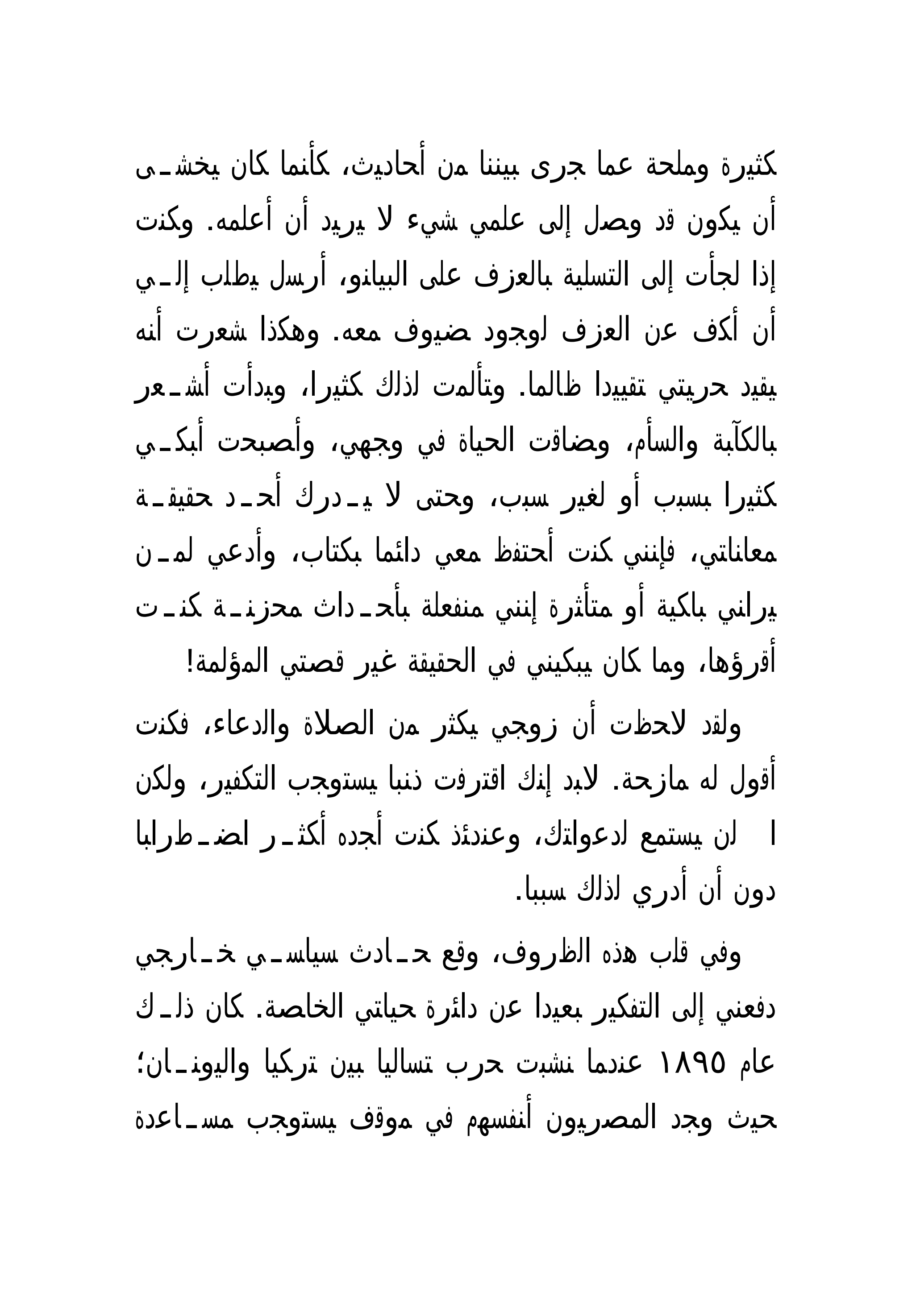
بقراءتها، ويقاسمني بعض أدواته المدرسية كما كان يفعل من قبل.

وقد أحضر لي ذات يوم باقة زهر البانسيه يضمها شريط حريري سماوي اللون، وكنت أحب هذا اللون وهذا النوع من الأزهار والذي يرمز للذكرى، ولذلك فقد فرحت بها كثيـرا، وما زالت أحتفظ بها عندي حتى اليوم.

ولقد ظللت بعد ذلك فترة طويلة دون أن أقـدر وضـعي الجديد الذي كان يقتضي مني الرزانة، ويحتم علي أن أظهر بمظهر ربة البيت بمعنى الكلمة، فقد كنت بحكم سني أميـل إلى عالم الطفولة وألعب كلما وجدت إلى اللعب سبيلا.

على إنني لم أتهيب حياتي الزوجية طويلاً، فقد كنت أميل إلى زوجي بحكم قرابتي له، ولما كان يظهره من عطف على بعد زواجنا. وبدأت آنس به وأطمئن إليه شيئًا فشيئًا، إلى أن لاحظت بعد أشهر أن هناك شيئًا غامضا قد استولى عليـه، فتغيرت أحواله معي ومعاملته لي، ولم أكن حتى ذلك الوقت أدري لهذا التغيير سببا.

كنت إذا أردت زيارة صـديقة أو قريبـة، منعنـي مـن الخروج، وإذا زارتني صديقة أو قريبة استجوبني استجوابات



كثيرة وملحة عما جرى بيننا من أحاديث، كأنما كان يخشى أن يكون قد وصل إلى علمي شيء لا يريد أن أعلمه. وكنت إذا لجأت إلى التسلية بالعزف على البيانو، أرسل يطلب إلي أن أكف عن العزف لوجود ضيوف معه. وهكذا شعرت أنه يقيد حريتي تقييدا ظالما. وتألمت لذلك كثيرا، وبدأت أشعر بالكآبة والسأم، وضاقت الحياة في وجهي، وأصبحت أبكي كثيرا بسبب أو لغير سبب، وحتى لا يدرك أحد حقيقة معاناتي، فإنني كنت أحتفظ معي دائما بكتاب، وأدعي لمن يراني باكية أو متأثرة إنني منفعلة بأحداث محزنة كنت أقرؤها، وما كان يبكيني في الحقيقة غير قصتي المؤلمة!

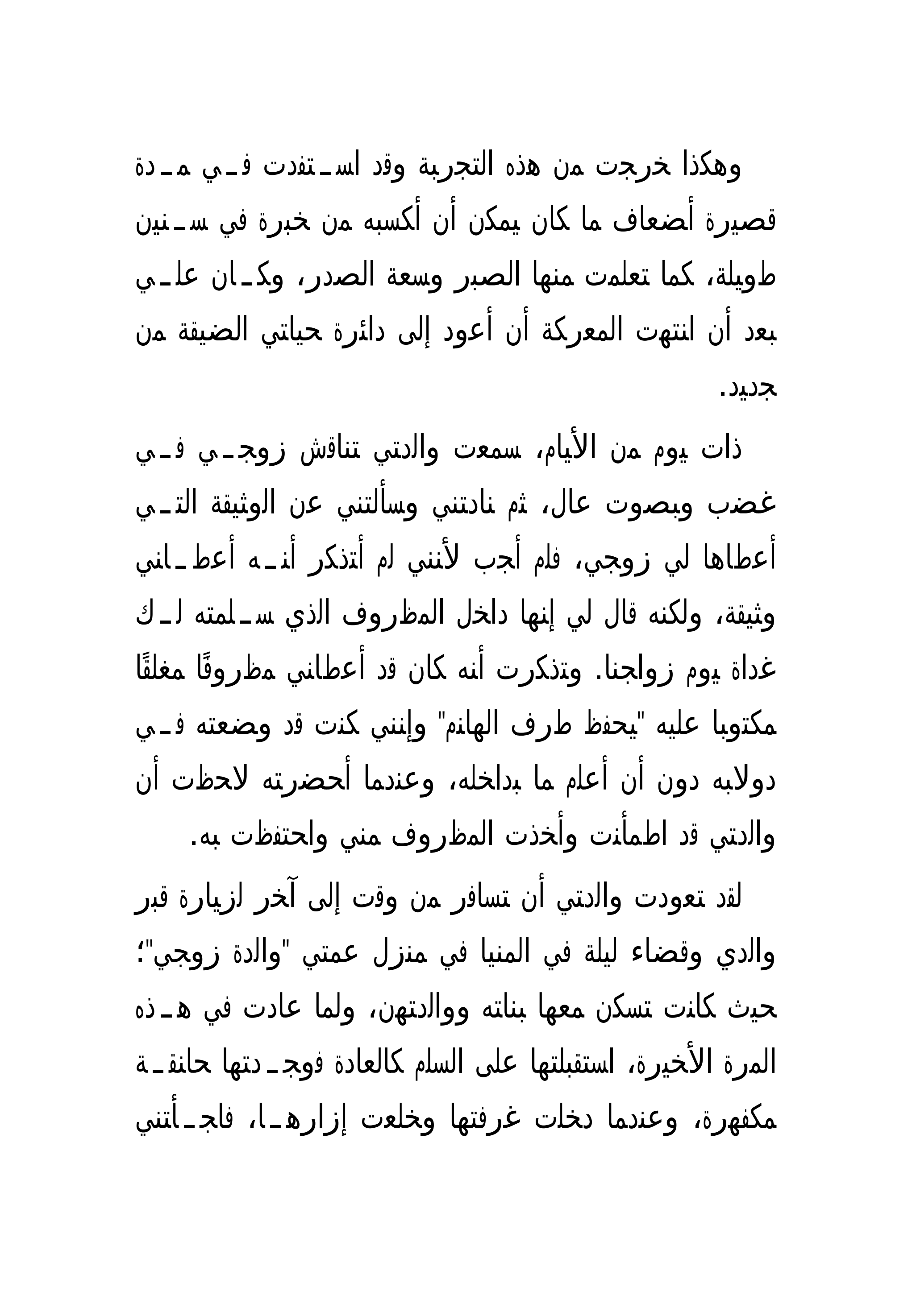
ولقد لاحظت أن زوجي يكثر من الصلاة والدعاء، فكنت أقول له مازحة. لابد إنك اقترفت ذنبا يستوجب التكفير، ولكن ا لن يستمع لدعواتك، وعندئذ كنت أجده أكثر اضطرابا دون أن أدري لذلك سببا.

وفي قلب هذه الظروف، وقع حادث سياسي خارجي دفعني إلى التفكير بعيدا عن دائرة حياتي الخاصة. كان ذلك عام ١٨٩٥ عندما نشبت حرب تساليا بين تركيا واليونان؛ حيث وجد المصريون أنفسهم في موقف يستوجب مساعدة

الأتراك وكان أن شكلات لجنة من الرجال للمساعدة برئاسة المرحوم رياض باشا، وتولت السيدة قرينته رئاسة لجنة السيدات، وقد طلب من زوجي أن أكون عضوا فيها رغم صغر سني، فوافق على الفور، وكانت هذه أول مرة أقوم فيها بالمساهمة في عمل اجتماعي إنساني عام نبهني إلى واجب الفرد نحو المجتمع وجعلني أقدر فائدة التضامن.

وقد وجدت في هذا الأمل أكبر تسلية وعزاء وصرت أنظر إلى نفسي بعين الاعتبار والتقدير بعد أن خضت عباب المجتمع، وتمكنت من دراسة أخلاق الناس عن كثب، والمقارنة بين شعورهم وآرائهم وعرفت كم يعاني الإنسان في سبيل التعاون على الخير. وكم يريق ماء وجهه في السعي إليه مدفوعا بشعور الواجب والإنسانية.

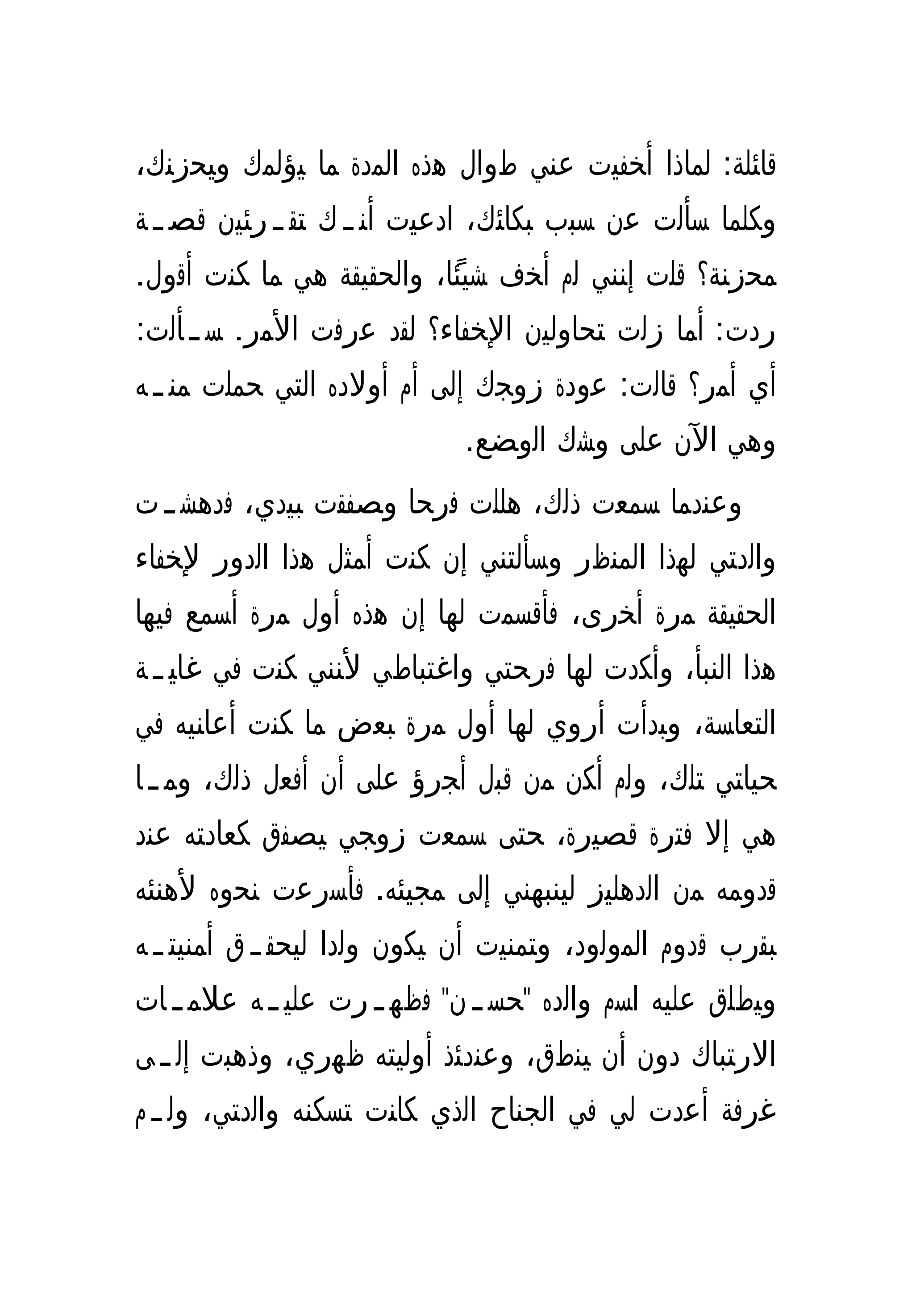
وكان الدرس الثاني الذي تعلمته هو أنه بعد أن انتهت الحرب بانتصار تركيا، أراد الباب العالي أن يعبر عن عرفانه لمصر بالجميل، فأرسل النياشين وآيات الشكر إلى رئيس الحكومة الذي خلف رياض باشا، وبذلك نال التقدير من لم يناصروا تركيا أو يأخذوا بيدها، وهكذا تعطي الحياة غالبا من لا يستحق وكفى المجاهد أنه أرضى ضميره.



وهكذا خرجت من هذه التجربة وقد استفدت في مدة قصيرة أضعاف ما كان يمكن أن أكسبه من خبرة في سنين طويلة، كما تعلمت منها الصبر وسعة الصدر، وكان علي بعد أن انتهت المعركة أن أعود إلى دائرة حياتي الضيقة من جديد.

ذات يوم من الأيام، سمعت والدتي تناقش زوجي في غضب وبصوت عال، ثم نادتني وسألتني عن الوثيقة التي أعطاها لي زوجي، فلم أجب لأنني لم أتذكر أنه أعطاني وثيقة، ولكنه قال لي إنها داخل المظروف الذي سلمته لك غداة يوم زواجنا. وتذكرت أنه كان قد أعطاني مظروفًا مغلقًا مكتوبا عليه "يحفظ طرف الهانم" وإنني كنت قد وضعته في دولابه دون أن أعلم ما بداخله، وعندما أحضرته لاحظت أن والدتي قد اطمأنت وأخذت المظروف مني واحتفظت به.

لقد تعودت والدتي أن تسافر من وقت إلى آخر لزيارة قبر والدي وقضاء ليلة في المنيا في منزل عمتي "والدة زوجي"؛ حيث كانت تسكن معها بناته ووالدتهن، ولما عادت في هذه المرة الأخيرة، استقبلتها على السلم كالعادة فوجدتها حانقة مكفهرة، وعندما دخلت غرفتها وخلعت إزارها، فاجأتني

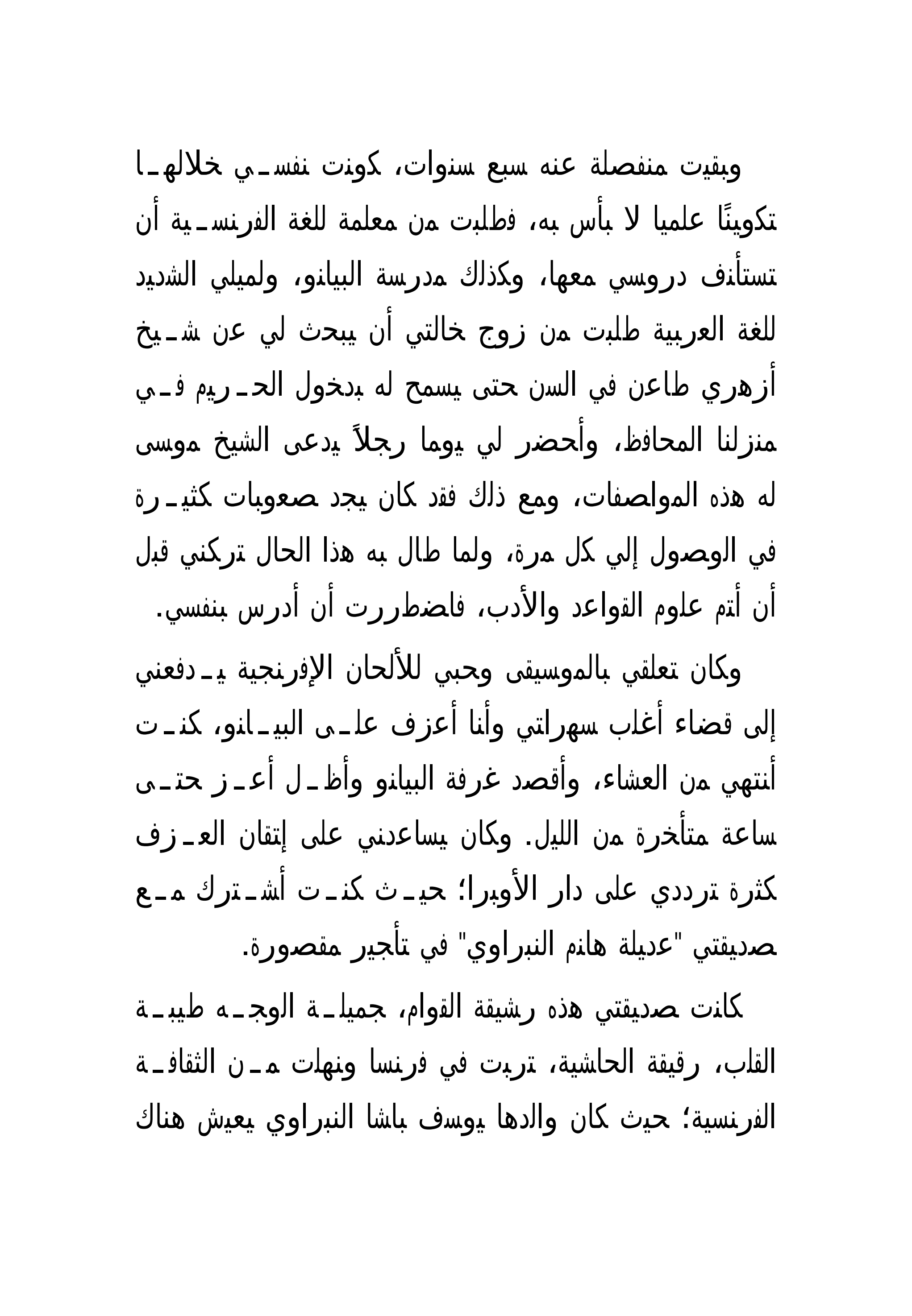

قائلة: لماذا أخفيت عني طوال هذه المدة ما يؤلمك ويحزنك، وكلما سألت عن سبب بكائك، ادعيت أنـك تقـرئين قصـة محزنة؟ قلت إنني لم أخف شيئًا، والحقيقة هي ما كنت أقول. ردت: أما زلت تحاولين الإخفاء؟ لقد عرفت الأمر. سـألت: أي أمر؟ قالت: عودة زوجك إلى أم أولاده التي حملت منـه وهي الآن على وشك الوضع.

وعندما سمعت ذلك، هللت فرحا وصفقت بيدي، فدهشـت والدتي لهذا المنظر وسألتني إن كنت أمثل هذا الدور لإخفاء الحقيقة مرة أخرى، فأقسمت لها إن هذه أول مرة أسمع فيها هذا النبأ، وأكدت لها فرحتي واغتباطي لأنني كنت في غايـة التعاسة، وبدأت أروي لها أول مرة بعض ما كنت أعانيه في حياتي تلك، ولم أكن من قبل أجرؤ على أن أفعل ذلك، ومـا هي إلا فترة قصيرة، حتى سمعت زوجي يصفق كعادته عند قدومه من الدهليز لينبهني إلى مجيئه. فأسرعت نحوه لأهنئه بقرب قدوم المولود، وتمنيت أن يكون ولدا ليحقـق أمنيتـه ويطلق عليه اسم والده "حسـن" فظهـرت عليـه علامـات الارتباك دون أن ينطق، وعندئذ أوليته ظهري، وذهبت إلـى غرفة أعدت لي في الجناح الذي كانت تسكنه والدتي، ولـم

يكن قد مضى على زواجنا إذ ذاك أكثر من خمسـة عشـر شهرا.

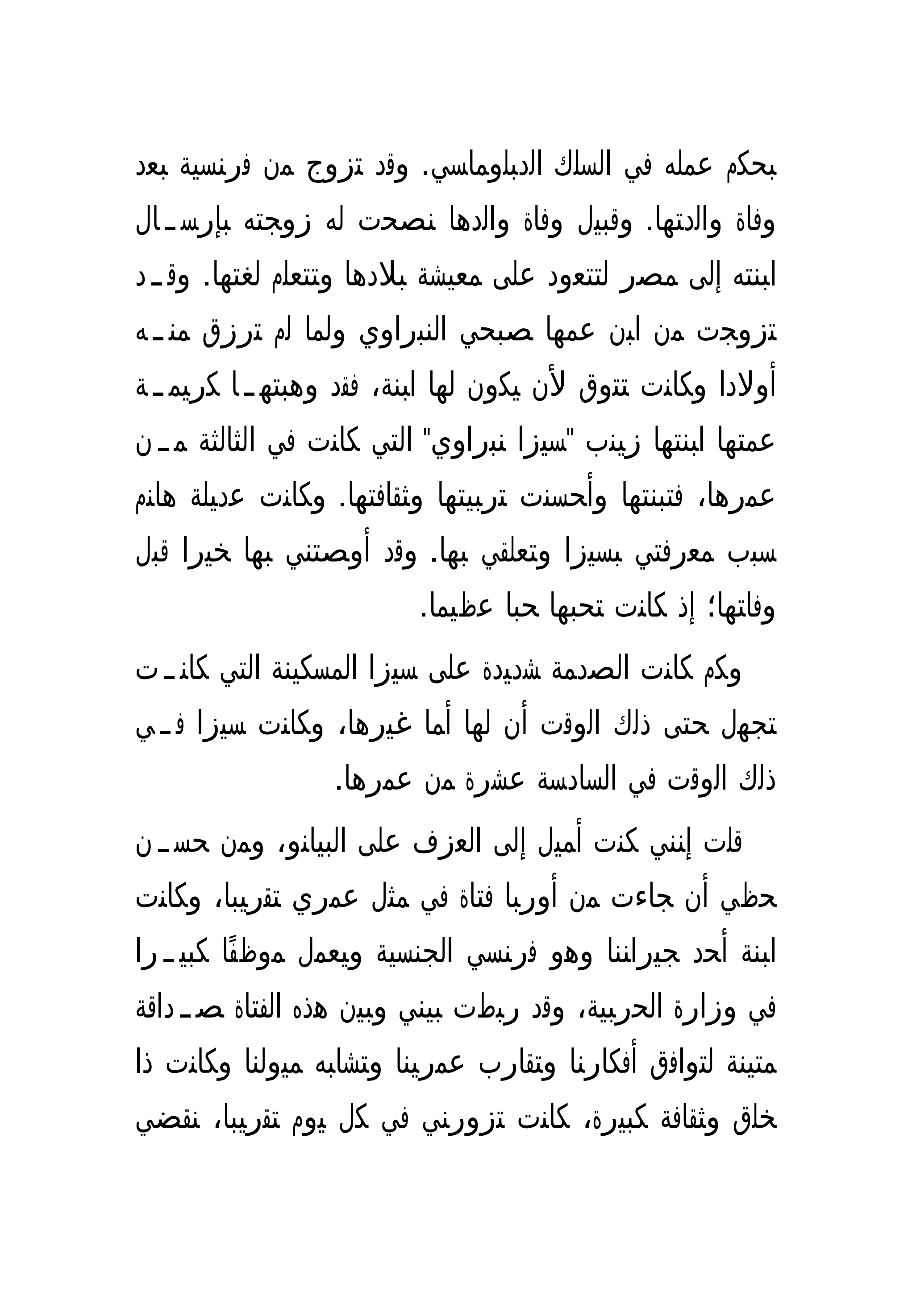
وإنني أفضل أن أتحدث باختصار عن هذه المسألة، فأقول أنه قد بدا لي من مجريات الحوادث ما كنـت أجهلـه، فقـد عرفت من تلك الوثيقة التي ظلت تحت يدي مدة طويلة دون أن أعرف مضمونها، أنهم لإتمام زواجي من ابن عمتي كانوا قد اتفقوا معه على أن أكون الزوجة الوحيدة، وقد تم زواجي منه بعد أن نفذ التزامه، ولكن عندما رأت والدتي أنه عاد إلى حياته الأولى مع أم بناته وتأكدت من ذلك بحـدوث الحمـل قررت انفصالي عنه.

ولقد حاول زوجي بعد مضي فترة من الزمن إصلاح ذات البين، ولكن والدتي كانت في حالة ثورة وغضب عليه نظرا لموقفه الذي أثر في نفسيتها، وإن كان قد تبين لنا فيما بعـد خلاف ذلك، فقد أتضح أن مفهوم الإقرار هو أننـي الـزوج الوحيدة، وأنه إن راجع أم أولاده تكون طالقًا بينمـا التـبس الأمر علينا وقصرناه على أساس وقوع الطلاق بالنسبة لـي أنا.


وبقيت منفصلة عنه سبع سنوات، كونت نفسـي خلالهـا تكوينًا علميا لا بأس به، فطلبت من معلمة للغة الفرنسـية أن تستأنف دروسي معها، وكذلك مدرسة البيانو، ولميلي الشديد للغة العربية طلبت من زوج خالتي أن يبحث لي عن شـيخ أزهري طاعن في السن حتى يسمح له بدخول الحـريم فـي منزلنا المحافظ، وأحضر لي يوما رجلاً يدعى الشيخ موسى له هذه المواصفات، ومع ذلك فقد كان يجد صعوبات كثيـرة في الوصول إلي كل مرة، ولما طال به هذا الحال تركني قبل أن أتم علوم القواعد والأدب، فاضطررت أن أدرس بنفسي.

وكان تعلقي بالموسيقى وحبي للألحان الإفرنجية يـدفعني إلى قضاء أغلب سهراتي وأنا أعزف علـى البيـانو، كنـت أنتهي من العشاء، وأقصد غرفة البيانو وأظـل أعـز حتـى ساعة متأخرة من الليل. وكان يساعدني على إتقان العـزف كثرة ترددي على دار الأوبرا؛ حيـث كنـت أشـترك مـع صديقتي "عديلة هانم النبراوي" في تأجير مقصورة.

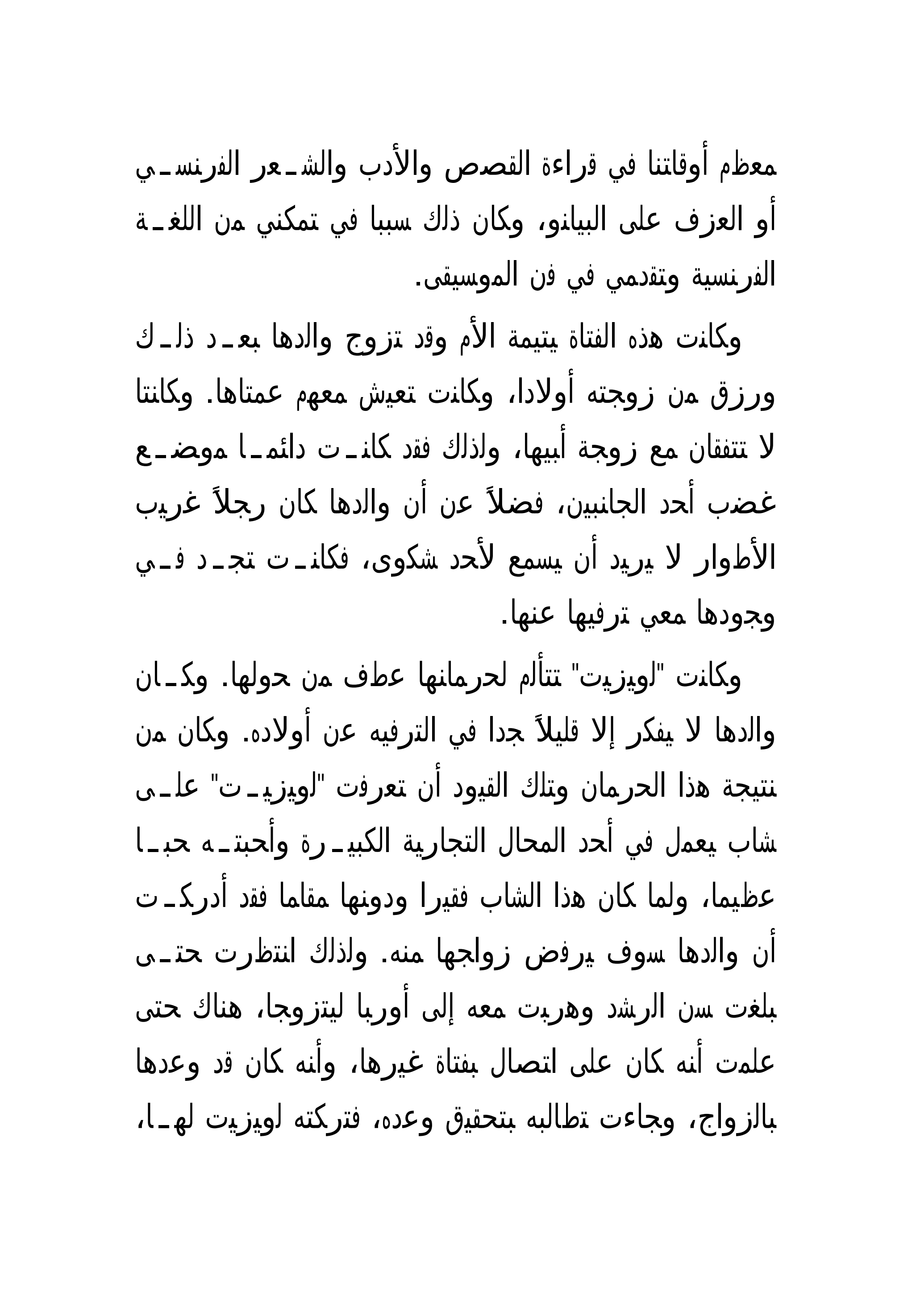
كانت صديقتي هذه رشيقة القوام، جميلـة الوجـه طيبـة القلب، رقيقة الحاشية، تربت في فرنسا ونهلت مـن الثقافـة الفرنسية؛ حيث كان والدها يوسف باشا النبراوي يعيش هناك



بحكم عمله في السلك الدبلوماسي. وقد تزوج من فرنسية بعد وفاة والدتها. وقبيل وفاة والدها نصحت له زوجته بإرسال ابنته إلى مصر لتتعود على معيشة بلادها وتتعلم لغتها. وقد تزوجت من ابن عمها صبحي النبراوي ولما لم ترزق منه أولادا وكانت تتوق لأن يكون لها ابنة، فقد وهبتها كريمة عمتها ابنتها زينب "سيزا نبراوي" التي كانت في الثالثة من عمرها، فتبنتها وأحسنت تربيتها وثقافتها. وكانت عديلة هانم سبب معرفتي بسيزا وتعلقي بها. وقد أوصتني بها خيرا قبل وفاتها؛ إذ كانت تحبها حبا عظيما.

وكم كانت الصدمة شديدة على سيزا المسكينة التي كانت تجهل حتى ذلك الوقت أن لها أما غيرها، وكانت سيزا في ذلك الوقت في السادسة عشرة من عمرها.

قلت إنني كنت أميل إلى العزف على البيانو، ومن حسن حظي أن جاءت من أوربا فتاة في مثل عمري تقريبا، وكانت ابنة أحد جيراننا وهو فرنسي الجنسية ويعمل موظفًا كبيرا في وزارة الحربية، وقد ربطت بيني وبين هذه الفتاة صداقة متينة لتوافق أفكارنا وتقارب عمرينا وتشابه ميولنا وكانت ذا خلاق وثقافة كبيرة، كانت تزورني في كل يوم تقريبا، نقضي



معظم أوقاتنا في قراءة القصص والأدب والشعر الفرنسي أو العزف على البيانو، وكان ذلك سببا في تمكني من اللغة الفرنسية وتقدمي في فن الموسيقى.

وكانت هذه الفتاة يتيمة الأم وقد تزوج والدها بعد ذلك ورزق من زوجته أولادا، وكانت تعيش معهم عمتاها. وكانتا لا تتفقان مع زوجة أبيها، ولذلك فقد كانت دائما موضع غضب أحد الجانبين، فضلاً عن أن والدها كان رجلاً غريب الأطوار لا يريد أن يسمع لأحد شكوى، فكانت تجد في وجودها معي ترفيها عنها.

وكانت "لويزيت" تتألم لحرمانها عطف من حولها. وكان والدها لا يفكر إلا قليلاً جدا في الترفيه عن أولاده. وكان من نتيجة هذا الحرمان وتلك القيود أن تعرفت "لويزيت" على شاب يعمل في أحد المحال التجارية الكبيرة وأحبته حبا عظيما، ولما كان هذا الشاب فقيرا ودونها مقاما فقد أدركت أن والدها سوف يرفض زواجها منه. ولذلك انتظرت حتى بلغت سن الرشد وهربت معه إلى أوربا ليتزوجا، هناك حتى علمت أنه كان على اتصال بفتاة غيرها، وأنه كان قد وعدها بالزواج، وجاءت تطالبه بتحقيق وعده، فتركته لويزيت لها،

وعادت إلى مصر والتحقت بأحد البيوت كمربية للأطفال. ولما علم أبوها بذلك، عفا عنها وأراد أن يعيدها إلى منزله لتعيش معه، ولكنها رفضت لأنها لم تجد في نفسها الشجاعة على مواجهة أبيها بعد ما حدث فأوعز الأب إلى أخيه أن يدعوها لتقيم معه في فرنسا، فبعث إليها عمها يدعوها، فوافقت لأنها شعرت بأنه ليس في مقدورها الاستمرار في خدمة البيوت. وذهبت إلى هناك حيث انتابتها حمى، وأجريت لها عملية الزائدة الدودية وماتت على إثر ذلك.

ولم تكن أختها الصغرى أوفر حظًا منها. فقد أحبت شابا، ورفض أبوها أن تتزوج منه لفقره، وعندما أراد أن يزوجها من غيره، رفضت ومرضت وسافر بها الأب إلى فرنسا لتغيير الهواء ولإبعادها عن هذا الشاب، وفي إحدى النزهات صادفت هذا الشاب، فأصابتها رعدة ومرضت بالحمى إلى أن ماتت هي الأخرى.

وكم من فتيات ذهبن ضحية ظلم الآباء ونتيجة تفضيل المادة على سعادة بناتهم. ولذلك تنتهي حياة هؤلاء الفتيات بالموت أو السقوط.

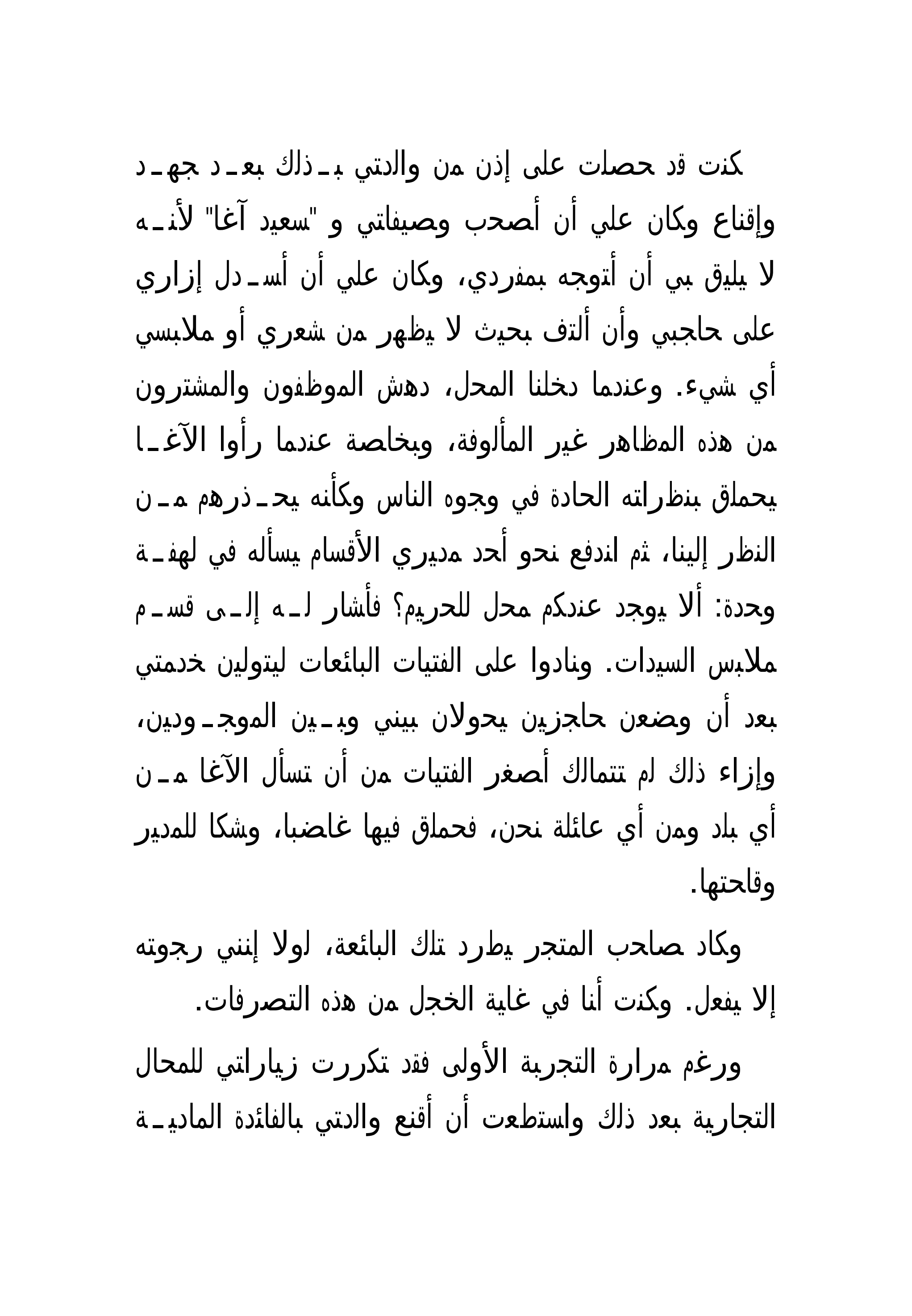
طوال تلك الفترة، لم تنقطع الوساطة بيني وبين زوجي، وأذكر أن الزبير باشا طلب مقابلتي يوما، فلما قابلته سألني عن سبب عدم عودتي لزوجي وقيامي بخدمته، وقال إن هذا لا يليق أن تفعله بنت سلطان باشا، ثم انبرى غاضبا ليقول: ألا تعلمي أن من حق زوجك أن يأخذك عنوة إلى محل الطاعة؟.. واستمر يخاطبني بغلظة وعنف وأنا صامتة، ولما رأى دموعي على خدي، قال لي لقد سمحت لنفسي أن أكلمك بهذه اللهجة لأن والدك كان بمنزلة شقيقي، ولذلك فإنني اعتبر نفسي أتكلم بلسانه.. فلم أستطع بعد ذلك صمتًا وقلت: لو كان والدي على قيد الحياة لما أسمعني مثل هذا الكلام لأنني لم أذنب، وإن كان هناك مذنب فهو ابن عمتي، ورغم ذلك فلو كنت أعلم أنه في احتياج لي، ما ترددت في التضحية بنفسي، ولكنه الآن يعيش مع أم أولاده التي تلد له كل سنة طفلاً، ويكفي إنني لا أطلب منه شيئًا، وأتحمل مناوءاته، ولو كان أبي حيا لما قبل أن تتعذب ابنته بهذه الصورة لأنه كان رجلاً عادلاً وأبا رحيما، ثم تركته وخرجت وفي اليوم التالي أرسل زوجته لتعتذر لي عن قسوته.

وبعد أيام علمت أن الشيخ علي الليثي يريد هو أيضـا أن يتوسط في الصلح، وأنه يعتزم القدوم لهذا الغـرض. ولقـد ارتعت لذلك لأنني كنت أحبه كثيرا، وكنت أخشى إن حـاول معاملتي بخشونة الزبير باشا أن يقل حبي واحترامي له ومع ذلك انتظرته بشجاعة. ولكنه لم يأت، وعلمت أنه عز عليـه أن يكدر خاطري لاعتقاده بأنني لست المخطئة، فازداد حبي وتقديري له.

وتعددت بعد ذلك المساعي وتنوعت الوسـائل لإرغـامي على الصلح، وكثيرا ما كان يأتي زوجي بنفسه ويستخدم كافة الوسائل ما بين الرجاء والعطف تارة وما بين الوعيد والعنف تارة أخرى. ولكني في كل هـذه الحـالات. كنـت أتمالـك مشاعري، وأحاول إقناعه بالمنطق، وأذكره بواجباتـه نحـو أولاده ووالدتهم. وكنت أقول له إنني أعتقد أن الذي يـدفعك إلى هذا السعي إنما هو وخز الضمير لظنك أنك أسأت إلـي ولكن ثق أنك قد أحسنت بعملك لأن واجبـك نحـو أولادك يقضي عليك أن تعيش بينهم. فكان يدعي أن حبه لـي هـو دافعه الوحيد للإلحاح علي بالعودة.. وكنت أرى على وجهه علامات الحزن الصادق أحيانًا.

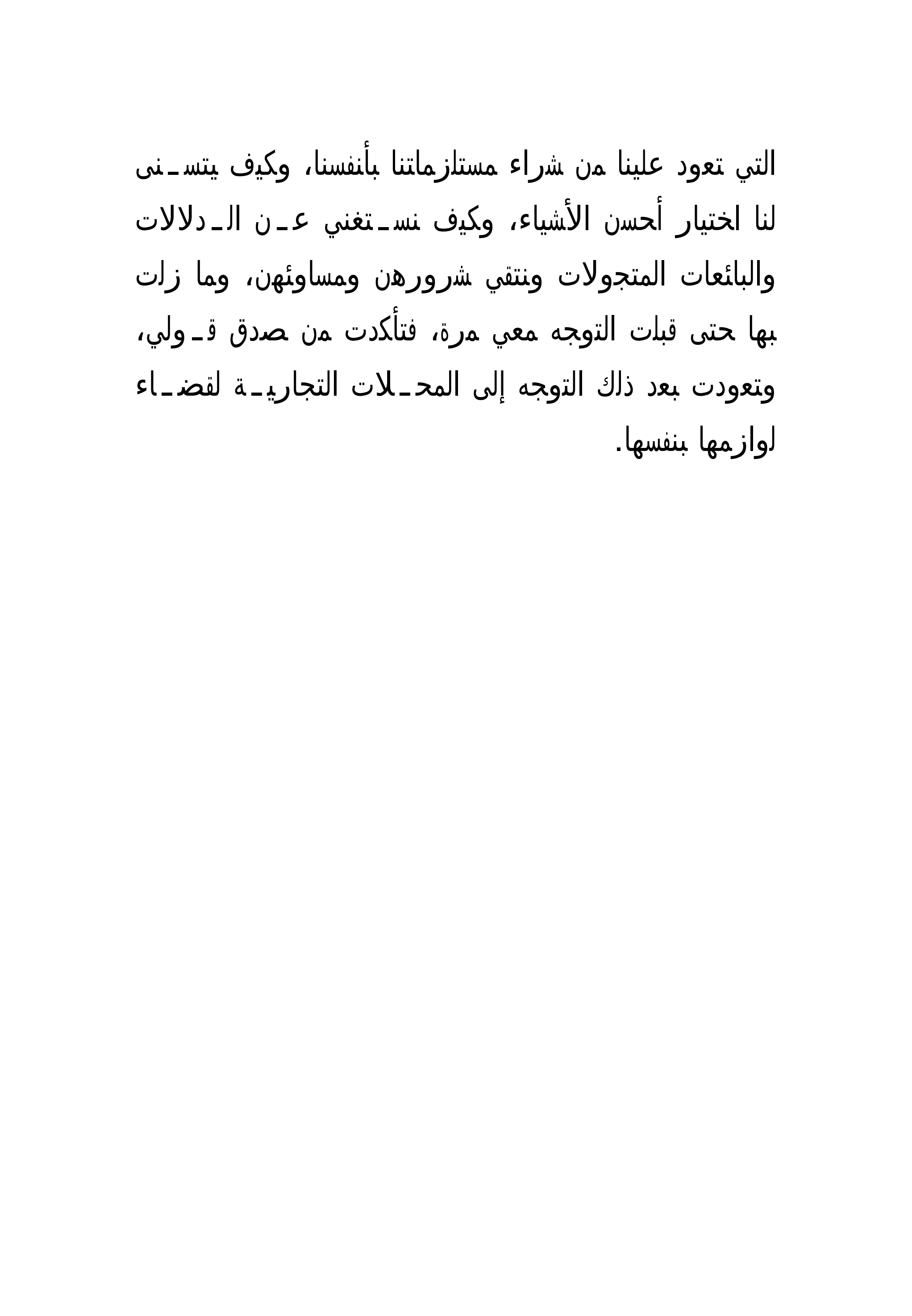
وقد أثرت كل هذه العوامل والانفعـالات فـي أعصـابي وصحتي، فمرضت مرضا شديدا ألزمني الفراش عدة أشهر، وعندما جاء الصيف أشار علي صـديقنا وطبيبنـا الـدكتور علوي باشا بضرورة سفري إلى الإسكندرية لتغيير الهـواء والاستفادة بحمامات البحر، وسافرنا بالفعل، وعدت بعد ثلاثة أشهر وقد استفدت إلى حد ما من بعدي عن المنازعات، كما أصبحت أكثر تعلقًا بالبحر مما كنت، وعندما جاء الصـيف التالي، وأردت السفر إلى الرمل، أراد زوجي أن يستغل هذه الفرصة وظن أنه إذا منعني من السفر قبلت الصـلح معـه. فامتنع عن صرف المبلغ الذي اعتمدته لسفري، ولكن والدتي عندما عرفت ذلك، سافرت على الفور لتستأجر لـي منـزلاً على حسابها الخاص، وسمحت لي بالسفر مع خالتي لقضـاء الصيف هناك وكان لهذا العطف أبلغ الأثر في نفسي.

وفي الإسكندرية.. في ذلك الصيف بالذات.. كانت لي أول تجربة من نوعها. فقد قررت أن أشتري لوازمي بنفسي مـن المحلات الكبيرة. بالرغم من تـذمر "سـعيد آغـا" ورغـم امتعاض أهل المنزل ودهشتهم من هذه الخطوة وتحدثهم عنها وكأنني قد خالفت قوانين الشريعة.

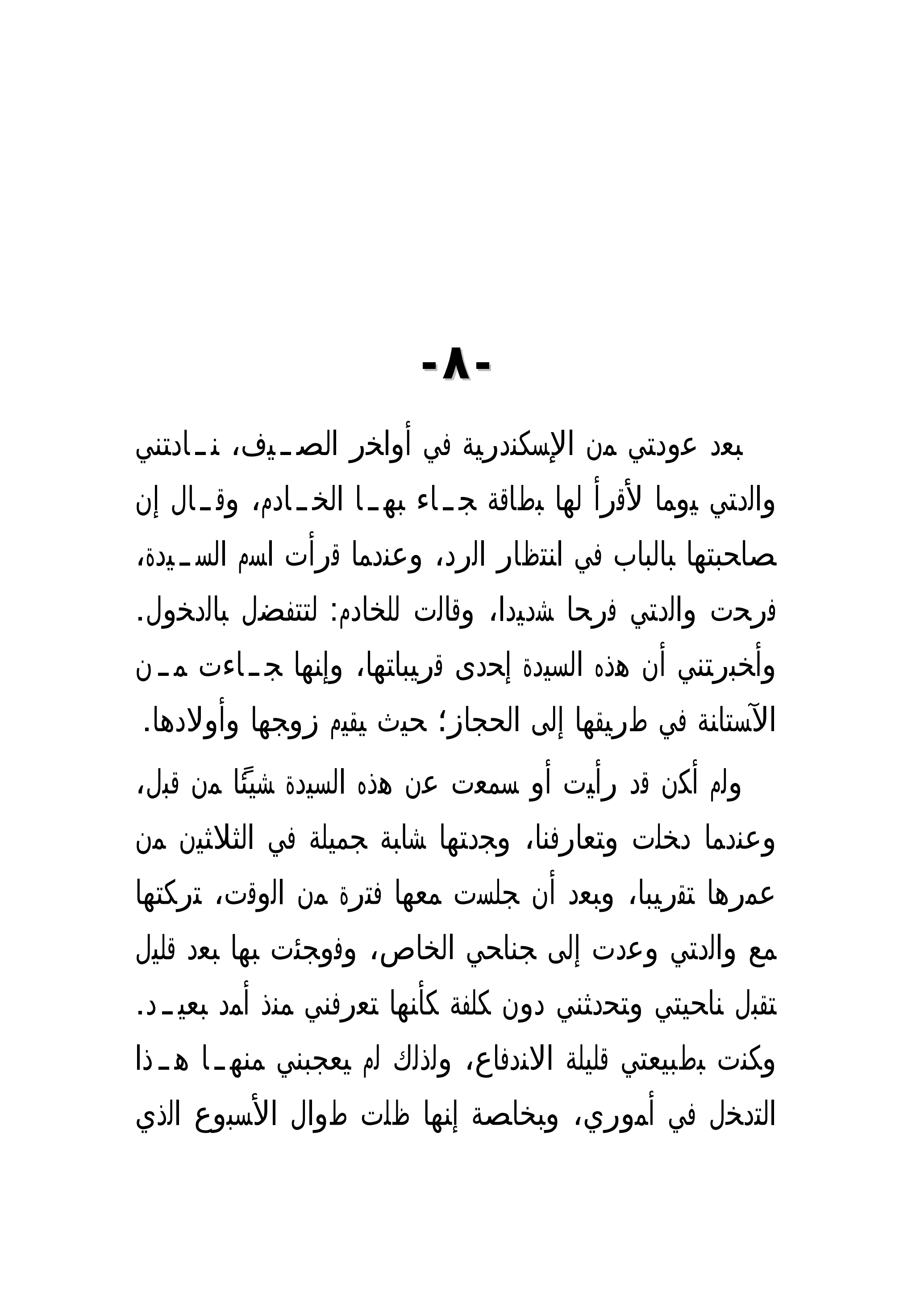

كنت قد حصلت على إذن من والدتي بعد ذلك بعد جهد وإقناع وكان علي أن أصحب وصيفاتي و "سعيد آغا" لأنه لا يليق بي أن أتوجه بمفردي، وكان علي أن أسدل إزاري على حاجبي وأن ألتف بحيث لا يظهر من شعري أو ملابسي أي شيء. وعندما دخلنا المحل، دهش الموظفون والمشترون من هذه المظاهر غير المألوفة، وبخاصة عندما رأوا الآغا يحملق بنظراته الحادة في وجوه الناس وكأنه يحذرهم من النظر إلينا، ثم اندفع نحو أحد مديري الأقسام يسأله في لهفة وحدة: ألا يوجد عندكم محل للحريم؟ فأشار له إلى قسم ملابس السيدات. ونادوا على الفتيات البائعات ليتولين خدمتي بعد أن وضعن حاجزين يحولان بيني وبين الموجودين، وإزاء ذلك لم تتمالك أصغر الفتيات من أن تسأل الآغا من أي بلد ومن أي عائلة نحن، فحملق فيها غاضبا، وشكا للمدير وقاحتها.

وكاد صاحب المتجر يطرد تلك البائعة، لولا إنني رجوته إلا يفعل. وكنت أنا في غاية الخجل من هذه التصرفات.

ورغم مرارة التجربة الأولى فقد تكررت زياراتي للمحال التجارية بعد ذلك واستطعت أن أقنع والدتي بالفائدة المادية



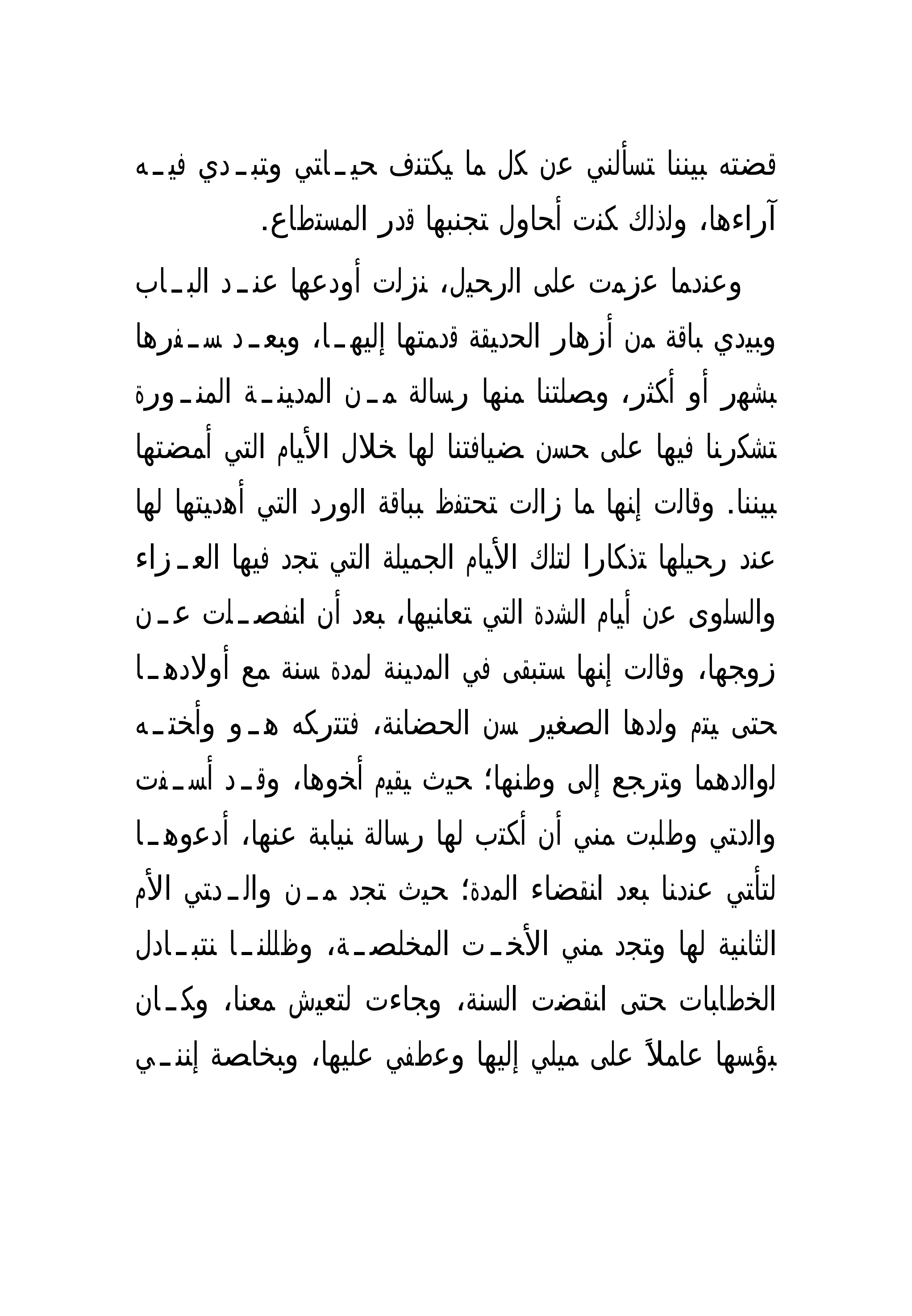
التي تعود علينا من شراء مستلزماتنا بأنفسنا، وكيف يتسنى لنا اختيار أحسن الأشياء، وكيف نستغني عن الدلالات والبائعات المتجولات ونتقي شرورهن ومساوئهن، وما زلت بها حتى قبلت التوجه معي مرة، فتأكدت من صدق قولي، وتعودت بعد ذلك التوجه إلى المحلات التجارية لقضاء لوازمها بنفسها.



-٨-

بعد عودتي من الإسكندرية في أواخر الصـيف، نـادتني والدتي يوما لأقرأ لها بطاقة جـاء بهـا الخـادم، وقـال إن صاحبتها بالباب في انتظار الرد، وعندما قرأت اسم السـيدة، فرحت والدتي فرحا شديدا، وقالت للخادم: لتتفضل بالدخول. وأخبرتني أن هذه السيدة إحدى قريباتها، وإنها جـاءت مـن الآستانة في طريقها إلى الحجاز؛ حيث يقيم زوجها وأولادها.

ولم أكن قد رأيت أو سمعت عن هذه السيدة شيئًا من قبل، وعندما دخلت وتعارفنا، وجدتها شابة جميلة في الثلاثين من عمرها تقريبا، وبعد أن جلست معها فترة من الوقت، تركتها مع والدتي وعدت إلى جناحي الخاص، وفوجئت بها بعد قليل تقبل ناحيتي وتحدثني دون كلفة كأنها تعرفني منذ أمد بعيـد. وكنت بطبيعتي قليلة الاندفاع، ولذلك لم يعجبني منهـا هـذا التدخل في أموري، وبخاصة إنها ظلت طوال الأسبوع الذي



قضته بيننا تسألني عن كل ما يكتنف حيـاتي وتبـدي فيـه آراءها، ولذلك كنت أحاول تجنبها قدر المستطاع.

وعندما عزمت على الرحيل، نزلت أودعها عنـد البـاب وبيدي باقة من أزهار الحديقة قدمتها إليهـا، وبعـد سـفرها بشهر أو أكثر، وصلتنا منها رسالة مـن المدينـة المنـورة تشكرنا فيها على حسن ضيافتنا لها خلال الأيام التي أمضتها بيننا. وقالت إنها ما زالت تحتفظ بباقة الورد التي أهديتها لها عند رحيلها تذكارا لتلك الأيام الجميلة التي تجد فيها العـزاء والسلوى عن أيام الشدة التي تعانيها، بعد أن انفصـلت عـن زوجها، وقالت إنها ستبقى في المدينة لمدة سنة مع أولادهـا حتى يتم ولدها الصغير سن الحضانة، فتتركه هـو وأختـه لوالدهما وترجع إلى وطنها؛ حيث يقيم أخوها، وقـد أسـفت والدتي وطلبت مني أن أكتب لها رسالة نيابة عنها، أدعوهـا لتأتي عندنا بعد انقضاء المدة؛ حيث تجد مـن والـدتي الأم الثانية لها وتجد مني الأخـت المخلصـة، وظللنـا نتبـادل الخطابات حتى انقضت السنة، وجاءت لتعيش معنا، وكـان بؤسها عاملاً على ميلي إليها وعطفي عليها، وبخاصة إننـي

كنت أقرأ في ملامحها علامات اليأس والحزن العميق مما أثر في صحتها تأثيرا شديدا.

وعندما كنا نتسامر ذات ليلة روت لي قصتها المؤثرة، وهي التي تكاد تكون صورة طبق الأصل من حياة المرأة الشرقية في ذلك العصر.

قالت: أنا من أم شركسية وأب تركي، وكان والدي أحد السادة الأثرياء، وقد تزوج من والدتي لأنه لم يرزق أبناء من زوجته الأولى، وقد أنجبت له والدتي أخي وأنا، ثم مات بعد أن ضاعت أمواله في أوراق مالية تدهور ثمنها، ولم يترك لنا سوى بيت ذي حديقة واسعة، وكانت والدتي صغيرة وخشيت عجزها عن مواجهة الحياة، فتزوجت من رجل طيب أحسن معاملتها وتكفل بنا كأنه والدنا.

وذات يوم حضر زوج والدتي ومعه رجل من أشراف الحجاز طلبني من والدتي، وزكاه زوجها فرضيت بزواجي منه إذا وعد صدقًا أنه لا يفرقني عنها ولا يطلب مني مغادرة وطني. وسألته إذا كانت له زوجة أخرى فطمأنها بقوله إنه لم يتزوج بعد. وقد عرف كيف يستميلني ويجذبني إليه ويحببني فيه فأحببته، حتى أنه لما أراد العودة إلى بلاده رغبت في

مرافقته، ورافقتنا والدتي إلى الحجاز، ووجدت أنه لم يكـذب عليها ولم تكن له زوجة غيري، ولما اطمأنـت إلـى ذلـك، تركتني ورجعت إلى بلادها. وعشت معه عيشة هادئة، وبعد ثلاث سنوات رزقت منه بطفلة سميتها "زينب".

كان زوجي في كل حج يتوجه إلى مكـة ويغيـب فيهـا، فساورتني الشكوك. وذات يوم عثرت على خطاب فـي درج مكتبه من سيدة فهمت منه أنه تزوجهـا، فثـارت ثـائرتي، وفارقته عائدة إلى استانبول وفي نيتي عدم العودة إليه.

ولكن زوجي حضر في صيف تلك السنة، وبذل كل جهده لينال رضاي وعفوي عنه، وعزا زواجه بابنة عمتـه بأنهـا قريبته يخشى على مالها من الضياع، فرجعت معه، ورزقت منه ولدا هو "السيد محمد". ولكن تبين لي بعـد ذلـك أنـه مزواج، وأنه من كثرة زواجه لا يعلم عدد من تزوج منهن، وكذلك لا يعرف أولاده، ولما وصلت إلى المدينة وكانت لي عمة تعيش فيها قصدت بيتها ونزلت عندها وأرسـلت إليـه طالبة طلاقي بشرط أن أبقى مع ولـدي حتـى يبلـغ سـن الحضانة، فقبل ذلك. وبقيت مع ولدي حتى انقضـت المـدة، وكتبت إليكم فجاءني كتابكم بالأمل".

وقد تألمت لحال هذه السيدة ورثيت لهـا ووعـدتها بـأن أعاملها معاملة الأخت لشقيقتها، ومن محاسن الصدف إنهـا جاءت في وقت كنت محتاجة فيه إلى شـيء يحـول اتجـاه تفكيري في حالتي.

وكانت هذه السيدة ذات صفات طيبـة ومخلصـة وفيـة. وكانت تحبني حبا جما أشعرني بسعادة عظيمة: ولكن كثيـرا ما كانت محبتها تدفعها إلى محاولة الاستئثار بي، وكان ذلك يحدث عندي شيئًا من الثورة النفسية لأنني أكره كل ما يحـد من حريتي واستقلالي، وإن كنت أشفق عليهـا لعلمـي أنـه لا ملجأ لها إلا بيتنا وبخاصة بعد أن توفي شقيقها الوحيد بعد وفاة أمها، وصارت وحيدة لا معين لها في الحياة.

كانت تميل إلى العزلة والأشغال اليدوية والبقاء في الغرفة التي تعودت الوجود فيها وتكره كل شيء يحدث الضوضاء، ولذلك كانت تضيق بعزفي الموسيقي رغم إننـي كنـت قـد وصلت في العزف على البيانو إلى درجة لا بأس بها، وكنت مرغمة على الإقلال من هذه الهواية مراعاة لخاطرها.

وقد فكرت في وسيلة تشغلها عني قليلاً، فعرضت عليهـا أن تأخذ معي دروسا في الرسم، وأن تشاركني أيضـا فـي

دروس اللغة العربية واللغة الفرنسية، فقبلت، ولكنها لم تستمر إلا في الرسم لميلها الشديد للأشغال اليدوية. وقد أتقنت هذا الفن لدرجة كبيرة.

عاشت هذه السيدة بجانبي خمس سنوات حتى صرنا خلالها كأختين تفرح الواحدة لفرح الأخرى وتحزن لحزنها. وفي هذه الفترة تعرفت بسيدة أخرى أحببتها حبا صادقًا، وكانت هي الوحيدة التي لا تغار منها صديقتي وتعترف بأنها جديرة بحبي وإخلاصي، تلك هي الزوجة الأولى للمرحوم حسين رشدي باشا، وكنت فرنسية الجنسية.

عرفتها في حفل زفاف حسين بك رياض، وكنت مع صديقة لي بغرفة الزفاف عندما دخلت هذه السيدة وعليها سيماء الوقار وملامح الذكاء، فاسترعت انتباهي. وأظن إنني أيضا كنت موضع اهتمامها رغم صغر سني في ذلك الوقت. قدمتني إليها شقيقة رشدي باشا، وأمضيت بجانبها معظم السهرة مغتبطة بجانبها؛ إذ وجدتها في أفكارها وحديثها تختلف عن غيرها من السيدات المثقفات المغرورات، وقد زادنا ارتباطًا يوم أمضيناه بباخرة على النيل ذهبت بنا إلى القناطر الخيرية ومعنا سيدات أخريات من الإفرنجيات، وقد

مكننا الوقت الطويل الذي أمضيناه معا من حسـن التعـارف وربطنا بأواصر المودة الأدبية والروحية، وقد صارحتني إنها سمعت عني كثيرا ولكن على غير الحقيقة التي لمستها مـن معاشرتها لي.. فسألتها عما وصل إليها عني، فقالت سـمعت بعض الناس يقولون إنك تركت زوجك لأنك تريدين الـزواج من غيره من الشبان، وأنه تعس لفراقك وعدم انقيـادك لـه، وقد امتحناك دون أن تشعري، فظهر لنا خلاف ما سـمعنا. فلما أظهرت لها دهشتي من امتحانها الذي لم أشـعر بـه.. قالت دخلت عندي إحدى صديقاتي يوم استقبالي، وكنت أنت عندي وقتئذ، فقدمتك إليها، وبعد خروجك تحدثنا، وأكثـرت من الثناء عليك وتحدثنا عن السيدات المصريات عامة. فقالت هذه السيدة، كم من خفايا يخبئها البرقع!.. فقلت لهـا: مـاذا تعنين بهذا القول؟ قالت: كل هؤلاء السيدات يسـلكن تحـت شعار براقعهن أسوأ المسالك. أما نحن معشر الفرنجيات فإننا نخرج سافرات.. وكل واحد يعرفنا ولذلك لا يمكننا أن نطرق مكانًا مشتبها فيه، قلت لها: إن هذا الكلام لا ينطبـق علـى صديقاتي وخاصة صديقتي الصغيرة، قالت لي: هل تسمحين

لي أن أمتحنها، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. فقالـت لها: افعلي ما تشائين، فإني على ثقة تامة بصديقتي.

عندئذ سألتها عن تلك السيدة، ولما عرفتها، تذكرت إنهـا كانت تتردد علينا حتى بلغت من نفسي مكانة طيبـة، وفـي صباح يوم كنا نتحدث عن التحف والآثار القديمة، فقالت إنها تعرف أحد الحوانيت وفيه مما أحب الأشياء كثيرة، وحببـت إلى مرافقتها إلى ذلك الحانوت لأرى لوحات الرسم والتحف الموجودة به، فوافقت وخرجنا معا في عربتهـا، وبعـد أن تفرجنا، دعتني بإلحاح لتناول الشاي معها في أحد محـلات الحلوى، فرفضت لأن ذلك لا يليق بي شخصيا فضلاً عـن خروجه عن التقاليد.. وكررت رجاءها وإلحاحها، وكـررت الرفض بدوري. ولما لم توفق إلى إقناعي، ظنت إنني ربمـا أقبل هذه الدعوة إذا كانت في محل آخر بعيد عـن المدينـة، فعرضت علي الذهاب إلى مقهى بجهة الجزيرة لا يؤمه أحد من معارفنا، فرفضت أيضا رفضا باتًا، وقد دهشت السـيدة لهذا الرفض من شابة مثلي إزاء سـيدة مثلهـا، فلـم أعبـأ بدهشتها، ورجوتها في شيء مـن الخشـونة والاسـتياء أن تعيدني إلى منزلي. ولما فهمت مني أن رفضي يرجع إلى أن

الاختلاط يتنافى مع تقاليدنا، قالت لي إن كثيرا من السـيدات المسلمات يحضرن عندي الحفلات، ويمكثن داخـل حجـرة مظلمة يمكنهن من خلالها مشاهدة الحفلة من وراء ستار دون أن يراهن أحد، ولكنني أقنعتها أن هؤلاء السيدات يذهبن مع أزواجهن أو أخوتهن أو آبائهن، وأن حالتي تختلف عنهن.

وكنت قد حدثت صديقتي حرم رشدي بك في أمـر هـذه الصديقة بعد أن كثر إلحاحها علي، فقالت لي إن خيـر مـا تقدمينه لها دليلاً على إخلاصك وحبك هو ألا تطلبـي منهـا زيارتك أو حضور أية حفلة عندك.

وكان هذا يزيد في تقديري وإخلاصي لصـديقتي حـرم رشدي باشا، فهي لم تكن تعني بظروفي وحـالتي واسـمي فقط، وإنما كانت أيضا تجتهد في تثقيفي في اللغة الفرنسـية، وكانت ترشدني إلى أثمن الكتب وأنفعها.. وكانـت تناقشـني فيما قرأت وتفسر لي ما يصعب علي فهمه، وكانـت تغـذي عقلي وروحي بكل أنواع الجمال والكمال.

ثم إنها كانت تحتم علي أن أحضر عندها كل يوم سـبت من كل أسبوع، وهو يوم استقبالها.. فـي الموعـد المحـدد للسيدات.. قائلة لي: "أنت زهرة صالوني"، وفي الأيام التي لم

أكن أتمكن فيها من زيارتها، كنت أرسل لها باقات الزهور، فكانت تشكرني برسالة رقيقة تقول فيها: إن هذه الزهور الجميلة التي أرسلتها إلى لا يمكن أن تملأ الفراغ الذي أوجده غياب زهرتي المحبوبة، فحاولي التقليل من تلك الباقات حتى لا تنقصي بغيابك من بهجة صالوني.

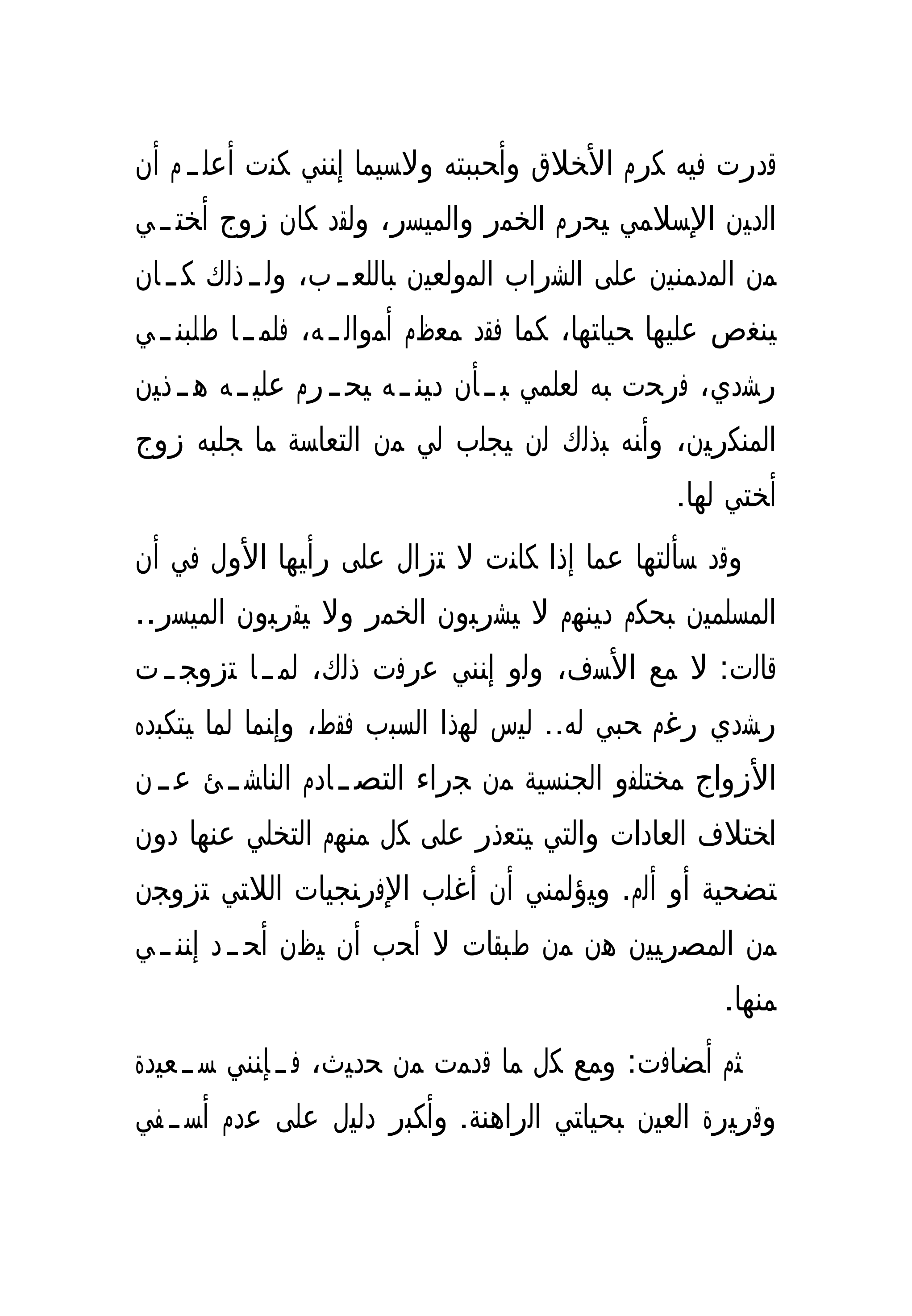
ولقد كانت هذه السيدة الفاضلة مثال العفة والطهر والوفاء والكمال، وكانت تحب أن يتصف كل أصحابها ومعارفها بتلك الصفات النبيلة، ولذلك كانت تحاول دائما أن تبث فيهم هذه الفضائل.

وأذكر في أحد أيام استقبالها أن دار الحديث حول موضوع التقاليد والحجاب، فقالت: إنني رغم إعجابي بالزي المصري وما يكسبه الحجاب للمرأة من روعة وجمال، فإنني أشعر بالأسف في الوقت نفسه لأنه يحول دون تقدمها ويحرمها التمتع بقسط أوفر من التعليم والرياضة البدنية، ولذلك تتعرض للبدانة، كما أنه في الأوساط الغربية يظن الكثيرون أن الحجاب أداة تستر على ما خفي تحته، ولذلك يرجع كثير من السائحين إلى بلادهم بفكرة خاطئة؛ حيث إن بعض من يقودونهم إلى المنازل الساقطة، كثيرا ما يدخلون

في روعهم أنهم يقدمونهم لسيدات مـن العـائلات الكبيـرة، فيعودون إلى بلادهم مشبعين بهذا الاعتقاد الخاطئ.. ويكتب بعضهم ما يمليه عليه خياليه الضال واعتقاده الفاسد. ثم انتقلنا للحديث عن كتابها "حريم ومسلمات مصر" الذي قدمته باسـم مستعار. وقالت لقد كان غرضي من هذا الكتاب هو وصـف حياة المصريين على حقيقتها ليعلم الإفرنج أنهم ظلوا يسيئون الظن بهم طويلاً، ولأقنعهم بأن المصـريين فـي عـاداتهم وتقاليدهم لا يختلفون عنهم إلا قليلاً، بل لقد ميـزهم ديـنهم الحنيف بما فيه من حكمة وعدالة على غيرهم من البشر.

وقالت إنني بدأت في تأليف كتاب آخر أبين فيه سوء حال المرأة المصرية كزوجة وأم من جـراء التقاليـد والعـادات البعيدة عن الدين، فالحقيقة أن الدين الإسلامي قـد أنصـف المرأة أكثر من أي ديـن آخـر، وسأسـمي هـذا الكتـاب "المطلقات"؛ حيث إني حضرت عدة جلسات فـي المحكمـة الشرعية، وتألمت كثيرا لتعاسة المرأة المصـرية وبخاصـة الفقيرة وظلم الرجل لها.

وقد سألتها عما إذا كانت تقبل الزواج من رشدي باشا فيما لو عرفت مثل هذا من قبل؟ فقالت: نعم.. كنت تزوجته لأني



قدرت فيه كرم الأخلاق وأحببته ولاسيما إنني كنت أعلـم أن الدين الإسلامي يحرم الخمر والميسر، ولقد كان زوج أختـي من المدمنين على الشراب المولعين باللعـب، ولـذلك كـان ينغص عليها حياتها، كما فقد معظم أموالـه، فلمـا طلبنـي رشدي، فرحت به لعلمي بـأن دينـه يحـرم عليـه هـذين المنكرين، وأنه بذلك لن يجلب لي من التعاسة ما جلبه زوج أختي لها.

وقد سألتها عما إذا كانت لا تزال على رأيها الأول في أن المسلمين بحكم دينهم لا يشربون الخمر ولا يقربون الميسر.. قالت: لا مع الأسف، ولو إنني عرفت ذلك، لمـا تزوجـت رشدي رغم حبي له.. ليس لهذا السبب فقط، وإنما لما يتكبده الأزواج مختلفو الجنسية من جراء التصـادم الناشـئ عـن اختلاف العادات والتي يتعذر على كل منهم التخلي عنها دون تضحية أو ألم. ويؤلمني أن أغلب الإفرنجيات اللاتي تزوجن من المصريين هن من طبقات لا أحب أن يظن أحـد إننـي منها.

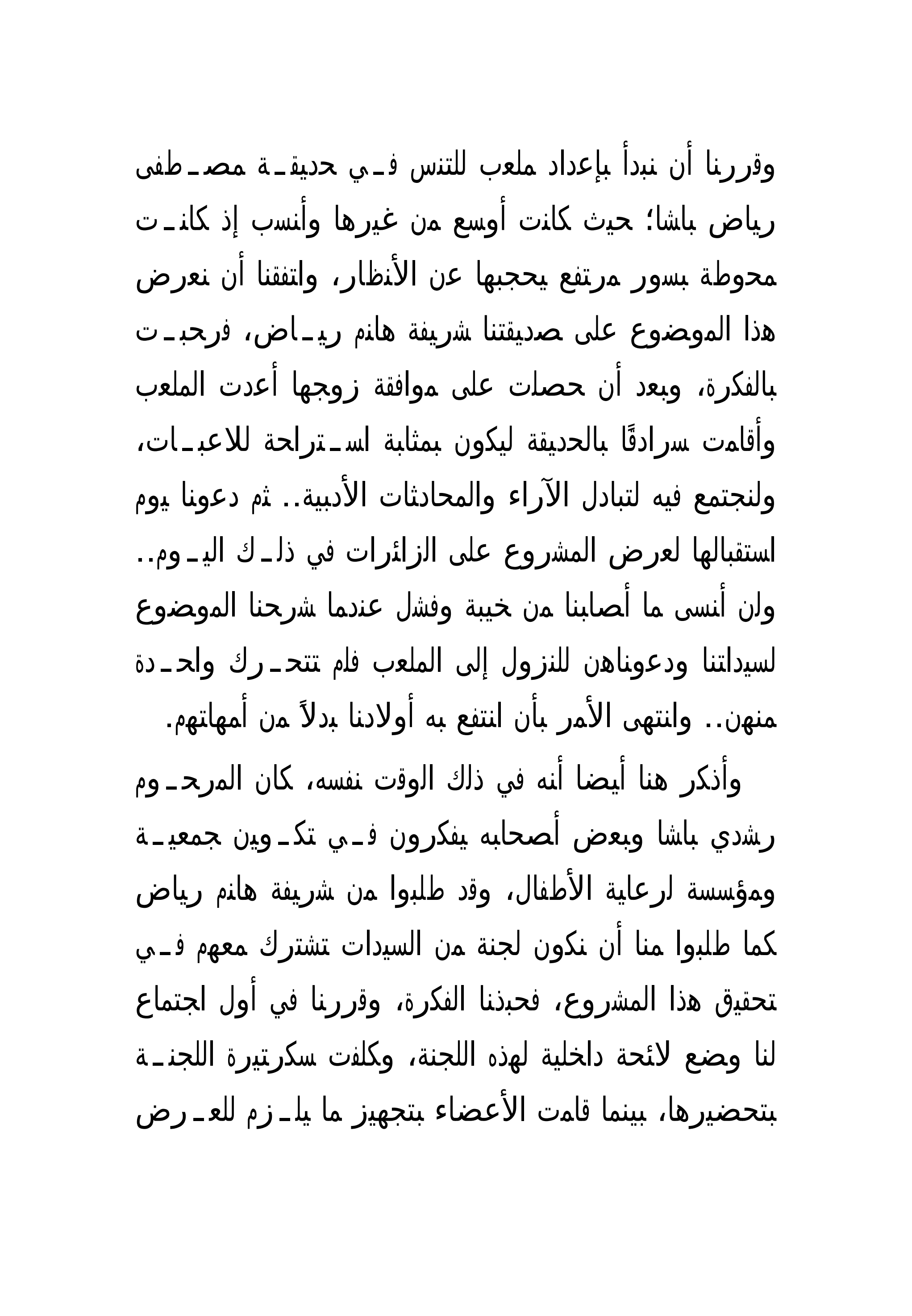
ثم أضافت: ومع كل ما قدمت من حديث، فـإنني سـعيدة وقريرة العين بحياتي الراهنة. وأكبر دليل على عدم أسـفي

وامتزاجي بالأسرة المصرية إنني أعددت لي قبرا بالإمام بجانب قبر زوجي كي لا نفترق في الدنيا أو في الآخرة.

ونظرت إليها في دهشة، فإذا بها تقول أمام صاحباتها الفرنجيات: ألا تعلمين أني اعتنقت الدين الإسلامي منذ زواجي من رشدي، وإنني الآن مسلمة وأريد أن أدفن في مقابر المسلمين.. ولقد كتبت ذلك في وصيتي لأهلي.

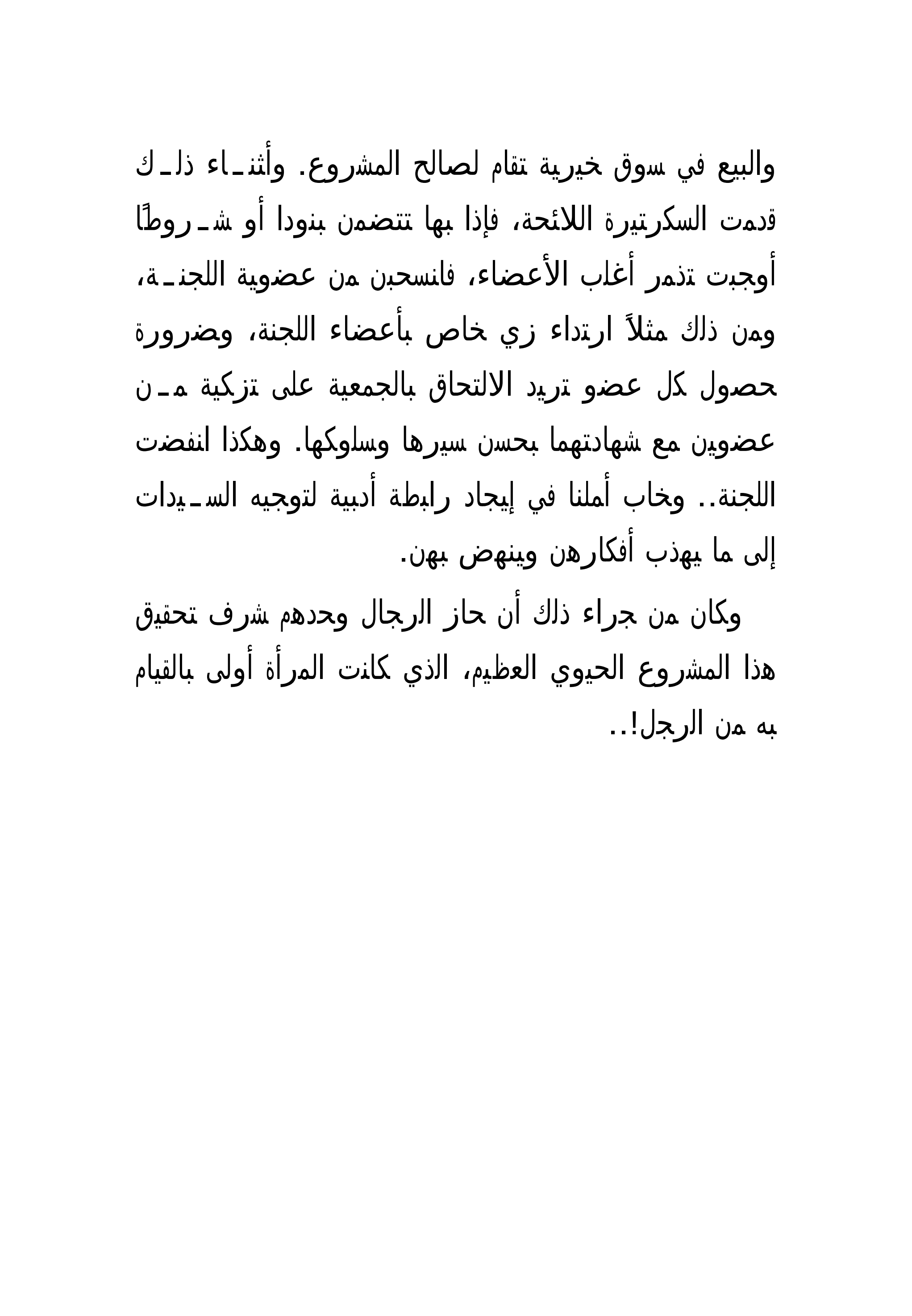
حقيقة أن صديقتي كانت وقتئذ الوحيدة بين الإفرنج التي أمكنها أن تدرس وتتفهم وتقدر أخلاق المصريين وصفاتهم.. وكانت تعرف كثيرا من الأمثلة العربية الدارجة، وتحيط بكثير من العادات والتقاليد التي لا تعرفها كثيرات من المصريات أنفسهن.

وكثيرا ما كنا نتريض في طريق الجيزة أو في حدائقها. وكان يدور حديثنا غالبا حول البحث عن الطريقة العملية المجدية للوصول إلى تحسين حال المرأة المصرية والترفيه عنها. وقد استقر رأينا على أن نبدأ مشروعنا بتوجيه المرأة إلى ممارسة الرياضة البدنية أولاً، وتنبيهها إلى خوض الحياة الاجتماعية وترغيبها في دراسة الفنون والآداب، وذلك بعقد اجتماعات تجمع بين الرياضة الفكرية والرياضة البدنية..



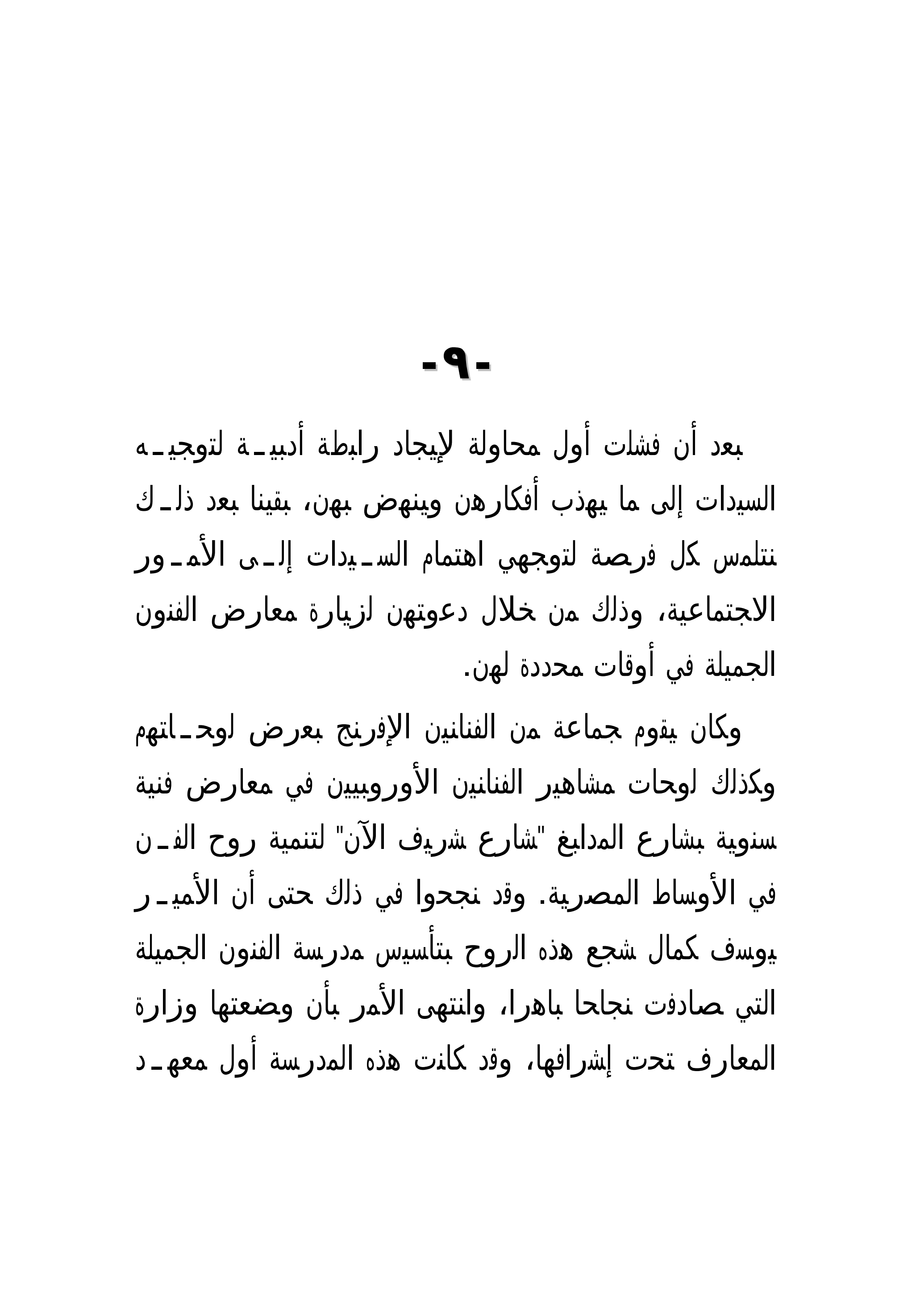
وقررنا أن نبدأ بإعداد ملعب للتنس في حديقة مصطفى رياض باشا؛ حيث كانت أوسع من غيرها وأنسب إذ كانت محوطة بسور مرتفع يحجبها عن الأنظار، واتفقنا أن نعرض هذا الموضوع على صديقتنا شريفة هانم رياض، فرحبت بالفكرة، وبعد أن حصلت على موافقة زوجها أعدت الملعب وأقامت سرادقًا بالحديقة ليكون بمثابة استراحة للاعبات، ولنجتمع فيه لتبادل الآراء والمحادثات الأدبية.. ثم دعونا يوم استقبالها لعرض المشروع على الزائرات في ذلك اليوم.. ولن أنسى ما أصابنا من خيبة وفشل عندما شرحنا الموضوع لسيداتنا ودعوناهن للنزول إلى الملعب فلم تتحرك واحدة منهن.. وانتهى الأمر بأن انتفع به أولادنا بدلاً من أمهاتهم.

وأذكر هنا أيضا أنه في ذلك الوقت نفسه، كان المرحوم رشدي باشا وبعض أصحابه يفكرون في تكوين جمعية ومؤسسة لرعاية الأطفال، وقد طلبوا من شريفة هانم رياض كما طلبوا منا أن نكون لجنة من السيدات تشترك معهم في تحقيق هذا المشروع، فحبذنا الفكرة، وقررنا في أول اجتماع لنا وضع لائحة داخلية لهذه اللجنة، وكلفت سكرتيرة اللجنة بتحضيرها، بينما قامت الأعضاء بتجهيز ما يلزم للعرض



والبيع في سوق خيرية تقام لصالح المشروع. وأثنـاء ذلـك قدمت السكرتيرة اللائحة، فإذا بها تتضمن بنودا أو شـروطًا أوجبت تذمر أغلب الأعضاء، فانسحبن من عضوية اللجنـة، ومن ذلك مثلاً ارتداء زي خاص بأعضاء اللجنة، وضرورة حصول كل عضو تريد الالتحاق بالجمعية على تزكية مـن عضوين مع شهادتهما بحسن سيرها وسلوكها. وهكذا انفضت اللجنة.. وخاب أملنا في إيجاد رابطة أدبية لتوجيه السـيدات إلى ما يهذب أفكارهن وينهض بهن.

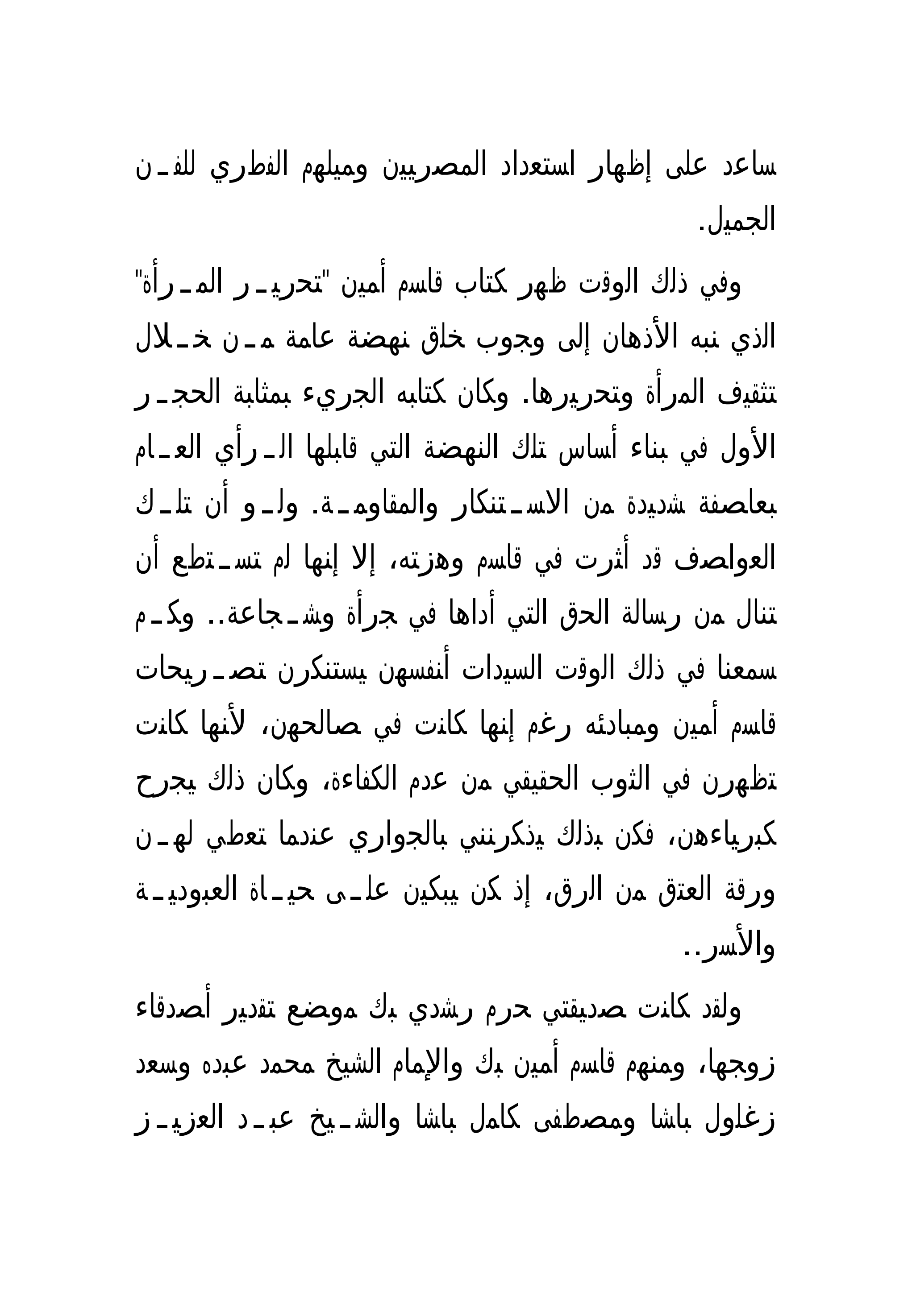
وكان من جراء ذلك أن حاز الرجال وحدهم شرف تحقيق هذا المشروع الحيوي العظيم، الذي كانت المرأة أولى بالقيام به من الرجل!..



-٩-

بعد أن فشلت أول محاولة لإيجاد رابطة أدبيـة لتوجيـه السيدات إلى ما يهذب أفكارهن وينهض بهن، بقينا بعد ذلـك نتلمس كل فرصة لتوجهي اهتمام السـيدات إلـى الأمـور الاجتماعية، وذلك من خلال دعوتهن لزيارة معارض الفنون الجميلة في أوقات محددة لهن.

وكان يقوم جماعة من الفنانين الإفرنج بعرض لوحـاتهم وكذلك لوحات مشاهير الفنانين الأوروبيين في معارض فنية سنوية بشارع المدابغ "شارع شريف الآن" لتنمية روح الفـن في الأوساط المصرية. وقد نجحوا في ذلك حتى أن الأميـر يوسف كمال شجع هذه الروح بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة التي صادفت نجاحا باهرا، وانتهى الأمر بأن وضعتها وزارة المعارف تحت إشرافها، وقد كانت هذه المدرسة أول معهـد



ساعد على إظهار استعداد المصريين وميلهم الفطري للفـن الجميل.

وفي ذلك الوقت ظهر كتاب قاسم أمين "تحريـر المـرأة" الذي نبه الأذهان إلى وجوب خلق نهضة عامة مـن خـلال تثقيف المرأة وتحريرها. وكان كتابه الجريء بمثابة الحجـر الأول في بناء أساس تلك النهضة التي قابلها الـرأي العـام بعاصفة شديدة من الاسـتنكار والمقاومـة. ولـو أن تلـك العواصف قد أثرت في قاسم وهزته، إلا إنها لم تسـتطع أن تنال من رسالة الحق التي أداها في جرأة وشـجاعة.. وكـم سمعنا في ذلك الوقت السيدات أنفسهن يستنكرن تصـريحات قاسم أمين ومبادئه رغم إنها كانت في صالحهن، لأنها كانت تظهرن في الثوب الحقيقي من عدم الكفاءة، وكان ذلك يجرح كبرياءهن، فكن بذلك يذكرنني بالجواري عندما تعطي لهـن ورقة العتق من الرق، إذ كن يبكين علـى حيـاة العبوديـة والأسر..

ولقد كانت صديقتي حرم رشدي بك موضع تقدير أصدقاء زوجها، ومنهم قاسم أمين بك والإمام الشيخ محمد عبده وسعد زغلول باشا ومصطفى كامل باشا والشـيخ عبـد العزيـز

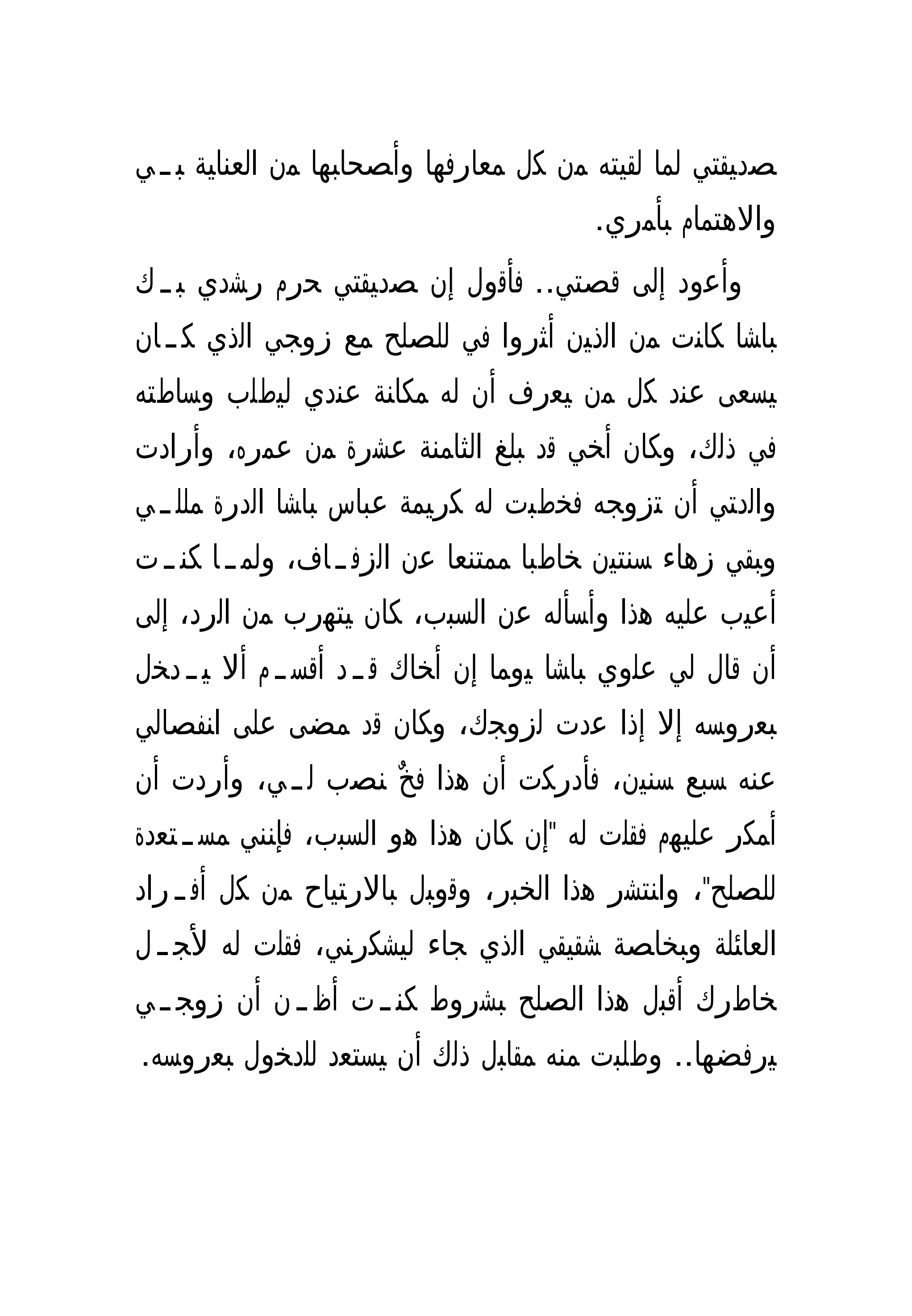
جاويش وغيرهم من رجالات مصر المعدودين، وكانت كثيرا ما تقص علي ما يدور بينها وبينهم من الحديث، وكانت تعجب بآراء قاسم أمين وشجاعته الأدبية، وفي الوقت نفسه تأسف لعدم تقدير مواطنيه له إلا القليل من أصدقائه، كما كانت ترثي لتألمه من جحود مواطنيه لفضله وتخلي أصدق أصدقائه ومؤيدي مبادئه عنه أثناء هبوب العاصفة التي أثيرت ضده عندما صرح بآرائه في تحرير المرأة.

لقد كانت صديقتي حرم رشدي باشا المثل الأعلى للمرأة المهذبة الكاملة، وكانت لا تطيق أن ترى أي سوء تفاهم أو بغضاء بين أصدقائها أو معارفها.. وكان لها التأثير الكبير علي في الصلح مع زوجي.

ولقد قدر لهذه السيدة أن تتلقى صدمات عائلية ومادية متتالية، فلم تقو على احتمال هذه الصدمات نظرا لما كانت عليه من قلة المقاومة نتيجة مرض مزمن فضلاً عن إرهاق نفسها بالأعمال، فأضعف كل ذلك قلبها الطيب، وكان أن مرضت وتوفيت إثر عملية جراحية أجريت لها في باريس في أكتوبر ١٩٠٨.

وقد علمت من زوجي الذي كان بباريس في تلك السـنة وقابلها هناك، إنني كنت شغلها الشاغل، وإنها كانت تعـرض عليها الأشياء لتي كلفتها بها وهي على سرير المرض. وكان هذا دليلاً على الاهتمام والصداقة والمحبة. وقد كتبت لي عند دخولها المستشفى تقول: "دخلت المستشفى لتجري لي عملية جراحية صغيرة، فلا تجزعي إذا وصلك نبأ خـاطئ بـأنني قد مت، ولا تبكي علي كما رأيتك تبكين عندما أشـيع خطـأ خبر وفاة الدكتور هيس".

وجاءت وفاتها بعد وفاة الزعيم المعروف مصطفى كامل باشا الذي كانت تقدره وتناصر آراءه، وكان مصطفى كامـل أصدق أصدقاء أخي، ثم لحق بهما قاسم أمين نصير المـرأة والصديق الحميم لسعد زغلول باشا ورشدي باشا، فخسـرت مصر ثلاثة من المجاهدين المخلصين في خدمـة قضـيتها. ومن غريب الصدف أن شقيقي رزئ في أعز صديق لديه في الوقت الذي رزئت فيه في أعز صديقاتي وأحبهن إلي، ومن شدة حزني عليها مرضت مرضا شديدا، أدى إلـى إذعـان زوجي أخيرا لمشورة الأطباء بسفرنا إلى الخارج للاستشفاء في فرنسا، وهناك أدركت هول الفاجعة التي لحقت بي بفقدان

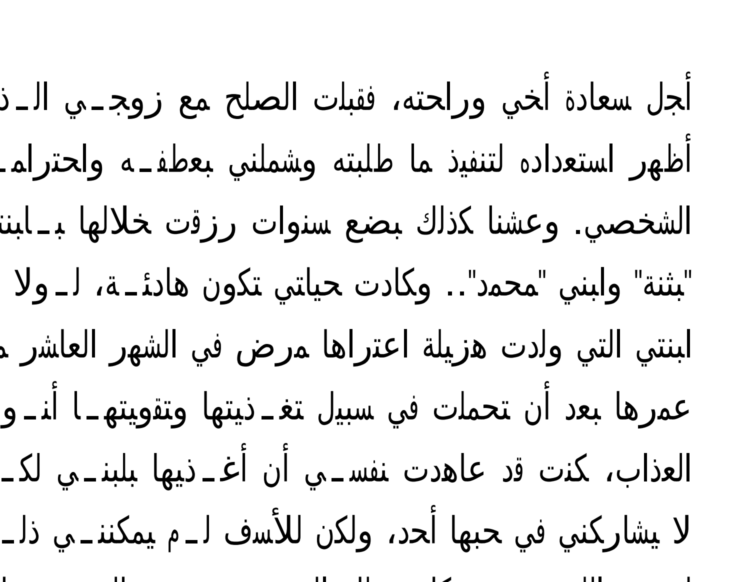


صديقتي لما لقيته من كل معارفها وأصحابها من العناية بي والاهتمام بأمري.

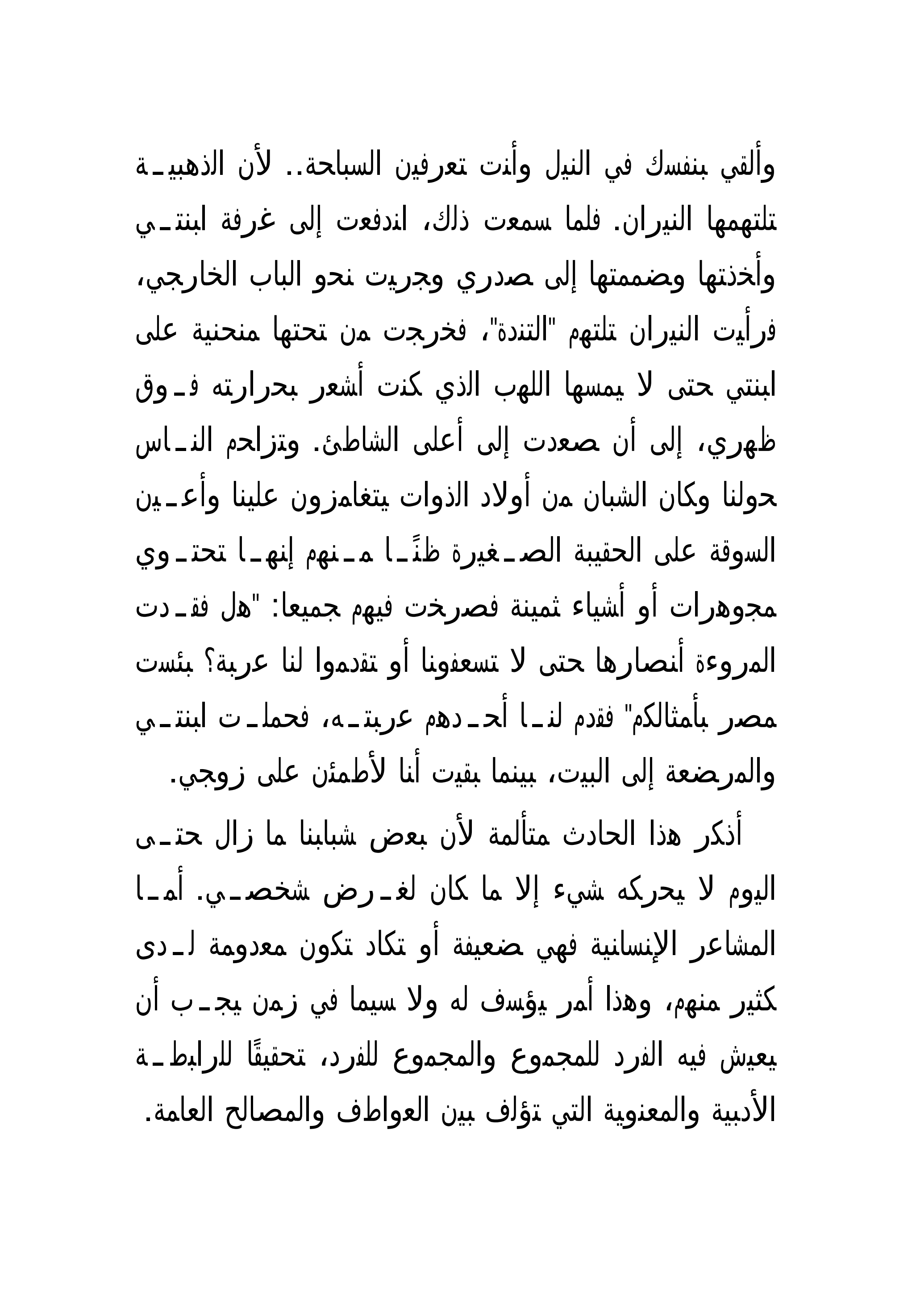
وأعود إلى قصتي.. فأقول إن صديقتي حرم رشدي بك باشا كانت من الذين أثروا في للصلح مع زوجي الذي كان يسعى عند كل من يعرف أن له مكانة عندي ليطلب وساطته في ذلك، وكان أخي قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، وأرادت والدتي أن تزوجه فخطبت له كريمة عباس باشا الدرة ملاي وبقي زهاء سنتين خاطبا ممتنعا عن الزفاف، ولما كنت أعيب عليه هذا وأسأله عن السبب، كان يتهرب من الرد، إلى أن قال لي علوي باشا يوما إن أخاك قد أقسم ألا يدخل بعروسه إلا إذا عدت لزوجك، وكان قد مضى على انفصالي عنه سبع سنين، فأدركت أن هذا فخٌ نصب لي، وأردت أن أمكر عليهم فقلت له "إن كان هذا هو السبب، فإنني مستعدة للصلح"، وانتشر هذا الخبر، وقوبل بالارتياح من كل أفراد العائلة وبخاصة شقيقي الذي جاء ليشكرني، فقلت له لأجل خاطرك أقبل هذا الصلح بشروط كنت أظن أن زوجي يرفضها.. وطلبت منه مقابل ذلك أن يستعد للدخول بعروسه.

واستقر رأي أخي على القيام بالاستعدادات اللازمة. وكان يفضل أن يتم الزفاف دون طنطنة أو حفـلات، وأن تعطـي المبالغ التي ستصـرف للفقـراء والمعـوزين. وقلـت لـه ما دام في إمكانك عمل هذا وذاك ففي الأمرين صدقة، لأنك بإقامة الأفراح ستحسن إلى الكثيرين من العمـال المسـاكين كالفراشين والطهاة وستطعم الفقراء، فتصدق وأقـم أفراحـا تتحدث بجمالها وروعتها الناس أعواما طويلة. فضحك لقولي هذا، ووعدني بتنفيذ رغباتي، وقد نفذها فعلاً، وقـد وصـف ليالي الفرح صديقنا شاعر القطرين خليل بك مطـران فـي افتتاحية العدد الثالث والعشرين من المجلة المصرية الصادر يوم أول مايو ١٩٠٢.

وبعد أن تزوج شقيقي، ظننت إنني وفقت إلى لعب الدور الذي أردته، وأنه سيمكنني بعد ذلك أن أماطل حتـى يسـأم زوجي كثرة المماطلة ويكف عن المطالبة برجـوعي إليـه فيتركني وشأني، ولكني رأيت مع الأسـف أن بقـائي فـي المنزل سيكون سببا في شقاء أخي، لأنني لاحظت أن زوجته لم تكن تنظر بعين الرضا إلى كثرة زياراتـه لـي وعطفـه الكبير علي، فرأيت من الواجب علي أن أضحي بنفسي مـن



أجل سعادة أخي وراحته، فقبلت الصلح مع زوجي الذي أظهر استعداده لتنفيذ ما طلبته وشملني بعطفه واحترامه الشخصي. وعشنا كذلك بضع سنوات رزقت خلالها بابنتي "بثنة" وابني "محمد".. وكادت حياتي تكون هادئة، لولا أن ابنتي التي ولدت هزيلة اعتراها مرض في الشهر العاشر من عمرها بعد أن تحملت في سبيل تغذيتها وتقويتها أنواع العذاب، كنت قد عاهدت نفسي أن أغذيها بلبني لكي لا يشاركني في حبها أحد، ولكن للأسف لم يمكنني ذلك لشرود اللبن مني. وكانت تلك السنة شحيحة بالمرضعات فالتزمنا تغييرهن الواحدة بعد الأخرى. وكان أن ساءت صحة طفلتي وبخاصة بعد أن انتابتها حمى شديدة، وقد اختلف الأطباء حول حقيقة مرضها، وإن كانوا قد اتفقوا على ضرورة تغيير الهواء لها، ولكن والدها كان يكره التنقل لكثرة مشاغله، فاستحسن أن نأخذها إلى "الذهبية" التي كانت راسية بجانب الجزيرة الصغيرة. وبعد أن وصلنا وذهبت المرضعة بالطفلة إلى فراشها في آخر الذهبية، بينما كنت أتهيأ لخلع إزاري. إذا بنور شديد يملأ الأرجاء، وإذا بزوجي يندفع في اللحظة نفسها ممتقع الوجه قائلاً: اخرجي حالاً



وألقي بنفسك في النيل وأنت تعرفين السباحة.. لأن الذهبية تلتهمها النيران. فلما سمعت ذلك، اندفعت إلى غرفة ابنتي وأخذتها وضممتها إلى صدري وجريت نحو الباب الخارجي، فرأيت النيران تلتهم "التندة"، فخرجت من تحتها منحنية على ابنتي حتى لا يمسها اللهب الذي كنت أشعر بحرارته فوق ظهري، إلى أن صعدت إلى أعلى الشاطئ. وتزاحم الناس حولنا وكان الشبان من أولاد الذوات يتغامزون علينا وأعين السوقة على الحقيبة الصغيرة ظنًّا منهم إنها تحتوي مجوهرات أو أشياء ثمينة فصرخت فيهم جميعا: "هل فقدت المروءة أنصارها حتى لا تسعفونا أو تقدموا لنا عربة؟ بئست مصر بأمثالكم" فقدم لنا أحدهم عربته، فحملت ابنتي والمرضعة إلى البيت، بينما بقيت أنا لأطمئن على زوجي.

أذكر هذا الحادث متألمة لأن بعض شبابنا ما زال حتى اليوم لا يحركه شيء إلا ما كان لغرض شخصي. أما المشاعر الإنسانية فهي ضعيفة أو تكاد تكون معدومة لدى كثير منهم، وهذا أمر يؤسف له ولا سيما في زمن يجب أن يعيش فيه الفرد للمجموع والمجموع للفرد، تحقيقًا للرابطة الأدبية والمعنوية التي تؤلف بين العواطف والمصالح العامة.

وعندما عدت إلى البيت. ولن أنسى تلك الليلة المفزعة الرهيبة التي قضيتها بجنب ابنتي الحبيبة بين اليأس والرجاء، إلى أن جاء الدكتور هيس في الصباح. وعندما رآها، ارتمى على الكرسي وهو يقول: الحمد .. إنها لا تزال على قيد الحياة.

وأذكر أن الدكتور هيس كان طيب القلب، كريم النفس، يحب الأطفال الذين خرجوا إلى نور الحياة على يديه محبة الوالد العطوف على أولاده. كذلك فإنني أذكر له بالشكر دائما خدماته الإنسانية كلما كنت أقصده في عيادته بعض الفقراء في بيوتهم وأكواخهم، فقد كان يلبي طلبي في أية ساعة من الليل أو النهار، وأكثر من ذلك أنه كثيرا ما كان يدفع من جيبه ثمن الأدوية إذا لمس فقرهم وعجزهم عن شرائها.

وقد ظلت ابنتي تعاني من ضعف شديد لعدة سنوات. وكانت كلما أصيبت بمرض شديد اشتدت وطأته عليها بسبب ضعفها. وفي كل مرة كان الأطباء يشيرون علي بضرورة سفرها إلى أوربا لاعتقادهم بأن تغيير الهواء يفيدها وكان والدها يرفض رفضا باتًا إلى أن ساءت حالة ابنتي ذات مرة وعيل صبري، فهددت زوجي بالافتراق عنه إذا تسبب عن

رفضه هذا وفاة ابنتي دون أن نقضي على هذه المصيبة. وانتهى الأمر أن أذن لي بالسفر إلى الآستانة.

كانت هذه هي أولى أسفارنا للخارج. وقد سافر معنا الباشا لتوصيلنا على باخرة روسية صغيرة اسمها "تزاريستا" وقد بدأت صحة "بثنة" تتحسن منذ ثاني يوم لوجودنا على المركب، فأخذت تجري هنا وهناك ويلاطفها جميع الركاب.

وكنت أتوق لرؤية تركيا لما كنت أسمعه عن جمال الطبيعة ورفاهية الحياة فيها. وقد صادف وصولنا غروب الشمس وفي بوغاز استنابول الجميل كانت الشمس تلقي بأشعتها الجميلة الأخيرة على "قرن الذهب" فتنعكس تلك الأشعة على المآذن البيضاء وقباب المساجد الكبيرة فوق بساط سندسي من الخضرة.

وكان بشير آغا قد استأجر لنا منزلاً على الطريق المرتفع اتقاء تأثير الرطوبة في صحة الطفلة وبناء على طلب الطبيب فقد ركبنا إليه عربة مغطاة بخيمة صغيرة من تلك التي يطلق عليها اسم عربات المهاجرين "مهاجر عربة س". ولم تستطع العربة أن تواصل بنا الطريق فصعدنا أكثر من نصفه على أقدامنا حتى وصلنا المرتفع "البقوش"؛ حيث كان البيت،

وكنت أظن إنني سأجد فيه كل أسباب الراحة، ولذلك شد مـا كان تأثري عندما وجدته بيتًا له حديقة صغيرة وكدت أتركه في الحال لولا وجود ابنتي ووالدتي معي، ولذلك رأيـت أن نقضي به الليلة وفي نيتي أن أغادره عنـد طلـوع الشـمس لأبحث بنفسي عن منزل آخر أفضل منه. ولكن ما أن بـزغ الفجر حتى رأيت منظرا من أبدع المناظر الطبيعيـة التـي رأتها عيناي فقد رأيت البوسفور ممتدا أمامي في شكل شريط تحده من الجانبين مرتفعات مكسوة بالخضرة وتتناثر عليهـا أكشاك صغيرة مغطاة بالجمالون الأحمر أو الأسود وتتخللها قصور بيضاء أعدت دورا للسفارات الأجنبية علـى شـكل نصف دائرة تطل على المضيق الموصل للبحـر الأسـود. كذلك رأيت المنزل محوطًا بحديقة لطيفـة تحـوي أشـجارا مثمرة أو مزهرة، وقد ذكرتني شجرة منها محملة بالمشـمش بتلك الشجرة التي كنت أحبها في منزل والـدي، واقتلعوهـا بسبب زفافي!..

وتبين لي أن هذا المنزل هو أفضل منزل فـي المنطقـة المرتفعة وقد وطنت نفسي على البقاء فيه وبدأت أنظمه قدر المستطاع، وغادرنا الباشا للرجوع على الباخرة نفسها عنـد

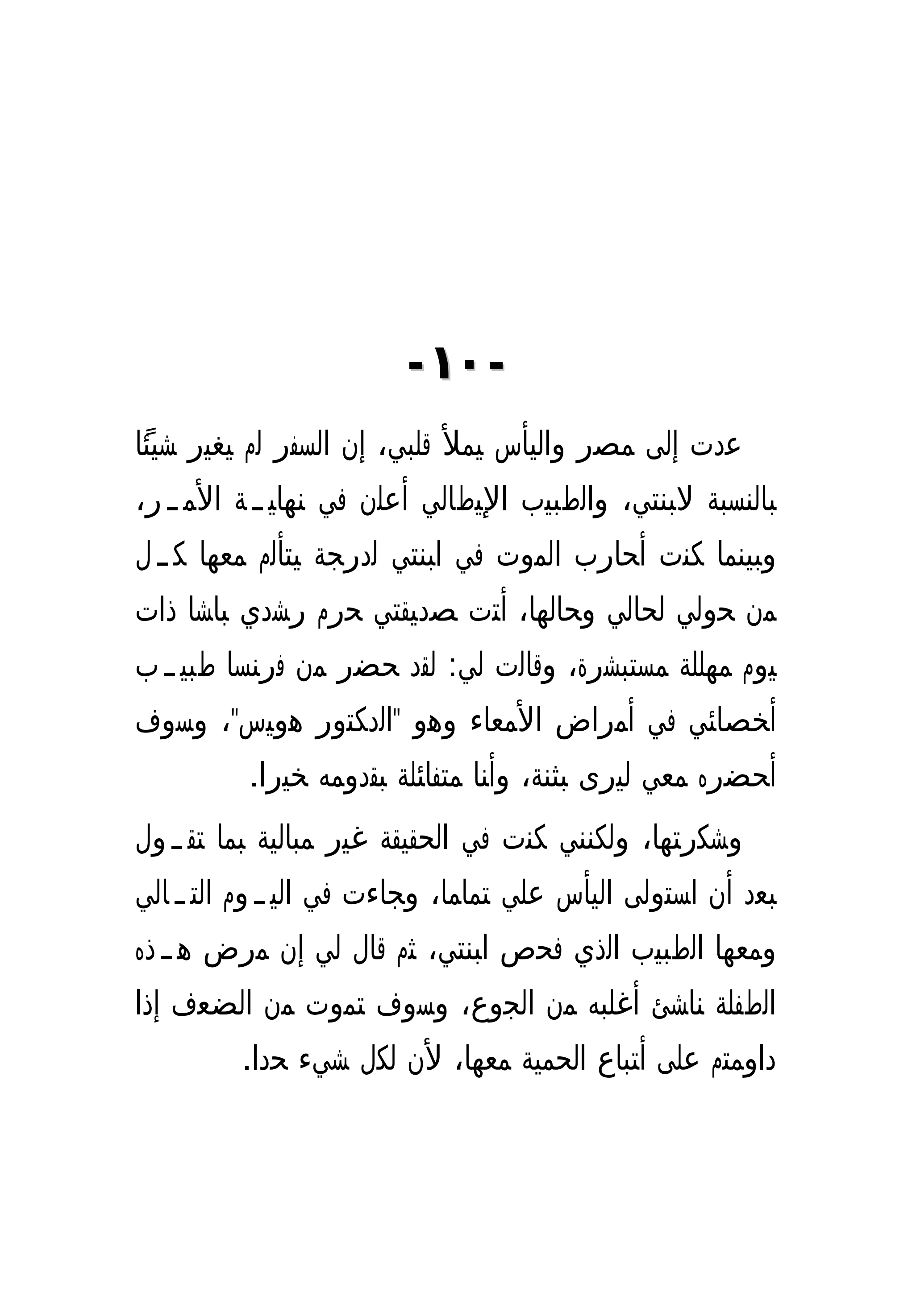
عودتها. وبقيت مع والدتي وابنتي وسيدة شركسية من معاتيق الخديوي إسماعيل باشا أبت إلا أن ترافقني في رحلتي بعد أن رفضت خادمتي أن تصحبني لأن لها ولدا لا يمكنها أن تبتعد عنه زمنًا طويلاً. ولقد أفادتني هذه السيدة كثيرا وقدمت لـي خدمات كبيرة لا أنساها. وكان اسمها "مهرماه هانم" وكانـت كبيرة قالغوات "وصيفات" سراي إسماعيل باشـا.. وكانـت حائزة رتبة باشجاويش، ووظيفتها في الحفلات والمواسـم أن تسير أمام والدة باشا وبيدها صولجان طويل. وعندما تـدخل الوالدة غرفة استقبالها وتجلس تلقي أمامها مهرماه هانم خطبة التعظيم المعتادة، ثم تقف إلى جانبها.

كانت هذه السيدة تتردد علينا وتحب ابنتي كثيـرا ولكـن حبها تحول كلية بعد ذلك إلى ابني "محمـد" حتـى صـارت تزاحمني في حبه.

وقد بقينا في استنابول ببيوك دره ثلاثة أشهر، وكان يعالج ابنتي طوال هذه المدة طبيب إيطالي اختصاص في أمـراض الأطفال. ورغم أنه كان ذائع الصيت، فـإن ابنتـي كانـت تتحسن فترة، ثم لا تلبث أن تسوء أضعاف هذه الفترة، ولذلك أمضيت فترة وجودي في استانبول دون أن أحظـى برؤيـة

آثارها ومعالمها، وأذكـر إنني لـم أنـزل إلـى المدينـة إلا مرة أو اثنتين لشراء بعض لوازمنا الضرورية، وقد لفت نظري تزاحم الكلاب في الشوارع والأزقة لدرجـة يتعطـل معها السير، وعندما سألت عن سر هذه الظاهرة العجيبة، قيل لي أن الخليفة يحمي هذه الكلاب ويتبرك بها، ولذلك أجـرى عليها راتبا خاصا من الجراية. كذلك فقد استرعى انتبـاهي السوق الكبيرة "أوزوث جارشي" وهي تشـبه سـوق خـان الخليلي في مصر، وكنا نرى السيدات التركيات يجبن السوق في المآزر الحريرية المختلفة الألوان وعلى وجوههن النقاب الأسود.

وعندما رأيت أنه لا فائدة من إطالة البقاء، رجعـت إلـي وطني وأنا أكثر بؤسا مني عند السفر إلى تركيا التي غادرتها دون أن أعرف عنها أكثر من بيوك دره والبوسفور، وأذكـر هنا أن الطبيب الإيطالي الذي كان يعالج ابنتي هناك، رفض أن يتقاضى أتعابا لأنه لم يوفق لشفائها، فوضعت النقود فـي جيبه عند نزوله من المركب دون أن يشعر؛ حيث كان قـد أتى ليوصلنا إلى الباخرة.



-١٠-

عدت إلى مصر واليأس يملأ قلبي، إن السفر لم يغير شيئًا بالنسبة لابنتي، والطبيب الإيطالي أعلن في نهايـة الأمـر، وبينما كنت أحارب الموت في ابنتي لدرجة يتألم معها كـل من حولي لحالي وحالها، أتت صديقتي حرم رشدي باشا ذات يوم مهللة مستبشرة، وقالت لي: لقد حضر من فرنسا طبيـب أخصائي في أمراض الأمعاء وهو "الدكتور هويس"، وسوف أحضره معي ليرى بثنة، وأنا متفائلة بقدومه خيرا.

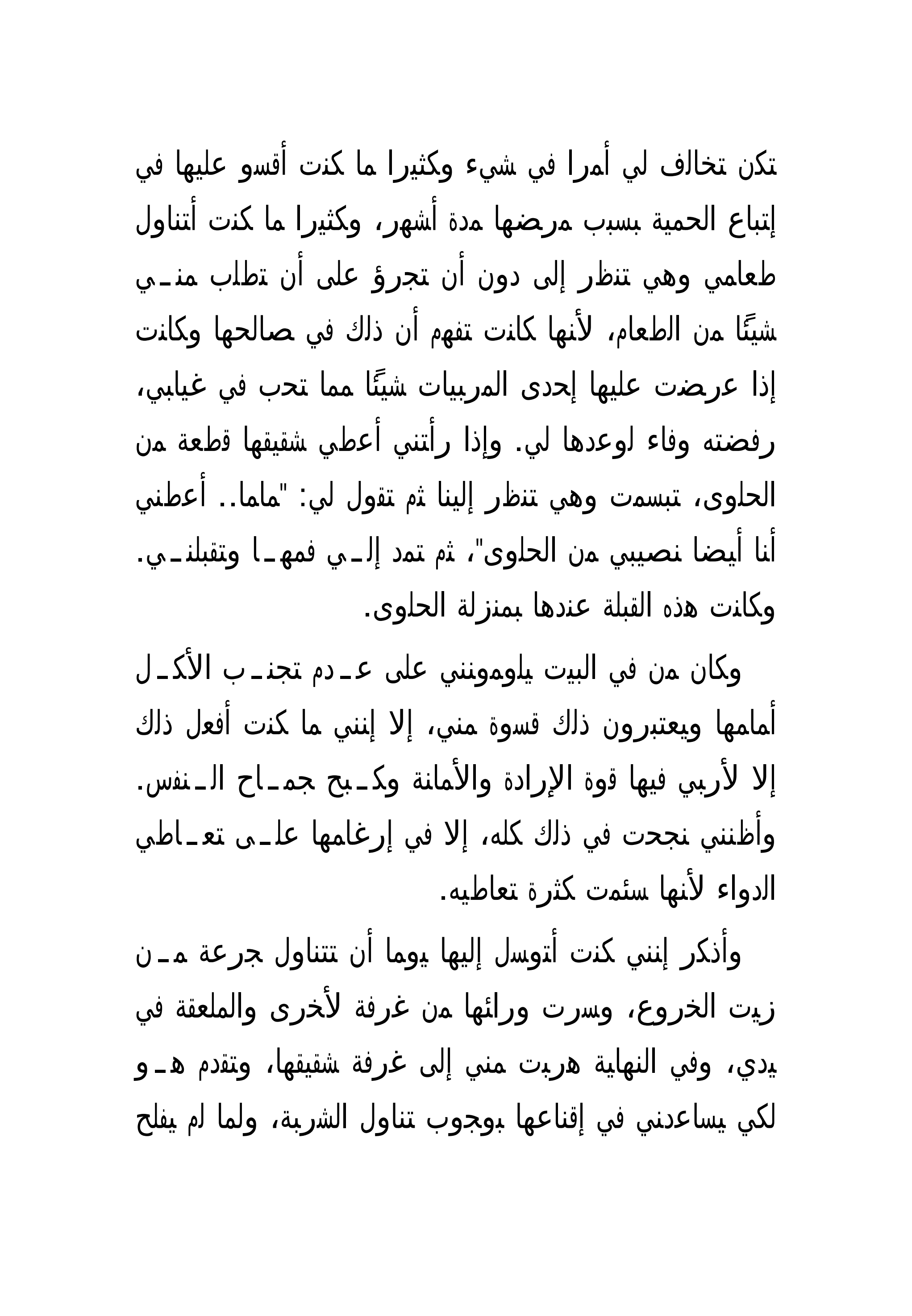
وشكرتها، ولكنني كنت في الحقيقة غير مبالية بما تقـول بعد أن استولى اليأس علي تماما، وجاءت في اليـوم التـالي ومعها الطبيب الذي فحص ابنتي، ثم قال لي إن مرض هـذه الطفلة ناشئ أغلبه من الجوع، وسوف تموت من الضعف إذا داومتم على أتباع الحمية معها، لأن لكل شيء حدا.

ولا أستطيع أن أنسى منظرها في هذه اللحظة وهي تتطلع إلى الطبيب بابتسامة شاحبة هزيلة.

وسألني الطبيب عن تلك الأمراض التي اعترتها من يـوم ولادتها. ولما عرف بأمر الحمى التي كانت تعتريها، قـال: لا شك في أن الملاريا هي التي تسبب كل هذه المضاعفات. ووصف لها العلاج اللازم للملاريا، وأمـر بتغـذيتها، وقـد نجحت طريقته وصرت ألجأ إلى إتباعها كلما اقتضى الحال.

بقيت كذلك مع ابنتي حتى بلغت السادسة مـن عمرهـا. وانقطعت عن كل شيء طوال هذه المـدة تفرغـًا لعلاجهـا ومحاربة الموت فيها. فانفضت بعض صديقاتي من حـولي وغضب بعضهن الآخر لانقطاعي عنهن. وكن ينـادينني "أم بثنة" رغم إنني رزقت بولدي "محمد" بعد ولادتهـا بسـنتين ونصف سنة.

كذلك فقد كنت أرى زوجي يمتعض أحيانًا لانشغالي عنه بابنتي التي كنت مجنونة بها، وكان يخيل إلي إنها إذا ماتـت فإنني لابد أن أموت معها حزنًا عليها، وتعلقت بـي الطفلـة وأحبتني لدرجة إنها كانت لا تحتمل البعد عني دقائق، حتـى كان يضرب بحبنا المثل في البيت، ومن شدة حبها لي، لـم



تكن تخالف لي أمرا في شيء وكثيرا ما كنت أقسو عليها في إتباع الحمية بسبب مرضها مدة أشهر، وكثيرا ما كنت أتناول طعامي وهي تنظر إلى دون أن تجرؤ على أن تطلب منـي شيئًا من الطعام، لأنها كانت تفهم أن ذلك في صالحها وكانت إذا عرضت عليها إحدى المربيات شيئًا مما تحب في غيابي، رفضته وفاء لوعدها لي. وإذا رأتني أعطي شقيقها قطعة من الحلوى، تبسمت وهي تنظر إلينا ثم تقول لي: "ماما.. أعطني أنا أيضا نصيبي من الحلوى"، ثم تمد إلـي فمهـا وتقبلنـي. وكانت هذه القبلة عندها بمنزلة الحلوى.

وكان من في البيت يلومونني على عـدم تجنـب الأكـل أمامها ويعتبرون ذلك قسوة مني، إلا إنني ما كنت أفعل ذلك إلا لأربي فيها قوة الإرادة والأمانة وكـبح جمـاح الـنفس. وأظنني نجحت في ذلك كله، إلا في إرغامها علـى تعـاطي الدواء لأنها سئمت كثرة تعاطيه.

وأذكر إنني كنت أتوسل إليها يوما أن تتناول جرعة مـن زيت الخروع، وسرت ورائها من غرفة لأخرى والملعقة في يدي، وفي النهاية هربت مني إلى غرفة شقيقها، وتقدم هـو لكي يساعدني في إقناعها بوجوب تناول الشربة، ولما لم يفلح

هو أيضا، قال لها بلطف: "انظري يا أبلة بثنة كيف يمكنني أن أشرب الشربة دون امتعاض وظننته يمزح، فقربت الملعقة من فمه، وكم كانت دهشتي؛ إذ شربها دون تردد لتحذو أخته حذوه. فأكبرت فيه روح التضحية وهو أصغر منها سنًا.. ومع ذلك فإنها لم تشرب الشربة!.

ولقد ربيت ابنتي وابني عن طريق الإقناع، فلم أنهرهما أبدا وأستعمل الغلظة معهما حتى ولو وقع من أحدهما خطأ يستوجب ذلك؛ بل كنت أحاول إقناعه بخطئه في لطف حتى يقتنع ويشعر بشيء من الخجل فلا يأتيه ثانية من نفسه، وبذلك أمكنني أن أبث فيهما روح تقدير المسئولية وتحملها بأهداب الأمانة والصدق، وقد شبا على هذه الصفات وتطبعا بهذه الفضائل، وشجعني ذلك على المضي في هذه الطريقة التربوية الصحيحة التي لا تتطلب من الأم إلا قليلاً من الصبر والتفرغ لأقدس الواجبات.

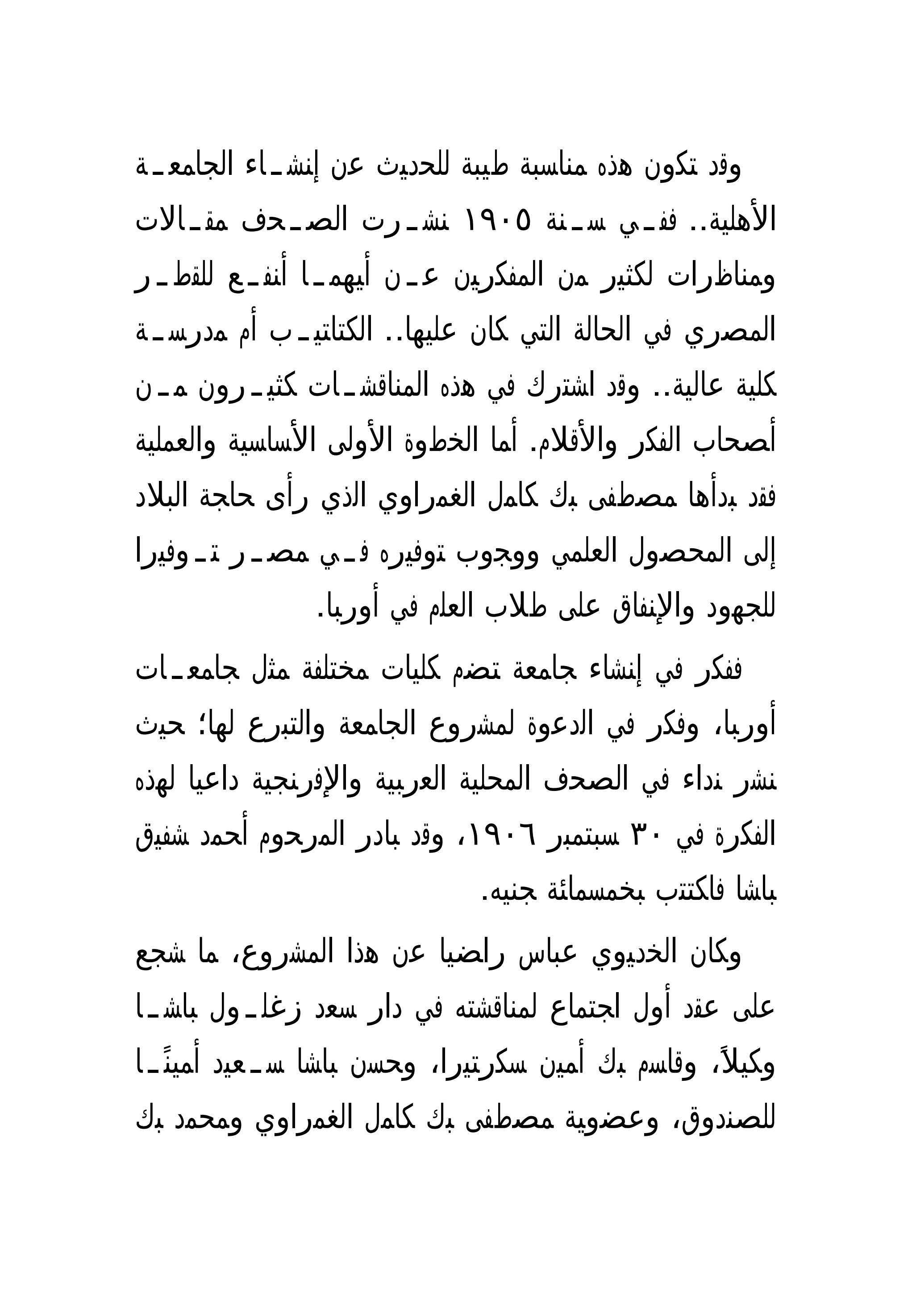
بعد أن تحسنت صحة ابنتي واطمأننت عليها على أخيها. وبدأ حياتهما الدراسية، أخذت أعود إلى حياتي الأولى من مخالطة صديقاتي، وبخاصة بعد وفاة صديقتي مدام رشدي باشا التي كنت أعتمد عليها في كثير من أموري والتي كانت

تملأ الفراغ الذي أحدثه ابتعادي عن الناس لانشغالي بابنتي، وقد اضطررت إزاء ذلك أن أعتمد على نفسي، وألا أنتظـر من أحد أي معونة.

وفي هذه الأثناء، حضرت من أوربا آنسة فاضلة تـدعى "مدموازيل مارجريت كليمان" وقد مرت بمصر في طوافهـا حول العالم منتدبة من نادي السياحة لمؤسسة كازنيجي، وقد أرسلها إلي صديقنا المرحوم علي بك بهجت؛ حيث أرادت أن تتعرف بسيدات مصريات، فقمت بواجبي نحوهـا ودعوتهـا ذات ليلة إلى الأوبرا الخديوية، وبينما كانت تحـدثني عـن جولاتها والخطب التي كانت تلقيها في مختلف البلاد، سألتني عما إذا كانت سيداتنا يتلقين محاضرات أو يحضـرنها، فلـم يمكنني إلا مصارحتها بالحقيقة وهي أن شيئًا من ذلـك لـم يحدث بعد، وسألتها أن تلقي علينا محاضـرة عـن المـرأة الشرقية والغربية في مسألة الحجاب، فقبلت على أن تكـون المحاضرة تحت رئاسة إحدى السيدات الكبيرات سنًا ومقاما، لأن سني إذ ذاك لم تكن تسمح بذلك.

فوعدتها بالبحث غير آملة في إقناع والدتنا بترؤس هـذه الحفلة، ولكن ساعدني الحظ في تلك الليلة نفسها، إذ قابلـت

وأنا خارجة من مقصورتي "الأميرة عين الحياة أحمد"، وكنت أحبها وتحبني، فتقدمت إليها وعرضـت عليهـا المشـروع ورجوتها أن تقبل رئاسة الاجتماع، فقبلت من غيـر تـردد وأخذت على عاتقي إيجاد القاعة المناسـبة وإعـداد تـذاكر الدعوة وتوزيعها بأسرع ما يمكن، وعندما عدت إلى المنزل عرضت الأمر على زوجي فاستصوب أن يكون الاجتمـاع في إدارة "الجريدة" أو بإحدى صالات الجامعة التي كانت في منزل خيري باشا "الجامعة الأمريكيـة الآن"، وقـد فضـلت الأخيرة وطلبناها من المرحوم علوي باشا وتحدد للاجتمـاع يوم الجمعة ١٥ يناير ١٩٠٩ لتكون الجامعـة خاليـة مـن المعلمين والطلبة، وكانت الجامعة إذ ذاك تحت رئاسة سـمو الأمير أحمد فؤاد "الملك فؤاد فيما بعد"، وكانـت هـذه أول محاضرة ألقيت على جمـع مـن السـيدات فـي الجامعـة المصرية، وقد لقيت نجاحا وتقديرا شجعاني على أن أطلـب من "الآنسة كليمان" أن تعود إلينا بعد ذلـك لتلقـي سلسـلة محاضرات مفيدة على سيداتنا، وبخاصة بعد أن رتب سـمو الأمير محاضرات خاصة للسيدات في أيام الجمع.



وقد تكون هذه مناسبة طيبة للحديث عن إنشاء الجامعة الأهلية.. ففي سنة ١٩٠٥ نشرت الصحف مقالات ومناظرات لكثير من المفكرين عن أيهما أنفع للقطر المصري في الحالة التي كان عليها.. الكتاتيب أم مدرسة كلية عالية.. وقد اشترك في هذه المناقشات كثيرون من أصحاب الفكر والأقلام. أما الخطوة الأولى الأساسية والعملية فقد بدأها مصطفى بك كامل الغمراوي الذي رأى حاجة البلاد إلى المحصول العلمي ووجوب توفيره في مصر توفيرا للجهود والإنفاق على طلاب العلم في أوربا.

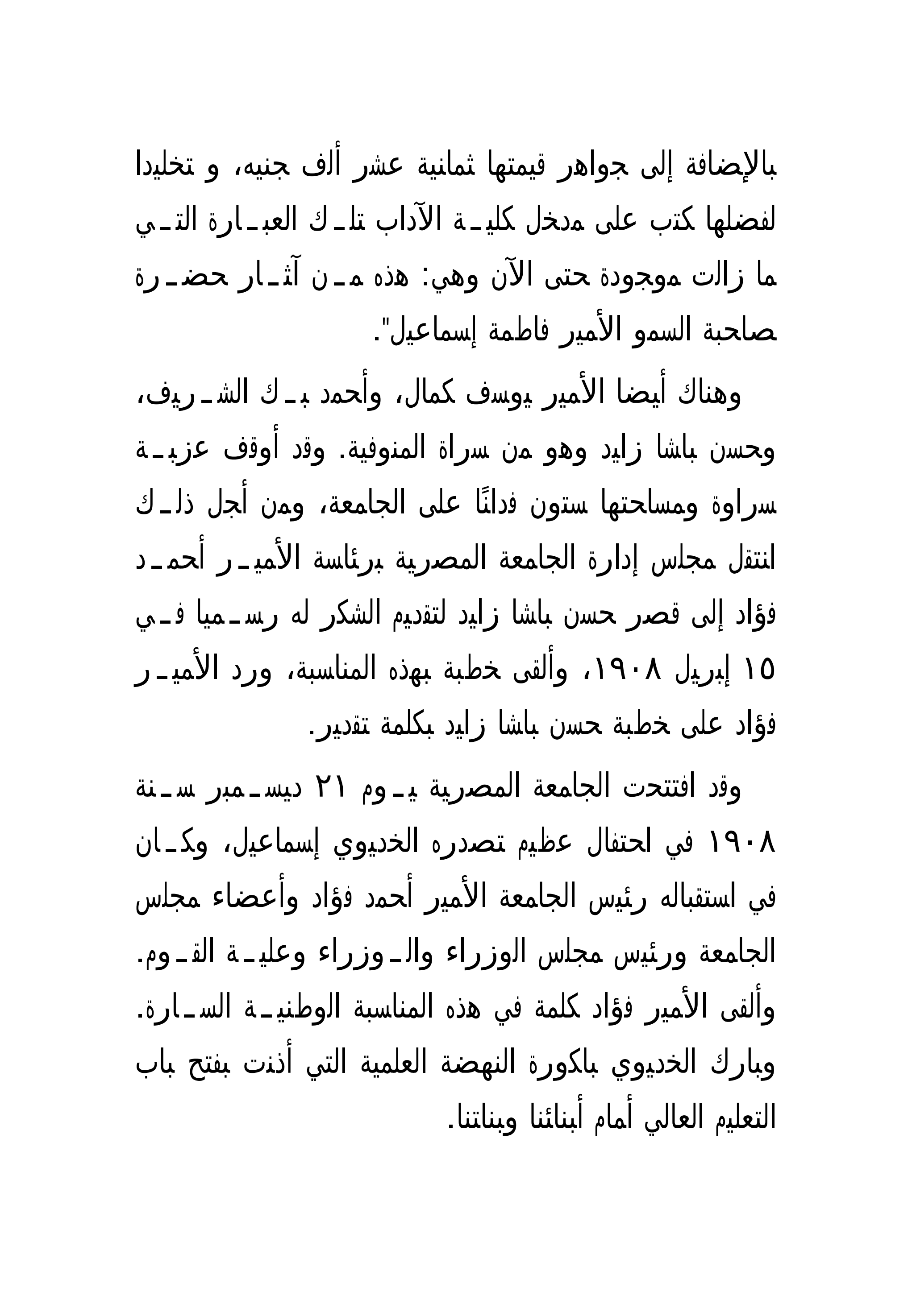
ففكر في إنشاء جامعة تضم كليات مختلفة مثل جامعات أوربا، وفكر في الدعوة لمشروع الجامعة والتبرع لها؛ حيث نشر نداء في الصحف المحلية العربية والإفرنجية داعيا لهذه الفكرة في ٣٠ سبتمبر ١٩٠٦، وقد بادر المرحوم أحمد شفيق باشا فاكتتب بخمسمائة جنيه.

وكان الخديوي عباس راضيا عن هذا المشروع، ما شجع على عقد أول اجتماع لمناقشته في دار سعد زغلول باشا وكيلاً، وقاسم بك أمين سكرتيرا، وحسن باشا سعيد أميناً للصندوق، وعضوية مصطفى بك كامل الغمراوي ومحمد بك

عثمان أباظة ومحمد بك راسم وحسن بك جمجـوم وحسـن باشا السيوفي وغيرهم. وكان المعتمـد البريطـاني اللـورد كرومر يحارب كل ما من شأنه تقدم البلاد، فنادى بأن تعميم التعليم الابتدائي أهم من ذلك، وأن الأمة أحوج إليه من التعليم الجامعي، بل إنه ذهب في محاربة المشروع إلى حد تعيـين سعد زغلول باشا وزيرا للمعارف بقصد إبعاده عن الاشتغال بأمر الجامعة.

وقد قام قاسم بـك أمـين بمجهـودات عظيمـة لنجـاح المشروع؛ حيث قابل الخديوي وعرض عليه أن يتولى رعاية المشروع فقبل الخديوي وانتهى الأمر بتعيين الأميـر أحمـد فؤاد رئيسا لمجلس الجامعة عام ١٩٠٧، ومن أعضائها محمد علوي باشا وعبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقي باشـا ويعقوب أرتين باشا وإسماعيل حسنين باشا ومرقص فهمـي بك وعلي بهجت بك والسير جاسـتون ماسـبيرو. وهكـذا خرجت الجامعة المصرية إلى عالم الوجود.

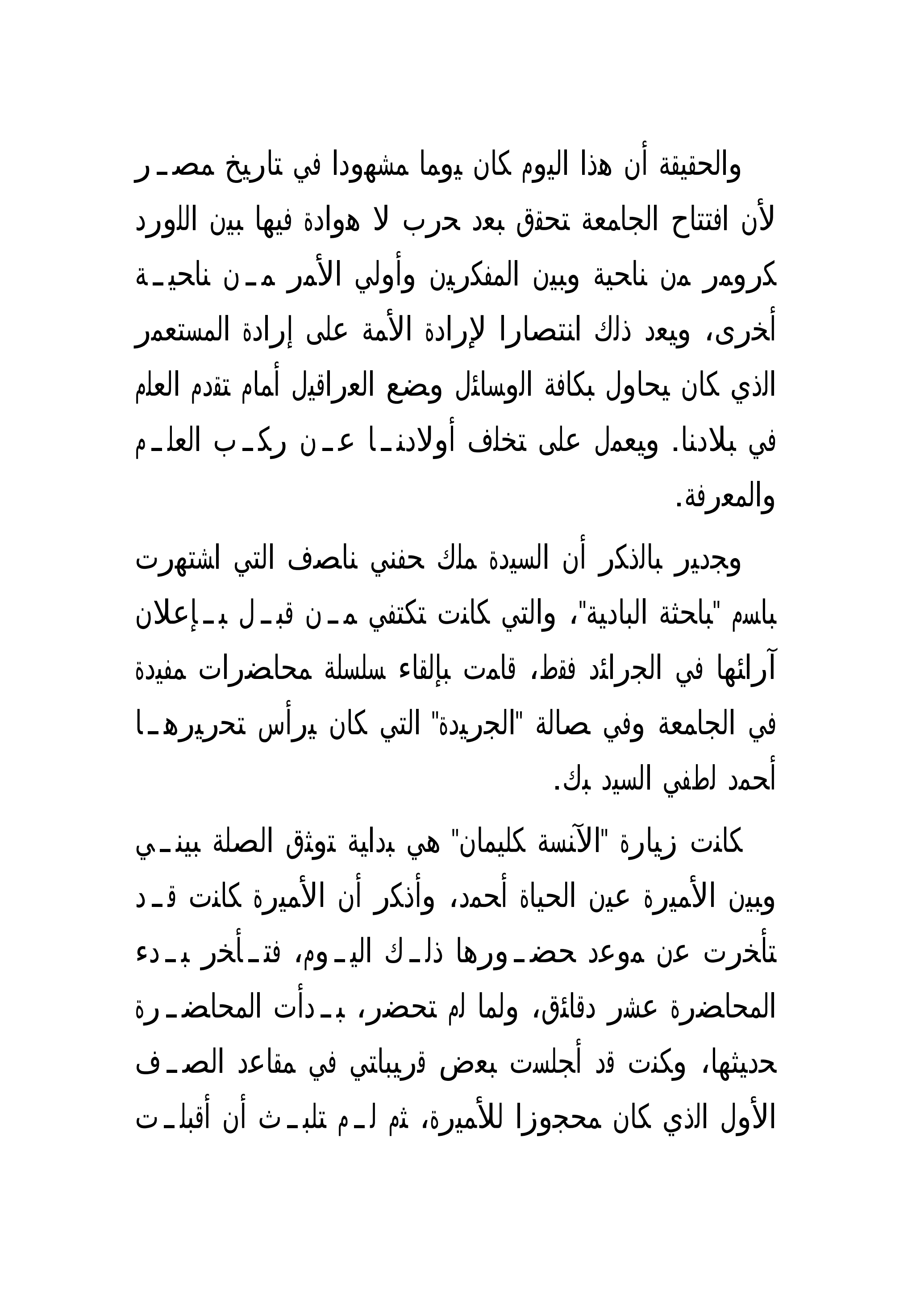
وكان في مقدمة المتبرعين لهذا المشروع: الأميرة فاطمة كريمة الخديوي إسماعيل التي تبرعت بستة أفدنـة ووقفـت ستمائة فدان ليصرف من إيرادهـا علـى شـئون الجامعـة



بالإضافة إلى جواهر قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه، و تخليدا لفضلها كتب على مدخل كليـة الآداب تلـك العبـارة التـي ما زالت موجودة حتى الآن وهي: هذه مـن آثـار حضـرة صاحبة السمو الأمير فاطمة إسماعيل".

وهناك أيضا الأمير يوسف كمال، وأحمد بـك الشـريف، وحسن باشا زايد وهو من سراة المنوفية. وقد أوقف عزبـة سراوة ومساحتها ستون فدانًا على الجامعة، ومن أجل ذلـك انتقل مجلس إدارة الجامعة المصرية برئاسة الأميـر أحمـد فؤاد إلى قصر حسن باشا زايد لتقديم الشكر له رسـميا فـي ١٥ إبريل ١٩٠٨، وألقى خطبة بهذه المناسبة، ورد الأميـر فؤاد على خطبة حسن باشا زايد بكلمة تقدير.

وقد افتتحت الجامعة المصرية يـوم ٢١ ديسـمبر سـنة ١٩٠٨ في احتفال عظيم تصدره الخديوي إسماعيل، وكـان في استقباله رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد وأعضاء مجلس الجامعة ورئيس مجلس الوزراء والـوزراء وعليـة القـوم. وألقى الأمير فؤاد كلمة في هذه المناسبة الوطنيـة السـارة. وبارك الخديوي باكورة النهضة العلمية التي أذنت بفتح باب التعليم العالي أمام أبنائنا وبناتنا.



والحقيقة أن هذا اليوم كان يوما مشهودا في تاريخ مصـر لأن افتتاح الجامعة تحقق بعد حرب لا هوادة فيها بين اللورد كرومر من ناحية وبين المفكرين وأولي الأمر مـن ناحيـة أخرى، ويعد ذلك انتصارا لإرادة الأمة على إرادة المستعمر الذي كان يحاول بكافة الوسائل وضع العراقيل أمام تقدم العلم في بلادنا. ويعمل على تخاف أولادنـا عـن ركـب العلـم والمعرفة.

وجدير بالذكر أن السيدة ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسم "باحثة البادية"، والتي كانت تكتفي مـن قبـل بـإعلان آرائها في الجرائد فقط، قامت بإلقاء سلسلة محاضرات مفيدة في الجامعة وفي صالة "الجريدة" التي كان يرأس تحريرهـا أحمد لطفي السيد بك.

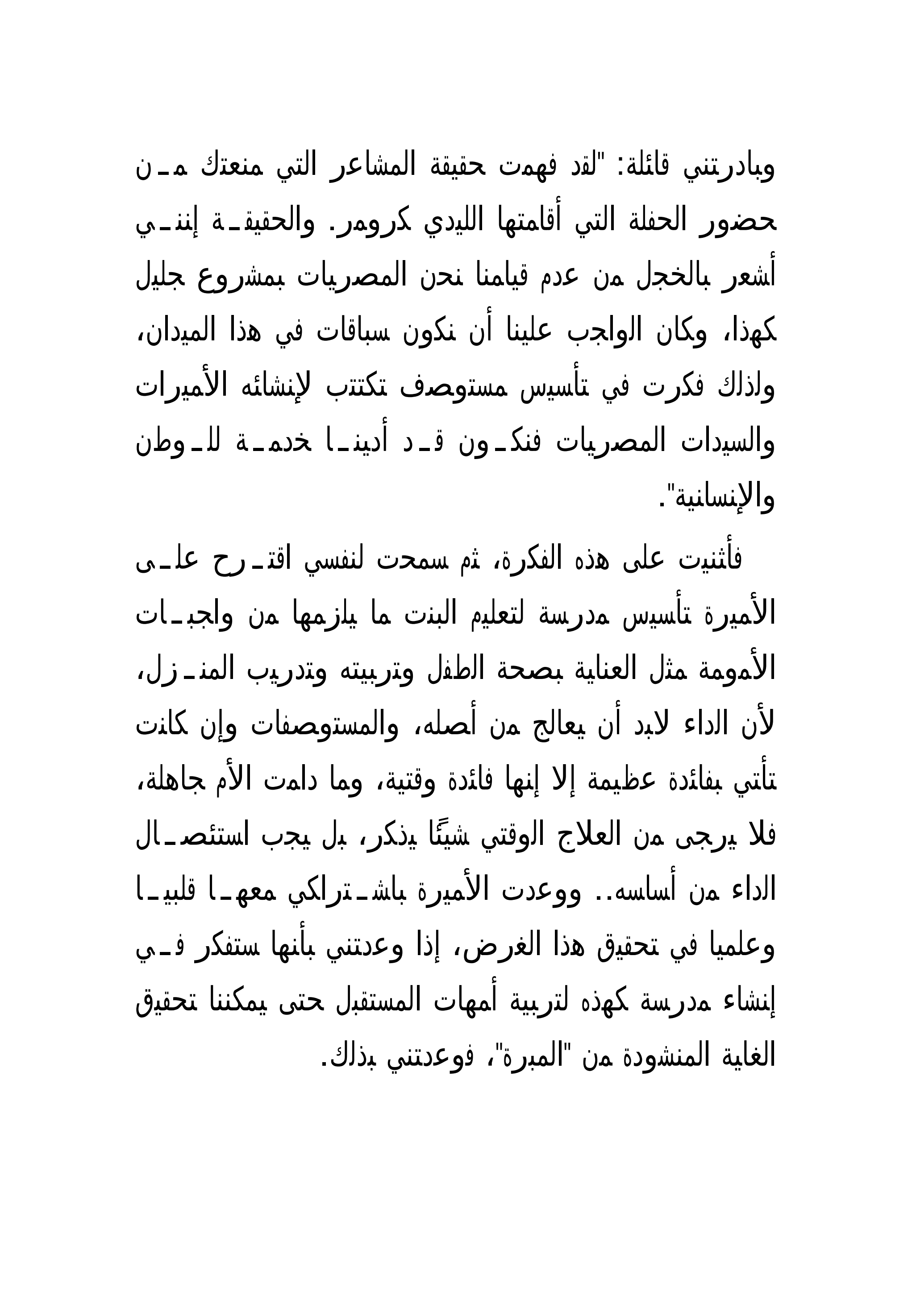
كانت زيارة "الآنسة كليمان" هي بداية توثق الصلة بينـي وبين الأميرة عين الحياة أحمد، وأذكر أن الأميرة كانت قـد تأخرت عن موعد حضـورها ذلـك اليـوم، فتـأخر بـدء المحاضرة عشر دقائق، ولما لم تحضر، بـدأت المحاضـرة حديثها، وكنت قد أجلست بعض قريباتي في مقاعد الصـف الأول الذي كان محجوزا للأميرة، ثم لـم تلبـث أن أقبلـت

الأميرة، ورأتها قريباتي فأخلين لهـا المقاعـد، ولمـا رأت السيدات الحاضرات ذلك، قمن جميعا مثلنا، وهنـا سـكتت المحاضرة عن الحديث وقامت هي الأخرى معتقدة أن هـذه هي تقاليدنا، فأسفت الأميرة لأنها سببت كل هـذا الانزعـاج واعتذرت للآنسة المحاضرة عن تأخيرهـا، وهنـا رجـوت الآنسة كليمان أن تبدأ محاضرتها من جديد.

ولقد كان هذا الحادث موضـع انتقـاد بعـض السـيدات الأجنبيات، لأن المحاضر عندهن لا يجوز أن يقاطع حديثـه أو يقف مهما كان مركز القادم، ولكن العذر أن هـذه كانـت أول محاضرة تلقى على سيداتنا، وهن لم يتعودن مثل هـذه الاجتماعات.

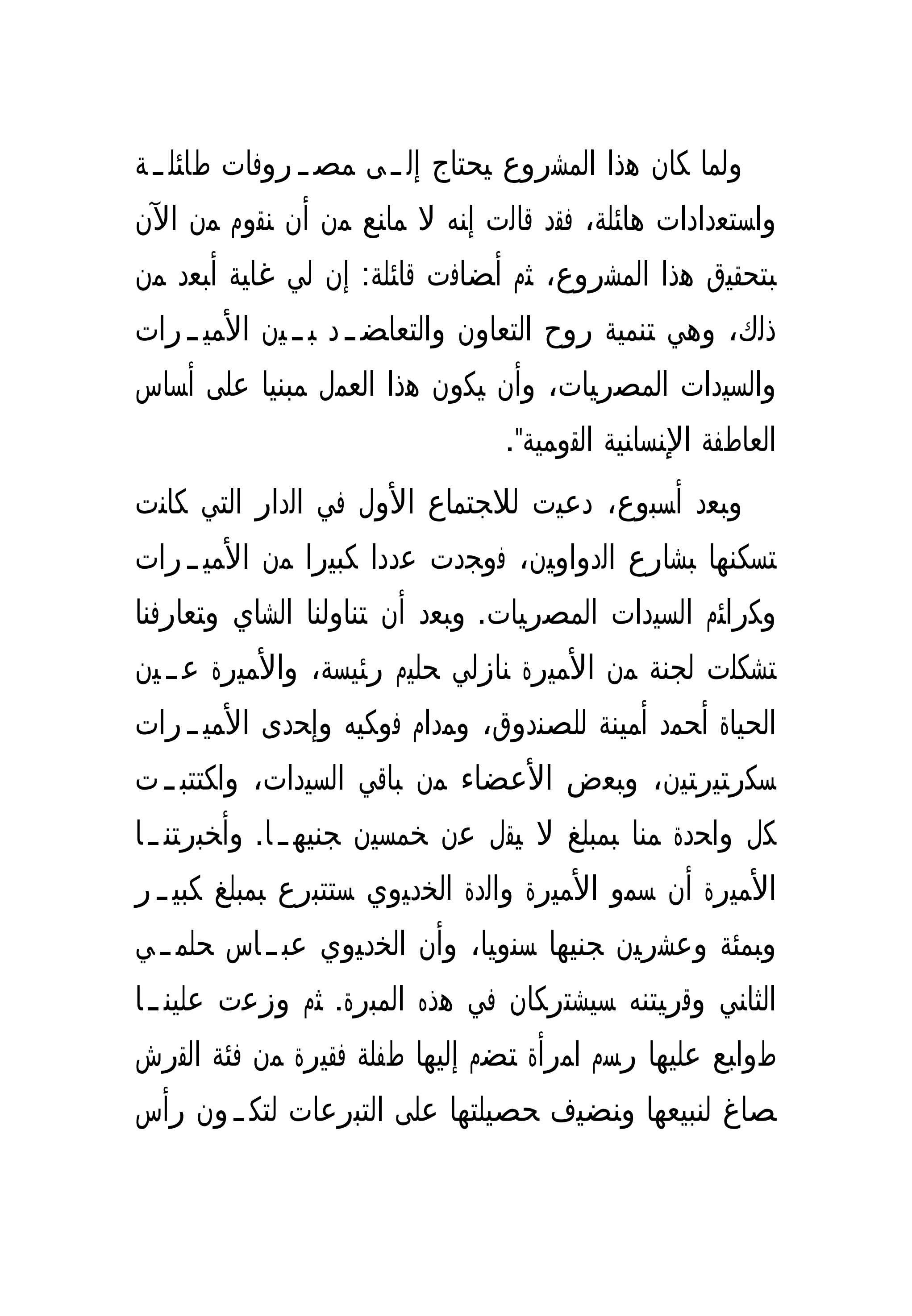
وبعد مضي أيام من محاضرة الآنسة كليمـان وصـلتني دعوة للشاي من الأميرة عين الحياة أحمد للتعارف بين الليدي كرومر الجديدة والسيدات اللاتي ساعدن في إنشاء مستوصف الليدي كرومر الأولى، ولكنني اعتذرت لأنني لم أشترك فـي تلك المساعدة، وكانت والدتي هي التي فعلت ذلك.

وبعد فترة قصيرة أرسلت الأميرة تطلبني لمقابلتها معتذرة بمرضها، فبادرت بتلبية الـدعوة وقـابلتني فـي فراشـها،



وبادرتني قائلة: "لقد فهمت حقيقة المشاعر التي منعتك مـن حضور الحفلة التي أقامتها الليدي كرومر. والحقيقـة إننـي أشعر بالخجل من عدم قيامنا نحن المصريات بمشروع جليل كهذا، وكان الواجب علينا أن نكون سباقات في هذا الميدان، ولذلك فكرت في تأسيس مستوصف تكتتب لإنشائه الأميرات والسيدات المصريات فنكـون قـد أدينـا خدمـة للـوطن والإنسانية".

فأثنيت على هذه الفكرة، ثم سمحت لنفسي اقتـرح علـى الأميرة تأسيس مدرسة لتعليم البنت ما يلزمها من واجبـات الأمومة مثل العناية بصحة الطفل وتربيته وتدريب المنـزل، لأن الداء لابد أن يعالج من أصله، والمستوصفات وإن كانت تأتي بفائدة عظيمة إلا إنها فائدة وقتية، وما دامت الأم جاهلة، فلا يرجى من العلاج الوقتي شيئًا يذكر، بل يجب استئصـال الداء من أساسه.. ووعدت الأميرة باشـتراكي معهـا قلبيـا وعلميا في تحقيق هذا الغرض، إذا وعدتني بأنها ستفكر فـي إنشاء مدرسة كهذه لتربية أمهات المستقبل حتى يمكننا تحقيق الغاية المنشودة من "المبرة"، فوعدتني بذلك.



ولما كان هذا المشروع يحتاج إلـى مصـروفات طائلـة واستعدادات هائلة، فقد قالت إنه لا مانع من أن نقوم من الآن بتحقيق هذا المشروع، ثم أضافت قائلة: إن لي غاية أبعد من ذلك، وهي تنمية روح التعاون والتعاضـد بـين الأميـرات والسيدات المصريات، وأن يكون هذا العمل مبنيا على أساس العاطفة الإنسانية القومية".

وبعد أسبوع، دعيت للاجتماع الأول في الدار التي كانت تسكنها بشارع الدواوين، فوجدت عددا كبيرا من الأميـرات وكرائم السيدات المصريات. وبعد أن تناولنا الشاي وتعارفنا تشكلت لجنة من الأميرة نازلي حليم رئيسة، والأميرة عـين الحياة أحمد أمينة للصندوق، ومدام فوكيه وإحدى الأميـرات سكرتيرتين، وبعض الأعضاء من باقي السيدات، واكتتبـت كل واحدة منا بمبلغ لا يقل عن خمسين جنيهـا. وأخبرتنـا الأميرة أن سمو الأميرة والدة الخديوي ستتبرع بمبلغ كبيـر وبمئة وعشرين جنيها سنويا، وأن الخديوي عبـاس حلمـي الثاني وقرينته سيشتركان في هذه المبرة. ثم وزعت علينـا طوابع عليها رسم امرأة تضم إليها طفلة فقيرة من فئة القرش صاغ لنبيعها ونضيف حصيلتها على التبرعات لتكـون رأس

مال الجمعية، كما قررت توزيع بعض هذه الطوابع على المديريات والمحافظات والمراكز والوزارات للمساعدة في رأس مال الجمعية، وتم توريد الحصيلة للأميرة عين الحياة.

ثم حدث أن سافرت الأميرة بعد ذلك في فصل الصيف للاستشفاء في أوربا، وكان قد اعتراها المرض الذي قضى على حياتها الغالية ولم تكن قد جاوزت إذ ذاك الخمسين من عمرها، فكان لوفاتها حزن عميق في نفسي لأني كنت أحبها وأقدرها لفرط ذكائها ورقة حاشيتها وطيبة قلبها ووداعة نفسها.

وفي ذات ليلة رأيتها في منامي وقد دخلت علي وأنا في غرفة دراستي مدة طفولتي في بيت والدي مرتدية ثيابا سوداء وخلفها كريمتها الأميرة كاظمة تحمل على يديها وسادة صغيرة فوقها كتاب مقفل، فتقدمت لتحيتها، وبعد أن ردت علي التحية، التفتت إلى كريمتها وأخذت منها الوسادة وما عليها وسلمتها إلي صامتة.

ولما كنت أعتقد في الأحلام، فقد فسرت هذا بأنها تعهد إلي بتحقيق مشروعها وتأتمنني عليه.. فقررت في نفسي أن أبذل كل جهدي من أجل تنفيذ رغبتها وفاء لها، وكانت

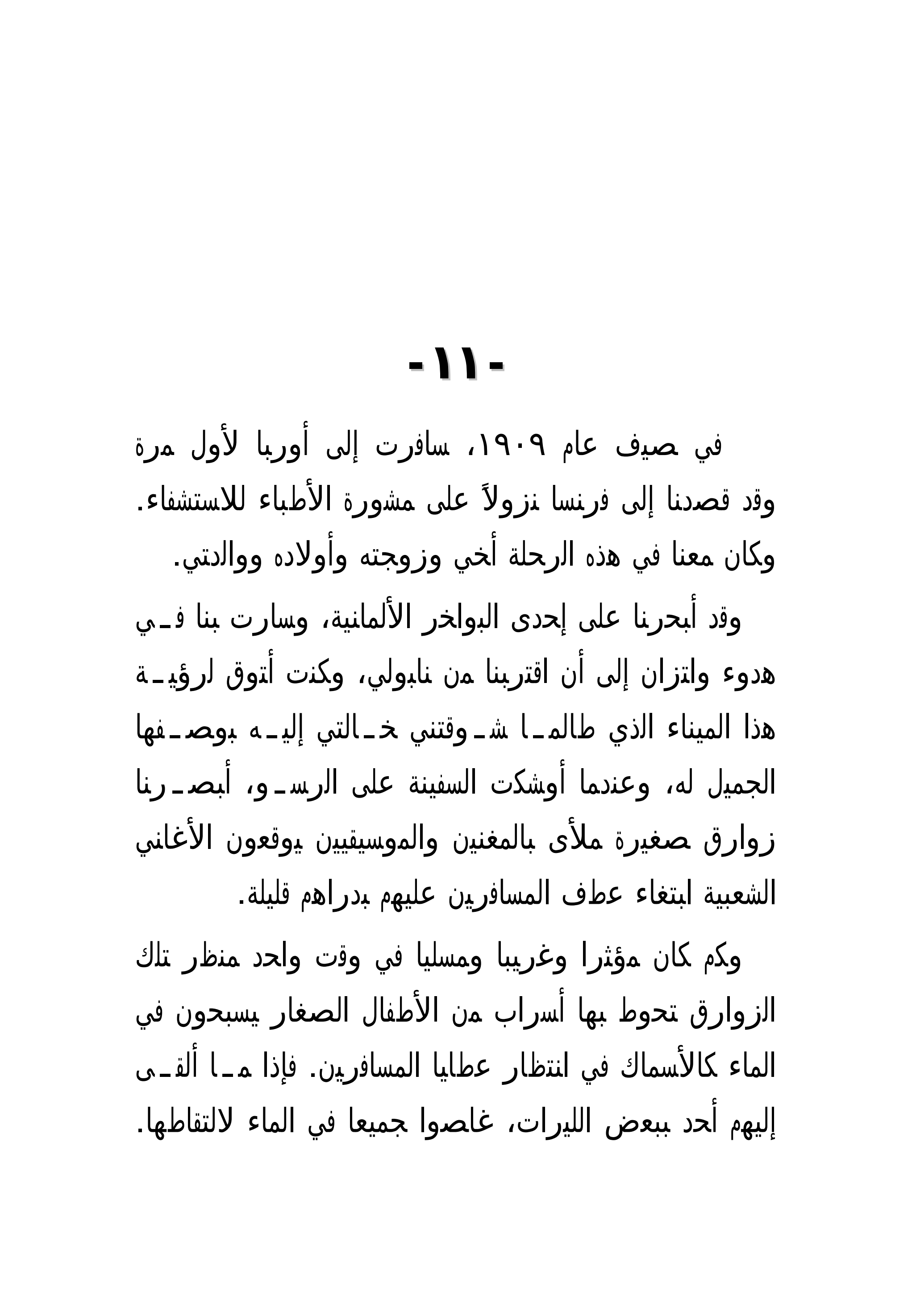
الأميرات بعد وفاتها قد أظهرن فتـورا نحـو تحقيـق هـذا المشروع، وبخاصة عندما طلبن من نجلها الأمير كمال الدين حسين المبالغ التي كانت لديها من حصيلة التبرعـات وبيـع الطوابع، فطلب منهن إثبات ذلك، ولما لم يكـن لـديهن أي مستند، فقد داخلهن اليأس.. ولكني قلت لهن إنه لابـد مـن استرداد هذه المبالغ، وإنني لا أشك في أنها قد أثبتتهـا فـي الأوراق التي تركتها، وكان هذا يتطلب وجود مندوبة تتـردد على الدائرة وتبحث مع الكُتاب والموظفين في الدفاتر، وقـد اخترت لذلك صديقة فرنسية لهـا درايـة بإمسـاك الـدفاتر ومعروفة بالأمانة والصدق، وقبلت القيام بهذه المأمورية بـلا مقابل إكراما لخاطري، واستطاعت أن تثبت لنا الحـق فـي ثلاثة آلاف من الجنيهات، دفعها لنـا الأميـر دون تـردد. وأمكننا بذلك إنجاز المشروع باستئجار منزل صـغير فـي شارع البراموني، مجهـز بكـل اللـوازم التـي يتطلبهـا المستوصف. ولا يزال المستوصف موجودا إلى الآن يقـوم بأجل الخدمات الإنسانية، وهو المعروف باسم "مبرة محمـد علي".

وقد أقمنا فيما بعد عدة حفلات بهدف جمع مبالغ جديـدة لدعم المبرة، وقد ساعد دخل هذه الليالي الشرقية على نمـو رأس مال الجمعية، فأبديت للجنة اقتراحـي بشـأن إنشـاء مدرسة لتربية أمهات المستقبل. وقصصت علـيهن مـا دار بيني وبين المرحومة الأميرة عين الحياة عند قيامهـا بتنفيـذ مشروع المبرة. فأيدت وجهـة نظـري معظـم الأميـرات والسيدات، واعتمدت اللجنة مبلغًا لشراء منزل لهذا الغرض. ووفقت إلى منزل كبير بشبرا مساحة فدان.. وهو مبني على طراز القصور القديمة ويفي بالغرض ولا يتطلب إلا بعـض التعديلات والترميمات. وقد اشتريناه بمبلـغ ٢٢٠٠ جنيـه، وكلفنا المرحوم المهندس محمود باشا فهمي بترميمه، وقمنـا من جانبنا بإعداد ما يلزمه لاستكمال أثاثات المدرسة.

ولا يسعني إلا أن أذكر الهمة العظيمة التي كانت تبـذلها الأميرات والسيدات المصريات أعضاء هذه الجمعية للقيـام بواجبهن الإنساني، وكان لي شرف رئاسة اللجنـة العاملـة فيها، وكانت الأعضاء يحضرن كل جلسـة تعقـد أسـبوعيا ويعتنين بصحة البؤساء من أولاد الفقراء وأمهاتهم، جاعلات نصب أعينهن العناية بأولاد الشعب. كذلك فقد تطوع بعـض

الأطباء المصريين والأجانب لهذه الخدمة الإنسانية بالمجان.

وكانت الخدمات الطبية تجري تحـت إشـراف الأميـرات والسيدات أعضاء اللجنة اللاتي كن يحضرن بالتناوب في أيام محددة.



-١١-

في صيف عام ١٩٠٩، سافرت إلى أوربا لأول مرة وقد قصدنا إلى فرنسا نزولاً على مشورة الأطباء للاستشفاء. وكان معنا في هذه الرحلة أخي وزوجته وأولاده ووالدتي.

وقد أبحرنا على إحدى البواخر الألمانية، وسارت بنا فـي هدوء واتزان إلى أن اقتربنا من نابولي، وكنت أتوق لرؤيـة هذا الميناء الذي طالمـا شـوقتني خـالتي إليـه بوصـفها الجميل له، وعندما أوشكت السفينة على الرسـو، أبصـرنا زوارق صغيرة ملأى بالمغنين والموسيقيين يوقعون الأغاني الشعبية ابتغاء عطف المسافرين عليهم بدراهم قليلة.

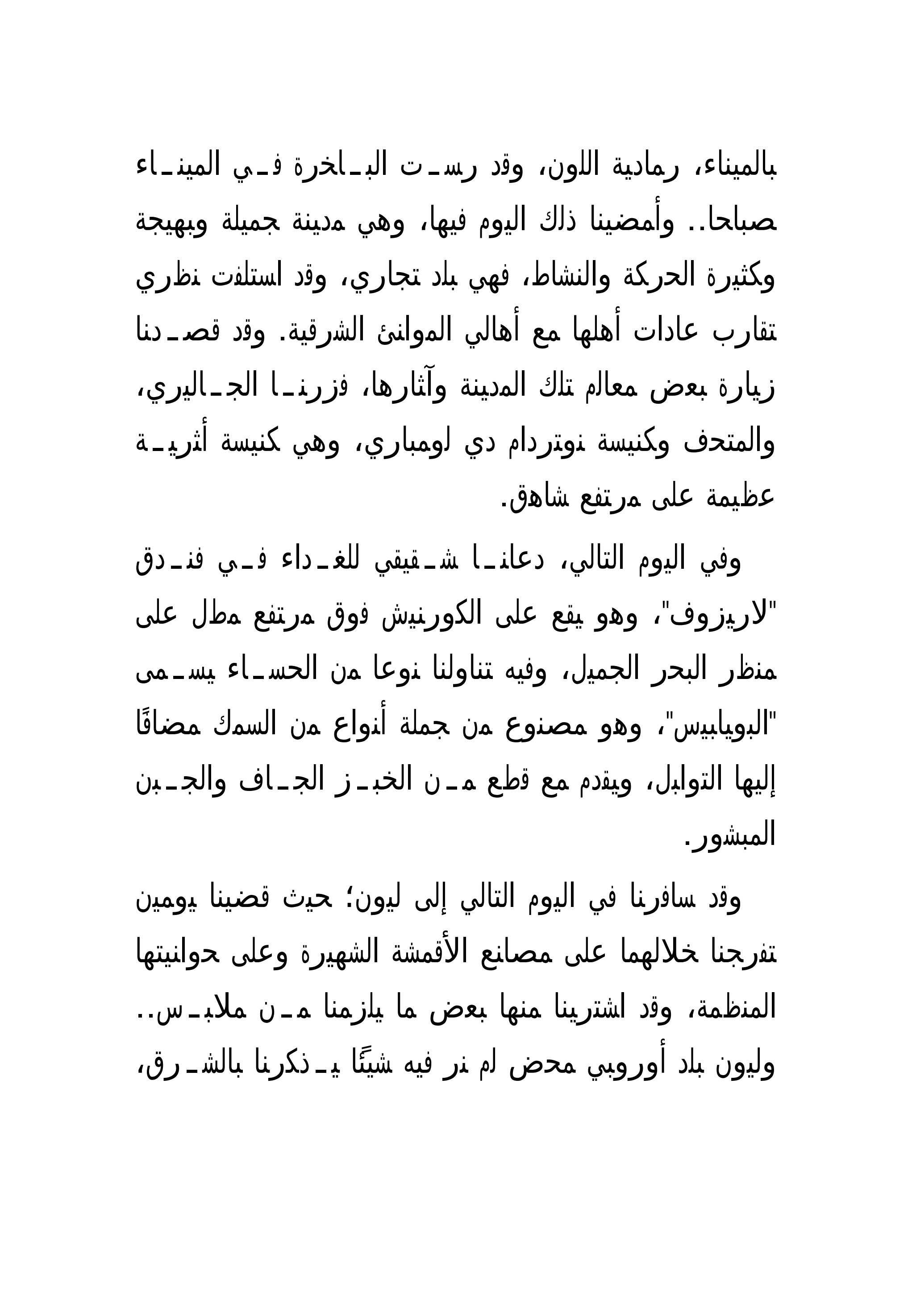
وكم كان مؤثرا وغريبا ومسليا في وقت واحد منظر تلك الزوارق تحوط بها أسراب من الأطفال الصغار يسبحون في الماء كالأسماك في انتظار عطايا المسافرين. فإذا مـا ألقـى إليهم أحد ببعض الليرات، غاصوا جميعا في الماء لالتقاطها.

بينما يطوف بعض الباعة الجائلين بالمركب ليبيعوا الصـدف والمرجان وأنواع الانتيكات والحلي وغيرها.

وعندما رأينا حال أهل تلك المدينة، لم نشعر بأننا بعـدنا كثيرا عن الشرق، إذ كنا نرى الأطفال حفاة عراة الـرءوس ليسوا على جانب كبير من النظافة كما كان الحال في بعض البلدان الشرقية، كذلك فقد كنا نشاهد في بعـض الطرقـات الملابس المغسولة منشورة في النوافذ والشـرفات، وأحيانًـا على حبال مشدودة بين منزل وآخر بعرض الشارع، وفـي الأحياء الفقيرة كنا نرى بعض النساء جالسات أمام بيـوتهن يمشطن شعورهن.

أمضينا في نابولي تلك الليلة بعد أن زرنا بركان فيـزوف والجاليري، وعندما استيقظت في الصباح الباكر ونظرت من نافذة غرفتي، رأيت منظرا من أروع مناظر الطبيعـة، فقـد كانت الشمس تبدو من بين قمم الهضاب وكأنها شعلة متقـدة من النيران.

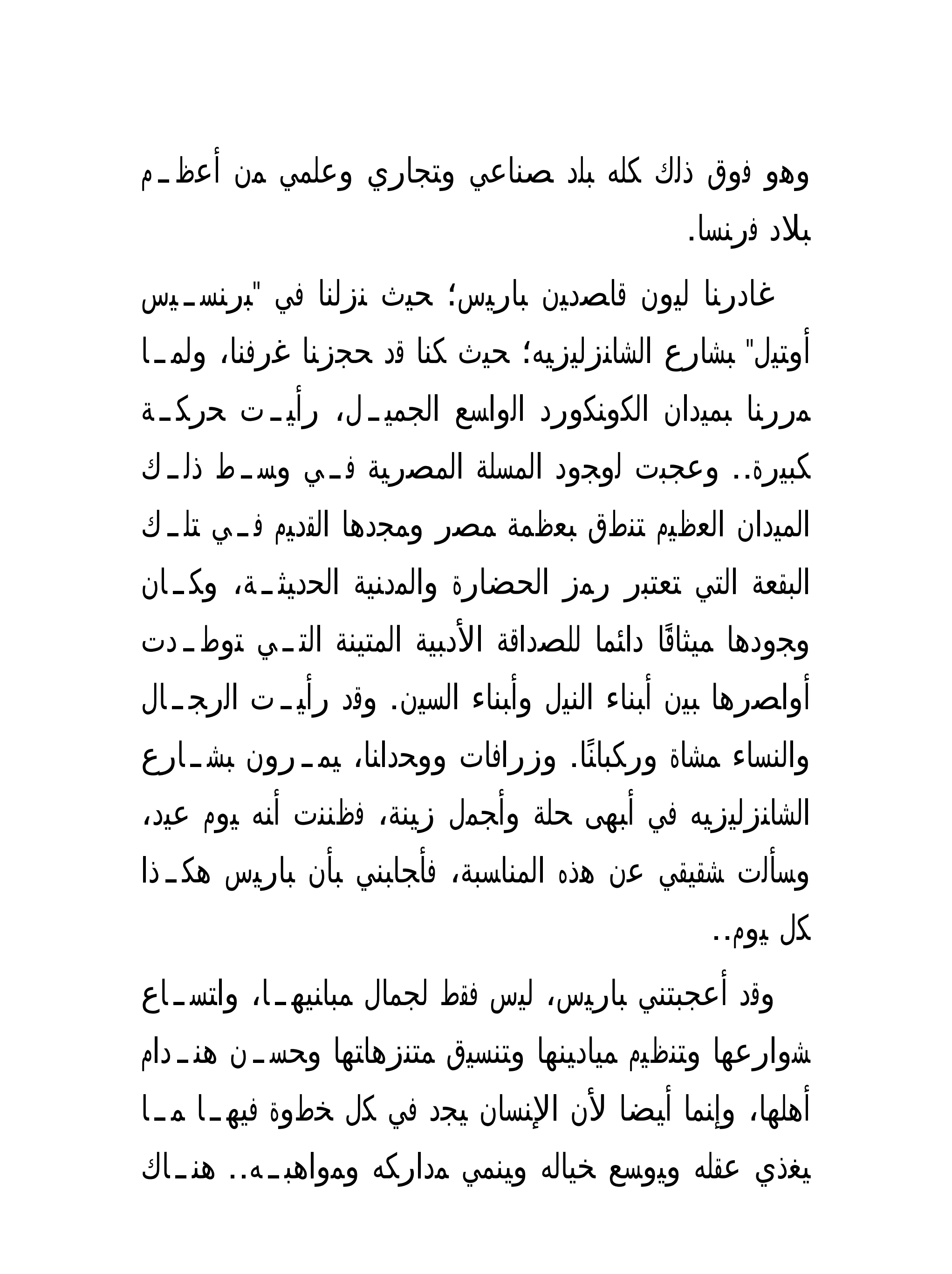
وقد أبحرت بنا الباخرة بعد ذلك في طريقها إلى مرسيليا. وعندما اقتربنا منها، ظهرت أمامنا في ثوب يختلـف عمـا رأيناه في نابولي، فقد كانت السماء قاتمة والهضاب المحيطة



بالميناء، رمادية اللون، وقد رست الباخرة في الميناء صباحا.. وأمضينا ذلك اليوم فيها، وهي مدينة جميلة وبهيجة وكثيرة الحركة والنشاط، فهي بلد تجاري، وقد استلفت نظري تقارب عادات أهلها مع أهالي الموانئ الشرقية. وقد قصدنا زيارة بعض معالم تلك المدينة وآثارها، فزرنا الجاليري، والمتحف وكنيسة نوتردام دي لومباري، وهي كنيسة أثرية عظيمة على مرتفع شاهق.

وفي اليوم التالي، دعانا شقيقي للغداء في فندق "لاريزوف"، وهو يقع على الكورنيش فوق مرتفع مطل على منظر البحر الجميل، وفيه تناولنا نوعا من الحساء يسمى "البويابيس"، وهو مصنوع من جملة أنواع من السمك مضافًا إليها التوابل، ويقدم مع قطع من الخبز الجاف والجبن المبشور.

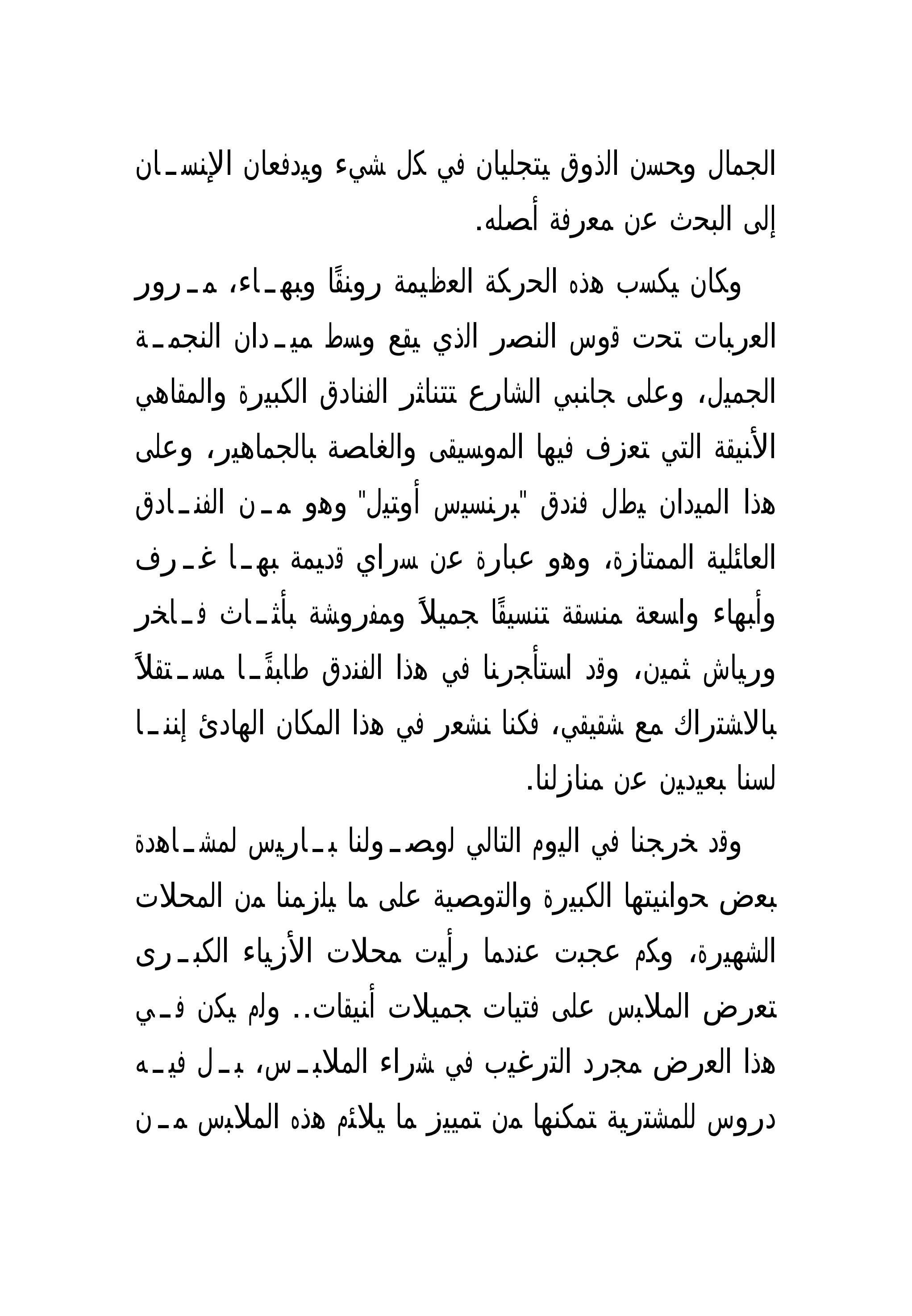
وقد سافرنا في اليوم التالي إلى ليون؛ حيث قضينا يومين تفرجنا خلالهما على مصانع الأقمشة الشهيرة وعلى حوانيتها المنظمة، وقد اشترينا منها بعض ما يلزمنا من ملابس.. وليون بلد أوروبي محض لم نر فيه شيئًا يذكرنا بالشرق،



وهو فوق ذلك كله بلد صناعي وتجاري وعلمي من أعظـم بلاد فرنسا.

غادرنا ليون قاصدين باريس؛ حيث نزلنا في "برنسـيس أوتيل" بشارع الشانزليزيه؛ حيث كنا قد حجزنا غرفنا، ولمـا مررنا بميدان الكونكورد الواسع الجميـل، رأيـت حركـة كبيرة.. وعجبت لوجود المسلة المصرية فـي وسـط ذلـك الميدان العظيم تنطق بعظمة مصر ومجدها القديم فـي تلـك البقعة التي تعتبر رمز الحضارة والمدنية الحديثـة، وكـان وجودها ميثاقًا دائما للصداقة الأدبية المتينة التـي توطـدت أواصرها بين أبناء النيل وأبناء السين. وقد رأيـت الرجـال والنساء مشاة وركبانًا. وزرافات ووحدانا، يمـرون بشـارع الشانزليزيه في أبهى حلة وأجمل زينة، فظننت أنه يوم عيد، وسألت شقيقي عن هذه المناسبة، فأجابني بأن باريس هكـذا كل يوم..

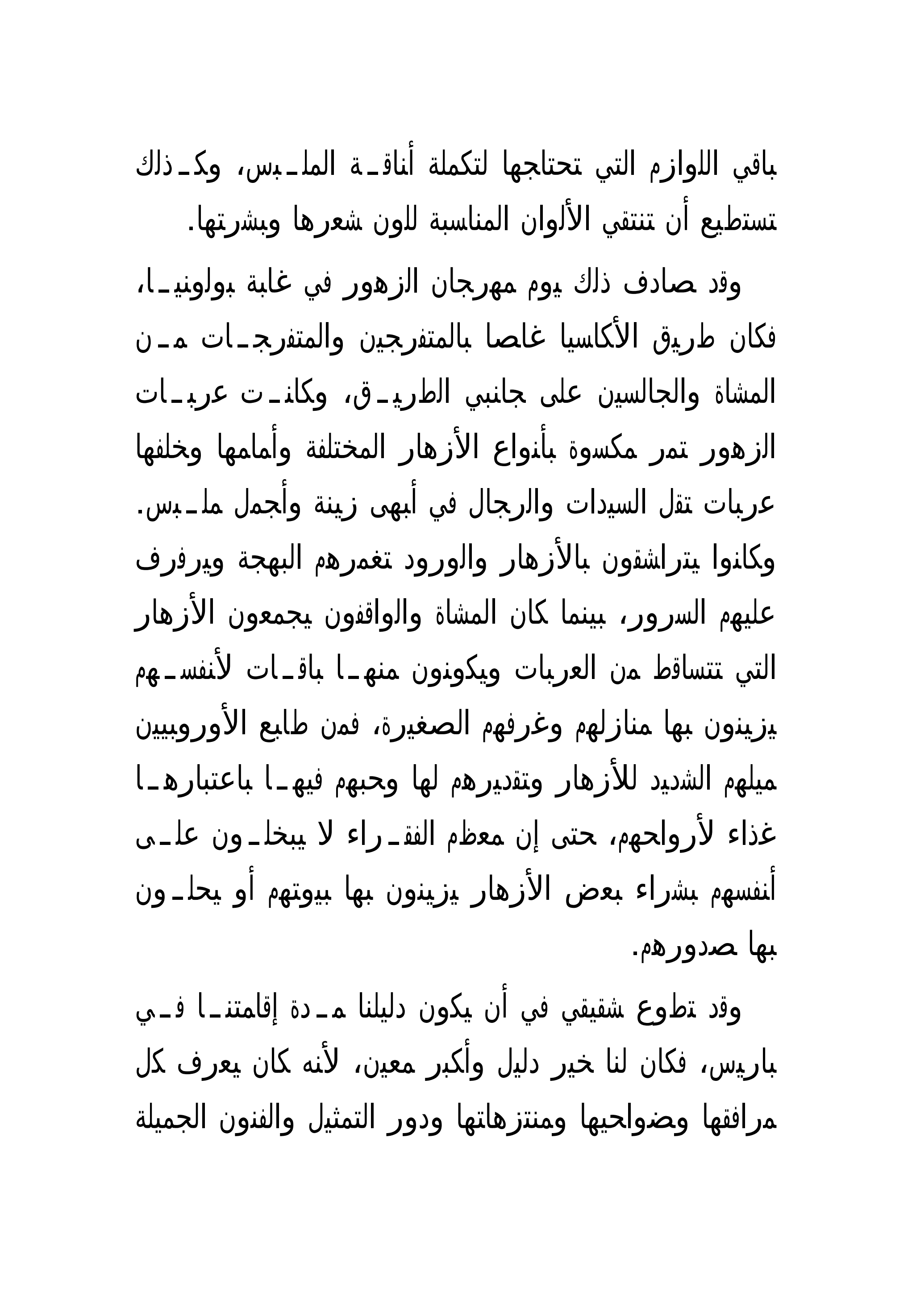
وقد أعجبتني باريس، ليس فقط لجمال مبانيهـا، واتسـاع شوارعها وتنظيم ميادينها وتنسيق متنزهاتها وحسـن هنـدام أهلها، وإنما أيضا لأن الإنسان يجد في كل خطوة فيهـا مـا يغذي عقله ويوسع خياله وينمي مداركه ومواهبـه.. هنـاك



الجمال وحسن الذوق يتجليان في كل شيء ويدفعان الإنسـان إلى البحث عن معرفة أصله.

وكان يكسب هذه الحركة العظيمة رونقًا وبهـاء، مـرور العربات تحت قوس النصر الذي يقع وسط ميـدان النجمـة الجميل، وعلى جانبي الشارع تتناثر الفنادق الكبيرة والمقاهي الأنيقة التي تعزف فيها الموسيقى والغاصة بالجماهير، وعلى هذا الميدان يطل فندق "برنسيس أوتيل" وهو مـن الفنـادق العائلية الممتازة، وهو عبارة عن سراي قديمة بهـا غـرف وأبهاء واسعة منسقة تنسيقًا جميلاً ومفروشة بأثـاث فـاخر ورياش ثمين، وقد استأجرنا في هذا الفندق طابقًـا مسـتقلاً بالاشتراك مع شقيقي، فكنا نشعر في هذا المكان الهادئ إننـا لسنا بعيدين عن منازلنا.

وقد خرجنا في اليوم التالي لوصـولنا بـاريس لمشـاهدة بعض حوانيتها الكبيرة والتوصية على ما يلزمنا من المحلات الشهيرة، وكم عجبت عندما رأيت محلات الأزياء الكبـرى تعرض الملابس على فتيات جميلات أنيقات.. ولم يكن فـي هذا العرض مجرد الترغيب في شراء الملابـس، بـل فيـه دروس للمشترية تمكنها من تمييز ما يلائم هذه الملابس مـن



باقي اللوازم التي تحتاجها لتكملة أناقـة المـلابس، وكـذلك تستطيع أن تنتقي الألوان المناسبة للون شعرها وبشرتها.

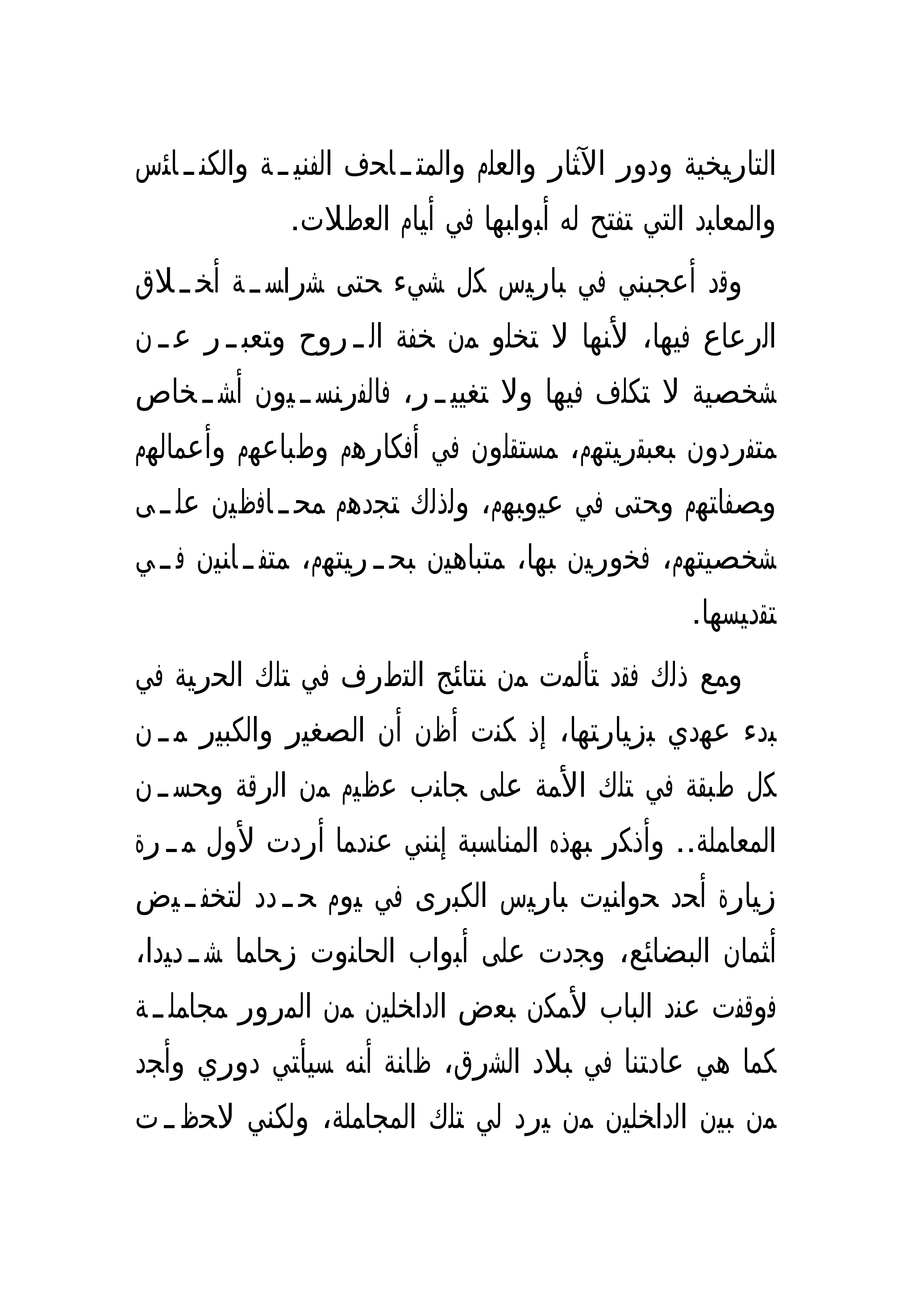
وقد صادف ذلك يوم مهرجان الزهور في غابة بولونيـا، فكان طريق الأكاسيا غاصا بالمتفرجين والمتفرجـات مـن المشاة والجالسين على جانبي الطريـق، وكانـت عربـات الزهور تمر مكسوة بأنواع الأزهار المختلفة وأمامها وخلفها عربات تقل السيدات والرجال في أبهى زينة وأجمل ملابس. وكانوا يتراشقون بالأزهار والورود تغمرهم البهجة ويرفرف عليهم السرور، بينما كان المشاة والواقفون يجمعون الأزهار التي تتساقط من العربات ويكونون منهـا باقـات لأنفسـهم يزينون بها منازلهم وغرفهم الصغيرة، فمن طابع الأوروبيين ميلهم الشديد للأزهار وتقديرهم لها وحبهم فيهـا باعتبارهـا غذاء لأرواحهم، حتى إن معظم الفقـراء لا يبخلـون علـى أنفسهم بشراء بعض الأزهار يزينون بها بيوتهم أو يحلـون بها صدورهم.

وقد تطوع شقيقي في أن يكون دليلنا مـدة إقامتنـا فـي باريس، فكان لنا خير دليل وأكبر معين، لأنه كان يعرف كل مرافقها وضواحيها ومنتزهاتها ودور التمثيل والفنون الجميلة

والمتاحف والسرايات الملكية القديمة والتاريخية، وكان ذلك يرجع إلى ما يتحلى به من حسن الذوق وتقدير الأشياء حق قدرها، ولذلك كان وجوده معي يكسبها جمالاً في عيني فوق جمالها ويزيد من تقديري لها، وهو ما لم أعد أشعر به من بعده.

كم كنت أرتاح لوجودي بجانب شقيقي في الزيارات التي كنا نقوم بها في باريس، لاتفاق شعورنا وميولنا في تقديرنا للفن والعلم والجمال وتقارب أذواقنا، وأظن أنه هو أيضا كان يشعر مثلي بكثير من الغبطة لمرافقتي له.. وكم شق علي زيارة تلك الأرجاء بدونه من بعده، وكم فقدت من رونقها في نظري كلما حاولت أن أستعيد الذكرى.

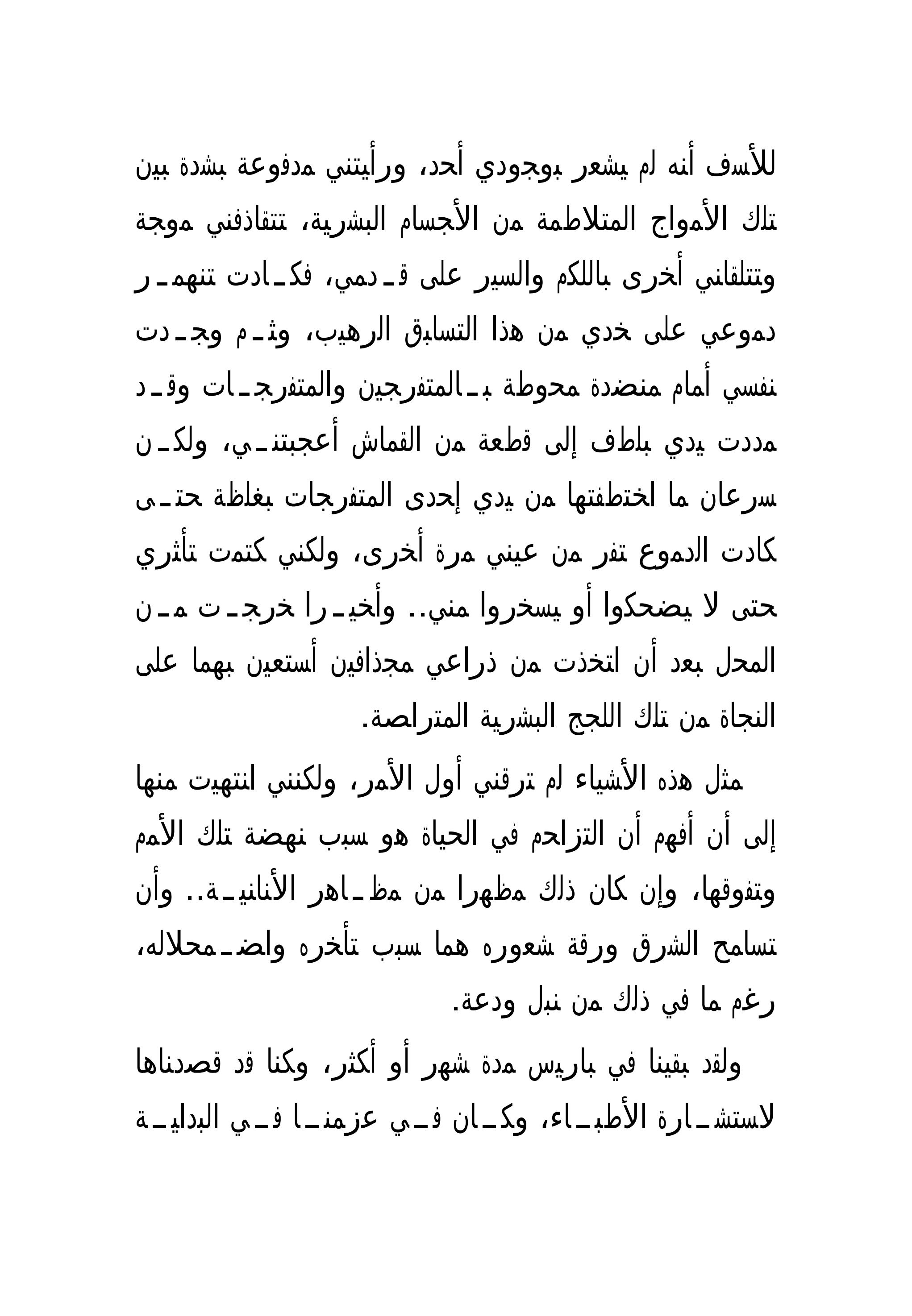
وباريس هي الصفحة المنشورة من سجل تاريخ الفرنسيين؛ حيث يشب الفرنسي في أية بيئة ملما منذ نعومة أظفاره بتاريخ بلاده، قبل أن يدخل المدارس ويتعلم هذا التاريخ في الكتب.. ولذلك تراه فخورا بتاريخها المجيد، حريصا على خلود هذا المجد، وليس هذا فحسب، بل ترى الشعب الفرنسي يطوف بكل القصور الأثرية والميادين



التاريخية ودور الآثار والعلم والمتاحف الفنية والكنائس والمعابد التي تفتح له أبوابها في أيام العطلات.

وقد أعجبني في باريس كل شيء حتى شراسة أخلاق الرعاع فيها، لأنها لا تخلو من خفة الروح وتعبر عن شخصية لا تكلف فيها ولا تغيير، فالفرنسيون أشخاص متفردون بعبقريتهم، مستقلون في أفكارهم وطباعهم وأعمالهم وصفاتهم وحتى في عيوبهم، ولذلك تجدهم محافظين على شخصيتهم، فخورين بها، متباهين بحريتهم، متفانين في تقديسها.

ومع ذلك فقد تألمت من نتائج التطرف في تلك الحرية في بدء عهدي بزيارتها، إذ كنت أظن أن الصغير والكبير من كل طبقة في تلك الأمة على جانب عظيم من الرقة وحسن المعاملة.. وأذكر بهذه المناسبة إنني عندما أردت لأول مرة زيارة أحد حوانيت باريس الكبرى في يوم حدد لتخفيض أثمان البضائع، وجدت على أبواب الحانوت زحاما شديدا، فوقفت عند الباب لأمكن بعض الداخلين من المرور مجاملة كما هي عادتنا في بلاد الشرق، ظانة أنه سيأتي دوري وأجد من بين الداخلين من يرد لي تلك المجاملة، ولكني لاحظت



للأسف أنه لم يشعر بوجودي أحد، ورأيتني مدفوعة بشدة بين تلك الأمواج المتلاطمة من الأجسام البشرية، تتقاذفني موجة وتتلقاني أخرى باللكم والسير على قـدمي، فكـادت تنهمـر دموعي على خدي من هذا التسابق الرهيب، وثـم وجـدت نفسي أمام منضدة محوطة بـالمتفرجين والمتفرجـات وقـد مددت يدي بلطف إلى قطعة من القماش أعجبتنـي، ولكـن سرعان ما اختطفتها من يدي إحدى المتفرجات بغلاظة حتـى كادت الدموع تفر من عيني مرة أخرى، ولكني كتمت تأثري حتى لا يضحكوا أو يسخروا مني.. وأخيـرا خرجـت مـن المحل بعد أن اتخذت من ذراعي مجذافين أستعين بهما على النجاة من تلك اللجج البشرية المتراصة.

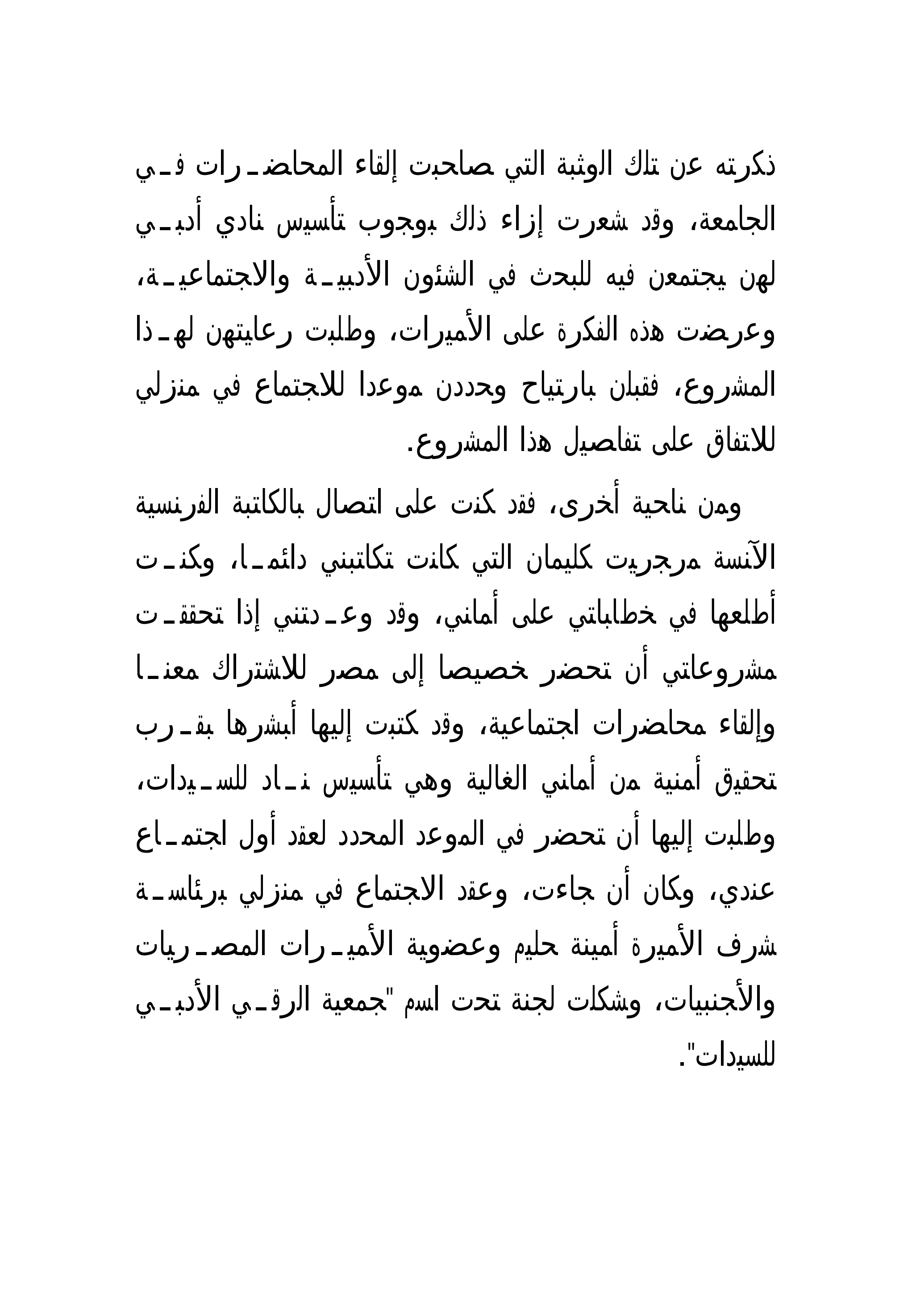
مثل هذه الأشياء لم ترقني أول الأمر، ولكنني انتهيت منها إلى أن أفهم أن التزاحم في الحياة هو سبب نهضة تلك الأمم وتفوقها، وإن كان ذلك مظهرا من مظـاهر الأنانيـة.. وأن تسامح الشرق ورقة شعوره هما سبب تأخره واضـمحلاله، رغم ما في ذلك من نبل ودعة.

ولقد بقينا في باريس مدة شهر أو أكثر، وكنا قد قصدناها لاستشـارة الأطبـاء، وكـان فـي عزمنـا فـي البدايـة

ألا تمتد إقامتنا بها أكثر من أسبوعين، ولكن المدة طالت دون أن نشعر بها، لأن تغيير الهواء والمعيشة كان لهما أفضل الأثر على صحتنا جميعا. وقد عزمنا بعد ذلك على السفر إلى "ابنيول دي لورن" بناء على مشورة البروفيسور "روبان" الذي أكد لنا أن مياه تلك الجهة مفيدة جدا بالنسبة لما كنت أشكوه من عدم انتظام الدورة الدموية، وهو ما كان يسبب لي كل الآلام التي كنت أقاسيها.. وكان أخي قد نوى الرحيل إلى "البوي دودوم" في الوقت نفسه، فغادرنا جميعا الفندق في صباح واحد.

بعد عودتي من أوربا، وقعت أحداث هامة في مصر. ومن ذلك ما وقع يوم ٢٠ فبراير ١٩١٠، وهو إطلاق الرصاص على بطرس غالي باشا رئيس النظارة من فتى يدعى إبراهيم ناصف الورداني، المنتمي للحزب الوطني، وذلك عند مغادرة الرئيس لنظارة الخارجية في الساعة الواحدة بعد الظهر.. وكان هذا من أبرز الأحداث السياسية التي وقعت في تلك الفترة.

أما عن الأحداث الاجتماعية، فإنه قد ظهرت في ذلك الوقت بوادر نهضة أدبية بين السيدات الراقيات، إثر ما



ذكرته عن تلك الوثبة التي صاحبت إلقاء المحاضرات في الجامعة، وقد شعرت إزاء ذلك بوجوب تأسيس نادي أدبي لهن يجتمعن فيه للبحث في الشئون الأدبية والاجتماعية، وعرضت هذه الفكرة على الأميرات، وطلبت رعايتهن لهذا المشروع، فقبلن بارتياح وحددن موعدا للاجتماع في منزلي للاتفاق على تفاصيل هذا المشروع.

ومن ناحية أخرى، فقد كنت على اتصال بالكاتبة الفرنسية الآنسة مرجريت كليمان التي كانت تكاتبني دائما، وكنت أطلعها في خطاباتي على أماني، وقد وعدتني إذا تحققت مشروعاتي أن تحضر خصيصا إلى مصر للاشتراك معنا وإلقاء محاضرات اجتماعية، وقد كتبت إليها أبشرها بقرب تحقيق أمنية من أماني الغالية وهي تأسيس ناد للسيدات، وطلبت إليها أن تحضر في الموعد المحدد لعقد أول اجتماع عندي، وكان أن جاءت، وعقد الاجتماع في منزلي برئاسة شرف الأميرة أمينة حليم وعضوية الأميرات المصريات والأجنبيات، وشكلت لجنة تحت اسم "جمعية الرقي الأدبي للسيدات".

وقد بدأت الآنسة "مرجريـت كليمـان" بإلقـاء سلسـلة محاضرات بمنزلي وبالجامعة المصرية، كـذلك اشـتركت الكاتبة المبدعة الآنسة "مي" في عضوية هذه اللجنة، وكانـت لا تزال في بدء حياتها الأدبية. أما السيدة لبيبة هاشم صاحبة مجلة "فتاة الشرق" فقد عينت سكرتيرة عربية لهذه اللجنة.

وقد انهالت علي رسائل التهنئة والترحيب بهذا المشروع الذي صادف قبولاً حسنًا لدى النفوس المتعطشة إليه، وكان ذلك في إبريل ١٩١٤.

وكان علي بعد ذلك أن أقوم بالبحث عن منزل ليكون مقرا لهذا النادي الذي لم نكن نجرؤ على تسميته ناديا، نظـرا لأن التقاليد كانت تستهجن مثل هذا العمل، ولا تسمح للمراة بـأن تتنفس أو تجد لنفسها منتدى تلقي فيه صـديقاتها والعـاملات معها في الحياة الاجتماعية، ثم جاء الصيف وسافر كثير من الأميرات والسيدات إلى أوربا كعادتهن، علـى أن يسـتأنف العمل على تحقيق هذا المشروع الجديد عقب عودتهن إلـى الوطن.

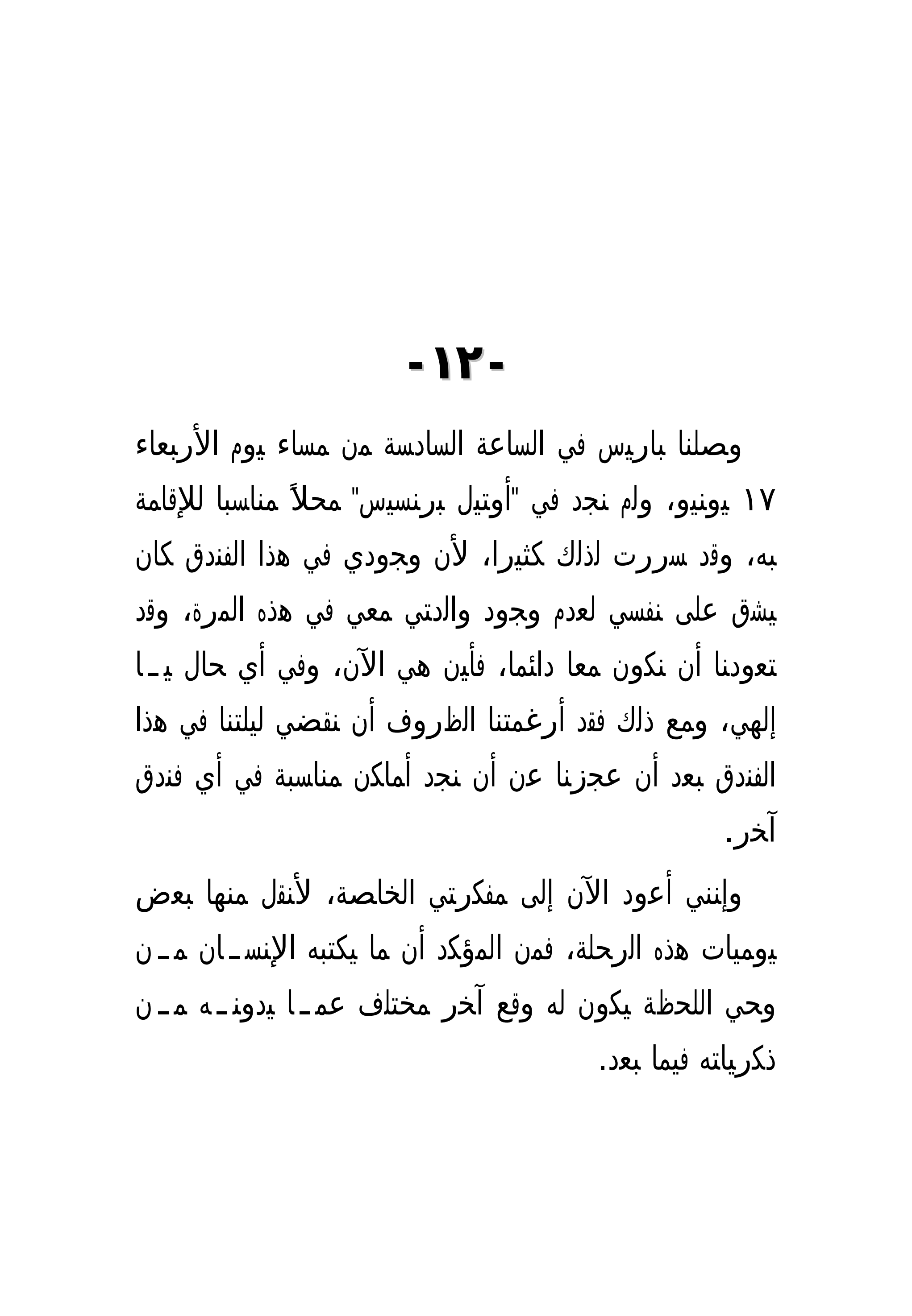
وفي غضون هذه المدة، اشتد مرض الحمى الشوكية على ابنة أخي الصغيرة، وكنت أحبها حبا كبيرا، وكنـا نتحـدث

أمامها بأنها ستكون عروسا لأبني محمد، فتشبع الطفلان بهذه الفكرة وتوثقت عرى المحبة بينهما، وكانت هي تقول إننـي أحبه وسأتزوجه رغم كل شيء، أما هو فأذكر إنني قلت لـه يوما: "وهل تنتظرك وهي أكبر منك بسنة والبنات يتـزوجن مبكرات؟" فأخذ يبكي بالدموع ويقول: "إذًا بمن سـأتزوج؟". وكأنما ليس في الحياة غيرها!

وزادت وطأة المرض على "هدى" الصغيرة، رغم كل ما بذله والدها من عناية، حتى أنه أحضر البروفيسور "روبـين" خصيصا من باريس لعلاجها. ولكن كل هذه المحاولات لـم تفلح.. وبعد أن قاست كثيرا من مرارة المرض، توفيت إلـى رحمة ا ، وأذكر إنني كتبت في مفكرتي يـوم الاثنـين ١١ مايو ١٩١٥ أقول: "قصف المنون صباح اليوم زهـرة فـي عنفوان صباها، بل في طفولتها، فوا حسرتاه".

ولقد كان لوفاتها تأثير كبير على صحة والدها الذي كان يعزها ويحبها، وكان لذلك رجة كبيرة وهزة عنيفة في نفوسنا جميعا، وقد حزن عليها ولدي محمد حزنًا شديدا رغم صغر سنه، وكان إذ ذاك مريضا وضعيف البنية، وكانت تعتريـه حمى منخفضة لازمته باستمرار ولم ينفع فيها أي علاج.

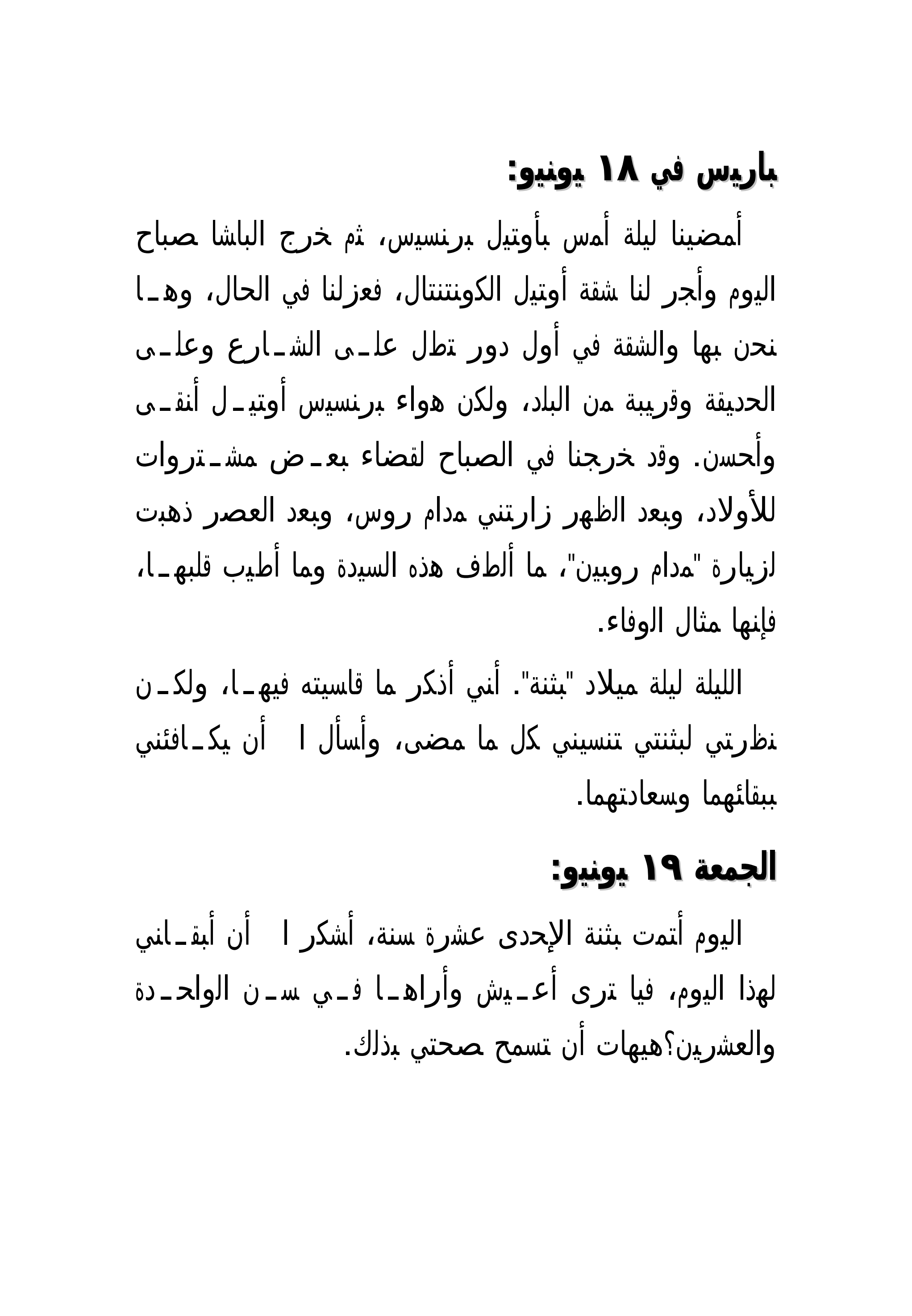
ولما عجز الأطباء عن معرفة سبب هذه الحالة، نصحوا بالسفر إلى أوربا لعرضه على الأخصائيين هناك وليستفيد من تغيير الهواء والإقامة في الجبال. وقد اضطررت للسفر تاركة والدتي على فراش المرض؛ حيث لم يسمح لها الطبيب بالسفر وإن كان قد طمأنها على صحتها ما دامت بعيدة عن المؤثرات وعن الصدمات النفسية والمتاعب الجسمانية، وكان سفرنا من الإسكندرية بعد ظهر يوم الأربعاء ١٤ يونيو ١٩١٤. وكانت هذه أول مرة أفارق فيها والدتي وأسافر بدونها، ورغم أن الطبيب طمأنني عليها، فقد كنت أحس في دخيلتي كأنني لن أراها ثانية، وقد حدثتني نفسي أن أرجع من الإسكندرية لولا الحالة التي كان عليها ولدي وخوفي مما قد يترتب على عدم العناية به.



-١٢-

وصلنا باريس في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء ١٧ يونيو، ولم نجد في "أوتيل برنسيس" محلاً مناسبا للإقامة به، وقد سررت لذلك كثيرا، لأن وجودي في هذا الفندق كان يشق على نفسي لعدم وجود والدتي معي في هذه المرة، وقد تعودنا أن نكون معا دائما، فأين هي الآن، وفي أي حال يـا إلهي، ومع ذلك فقد أرغمتنا الظروف أن نقضي ليلتنا في هذا الفندق بعد أن عجزنا عن أن نجد أماكن مناسبة في أي فندق آخر.

وإنني أعود الآن إلى مفكرتي الخاصة، لأنقل منها بعض يوميات هذه الرحلة، فمن المؤكد أن ما يكتبه الإنسـان مـن وحي اللحظة يكون له وقع آخر مختلف عمـا يدونـه مـن ذكرياته فيما بعد.



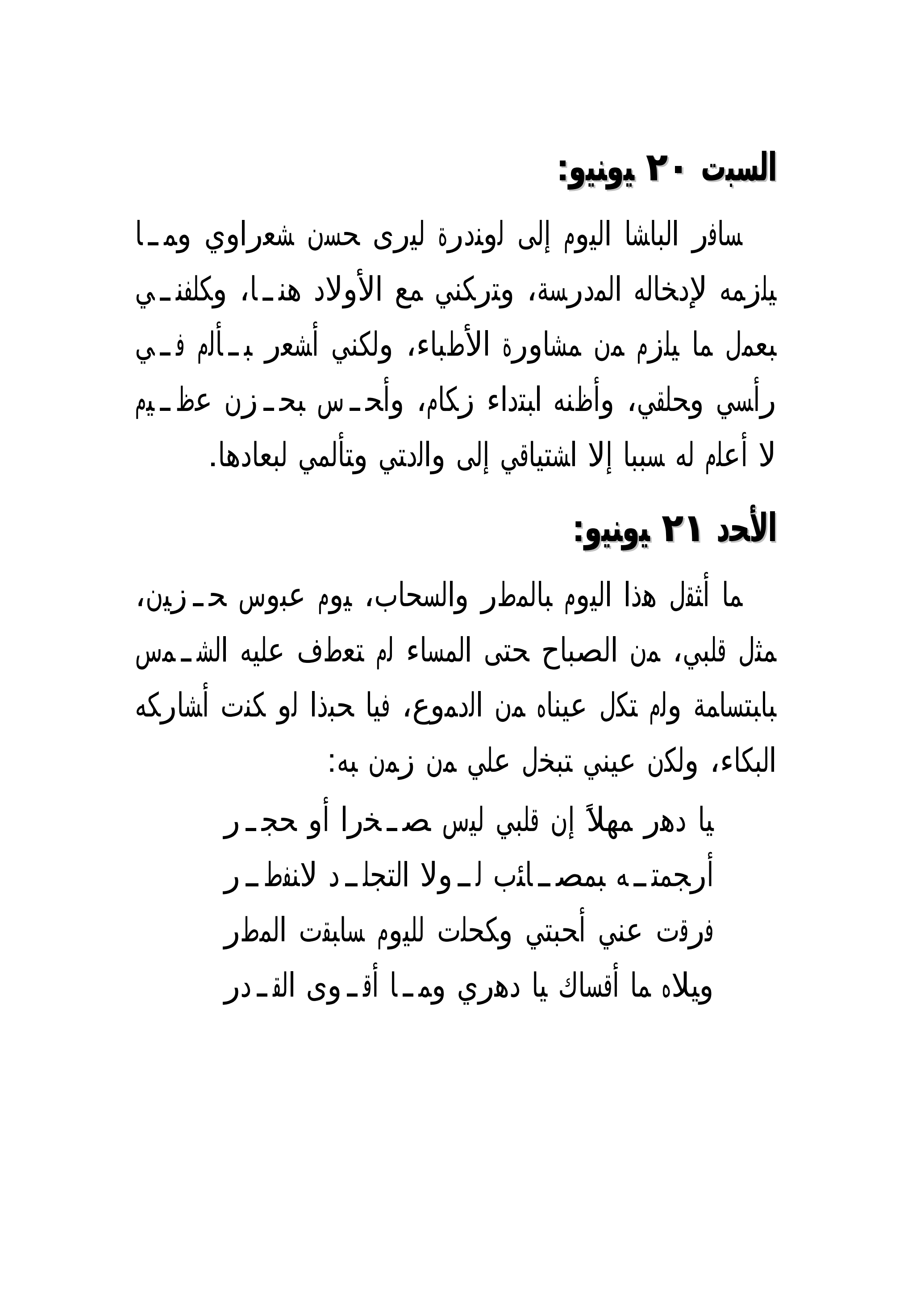
باريس في ١٨ يونيو:

أمضينا ليلة أمس بأوتيل برنسيس، ثم خرج الباشا صباح اليوم وأجر لنا شقة أوتيل الكونتنتال، فعزلنا في الحال، وهـا نحن بها والشقة في أول دور تطل علـى الشـارع وعلـى الحديقة وقريبة من البلد، ولكن هواء برنسيس أوتيـل أنقـى وأحسن. وقد خرجنا في الصباح لقضاء بعـض مشـتروات للأولاد، وبعد الظهر زارتني مدام روس، وبعد العصر ذهبت لزيارة "مدام روبين"، ما ألطف هذه السيدة وما أطيب قلبهـا، فإنها مثال الوفاء.

الليلة ليلة ميلاد "بثنة". أني أذكر ما قاسيته فيهـا، ولكـن نظرتي لبثنتي تنسيني كل ما مضى، وأسأل ا أن يكـافئني ببقائهما وسعادتهما.

الجمعة ١٩ يونيو:

اليوم أتمت بثنة الإحدى عشرة سنة، أشكر ا أن أبقـاني لهذا اليوم، فيا ترى أعـيش وأراهـا فـي سـن الواحـدة والعشرين؟هيهات أن تسمح صحتي بذلك.



السبت ٢٠ يونيو:

سافر الباشا اليوم إلى لوندرة ليرى حسن شعراوي ومـا يلزمه لإدخاله المدرسة، وتركني مع الأولاد هنـا، وكلفنـي بعمل ما يلزم من مشاورة الأطباء، ولكني أشعر بـألم فـي رأسي وحلقي، وأظنه ابتداء زكام، وأحـس بحـزن عظـيم لا أعلم له سببا إلا اشتياقي إلى والدتي وتألمي لبعادها.

الأحد ٢١ يونيو:

ما أثقل هذا اليوم بالمطر والسحاب، يوم عبوس حـزين، مثل قلبي، من الصباح حتى المساء لم تعطف عليه الشـمس بابتسامة ولم تكل عيناه من الدموع، فيا حبذا لو كنت أشاركه البكاء، ولكن عيني تبخل علي من زمن به:

يا دهر مهلاً إن قلبي ليس صـخرا أو حجـر
أرجمتـه بمصـائب لـولا التجلـد لانفطـر
فرقت عني أحبتي وكحلت لليوم سابقت المطر
ويلاه ما أقساك يا دهري ومـا أقـوى القـدر

توجهت بعد ظهر اليوم إلى "الدكتور كومبي" وأزعجني بتشخيص مرض "محمد"؛ حيث قال إن عنده التهابا في المصران.

الاثنين ١٢ يونيو:

توجهنا مع "مدموازيل كليمان" بعد الغداء إلى فرساي وعند وصولنا ذهبنا إلى منزلنا وتوجهنا إلى البارك وتفرجنا عليه، أما السراي فكانت مغلقة كأغلب المتاحف بفرنسا.

الخميس ٢٥ يونيو:

توجهت مع "مدموازيل كليمان" إلى بولونيا، وأخذنا الشاي معا في قاعة استقبال الكلوب.

حضر الدكتور روبين اليوم، وطمأنني على "محمد"؛ حيث إنه لم يجد عنده التهابا في المصران، وقرر لعلاجه ١٥ يوما.

الاثنين ٢٩ يونيو:

دعيت إلى الشاي مع "مدموازيل كليمان" عند "مدام سيجفريد". وتوجهت الساعة الرابعة عند السيدة العاقلة المحترمة، فقابلتنا بترحيب ولطف زائدين. وقدمت لي



مدموازيل فيجزون مفتشة مدارس البنات، وكانت قد دعتهـا خصيصا لكي تعرفني بها ولكي يمكنني بوساطتها مشـاهدة المدارس الصناعية والتدبيرية.

الثلاثاء ٣٠ يونيو:

توجهت مع "مـدموازيل فيجـزون" لزيـارة المـدارس الصناعية والتدبير المنزلي للبنات. وسرني جدا مـا رأيتـه وأحزنني، سررت لهم وحزنـت علينـا، فرحـت لتقـدمهم وتكدرت لتأخرنا، يلزمنا جيل بطوله وعرضه إذا كنا حاكمين أنفسنا إذا بقينا محكومين، لنحصل على درجـتهم إذا مشـينا وحذونا حذوهم. ولكن وا أسفاه من أين نتحصل علـى هـذه الروح الحية، نثبت في عملنا ونثابر عليه لنصل إلـى هـذه الدرجة من الكمال.

في أثناء وجودي بباريس، دعيت لحضور اجتماع نسائي كبير تطالب فيه السيدات بمساواة المرأة بالرجل في الحقـوق والانتخاب وينادين بالسلام.

وقد عقد اجتماع كبير في صالة "الجورنال"، خطبت فيـه عظيمات السيدات الفرنسيات مثل مدام سيجفريد وأفريل دي سانت كروا ومدموازيل كليمان وسـيدات أخريـات، وقـد

لاحظت روح الدعوة للسلام بين الشباب حتى بين الضـباط أنفسهم، وقد سررت من هذا المظهر الجميل جدا، وصـرت أعتقد أن الأوروبيين حقيقة قد وصلوا إلى درجة عظيمة من الرقي.

وقد حدث أن زرت "مدام سيجفريد" بعد ذلك، وتحدثنا في السلام وسألتها عما إذا كانت تعتقد أن السلام سيسود أوربـا، فأجابتني تلك السيدة العظيمة قائلة:

لأجل أن يسود السلام العالم يجب أن نوطده في نفوسـنا، ونهيئ له فيما حولنا، وبالطبع فإن ذلك يحتـاج إلـى زمـن طويل.

عدنا بعد ذلك إلى "فيتيل"؛ حيث بدأ الباشا في أخذ حماماته وقد شعرت بالوحدة لعدم وجود والدتي معي، فكنت أقضـي أغلب أوقاتي في النزهة مع ولدي في الحديقة أو في القـرى القريبة من البلدة.

وقد كتبت في مفكرتي الخاصة يوم الجمعـة ١٠ يوليـو ١٩١٤ هذه السطور: أف، ما أطول ليلة الأمس علي، ومـا أثقل هذا اليوم الحزين!.. سأمضي كل مدة "الكور" –العلاج- بهذا الشكل.. محرومة من أويقات حريتي التي ألقـي فيهـا

العنان على عاتق أفكاري وتذكاراتي وأنفرد بهم عن كل شغل وشاغل بين كتبي وتخيلاتي وأحلامي وأوهامي وصلاتي وعبادتي وماضي وحاضري، وبالجملة حياتي الحقيقية.. حياتي الشخصية التي فيها أكون أنا.. معي نفسي.. فلها أو عليها كما تقتضي الظروف.. فإلى اللقاء يا أنا!

وكتبت في اليوم التالي السبت ١١ يوليو: أمضيت هذا اليوم أطوف في البارك مثل التائهة وحدي؛ حيث إن الأولاد كانوا يتفرجون على "قرة جوز" وكان الباشا مشغولاً بأخذ مياهه في الأوقات المعينة لها، فأين أنت يا والدتي العزيزة؟ وما حالك الآن؟ كنت قبل سنتين تلازمينني في مثل هذه الساعات، والآن ليس معي إلا تذكارك، وأي تذكار يا رباه أينما أكون، أتصورك في فراشك طريحة الآلام، فتظلم الدنيا في عيني فينعكس فيهما ما كنت أراه حسنًا.

على إنني قد حاولت أن أملأ فراغ وقتي. ولما كانت بلدة "دون ريمون" وهي بلدة "جان دارك" لا تبعد كثيرا عن "فيتيك" فقد زرتها وشاهدت الغرفة الصغيرة التي كانت تسكنها، والشجرة التي كانت تؤدي صلاتها تحتها فتسمع أصوات "سانت كاترينا" و "سان ميشيل" يأمرانها أن تخلص

فرنسا من احتلال الإنجليز في عهد الملك شارك السابع. وقد أعطاها الملك قوة مسلحة صغيرة هجمت بها على الإنجليز وانتصرت عليهم في "باتي" ثم خانها أحد الفرنسيين وحاكمها الإنجليز وحكموا عليها بالإعدام حرقًا.. وبعد ذلك أخذ الفرنسيون يقدسونها، واتخذوا من بيتها الصغير متحفًا فيه كل الآثار التاريخية القديمة الموجودة في "دون ريمون".

ولما أوشك الباشا أن يتم حماماته، سافرت إلى باريس لقضاء بعض حاجياتي على أن أعود مع حسن شعراوي، وقد نزلت في شقة كان أخي قد استأجرها بدلاً من النزول في الفندق لعدم وجود أحد معي سوى خادمتي "مرجريت".

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت باريس خالية، وشوارعها هادئة ساكنة، ووجوه سكانها عابسة كاسفة. وكان قد صادف وجودي بها أواخر شهر يوليو عندما وقعت حادثة "مدام كايز" التي قتلت "مسيو بينيت" صاحب ومدير جريدة "الفيجارو". وكان الجميع يكيلون لها اللعنات رغم أنهم كانوا يعلمون أن هذه السيدة لم تقدم على ارتكاب جريمتها إلا بعد أن سعت بكل جهدها لكي تمنع "مسيو بينيت" من نشر الوثائق التي كانت تحت يده، والتي كان يهددها هي وزوجها بنشرها

وفيها ما يلوث شرفهما، فلما فعل، لم تستطع كبح جماح نفسها فقتلته.

وفي الوقت نفسه، كنت أسمع الناس يتحدثون عن احتمال وقوع الحرب بين فرنسا وألمانيا، وما كنت أصدق ذلك لثقتي العظيمة في أن المدنية التي وصلت إليها أوربا ستمنعها من خوض غمار الحرب، التي تعتبر أشد أنواع الوحشية. ولكن عندما زارتني صديقتي "مدموازيل كليمان"، وجدتها شاحبة وتكاد تكون مقوسة الظهر من هول الموقف فسألتها: أتظنين حقًا أن الحرب قائمة، فقالت: نعم مع الأسف، لأن الحالة تفاقمت تفاقما شديدا، فقلت لها: وماذا سيكون موقفكم أنتم يا أنصار السلام؟ قالت: سنكون بجانب شعبنا، لأن صوتنا ما زال ضعيفًا، وقد عجبت من ذلك، ولم أصدق أبدا أن الحرب ممكنة.

ولكن عندما توجهت في اليوم التالي لقضاء حاجياتي وأردت صرف ورقة مالية قيمتها ألف فرنك، لم أجد قيمة صرفها ذهبا، وأتت إلى الصرافة وبيدها كيس مليء بالفضة، وقالت لي: لقد جمع كل الذهب ولم يبق عندي سوى الفضة..

وقد فضلت أن تعطيني ورقًا بدلاً من الفضة الثقيلة، وقـد أسفت بعد ذلك لأنني كنت أجهل قيمة الدراهم الفضية.

وفي اليوم الذي أردت فيه العودة إلى "فيتيل" مـع حسـن شعراوي، سألني الخادم عما إذا كنت قد حجزت في القطـار لأنه يتعذر غالبا وجود محلات مرموقة خالية، فأجبته بالنفي، وكان أن سبقنا إلى المحطة لحجز المحلات، ولكننـا عنـدما توجهنا إلى القطار، وجدنا كل دواوينه خالية، فلم يسافر فـي القطار سوانا نحن الثلاثة وأحد المراكشيين!..

ولما وصلنا إلى "فيتيل"، وجـدت الباشـا والأولاد فـي انتظارنا بالمحطة، وقد استقبلوني في لهفة قائلين إنه لم يبـق بالفندق الذي نسكنه أحد غيرنا، لأن الناس هجـروا المدينـة خوفًا من الحرب لقربها من الحدود، وكـان ذلـك يـوم ٢٩ يوليو، وقد قررنا أن نغادر "فيتيل" بعد يومين أو ثلاثة أيـام، وعلى الأكثر في اليوم الثاني من شهر أغسطس.

وقد رأيت الخدم بالفندق محزونين، وبخاصة الخادمـات لأن أزواجهن قد طلبوا للتجنيد ولما سألنا مدير الفندق عـن الحلة، أجابنا بأنه أمر بإغلاق الفندق وهو قائم بجمع الـذهب

لإرساله إلى المصارف، وأنه ربما يطلب هو أيضا للخدمـة العسكرية.

غادرنا "فيتيل" في أول أغسطس قاصدين "سان مـوريس" بسويسرا، وكان المفروض أن يصل القطار الذي سنستقله في حوالي الساعة الحادية عشرة، ولكننا بقينا في انتظاره علـى رصيف المحطة حتى الساعة الواحدة، ولما تـأخر موعـده حوالي ثلاث ساعات، سألنا ناظر المحطة عن السبب، فقـال لنا في غضب: هل هذا يوم سياحة مع أطفال؟ فقلنا له إننا ما كنا نعلم أنه يوم التعبئة والاستعداد للحرب، ودخلـت مطعـم المحطة لأشتري شيئًا من الطعام لـلأولاد، فوجدتـه خاليـا لا من رغيف واحد وعلبة من كبد الإوز، فاشـتريتها هـي والرغيف وكان الأولاد في حالة جوع شديد، فوزعت عليهم الرغيف والكبد. وكان معي بعض الشيكولاتة، فاحتفظت بها في حقيبتي الصغيرة احتياطيا للطوارئ.

بقينا كذلك حتى الساعة الثالثة، عنـدما مـر بنـا قطـار لا نعلم مقصده، ولما سألنا ناظر المحطة عن وجهته، قال لنا: "إن اليوم يوم ترحيل الجنود، ولا يعلم أحد إلى أيـن تسـير القطارات". فركبنا هذا القطار حتى وصل بنا إلى "بلفورت".

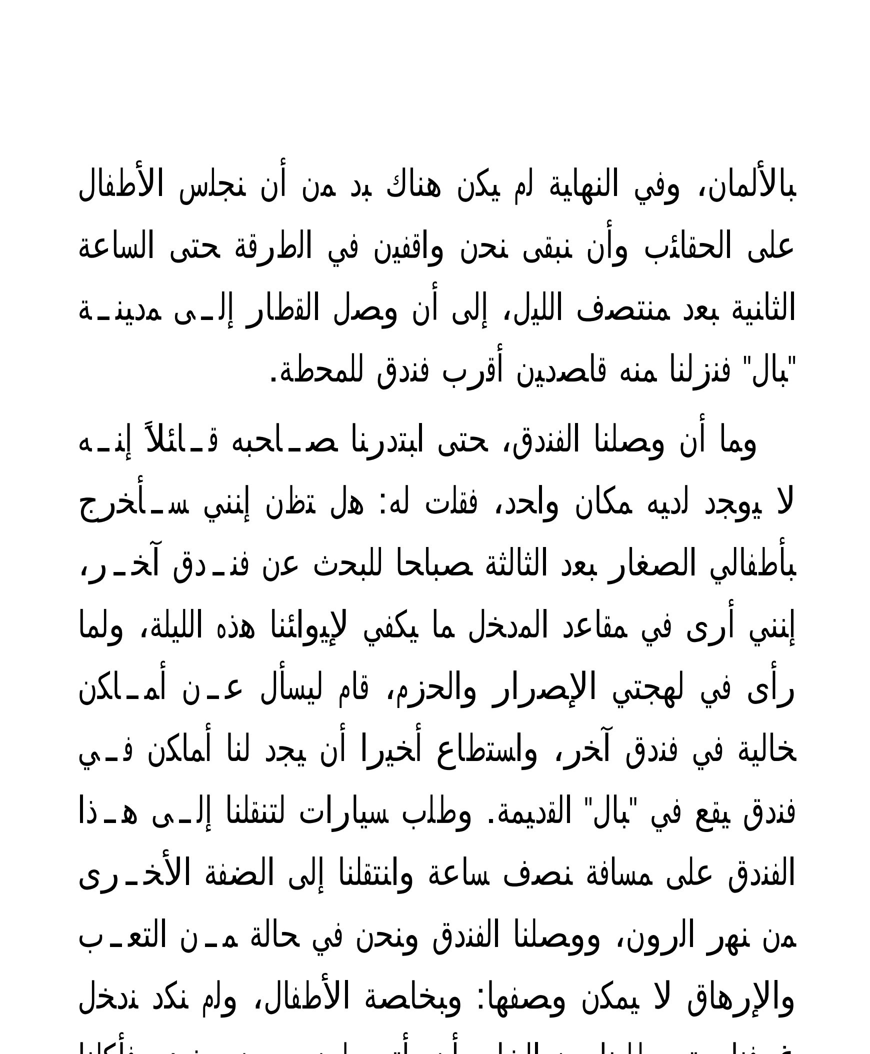
وفي تلك المحطة رأينا قطارا آخر قيل لنا إنه قاصد إلى الحدود من جهة سويسرا، وأشارت علينا بعض السيدات الفرنسيات بترك قطارنا وركوب هذا القطار، فنزلنا نحمل أمتعتنا بأنفسنا لعدم وجود الحمالين بالمحطات وكانت تمر أمامنا القطارات تحمل المجندين، ونرى النساء اللاتي جئن لودعاهم، بعضهم يبكي وبعضهم الآخر يحاول أن يخفي آلامه وأحزانه.

وسافر بنا القطار الآخر، وكانت قد ركبت معنا فيه سيدة ألمانية وابنتها، وكانت ترتعد خوفًا، وقد أتت هذه السيدة بابنتها والتصقت بي ورجتني أن أحميها وأن أقول إنها في معيتي، وقد وعدتها بذلك وطمأنت خاطرها.

ووقف بنا القطار فترة طويلة في إحدى المحطات، ثم سار بنا في حوالي الساعة العاشرة وكان الأولاد قد جاعوا وعطشوا وكان قد ركب معنا تاجر يهودي مصري وعرفنا بنفسه، فقال لنا إن هذا القطار سوف يصل بنا إلى قرب الحدود حوالي ساعة، وكان أن أخرجت ما معي من حلوى وقسمته بين الجميع، ووعدنا التاجر بأن يحضر بعض المأكولات من بوفيه المحطة عند وصولنا، وبعد أكثر من

ساعة وقف القطار على مسافة قصيرة من الحدود وسـمعنا البائعات ينادين باسم نوع من الفطير، فهرول اليهودي ونزل من القطار وجلسنا في انتظار أن يأتي لنا بشيء نأكله، وعلى هذا الأمل لم يتحرك أحد منا، ولمـا قـرب موعـد تحـرك القطار، صعد التاجر صفر اليدين وهو يقول: حقًا، لقد كـان طعم الفطير لذيذًا جدا، فقلت له: "لعلك تـذكرت الأطفـال، وأتيت لنا بشيء منه" فإذا به يرتبك ويقول في خجل: "أنـي آسف جدا.. لقد نسيت!". فلم أستطع أن أمنع نفسي من لومه قائلة: "لقد أعطيتك من زاد أولادي وأنـت جـائع، فكيـف تنساهم؟".. فلم ينطق من شدة الخجل!

وبعد ساعة وقف القطار مرة أخرى على الحدود؛ حيـث كان يجب علينا أن نترك قطارنا ونأخذ القطار السويسـري الألماني. وقد حاولت أن انتهز الفرصة لأشرب قلـيلاً مـن الماء وأحضر بعض المأكولات من بوفيه المحطـة، ولكـن عبثًا حاولت، فقد كانت الألمانيات الجميلات مشغولات بتقديم الطعام والشراب للرجال الألمان ولم ينتبهن إلى إنني كنـت أتكلم الفرنسية وهن لا يفهمنها وعدت إلى القطار، وحاولـت أن أدخل أولادي إلى الصالون، فوجدت كل الدواوين مكتظة



بالألمان، وفي النهاية لم يكن هناك بد من أن نجلس الأطفال على الحقائب وأن نبقى نحن واقفين في الطرقة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، إلى أن وصل القطار إلـى مدينـة "بال" فنزلنا منه قاصدين أقرب فندق للمحطة.

وما أن وصلنا الفندق، حتى ابتدرنا صـاحبه قـائلاً إنـه لا يوجد لديه مكان واحد، فقلت له: هل تظن إنني سـأخرج بأطفالي الصغار بعد الثالثة صباحا للبحث عن فنـدق آخـر، إنني أرى في مقاعد المدخل ما يكفي لإيوائنا هذه الليلة، ولما رأى في لهجتي الإصرار والحزم، قام ليسأل عـن أمـاكن خالية في فندق آخر، واستطاع أخيرا أن يجد لنا أماكن فـي فندق يقع في "بال" القديمة. وطلب سيارات لتنقلنا إلـى هـذا الفندق على مسافة نصف ساعة وانتقلنا إلى الضفة الأخـرى من نهر الرون، ووصلنا الفندق ونحن في حالة مـن التعـب والإرهاق لا يمكن وصفها: وبخاصة الأطفال، ولم نكد ندخل غرفنا حتى طلبنا من الخادم أن يأتي بلبن وجبن وخبز، فأكلنا ثم نمنا نوما عميقًا.

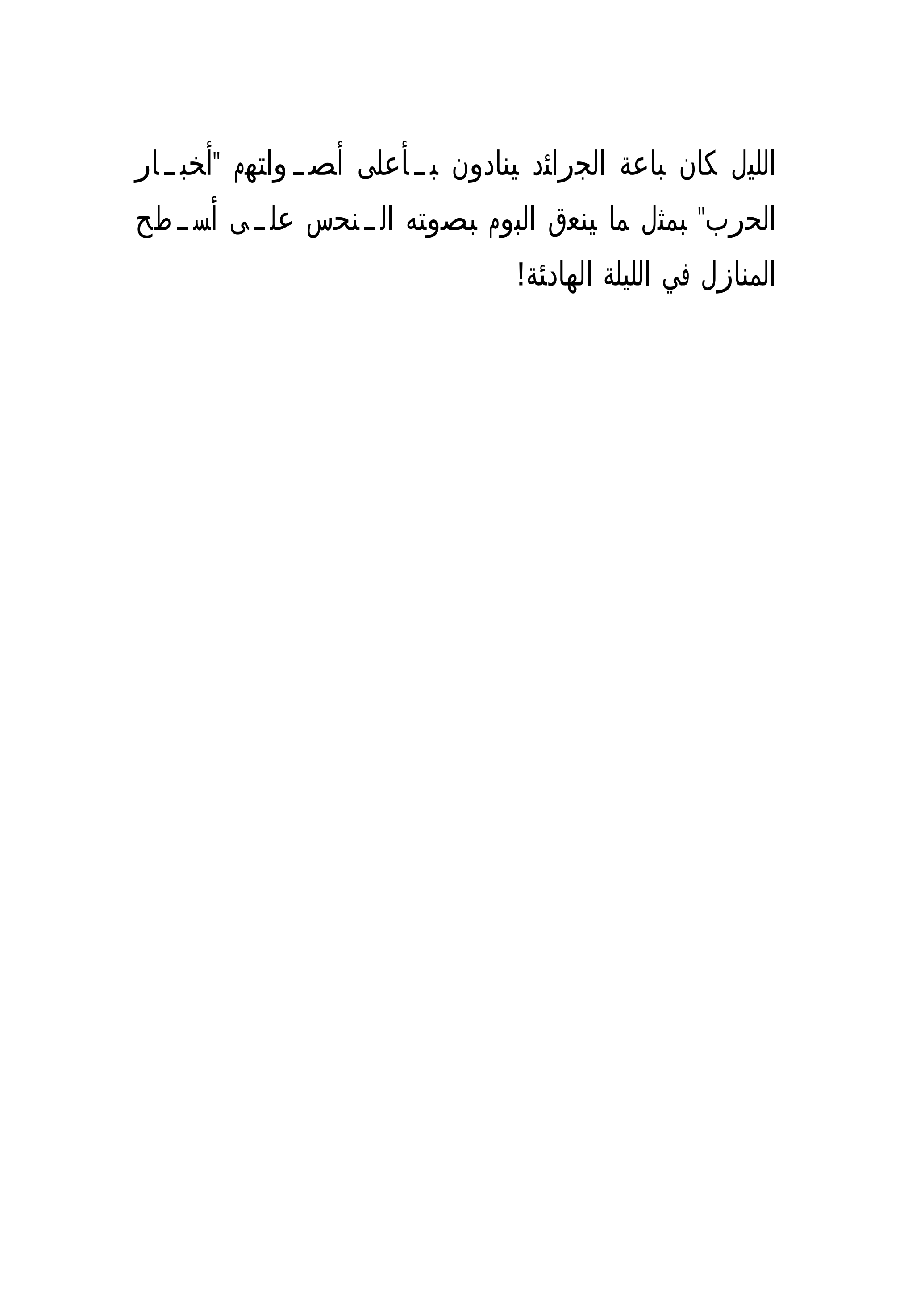
استيقظنا في الصباح على صوت الأطفال يلعبـون فـي الشارع، وقد شعرت بالألم وأنا أنظر إلى هـؤلاء الصـغار

الذين كانوا يضحكون ويمرحون جاهلين كل ما يدور حولهم، غير مدركين أن الحرب سوف تحولهم إلى أيتام بؤساء!..

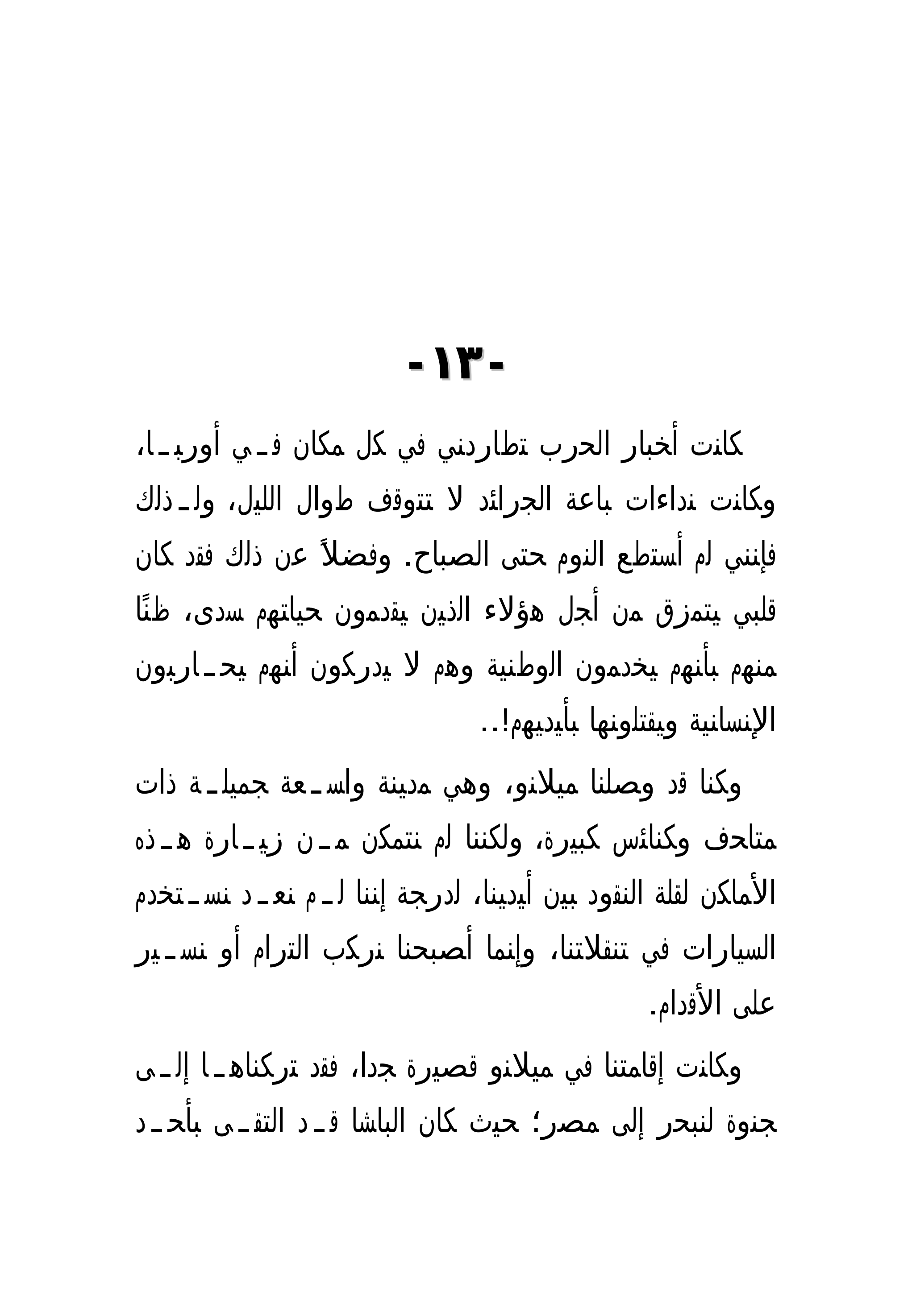
وفي يوم الأحد ٢ أغسطس ١٩١٤، بارحنا "بـال" إلـى زيورخ؛ حيث وصلنا في الخامسة مساء.. ونزلنا في فنـدق "بورولاك"، ولم نجد أماكن لائقة رغم إننا كنا قد حجزنا من قبل، ولكن كل الناس كانوا قد هاجروا إلى سويسرا باعتبارها بلاد الحياة، ومن كثرة الزحام التزمت الفنادق بالاقتصاد قـدر الإمكان في المعيشة والغذاء، فلا يحصل النـزلاء إلا علـى القوت الضروري فقط، وكان علينا أن نتوجـه إلـى غرفـة الطعام للحصول على الإفطار، وانتظرنا في طابور طويـل أكثر من نصف ساعة حتى جاء دورنا..

وذات يوم افتقدنا الملح، فسألنا عن السبب، فقيـل لنـا إن هذه بوادر اقتصاد الحرب، وبدأنا نتنزه سيرا علـى الأقـدام بسبب غلاء المعيشة، وصرنا نتحاشى طلـب الشـاي بعـد الظهر لأنه كان يكلفنا جنيها تقريبا.

وإزاء هذه الظروف، قرر الباشا أن نعود إلى مصر عـن طريق إيطاليا، فتركنا زيورخ يـوم الجمعـة ٧ أغسـطس ١٩١٤؛ حيث وصلنا إلى ميلانو في الخامسة مسـاء، وفـي



الليل كان باعة الجرائد ينادون بـأعلى أصـواتهم "أخبـار الحرب" بمثل ما ينعق البوم بصوته الـنحس علـى أسـطح المنازل في الليلة الهادئة!



-١٣-

كانت أخبار الحرب تطاردني في كل مكان فـي أوربـا، وكانت نداءات باعة الجرائد لا تتوقف طوال الليل، ولـذلك فإنني لم أستطع النوم حتى الصباح. وفضلاً عن ذلك فقد كان قلبي يتمزق من أجل هؤلاء الذين يقدمون حياتهم سدى، ظنًا منهم بأنهم يخدمون الوطنية وهم لا يدركون أنهم يحـاربون الإنسانية ويقتلونها بأيديهم!..

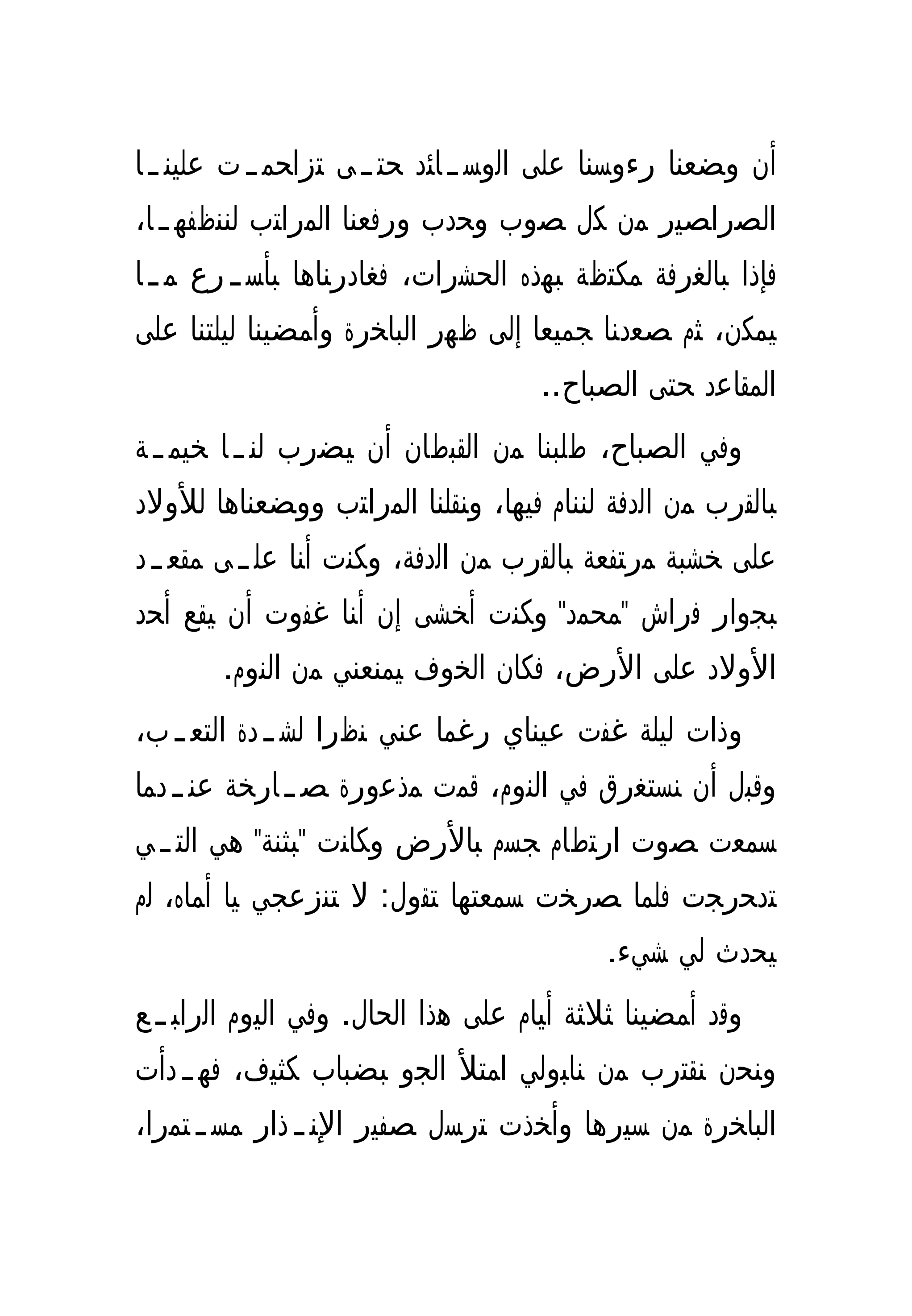
وكنا قد وصلنا ميلانو، وهي مدينة واسـعة جميلـة ذات متاحف وكنائس كبيرة، ولكننا لم نتمكن مـن زيـارة هـذه الأماكن لقلة النقود بين أيدينا، لدرجة إننا لـم نعـد نسـتخدم السيارات في تنقلاتنا، وإنما أصبحنا نركب الترام أو نسـير على الأقدام.

وكانت إقامتنا في ميلانو قصيرة جدا، فقد تركناهـا إلـى جنوة لنبحر إلى مصر؛ حيث كان الباشا قـد التقـى بأحـد

المصريين الذي تنازل لنا عن محلات على إحدى البواخر الإيطالية العتيقة، لأن البواخر كانت جميعها مزدحمة جدا وليس بها سرير واحد خال.

وهكذا بارحنا ميلانو يوم الثلاثاء ١١ أغسطس ١٩١٤ بقطار الساعة التاسعة والربع؛ حيث وصلنا إلى جنوة في الساعة الثانية عشرة والثلث، وقد ركبنا الباخرة الإيطالية ليلة وصولنا إلى جنوة، وكنت أتوق إلى العودة بأسرع ما يمكن إلى وطني، خوفًا من انزعاج والدتي – التي تركتها مريضة- إذا علمت بنشوب الحرب، وكنت أعلم أن كل صدمة نفسية عنيفة كانت تدنيها من القبر.

قامت بنا الباخرة بعد منتصف الليل بقليل، وعندما أردنا النزول إلى غرف النوم، لم يمكننا أن نبقي فيها أكثر من دقائق نظرا لقذارتها وشدة الحر فيها، فتوجه الباشا إلى القبطان يرجوه أن يستبدل لنا هذه الغرف فغيرها، ولكن لم يتيسر ذلك لعدم وجود غيرها. ولكن قوميسيري الباخرة عرضوا عليه تأجير غرفهم نظير مبلغ باهظ، فقبل من أجل راحتنا ودفع كل ما كان يمتلكه تقريبا، وصعدنا فرحين إلى تلك الغرف، وكانت ذات منافذ كثيرة يدخلها الهواء، ولكن ما



أن وضعنا رءوسنا على الوسـائد حتـى تزاحمـت علينـا الصراصير من كل صوب وحدب ورفعنا المراتب لننظفهـا، فإذا بالغرفة مكتظة بهذه الحشرات، فغادرناها بأسـرع مـا يمكن، ثم صعدنا جميعا إلى ظهر الباخرة وأمضينا ليلتنا على المقاعد حتى الصباح..

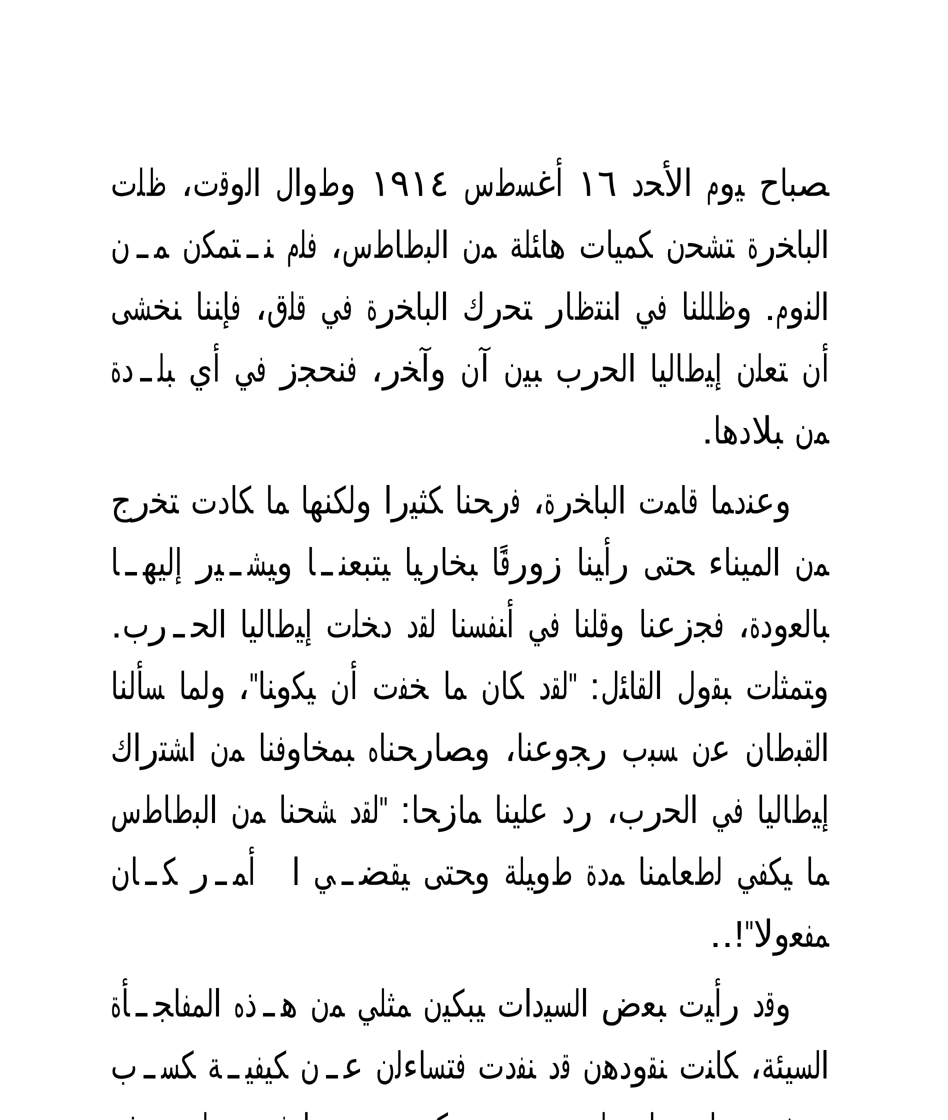
وفي الصباح، طلبنا من القبطان أن يضرب لنـا خيمـة بالقرب من الدفة لننام فيها، ونقلنا المراتب ووضعناها للأولاد على خشبة مرتفعة بالقرب من الدفة، وكنت أنا علـى مقعـد بجوار فراش "محمد" وكنت أخشى إن أنا غفوت أن يقع أحد الأولاد على الأرض، فكان الخوف يمنعني من النوم.

وذات ليلة غفت عيناي رغما عني نظرا لشـدة التعـب، وقبل أن نستغرق في النوم، قمت مذعورة صـارخة عنـدما سمعت صوت ارتطام جسم بالأرض وكانت "بثنة" هي التـي تدحرجت فلما صرخت سمعتها تقول: لا تنزعجي يا أماه، لم يحدث لي شيء.

وقد أمضينا ثلاثة أيام على هذا الحال. وفي اليوم الرابـع ونحن نقترب من نابولي امتلأ الجو بضباب كثيف، فهـدأت الباخرة من سيرها وأخذت ترسل صفير الإنـذار مسـتمرا،

بشكل مزعج، وأثناء ذلك شعرنا بهزة عنيفة أعقبها صـراخ من ركاب الدرجة الثالثة فهرولت نحو الحاجز لأبحث عـن أولادي، ظنًا مني أن المركب قد اصطدمت بغيرها، ورأيـت شبح الموت أمامي عندما نظرت إلى البحر ووجدت قطعا من الخشب وعددا من القبعات طافية على وجه الماء، ولم أشـك لحظة واحدة في أن الباخرة قد تحطم جزء منها إثر الصدمة وإنها على وشك أن تغرق، فجريت أبحث عن ولدي ليكـون بجانبي وقت الغرق. ولكن القبطان أسرع فطمأن الركاب بأن باخرتنا قد حطمت سفينة صيد. وأسـرع البحـارة بـإنزال قوارب النجاة ليبحثوا عن الغرقى. وصاروا ينشلونهم واحدا بعد الآخر فيما عدا واحد منهم ظلوا يبحثون عنه أكثر مـن ساعتين حتى يئسوا من العثور عليه، وعادت قوارب النجـاة بمن فيها وانقشع الضباب كأن لم يكن وكأنما تلك الساعة التي خيم فيها الضباب ما مرت إلا ليقع هذا الحادث وليغرق ذلك الرجل المسكين، وكأنها ساعة من ساعات القضاء التي يهبط فيها ملك الموت ليأخذ من اختاره القدر.

وقد وصلت الباخرة إلى نابولي عند المساء، وأمضينا فيها الليل، ثم وصلنا إلى كتانيا في الساعة الحادية عشـرة مـن



صباح يوم الأحد ١٦ أغسطس ١٩١٤ وطوال الوقت، ظلت الباخرة تشحن كميات هائلة من البطاطس، فلم نتمكن من النوم. وظللنا في انتظار تحرك الباخرة في قلق، فإننا نخشى أن تعلن إيطاليا الحرب بين آن وآخر، فنحجز في أي بلدة من بلادها.

وعندما قامت الباخرة، فرحنا كثيرا ولكنها ما كادت تخرج من الميناء حتى رأينا زورقًا بخاريا يتبعنا ويشير إليها بالعودة، فجزعنا وقلنا في أنفسنا لقد دخلت إيطاليا الحرب. وتمثلت بقول القائل: "لقد كان ما خفت أن يكونا"، ولما سألنا القبطان عن سبب رجوعنا، وصارحناه بمخاوفنا من اشتراك إيطاليا في الحرب، رد علينا مازحا: "لقد شحنا من البطاطس ما يكفي لطعامنا مدة طويلة وحتى يقضي ا أمر كان مفعولا"!..

وقد رأيت بعض السيدات يبكين مثلي من هذه المفاجأة السيئة، كانت نقودهن قد نفدت فتساءلن عن كيفية كسب عيشهن وليس لمعظمهن مهنة يتكسبن منها في ظروف الحرب، أما أنا فقد كنت أبكي لأن هذا التأخير يمكن أن يكون سببا في القضاء على حياة والدتي المريضة، أما بالنسبة

لأسباب الحياة، فقد كان معي من الحلي والجواهر ما يكفيني ثمنها أنا وأولادي لعدة سنين.

وكنت وأنا في عزلتي داخل الخيمة أسمع إحدى السيدات تقول: إنني أحسن الطهو، فإذا حجزت في إيطاليا، فيمكننـي أن أشتغل في بنسيون أو عند عائلة وأخرى تقول: أمـا أنـا فأحسن الحياكة والتفصيل، ويمكنني إذا احتجت أن أزاول هذه المهنة.. وثالثة تقول: أما أنا فلا أعرف حتى رتق فتق فـي ملابسي، ولا طهو أي نوع من الطعام، والقيـام بالخدمـة.. فماذا أصنع؟ ثم أضافت بعد برهـة قائلـة: أعمـل مربيـة أطفال!..

كنت أسمع كل ذلك وأسأل نفسي.. ماذا كـان يمكـن أن أفعل لو كنت في مثل ظروفهن؟

وجدتني لا أحسن الطهو، ولا أجيد الحياكة، ولا يمكننـي أن أترك ولدي وأدخل بيتًا للخدمة، وأعترف أن هـذا كـان درسا لي، لأنني بعد ذلك اجتهدت في تعلم الطهو، وتقـدمت في فن التفصيل والحياكة.

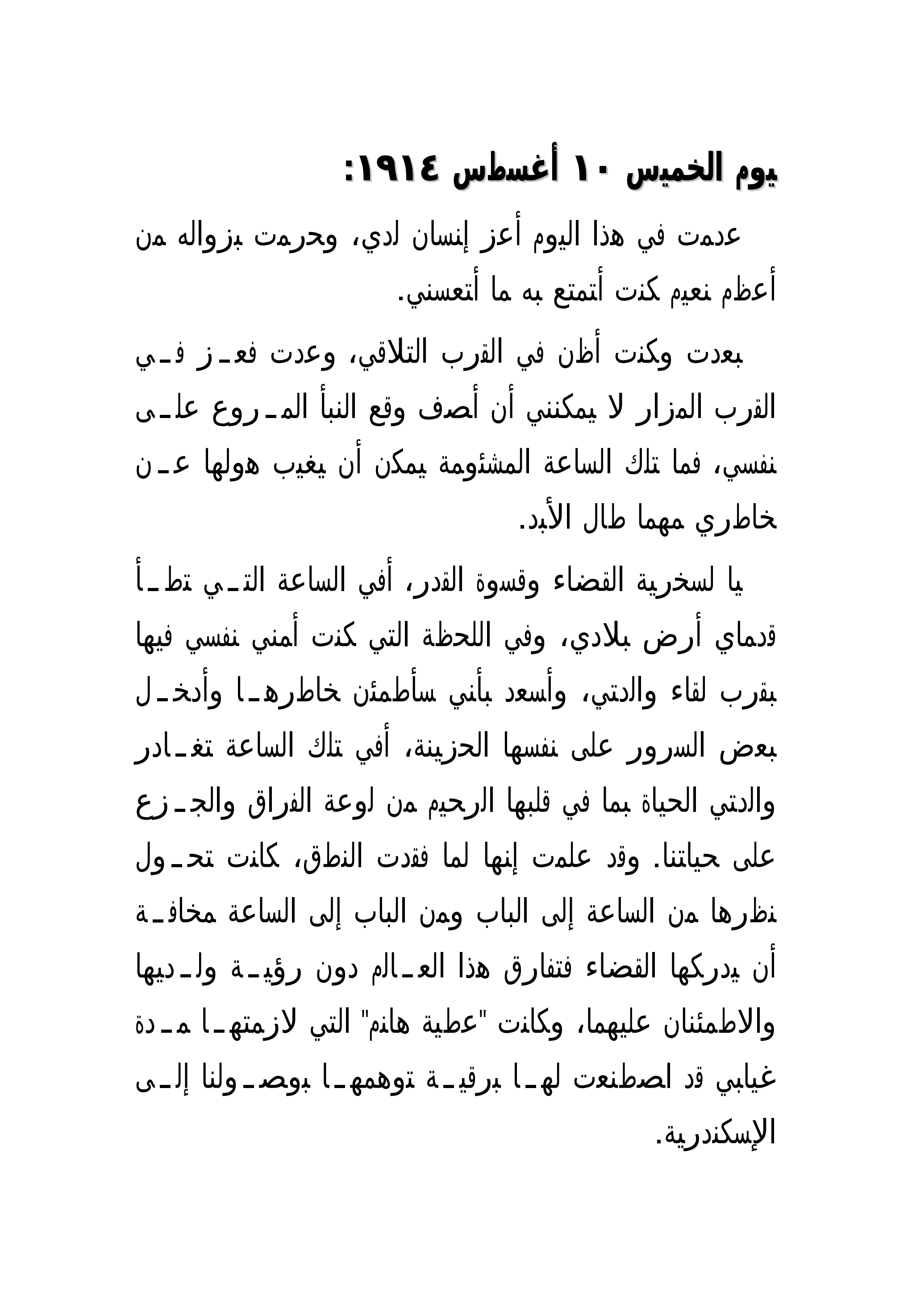
وعندما عادت الباخرة إلى ميناء كتانيا، عرفنـا السـبب، وهو أن شركة البواخر طلبت من الإسكندرية تموين الباخرة

بالفحم اللازم لرحلة العودة، فرفضت طلبها، ولذلك أعيـدت لتتزود باحتياجاتها، وبذلك اضطررنا للبقاء ليلة أخرى موعد وصولنا إلى الإسكندرية أربعا وعشرين ساعة، ولكننـا مـن ناحية أخرى كنا في منتهى الفرحة لعدم دخول إيطاليا الحرب حتى ذلك الوقت.

وقد وصلنا إلى الإسكندرية يوم ١٩ أغسطس ١٩١٤، وقد عجبنا لعدم وجود أحد في انتظارنا إلا الكاتب وفتـاة كانـت تعلم ابنتي اللغة العربية. وقد شكرتها وفـي الوقـت نفسـه عاتبتها لتكبدها مشاق السفر وهي تعلم إنني لا أستطيع البقاء في الإسكندرية أكثر من ليلة واحدة لأنني فـي لهفـة للقـاء والدتي والاطمئنان عليها.

وتوجهنا بعد ذلك إلى محطة الرمل، ولم أكد أنـزل مـن العربة حتى وجدت عامل التلغراف على الباب وسلمني برقية فتحتها بيد مرتعدة، ولما وقع نظري على سطورها، أحسست أن الأرض قد اهتزت وأن الدنيا تدور بي، فقد كان التلغراف يحمل نبأ مشئوما هو خبر وفاة والدتي المسكينة.

وإنني أنقل من مفكرتي الخاصة مـا كتبتـه عـن هـذه الفاجعة.

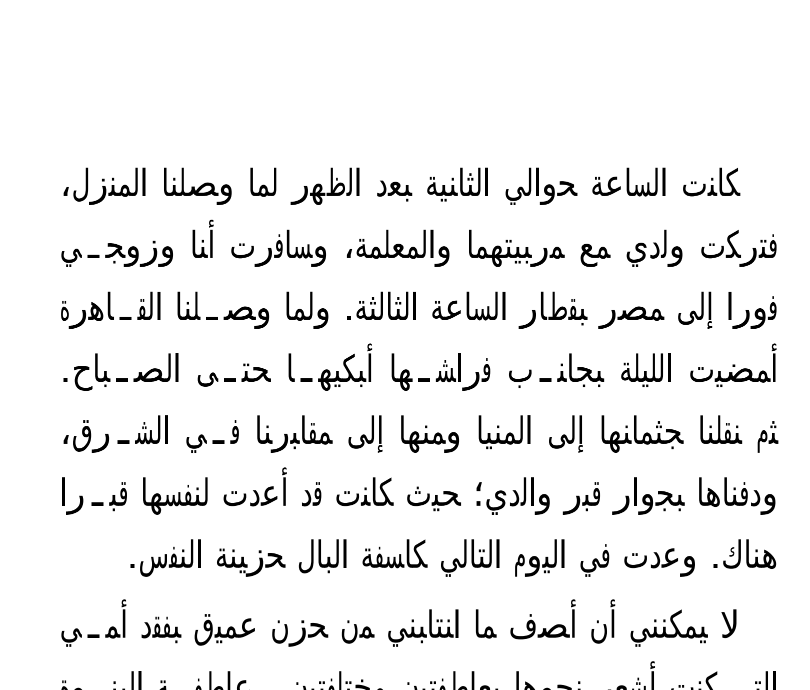


يوم الخميس ١٠ أغسطس ١٩١٤:

عدمت في هذا اليوم أعز إنسان لدي، وحرمت بزواله من أعظم نعيم كنت أتمتع به ما أتعسني.

بعدت وكنت أظن في القرب التلاقي، وعدت فعـز فـي القرب المزار لا يمكنني أن أصف وقع النبأ المـروع علـى نفسي، فما تلك الساعة المشئومة يمكن أن يغيب هولها عـن خاطري مهما طال الأبد.

يا لسخرية القضاء وقسوة القدر، أفي الساعة التـي تطـأ قدماي أرض بلادي، وفي اللحظة التي كنت أمني نفسي فيها بقرب لقاء والدتي، وأسعد بأني سأطمئن خاطرهـا وأدخـل بعض السرور على نفسها الحزينة، أفي تلك الساعة تغـادر والدتي الحياة بما في قلبها الرحيم من لوعة الفراق والجـزع على حياتنا. وقد علمت إنها لما فقدت النطق، كانت تحـول نظرها من الساعة إلى الباب ومن الباب إلى الساعة مخافـة أن يدركها القضاء فتفارق هذا العـالم دون رؤيـة ولـديها والاطمئنان عليهما، وكانت "عطية هانم" التي لازمتهـا مـدة غيابي قد اصطنعت لهـا برقيـة توهمهـا بوصـولنا إلـى الإسكندرية.



كانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر لما وصلنا المنزل، فتركت ولدي مع مربيتهما والمعلمة، وسافرت أنا وزوجي فورا إلى مصر بقطار الساعة الثالثة. ولما وصلنا القاهرة أمضيت الليلة بجانب فراشها أبكيها حتى الصباح. ثم نقلنا جثمانها إلى المنيا ومنها إلى مقابرنا في الشرق، ودفناها بجوار قبر والدي؛ حيث كانت قد أعدت لنفسها قبرا هناك. وعدت في اليوم التالي كاسفة البال حزينة النفس.

لا يمكنني أن أصف ما انتابني من حزن عميق بفقد أمي التي كنت أشعر نحوها بعاطفتين مختلفتين.. عاطفة البنوة وعاطفة الأمومة اللتين امتزجتا أثناء مرضها الطويل، وما كانت تستلزمه حالتها المحزنة من ملاطفة واهتمام مستمرين.

نعم، شعرت عند موتها بيتم وثكل في وقت واحد. شعور غريب مؤلم أضناني، وكنت أظنه أقصى ما يكون من درجات الحزن، وما كنت أحسب أن القدر يخبئ لي بين طيات غيبه نكبة أفدح وأقسى.. وفاة أخي العزيز وعمادي الوحيد، وأن أحتمل هذه المصيبة كما احتملت غيرها. وكم حمدت ا أن اختار والدتي إلى جواره قبل هذه الفاجعة الكبرى.

ماتت والدتي، وكان يخفف من حزني عليها زيادة عطف أخي علي وملاطفته لي في كل لحظة، إذ ما من يوم يمر إلا وأراني وجهه المحبوب في الصبح والمساء، وغمرني بجميع أنواع البر والحنان، وقد كان هذا من جانب أخي المحبـوب يعوضني ما فقدته، كأنه كان يحس بأنني سأحرم منه عاجلاً، فكان يفيض على من حبه وحنانه ليمتعني بأكبر قسـط مـن محبته، وقد عشت بعد ذلك ثلاث سنوات كدت أنسى خلالهـا مصابي في أمي العزيزة بفضل رعاية أخي وعنايته.

كان أخي يأتي لزياراتي إن لم يكن صباحا ففي المسـاء، وكنا نتحدث في الأمور السياسية، وكان رأيه مخالفًا لرأيـي، فقد كنت أعجب بالحلفاء، بينمـا كـان يـرى أنهـم أنـاس مستعمرون وأنهم الذين أثاروا الحرب، وكان يطلب النصـر للألمان والأتراك.

أثناء رحلتنا في أوربا.. وصلنا خبر محاولة الاعتداء على حياة الخديوي عباس في استانبول، وكان الذي حاول اغتيال الخديوي هو شاب مصري يدعى "محمود مظهـر". وكـان الخديوي في طريقه إلى الباب العالي، فانقلب الشـارع إلـى معركة حربية لأن الجندرمة (الشرطة) ظنوا أن هناك انقلابا

دبره حزب الائتلاف والحرية ضـد حكـم حـزب الاتحـاد والترقي، فسقط في الشارع أكثر من ثلاثين شخصا، وقتـل أيضا الجاني "محمود مظهر"، وأصيب جلال باشا إصـابات انتهت بقطع قدميه، فغضبت عليه زوجته وهي بنت الخديوي وكانت قد تزوجته في مصر يوم سقوط "درنة" وقال فيه أحمد شوقي بك:

فـــرح هنـــا وهنـــاك قـــام مـــآتم
مـــولى ينـــوح وتـــابع يتـــرنم

وقد أصرت على طلب الطلاق منه، ومـا زالـت حتـى طلقت.

وبعد أسبوعين تقريبا من حادث الاعتداء، أعلنت الحرب العظمى، وكشـفت الحكومـة البريطانيـة عـن كراهيتهـا للخديوي.. وأبلغت قائمقام الخديوي حسين رشدي باشا علـى لسان ناب اللورد كتشنر فـي ١٢ أغسـطس ١٩١٤ بأنهـا لا ترغب في عودته في مصر. وبدأت الحـرب والخـديوي ما زال موجودا خارج مصر، وبعد ذلـك بقليـل تـردد أن الإنجليز أعلنوا عزل الخديوي، وأن جريدة الطان الفرنسـية كتبت مقالاً افتتاحيا في هذا الموضوع قالت فيه: "إن انجلترا

قد أحسنت بعزل الخديوي لأنه لم يكـن صـديقًا لإنجلتـرا أو فرنسا".

وفي يوم ٢١ ديسمبر وصل إلى الخـديوي نبـأ إعـلان الحماية على مصر، وإنها صارت سلطنة، وأن الأمير حسين كامل عم الخديوي قد عين سلطانًا عليها، وأنـه نظـرا لأن الخديوي قد انضم إلى أعداء ملك الإنجليز، فقد حـرم مـن الرجوع إلى مصر وإن حفظت له أملاكه الخاصة.

حلم رهيب

ذات ليلة رأيت حلما مزعجا أبكاني حتى صرت أشهق في نومي، واستيقظ زوجي وسألني عن سبب بكائي، فأجبته بأني رأيت في منامي إنني سافرت إلى المنيا وقصدت بيت أخـي وكان إذ ذاك هناك، فرأيت والدتي أمام باب غرفـة نومـه تكنس الأرض وهي كئيبة كاسفة. فسألتها عن أخي وزوجته فقالت لقد افترقا. فخرجت أبحث عنهما، ودخلت غرفة بجانب الباب فوجدت زوجة أخي في ثياب سوداء وبجانبهـا أختهـا حرم حسين بك رياض مرتدية أيضا إزارها الأسود، وكأنهما تتأهبان للخروج في غضب، فحاولت منعهما، فنظرتـا إلـي نظرة حنق، فعز علي ذلك وبكيت.

تشاءمت من ذلك الحلم.. ولكن في صبيحة اليوم التالي حضر شقيقي من المنيا، وزارني وسألني عن سبب تـأخري في السفر إليه مع صديقاتي اللاتي دعاهن معي لقضاء بضعة أيام عنده، ولما انتحلت له بعض الأعذار ألح علي في السفر في أقرب وقت. وكان ذلك يوم السبت ١٥ فبرايـر ١٩١٧، فوعدته بحضورنا يوم الثلاثاء. ولكن حال مـرض إحـدى صديقاتي دون سفرنا في ذلك اليوم، كما اعترت ولدي فـي مساء اليوم نفسه حمى شديدة اضطرتني للسهر بجانبه حتـى بعد منتصف الليل.

وفي صباح اليوم الأربعاء أيقظني زوجـي مبكـرا كمـا أيقظني ليلة حلمي، فقمت منزعجة وسألته عما حل بـابني، فقال لي: "لقد أيقظتك لنسافر إلى المنيا لأن أختـك مريضـة جدا". فأجبته: "وكيف أسافر وولدي مريض؟"، قال: "إنها في مرض الموت، أو في الحقيقة إنها توفيت".. فشعرت بحـزن شديد لهذا النبأ.

وذهبت إلى غرفة ولدي لأطمئن على حالتـه. وبعـد أن أعطيت مربيته التعليمات اللازمة، خرجـت وكـان موعـد

الرحيل قد أزف، فارتديت إزاري وخرجت باكية على أختي. مشغولة على والدي.

ولما وصلت إلى المحطة، وجدت سعيد آغا في انتظارنـا وعلى وجهه علامات الحزن الشديد. ولمـا ركبنـا القطـار تركني زوجي كعادته وتوجه إلى محل الرجال، وبقى معـي سعيد آغا، فقصصت عليه الحلم الذي رأيته، فقال: "لقد تحقق حلمك.. قلت: كيف ذاك ثم هل حـدث خـلاف بـين أخـي وزوجته استدعى فراقهما؟ فسكت ولم يرد.

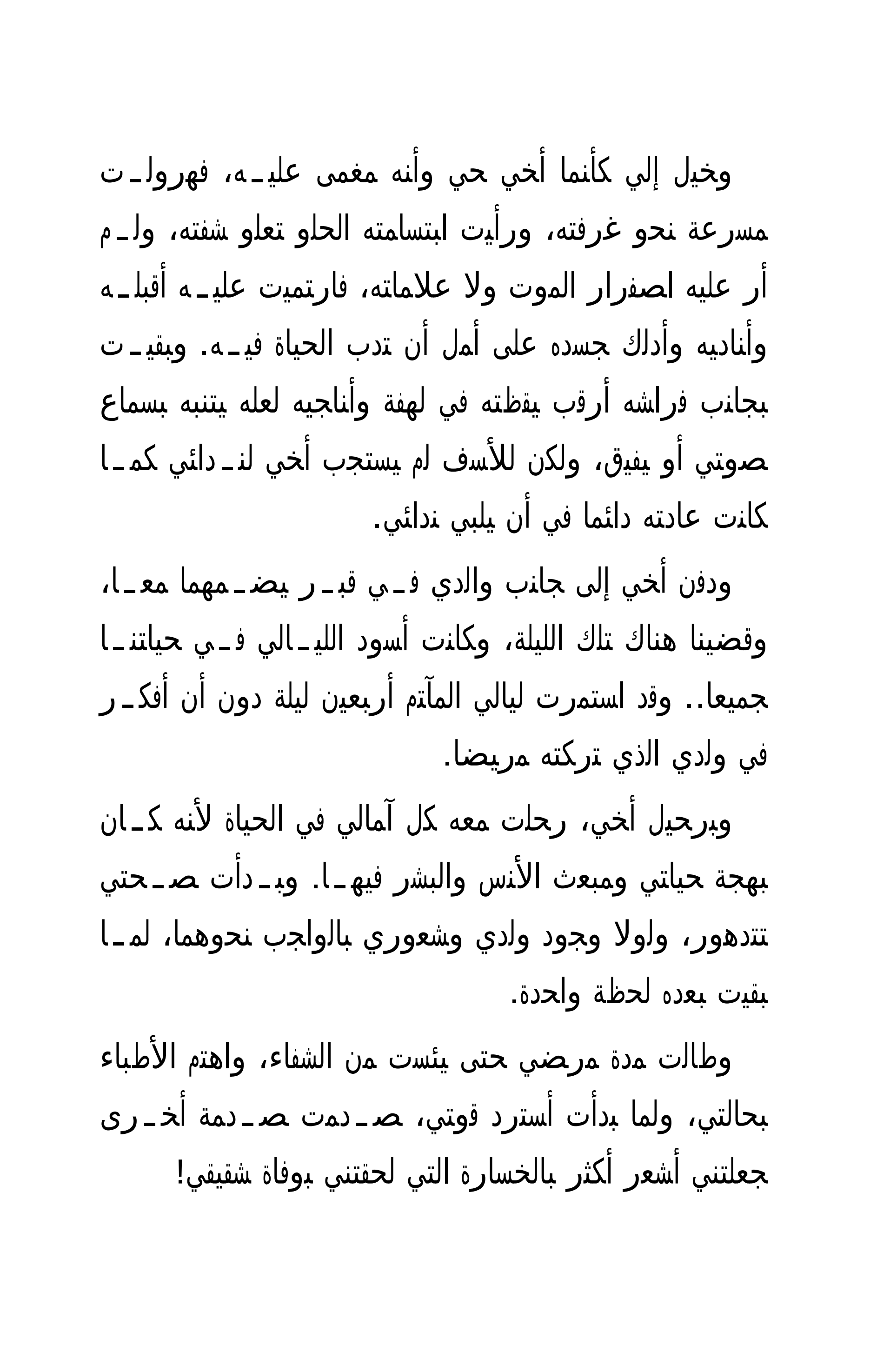
وطوال مدة السفر، كنت أتخيل أخي ينتظرنـي كعادتـه، وأفكر فيما أحدثته عنده وفاة أختي من الكدر لأنه كان يحبها ويجلها إذ كانت عطوفة علينا، وتربي ولداها محمد وإبراهيم وفؤاد سلطان عندنا، وكان شقيقي يحب "فؤاد" ويناديه بابنـه، وإن كان في مثل سنه ورضع معه، وهو الذي أعطاه اسـمه وسماه "فؤاد سلطان"، وكانت أختي هذه ثانية بنات والدي من ابنة عمه، وكانت تحب والدتي التي كانت فـي مثـل سـنها تقريبا، وكانت والدتي تبادلها الحب.

ولما وصل القطار بنا إلى محطة المنيا، لم أجد شقيقي في انتظارنا بل وجدت الآغا.. فظننـت مشـغولاً بـالمعزين..

وسألت الآغا إلى أين أذهب.. إلى بني أحمد أم إلى دار شقيقي! فأجابني: طبعا عندنا. فتبادر إلى ذهني أن أختي قد توفيت عند شقيقي.

وكم دهشت لما رأيته من علامات الحزن الشديد على وجوه الناس جميعا، ولما شاهدته من إغلاق المحلات التجارية.. وازدادت دهشتي أكثر لما سمعته من ندب النساء وعويلهن في الطرق والمنازل.

لاحظت كل ذلك ولم يخطر ببالي قط أن سوءا قد أصاب أخي، وأن كل هذا من أجل وفاته، ولما وصلت المنزل دهشت من كثرة الزحام حتى صار من الصعب علي أن أشق لنفسي طريقًا رغم أنهم كانوا يفسحون لي الطريق. وكان الناس ينظرون إلي ذاهلين.. وقد علمت فيما بعد أنهم حسبوني قد فقدت عقلي من هول الصدمة لأنني لم أبك ولم تبدو علي إلا علامات الاندهاش والاستغراب. وقابلتني زوجة أخي قائلة: "انظري ما أصابنا". فقلت لها: "هل توفيت أختي عندكم؟" فقالت: "إن مصيبتنا في أخيك"، فأحسست كأنها طعنتني بخنجر وصل إلى أعماق قلبي.



وخيل إلي كأنما أخي حي وأنه مغمى عليـه، فهرولـت مسرعة نحو غرفته، ورأيت ابتسامته الحلو تعلو شفته، ولـم أر عليه اصفرار الموت ولا علاماته، فارتميت عليـه أقبلـه وأناديه وأدلك جسده على أمل أن تدب الحياة فيـه. وبقيـت بجانب فراشه أرقب يقظته في لهفة وأناجيه لعله يتنبه بسماع صوتي أو يفيق، ولكن للأسف لم يستجب أخي لنـدائي كمـا كانت عادته دائما في أن يلبي ندائي.

ودفن أخي إلى جانب والدي فـي قبـر يضـمهما معـا، وقضينا هناك تلك الليلة، وكانت أسود الليـالي فـي حياتنـا جميعا.. وقد استمرت ليالي المآتم أربعين ليلة دون أن أفكـر في ولدي الذي تركته مريضا.

وبرحيل أخي، رحلت معه كل آمالي في الحياة لأنه كـان بهجة حياتي ومبعث الأنس والبشر فيهـا. وبـدأت صـحتي تتدهور، ولولا وجود ولدي وشعوري بالواجب نحوهما، لمـا بقيت بعده لحظة واحدة.

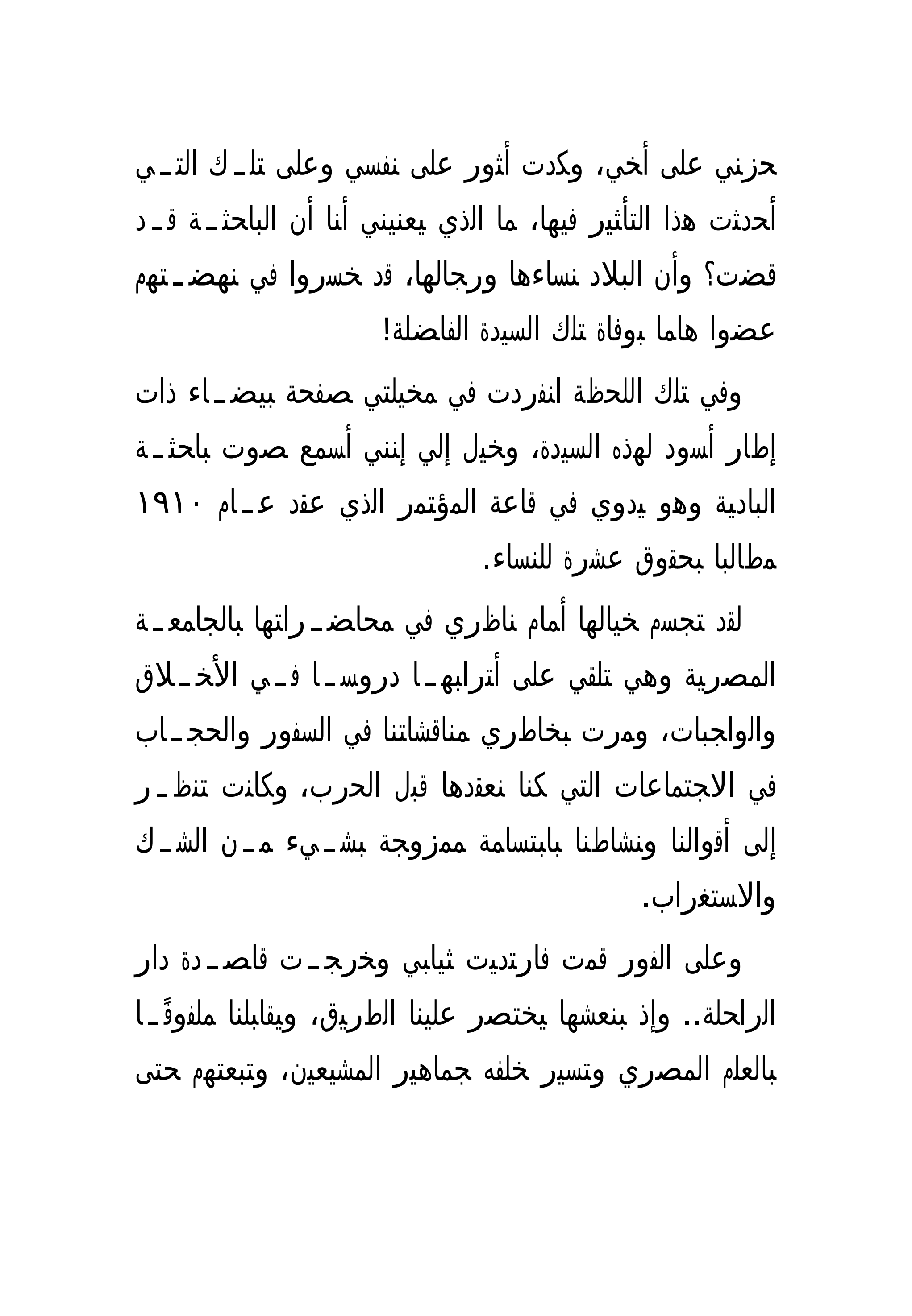
وطالت مدة مرضي حتى يئست من الشفاء، واهتم الأطباء بحالتي، ولما بدأت أسترد قوتي، صـدمت صـدمة أخـرى جعلتني أشعر أكثر بالخسارة التي لحقتني بوفاة شقيقي!

-١٤-

أريد قبل أن أتحدث عن الحياة السياسية في مصـر فـي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وما ترتب علـى ذلك من أحداث أدت إلى قيام ثورة ١٩١٩.. أريد قبل ذلـك أن أتحدث عن واقعة حدثت في تلك الأيام، وكانت ذات أثـر ومدلول على نفسيتي وتفكيري.

فقد حدث في صبيحة يوم ٢١ أكتوبر ١٩١٨ أن جـاءتني إحدى المربيات في ثياب سوداء تعودت أن تزورنـي بهـا مجاملة لي في حزني على شقيقي وقـد بـادرتني بصـوت متهدج قائلة: لقد ماتت الباحثة!..

وشعرت بهزة حزن في نفسي لهذا الخبر.. وما كنت أظن أن شيئًا في الحياة بعد فقدان أخي يستطيع أن يهز شـعوري هذه الهزة العنيفة، وقد عجبت لذلك إذ كنت قد قطعـت كـل صلة بالحياة، وحسبت أنه لم يبق في شعوري متسـع لغيـر


حزني على أخي، وكدت أثور على نفسي وعلى تلـك التـي أحدثت هذا التأثير فيها، ما الذي يعنيني أنا أن الباحثـة قـد قضت؟ وأن البلاد نساءها ورجالها، قد خسروا في نهضـتهم عضوا هاما بوفاة تلك السيدة الفاضلة!

وفي تلك اللحظة انفردت في مخيلتي صفحة بيضـاء ذات إطار أسود لهذه السيدة، وخيل إلي إنني أسمع صوت باحثـة البادية وهو يدوي في قاعة المؤتمر الذي عقد عـام ١٩١٠ مطالبا بحقوق عشرة للنساء.

لقد تجسم خيالها أمام ناظري في محاضـراتها بالجامعـة المصرية وهي تلقي على أترابهـا دروسـا فـي الأخـلاق والواجبات، ومرت بخاطري مناقشاتنا في السفور والحجـاب في الاجتماعات التي كنا نعقدها قبل الحرب، وكانت تنظـر إلى أقوالنا ونشاطنا بابتسامة ممزوجة بشـيء مـن الشـك والاستغراب.

وعلى الفور قمت فارتديت ثيابي وخرجـت قاصـدة دار الراحلة.. وإذ بنعشها يختصر علينا الطريق، ويقابلنا ملفوفًـا بالعلم المصري وتسير خلفه جماهير المشيعين، وتبعتهم حتى

مقرها الأخير؛ حيث واروا التراب ذلـك الجسـم النشـيط، وأغلقوا القبر على شعلة الذكاء المتقدة.

ولما عدت إلى منزلي واختليـت بـأحزاني، شـعرت أن الأموات أكثر تمسكًا بحقوقهم منا، فقد ألقوا على عواتقنا تراثًا مقدسا يطالبوننا باحترامه واستغلاله في كل فرصة، لذلك لمـا رأينا نحن النساء أن الرجال قد سبقونا لتكريم ذكرى فقيدتنا، لم أستطع إلا أن أتجرد من أنانية أحزاني، وأطالب زميلاتي بالواجب عليهن نحو "الباحثة" فقمنا بدورنا بإقامة حفل تـأبين لها بالجامعة المصرية الأولى. وأرادت السـيدات أن تكـون تحت رياستي، فاعتليت المنبر أول مرة في حياتي.

وبعد ذلك كنت أبحث عنها في الأيـام العصـبية التـي اجتزناها إبان الثورة وبعدها، وكنت أناديها في نفسي، فكـان لا يتردد صوتها إلا في ضميري.

ما بعد الحرب:

انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، وأعلن الرئيس ولسون مبادئه الأربعة عشر التي كانت تعطي الأمـم حـق تقرير مصيرها واختيار الحاكم الذي ترضاه، وظلت مصـر تترقب تطبيق هذه المبادئ عليها وبخاصة إنها قد سـاعدت

الحلفاء مساعدات قيمة جدا كان لها أثر كبيـر فـي نتـائج الحرب، وقد اعترف الإنجليز أنفسهم بقيمة هذه المساعدات. ولما رأت مصر أنه لا يبدو أن إنجلترا ستفي بوعودهـا وأن الحالة سوف تبقى على ما كانت عليهن تيقظ شعور رجالهـا وبدءوا يتهيئون لنبذ مجال الكلام وخـوض مجـال العمـل. وبدؤوا ينبذون السياسة التي كانت مقصورة علـى تحريـر الاحتجاجات وتشكل الوفد المصري ليتـولى القيـام بعمـل إيجابي.

ويبدو أن التفكير في هذا الموضوع، وفي وجوب وضـع حد لهذه السياسة والخروج من عالم الاحتجاجات إلى العمـل الإيجابي، كان قد استولى على اهتمام كثير مـن رجـالات مصر. ودار الحديث بشأنه بين الأمير عمر طوسون وسـعد زغلول باشا وعدلي يكن باشا وعلي شعراوي باشا ومحمـد محمود باشا وحمد الباسل باشا وغيرهم من قادة الرأي فـي مصر. وقد كان الأمير عمر طوسون في طليعة المشـتغلين بهذه القضية لدرجة أن سعد باشا كان يفكر في إسناد رئاسـة الوفد إليه، ولكن الأمير لم يتمكن من الاشتراك في هذا العمل بعد أن صدرت إليه أوامر القصر بأن يعود إلى الإسـكندرية

وألا يتدخل في السياسة، وكان ذلك نتيجـة إيعـاز السـلطة الإنجليزية للقصر.

ولما كانت الجمعية التشريعية التي شكلت بمقتضى القانون الصادر في أول يوليو ١٩١٣ ما زالت قائمة حتـى انتهـاء الحرب العالمية الأولى، فقد اتجهت النية إلى اختيار أعضـاء الوفد المصري من بين أعضائها، أو اختيار هيئـة يزكيهـا هؤلاء الأعضاء وتخويل هذه الهيئة صفة الوكالـة العامـة، فاستقل سعد باشا وأصحابه بتأليف الوفد. وكان مما شجع هذه الفكرة ما عرضه علي باشا شعراوي من استعداده للقيام بكل ما يحتاجه سفر الوفد من نفقات لغاية أربعين ألـف جنيـه، ووعد بدفع الباقي إذا لم تقـم الأمـة بـدفع المـال الـلازم أو قصرت في دفع جانب منه.

وقد تكون الوفد من حضرات أصحاب السعادة والعـزة: سعد زغلول باشا –علي شعراوي باشا- عبد العزيز فهمـي بك- عبد اللطيف المكباتي بك- محمد محمود باشا- أحمـد لطفي السيد بك- إسماعيل صدقي باشا- سينوت حنا بـك- حمد الباسل باشا - جورج خياط بك - محمد أبـو النصـر بك- مصطفى النحاس بك- الدكتور حافظ عفيفي بك.

وقد بقى الوفد المصري بعد تشكيله، يرقب إعلان الهدنـة ليبدأ كفاحه بإبلاغ بريطانيا مطالب مصر. فلما أعلنت الهدنة يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨، بادر سعد وأصحابه إلى طلب مقابلة السير ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني، فحدد لهـم موعـدا يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر، في الساعة الحادية عشر صـباحا؛ حيث التقى به سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبـد العزيز فهمي بك.

وقد بدأ السير ونجت هذا اللقاء التاريخي بقوله: إن الصلح اقترب موعده. وبدأ العالم يفيق بعد غمرات الحـرب التـي شغلته زمنًا طويلاً، والمصريون هم أقل الأمـم تألمـا مـن أضرار الحرب، وهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالاً طائلة، وعليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التي كانت سببا في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم.

ورد عليه سعد زغلول باشا بقوله: ما تقـول إن إنجلتـرا فعلت خيرا لمصر، فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها مـع الشكر، ولكنني أظن أنه لا محل لـدوام الأحكـام العرفيـة ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات، وأن الهدنة وقد عقدت فإن المصريين لهم حق في أن يكونوا قلقين على مستقبلهم.

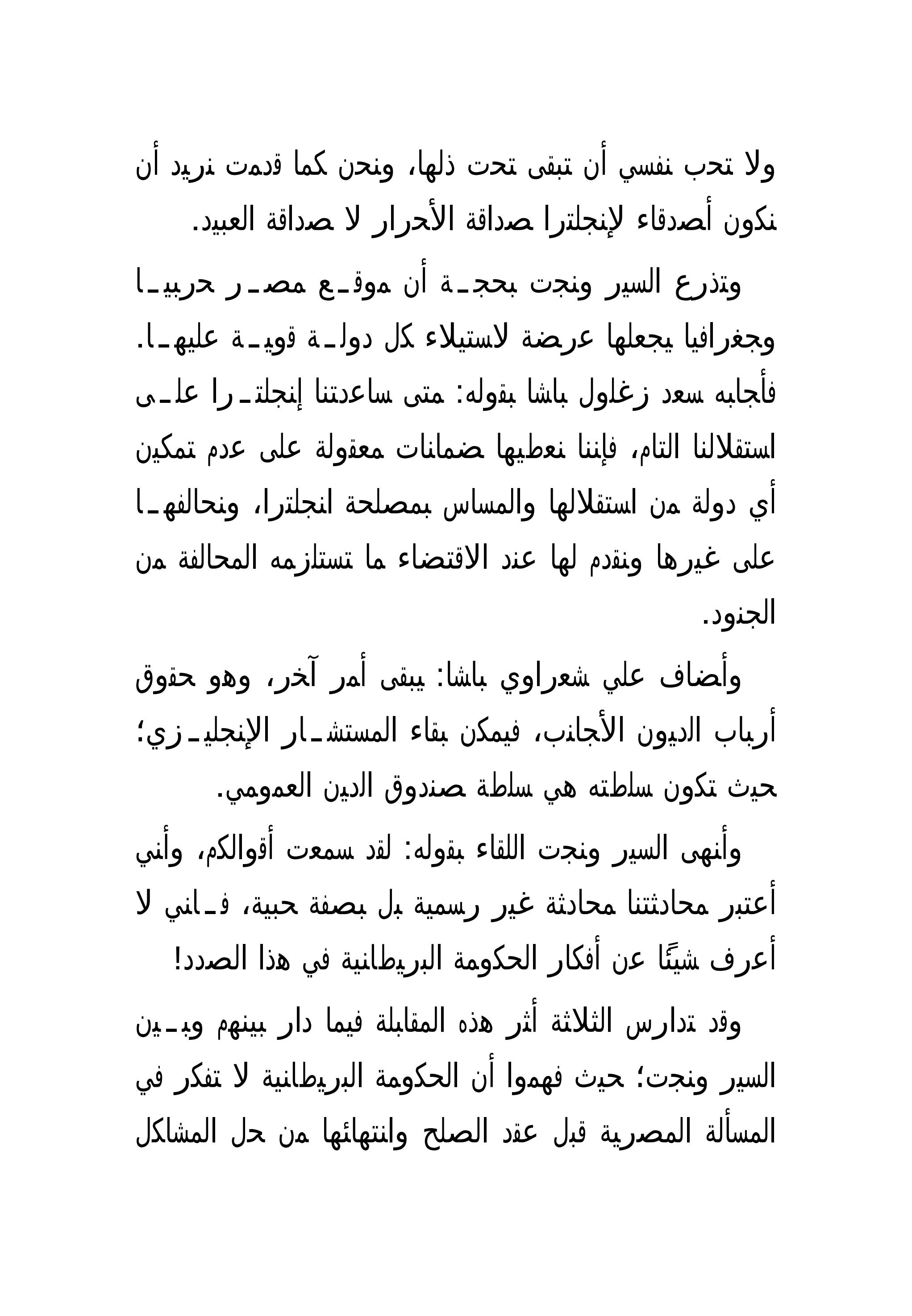
وقال السير ونجت: يجب ألا تتعجلوا وعليكم أن تكونوا متبصرين في سلوككم، فإن المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة.

ورد عليه سعد زغلول باشا: لا أستطيع الموافقة على ذلك.

وتدخل علي شعراوي باشا قائلاً: إننا في طلبنا الاستقلال، لسنا مبالغين فيه، فإن أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثًا.

فاعترض السير ونجت بأن نسبة الأميين في مصر كبيرة، وهنا رد عليه عبد العزيز فهمي بك بأن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم، لأن الذين يقودون الأمم في كل البلاد أفراد قلائل، وإن شروط الاستقلال التام متوفرة في مصر.

وقال السير ونجت: لقد كانت مصر عبدا لتركيا، أتفكون أحط منها لو كانت عبدا لإنجلترا؟! وهنا تصدى له علي شعراوي باشا قائلاً: قد أكون عبدا لرجل من الجعليين، وقد أكون عبدا للسير ونجت الذي لا مناسبة بينه وبين الجعلي، ومع ذلك لا تسرني كلتا الحالتين، لأن العبودية لا أرضاها


ولا تحب نفسي أن تبقى تحت ذلها، ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد.

وتذرع السير ونجت بحجـة أن موقـع مصـر حربيـا وجغرافيا يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولـة قويـة عليهـا. فأجابه سعد زغلول باشا بقوله: متى ساعدتنا إنجلتـرا علـى استقلالنا التام، فإننا نعطيها ضمانات معقولة على عدم تمكين أي دولة من استقلالها والمساس بمصلحة انجلترا، ونحالفهـا على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود.

وأضاف علي شعراوي باشا: يبقى أمر آخر، وهو حقوق أرباب الديون الأجانب، فيمكن بقاء المستشـار الإنجليـزي؛ حيث تكون سلطته هي سلطة صندوق الدين العمومي.

وأنهى السير ونجت اللقاء بقوله: لقد سمعت أقوالكم، وأني أعتبر محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة حبية، فـاني لا أعرف شيئًا عن أفكار الحكومة البريطانية في هذا الصدد!

وقد تدارس الثلاثة أثر هذه المقابلة فيما دار بينهم وبـين السير ونجت؛ حيث فهموا أن الحكومة البريطانية لا تفكر في المسألة المصرية قبل عقد الصلح وانتهائها من حل المشاكل

المترتبة على الحرب، وفهموا أيضا إنها حتى لو فكرت فـي ذلك، فليس في نيتها إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال البلاد لما بدا من دهشة على السير ونجت عندما تناولوا معه الكلام عن الاستقلال.

ولما كانوا قد عرفوا من خلال حديثهم مع السير ونجـت أنه لا يعرف بعد رأي حكومته في المسألة المصـرية، فقـد انتهزوها فرصة ملائمة لطلب السفر إلى لندن للتباحث مـع أولي الأمر هناك في المسألة وإطلاع الرأي العام عليها، وقد كتب سعد وأصحابه إلى قيادة الجيش الإنجليزي مستأذنين في السفر ومطالبين بجوازات السفر في أقرب فرصة. واتسعت حلقة المكاتبات بينهم وبين القيادة البريطانية ودار المنـدوب السامي.

وكانت وزارة حسين رشدي باشا في الحكم وقتئذ، فطلبت التصريح لأعضاء الوفد بالسفر إلى مؤتمر الصلح، فلم يوافق الإنجليز، ورأت الوزارات أن تستقيل لهذا السـبب. وظـل الوفد يطالب بالسماح له بالسفر دون جدوى، وعـزز طلبـه وتضامن معه جميع الوزراء السابقين وكل أصحاب المكانـة

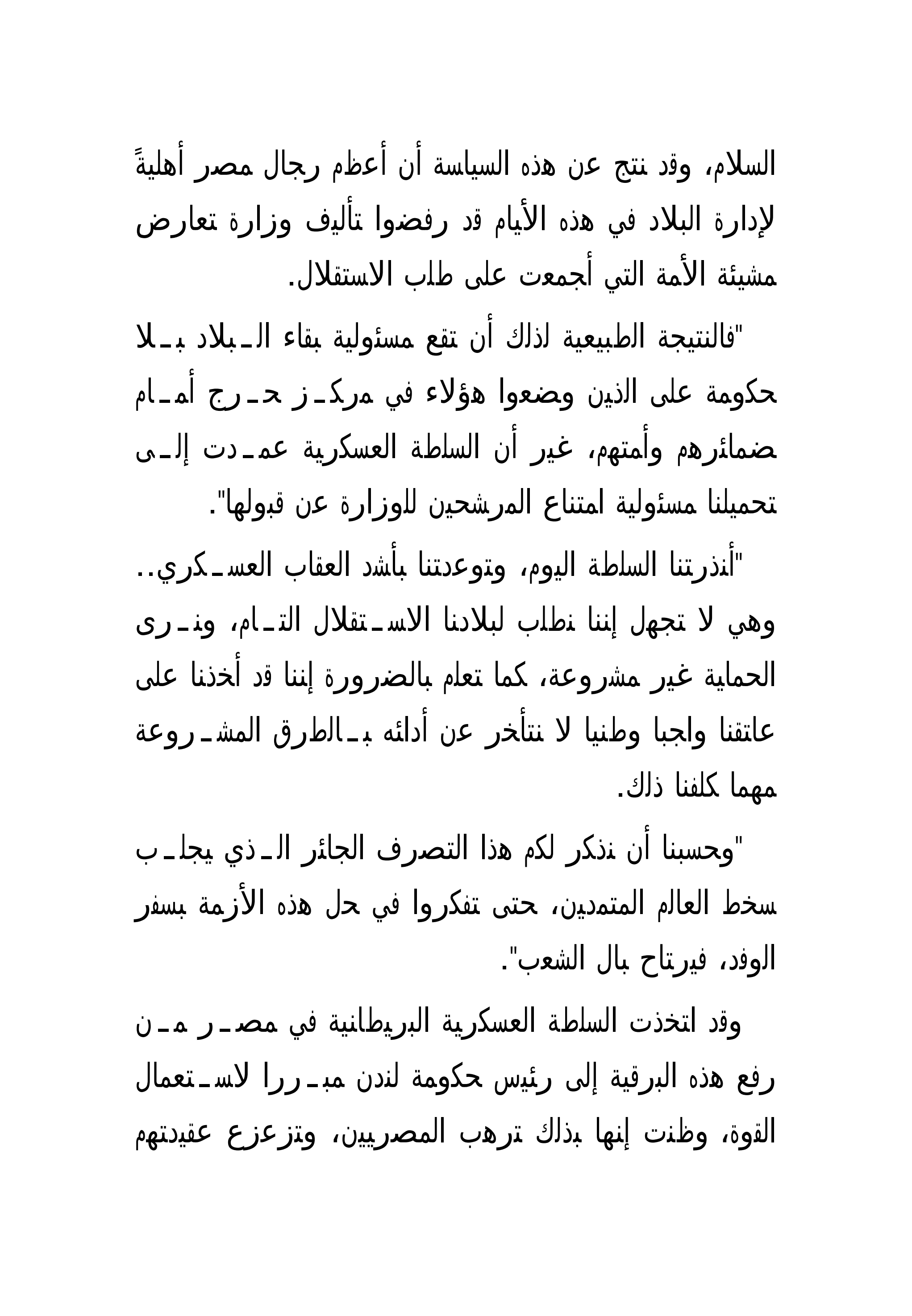
والكفاية في البلاد، وأضربوا عن الاشتراك في تـأليف أيـة وزارة.. وبقيت البلاد بلا حكومة فترة من الزمن..

اعتقال زعماء الوفد

قلنا إن مصر كانت خاضعة للأحكـام العسـكرية وإزاء الموقف القائم، فقد استدعى القائد العام للقـوات البريطانيـة رجال الوفد المصري يوم ٦ مارس ١٩١٩، وألقى عليهم هذا البلاغ: "علمت أنكم تضعون مسألة الحماية موضع المناقشة، وأنكم تقيمون العقبات في سير الحكومـة المصـرية تحـت الحماية بالسعي في تأليف الوزارة؛ وحيث إن الـبلاد تحـت الأحكام العسكرية، لهذا يلزمني أن أنذركم أن أي عمل منكم يرمي إلى عرقلة سير الإدارة يجعلكـم عرضـة للمعاملـة الشديدة بموجب هذه الأحكام"!

وبعد أن أتم تلاوة هذا البلاغ، حاول سعد زغلـول باشـا مناقشته فصاح: "لا مناقشة".. وتركهم وانصرف.

وعندما انصرفوا من عنده، كتبـوا برقيـة إلـى رئـيس الحكومة البريطانية، قالوا إن وزارة رشدي باشا لما علقـت سحب استقالتها على سفر الوفد، قبلت استقالتها نهائيا، وليس لذلك معنى إلا الحيلولة بيننا وبين عرض قضيتنا على مؤتمر


السلام، وقد نتج عن هذه السياسة أن أعظم رجال مصر أهليةً لإدارة البلاد في هذه الأيام قد رفضوا تأليف وزارة تعارض مشيئة الأمة التي أجمعت على طلب الاستقلال.

"فالنتيجة الطبيعية لذلك أن تقع مسئولية بقاء البلاد بلا حكومة على الذين وضعوا هؤلاء في مركز حرج أمام ضمائرهم وأمتهم، غير أن السلطة العسكرية عمدت إلى تحميلنا مسئولية امتناع المرشحين للوزارة عن قبولها".

"أنذرتنا السلطة اليوم، وتوعدتنا بأشد العقاب العسكري.. وهي لا تجهل إننا نطلب لبلادنا الاستقلال التام، ونرى الحماية غير مشروعة، كما تعلم بالضرورة إننا قد أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن أدائه بالطرق المشروعة مهما كلفنا ذلك.

"وحسبنا أن نذكر لكم هذا التصرف الجائر الذي يجلب سخط العالم المتمدين، حتى تفكروا في حل هذه الأزمة بسفر الوفد، فيرتاح بال الشعب".

وقد اتخذت السلطة العسكرية البريطانية في مصر من رفع هذه البرقية إلى رئيس حكومة لندن مبررا لاستعمال القوة، وظنت إنها بذلك ترهب المصريين، وتزعزع عقيدتهم

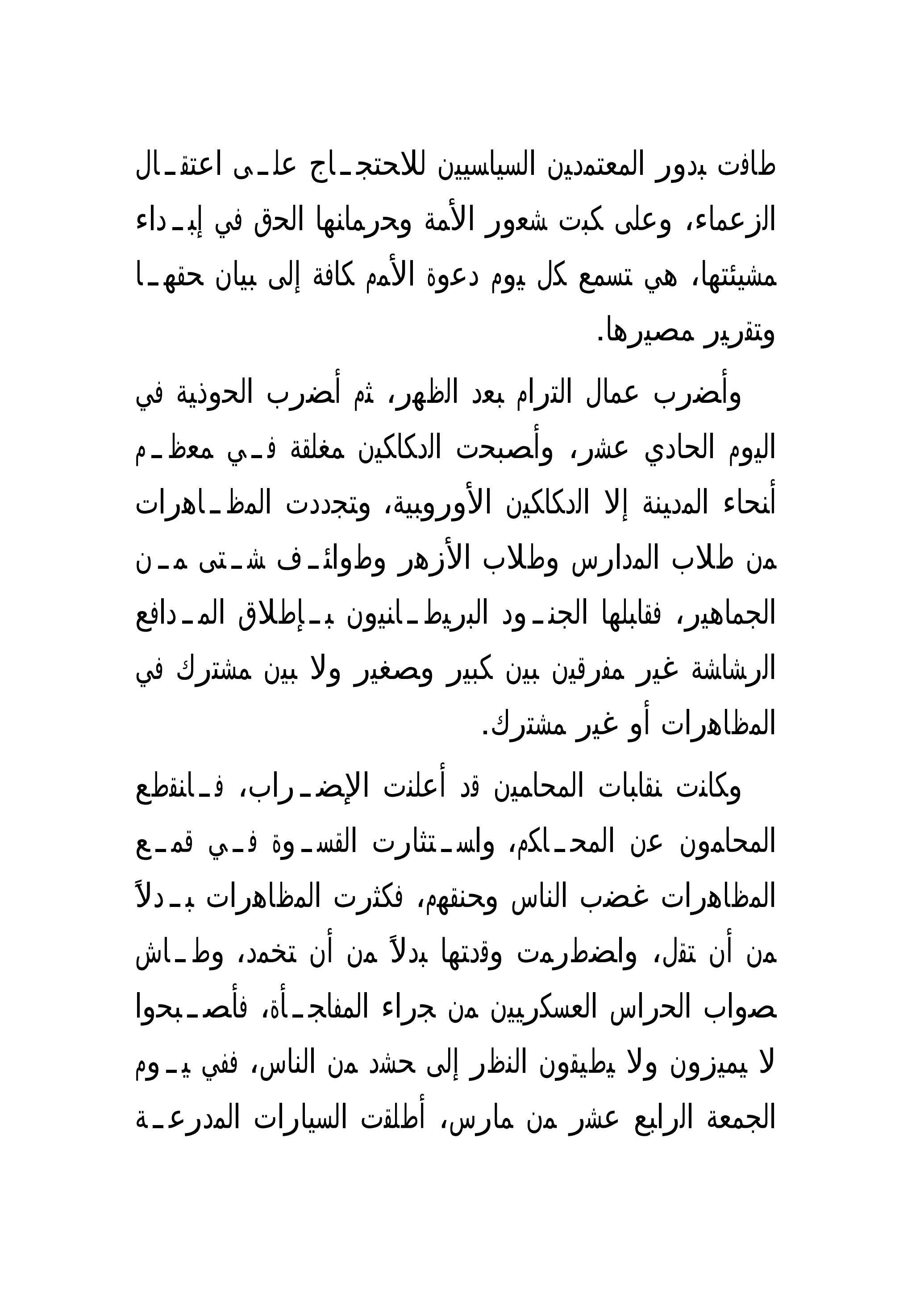
في عدالة قضيتهم، وفي يوم ٨ مارس ١٩١٩ تم اعتقال سعد زغلول باشا ومحمد محمـود باشـا وحمـد الباسـل باشـا وإسماعيل صدقي باشا، ونفوا إلى جزيرة مالطة.

ولقد شبت الثورة بعد نفي سعد باشا وأصحابه إلى مالطة، وحل محله زوجي الذي كان وكيلاً للوفد، وقامـت حركـة السيدات في ذلك الحين مباشرة، وكنت أنا وزوجـي نعمـل لخدمة وطننا لا لخدمة الأشخاص، وكان زوجي يطلعني على ما يحدث وما ينتظر أن يحدث، ليمكنني من ملء الفراغ الذي يحدثه نفيه أو سجنه، وكان هو الذي نصحني بالاتصال بحرم سعد باشا وحرم محمد محمود باشا وبعائلات أعضاء الوفد.

وكان نبأ اعتقال سعد وأصحابه قد سرى بطيئًا ومتناقضا في اليوم الأول، لأن القيادة العسكرية حظرت على الصحف نشره أو التلميح إليه.

ولكن أعضاء الوفد عرفوا النبأ في يومه، ثم علم به طلبة المدارس العليا وغيرهم في اليوم التالي، وسرى في أنحـاء القاهرة ومنها إلى الأقاليم.

وقد أضرب طلاب المدارس العليا في صباح اليوم العاشر من شهر مارس، وخرجوا من مدارسهم في مظاهرة كبيـرة



طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجـاج علـى اعتقـال الزعماء، وعلى كبت شعور الأمة وحرمانها الحق في إبـداء مشيئتها، هي تسمع كل يوم دعوة الأمم كافة إلى بيان حقهـا وتقرير مصيرها.

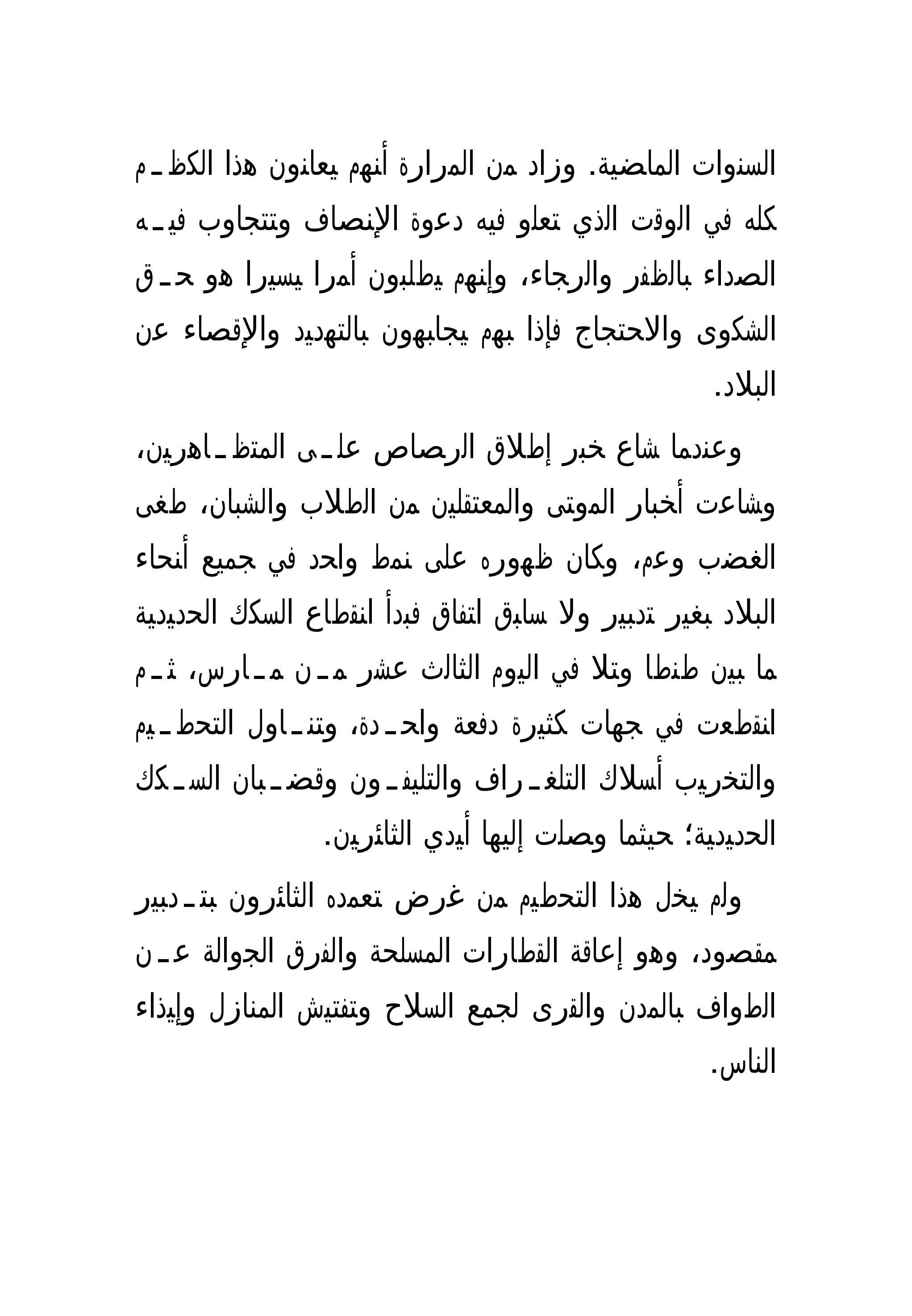
وأضرب عمال الترام بعد الظهر، ثم أضرب الحوذية في اليوم الحادي عشر، وأصبحت الدكاكين مغلقة فـي معظـم أنحاء المدينة إلا الدكاكين الأوروبية، وتجددت المظـاهرات من طلاب المدارس وطلاب الأزهر وطوائـف شـتى مـن الجماهير، فقابلها الجنـود البريطـانيون بـإطلاق المـدافع الرشاشة غير مفرقين بين كبير وصغير ولا بين مشترك في المظاهرات أو غير مشترك.

وكانت نقابات المحامين قد أعلنت الإضـراب، فـانقطع المحامون عن المحـاكم، واسـتثارت القسـوة فـي قمـع المظاهرات غضب الناس وحنقهم، فكثرت المظاهرات بـدلاً من أن تقل، واضطرمت وقدتها بدلاً من أن تخمد، وطـاش صواب الحراس العسكريين من جراء المفاجـأة، فأصـبحوا لا يميزون ولا يطيقون النظر إلى حشد من الناس، ففي يـوم الجمعة الرابع عشر من مارس، أطلقت السيارات المدرعـة

نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسيني، فقتلت منهم بضعة عشر رجلاً وجرحت خلقًا كثيرين ولم يكونوا في مظاهرة ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة. وتعددت المظاهرات في مدن القطر، فقوبلت بمثل ما قوبلت به في القاهرة، وشاع خبر القتل وإطلاق الرصاص في أنحاء الأقاليم، فانفجر السخط الذي طال كظمه في الصدور، وانفجرت الثورة في كل مكان.

على أنه من الخطأ أن يقال إن المظاهرات كانت هي سبب الثورة الوحيد، أو إن الثورة ما كانت لتنفجر في القطر لولا مظاهرات العاصمة، فالمظاهرات كانت مثل الشرر الذي يتطاير في البداية من فوهة بركان يغلي على وشك الانفجار، فمن شهد تلك الثورة الجارفة التي اندفعت اندفاعا يدل على عمق مكامنها وتأجج وقودها، أيقن أنها قوة لا تحبس طويلاً، وأنها هي سبب المظاهرات وليست نتيجة المظاهرات.

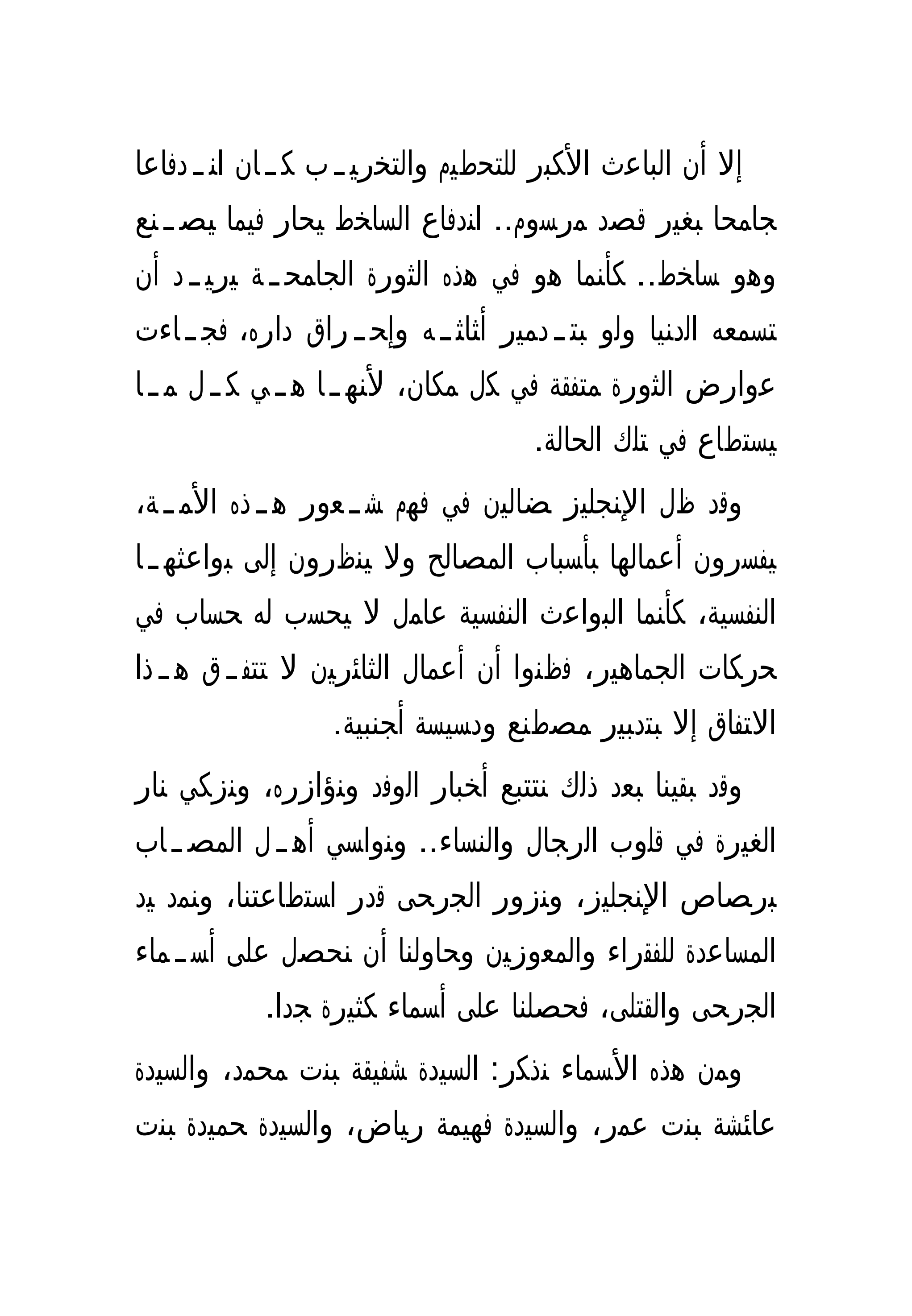
فقد صبر الناس زمنًا على مظالم الحرب وآثارها، ثم انتظروا الفرج بعد الهدنة، فإذا بهم يتجرعون مرارة الخيبة ويوجسون من مخاوف المستقبل فوق ما أوجسوا من مخاوف



السنوات الماضية. وزاد من المرارة أنهم يعانون هذا الكظم كله في الوقت الذي تعلو فيه دعوة الإنصاف وتتجاوب فيه الصداء بالظفر والرجاء، وإنهم يطلبون أمرا يسيرا هو حق الشكوى والاحتجاج فإذا بهم يجابهون بالتهديد والإقصاء عن البلاد.

وعندما شاع خبر إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وشاعت أخبار الموتى والمعتقلين من الطلاب والشبان، طغى الغضب وعم، وكان ظهوره على نمط واحد في جميع أنحاء البلاد بغير تدبير ولا سابق اتفاق فبدأ انقطاع السكك الحديدية ما بين طنطا وتلا في اليوم الثالث عشر من مارس، ثم انقطعت في جهات كثيرة دفعة واحدة، وتناول التحطيم والتخريب أسلاك التلغراف والتليفون وقضبان السكك الحديدية؛ حيثما وصلت إليها أيدي الثائرين.

ولم يخل هذا التحطيم من غرض تعمده الثائرون بتدبير مقصود، وهو إعاقة القطارات المسلحة والفرق الجوالة عن الطواف بالمدن والقرى لجمع السلاح وتفتيش المنازل وإيذاء الناس.

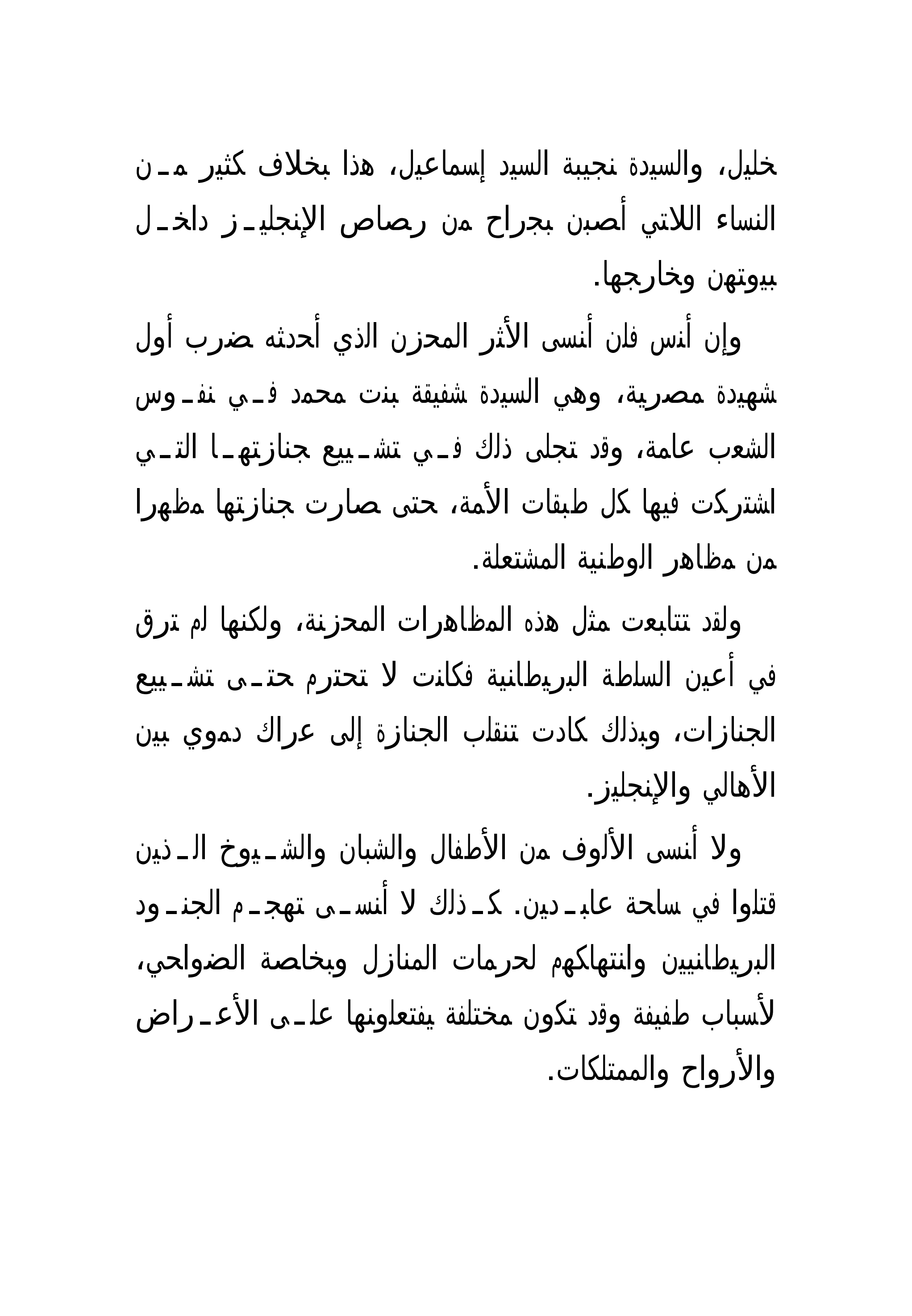


إلا أن الباعث الأكبر للتحطيم والتخريب كان اندفاعا جامحا بغير قصد مرسوم.. اندفاع الساخط يحار فيما يصنع وهو ساخط.. كأنما هو في هذه الثورة الجامحة يريد أن تسمعه الدنيا ولو بتدمير أثاثه وإحراق داره، فجاءت عوارض الثورة متفقة في كل مكان، لأنها هي كل ما يستطاع في تلك الحالة.

وقد ظل الإنجليز ضالين في فهم شعور هذه الأمة، يفسرون أعمالها بأسباب المصالح ولا ينظرون إلى بواعثها النفسية، كأنما البواعث النفسية عامل لا يحسب له حساب في حركات الجماهير، فظنوا أن أعمال الثائرين لا تتفق هذا الاتفاق إلا بتدبير مصطنع ودسيسة أجنبية.

وقد بقينا بعد ذلك نتتبع أخبار الوفد ونؤازره، ونزكي نار الغيرة في قلوب الرجال والنساء.. ونواسي أهل المصاب برصاص الإنجليز، ونزور الجرحى قدر استطاعتنا، ونمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين وحاولنا أن نحصل على أسماء الجرحى والقتلى، فحصلنا على أسماء كثيرة جدا.

ومن هذه الأسماء نذكر: السيدة شفيقة بنت محمد، والسيدة عائشة بنت عمر، والسيدة فهيمة رياض، والسيدة حميدة بنت



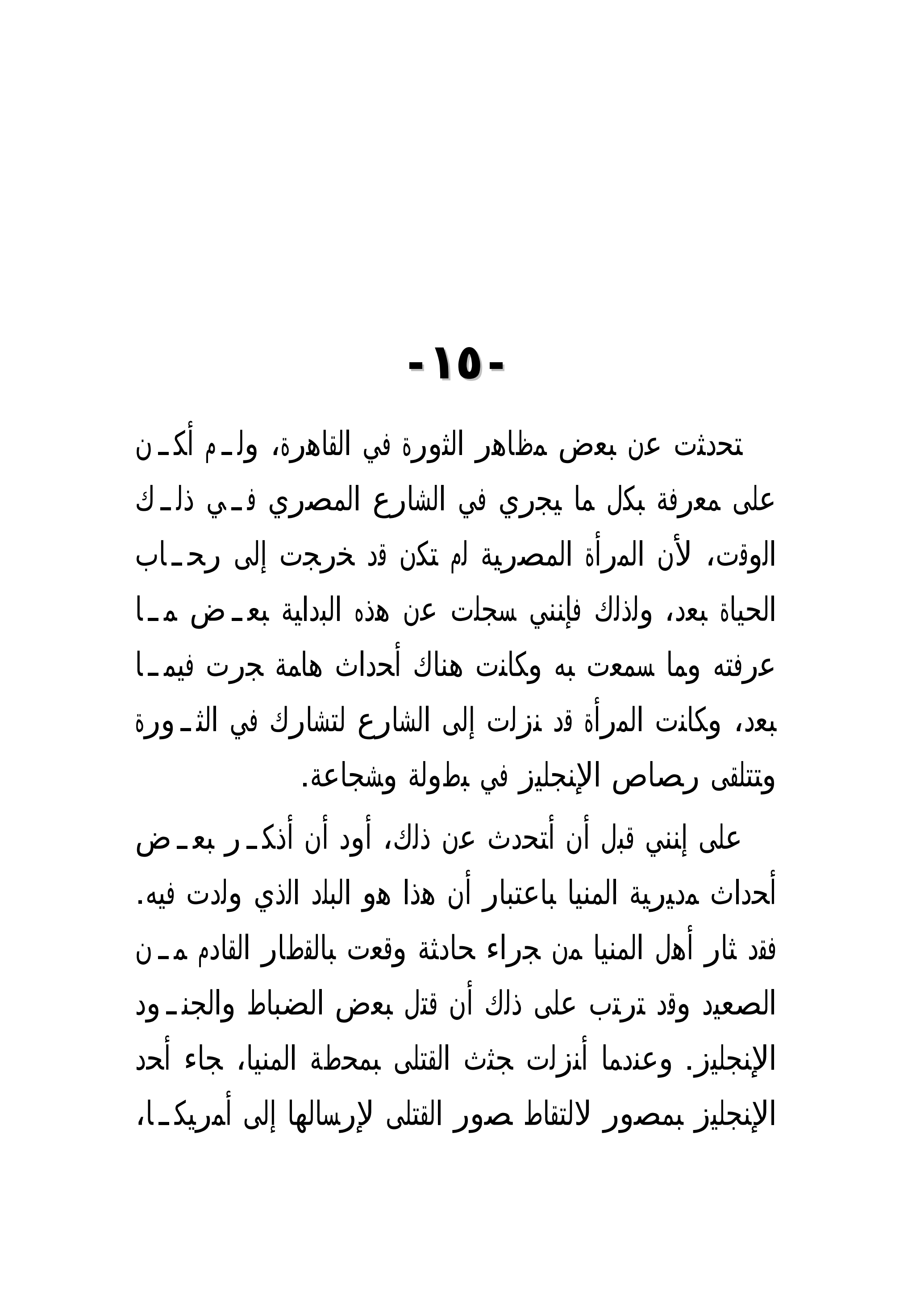
خليل، والسيدة نجيبة السيد إسماعيل، هذا بخلاف كثير من النساء اللاتي أصبن بجراح من رصاص الإنجليز داخل بيوتهن وخارجها.

وإن أنس فلن أنسى الأثر المحزن الذي أحدثه ضرب أول شهيدة مصرية، وهي السيدة شفيقة بنت محمد في نفوس الشعب عامة، وقد تجلى ذلك في تشييع جنازتها التي اشتركت فيها كل طبقات الأمة، حتى صارت جنازتها مظهرا من مظاهر الوطنية المشتعلة.

ولقد تتابعت مثل هذه المظاهرات المحزنة، ولكنها لم ترق في أعين السلطة البريطانية فكانت لا تحترم حتى تشييع الجنازات، وبذلك كادت تنقلب الجنازة إلى عراك دموي بين الأهالي والإنجليز.

ولا أنسى الألوف من الأطفال والشبان والشيوخ الذين قتلوا في ساحة عابدين. كذلك لا أنسى تهجم الجنود البريطانيين وانتهاكهم لحرمات المنازل وبخاصة الضواحي، لأسباب طفيفة وقد تكون مختلفة يفتعلونها على الأعراض والأرواح والممتلكات.

كل هذه الفظائع كانت تثير كراهية الشعب وسخط النســاء على جيوش تلك الأمة التي كانت تعتبر راقية متمدينة.



-١٥-

تحدثت عن بعض مظاهر الثورة في القاهرة، ولـم أكـن على معرفة بكل ما يجري في الشارع المصري فـي ذلـك الوقت، لأن المرأة المصرية لم تكن قد خرجت إلى رحـاب الحياة بعد، ولذلك فإنني سجلت عن هذه البداية بعـض مـا عرفته وما سمعت به وكانت هناك أحداث هامة جرت فيمـا بعد، وكانت المرأة قد نزلت إلى الشارع لتشارك في الثـورة وتتلقى رصاص الإنجليز في بطولة وشجاعة.

على إنني قبل أن أتحدث عن ذلك، أود أن أذكـر بعـض أحداث مديرية المنيا باعتبار أن هذا هو البلد الذي ولدت فيه. فقد ثار أهل المنيا من جراء حادثة وقعت بالقطار القادم مـن الصعيد وقد ترتب على ذلك أن قتل بعض الضباط والجنـود الإنجليز. وعندما أنزلت جثث القتلى بمحطة المنيا، جاء أحد الإنجليز بمصور لالتقاط صور القتلى لإرسالها إلى أمريكـا،

وعلم الأهالي بذلك فدخلوا منزل المصور وأعدموا زجاجات التصوير.

ولما كانت النفوس مليئة بالحماسة ومشتعلة بالوطنية، فقد نشبت الثورة في المنيا، وبالغ بعض الأهالي فـي ثـورتهم، فحاولوا الهجوم على بيوت الموظفين الإنجليز.

ولكن بعض الأعيان تصدوا لهم ومنعوهم من ذلك. وكان في مقدمة هؤلاء: الدكتور محمود بك عبد الرازق وابن أختي توفيق بك إسماعيل.. فقد آوى توفيق بعضهم عنده.. وعرض نفسه بذلك لغضب مواطنيه وهجومهم، أما الدكتور محمـود عبد الرازق فقد وقف أمام باب أحد الموظفين الإنجليز، وفتح صدره أمام الناس قائلاً: "لا تقتلوه إلا بعد أن تقتلوني".

وقد بدأ هو وبعض الأعيان يهدئون الخواطر الثائرة بإيهام أهالي المنيا بأن المديرية قد استقلت، وقد أداروا بالفعل دفـة شئونها لمدة أسبوع لم يحدث خلاله أي حادث إجرامي. ومع ذلك فقد كان جزاؤهما فيما بعد الحكم عليهما بالسجن لمـدة ثلاث سنوات.

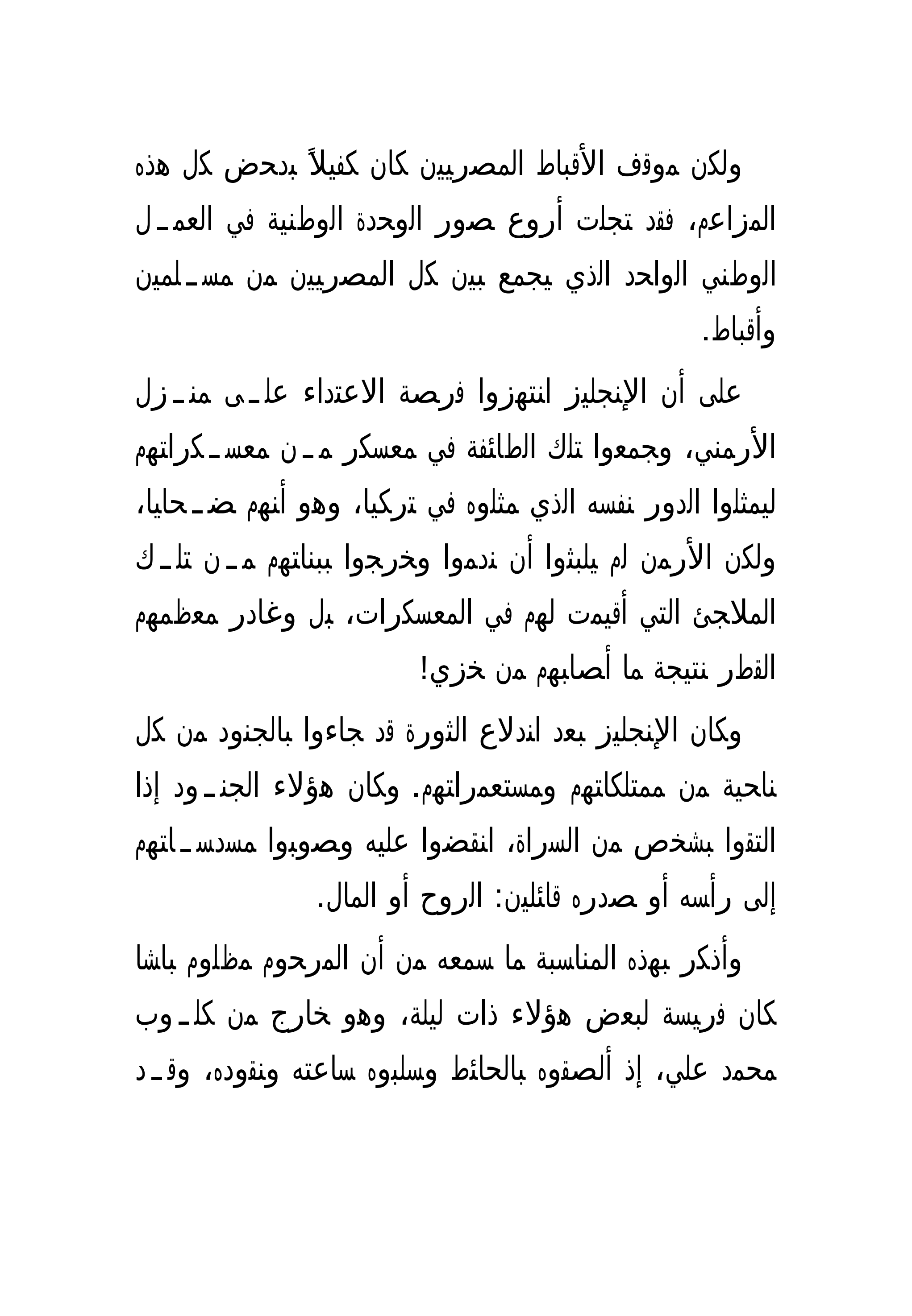
وقد ارتكب الإنجليز بعد ذلك كثيرا من الفظائع، ومن ذلك أنهم طافوا بالقرى يضربون الرجال بالسياط ويسطون علـى

البيوت ويعتدون على الحرمات ويقتلون المواشي والطيـور. ومما يؤسف له، أنهم عند إجراء التحقيق بعد ذلك، وجـدوا مصريا يقوم بوظيفة شاهد الملك، ووجدوا من بـين ضـباط الشرطة من كان أقسى على مواطنيه من الإنجليز أنفسهم.

ولقد كانت هذه الأحداث تزكي نيران الثورة فـي نفـوس المصريين وبخاصة بعد أن لمسوا مواقف مضادة من بعض الأجانب الذين عاشوا بينهم وربطت بينهم المصالح المشتركة والصداقة أعواما طويلة.

وكانت بداية هذه المواقف عندما قام شخص أرمني كـان يسكن حي عابدين بإطلاق الرصاص من مسدسه بلا مبـرر على مظاهرة سلمية كانت تمر أمام منزله، فأثار ذلك حنـق المتظاهرين وغيظهم، فهجموا على بيته وأحرقوا أثاثه.

وقد تخوفت تلك الطائفة، وأرادت أن تتظـاهر بولائهـا للإنجليز وتقدم لهم حجة ضد المصريين وسـلاحا للدعايـة ضدنا بأننا قوم متعصبون، وأن ثورتنا هذه ذات دوافع دينية وليست لأسباب دينية. وكذلك تبرأ بعض اليهود منا في ذلـك الوقت، والتحق كثير منهم بخدمة الجيش البريطاني.



ولكن موقف الأقباط المصريين كان كفيلاً بدحض كل هذه المزاعم، فقد تجلت أروع صور الوحدة الوطنية في العمـل الوطني الواحد الذي يجمع بين كل المصريين من مسـلمين وأقباط.

على أن الإنجليز انتهزوا فرصة الاعتداء علـى منـزل الأرمني، وجمعوا تلك الطائفة في معسكر مـن معسـكراتهم ليمثلوا الدور نفسه الذي مثلوه في تركيا، وهو أنهم ضـحايا، ولكن الأرمن لم يلبثوا أن ندموا وخرجوا ببناتهم مـن تلـك الملاجئ التي أقيمت لهم في المعسكرات، بل وغادر معظمهم القطر نتيجة ما أصابهم من خزي!

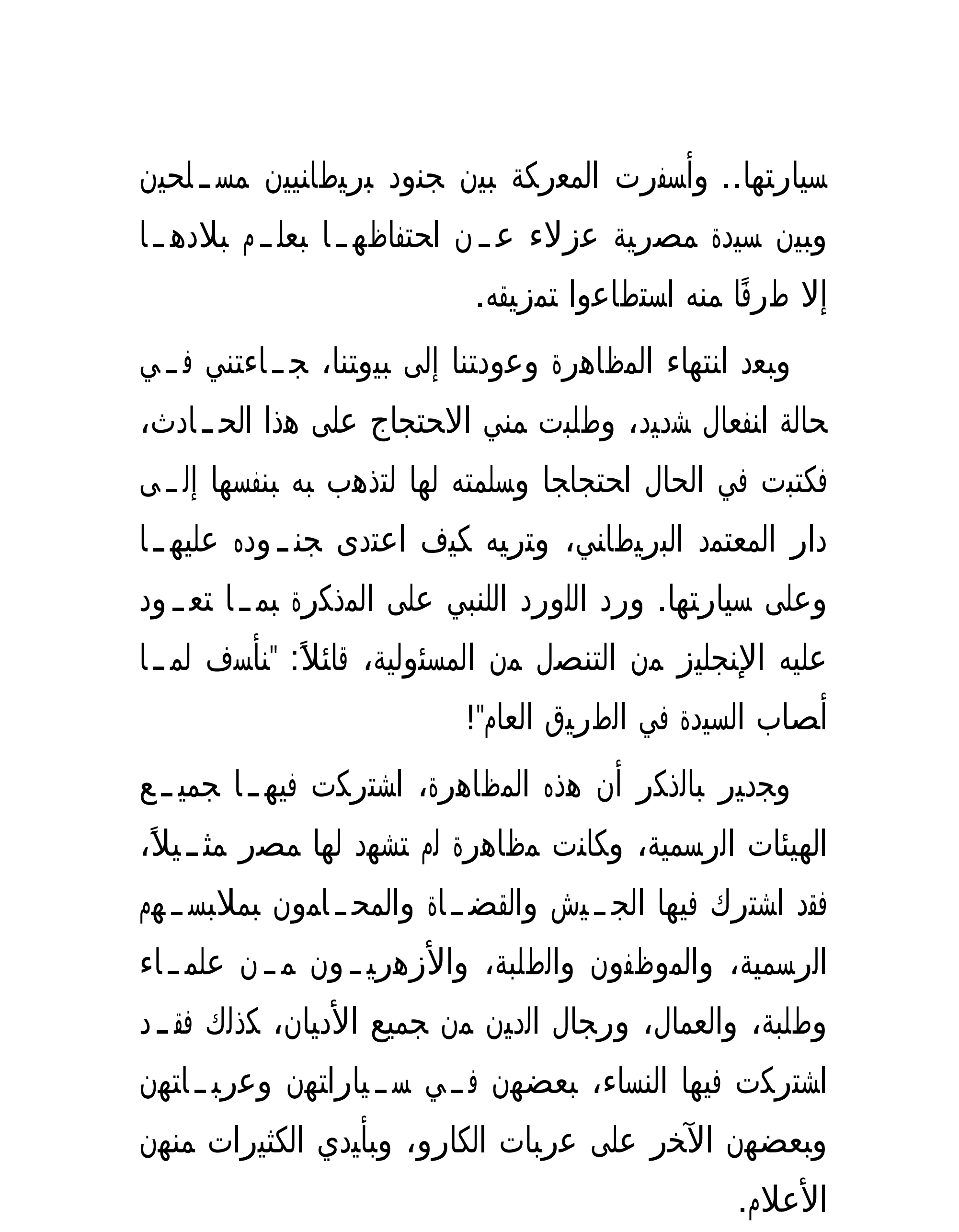
وكان الإنجليز بعد اندلاع الثورة قد جاءوا بالجنود من كل ناحية من ممتلكاتهم ومستعمراتهم. وكان هؤلاء الجنـود إذا التقوا بشخص من السراة، انقضوا عليه وصوبوا مسدسـاتهم إلى رأسه أو صدره قائلين: الروح أو المال.

وأذكر بهذه المناسبة ما سمعه من أن المرحوم مظلوم باشا كان فريسة لبعض هؤلاء ذات ليلة، وهو خارج من كلـوب محمد علي، إذ ألصقوه بالحائط وسلبوه ساعته ونقوده، وقـد

أصابه من رعب لدرجة أنه لم يصدق أنه نجـا مـن القـوم الظالمين.

كذلك فقد كانوا يخطفون النساء فـي الشـوارع، وكـانوا يجردون الأقراط من آذانهن فتسيل الدماء منها، دون مبـالاة بذلك.

وكم تعدى علينا هؤلاء الجنود في المظـاهرات، وأذكـر على سبيل المثال إننا لما خرجنا في موكب المظاهرة العامة التي ضمت جميع الهيئات المصرية واشتركت فيها السيدات راكبات سياراتهن. وكانت المرحومة ألفت هانم راتب تمسك بيدها علما مصريا صغيرا يرفرف من نافذة سيارتها، وعنـد مرور المظاهرة أمام فندق الكونتيننتال.. انقض أحد الجنـود الإنجليز على سيارتها، وحاول انتزاع العلم من يدها، ولكنها تشبثت به ولم تمكنه من انتزاعه، ولما كان ذلك على مشـهد من المتفرجين الأجانب، فقد صفقوا لها إعجابا بهـا، فثـار الجندي ثورة حمقاء.. وأخذ يجذب العلم منها بقسوة ويضربها بيده الأخرى على ذراعها ضربات قاسـية ليرغمهـا علـى التسليم، ورغم ذلك لم يتمكن من قهرهـا، وعنـدما صـار أضحوكة المتفرجين أقبل بعض زملائه وأخـذوا يطعنـون



سيارتها.. وأسفرت المعركة بين جنود بريطانيين مسلحين وبين سيدة مصرية عزلاء عن احتفاظها بعلم بلادها إلا طرفًا منه استطاعوا تمزيقه.

وبعد انتهاء المظاهرة وعودتنا إلى بيوتنا، جاءتني في حالة انفعال شديد، وطلبت مني الاحتجاج على هذا الحادث، فكتبت في الحال احتجاجا وسلمته لها لتذهب به بنفسها إلى دار المعتمد البريطاني، وتريه كيف اعتدى جنوده عليها وعلى سيارتها. ورد اللورد اللنبي على المذكرة بما تعود عليه الإنجليز من التنصل من المسئولية، قائلاً: "نأسف لما أصاب السيدة في الطريق العام"!

وجدير بالذكر أن هذه المظاهرة، اشتركت فيها جميع الهيئات الرسمية، وكانت مظاهرة لم تشهد لها مصر مثيلاً، فقد اشترك فيها الجيش والقضاة والمحامون بملابسهم الرسمية، والموظفون والطلبة، والأزهريون من علماء وطلبة، والعمال، ورجال الدين من جميع الأديان، كذلك فقد اشتركت فيها النساء، بعضهن في سياراتهن وعرباتهن وبعضهن الآخر على عربات الكارو، وبأيدي الكثيرات منهن الأعلام.

وبالرغم من وقار المظـاهرة وهيبتهـا، فـإن نظامهـا وحماستها لم يرق في عين أحد الضباط الإنجليز الذي كـان واقفًا بفندق شبرد، فما كان منه إلا أن أطلق مسدسـه علـى المتظاهرين، فوقع واحد منهم، ورغم ذلك تابع المتظـاهرون سيرهم في نظام، ما دفع الأجانب لأن يصفقوا لهم ويقولـوا: تقدموا.. تقدموا، فالنصر لكم.

عندما حـاول الجنـود الإنجليـز اسـتثارة المصـريين المتظاهرين، قام أحد ضباط السواري المصريين بضـربهم بعصاة، واستطاع بمفرده أن يشتتهم جميعا. فلجئوا إلى حديقة الأزبكية واختبئوا فيها.

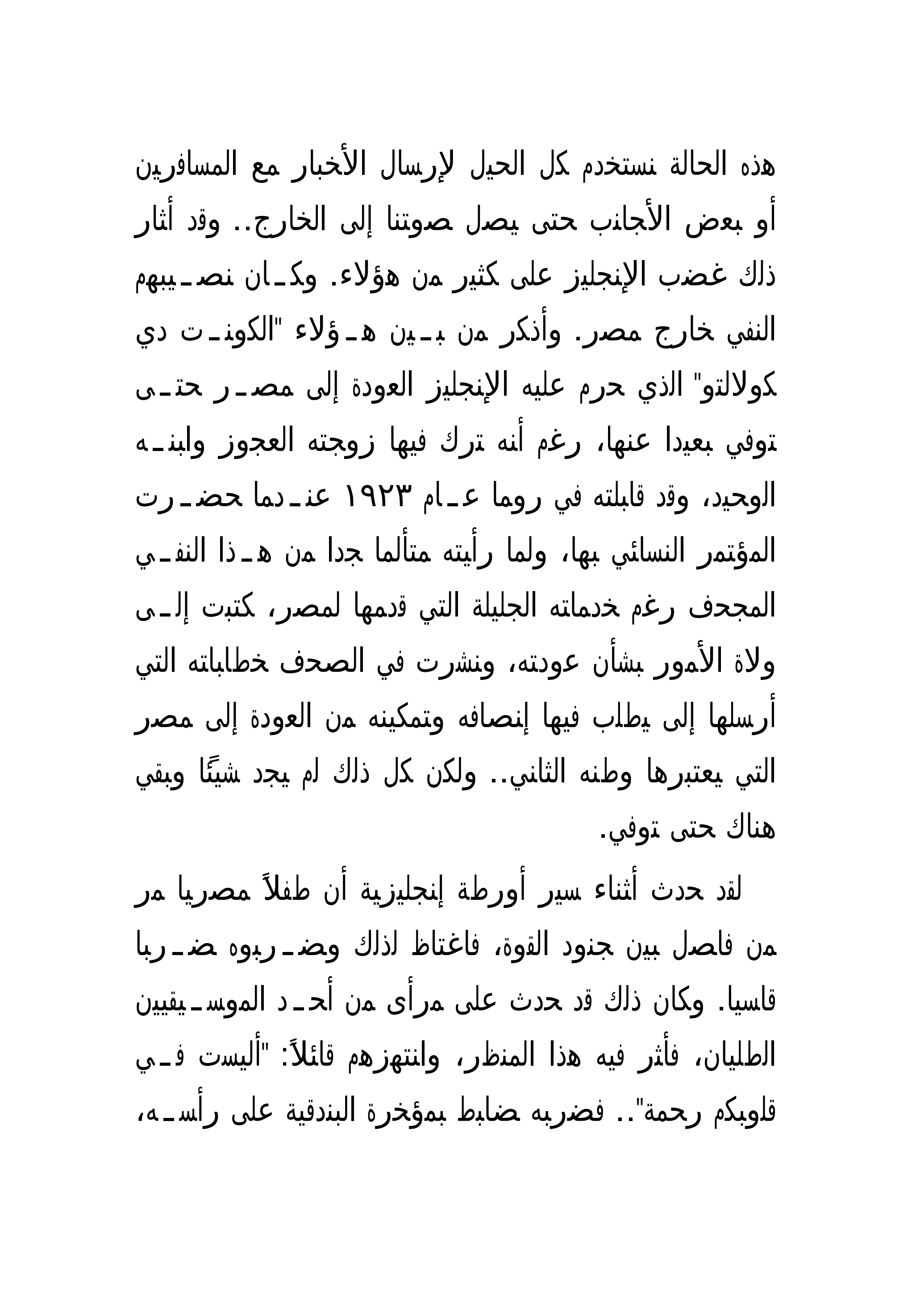
ولقد كان حقًا يوما مشهودا مشرقًا لمصر. ويذكرني ذلـك بيوم مظاهرة الأزهريين الـذين كـانوا يشـتعلون حماسـة ووطنية، لدرجة أنهـم كـانوا يواجهـون مـدافع الإنجليـز بصدورهم، وبلغت الشجاعة بأحدهم أن هجم على مدفع منها، وضرب الجندي الذي يعمل عليه، ووقف مكانـه ليضـرب الإنجليز، ولكن للأسف كان جهله باستعماله سببا في ضـربه وموته.

وكانت السيدات في هذه الأحوال يصفقن مـن الشـرفات والنوافذ، مستنهضات همم الرجال في هذا النضال الوطني.. حتى إن الجنود الإنجليز كانوا من فرض غـيظهم يطلقـون الرصاص عليهن، ولم تعلن أسماء من أصبن إنكارا للـذات وبعدا عن طلب الجزاء أو الشكر.

محاولة تشويه الثورة

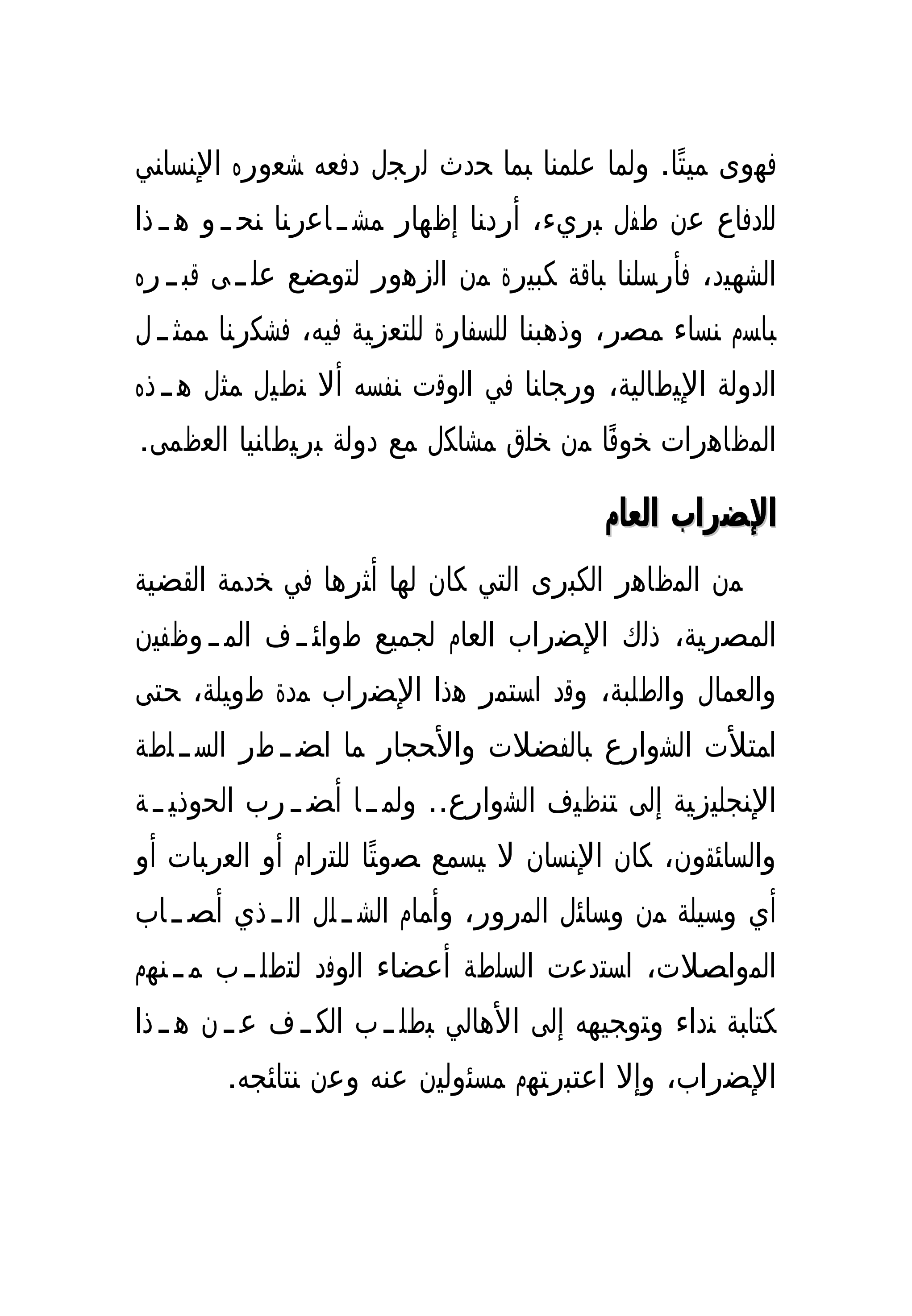
أراد الإنجليز أن يشوهوا جلال ثورتنـا فـي الخـارج، فصاروا يعلنون يوما إنها ثورة ضد الأجانب بهـدف إثـارة الرأي العام العالمي، وفي يوم آخر يسمونها ثورة الأكثريـة المسلمة ضد الأقلية من الأديان الأخرى.

وقد أثار هذا الكذب والافتراء وسوء التعليل سخط إخواننا الأقباط والطوائف الأخرى، وكان أن تآخى الجميع، وصاروا يجتمعون في الكنائس والمساجد والمعابد وهم شيع مختلفـة، وكان الشيخ يتأبط ذراع القسيس أو الحاخام أمـام عدسـات المصورين ليظهروا للملأ اتحاد الجميع على الثـورة ضـد الإنجليز، وكانت احتجاجاتنا على هذه التهم لا تتعـدى أرض مصر لأن السلطة كانت تراقب البريد المصـري للخـارج، وكانت صحفنا لا تصل إلى أبعد من الإسكندرية، فكنـا إزاء



هذه الحالة نستخدم كل الحيل لإرسال الأخبار مع المسافرين أو بعض الأجانب حتى يصل صوتنا إلى الخارج.. وقد أثار ذلك غضب الإنجليز على كثير من هؤلاء. وكـان نصـيبهم النفي خارج مصر. وأذكر من بـين هـؤلاء "الكونـت دي كولالتو" الذي حرم عليه الإنجليز العودة إلى مصـر حتـى توفي بعيدا عنها، رغم أنه ترك فيها زوجته العجوز وابنـه الوحيد، وقد قابلته في روما عـام ١٩٢٣ عنـدما حضـرت المؤتمر النسائي بها، ولما رأيته متألما جدا من هـذا النفـي المجحف رغم خدماته الجليلة التي قدمها لمصر، كتبت إلـى ولاة الأمور بشأن عودته، ونشرت في الصحف خطاباته التي أرسلها إلى يطلب فيها إنصافه وتمكينه من العودة إلى مصر التي يعتبرها وطنه الثاني.. ولكن كل ذلك لم يجد شيئًا وبقي هناك حتى توفي.

لقد حدث أثناء سير أورطة إنجليزية أن طفلاً مصريا مر من فاصل بين جنود القوة، فاغتاظ لذلك وضـربوه ضـربا قاسيا. وكان ذلك قد حدث على مرأى من أحـد الموسـيقيين الطليان، فأثر فيه هذا المنظر، وانتهزهم قائلاً: "أليست فـي قلوبكم رحمة".. فضربه ضابط بمؤخرة البندقية على رأسـه،



فهوى ميتًا. ولما علمنا بما حدث لرجل دفعه شعوره الإنساني للدفاع عن طفل بريء، أردنا إظهار مشاعرنا نحو هذا الشهيد، فأرسلنا باقة كبيرة من الزهور لتوضع على قبره باسم نساء مصر، وذهبنا للسفارة للتعزية فيه، فشكرنا ممثل الدولة الإيطالية، ورجانا في الوقت نفسه ألا نطيل مثل هذه المظاهرات خوفًا من خلق مشاكل مع دولة بريطانيا العظمى.

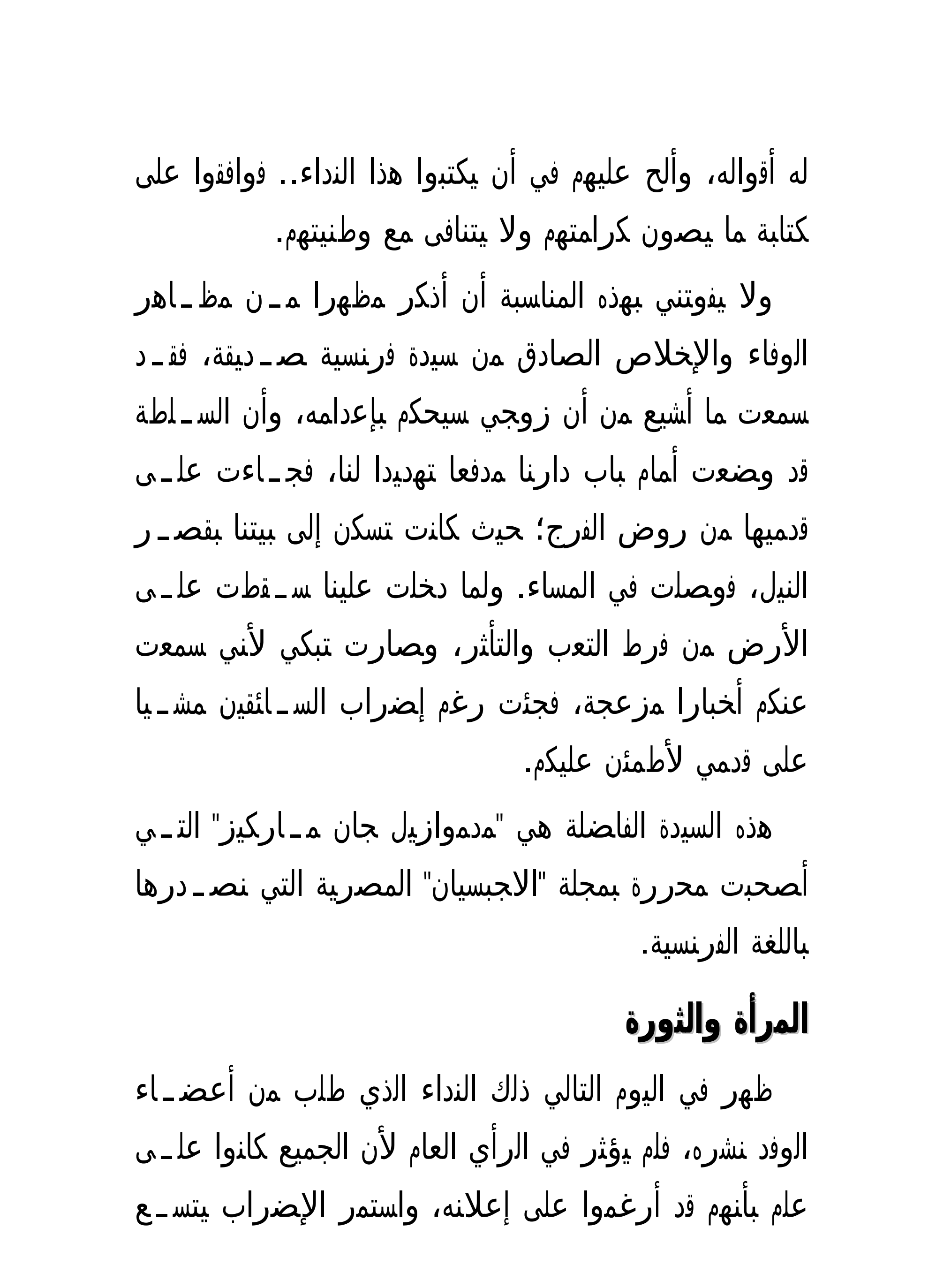
الإضراب العام

من المظاهر الكبرى التي كان لها أثرها في خدمة القضية المصرية، ذلك الإضراب العام لجميع طوائف الموظفين والعمال والطلبة، وقد استمر هذا الإضراب مدة طويلة، حتى امتلأت الشوارع بالفضلات والأحجار ما اضطر السلطة الإنجليزية إلى تنظيف الشوارع.. ولما أضرب الحوذية والسائقون، كان الإنسان لا يسمع صوتًا للترام أو العربات أو أي وسيلة من وسائل المرور، وأمام الشلل الذي أصاب المواصلات، استدعت السلطة أعضاء الوفد لتطلب منهم كتابة نداء وتوجيهه إلى الأهالي بطلب الكف عن هذا الإضراب، وإلا اعتبرتهم مسئولين عنه وعن نتائجه.

وقد اجتمع هؤلاء الأعضاء بزوجي وكيل الوفد في بيتنا قبل توجههم إلى مركز رئاسة السلطة الإنجليزية بفندق "سافواي" الذي كان الإنجليز احتلوه. وقد ترك الباشا زملاءه المجتمعين في الدور الأول من منزلنا، وصعد إلى الطابق الثاني ليقول لي: "ربما تعتقلنا السلطة، فإذا حدث ذلك، فأرجو أن تسلمي هذا المبلغ حرم سعد باشا، فربما تحتاج إليه في غيبتي". وكان سعد باشا في المنفى في ذلك الوقت.

ولما نزل، توجهت إلى النافذة لأراه وهو خارج يتبعه كل أعضاء الوفد، وبعضهم يبتسم ابتسامة مريرة، وبعضهم الآخر مضطرب الخاطر، وأكثرهم يحملون معاطفهم وعصيهم مستعدين للنفي أو لما هو أكثر من ذلك، إذ كان قد أذيع في ذلك اليوم أنهم سيعدمون رميا بالرصاص أو ينفون.

وقد علمت فيما بعد أنهم أدخلوا غرفة، ثم دخل عليهم قائد السلطة، ودون أن يحييهم ألقى عليهم بضع كلمات حادة، وأراد أن ينصرف دون أن يجيب عن أي سؤال، فقال علي باشا شعراوي باللغة العربية: "أنا لم أفهم من كلامه شيئًا.. أين هو ذاهب؟" فلما سمعه القائد يقول هذه الكلمات بحدة، عاد ليسأل عما يريده، فلما أفهمه كلام الباشا، أمر بأن تترجم



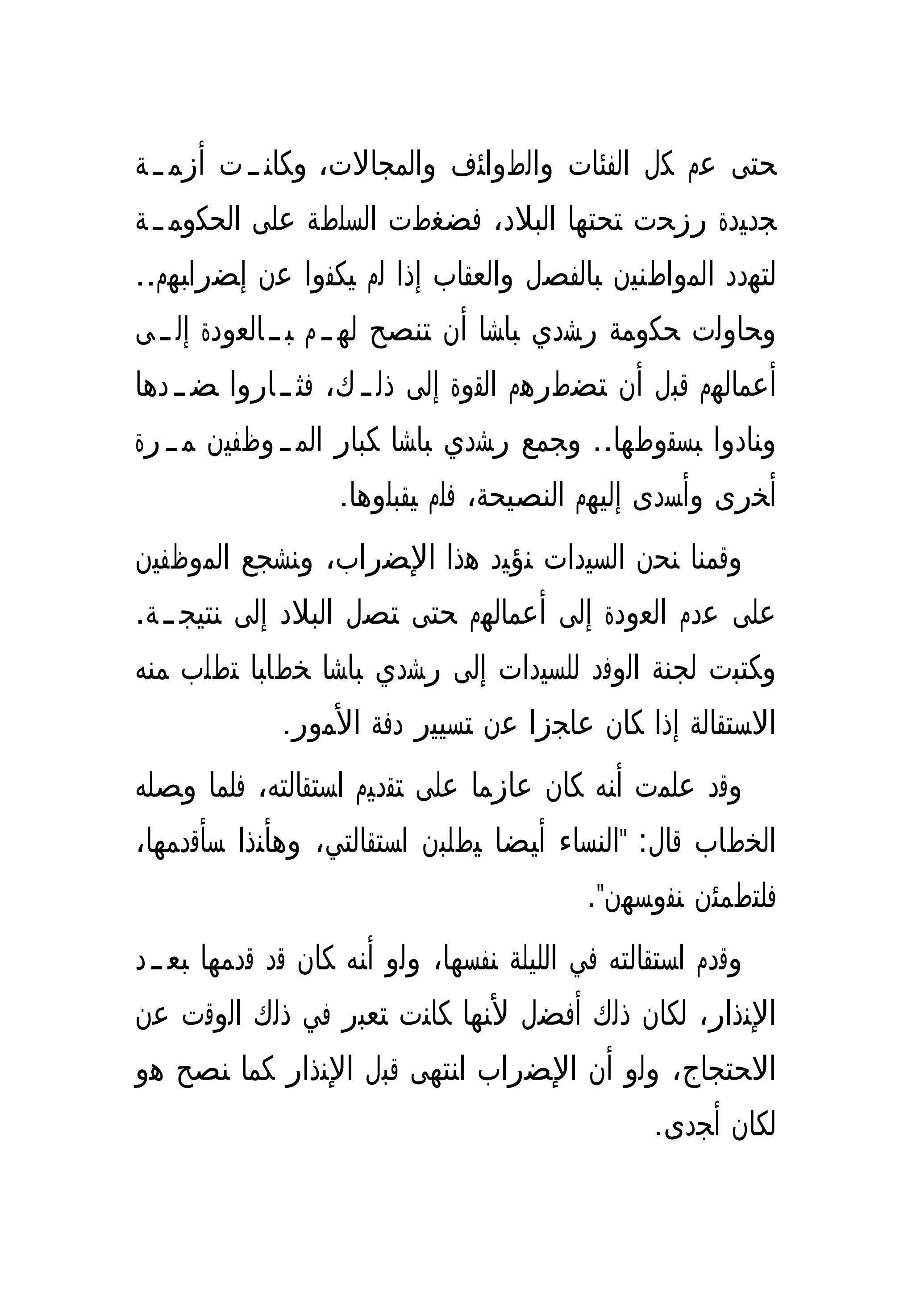
له أقواله، وألح عليهم في أن يكتبوا هذا النداء.. فوافقوا على كتابة ما يصون كرامتهم ولا يتنافى مع وطنيتهم.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أذكر مظهرا من مظاهر الوفاء والإخلاص الصادق من سيدة فرنسية صديقة، فقد سمعت ما أشيع من أن زوجي سيحكم بإعدامه، وأن السلطة قد وضعت أمام باب دارنا مدفعا تهديدا لنا، فجاءت على قدميها من روض الفرج؛ حيث كانت تسكن إلى بيتنا بقصر النيل، فوصلت في المساء. ولما دخلت علينا سقطت على الأرض من فرط التعب والتأثر، وصارت تبكي لأني سمعت عنكم أخبارا مزعجة، فجئت رغم إضراب السائقين مشيا على قدمي لأطمئن عليكم.

هذه السيدة الفاضلة هي "مدموازيل جان ماركيز" التي أصبحت محررة بمجلة "الاجبسيان" المصرية التي نصدرها باللغة الفرنسية.

المرأة والثورة

ظهر في اليوم التالي ذلك النداء الذي طلب من أعضاء الوفد نشره، فلم يؤثر في الرأي العام لأن الجميع كانوا على علم بأنهم قد أرغموا على إعلانه، واستمر الإضراب يتسع

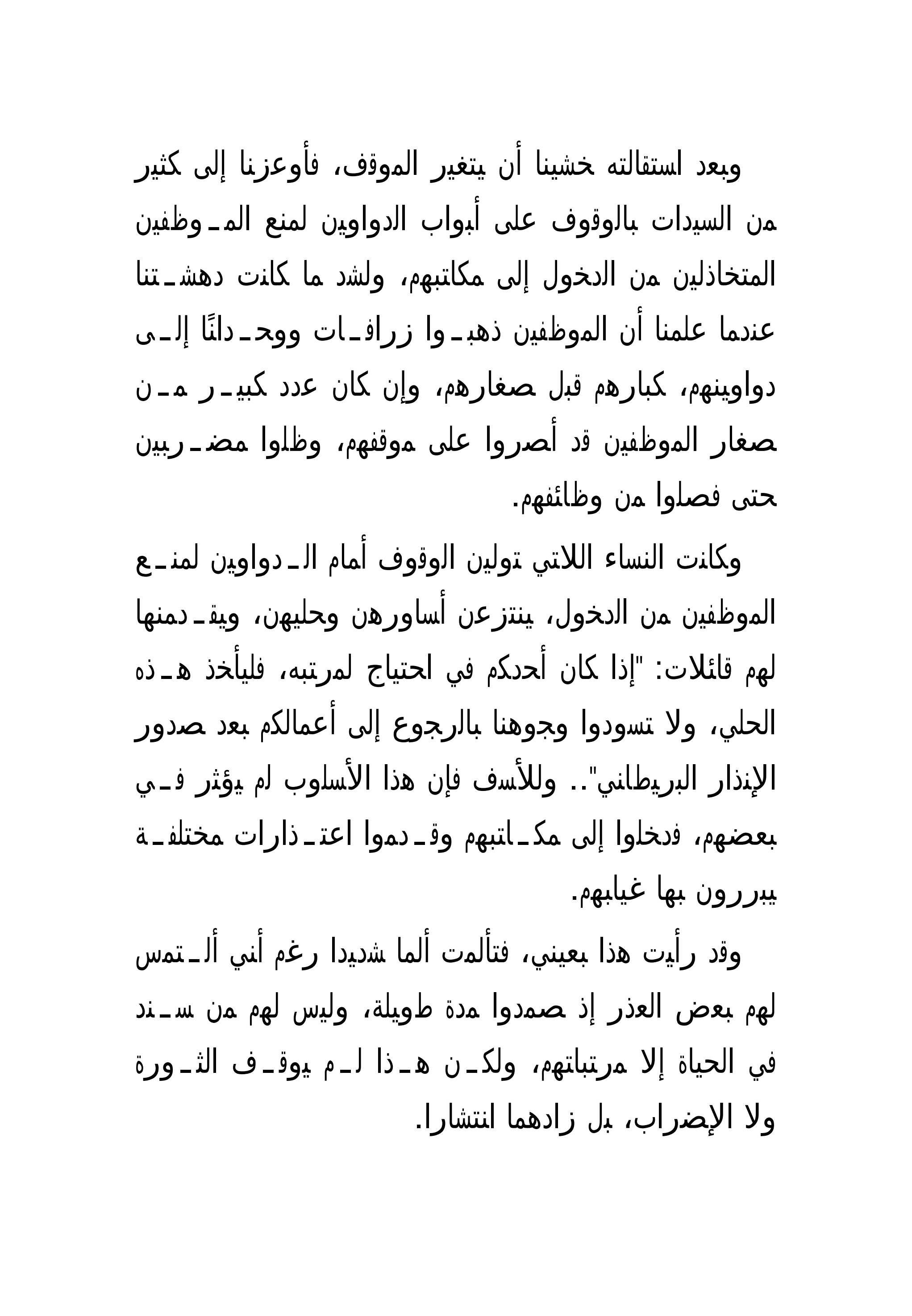


حتى عم كل الفئات والطوائف والمجالات، وكانت أزمة جديدة رزحت تحتها البلاد، فضغطت السلطة على الحكومة لتهدد المواطنين بالفصل والعقاب إذا لم يكفوا عن إضرابهم.. وحاولت حكومة رشدي باشا أن تنصح لهم بالعودة إلى أعمالهم قبل أن تضطرهم القوة إلى ذلك، فثاروا ضدها ونادوا بسقوطها.. وجمع رشدي باشا كبار الموظفين مرة أخرى وأسدى إليهم النصيحة، فلم يقبلوها.

وقمنا نحن السيدات نؤيد هذا الإضراب، ونشجع الموظفين على عدم العودة إلى أعمالهم حتى تصل البلاد إلى نتيجة. وكتبت لجنة الوفد للسيدات إلى رشدي باشا خطابا تطلب منه الاستقالة إذا كان عاجزا عن تسيير دفة الأمور.

وقد علمت أنه كان عازما على تقديم استقالته، فلما وصله الخطاب قال: "النساء أيضا يطلبن استقالتي، وهأنذا سأقدمها، فلتطمئن نفوسهن".

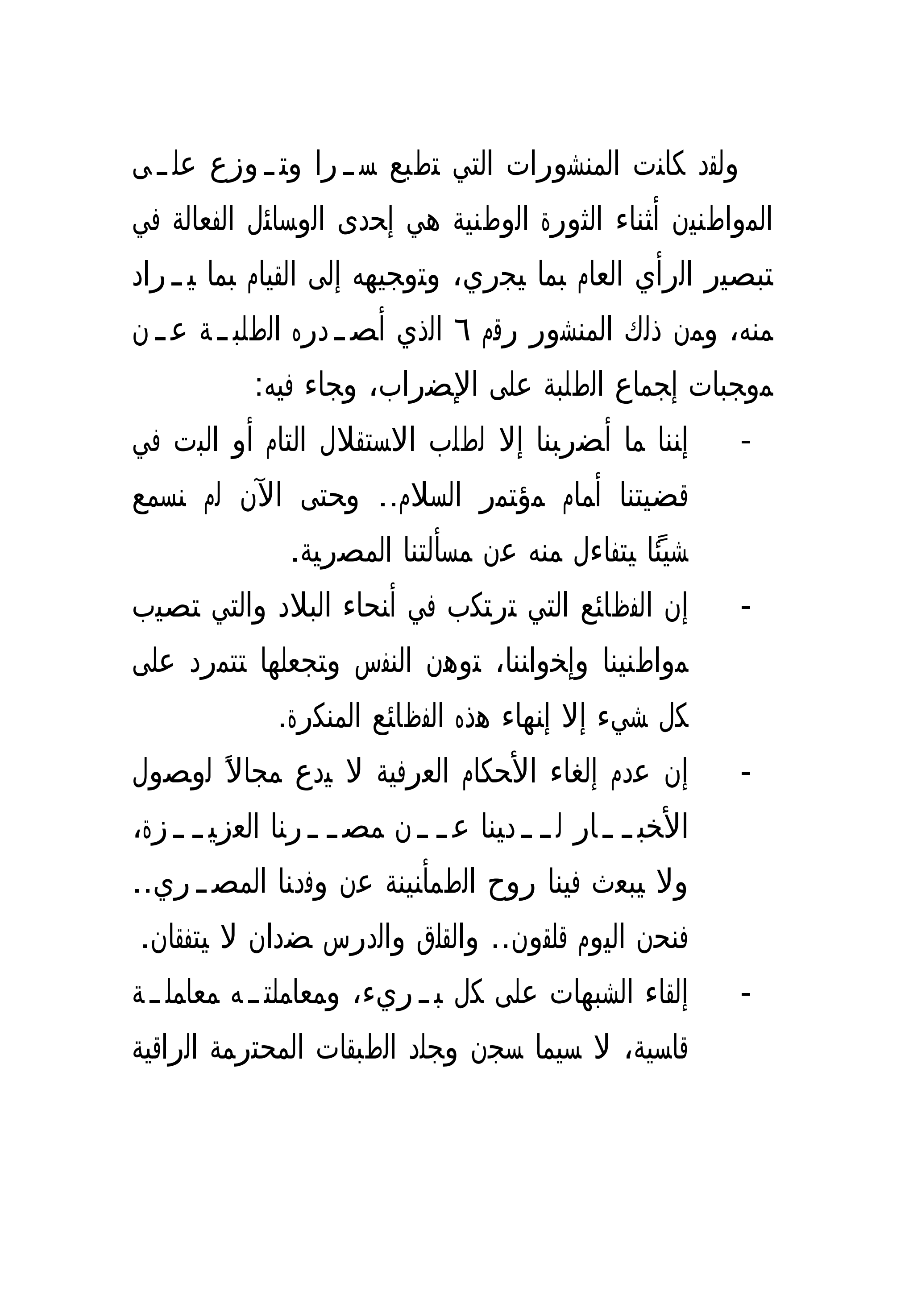
وقدم استقالته في الليلة نفسها، ولو أنه كان قد قدمها بعد الإنذار، لكان ذلك أفضل لأنها كانت تعبر في ذلك الوقت عن الاحتجاج، ولو أن الإضراب انتهى قبل الإنذار كما نصح هو لكان أجدى.



وبعد استقالته خشينا أن يتغير الموقف، فأوعزنا إلى كثير من السيدات بالوقوف على أبواب الدواوين لمنع الموظفين المتخاذلين من الدخول إلى مكاتبهم، ولشد ما كانت دهشتنا عندما علمنا أن الموظفين ذهبوا زرافات ووحدانًا إلى دواوينهم، كبارهم قبل صغارهم، وإن كان عدد كبير من صغار الموظفين قد أصروا على موقفهم، وظلوا مضربين حتى فصلوا من وظائفهم.

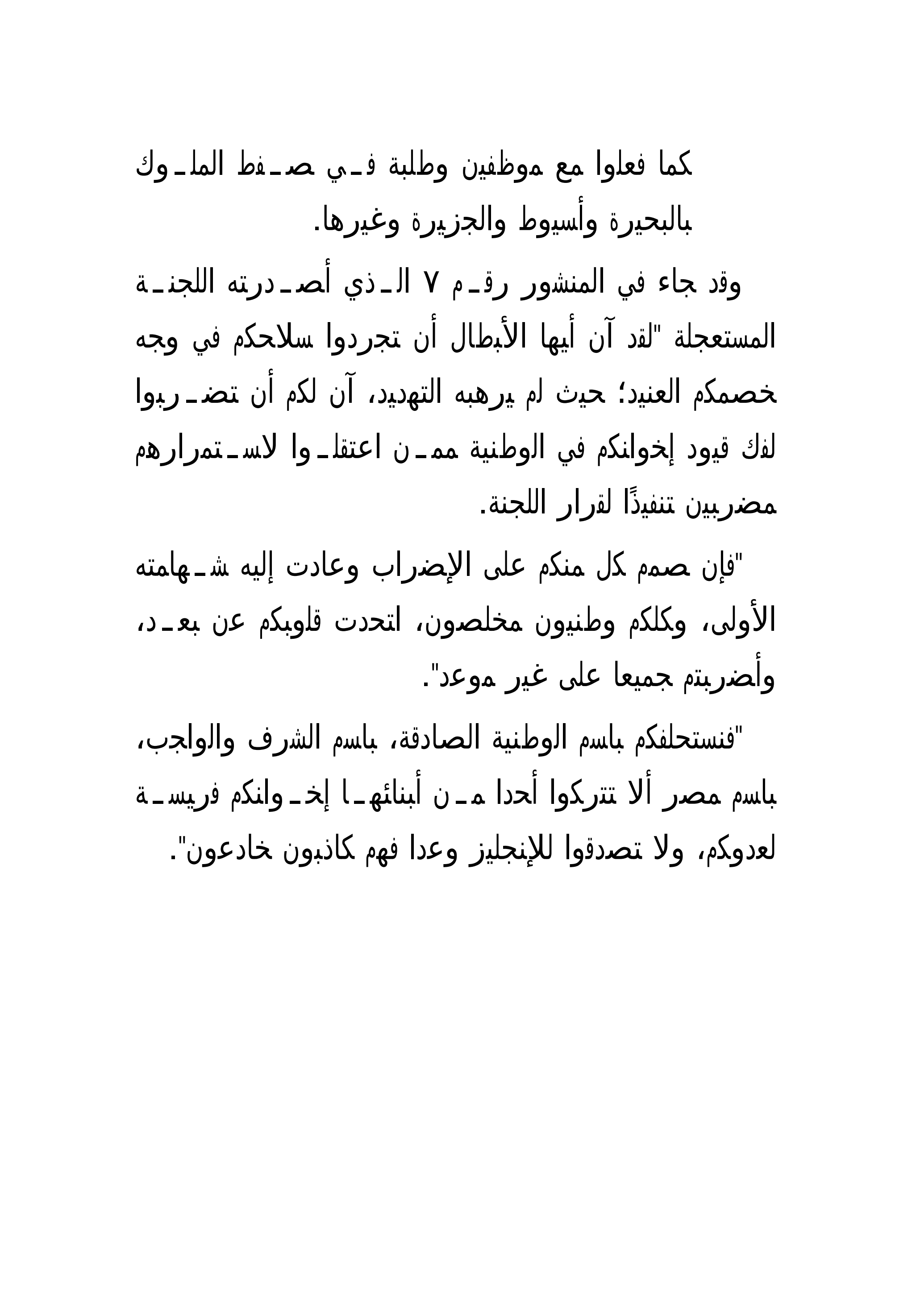
وكانت النساء اللاتي تولين الوقوف أمام الدواوين لمنع الموظفين من الدخول، ينتزعن أساورهن وحليهن، ويقدمنها لهم قائلات: "إذا كان أحدكم في احتياج لمرتبه، فليأخذ هذه الحلي، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع إلى أعمالكم بعد صدور الإنذار البريطاني".. وللأسف فإن هذا الأسلوب لم يؤثر في بعضهم، فدخلوا إلى مكاتبهم وقدموا اعتذارات مختلفة يبررون بها غيابهم.

وقد رأيت هذا بعيني، فتألمت ألما شديدا رغم أني ألتمس لهم بعض العذر إذ صمدوا مدة طويلة، وليس لهم من سند في الحياة إلا مرتباتهم، ولكن هذا لم يوقف الثورة ولا الإضراب، بل زادهما انتشارا.



ولقد كانت المنشورات التي تطبع سرا وتوزع على المواطنين أثناء الثورة الوطنية هي إحدى الوسائل الفعالة في تبصير الرأي العام بما يجري، وتوجيهه إلى القيام بما يراد منه، ومن ذلك المنشور رقم ٦ الذي أصدره الطلبة عن موجبات إجماع الطلبة على الإضراب، وجاء فيه:

- إننا ما أضربنا إلا لطلب الاستقلال التام أو البت في قضيتنا أمام مؤتمر السلام.. وحتى الآن لم نسمع شيئًا يتفاءل منه عن مسألتنا المصرية.
- إن الفظائع التي ترتكب في أنحاء البلاد والتي تصيب مواطنينا وإخواننا، توهن النفس وتجعلها تتمرد على كل شيء إلا إنهاء هذه الفظائع المنكرة.
- إن عدم إلغاء الأحكام العرفية لا يدع مجالاً لوصول الأخبار لدينا عن مصرنا العزيزة، ولا يبعث فينا روح الطمأنينة عن وفدنا المصري.. فنحن اليوم قلقون.. والقلق والدرس ضدان لا يتفقان.
- إلقاء الشبهات على كل بريء، ومعاملته معاملة قاسية، لا سيما سجن وجلد الطبقات المحترمة الراقية

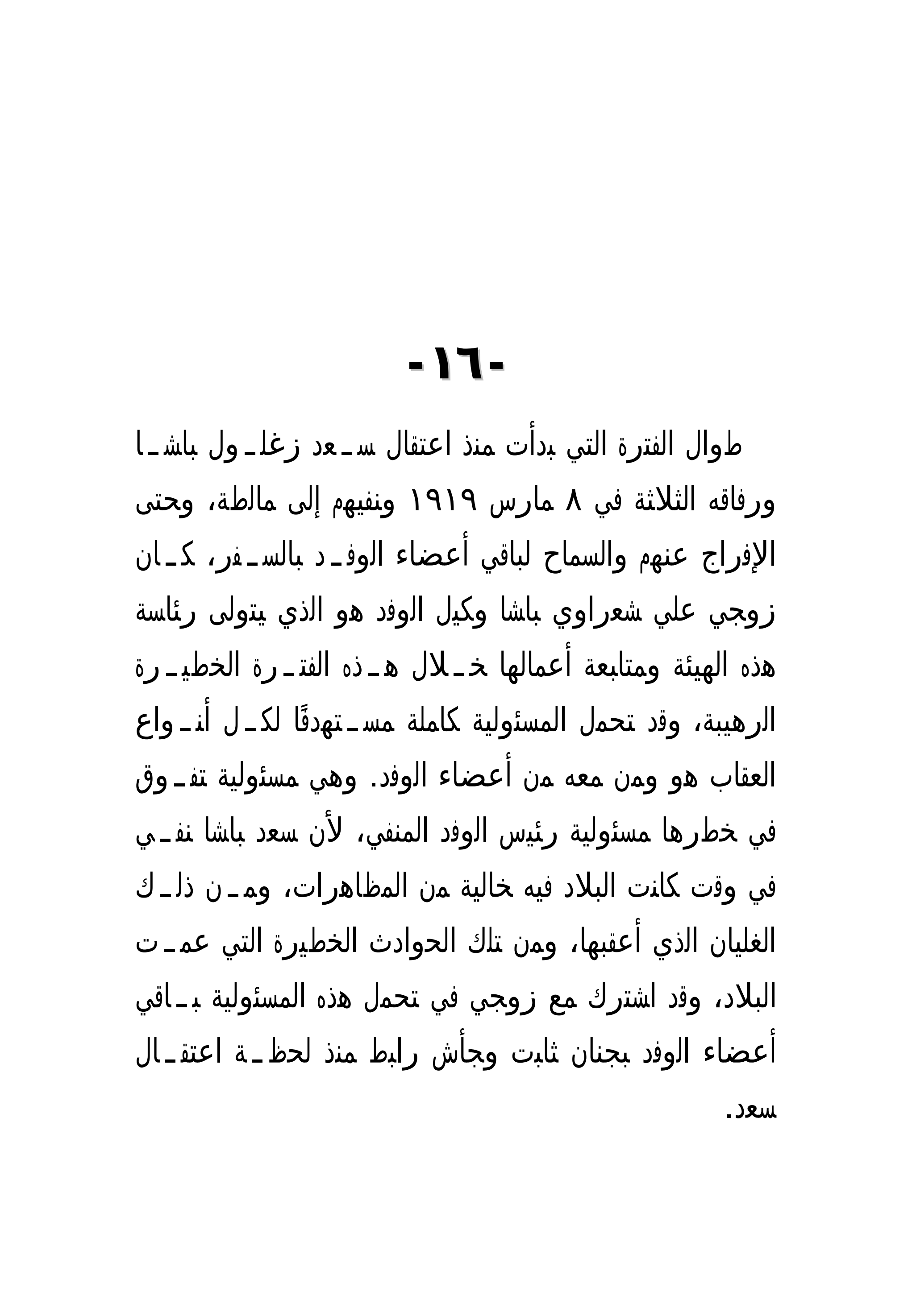


كما فعلوا مع موظفين وطلبة في صفط الملوك بالبحيرة وأسيوط والجزيرة وغيرها.

وقد جاء في المنشور رقم ٧ الذي أصدرته اللجنة المستعجلة "لقد آن أيها الأبطال أن تجردوا سلاحكم في وجه خصمكم العنيد؛ حيث لم يرهبه التهديد، آن لكم أن تضربوا لفك قيود إخوانكم في الوطنية ممن اعتقلوا لاستمرارهم مضربين تنفيذًا لقرار اللجنة.

"فإن صمم كل منكم على الإضراب وعادت إليه شهامته الأولى، وكلكم وطنيون مخلصون، اتحدت قلوبكم عن بعد، وأضربتم جميعا على غير موعد".

"فنستحلفكم باسم الوطنية الصادقة، باسم الشرف والواجب، باسم مصر ألا تتركوا أحدا من أبنائها إخوانكم فريسة لعدوكم، ولا تصدقوا للإنجليز وعدا فهم كاذبون خادعون".

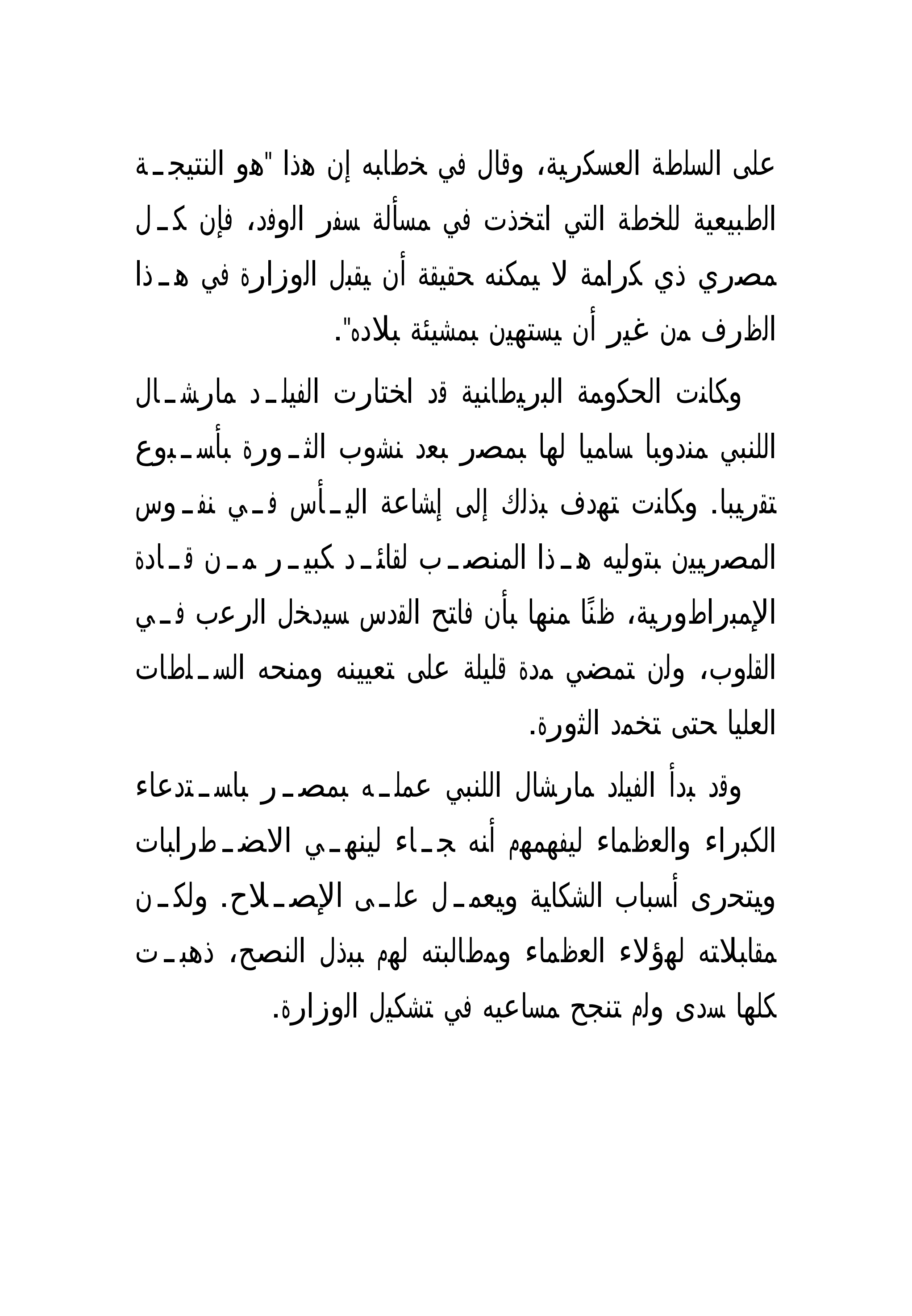


-١٦-

طوال الفترة التي بدأت منذ اعتقال سـعد زغلـول باشـا ورفاقه الثلاثة في ٨ مارس ١٩١٩ ونفيهم إلى مالطة، وحتى الإفراج عنهم والسماح لباقي أعضاء الوفـد بالسـفر، كـان زوجي علي شعراوي باشا وكيل الوفد هو الذي يتولى رئاسة هذه الهيئة ومتابعة أعمالها خـلال هـذه الفتـرة الخطيـرة الرهيبة، وقد تحمل المسئولية كاملة مسـتهدفًا لكـل أنـواع العقاب هو ومن معه من أعضاء الوفد. وهي مسئولية تفـوق في خطرها مسئولية رئيس الوفد المنفي، لأن سعد باشا نفـي في وقت كانت البلاد فيه خالية من المظاهرات، ومـن ذلـك الغليان الذي أعقبها، ومن تلك الحوادث الخطيرة التي عمـت البلاد، وقد اشترك مع زوجي في تحمل هذه المسئولية بـاقي أعضاء الوفد بجنان ثابت وجأش رابط منذ لحظـة اعتقـال سعد.

وقد حدث في يوم الاعتقال، أن أرسلت قرينة سعد باشـا إلى زوجي تبلغه أن مكتب سعد مفتوح له ولزملائه في غيابه كما كان في حضوره، وترجوه أن يقبلوا دعوتها للعشاء فـي ذلك المساء، وأن يعقدوا جلستهم الأولى في مكان انعقادهـا المألوف كي لا يطرأ على سير الدعوة أدنى تغيير بعد ذلـك الحادث الذي أريد به القضاء عليه. وقد قـرر الأعضـاء أن يلبوا رجاءها وأن يشكروها عليه، وإن كانوا قد اعتذروا عن حضور العشاء لانشغالهم بإعداد الخطة التي تلائم الموقـف الجديد.

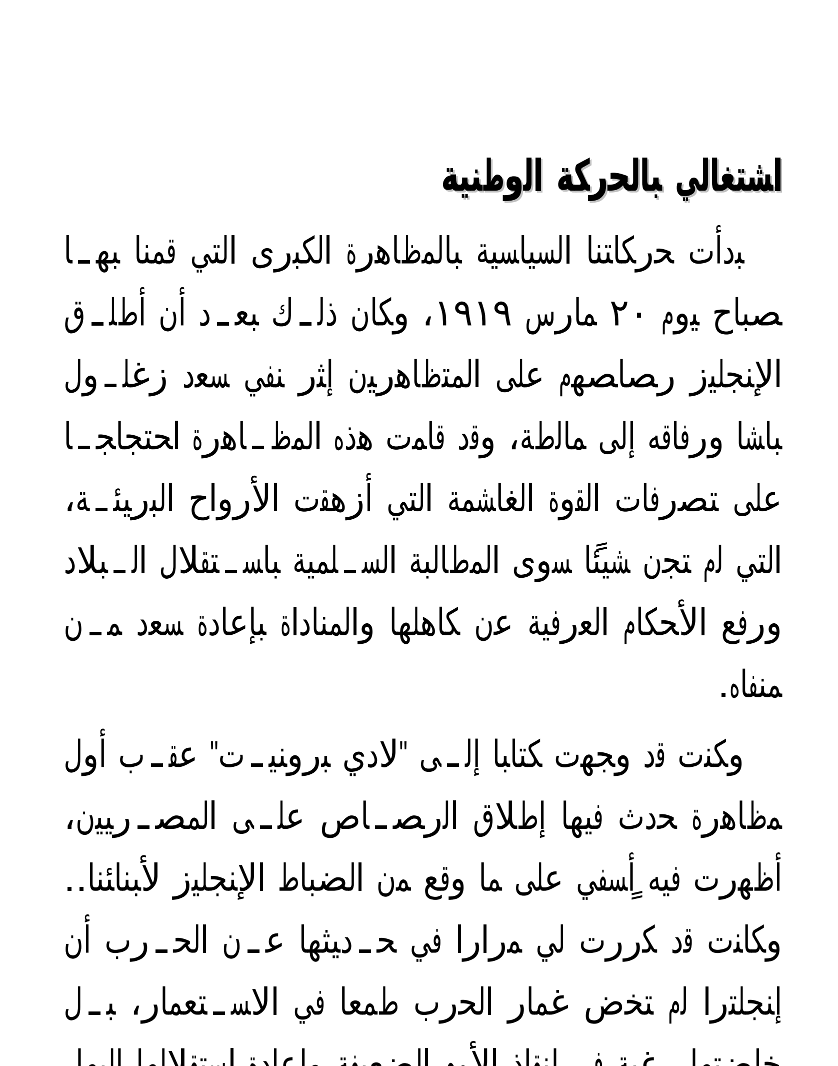
ولم يكن شعور الأعضاء بعـد الاعتقـال شـعور فـزع وارتداع كما قدرت السلطة، بل كان شعور استياء لاعتبارهم دون من اعتقلتهم السلطة في الخطر والأثر، وشعور رغبـة في إفهام السلطة الإنجليزية خطأهـا وتحـديها واسـتفزازها بإتيان العمل نفسه الذي من أجله اعتقلت سعدا وأصحابه. وقد كتب شعراوي باشا احتجاجا إلى رئيس الحكومة البريطانيـة على اعتقالهم، وأبلغه فيه أن الوفد مثابر على خطتهم، كمـا وجه مع زملائه في اليوم التالي خطابا إلى صاحب العظمـة السلطان يلقي فيه تبعة إعراض الكبراء عن تأليف الـوزارة



على السلطة العسكرية، وقال في خطابه إن هذا "هو النتيجة الطبيعية للخطة التي اتخذت في مسألة سفر الوفد، فإن كل مصري ذي كرامة لا يمكنه حقيقة أن يقبل الوزارة في هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده".

وكانت الحكومة البريطانية قد اختارت الفيلد مارشال اللنبي مندوبا ساميا لها بمصر بعد نشوب الثورة بأسبوع تقريبا. وكانت تهدف بذلك إلى إشاعة اليأس في نفوس المصريين بتوليه هذا المنصب لقائد كبير من قادة الإمبراطورية، ظنًا منها بأن فاتح القدس سيدخل الرعب في القلوب، ولن تمضي مدة قليلة على تعيينه ومنحه السلطات العليا حتى تخمد الثورة.

وقد بدأ الفيلد مارشال اللنبي عمله بمصر باستدعاء الكبراء والعظماء ليفهمهم أنه جاء لينهي الاضطرابات ويتحرى أسباب الشكاية ويعمل على الإصلاح. ولكن مقابلاته لهؤلاء العظماء ومطالبته لهم ببذل النصح، ذهبت كلها سدى ولم تنجح مساعيه في تشكيل الوزارة.



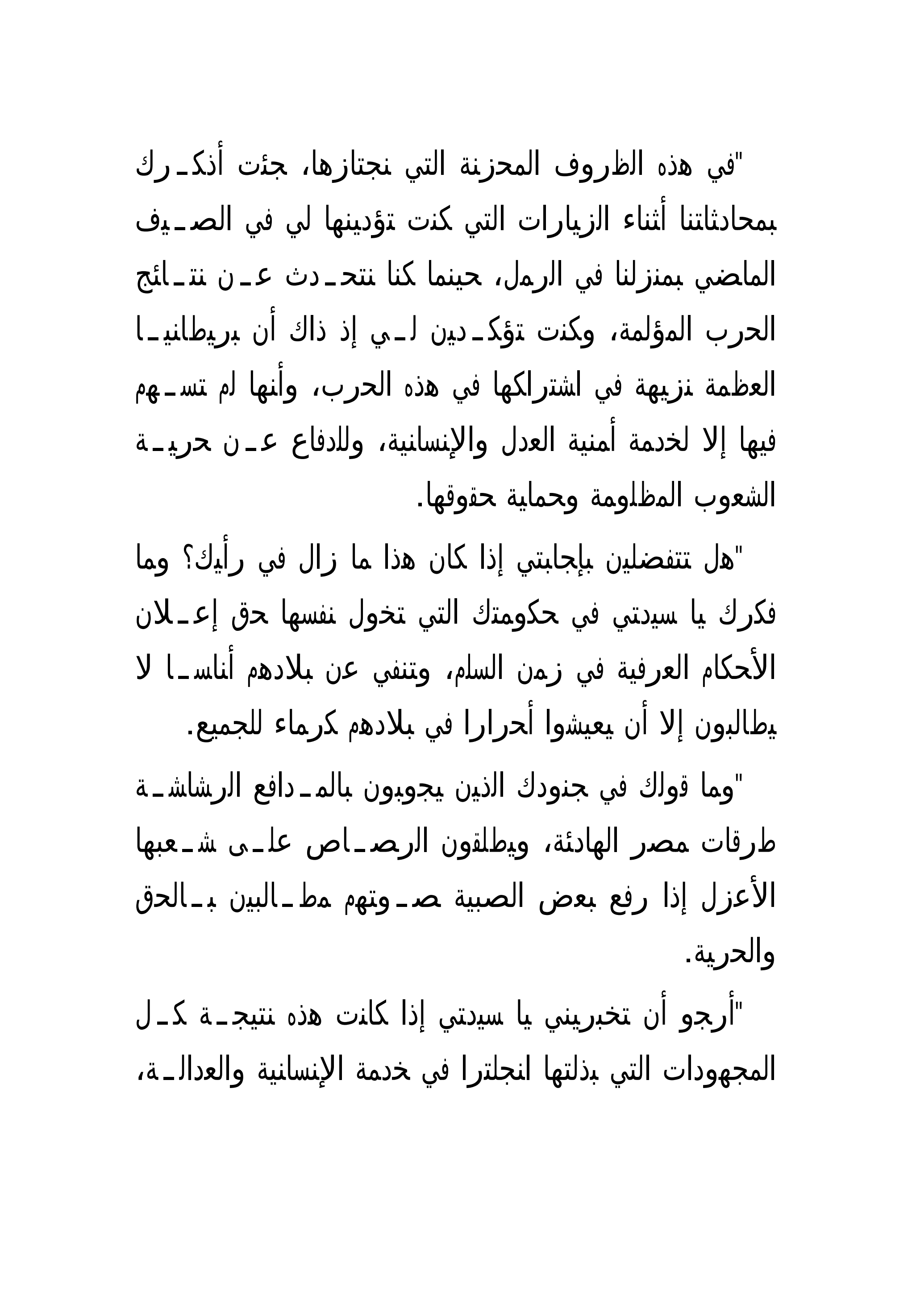
اشتغالي بالحركة الوطنية

بدأت حركاتنا السياسية بالمظاهرة الكبرى التي قمنا بها صباح يوم ٢٠ مارس ١٩١٩، وكان ذلك بعد أن أطلق الإنجليز رصاصهم على المتظاهرين إثر نفي سعد زغلول باشا ورفاقه إلى مالطة، وقد قامت هذه المظاهرة احتجاجا على تصرفات القوة الغاشمة التي أزهقت الأرواح البريئة، التي لم تجن شيئًا سوى المطالبة السلمية باستقلال البلاد ورفع الأحكام العرفية عن كاهلها والمناداة بإعادة سعد من منفاه.

وكنت قد وجهت كتابا إلى "لادي برونيت" عقب أول مظاهرة حدث فيها إطلاق الرصاص على المصريين، أظهرت فيه أسفي على ما وقع من الضباط الإنجليز لأبنائنا.. وكانت قد كررت لي مرارا في حديثها عن الحرب أن إنجلترا لم تخض غمار الحرب طمعا في الاستعمار، بل خاضتها رغبة في إنقاذ الأمم الضعيفة وإعادة استقلالها إليها. وكان أن كتبت لها هذا الخطاب لأذكرها فيها بكلماتها.

٢٢ مارس ١٩١٩

"سيدتي..

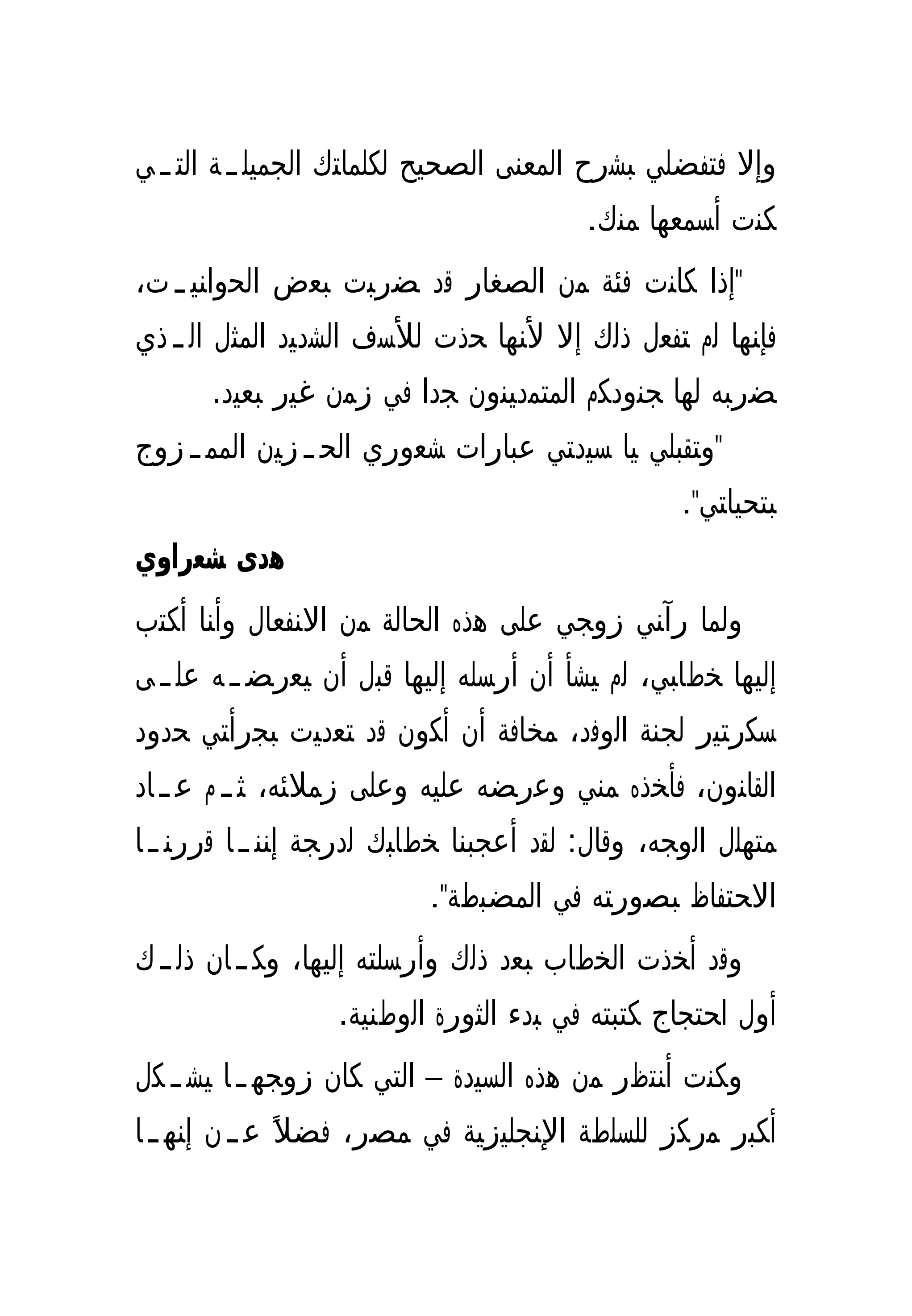


"في هذه الظروف المحزنة التي نجتازها، جئت أذكـرك بمحادثاتنا أثناء الزيارات التي كنت تؤدينها لي في الصـيف الماضي بمنزلنا في الرمل، حينما كنا نتحـدث عـن نتـائج الحرب المؤلمة، وكنت تؤكـدين لـي إذ ذاك أن بريطانيـا العظمة نزيهة في اشتراكها في هذه الحرب، وأنها لم تسـهم فيها إلا لخدمة أمنية العدل والإنسانية، وللدفاع عـن حريـة الشعوب المظلومة وحماية حقوقها.

"هل تتفضلين بإجابتي إذا كان هذا ما زال في رأيك؟ وما فكرك يا سيدتي في حكومتك التي تخول نفسها حق إعـلان الأحكام العرفية في زمن السلم، وتنفي عن بلادهم أناسـا لا يطالبون إلا أن يعيشوا أحرارا في بلادهم كرماء للجميع.

"وما قولك في جنودك الذين يجوبون بالمـدافع الرشاشـة طرقات مصر الهادئة، ويطلقون الرصـاص علـى شـعبها الأعزل إذا رفع بعض الصبية صـوتهم مطـالبين بـالحق والحرية.

"أرجو أن تخبريني يا سيدتي إذا كانت هذه نتيجـة كـل المجهودات التي بذلتها انجلترا في خدمة الإنسانية والعدالـة،



وإلا فتفضلي بشرح المعنى الصحيح لكلماتك الجميلـة التـي كنت أسمعها منك.

"إذا كانت فئة من الصغار قد ضربت بعض الحوانيـت، فإنها لم تفعل ذلك إلا لأنها حذت للأسف الشديد المثل الـذي ضربه لها جنودكم المتمدينون جدا في زمن غير بعيد.

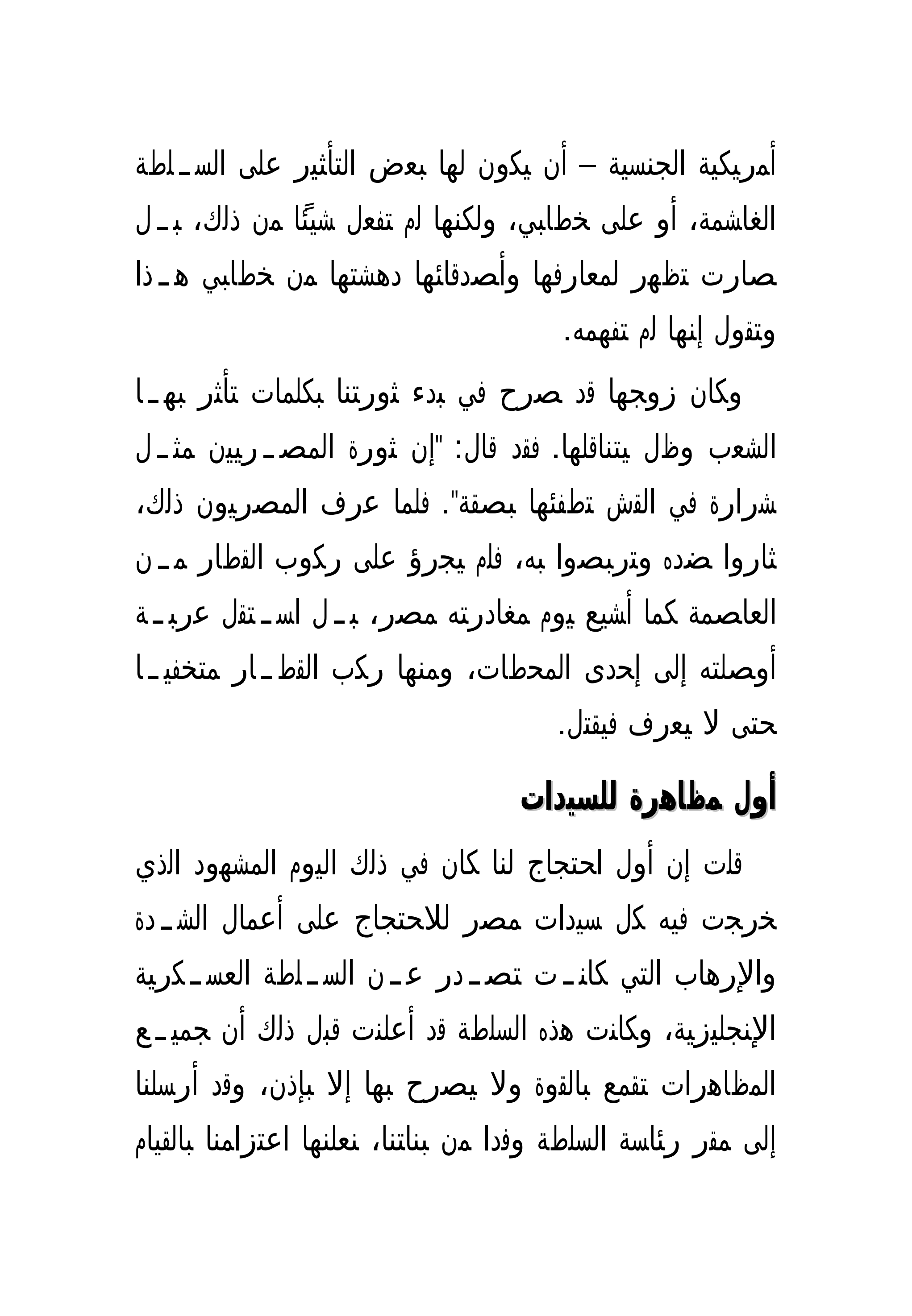
"وتقبلي يا سيدتي عبارات شعوري الحـزين الممـزوج بتحياتي".

هدى شعراوي

ولما رآني زوجي على هذه الحالة من الانفعال وأنا أكتب إليها خطابي، لم يشأ أن أرسله إليها قبل أن يعرضـه علـى سكرتير لجنة الوفد، مخافة أن أكون قد تعديت بجرأتي حدود القانون، فأخذه مني وعرضه عليه وعلى زملائه، ثـم عـاد متهلل الوجه، وقال: لقد أعجبنا خطابك لدرجة إننـا قررنـا الاحتفاظ بصورته في المضبطة".

وقد أخذت الخطاب بعد ذلك وأرسلته إليها، وكـان ذلـك أول احتجاج كتبته في بدء الثورة الوطنية.

وكنت أنتظر من هذه السيدة – التي كان زوجهـا يشـكل أكبر مركز للسلطة الإنجليزية في مصر، فضلاً عـن إنهـا



أمريكية الجنسية – أن يكون لها بعض التأثير على السلطة الغاشمة، أو على خطابي، ولكنها لم تفعل شيئًا من ذلك، بل صارت تظهر لمعارفها وأصدقائها دهشتها من خطابي هذا وتقول إنها لم تفهمه.

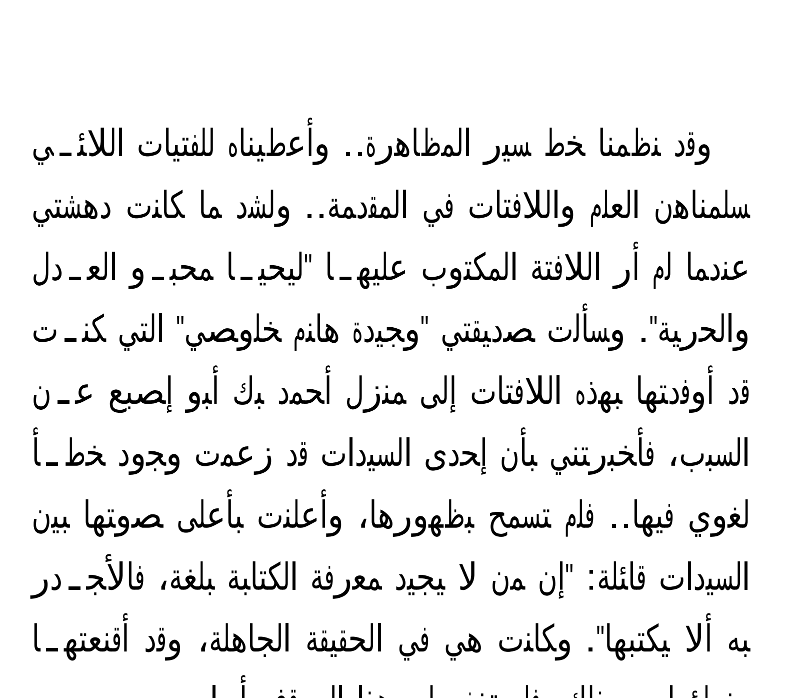
وكان زوجها قد صرح في بدء ثورتنا بكلمات تأثر بها الشعب وظل يتناقلها. فقد قال: "إن ثورة المصريين مثل شرارة في القش تطفئها بصقة". فلما عرف المصريون ذلك، ثاروا ضده وتربصوا به، فلم يجرؤ على ركوب القطار من العاصمة كما أشيع يوم مغادرته مصر، بل استقل عربة أوصلته إلى إحدى المحطات، ومنها ركب القطار متخفيا حتى لا يعرف فيقتل.

أول مظاهرة للسيدات

قلت إن أول احتجاج لنا كان في ذلك اليوم المشهود الذي خرجت فيه كل سيدات مصر للاحتجاج على أعمال الشدة والإرهاب التي كانت تصدر عن السلطة العسكرية الإنجليزية، وكانت هذه السلطة قد أعلنت قبل ذلك أن جميع المظاهرات تقمع بالقوة ولا يصرح بها إلا بإذن، وقد أرسلنا إلى مقر رئاسة السلطة وفدا من بناتنا، نعلنها اعتزامنا بالقيام

بمظاهرة سلمية.. فرفضت السلطة التصريح لنا بالمظـاهرة، وكان أن تصرفت بعض الفتيـات اللائـي كلفنـاهن بهـذه المأمورة من تلقاء أنفسهن؛ حيث اتصلن بكثير من السـيدات اللائي اتفقن معنا على السير في المظاهرة، وأخبرنهن بـأن المظاهرة قد أجلت، ولكننا بعد ذلك قرأنا في جريدة المقطـم أن السلطة قد سمحت للسيدات بإقامة هذه المظاهرة، فأمضينا الليلة في محاولات الاتصال بالسـيدات تلفونيـا لنخبـرهن بالتصريح، ولكن مع الأسف لم نستطع الاتصال بمعظمهـن بسبب الرقابة التي كانت مفروضة على التليفونات ولولا هذا الاضطراب الذي أثاره تصرف هؤلاء الفتيات لبقـي العـزم على ما كان عليه و لاشتركت كل نساء القـاهرة فـي تلـك المظاهرة.

وفي صباح يوم ٢٠ مارس ١٩١٩، أرسلت اللوحات التي كنت قـد أعـددتها للمظـاهرة إلـى منـزل أحمـد بـك أبو إصبع، مكتوبا عليها باللغتين العربية والفرنسية بالبويـة البيضاء على قماش أسود علامة الحداد: "ليحيا ناصرو العدل والحرية.. ليسقط الظالمون المستبدون وليسقط الاحتلال".



وقد نظمنا خط سير المظاهرة.. وأعطيناه للفتيات اللائي سلمناهن العلم واللافتات في المقدمة.. ولشد ما كانت دهشتي عندما لم أر اللافتة المكتوب عليها "ليحيا محبو العدل والحرية". وسألت صديقتي "وجيدة هانم خلوصي" التي كنت قد أوفدتها بهذه اللافتات إلى منزل أحمد بك أبو إصبع عن السبب، فأخبرتني بأن إحدى السيدات قد زعمت وجود خطأ لغوي فيها.. فلم تسمح بظهورها، وأعلنت بأعلى صوتها بين السيدات قائلة: "إن من لا يجيد معرفة الكتابة بلغة، فالأجدر به ألا يكتبها". وكانت هي في الحقيقة الجاهلة، وقد أقنعتها بخطئها بعد ذلك، فلم تغفر لي هذا الموقف أبدا.

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد، فقد حدث موقف آخر. كان الاتفاق يقضي بأن نقصد سفارة أمريكا أولاً، ثم سفارة فرنسا.. ولكنني رأيت فتياتنا قد غيرن خط السير وقصدن بيت الأمة أولاً. فلما أرسلت صديقتي "وجيدة هانم" لتنبههن إلى ذلك، قلن لها إن غالبية السيدات قررن ذلك، فأذعنت لهذا القرار على مضض، وابتدأنا ببيت الأمة بدلاً من أن ننتهي به حسب الاتفاق.

ولم نكد نصل إلى هناك، حتى حاصرنا جنـود السـلطة الإنجليزية، وأحاطوا بنا مسلحين وقد سدوا الشوارع بمـدافع الماكينة، فوقفت صفوفنا تحيط بها صفوف الطلبة الذين كانوا يتبعوننا طوال الطريق لحمايتنا.

وقد أدركت أن هناك تدبيرا مسبقًا بين أدلتنا وبين السلطة التي كانت تنتظرنا مطمئنة بشارع سعد زغلول. وبذلك فشلت خطتنا، ولم يرنا إلا قليل من الناس، وعلمنا بعد ذلك أنه كان أمام دور السفارات عدد كبير من الأجانب ينتظروننا بباقات الورد ليلقوها تحت أقدامنا.

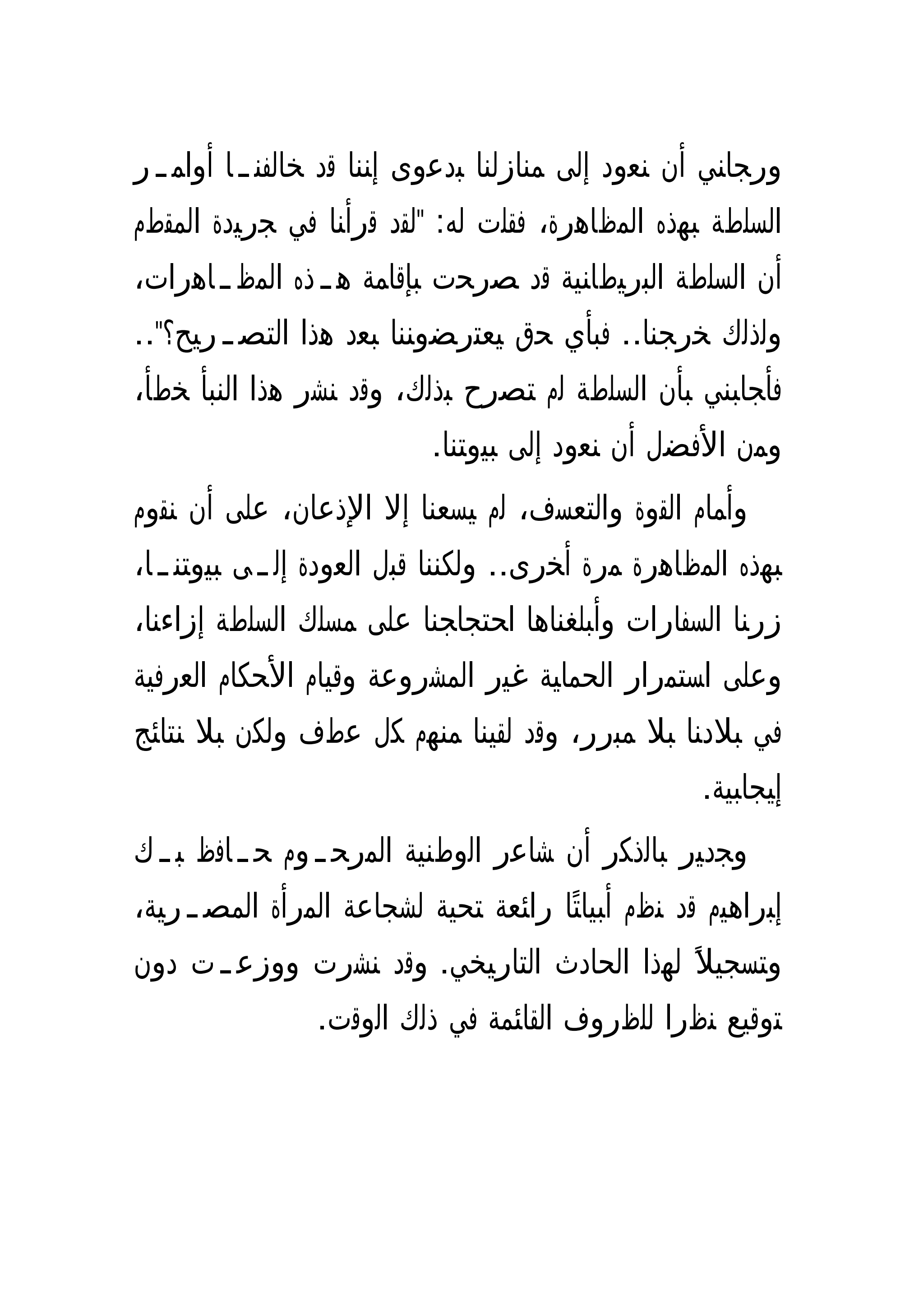
وبينما نحن في تلك الوقفة التي أجبرونا عليها، أردت أن أشق طريقي بالقوة لأقود مسيرة السيدات، فتقدمت إلى الأمام، وإذا بجندي إنجليزي يجلس القرفصاء بسرعة ويصوب فوهة بندقيته إلى صدري، وعندما حاولت أن أتقدم نحوه، أسرعت إحدى السيدات تجذبني من الخلف لتمنعني من التقدم، فقلـت لها بصوت عال: "دعيني أتقدم، ليكون لمصر اليـوم مـس كافيل". فما كاد الجندي يسمع هذا الاسم، حتى خجـل وقـام على الفور.

وأردت بعد ذلك أن اخترق صفوف الجنود، وطلبت من السيدات أن يتبعنني، فإذا بذراعين تحيطانني، وإذا بصوت حرم الدكتور حبيب خياط تقول لي: "ما هذا الجنون؟ أتريدين إراقة دماء هؤلاء الأولاد إذا رأوا قطرة من دمك تسيل؟".

وأعادتني هذه الكلمات إلى رشدي في الحال، فقد تصورت هؤلاء المئات من أبنائنا يخوضون المعركة ضد الإنجليز، وتصورت كم ستخسر مصر من بنيها بسبب مجازفتي هذه، فوقفت في مكاني لا أتحرك، وبقينا على هذه الحال ثلاث ساعات تحت وهج الشمس، وكم تمنيت أن تصيبني ضربة شمس لتقع مسئولية ذلك على السلطة الغاشمة، ولكن للأسف لم يحدث لنا أي أذى.

وأثناء ذلك الوقت، توجه الطلبة إلى السفارة الأمريكية، ثم إلى سفارتي إيطاليا وفرنسا، ووقفوا يصرخون: "لقد حاصرت السلطة الإنجليزية سيداتنا أمام منزل زغلول.. نطلب الإنصاف والمساعدة".

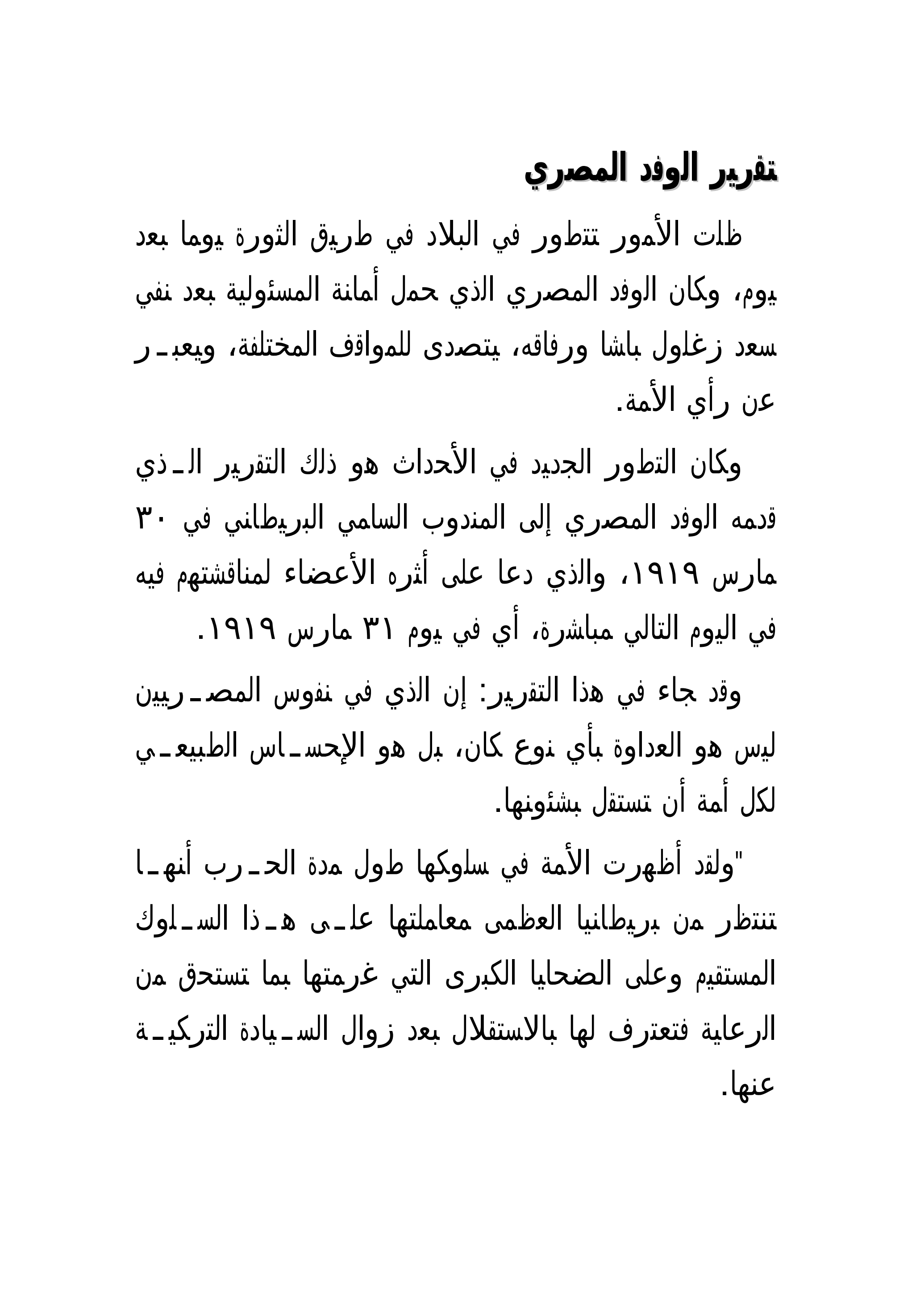
وقد توجه سفير أمريكا إلى موقع الحصار والتقط بعض الصور الفوتوغرافية. وهال هذا الأمر السلطة البريطانية، وسرعان ما جاء اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة،



ورجاني أن نعود إلى منازلنا بدعوى إننا قد خالفنا أوامر السلطة بهذه المظاهرة، فقلت له: "لقد قرأنا في جريدة المقطم أن السلطة البريطانية قد صرحت بإقامة هذه المظاهرات، ولذلك خرجنا.. فبأي حق يعترضوننا بعد هذا التصريح؟".. فأجابني بأن السلطة لم تصرح بذلك، وقد نشر هذا النبأ خطأ، ومن الأفضل أن نعود إلى بيوتنا.

وأمام القوة والتعسف، لم يسعنا إلا الإذعان، على أن نقوم بهذه المظاهرة مرة أخرى.. ولكننا قبل العودة إلى بيوتنا، زرنا السفارات وأبلغناها احتجاجنا على مسلك السلطة إزاءنا، وعلى استمرار الحماية غير المشروعة وقيام الأحكام العرفية في بلادنا بلا مبرر، وقد لقينا منهم كل عطف ولكن بلا نتائج إيجابية.

وجدير بالذكر أن شاعر الوطنية المرحوم حافظ بك إبراهيم قد نظم أبياتًا رائعة تحية لشجاعة المرأة المصرية، وتسجيلاً لهذا الحادث التاريخي. وقد نشرت ووزعت دون توقيع نظرا للظروف القائمة في ذلك الوقت.



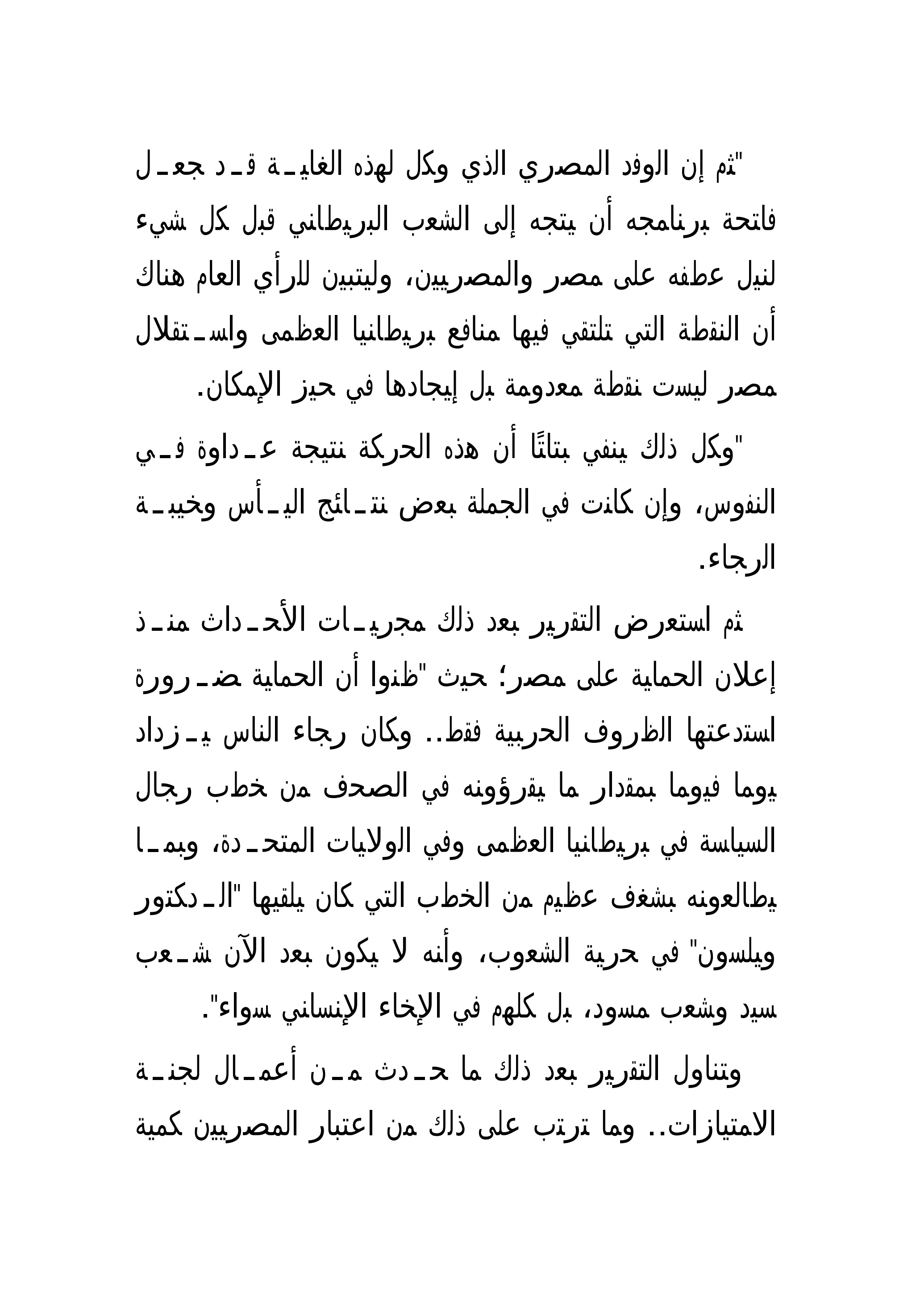
تقرير الوفد المصري

ظلت الأمور تتطور في البلاد في طريق الثورة يوما بعد يوم، وكان الوفد المصري الذي حمل أمانة المسئولية بعد نفي سعد زغلول باشا ورفاقه، يتصدى للمواقف المختلفة، ويعبر عن رأي الأمة.

وكان التطور الجديد في الأحداث هو ذلك التقرير الذي قدمه الوفد المصري إلى المندوب السامي البريطاني في ٣٠ مارس ١٩١٩، والذي دعا على أثره الأعضاء لمناقشتهم فيه في اليوم التالي مباشرة، أي في يوم ٣١ مارس ١٩١٩.

وقد جاء في هذا التقرير: إن الذي في نفوس المصريين ليس هو العداوة بأي نوع كان، بل هو الإحساس الطبيعي لكل أمة أن تستقل بشئونها.

"ولقد أظهرت الأمة في سلوكها طول مدة الحرب أنها تنتظر من بريطانيا العظمى معاملتها على هذا السلوك المستقيم وعلى الضحايا الكبرى التي غرمتها بما تستحق من الرعاية فتعترف لها بالاستقلال بعد زوال السيادة التركية عنها.



"ثم إن الوفد المصري الذي وكل لهذه الغايـة قـد جعـل فاتحة برنامجه أن يتجه إلى الشعب البريطاني قبل كل شيء لنيل عطفه على مصر والمصريين، وليتبين للرأي العام هناك أن النقطة التي تلتقي فيها منافع بريطانيا العظمى واسـتقلال مصر ليست نقطة معدومة بل إيجادها في حيز الإمكان.

"وكل ذلك ينفي بتاتًا أن هذه الحركة نتيجة عـداوة فـي النفوس، وإن كانت في الجملة بعض نتـائج اليـأس وخيبـة الرجاء.

ثم استعرض التقرير بعد ذلك مجريـات الأحـداث منـذ إعلان الحماية على مصر؛ حيث "ظنوا أن الحماية ضـرورة استدعتها الظروف الحربية فقط.. وكان رجاء الناس يـزداد يوما فيوما بمقدار ما يقرؤونه في الصحف من خطب رجال السياسة في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحـدة، وبمـا يطالعونه بشغف عظيم من الخطب التي كان يلقيها "الـدكتور ويلسون" في حرية الشعوب، وأنه لا يكون بعد الآن شـعب سيد وشعب مسود، بل كلهم في الإخاء الإنساني سواء".

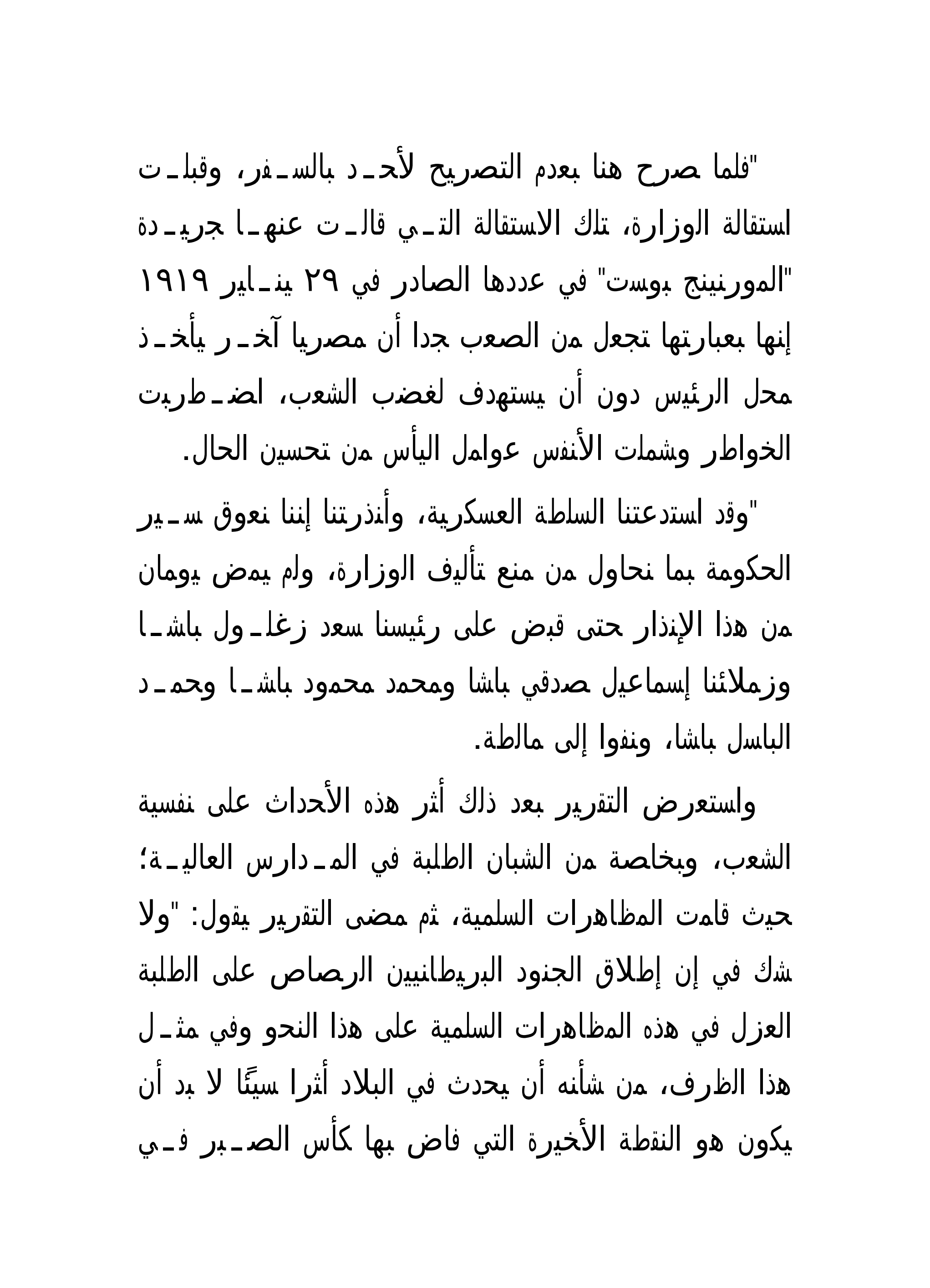
وتناول التقرير بعد ذلك ما حـدث مـن أعمـال لجنـة الامتيازات.. وما ترتب على ذلك من اعتبار المصريين كمية

عاطلة ليس لهم في إدارة بلادهم نصيب، فخيم الحزن على نفوس المصريين، ولكنهم اعتقدوا أن كل ذلك من عمل حزب الاستعمار، وأن الشعب البريطاني الحر لا يرضى بهذا التصرف".

"وما زالوا يعلقون آمالهم بالرأي العام البريطاني العام وبمؤتمر السلام الذي وضعت قواعده بفضل الأمم الحرة.

"ولما نشرت هذه القواعد تألف الوفد المصري وليس أعضاؤه من غير المسئولين ولا غير المعبرين عن الرأي العام كما يقال، بل إنه فضلاً على ما لرئيسه وبعض رجاله من صفة النيابة عن الأمة، قد وكله أكثر من ثلاثة أرباع نواب الجمعية التشريعية غير الوزارة، كما وكله أعضاء الهيئات النيابية الأخرى (مجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية) وكثير من الأفراد أولي الرأي في البلاد.

وطلب الوفد الترخيص له بالسفر إلى انجلترا وفرنسا، فلم يرخص له بذلك، فلما طال به الانتظار، رفع شكواه إلى المندوب السامي وقتئذ ثم إلى رئيس الوزارة البريطانية، ويطرق كل باب ليتمكن من السفر.

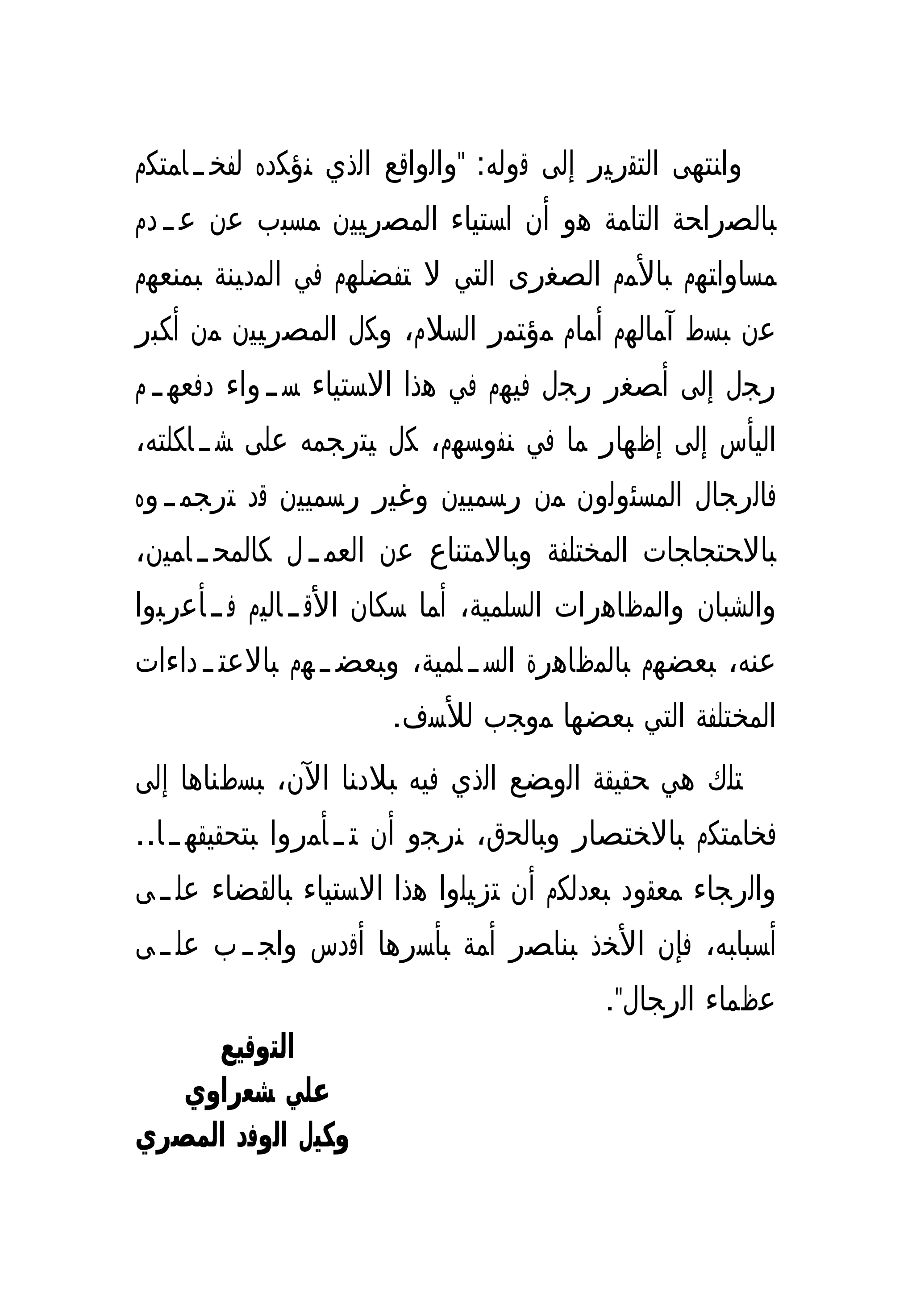


"فلما صرح هنا بعدم التصريح لأحد بالسفر، وقبلت استقالة الوزارة، تلك الاستقالة التي قالت عنها جريدة "المورنينج بوست" في عددها الصادر في ٢٩ يناير ١٩١٩ إنها بعبارتها تجعل من الصعب جدا أن مصريا آخر يأخذ محل الرئيس دون أن يستهدف لغضب الشعب، اضطربت الخواطر وشملت الأنفس عوامل اليأس من تحسين الحال.

"وقد استدعتنا السلطة العسكرية، وأنذرتنا إننا نعوق سير الحكومة بما نحاول من منع تأليف الوزارة، ولم يمض يومان من هذا الإنذار حتى قبض على رئيسنا سعد زغلول باشا وزملائنا إسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا، ونفوا إلى مالطة.

واستعرض التقرير بعد ذلك أثر هذه الأحداث على نفسية الشعب، وبخاصة من الشبان الطلبة في المدارس العالية؛ حيث قامت المظاهرات السلمية، ثم مضى التقرير يقول: "ولا شك في إن إطلاق الجنود البريطانيين الرصاص على الطلبة العزل في هذه المظاهرات السلمية على هذا النحو وفي مثل هذا الظرف، من شأنه أن يحدث في البلاد أثرا سيئًا لا بد أن يكون هو النقطة الأخيرة التي فاض بها كأس الصبر في

نفوس أهل البلاد، لأنه في يوم ١٥ ابتـدأت تـأتي أخبـار الاعتداء على طرق المواصلات ووقوع البلاد طرا في هـذا الإضراب الشديد. ذلك ولم يقف الاستياء من هـذه المعاملـة القاسية لأمة غير محاربة عند حد الرجال، فـإن السـيدات المخدرات لم يطقن أيضا احتمال هذه الصدمة، ولـم يقـف حجابهن الكثيف في طريق إظهار عواطفهن، بل قمن نحـو الثلاثمائة من عقائل أعلى البيوت في القاهرة بمظاهرة نشرت الجرائد صبح يومها أي يوم ٢٠ مارس إنها مصرح بها. فلما نزلن من عرباتهن وقطعن مسافة من طريقهن حتى وصـلن إلى بيت سعد زغلول باشا، أحدق بهن الجنود البريطـانيون مصوبين أفواه البنادق وسنان السنج نحـوهن، فـوقفن فـي الشمس محصورات بقوة السلاح نحو الساعتين، ثم سمح لهن أخيرا بعد أن رآهن على تلـك الحـال رجـال الوكـالتين السياسيتين الأمريكية والطليانية.. وكان هذا أيضا مظهرا من مظاهر سياسة الإحراج، تلك السياسـة التـي يجـب عـدلاً وإنصافًا أن تكون هي المسئولة عن النتـائج التـي نجمـت عنها".



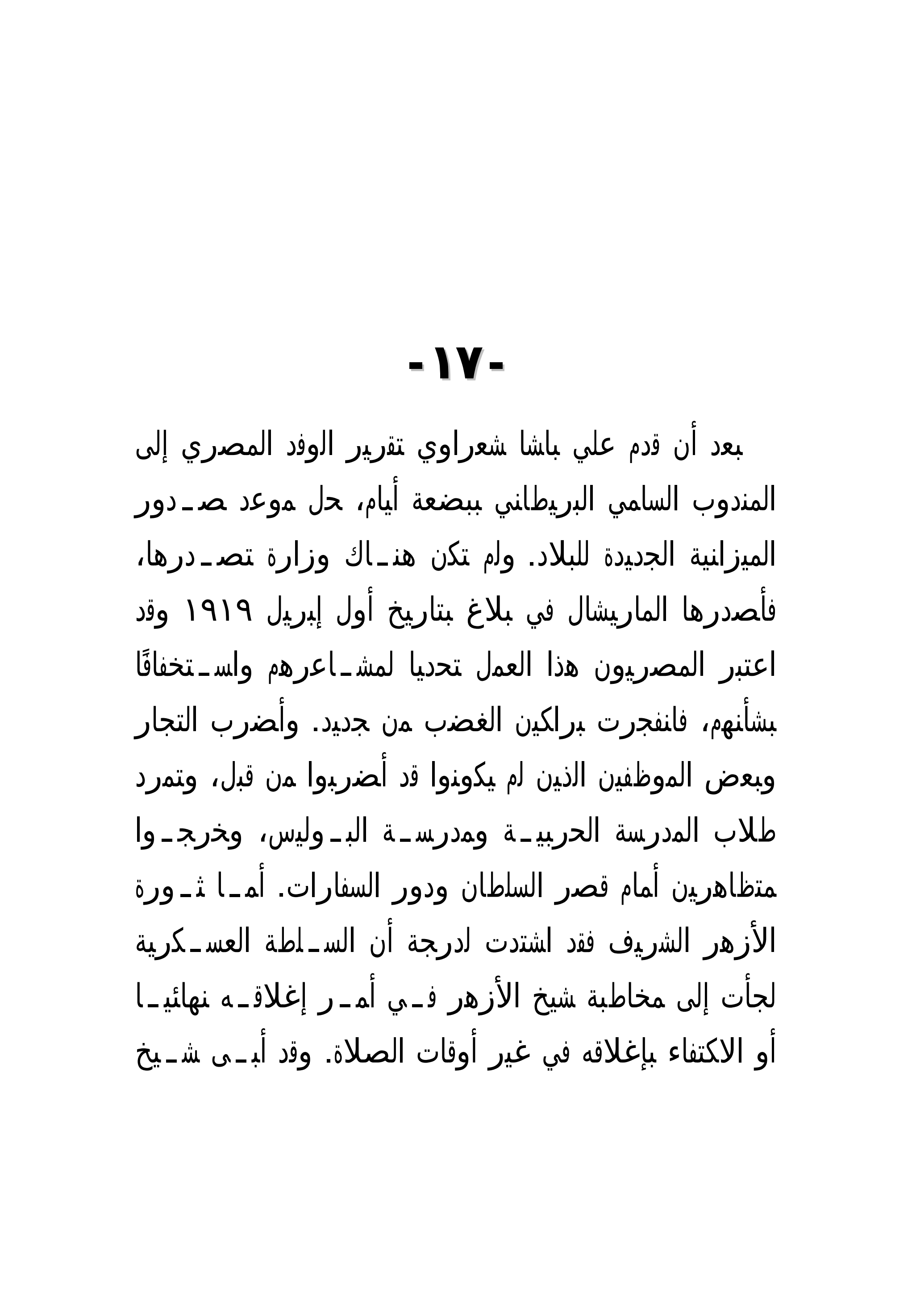
وانتهى التقرير إلى قوله: "والواقع الذي نؤكده لفخامتكم بالصراحة التامة هو أن استياء المصريين مسبب عن عدم مساواتهم بالأمم الصغرى التي لا تفضلهم في المدينة بمنعهم عن بسط آمالهم أمام مؤتمر السلام، وكل المصريين من أكبر رجل إلى أصغر رجل فيهم في هذا الاستياء سواء دفعهم اليأس إلى إظهار ما في نفوسهم، كل يترجمه على شاكلته، فالرجال المسئولون من رسميين وغير رسميين قد ترجموه بالاحتجاجات المختلفة وبالامتناع عن العمل كالمحامين، والشبان والمظاهرات السلمية، أما سكان الأقاليم فأعربوا عنه، بعضهم بالمظاهرة السلمية، وبعضهم بالاعتداءات المختلفة التي بعضها موجب للأسف.

تلك هي حقيقة الوضع الذي فيه بلادنا الآن، بسطناها إلى فخامتكم بالاختصار وبالحق، نرجو أن تأمروا بتحقيقها.. والرجاء معقود بعدلكم أن تزيلوا هذا الاستياء بالقضاء على أسبابه، فإن الأخذ بناصر أمة بأسرها أقدس واجب على عظماء الرجال".

التوقيع

علي شعراوي

وكيل الوفد المصري



-١٧-

بعد أن قدم علي باشا شعراوي تقرير الوفد المصري إلى المندوب السامي البريطاني ببضعة أيام، حل موعد صدور الميزانية الجديدة للبلاد. ولم تكن هناك وزارة تصدرها، فأصدرها الماريشال في بلاغ بتاريخ أول إبريل ١٩١٩ وقد اعتبر المصريون هذا العمل تحديا لمشاعرهم واستخفافًا بشأنهم، فانفجرت براكين الغضب من جديد. وأضرب التجار وبعض الموظفين الذين لم يكونوا قد أضربوا من قبل، وتمرد طلاب المدرسة الحربية ومدرسة البوليس، وخرجوا متظاهرين أمام قصر السلطان ودور السفارات. أما ثورة الأزهر الشريف فقد اشتدت لدرجة أن السلطة العسكرية لجأت إلى مخاطبة شيخ الأزهر في أمر إغلاقه نهائيا أو الاكتفاء بإغلاقه في غير أوقات الصلاة. وقد أبى شيخ

الأزهر أن يفعل ذلك، وقال إن ا ينهي المسلم عن إغلاق مساجد ا .

ولم يكن أمام اللورد اللنبي إلا أن يلعب بالورقة الأخيرة، فطلب من السلطان فؤاد أن يصدر منشورا ينصح فيه الأهالي بالخلود إلى السكنية، وقد فعل ذلك، وصدر المنشور السلطاني الذي نشر في الوقائع المصرية الصادر يوم الأحد ٦ إبريل ١٩١٩.

ولكن هذه المحاولة لم تجد نفعا، فقد ظلت الثورة قائمة ومشتعلة وبعد أن رأى اللورد اللنبي أنه قد جرب كل وسيلة بلا جدوى، قرر أن يلجأ إلى الحل الذي طلبه المصريون. فقد استعرض الحوادث التي شبت خلال هذا الشهر، ورأى أن اعتقال سعد ورفاقه قد أثار أحداثًا خطيرة، وأنه قد هبت على إثر ذلك أعظم ثورة في تاريخ مصر. ورأى أيضا أن زوجي علي باشا شعراوي باعتباره وكيل الوفد قد عالج هو وزملاؤه من رجال الوفد هذه المواقف بشجاعة مذهلة.

وإنهم رغم تعرضهم لقسوة الإنجليز، فإنهم قد مضوا في طريقهم مثابرين، ضاربين أروع الأمثال في شجاعتهم ووطنيتهم وتفانيهم في خدمة البلاد والثبات على المبدأ.

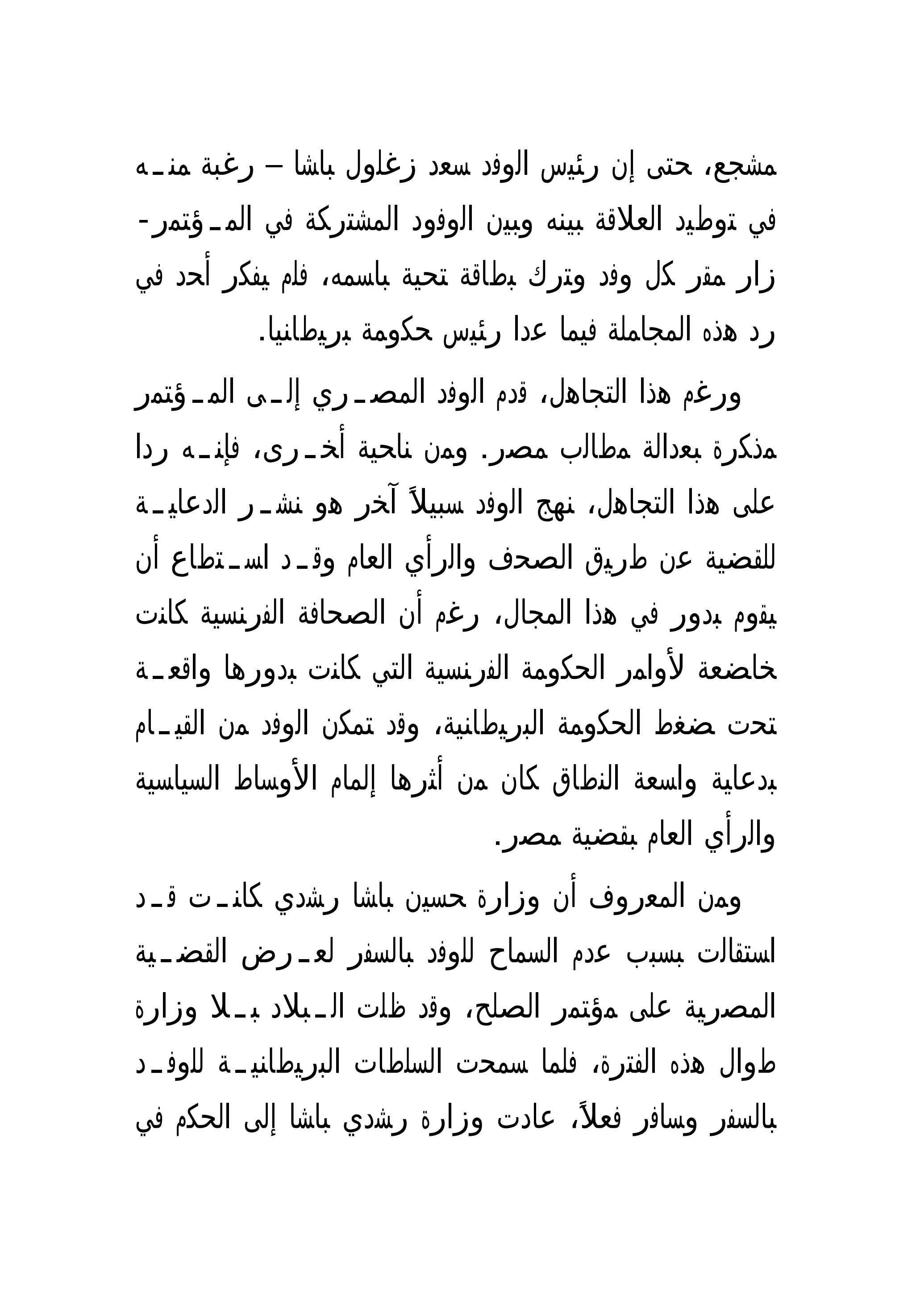
وإزاء ذلك كله، أصدر اللورد اللنبي إعلانًا بأن الحكومـة البريطانية قد سمحت لأعضاء الوفد المصري بالسفر.

وكان هذا الإعلان تغيرا في السياسة الإنجليزية بعـد أن وجدت إنجلترا أنه لا سبيل إلى الاستمرار في تلك السياسـة التي نتج عنها قيام الثورة الخطيرة في البلاد.

وكان أن عدلت عنها، وأفرجت عن سعد ورفاقه يـوم ٧ إبريل ١٩١٩، ورتبت سفر باقي أعضاء الوفـد المصـري؛ بحيث يلتقون مع سعد زغلول باشا ورفاقه في المركب التـي تحملهم إلى باريس.

وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا شديدا بهذا النصـر السياسـي، وعمتها نشوة الفرح، وقامت مظاهرات الابتهاج بـدلاً مـن مظاهرات الغضب والثورة. ورغم كثرة المظـاهرات فـي جميع أنحاء البلاد، فقد انعدمت حوادث السـرقة والشـغب. واشترك في هذه المظاهرات كبار القوم وصغارهم، وكلهـم مستبشر بما أحرزته البلاد من فوز نتيجة الوحدة والائتلاف.

وبعد الإفراج عن الزعماء المنفيين وانضـمام الأعضـاء الآخرين إليهم، ذهبوا جميعا إلى باريس للاشتراك في مؤتمر السلام، وقدموا إليه طلبا فرفض طلبهم، وقوبلوا استقبالاً غير



مشجع، حتى إن رئيس الوفد سعد زغلول باشا – رغبة منه في توطيد العلاقة بينه وبين الوفود المشتركة في المؤتمر- زار مقر كل وفد وترك بطاقة تحية باسمه، فلم يفكر أحد في رد هذه المجاملة فيما عدا رئيس حكومة بريطانيا.

ورغم هذا التجاهل، قدم الوفد المصري إلى المؤتمر مذكرة بعدالة مطالب مصر. ومن ناحية أخرى، فإنه ردا على هذا التجاهل، نهج الوفد سبيلاً آخر هو نشر الدعاية للقضية عن طريق الصحف والرأي العام وقد استطاع أن يقوم بدور في هذا المجال، رغم أن الصحافة الفرنسية كانت خاضعة لأوامر الحكومة الفرنسية التي كانت بدورها واقعة تحت ضغط الحكومة البريطانية، وقد تمكن الوفد من القيام بدعاية واسعة النطاق كان من أثرها إلمام الأوساط السياسية والرأي العام بقضية مصر.

ومن المعروف أن وزارة حسين باشا رشدي كانت قد استقالت بسبب عدم السماح للوفد بالسفر لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح، وقد ظلت البلاد بلا وزارة طوال هذه الفترة، فلما سمحت السلطات البريطانية للوفد بالسفر وسافر فعلاً، عادت وزارة رشدي باشا إلى الحكم في

٩ إبريل ١٩١٩، ولكنها لم تستطع الاستمرار في الحكم طويلاً لعدم تمكنها من التوفيق بين مطالب المصريين وبين إرادة السلطات البريطانية وكان أن استقالت، وأعقبتها وزارة محمد سعيد باشا الذي صرح للصحف غداة تأليف الوزارة بأن وزارته لا تبت في شيء له مساس بمركز مصر السياسي، وإنها ليست لها صفة سياسية لأن المسألة لم يبت فيها بعد في مؤتمر الصلح.

وقد استطاع سعيد باشا في مدة رئاسته للوزارة، أن يخفف بعض الأحكام الصارمة فرفع شيئًا من الضغط عن الصحافة والخطابة. ولكن الناس كانوا يسيئون الظن بنياته، لأنهم كانوا يعرفون جفاءه لسعد باشا ووفاقه مع اللورد اللنبي فأوجسوا منه خيفة، وثار بعضهم عليه، ورماه أحدهم بقنبلة لم تصبه.

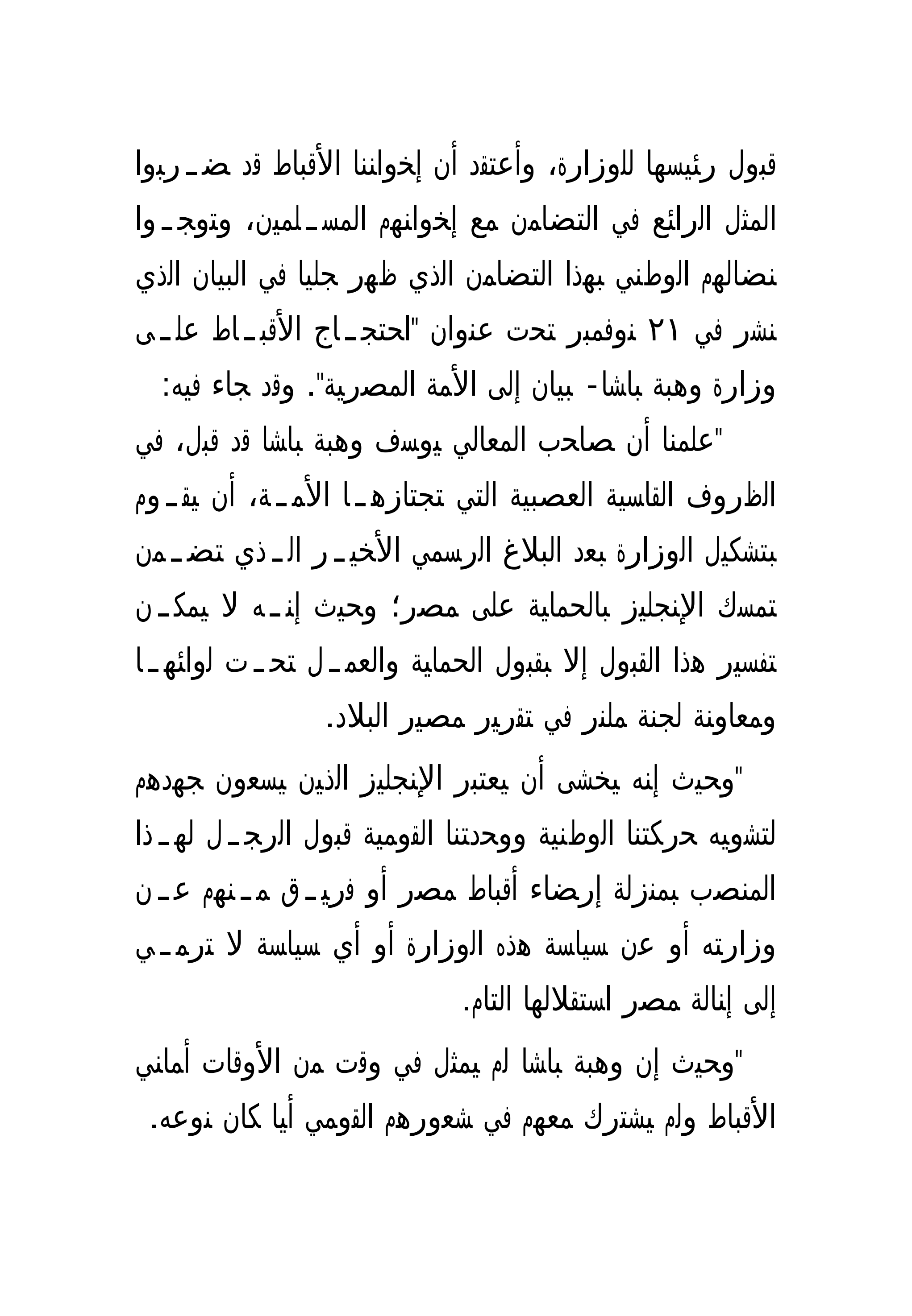
على أن الوفاق بين سعيد باشا واللورد اللنبي لم يمتد طويلاً، فقد اختلفا في مسألة لجنة ملنر والغرض من قدومها فقد كان اللورد اللنبي باختصار يرى أن امتعاض المصريين من قدوم لجنة ملنر سبب كاف لتعجيل قدومها بينما كان رئيس الوزارة يرى ألا تحضر اللجنة قبل الفراغ من حل

القضية المصرية بين الدولة العثمانية والدولة البريطانية، وقد أدى هذا الخلاف إلى استقالة سعيد باشا من رئاسة الوزارة.

وفي ٢١ نوفمبر ١٩١٩، قبل يوسف باشا وهبة تشكيل الوزارة، ونهج منهاج سلفه على أن تكون وزارته إدارية، واتخذ خطة الحياة بالنسبة للجنة ملنر المقبلة.

وقد وصلت لجنة ملنر إلى القاهرة يوم ٧ ديسمبر ١٩١٩ في جو مشحون بالكراهية وسوء الظن من جميع المصريين الذين كانوا على إيمان واقتناع كاملين بأن هذه اللجنة تهدف إلى احتواء مصر ضمن المستعمرات البريطانية، لا سيما أن وظيفة رئيس اللجنة لورد ملنر هي "وزير مستعمرات". وهذا وحده كفيل بأن يوحي بوجود هذه النية، فضلاً عن أن أعضاءها كلهم من المستعمرين، ورغم أن اللجنة أصدرت بيانًا تطمئن فيه الأمة إلى حسن نواياها وإلى رغبتها في التعاون للتوفيق بين أماني الأمة وبين المصالح الخاصة لبريطانيا، فإنها قد تطوعت من الوفد ومن البلاد كافة، ولم يعد أمامه مناص من السفر بعد مدة لم تطل.

أما وزارة يوسف باشا وهبة فقد قوبلت بكثير من الامتعاض من أهل البلاد قاطبة، وتوالت الاحتجاجات على



قبول رئيسها للوزارة، وأعتقد أن إخواننا الأقباط قد ضربوا المثل الرائع في التضامن مع إخوانهم المسلمين، وتوجوا نضالهم الوطني بهذا التضامن الذي ظهر جليا في البيان الذي نشر في ٢١ نوفمبر تحت عنوان "احتجاج الأقباط على وزارة وهبة باشا- بيان إلى الأمة المصرية". وقد جاء فيه:

"علمنا أن صاحب المعالي يوسف وهبة باشا قد قبل، في الظروف القاسية العصيبة التي تجتازها الأمة، أن يقوم بتشكيل الوزارة بعد البلاغ الرسمي الأخير الذي تضمن تمسك الإنجليز بالحماية على مصر؛ وحيث إنه لا يمكن تفسير هذا القبول إلا بقبول الحماية والعمل تحت لوائها ومعاونة لجنة ملنر في تقرير مصير البلاد.

"وحيث إنه يخشى أن يعتبر الإنجليز الذين يسعون جهدهم لتشويه حركتنا الوطنية ووحدتنا القومية قبول الرجل لهذا المنصب بمنزلة إرضاء أقباط مصر أو فريق منهم عن وزارته أو عن سياسة هذه الوزارة أو أي سياسة لا ترمي إلى إنالة مصر استقلالها التام.

"وحيث إن وهبة باشا لم يمثل في وقت من الأوقات أماني الأقباط ولم يشترك معهم في شعورهم القومي أيا كان نوعه.

"وحيث إنه لا فرق بين مسلم وقبطي بل المصريون كلهم شخص واحد، ولكن الأقباط يرون أنفسهم مضطرين إلى أن يتقدموا بصفتهم أقباطًا لإظهار شعورهم حيال هذا الحادث.

"لذلك هم يلعنون براءتهم من كل رجـل أو هيئـة تقبـل الحماية أو تساعد على تعضيدها".

"فلكل هذه الأسباب يعلن الموقعون على هذا اشتراكهم مع سائر طبقات الأمة المصرية في الاحتجـاج علـى تشـكيل الوزارة الجديدة".

وقد وقع هذا البيان من رجال الدين المسـيحي: القمـص باسيليوس إبراهيم وكيل البطريركية، والقمص بطرس عوض ا رئيس الكنيسة البطريركية، والقمص سـيداروس غـالي نائب رئيس المجلس العام وعضو المجلس الروحي، والقمص سلامة منصور رئيس المجلـس الأعلـى الملـي الفرعـي، والقمص مرقص سرجيوس، والقمص عبد المسيح ميخائيـل رئيس كنيسة الفجالة.

ومن قادة الرأي وأعضاء الوفد: سينوت بك حنا، ويصـا بك واصف، فهمي بك حنا ويصا، أمين بك خياط، شكري بك بطرس، سامي أخنوخ فانوس، إبراهيم تكـلا، ولـيم مكـرم

عبيد، راغب اسكندر، عزيز مشرقي، الدكتور إبراهيم فهمي المنياوي باشا الدكتور نجيب اسكندر باشا.

وإلى جانب ذلك، فقد عقد اجتماع كبير في الكنيسة المرقصية الكبرى برئاسة القمص باسيلوس وكيل البطريركية.. وقد تناوب فيه الخطباء محتجين على قبول وهبة باشا تشكيل الوزارة، ومعبرين عن تضامنهم مع إخوانهم المسلمين. وقد أرسل المجتمعون برقية إلى وهبة باشا محتجين على قبوله الوزارة، "إذ هو قبول للحماية ولمناقشة لجنة ملنر، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الأمة المصرية من طلب الاستقلال التام ومقاطعة اللجنة".

وفي صباح يوم الاثنين ١٥ ديسمبر ١٩١٩، نشرت الصحف نبأ محاولة اغتيال رئيس الوزراء؛ حيث قام بهذه المحاولة شاب وطني من أقباط مصر يدعى "عريان أفندي يوسف" بمدرسة الطب، بإطلاق أربع رصاصات من مسدس بيده على سيارة رئيس الوزراء في ميدان سوارس، وقد تحطم زجاج السيارة، ونجا رئيس الوزراء.

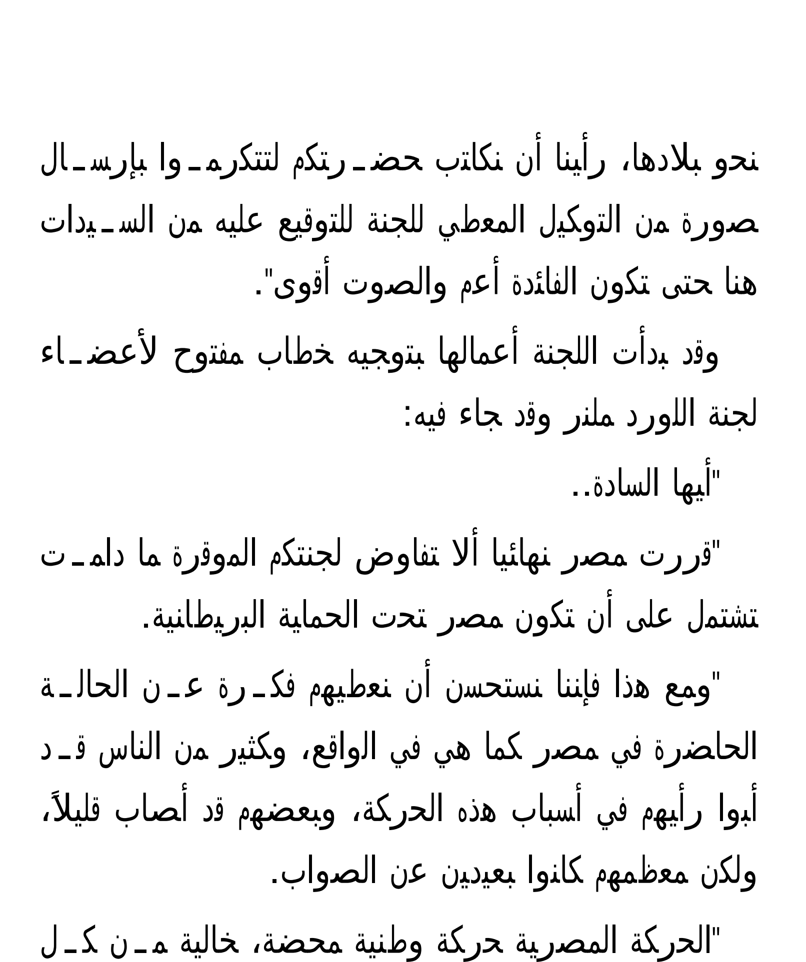
لجنة الوفد للسيدات:

كنت قد سافرت إلى مدينة الأقصر خلال تلك الفترة التي تم فيها تشكيل لجنة الوفد المركزية للسيدات. وقد تم كل شيء وأنا بعيدة عن القاهرة، إلى أن وصلتني رسالة من السيدة استر فهمي ويصا، تخبرني فيها بأن السيدات قد اجتمعن في الكنيسة المرقصية الكبرى يوم الخميس ٨ يناير ١٩٢٠. وقد نجحت عملية الانتخاب نجاحا باهرا، وأسفرت النتيجة عن انتخاب السيدات: حرم شعراوي باشا (١٣٩ صوتًا) حرم فهمي بك (١٠٢ صوت)، حرم عمر باشا سلطان (١٠٠ صوت) حرم رياض باشا (٩٨ صوتًا) حرم حجازي بك (٧٥ صوتًا) الآنسة فكرية حسني (٦٨ صوتًا) حرم أحمد بك أبو أصبح (٦٥ صوتًا) حرم مقاري بك (٦٣ صوتًا)، حرم علوي باشا (٥٢ صوتًا) حرم رفيق بك فتحي (٥٠ صوتًا) حرم مجيب بك فتحي (٥٠ صوتًا) حرم تكلا باشا (٣٨ صوتًا) حرم الدكتور أحمد عزت (٣٨ صوتًا) حرم أحمد أفندي شاكر (٣٣ صوتًا) حرم ويصا واصف أفندي (٢٣ صوتًا).

وقالت السيدة استر فهمي ويصا في رسالتها: "ويغلب على ظني أن أغلبية تلك السيدات مناسبة، ومرسل لك الاحتجاج من نسختين للتوقيع عليهما بصفتك الرئيسة وردهما بالتالي.. ونرجو أن يصلا برجوع البريد للأهمية".

وقد نص قانون لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات على أن "مهمة هذه اللجنة مساعدة اللجنة المركزية للوفد المصري في تبليغ الوفد المصري أماني السيدات المصريات والسعي بكل ما يمكنها (أي لجنة السيدات) لاستمرار المطالبة باستقلال مصر استقلالاً تاما.. وأن تقوم هذه اللجنة ما دام العمل الذي انتدب الوفد لأجله قائما.. وتصدر القرارات بأغلبية الآراء، وإذا تساوت يرجح رأي الفريق الذي فيه الرئيسة".

ولم يكد يعلن عن قيام لجنة الوفد المركزية للسيدات، حتى انهالت علينا التوكيلات الصادرة من المواطنات في القاهرة والأقاليم، مؤكدة أن "للجنة المذكورة أن تمثل أمام جميع الهيئات". كما تلقيت رسالة من السيدة حرم عبد السلام فهمي جمعة باشا رئيسة اتحاد ترقي المرأة المصرية بطنطا، تقول فيها: "ولما كان مفروضا على كل مصرية أن تؤدي الواجب



نحو بلادها، رأينا أن نكاتب حضرتكم لتتكرموا بإرسال صورة من التوكيل المعطي للجنة للتوقيع عليه من السيدات هنا حتى تكون الفائدة أعم والصوت أقوى".

وقد بدأت اللجنة أعمالها بتوجيه خطاب مفتوح لأعضاء لجنة اللورد ملنر وقد جاء فيه:

"أيها السادة..

"قررت مصر نهائيا ألا تفاوض لجنتكم الموقرة ما دامت تشتمل على أن تكون مصر تحت الحماية البريطانية.

"ومع هذا فإننا نستحسن أن نعطيهم فكرة عن الحالة الحاضرة في مصر كما هي في الواقع، وكثير من الناس قد أبوا رأيهم في أسباب هذه الحركة، وبعضهم قد أصاب قليلاً، ولكن معظمهم كانوا بعيدين عن الصواب.

"الحركة المصرية حركة وطنية محضة، خالية من كل صبغة دينية أو تأثير تركي، ولا دخل للبلشفية فيها مطلقًا، وليست نتيجة حالة الغلاء الحاضر كما ذكر بعضهم.

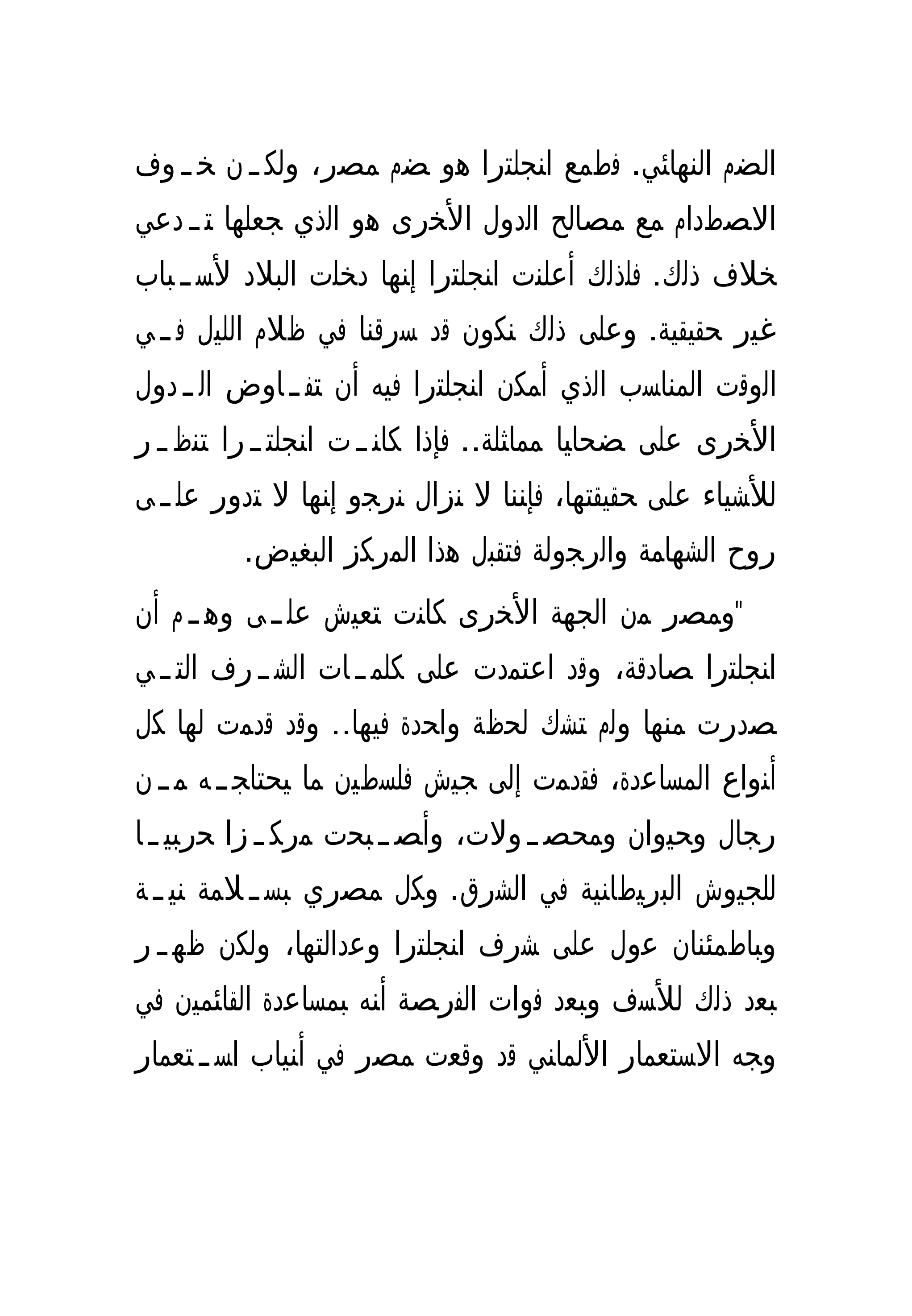
"والمسألة المصرية وطنية محضة.. ويمكننا أن نقول إن ثورة اليوم هي نتيجة سوء الإدارة في مصر، وحقيقة لا يمكننا أن نقول إن سوء الإدارة هو السبب المباشر في

إحداث هذه الثورة، ولكن لا يمكننا أن ننكر أن سـوء الإدارة قد أيقظ الصفات الكامنة في المصريين.

"إن نار الوطنية الحقيقية التي تزكيها المدنية الصـحيحة، وإن أخمدتها الفتوحات المتعددة والمدنيات المظلمة، إلا أنهـا كامنة على الدوام، وقد ساعد على اشـتعالها ثانيـة النفـوذ الإنكليزي ومدنية القرن العشرين، وقـد قـدم سـوء الإدارة البريطانية الوقود من جديد لاشتعال هذه الروح فـي قلـوب المصريين.

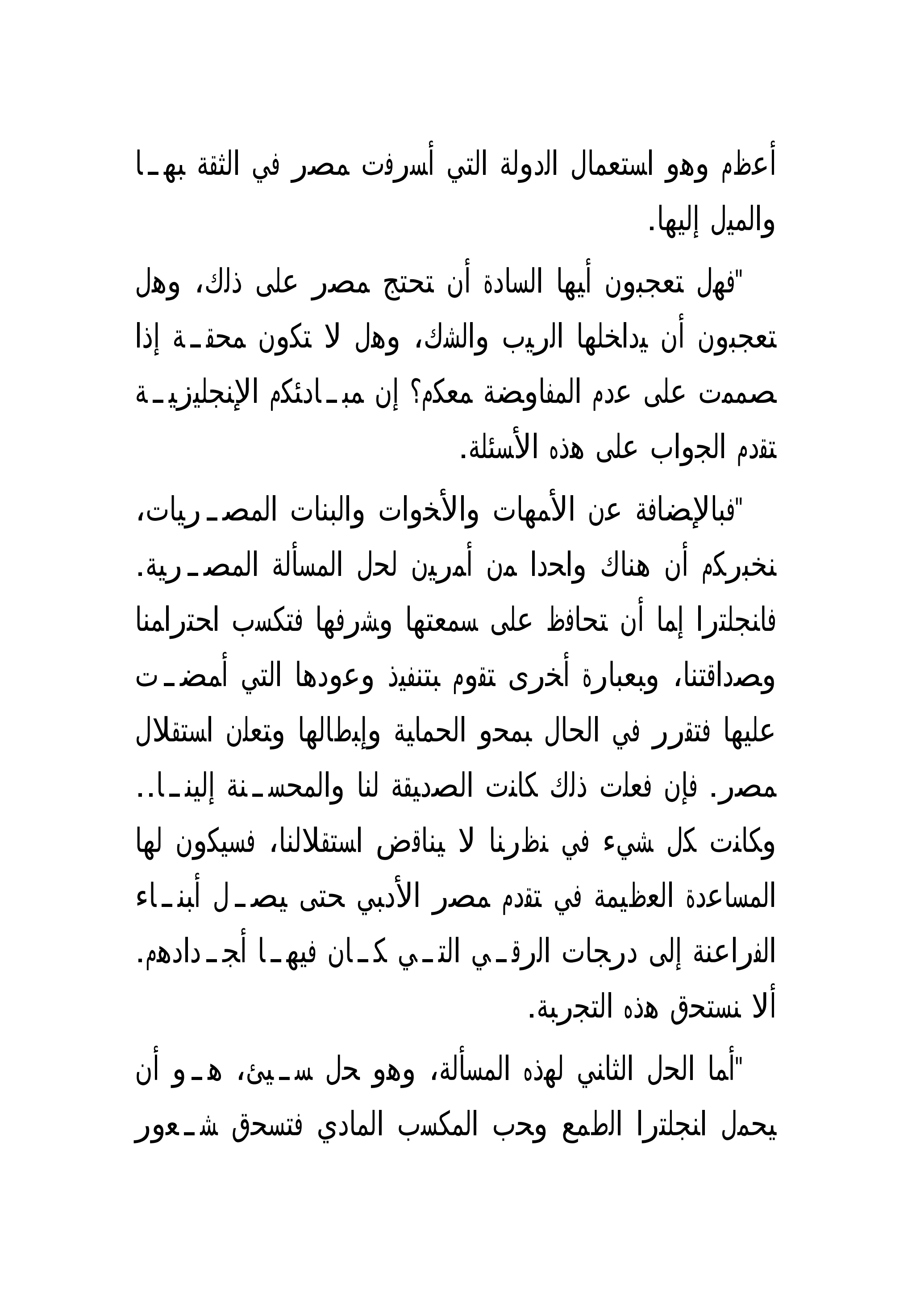
"تفخر انجلترا بأنها حكمت مصـر حكمـا صـالحا فـي الماضي، ونحن نشكرها على ذلك. ولعظمة انجلتـرا شـأن كبير في ذلك النجاح رغما عما يقوله اللورد ملنر مـن أنـه لا يوجد شيء اسمه عظمة، فلم تكن العظمة المشـار إليهـا عظمة القوة العسكرية التي حفظـت خضـوع المصـريين وهدوءهم في مـدة الحكـم البريطـاني، فـإن المصـريين لا يخافون المدافع، ولكنها العظمة الناتجة من حسن سـمعة إنجلترا.

"ولابد أن انجلترا قد حضرت إلى مصر لـذلك الغـرض الوحيد، وهو تأييد مصالحها التجارية وتمهيد الطريـق إلـى



الضم النهائي. فطمع انجلترا هو ضم مصر، ولكن خوف الاصطدام مع مصالح الدول الأخرى هو الذي جعلها تدعي خلاف ذلك. فلذلك أعلنت انجلترا إنها دخلت البلاد لأسباب غير حقيقية. وعلى ذلك نكون قد سرقنا في ظلام الليل في الوقت المناسب الذي أمكن انجلترا فيه أن تفاوض الدول الأخرى على ضحايا مماثلة.. فإذا كانت انجلترا تنظر للأشياء على حقيقتها، فإننا لا نزال نرجو إنها لا تدور على روح الشهامة والرجولة فتقبل هذا المركز البغيض.

"ومصر من الجهة الأخرى كانت تعيش على وهم أن انجلترا صادقة، وقد اعتمدت على كلمات الشرف التي صدرت منها ولم تشك لحظة واحدة فيها.. وقد قدمت لها كل أنواع المساعدة، فقدمت إلى جيش فلسطين ما يحتاجه من رجال وحيوان ومحصولات، وأصبحت مركزا حربيا للجيوش البريطانية في الشرق. وكل مصري بسلامة نية وباطمئنان عول على شرف انجلترا وعدالتها، ولكن ظهر بعد ذلك للأسف وبعد فوات الفرصة أنه بمساعدة القائمين في وجه الاستعمار الألماني قد وقعت مصر في أنياب استعمار



أعظم وهو استعمال الدولة التي أسرفت مصر في الثقة بهـا والميل إليها.

"فهل تعجبون أيها السادة أن تحتج مصر على ذلك، وهل تعجبون أن يداخلها الريب والشك، وهل لا تكون محقـة إذا صممت على عدم المفاوضة معكم؟ إن مبـادئكم الإنجليزيـة تقدم الجواب على هذه الأسئلة.

"فبالإضافة عن الأمهات والأخوات والبنات المصـريات، نخبركم أن هناك واحدا من أمرين لحل المسألة المصـرية. فانجلترا إما أن تحافظ على سمعتها وشرفها فتكسب احترامنا وصداقتنا، وبعبارة أخرى تقوم بتنفيذ وعودها التي أمضـت عليها فتقرر في الحال بمحو الحماية وإبطالها وتعلن استقلال مصر. فإن فعلت ذلك كانت الصديقة لنا والمحسـنة إلينـا.. وكانت كل شيء في نظرنا لا يناقض استقلالنا، فسيكون لها المساعدة العظيمة في تقدم مصر الأدبي حتى يصـل أبنـاء الفراعنة إلى درجات الرقـي التـي كـان فيهـا أجـدادهم. ألا نستحق هذه التجربة.

"أما الحل الثاني لهذه المسألة، وهو حل سـيئ، هـو أن يحمل انجلترا الطمع وحب المكسب المادي فتسحق شـعور

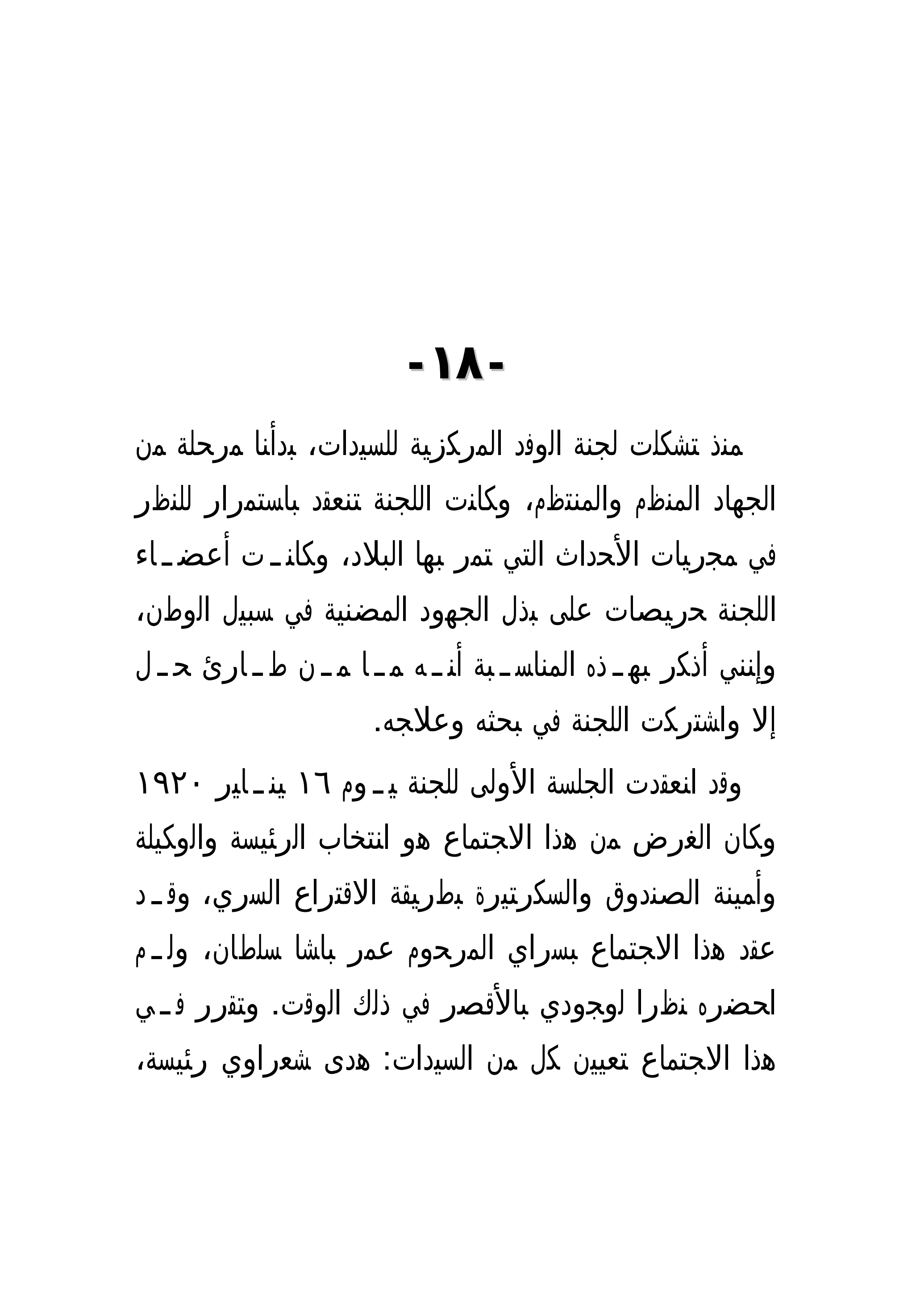
نفسها بالشرف والواجب، وتستولي على مصـر بالتـدريج وبالقوة، فإذا تظلم المصريون قـابلتهم بنـار البنـادق كمـا حصل.. إن لإنجلترا قوة كافيـة مـن الجـيش والأسـطول والطيارات، ولكننا سنحتج ونتظلم وسنحارب بلا سلاح حتى تروى أرض أبنائنا بدمائنا، فنموت موتة السعداء.

"وإن تاريخنا في زمن الرومان وما بعده يؤيد ما سبق من العبارات. لا تنسوا أيها السادة المحترمون المئة ألف شـهيد في زمن ديوكليشن.. ونرجو لكم أن تنظروا إلى المصـريين في ذلك العهد بأنهم هم آباء المصريين الحاليين والدم فـيهم واحد.

"وإننا نستميح العذر في الكلام بهذه الصراحة، فإن الأولى يكون الإنسان صريحا لا سيما في زمن سئمت فيه الدنيا من طريقة المحاولات القديمة، وبعد هذه الحرب العظيمة لا يمكن لشيء أن يبقى سوى الحريـة والعـدل والصـدق. سـترفع الفضيلة رأسها على مر الزمن، ويخيل لنا أن انجلترا ستكون أكبر العاملين على ذلك"

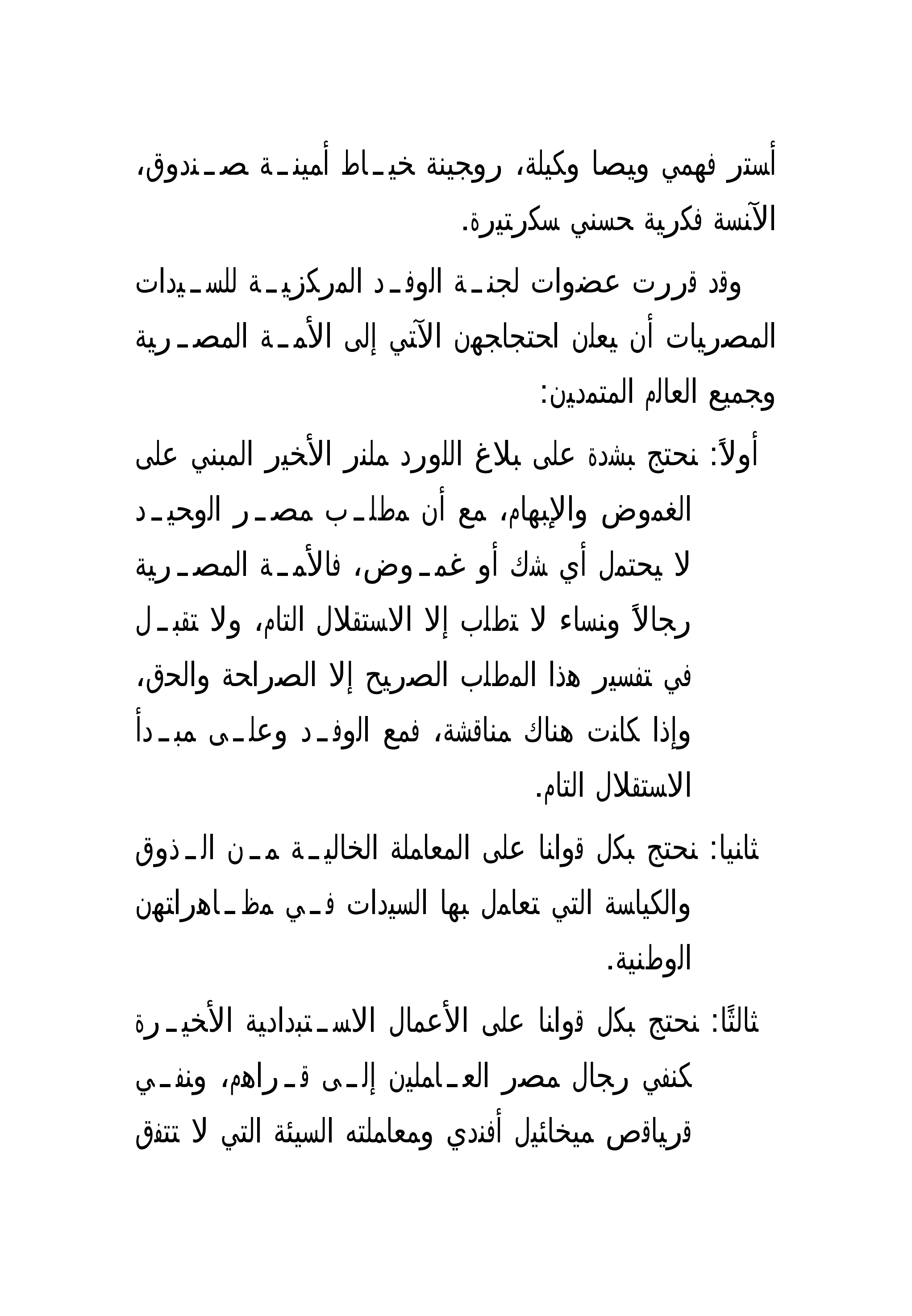
عن سيدات مصر:

هدى شعراوي



منذ تشكلت لجنة الوفد المركزية للسيدات، بدأنا مرحلة من الجهاد المنظم والمنتظم، وكانت اللجنة تنعقد باستمرار للنظر في مجريات الأحداث التي تمر بها البلاد، وكانـت أعضـاء اللجنة حريصات على بذل الجهود المضنية في سبيل الوطن، وإنني أذكر بهـذه المناسـبة أنـه مـا مـن طـارئ حـل إلا واشتركت اللجنة في بحثه وعلاجه.

وقد انعقدت الجلسة الأولى للجنة يـوم ١٦ ينـاير ١٩٢٠ وكان الغرض من هذا الاجتماع هو انتخاب الرئيسة والوكيلة وأمينة الصندوق والسكرتيرة بطريقة الاقتراع السري، وقـد عقد هذا الاجتماع بسراي المرحوم عمر باشا سلطان، ولـم احضره نظرا لوجودي بالأقصر في ذلك الوقت. وتقرر فـي هذا الاجتماع تعيين كل من السيدات: هدى شعراوي رئيسة،



أستر فهمي ويصا وكيلة، روجينة خياط أمينة صندوق، الآنسة فكرية حسني سكرتيرة.

وقد قررت عضوات لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات أن يعلن احتجاجهن الآتي إلى الأمة المصرية وجميع العالم المتمدين:

أولاً: نحتج بشدة على بلاغ اللورد ملنر الأخير المبني على الغموض والإبهام، مع أن مطالب مصر الوحيد لا يحتمل أي شك أو غموض، فالأمة المصرية رجالاً ونساء لا تطلب إلا الاستقلال التام، ولا تقبل في تفسير هذا المطلب الصريح إلا الصراحة والحق، وإذا كانت هناك مناقشة، فمع الوفد وعلى مبدأ الاستقلال التام.

ثانيا: نحتج بكل قوانا على المعاملة الخالية من الذوق والكياسة التي تعامل بها السيدات في مظاهراتهن الوطنية.

ثالثًا: نحتج بكل قوانا على الأعمال الاستبدادية الأخيرة كنفي رجال مصر العاملين إلى قراهم، ونفي قرياقص ميخائيل أفندي ومعاملته السيئة التي لا تتفق

مع مبادئ الحرية والعدالة، ونطالب وضع حد لهـذه الطرق الاستبدادية التي لا تتفق مع مدنية أمة حرة.

رابعا: نطالب وسنطالب باستقلال بلادنا التام، ولن نرضـى غيره بديلاً، "فلتحيا" مصر حرة، و"ليحيا" الاسـتقلال التام.

هذا وقد اعترضت "بهيرة هانم فتحي" علـى جملـة "وإذا كانت هناك مناقشة فمع الوفد"، قائلة: نحن لا نريد ولا نقبـل المفاوضة معهم بأي شكل كان، ولا نريد سـوى الاسـتقلال دون قيد ولا شرط. وأرسلت نسخة منه للورد وأخرى للجنة الوفد المركزية للرجال.

وكان سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري قد أرسـل برقية من باريس بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٢٠، أعلـن فيهـا أن الوفد المصري بعد بلاغ اللورد ملنر، وأكد فيها أنه لا يمكن فتح باب المفاوضة إلا بعد الاعتراف باستقلالنا التام، فهنـاك وهناك فقط، يمكن أن يتفاوض الوفد في دائرة واحـدة هـي طريق المحافظة على مصالح الأجانب وعلى حرية الملاحـة في قناة السويس طبقًا لبرنامج الوفد"..

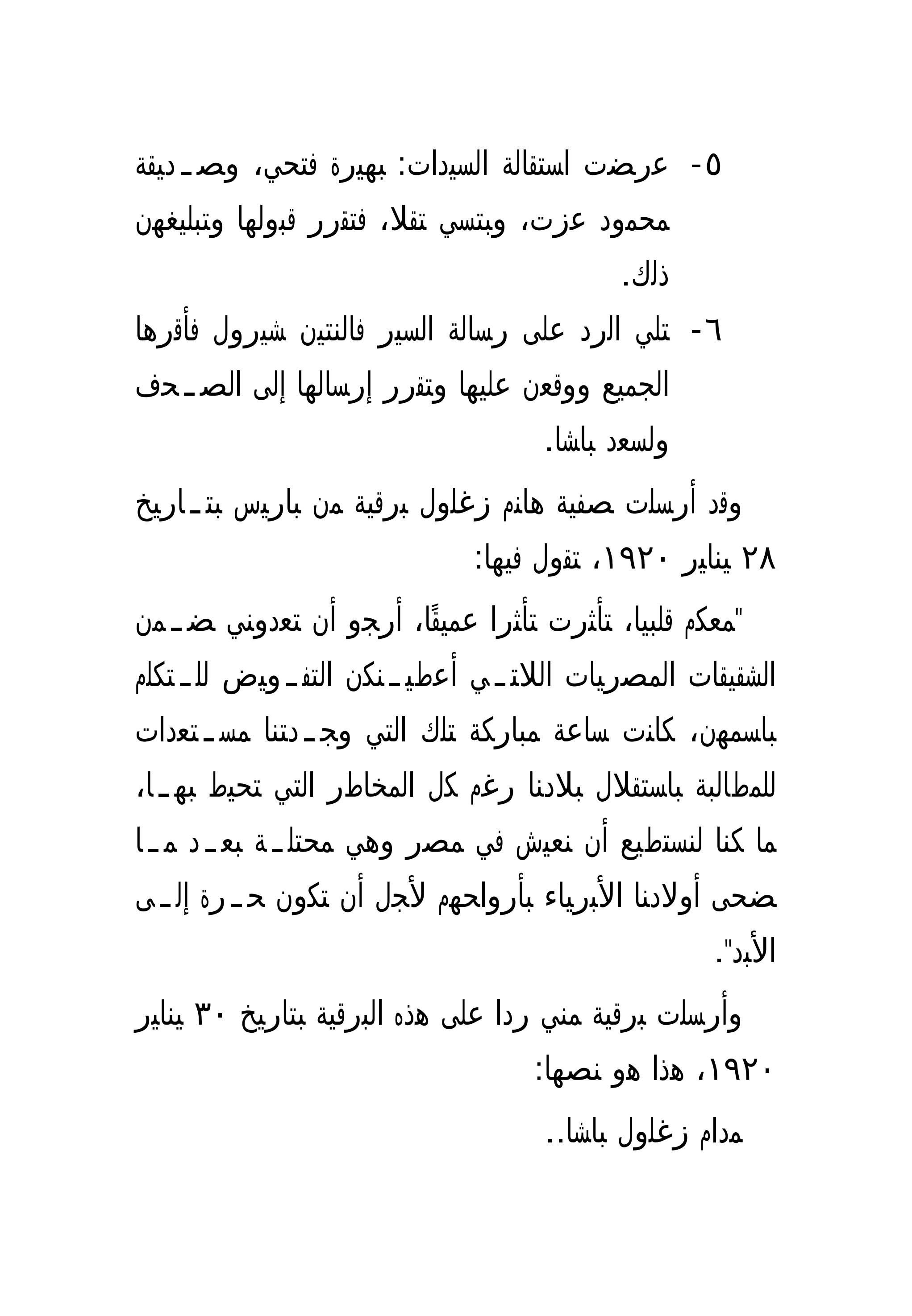
وقد عقدت لجنة الوفد المركزيـة للسـيدات المصـريات جلستها الثالثة في ٣٠ يناير ١٩٢٠، وتناولت المسائل التالية:

١- عرض إرسال شكر لمعالي سعد باشـا ردا علـى رسالته البرقية، فوافق الجميع.

٢- اقتراح بجعل حرم سعد باشا رئيسة شرف وممثلة للجنة في باريس وإفادتها بذلك مع شـكرها علـى برقيتها، فصدق على ذلك بإجماع الآراء.

٣- عرض عمل احتجاج على فظائع طنطـا، فوافـق الجميع على ذلك، وعهد إلـى إحـداهن بكتابتـه. وتقرر انعقاد جلسة فوق العادة يوم ٣١ منه بذهبية فهمي بك ويصا الساعة الخامسة مساء للتوقيع على الاحتجاج المذكور بعد الإطلاع عليه.

٤- اقترح أن يكون الاجتماع أسبوعيا لضرورة ذلـك، فتقرر قبول ذلك بعد المناقشة، وجعل الاجتماع كل يوم جمعة من كل أسبوع الساعة العاشرة والنصف صباحا.



٥- عرضت استقالة السيدات: بهيرة فتحي، وصديقة محمود عزت، وبتسي تقلا، فتقرر قبولها وتبليغهن ذلك.

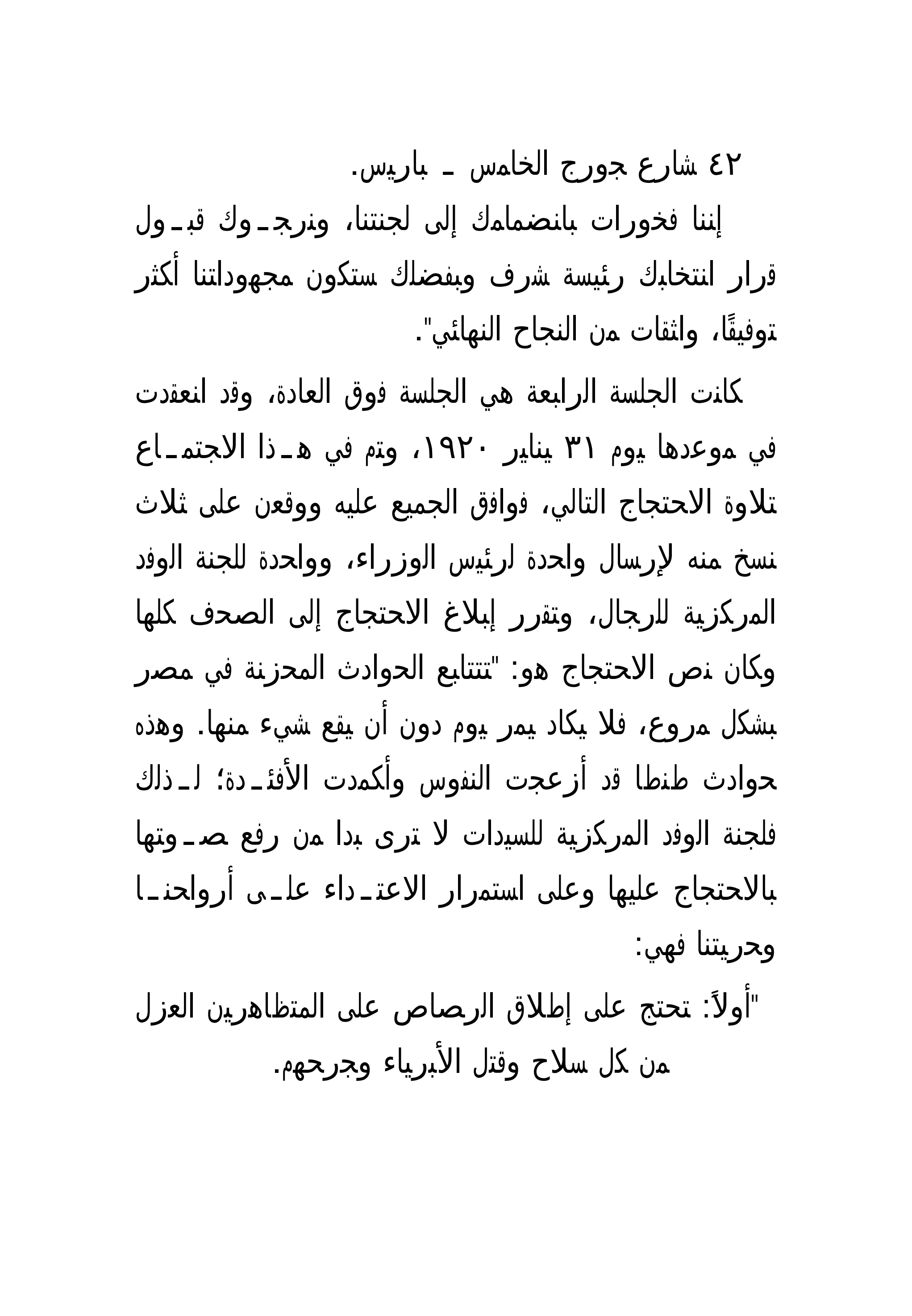
٦- تلي الرد على رسالة السير فالنتين شيرول فأقرها الجميع ووقعن عليها وتقرر إرسالها إلى الصحف ولسعد باشا.

وقد أرسلت صفية هانم زغلول برقية من باريس بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٢٠، تقول فيها:

"معكم قلبيا، تأثرت تأثرا عميقًا، أرجو أن تعدوني ضمن الشقيقات المصريات اللاتي أعطينكن التفويض للتكلم باسمهن، كانت ساعة مباركة تلك التي وجدتنا مستعدات للمطالبة باستقلال بلادنا رغم كل المخاطر التي تحيط بها، ما كنا لنستطيع أن نعيش في مصر وهي محتلة بعد ما ضحى أولادنا الأبرياء بأرواحهم لأجل أن تكون حرة إلى الأبد".

وأرسلت برقية مني ردا على هذه البرقية بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٢٠، هذا هو نصها:

مدام زغلول باشا..

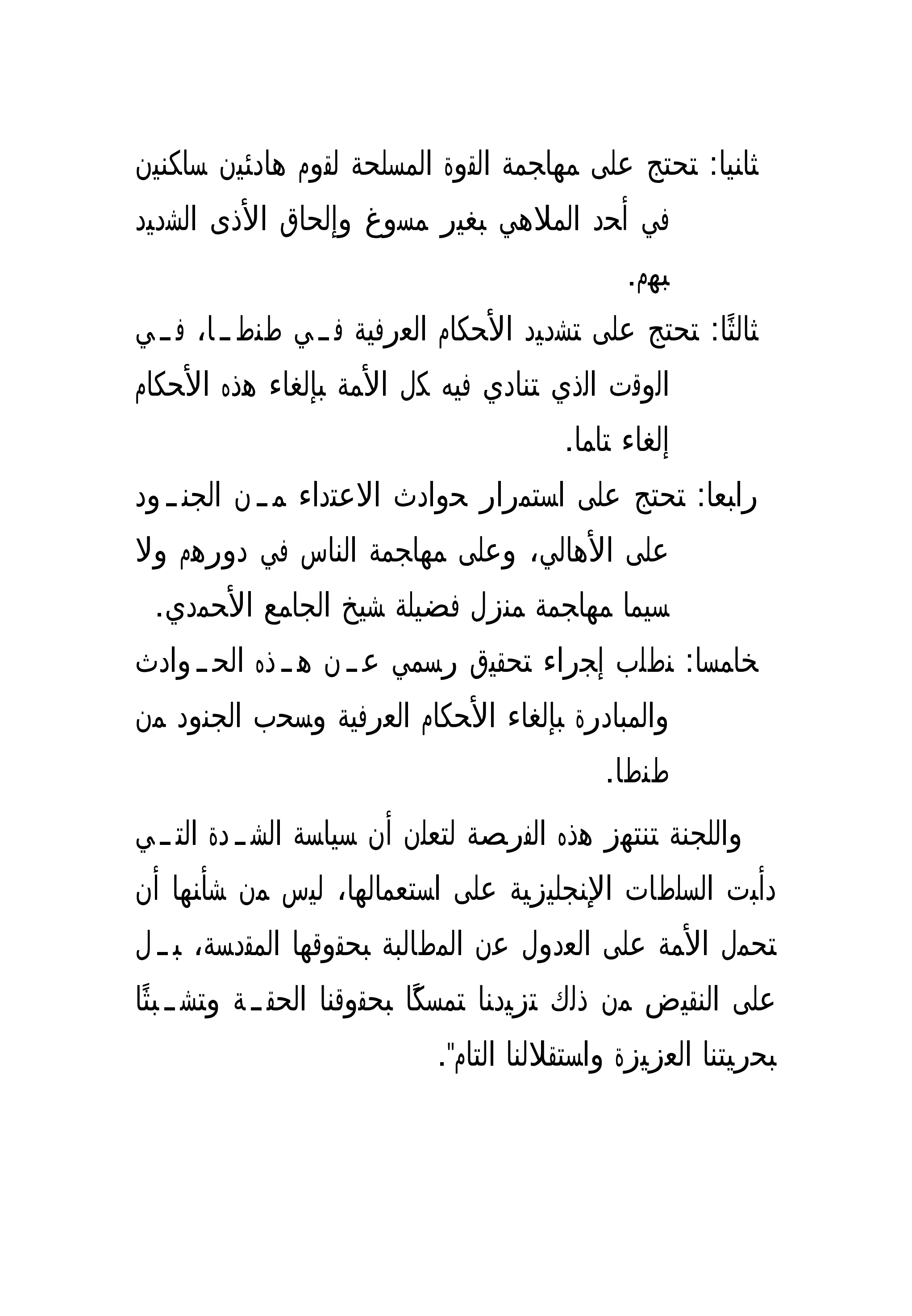


٤٢ شارع جورج الخامس ـ باريس.

إننا فخورات بانضمامك إلى لجنتنا، ونرجـوك قبـول قرار انتخابك رئيسة شرف وبفضلك ستكون مجهوداتنا أكثر توفيقًا، واثقات من النجاح النهائي".

كانت الجلسة الرابعة هي الجلسة فوق العادة، وقد انعقدت في موعدها يوم ٣١ يناير ١٩٢٠، وتم في هـذا الاجتمـاع تلاوة الاحتجاج التالي، فوافق الجميع عليه ووقعن على ثلاث نسخ منه لإرسال واحدة لرئيس الوزراء، وواحدة للجنة الوفد المركزية للرجال، وتقرر إبلاغ الاحتجاج إلى الصحف كلها وكان نص الاحتجاج هو: "تتتابع الحوادث المحزنة في مصر بشكل مروع، فلا يكاد يمر يوم دون أن يقع شيء منها. وهذه حوادث طنطا قد أزعجت النفوس وأكمدت الأفئـدة؛ لـذلك فلجنة الوفد المركزية للسيدات لا ترى بدا من رفع صـوتها بالاحتجاج عليها وعلى استمرار الاعتـداء علـى أرواحنـا وحريتنا فهي:

"أولاً: تحتج على إطلاق الرصاص على المتظاهرين العزل من كل سلاح وقتل الأبرياء وجرحهم.



ثانيا: تحتج على مهاجمة القوة المسلحة لقوم هادئين ساكنين في أحد الملاهي بغير مسوغ وإلحاق الأذى الشديد بهم.

ثالثًا: تحتج على تشديد الأحكام العرفية فـي طنطـا، فـي الوقت الذي تنادي فيه كل الأمة بإلغاء هذه الأحكام إلغاء تاما.

رابعا: تحتج على استمرار حوادث الاعتداء مـن الجنـود على الأهالي، وعلى مهاجمة الناس في دورهم ولا سيما مهاجمة منزل فضيلة شيخ الجامع الأحمدي.

خامسا: نطلب إجراء تحقيق رسمي عـن هـذه الحـوادث والمبادرة بإلغاء الأحكام العرفية وسحب الجنود من طنطا.

واللجنة تنتهز هذه الفرصة لتعلن أن سياسة الشـدة التـي دأبت السلطات الإنجليزية على استعمالها، ليس من شأنها أن تحمل الأمة على العدول عن المطالبة بحقوقها المقدسة، بـل على النقيض من ذلك تزيدنا تمسكًا بحقوقنا الحقـة وتشـبثًا بحريتنا العزيزة واستقلالنا التام".

"أما الجلسة السادسة، فقد عقدت في ١٣ فبراير ١٩٢٠، وقد عرض فيها الاحتجاج التالي فصدق عليه بإجماع الآراء. وتقرر إرسال نسخ منه لرئيس الوزراء ولمعالي سعد باشا وللجنة الوفد المركزية وللصحف وهذا نصه:

"تحتج لجنة الوفد المصري للسيدات باسم مصر على بقاء الأحكام العرفية واستمرار اعتقال أبناء مصر البررة الذين لا ذنب لهم إلا المطالبة باستقلال بلادهم، كما تحج على ما يلاقونه من سوء المعاملة.

"لا يزال سيف الأحكام العرفية على الرقاب في هذه البلاد الآمنة بعد انقضاء مدة الحرب بنحو أربعة عشر شهرا، في حين أن البلاد لا تطلب استقلالها إلا بالوسائل السلمية المشروعة، ولا تزال الأحكام العرفية تتخذ ذريعة لإيجاد القلق في أنحاء البلاد وبث الجنود الإنجليز في كثير من حياتها للتضييق على الناس في حياتهم اليومية تضييقًا لا يرعى حرمة حتى لمنازل كبرائهم وأئمة دينهم.

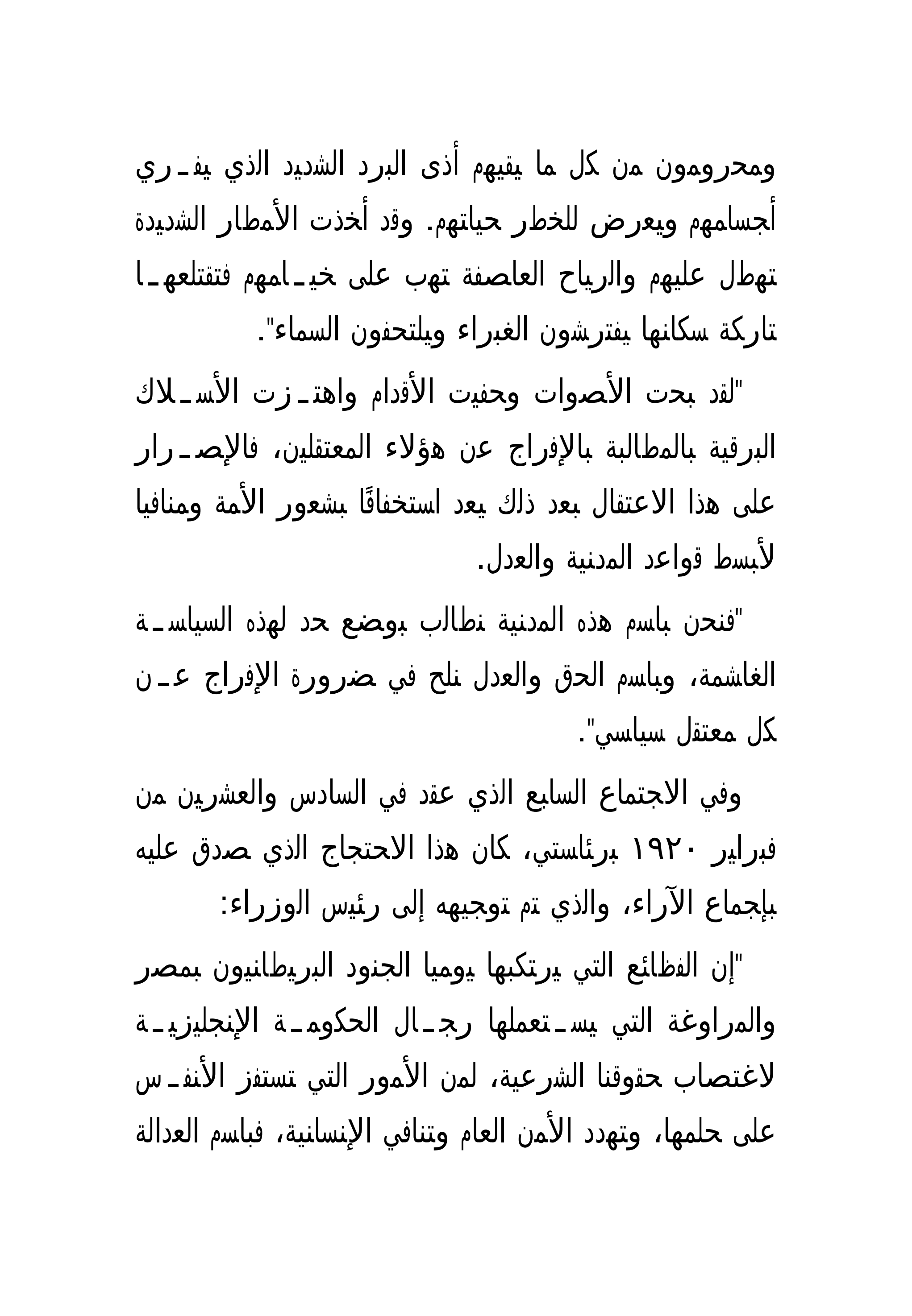
"فهذه مدينة طنطا أصاب أهلها الأبرياء ما أصابهم من قتل وجرح وسلب وغير ذلك من صنوف الاعتداء، وكان العدل يقضي بالقصاص من المعتدين عليهم، فانقلبت آية ذلك

العدل واعتبر البريء جانيا والجاني بريئًا، وبـدلاً مـن أن يجري تحقيق حتى لا تزر وازرة وزر أخرى، وقع القصاص على الأهالي الأبرياء، وأصبحوا يعـاملون معاملـة المـدن المحاربة التي يفتحها العدو في خلال الحرب الطاحنة.

"وهؤلاء كثير من أبناء مصر صـودروا فـي حـريتهم الشخصية، وشردوا وأوذوا واعتقلوا بغيـر جريـرة وبـلا محاكمة ولا سؤال، بل كان قيامهم بواجبهم الـوطني سـببا لإيقاع هذا الأذى بهم، مع أنهم لم ينفردوا بهذا فالأمة مشتركة معهم فيما يعزونه إليهم من الإثم إن كانت محبة الوطن إثمـا والمطالبة بالاستقلال وزرا يستوجب التعذيب.

"ومن الغريب أن ترتفع أصوات العدالة من جميع أنحـاء العالم، فلا تصادف ملبيا من أولئك المسيطرين على مصـر بالرغم من إرادتها، فهم يصمون آذانهم كلما سـمعوا نـداء منبعثًا من القلوب المجروحة المتألمة وكأنهم آلوا على أنفسهم أن يقفوا جامدين حيال كل مطالب بحقوقه".

"وليت الأمر لم يتعد هذا النوع من التعذيب لغيـر ذنـب، فإن أنباء المعتقلين تدل على أنهم يعـاملون معاملـة سـيئة، وكيف تطيب هذه المعاملة وسواء هم مبعدون في الصحاري



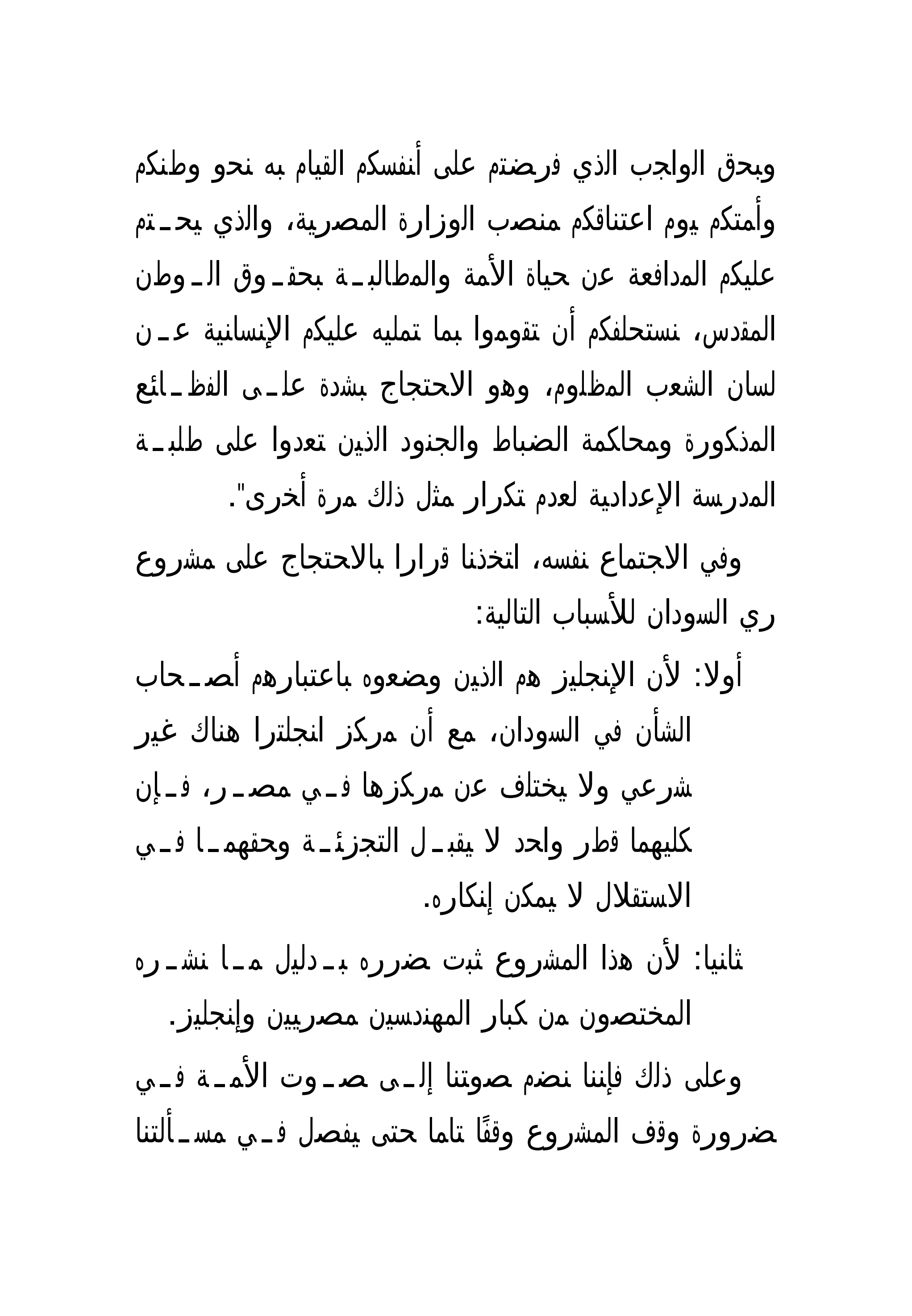
ومحرومون من كل ما يقيهم أذى البرد الشديد الذي يفـري أجسامهم ويعرض للخطر حياتهم. وقد أخذت الأمطار الشديدة تهطل عليهم والرياح العاصفة تهب على خيـامهم فتقتلعهـا تاركة سكانها يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء".

"لقد بحت الأصوات وحفيت الأقدام واهتـزت الأسـلاك البرقية بالمطالبة بالإفراج عن هؤلاء المعتقلين، فالإصـرار على هذا الاعتقال بعد ذلك يعد استخفافًا بشعور الأمة ومنافيا لأبسط قواعد المدنية والعدل.

"فنحن باسم هذه المدنية نطالب بوضع حد لهذه السياسـة الغاشمة، وباسم الحق والعدل نلح في ضرورة الإفراج عـن كل معتقل سياسي".

وفي الاجتماع السابع الذي عقد في السادس والعشرين من فبراير ١٩٢٠ برئاستي، كان هذا الاحتجاج الذي صدق عليه بإجماع الآراء، والذي تم توجيهه إلى رئيس الوزراء:

"إن الفظائع التي يرتكبها يوميا الجنود البريطانيون بمصر والمراوغة التي يسـتعملها رجـال الحكومـة الإنجليزيـة لاغتصاب حقوقنا الشرعية، لمن الأمور التي تستفز الأنفـس على حلمها، وتهدد الأمن العام وتنافي الإنسانية، فباسم العدالة


وبحق الواجب الذي فرضتم على أنفسكم القيام به نحو وطنكم وأمتكم يوم اعتناقكم منصب الوزارة المصرية، والذي يحتم عليكم المدافعة عن حياة الأمة والمطالبة بحقوق الوطن المقدس، نستحلفكم أن تقوموا بما تمليه عليكم الإنسانية عن لسان الشعب المظلوم، وهو الاحتجاج بشدة على الفظائع المذكورة ومحاكمة الضباط والجنود الذين تعدوا على طلبة المدرسة الإعدادية لعدم تكرار مثل ذلك مرة أخرى".

وفي الاجتماع نفسه، اتخذنا قرارا بالاحتجاج على مشروع ري السودان للأسباب التالية:

أولا: لأن الإنجليز هم الذين وضعوه باعتبارهم أصحاب الشأن في السودان، مع أن مركز انجلترا هناك غير شرعي ولا يختلف عن مركزها في مصر، فإن كليهما قطر واحد لا يقبل التجزئة وحقهما في الاستقلال لا يمكن إنكاره.

ثانيا: لأن هذا المشروع ثبت ضرره بدليل ما نشره المختصون من كبار المهندسين مصريين وإنجليز.

وعلى ذلك فإننا نضم صوتنا إلى صوت الأمة في ضرورة وقف المشروع وقفًا تاما حتى يفصل في مسألتنا

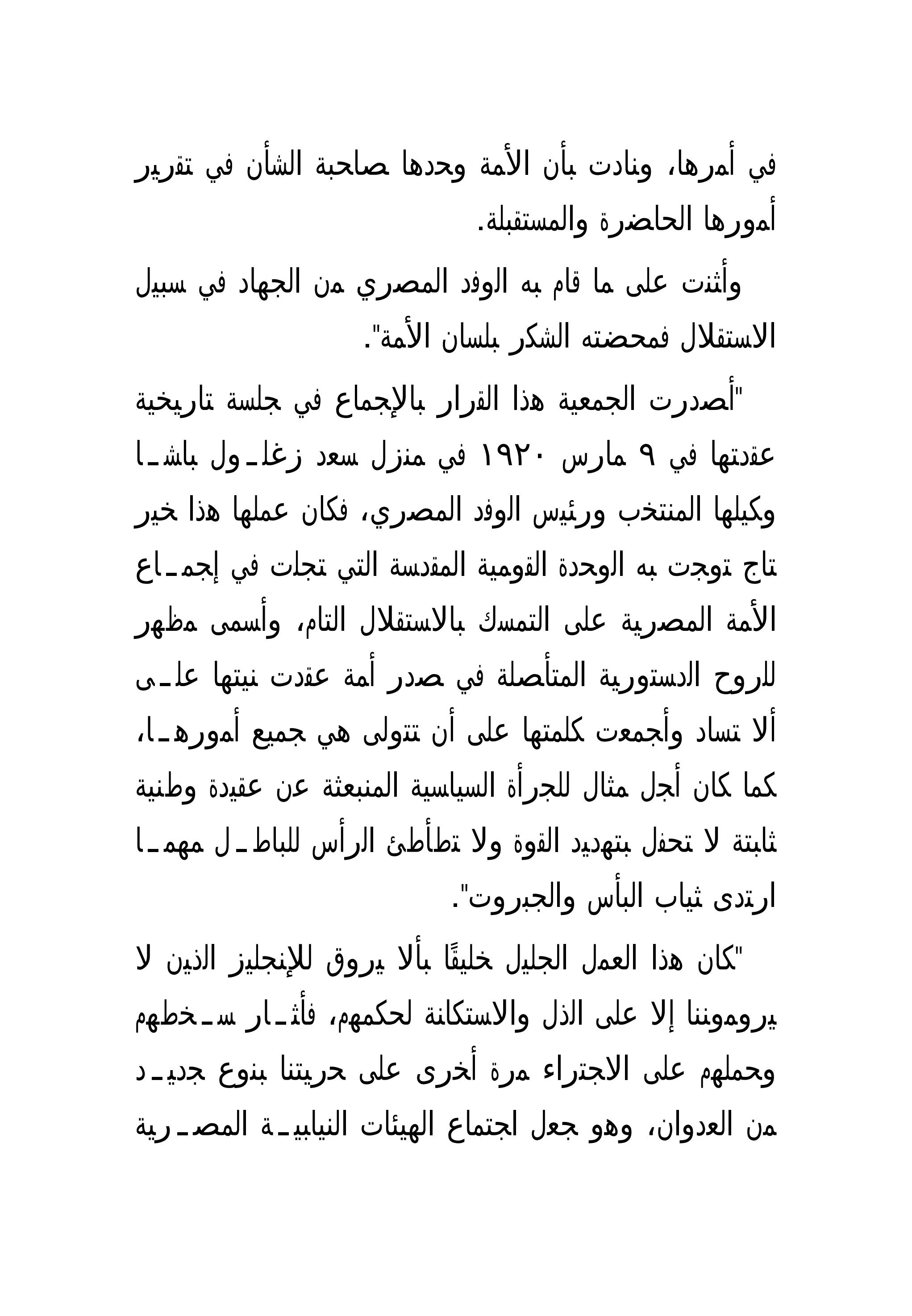
السياسية العامة، لأن البت فيه يجب أن يكون من اختصاص المجلس النيابي الذي يمثل مصر والسودان بعد أن ترد حقوقهما إليهما.

وإننا نطالب الوزارة بأن تنضم إلى الأمة في رأيها وتمنع تنفيذ هذا المشروع بجميع الطرق التي لديها، فإذا لم تستطع ذلك، فعليها أن تتخلى عن منصبها حتى لا تتحمل تبعة هذا العمل الخطير".

احتجاج مارس

وفي يوم ٢٠ مارس ١٩٢٠، عقدت لجنة الوفد المركزية للسيدات اجتماعا، أقرت فيه هذا الاحتجاج:

"اجتمع أعضاء الجمعية التشريعية (على الرغم من سيف الأحكام العرفية المسلط فوق الرءوس ولم تكترث للأمر القاضي بتعطيلها)، اجتمعت فنادت بالاستقلال التام وبطلان الحماية، واحتجت على ما لحق البلاد وأبناءها على يد حماتها القهريين من صنوف الاعتداء على الأرواح والأموال والحرية، وعلى تعطيل الدستور ووضع القوانين والأنظمة المختلفة من غير عرضها على الأمة، وجاهرت بوجوب وقف مشروعات الري إلى أن تبت الأمة المصرية المستقلة



في أمرها، ونادت بأن الأمة وحدها صاحبة الشأن في تقرير أمورها الحاضرة والمستقبلة.

وأثنت على ما قام به الوفد المصري من الجهاد في سبيل الاستقلال فمحضته الشكر بلسان الأمة".

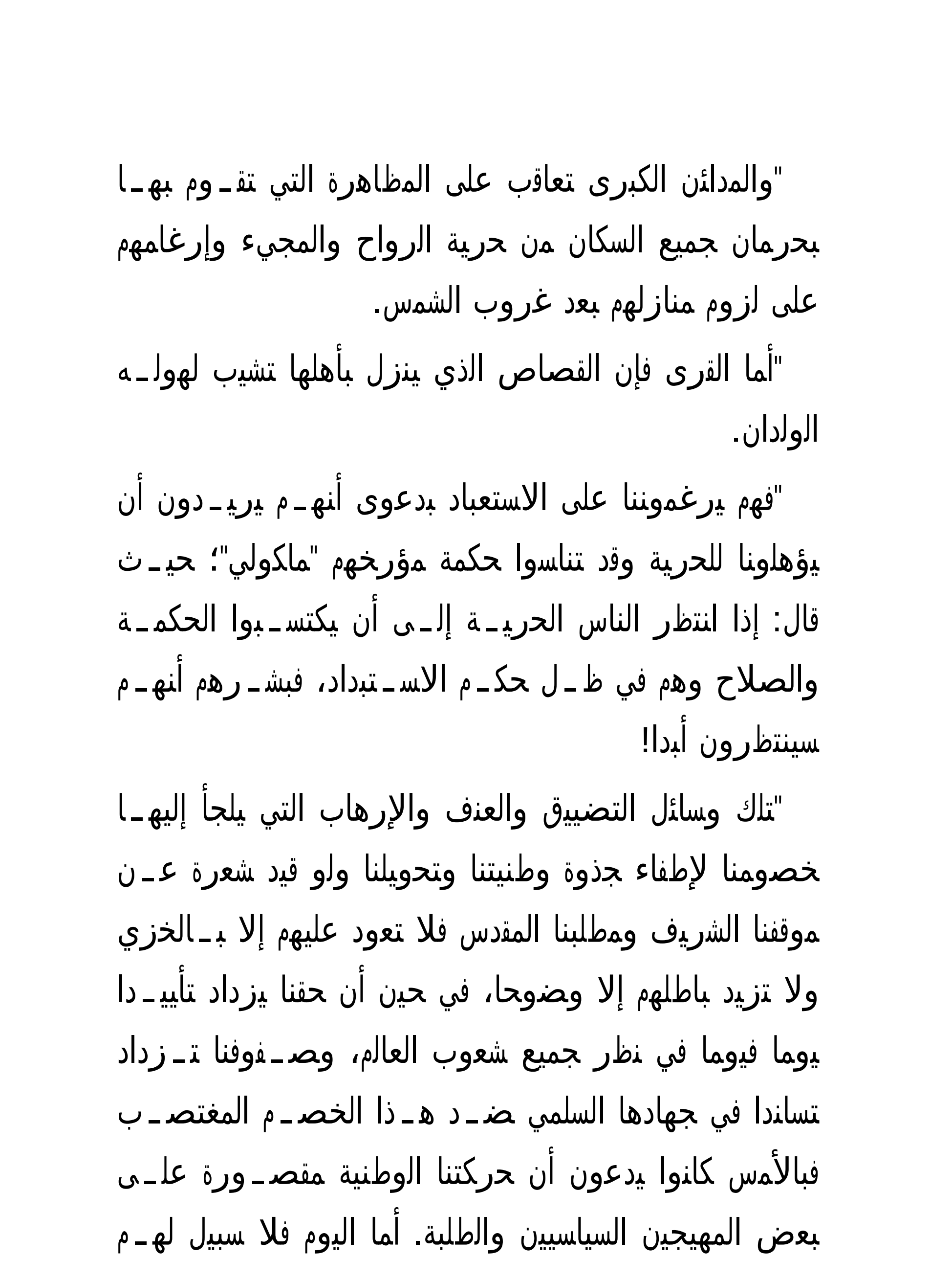
"أصدرت الجمعية هذا القرار بالإجماع في جلسة تاريخية عقدتها في ٩ مارس ١٩٢٠ في منزل سعد زغلـول باشـا وكيلها المنتخب ورئيس الوفد المصري، فكان عملها هذا خير تاج توجت به الوحدة القومية المقدسة التي تجلت في إجمـاع الأمة المصرية على التمسك بالاستقلال التام، وأسمى مظهر للروح الدستورية المتأصلة في صدر أمة عقدت نيتها علـى ألا تساد وأجمعت كلمتها على أن تتولى هي جميع أمورهـا، كما كان أجل مثال للجرأة السياسية المنبعثة عن عقيدة وطنية ثابتة لا تحفل بتهديد القوة ولا تطأطئ الرأس للباطـل مهمـا ارتدى ثياب البأس والجبروت".

"كان هذا العمل الجليل خليقًا بألا يروق للإنجليز الذين لا يرومونا إلا على الذل والاستكانة لحكمهم، فأثـار سـخطهم وحملهم على الاجتراء مرة أخرى على حريتنا بنوع جديـد من العدوان، وهو جعل اجتماع الهيئات النيابيـة المصـرية

أو أعضائها جريمة تستوجب محاكمة أولئك الأعضاء أمام المحاكم العسكرية الإنجليزية، وذلك ليسكتوا صوت النواب وهو أحق الأصوات بالسماع لأنه من صوت الشعب وصوت الشعب من صوت ا ، فكان هذا الاعتداء حلقة جديدة اقترفها الإنجليز في سبيل حمايتنا رغم أنوفنا، وبرهانًا آخر على أن إنجلترا لا تحترم الحرية، فإن تغنت بذكرها فما ذلك إلا للتغرير بالعالم وذر الرماد في عيون الشعوب.

"وها هي جميع تصرفاتها إزاء الحركة المصرية السليمة من بدايتها إلى الآن لا تنطوي إلا على حكم القهر والإرهاب والاعتداء على حرية الكتابة والعدل والاجتماع وهي أركان الحياة الحرة".

"فالمظاهرات السلمية من جانب شبيبة الأمة وطلبتها تقابل برصاص البنادق والمدافع الرشاشة. ومظاهرات السيدات تقاوم بأسنة السيوف، وضروب العنف والامتهان. ومجرد النداء بحياة الوطن والاستقلال يلقي بصاحبه في أعماق السجون، بل يؤدي به إلى الأشغال الشاقة، والجهر بالحق في صحيفة يستنزل عليها الحكم بالتعطيل وعلى مطبعتها بالإقفال. والاجتماعات تمنع بالقوة القهرية.

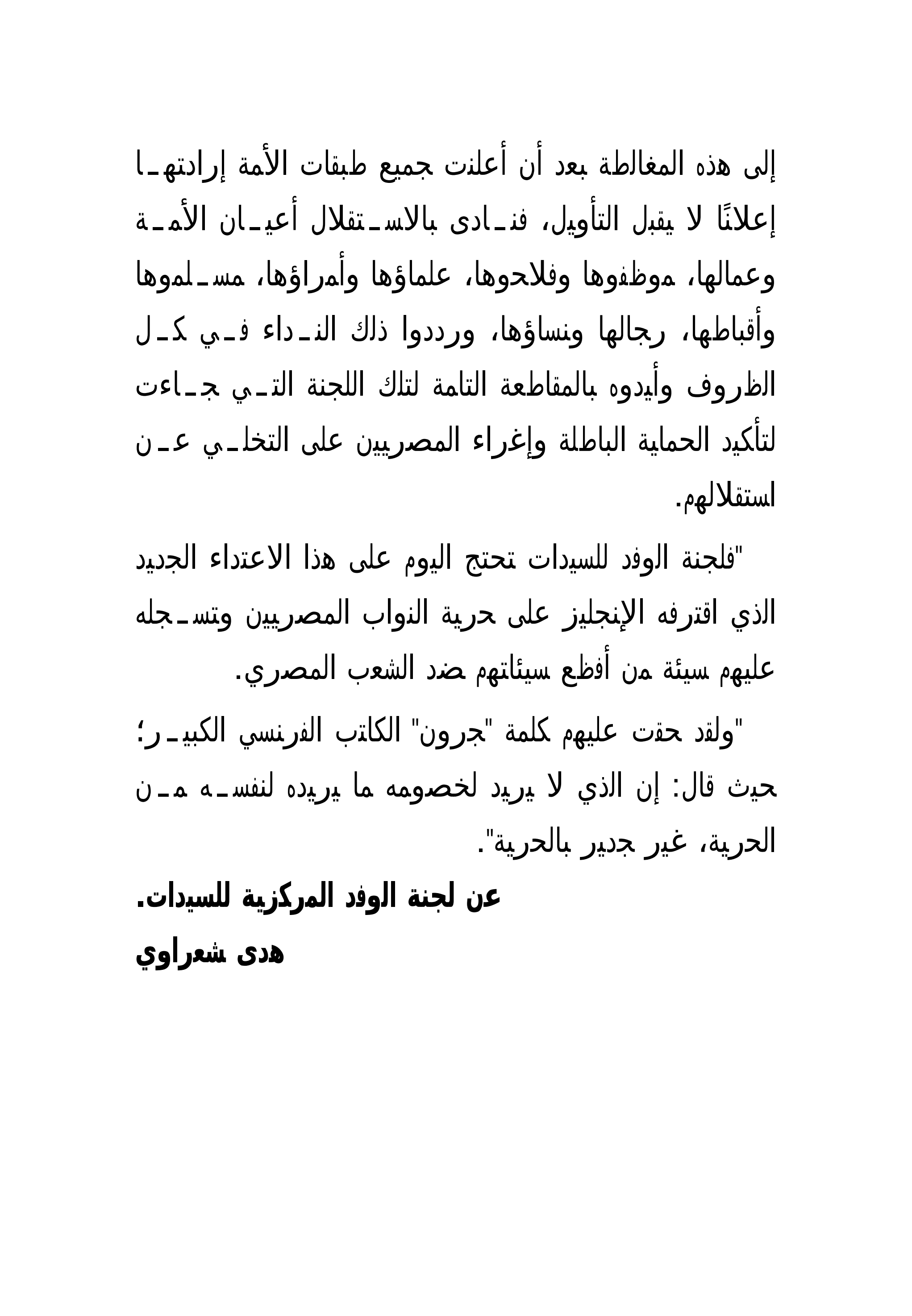


"والمدائن الكبرى تعاقب على المظاهرة التي تقوم بها بحرمان جميع السكان من حرية الرواح والمجيء وإرغامهم على لزوم منازلهم بعد غروب الشمس.

"أما القرى فإن القصاص الذي ينزل بأهلها تشيب لهوله الولدان.

"فهم يرغموننا على الاستعباد بدعوى أنهم يريدون أن يؤهلونا للحرية وقد تناسوا حكمة مؤرخهم "ماكولي"؛ حيث قال: إذا انتظر الناس الحرية إلى أن يكتسبوا الحكمة والصلاح وهم في ظل حكم الاستبداد، فبشرهم أنهم سينتظرون أبدا!

"تلك وسائل التضييق والعنف والإرهاب التي يلجأ إليها خصومنا لإطفاء جذوة وطنيتنا وتحويلنا ولو قيد شعرة عن موقفنا الشريف ومطلبنا المقدس فلا تعود عليهم إلا بالخزي ولا تزيد باطلهم إلا وضوحا، في حين أن حقنا يزداد تأييدا يوما فيوما في نظر جميع شعوب العالم، وصفوفنا تزداد تساندا في جهادها السلمي ضد هذا الخصم المغتصب فبالأمس كانوا يدعون أن حركتنا الوطنية مقصورة على بعض المهيجين السياسيين والطلبة. أما اليوم فلا سبيل لهم



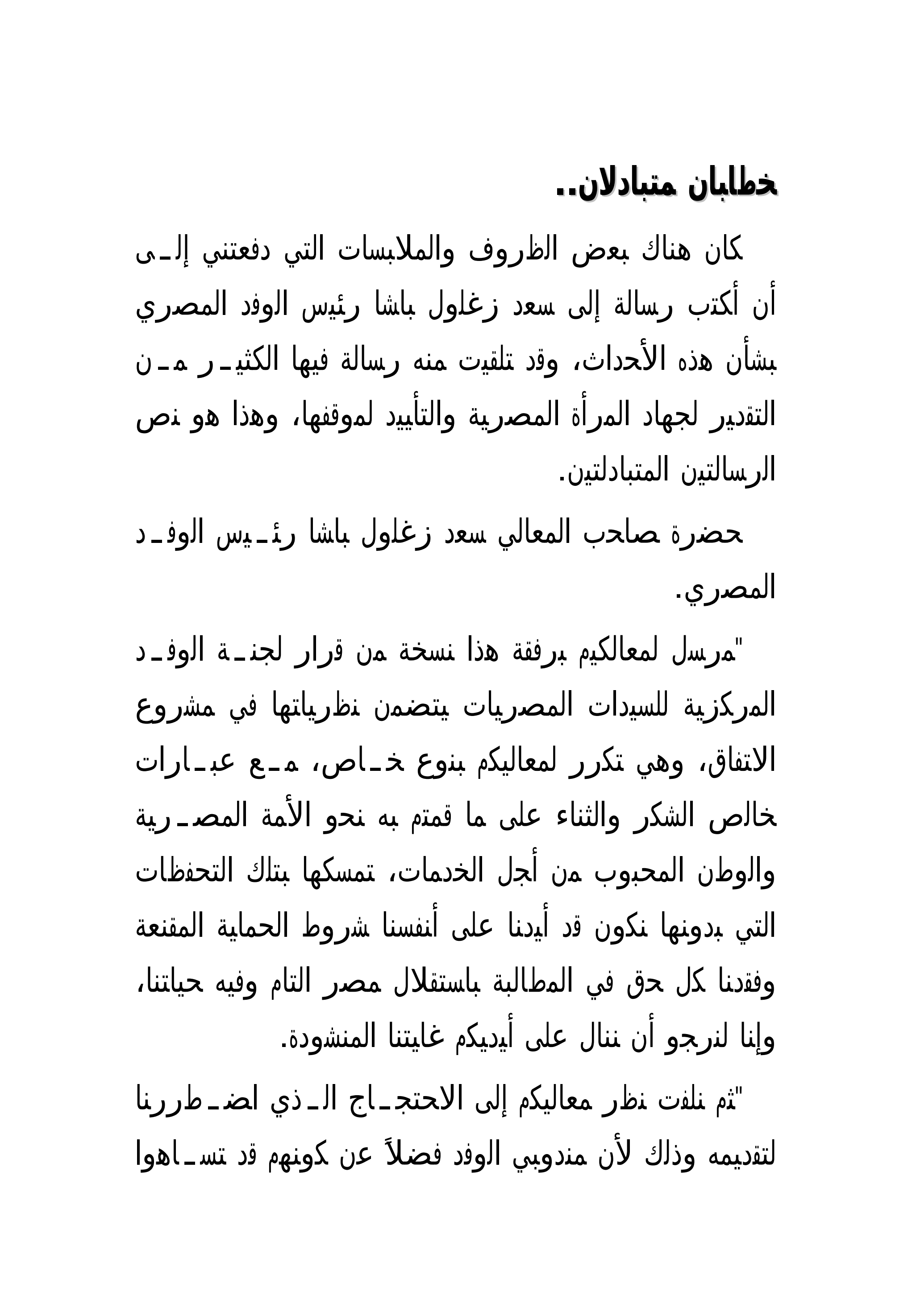
إلى هذه المغالطة بعد أن أعلنت جميع طبقات الأمة إرادتها إعلانًا لا يقبل التأويل، فنادى بالاستقلال أعيان الأمة وعمالها، موظفوها وفلاحوها، علماؤها وأمراؤها، مسلموها وأقباطها، رجالها ونساؤها، ورددوا ذلك النداء في كل الظروف وأيدوه بالمقاطعة التامة لتلك اللجنة التي جاءت لتأكيد الحماية الباطلة وإغراء المصريين على التخلي عن استقلالهم.

"فلجنة الوفد للسيدات تحتج اليوم على هذا الاعتداء الجديد الذي اقترفه الإنجليز على حرية النواب المصريين وتسجله عليهم سيئة من أفظع سيئاتهم ضد الشعب المصري.

"ولقد حقت عليهم كلمة "جرون" الكاتب الفرنسي الكبير؛ حيث قال: إن الذي لا يريد لخصومه ما يريده لنفسه من الحرية، غير جدير بالحرية".

عن لجنة الوفد المركزية للسيدات.

هدى شعراوي



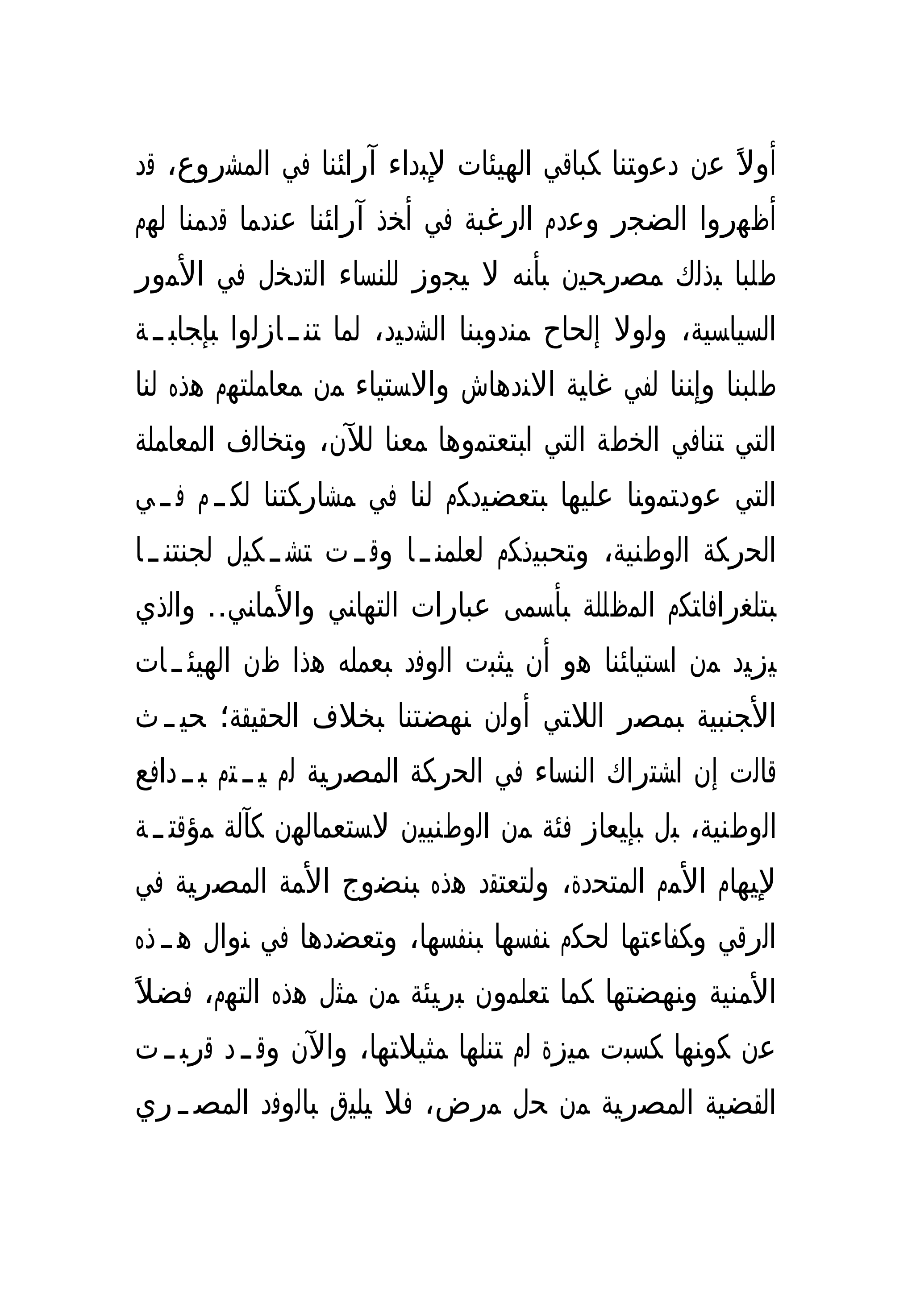
خطابان متبادلان..

كان هناك بعض الظروف والملابسات التي دفعتني إلى أن أكتب رسالة إلى سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري بشأن هذه الأحداث، وقد تلقيت منه رسالة فيها الكثير من التقدير لجهاد المرأة المصرية والتأييد لموقفها، وهذا هو نص الرسالتين المتبادلتين.

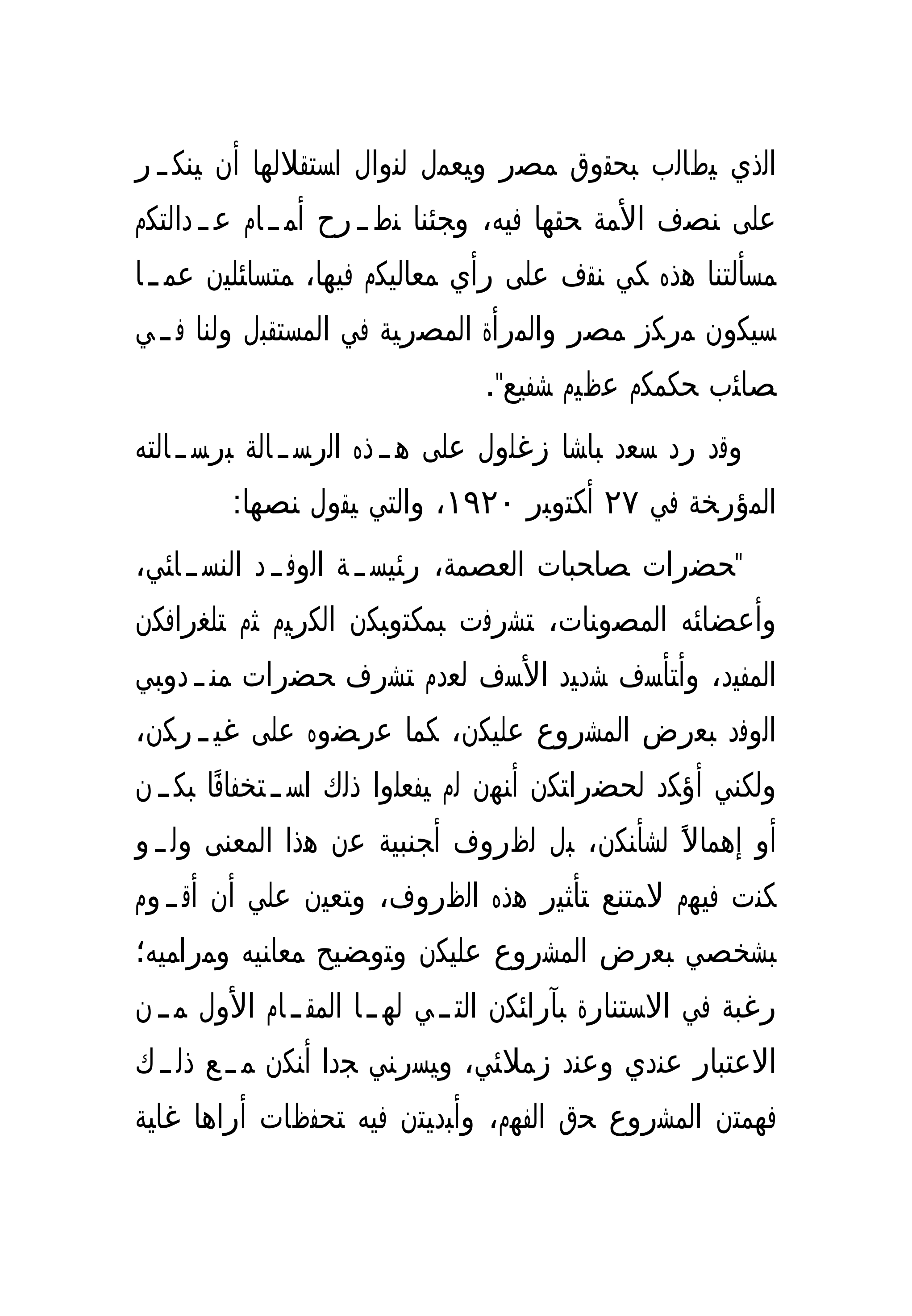
حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري.

"مرسل لمعالكيم برفقة هذا نسخة من قرار لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات يتضمن نظرياتها في مشروع الاتفاق، وهي تكرر لمعاليكم بنوع خاص، مع عبارات خالص الشكر والثناء على ما قمتم به نحو الأمة المصرية والوطن المحبوب من أجل الخدمات، تمسكها بتلك التحفظات التي بدونها نكون قد أيدنا على أنفسنا شروط الحماية المقنعة وفقدنا كل حق في المطالبة باستقلال مصر التام وفيه حياتنا، وإنا لنرجو أن ننال على أيديكم غايتنا المنشودة.

"ثم نلفت نظر معاليكم إلى الاحتجاج الذي اضطررنا لتقديمه وذلك لأن مندوبي الوفد فضلاً عن كونهم قد تساهوا



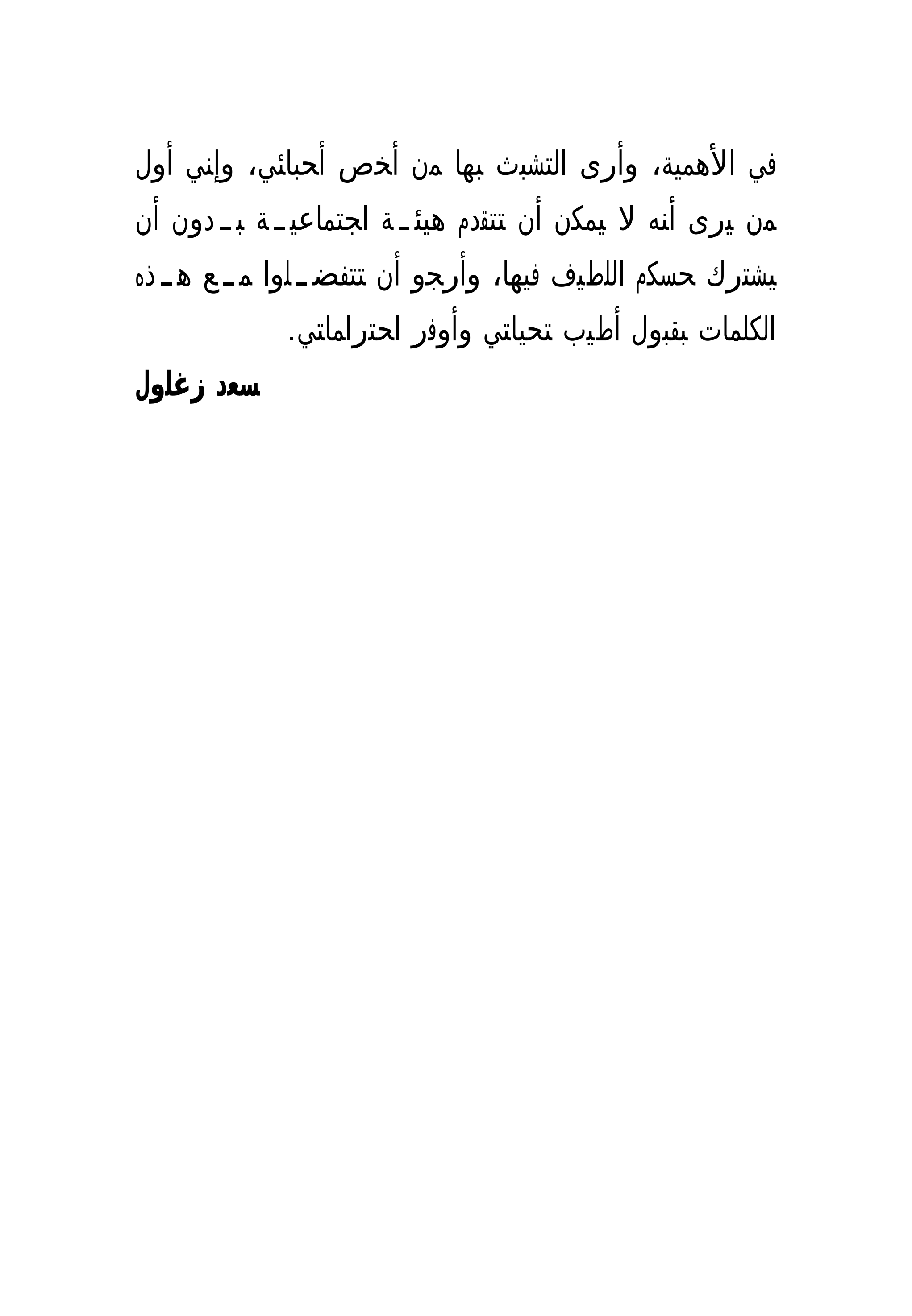
أولاً عن دعوتنا كباقي الهيئات لإبداء آرائنا في المشروع، قد أظهروا الضجر وعدم الرغبة في أخذ آرائنا عندما قدمنا لهم طلبا بذلك مصرحين بأنه لا يجوز للنساء التدخل في الأمور السياسية، ولولا إلحاح مندوبنا الشديد، لما تنـازلوا بإجابـة طلبنا وإننا لفي غاية الاندهاش والاستياء من معاملتهم هذه لنا التي تنافي الخطة التي ابتعتموها معنا للآن، وتخالف المعاملة التي عودتمونا عليها بتعضيدكم لنا في مشاركتنا لكـم فـي الحركة الوطنية، وتحبيذكم لعلمنـا وقـت تشـكيل لجنتنـا بتلغرافاتكم المظللة بأسمى عبارات التهاني والأماني.. والذي يزيد من استيائنا هو أن يثبت الوفد بعمله هذا ظن الهيئـات الأجنبية بمصر اللاتي أولن نهضتنا بخلاف الحقيقة؛ حيـث قالت إن اشتراك النساء في الحركة المصرية لم يـتم بـدافع الوطنية، بل بإيعاز فئة من الوطنيين لاستعمالهن كآلة مؤقتـة لإيهام الأمم المتحدة، ولتعتقد هذه بنضوج الأمة المصرية في الرقي وكفاءتها لحكم نفسها بنفسها، وتعضدها في نوال هـذه الأمنية ونهضتها كما تعلمون بريئة من مثل هذه التهم، فضلاً عن كونها كسبت ميزة لم تنلها مثيلاتها، والآن وقـد قربـت القضية المصرية من حل مرض، فلا يليق بالوفد المصـري



الذي يطالب بحقوق مصر ويعمل لنوال استقلالها أن ينكـر على نصف الأمة حقها فيه، وجئنا نطـرح أمـام عـدالتكم مسألتنا هذه كي نقف على رأي معاليكم فيها، متسائلين عمـا سيكون مركز مصر والمرأة المصرية في المستقبل ولنا فـي صائب حكمكم عظيم شفيع".

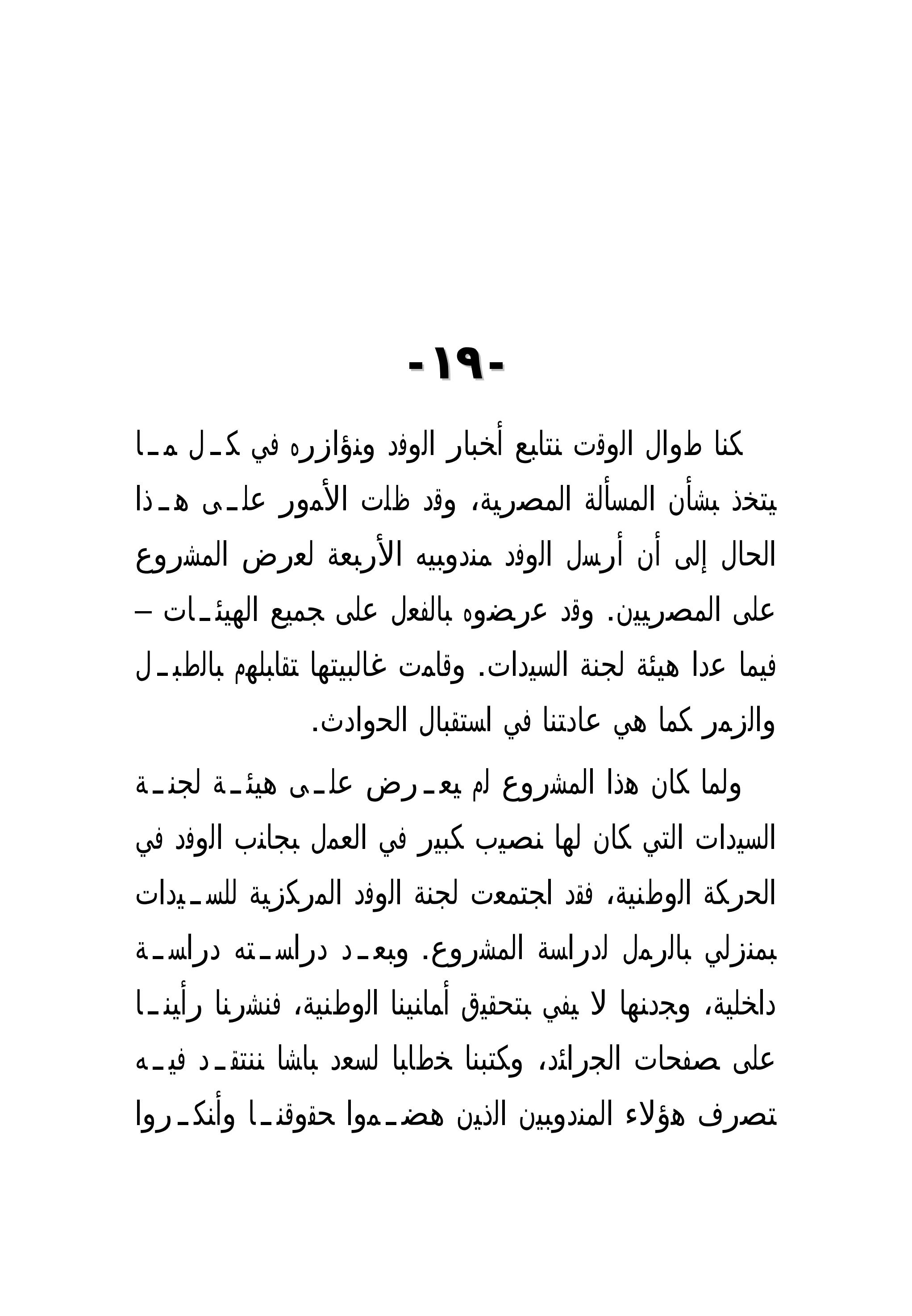
وقد رد سعد باشا زغلول على هـذه الرسـالة برسـالته المؤرخة في ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠، والتي يقول نصها:

"حضرات صاحبات العصمة، رئيسـة الوفـد النسـائي، وأعضائه المصونات، تشرفت بمكتوبكن الكريم ثم تلغرافكن المفيد، وأتأسف شديد الأسف لعدم تشرف حضرات منـدوبي الوفد بعرض المشروع عليكن، كما عرضوه على غيـركن، ولكني أؤكد لحضراتكن أنهن لم يفعلوا ذلك اسـتخفافًا بكـن أو إهمالاً لشأنكن، بل لظروف أجنبية عن هذا المعنى ولـو كنت فيهم لامتنع تأثير هذه الظروف، وتعين علي أن أقـوم بشخصي بعرض المشروع عليكن وتوضيح معانيه ومراميه؛ رغبة في الاستنارة بآرائكن التـي لهـا المقـام الأول مـن الاعتبار عندي وعند زملائي، ويسرني جدا أنكن مـع ذلـك فهمتن المشروع حق الفهم، وأبديتن فيه تحفظات أراها غاية



في الأهمية، وأرى التشبث بها من أخص أحبائي، وإني أول من يرى أنه لا يمكن أن تتقدم هيئـة اجتماعيـة بـدون أن يشترك حسكم اللطيف فيها، وأرجو أن تتفضـلوا مـع هـذه الكلمات بقبول أطيب تحياتي وأوفر احتراماتي.

سعد زغلول



-١٩-

كنا طوال الوقت نتابع أخبار الوفد ونؤازره في كل ما يتخذ بشأن المسألة المصرية، وقد ظلت الأمور على هذا الحال إلى أن أرسل الوفد مندوبيه الأربعة لعرض المشروع على المصريين. وقد عرضوه بالفعل على جميع الهيئات – فيما عدا هيئة لجنة السيدات. وقامت غالبيتها تقابلهم بالطبل والزمر كما هي عادتنا في استقبال الحوادث.

ولما كان هذا المشروع لم يعرض على هيئة لجنة السيدات التي كان لها نصيب كبير في العمل بجانب الوفد في الحركة الوطنية، فقد اجتمعت لجنة الوفد المركزية للسيدات بمنزلي بالرمل لدراسة المشروع. وبعد دراسته دراسة داخلية، وجدنها لا يفي بتحقيق أمانينا الوطنية، فنشرنا رأينا على صفحات الجرائد، وكتبنا خطابا لسعد باشا ننتقد فيه تصرف هؤلاء المندوبين الذين هضموا حقوقنا وأنكروا

وجودنا بإغفال هيبتنا في عرض المشروع، وكانت الرسالتان المتبادلتان بيني وبين سعد باشا زغلول، وقد سبق الحـديث عنهما، وبعد ذلك وصلتنا رسالة من سكرتير الوفد في ذلـك الوقت مصطفى النحاس بك، ويقول: "إننـا لنفخـر بنهضـة سيداتنا واهتمامهن بمستقبل البلاد، ويسرنا أن تتفضل اللجنة المركزية للسيدات بأن ترسل إلينا برأيهن في مشروع الاتفاق وملاحظاتهن عليه. وإننا سنحلها محل الاعتبار اللائق بها.

وقد عقدت لجنة الوفد المركزية للسيدات جلستها الثالثـة عشرة في منزلي بلوران يوم ٢٥ سـبتمبر ١٩٢٠. وسـجل محضر الجلسة أن اللجنة قد استعرضـت شـروط الاتفـاق المنشورة ببلاغ الوفد إلى الأمة والشرح الذي قدمه حضرات مندوبي الوفد لهذه الشروط، وقررت ما يلي:

١- شكر حضرات أعضاء الوفد.

٢- عدم صلاحية قواعد الاتفـاق لأن تكـون أساسـا لمعاهدة تعقد بين مصر وإنجلترا، إلا إذا أضـيفت إليها التحفظات الآتية:

١- أن ينص في الفقرة الأولى من المادة الثالثة على إلغاء الحماية.

٢- أن تعين الحقوق التي تمنحها مصـر لإنجلتـرا بأنهـا الحقوق المذكورة في مشروع الاتفاق كي لا تتعدى هذه الحقوق ما ذكر في المشروع.

٣- أن تتعهد بريطانيا بتعضيد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها إذا طلبت مصر هذا التعضيد، وفي نظير ذلـك تسمح مصر لها باستعمال طرق مواصلاتها إذا كانـت بريطانيا تحارب في بلاد لا يمكنهـا الوصـول إليهـا إلا عن طرق مصر.

٤- أن يكون لمصر حق عقد جميع المعاهدات مع الـدول الأجنبية إلا المعاهدات السياسية التي تضـر بمصـالح انجلترا، وكذلك لا يجوز لإنجلترا عقد محالفات سياسية تتعارض مع مصالح مصر.

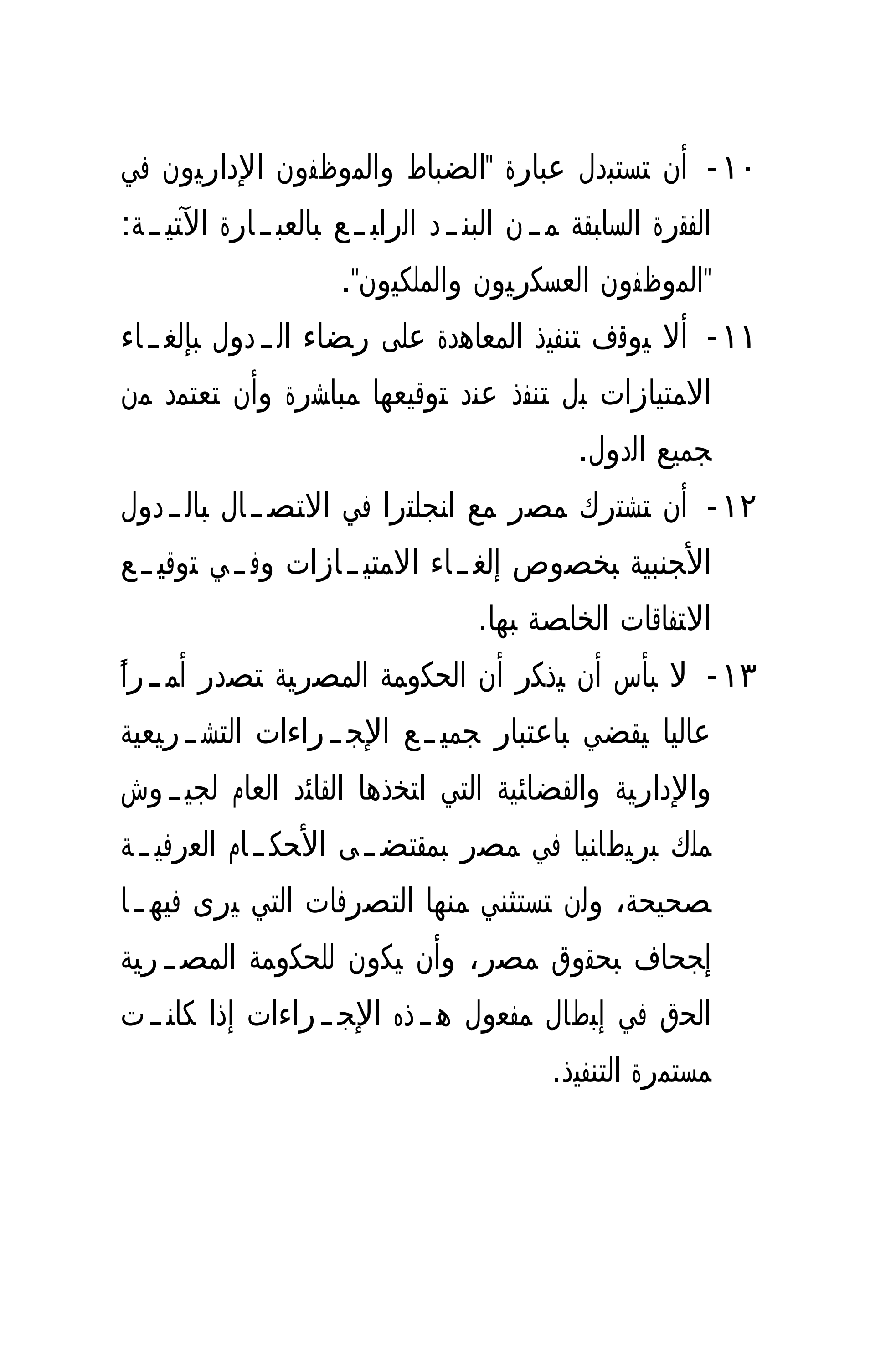
٥- أن يحدد عدد الحامية العسكرية ومعـداتها ومركزهـا ومدة وجودها، على شرط أن يكون ذلك المركز بعيـدا عن المدن والعواصم وأن تدفع الحكومـة الإنجليزيـة أجرا لهذه الأرض حتى لا تصير ملكًا لها، وأن يـذكر صراحة بأن مهمة هذه الحامية المحافظة علـى قنـاة السويس فقط.

٦- أن يسمى الموظف الإنجليزي الذي سيحل محل صندوق الدين بمراقب صندوق الدين، وأن تحدد وظيفته باختصاصات صندوق الدين فقط، ولا يكون له صفة استشارية مطلقًا في الحكومة، وأن ينص صراحة على انتهاء وظيفته بمجرد سداد الدين سواء كان ذلك بعمل قرض داخلي بوساطة الحكومة أو انتقال أسهمه إلى أيدي المصريين.

٧- لا داعي لبقاء المستشار القضائي بالمرة ما دام للممثل البريطاني حق نقض القوانين المجحفة بالأجانب.

٨- لا بأس من قبول النص الثاني من الفقرة الخامسة بند رابع مع النص على رفع الأمر عند قيام أي خلاف إلى سلطة عليا وتعيين هذه السلطة.

٩- أن يكون الممثل البريطاني كباقي ممثلي الدول ولا يكون له مركز استثنائي في مصر بأي حال من الأحوال.



١٠- أن تستبدل عبارة "الضباط والموظفون الإداريون في الفقرة السابقة مـن البنـد الرابـع بالعبـارة الآتيـة: "الموظفون العسكريون والملكيون".

١١- ألا يوقف تنفيذ المعاهدة على رضاء الـدول بإلغـاء الامتيازات بل تنفذ عند توقيعها مباشرة وأن تعتمد من جميع الدول.

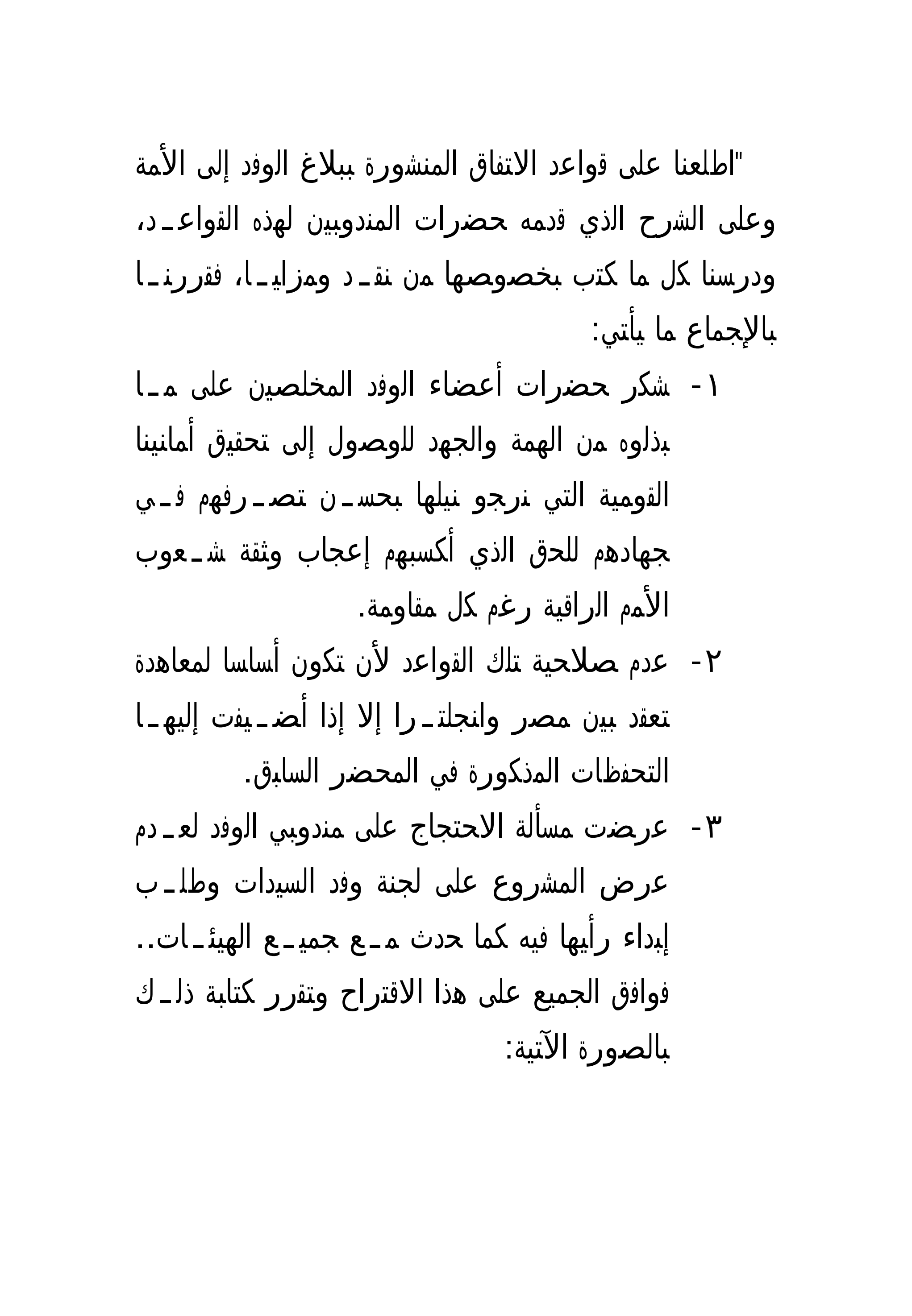
١٢- أن تشترك مصر مع انجلترا في الاتصـال بالـدول الأجنبية بخصوص إلغـاء الامتيـازات وفـي توقيـع الاتفاقات الخاصة بها.

١٣- لا بأس أن يذكر أن الحكومة المصرية تصدر أمـراً عاليا يقضي باعتبار جميـع الإجـراءات التشـريعية والإدارية والقضائية التي اتخذها القائد العام لجيـوش ملك بريطانيا في مصر بمقتضـى الأحكـام العرفيـة صحيحة، وان تستثني منها التصرفات التي يرى فيهـا إجحاف بحقوق مصر، وأن يكون للحكومة المصـرية الحق في إبطال مفعول هـذه الإجـراءات إذا كانـت مستمرة التنفيذ.

١٤- أن تشترك مصر في تبليغ نص المعاهدة المشار إليها في البند الثالث إلى الـدول الأجنبيـة مـع بريطانيـا لإقرارها، وأن تعضد بريطانيا الطلـب الـذي تقدمـه للانضمام إلى عصبة الأمم.

١٥- أن ينص في المعاهدة على رضاء المتعاقدين بتحكيم محكمة لاهاي أو ما يقوم مقامها في كل خلاف ينشـب على تفسير شروط المعاهدة أو على عدم تنفيذها. أمـا مسالة السودان فيجب أن نتمسك بحقوقنا فيه باعتبـاره جزءا لا يتجزأ من مصر لا باعتباره مستعمرة.

١٦- وكانت الجلسة التي اتخذت فيها هذه التوصيات قـد بدأت في الساعة الثامنة صباحا واستمرت حتى الساعة الواحدة ظهرا، ونظرا لخطورة الموقـف والأحـداث والتطورات، فقد اتفق على العودة للعمل فـي السـاعة الخامسة من مساء اليوم نفسه، وفي هذه الجلسة صـدر قرار لجنة الوفد المركزية للسيدات الذي اتفـق علـى نشره في جميع الصحف المحلية، والذي ينص على ما يلي:



"اطلعنا على قواعد الاتفاق المنشورة ببلاغ الوفد إلى الأمة وعلى الشرح الذي قدمه حضرات المندوبين لهذه القواعد، ودرسنا كل ما كتب بخصوصها من نقد ومزايا، فقررنا بالإجماع ما يأتي:

١- شكر حضرات أعضاء الوفد المخلصين على ما بذلوه من الهمة والجهد للوصول إلى تحقيق أمانينا القومية التي نرجو نيلها بحسن تصرفهم في جهادهم للحق الذي أكسبهم إعجاب وثقة شعوب الأمم الراقية رغم كل مقاومة.

٢- عدم صلاحية تلك القواعد لأن تكون أساسا لمعاهدة تعقد بين مصر وانجلترا إلا إذا أضيفت إليها التحفظات المذكورة في المحضر السابق.

٣- عرضت مسألة الاحتجاج على مندوبي الوفد لعدم عرض المشروع على لجنة وفد السيدات وطلب إبداء رأيها فيه كما حدث مع جميع الهيئات.. فوافق الجميع على هذا الاقتراح وتقرر كتابة ذلك بالصورة الآتية:

"حضرات أصـحاب السـعادة والعـزة منـدوبي الوفـد المصري.

"إن لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات بصفتها هيئة منتخبة ممثلة لنصف الأمة المصرية التي انتخبت وتأسسـت لمساعدة الوفد المصري والسير علـى برنامجـه للمطالبـة باستقلال مصر التام. وقد قامت بواجبها نحـو الأم والوفـد المصري كما يجب، قد اجتمعت اليوم بمنزل حرم صـاحب السعادة علي شعراوي باشا بلـوران برمـل الإسـكندرية، وقررت بناء على دعوتكم ما يأتي:

١- الاحتجاج على عدم دعوتهـا لعـرض المشـروع عليها للمناقشة فيه وأخذ رأيها كما اتبع مع جميـع الهيئات أو إبداء رأيها كتابة إلا بعد أن قدمت طلبا بذلك.

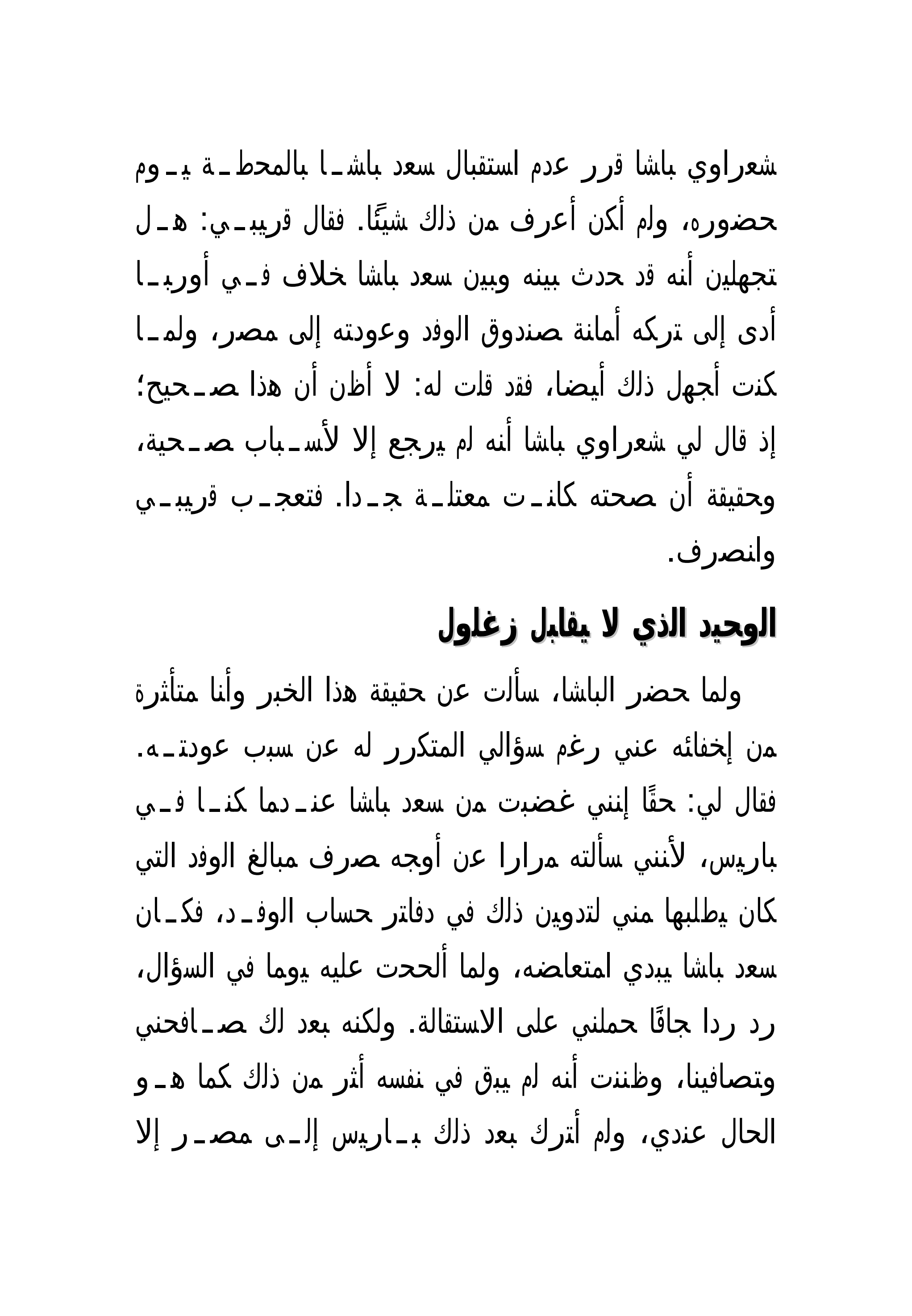
وأذكر أنه كان لرأينا هذا ضجة بين المتتبعين لأعمالنـا، فأيده بعضهم وأنحت علينا بالأغلبية باللائمة كالمعتـاد. فقـد كان كل شيء يصدر من سعد مقبولاً ولو لم يكن في مصلحة الوطن، والدليل على ذلك رفض الأمة لمشروع ملنـر بعـد الطبل والزمر الذي قوبل به، وكان رفضه بناء على تنويـه

من سعد باشا بأنه لا يحقق أماني البلاد، إذ علموا أنـه لـم يرسل المشروع لاستفتاء الأمة إلا إرضـاء لرغبـة بعـض أعضاء الوفد المؤيدين له، وإذا بأعضاء آخرين يرجعون بعد ذلك من باريس الواحد تلو الآخر. وكان أول من رجع منهم قبل عرض المشروع هو زوجي علي باشا شعراوي، الـذي دهش مثلنا من عدم عرض المشروع عليه ولم يدع للانضمام إلى مندوبي الوفد الذين قدموا لعرض المشروع رغـم أنـه وكيل الوفد المصري. وقد أدى ذلك إلى أن بعض السـيدات كن يسألنني: هل رجوع الباشا لاختلاف في الرأي بينه وبين سعد باشا؟ فكنت أنفي هذا الزعم لأن الباشا لم يكن قد صرح لي بشيء من هذا القبيل، ولم يقطع صلته بأعضـاء الوفـد الذين قدموا لعرض المشروع.. وبهـذه المناسـبة أذكـر أن زوجي توجه لزيارتهم عقب عودتهم من أوربا رغم أن سعد باشا لم يكتب إليه بالانضمام إليهم في عرض المشروع، ولم يرد أحد منهم زيارته إلا لطفي السيد بك الذي كان صـديقه الوفي.

ولما سمع سعد باشا بأن الحكومة الإنجليزية لا ترغب في مفاوضته بصفته نائبا عن الأمة، ولكنها تريد أن تتفاوض مع

ممثلي الحكومة المصرية، لم يطق البقاء في باريس وعزم على العودة إلى مصر كما هو معروف. فقامت البلاد تحتفي بقدومه حكومة وشعبا، وكان بعض المفكرين المصريين وبعض أعضاء الوفد ومنهم زوجي يفضلون عدم قيام سعد باشا بمفاوضات رسمية ليبقى كمرجع أخير للمفاوضين الحكوميين، يشد أزرهم ويكون لهم بمنزلة دعامة يرتكزون عليها ويعمل حسابها المفاوضون الإنجليز، وبذلك تنجح المفاوضات. ولكن ذلك لم يكن متفقًا مع اتجاه سعد باشا الذي كان يريد أن يتم على يديه كل شيء خاص بالقضية المصرية، فبذر بذور الشقاق، وكانت برقيته الشهيرة التي نوه فيها بأن بعض أعضاء الوفد تواطئوا مع الحكومة على الاتفاق مع الإنجليز على معاهدة لا تحقق مطالب المصريين، فقامت البلاد وقعدت لهذه الجرأة لاسيما وقد جاءت هذه البرقية في وقت كانت النفوس فيه ثائرة متعطشة لشيء من الحرية، ولذلك كانت تنتظر بفارغ الصبر عودة سعد باشا إلى مصر.

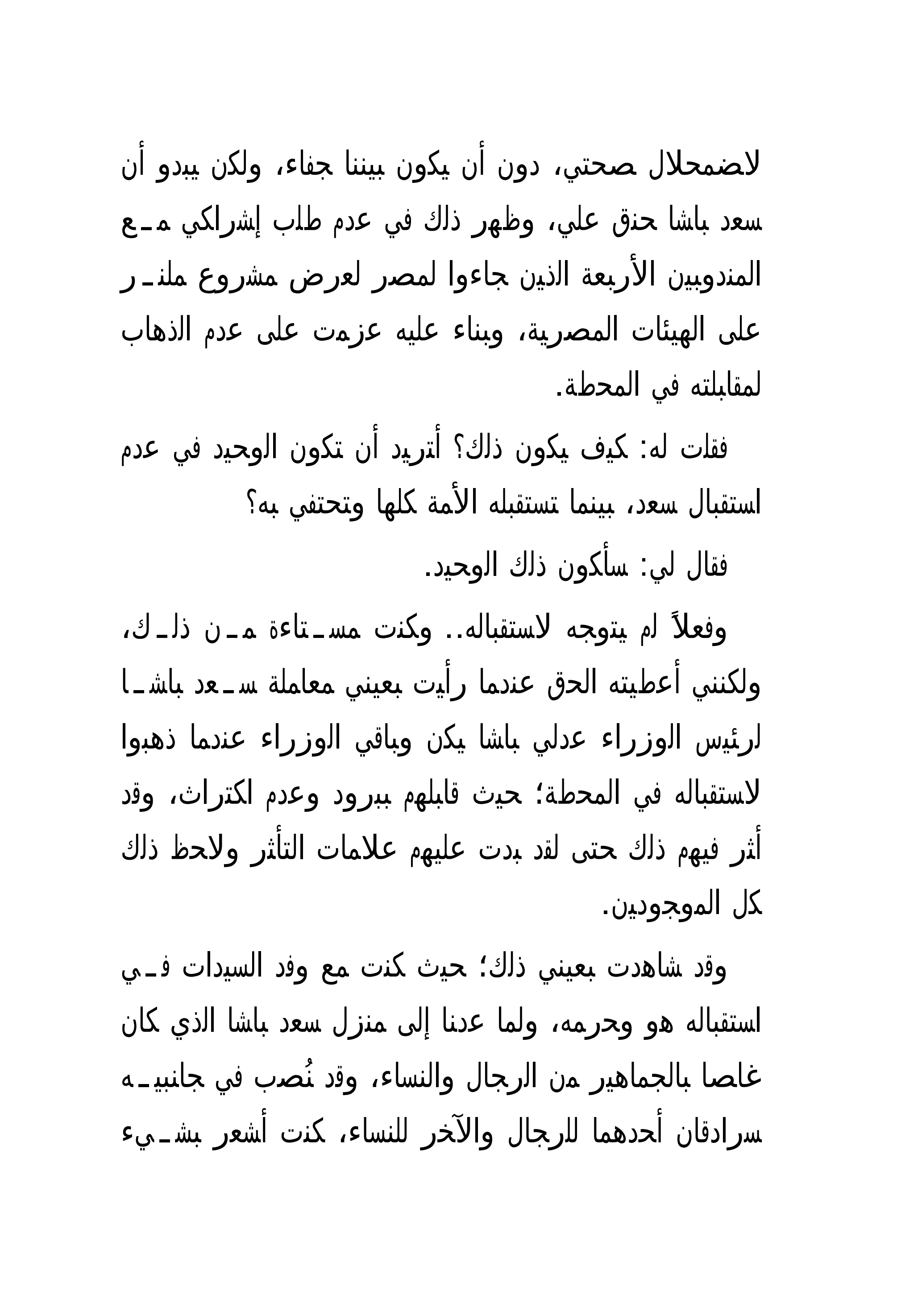
وقبيل وصول سعد باشا بيوم أو يومين، كنت في مكتبي.. وإذا بأحد أقاربي جاء ليسألني عن حقيقة ما سمعه من أن



شعراوي باشا قرر عدم استقبال سعد باشـا بالمحطـة يـوم حضوره، ولم أكن أعرف من ذلك شيئًا. فقال قريبـي: هـل تجهلين أنه قد حدث بينه وبين سعد باشا خلاف فـي أوربـا أدى إلى تركه أمانة صندوق الوفد وعودته إلى مصر، ولمـا كنت أجهل ذلك أيضا، فقد قلت له: لا أظن أن هذا صـحيح؛ إذ قال لي شعراوي باشا أنه لم يرجع إلا لأسـباب صـحية، وحقيقة أن صحته كانـت معتلـة جـدا. فتعجـب قريبـي وانصرف.

الوحيد الذي لا يقابل زغلول

ولما حضر الباشا، سألت عن حقيقة هذا الخبر وأنا متأثرة من إخفائه عني رغم سؤالي المتكرر له عن سبب عودتـه. فقال لي: حقًا إنني غضبت من سعد باشا عنـدما كنـا فـي باريس، لأنني سألته مرارا عن أوجه صرف مبالغ الوفد التي كان يطلبها مني لتدوين ذلك في دفاتر حساب الوفـد، فكـان سعد باشا يبدي امتعاضه، ولما ألححت عليه يوما في السؤال، رد ردا جافًا حملني على الاستقالة. ولكنه بعد اك صـافحني وتصافينا، وظننت أنه لم يبق في نفسه أثر من ذلك كما هـو الحال عندي، ولم أترك بعد ذلك بـاريس إلـى مصـر إلا



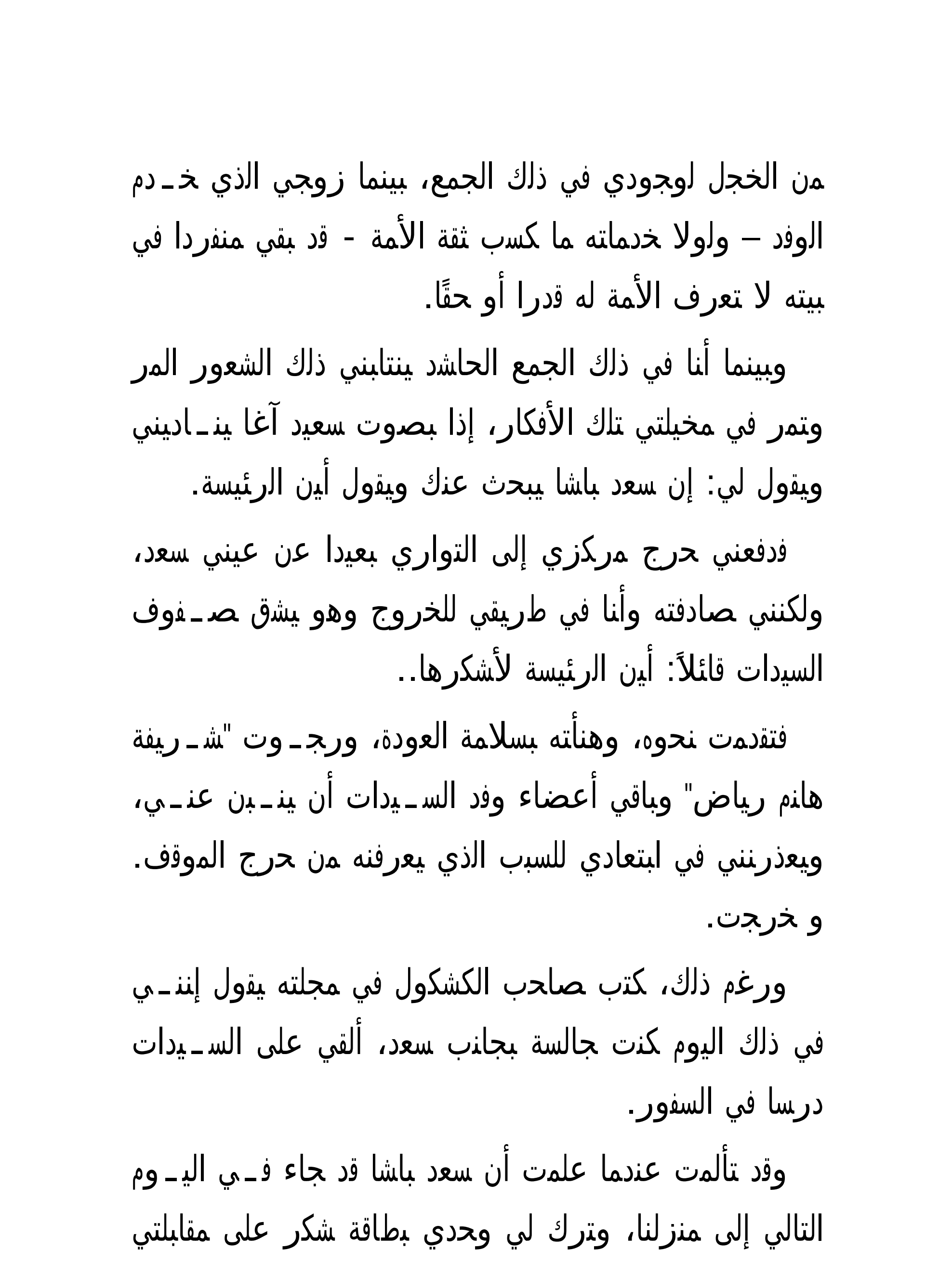
لاضمحلال صحتي، دون أن يكون بيننا جفاء، ولكن يبدو أن سعد باشا حنق علي، وظهر ذلك في عدم طلب إشراكي مـع المندوبين الأربعة الذين جاءوا لمصر لعرض مشروع ملنـر على الهيئات المصرية، وبناء عليه عزمت على عدم الذهاب لمقابلته في المحطة.

فقلت له: كيف يكون ذلك؟ أتريد أن تكون الوحيد في عدم استقبال سعد، بينما تستقبله الأمة كلها وتحتفي به؟

فقال لي: سأكون ذلك الوحيد.

وفعلاً لم يتوجه لاستقباله.. وكنت مسـتاءة مـن ذلـك، ولكنني أعطيته الحق عندما رأيت بعيني معاملة سـعد باشـا لرئيس الوزراء عدلي باشا يكن وباقي الوزراء عندما ذهبوا لاستقباله في المحطة؛ حيث قابلهم ببرود وعدم اكتراث، وقد أثر فيهم ذلك حتى لقد بدت عليهم علامات التأثر ولاحظ ذلك كل الموجودين.

وقد شاهدت بعيني ذلك؛ حيث كنت مع وفد السيدات فـي استقباله هو وحرمه، ولما عدنا إلى منزل سعد باشا الذي كان غاصا بالجماهير من الرجال والنساء، وقد نُصب في جانبيـه سرادقان أحدهما للرجال والآخر للنساء، كنت أشعر بشـيء



من الخجل لوجودي في ذلك الجمع، بينما زوجي الذي خدم الوفد – ولولا خدماته ما كسب ثقة الأمة - قد بقي منفردا في بيته لا تعرف الأمة له قدرا أو حقًا.

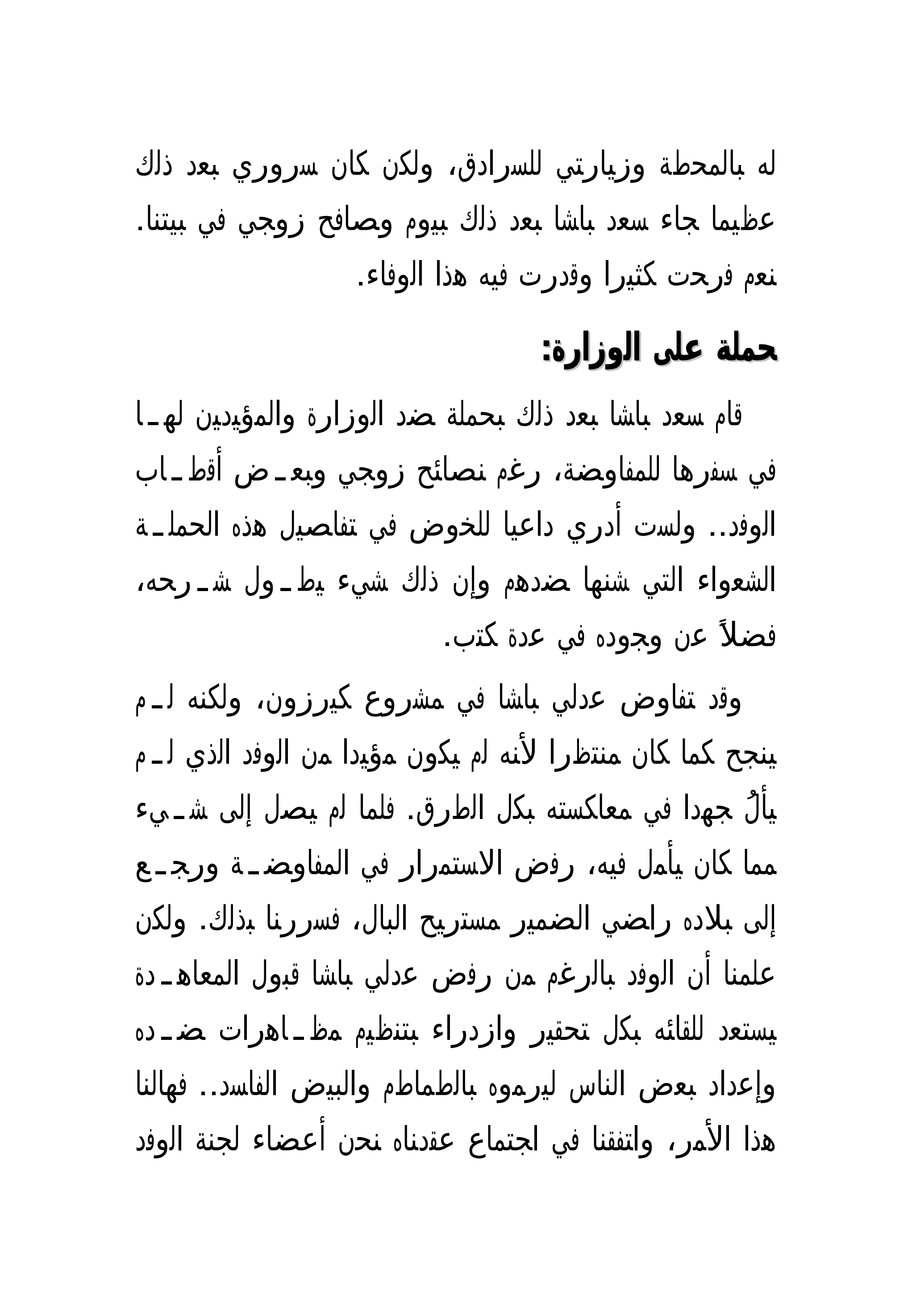
وبينما أنا في ذلك الجمع الحاشد ينتابني ذلك الشعور المر وتمر في مخيلتي تلك الأفكار، إذا بصوت سعيد آغا ينـاديني ويقول لي: إن سعد باشا يبحث عنك ويقول أين الرئيسة.

فدفعني حرج مركزي إلى التواري بعيدا عن عيني سعد، ولكنني صادفته وأنا في طريقي للخروج وهو يشق صفوف السيدات قائلاً: أين الرئيسة لأشكرها..

فتقدمت نحوه، وهنأته بسلامة العودة، ورجوت "شريفة هانم رياض" وباقي أعضاء وفد السيدات أن ينبن عني، ويعذرنني في ابتعادي للسبب الذي يعرفنه من حرج الموقف. و خرجت.

ورغم ذلك، كتب صاحب الكشكول في مجلته يقول إنني في ذلك اليوم كنت جالسة بجانب سعد، ألقي على السيدات درسا في السفور.

وقد تألمت عندما علمت أن سعد باشا قد جاء في اليوم التالي إلى منزلنا، وترك لي وحدي بطاقة شكر على مقابلتي

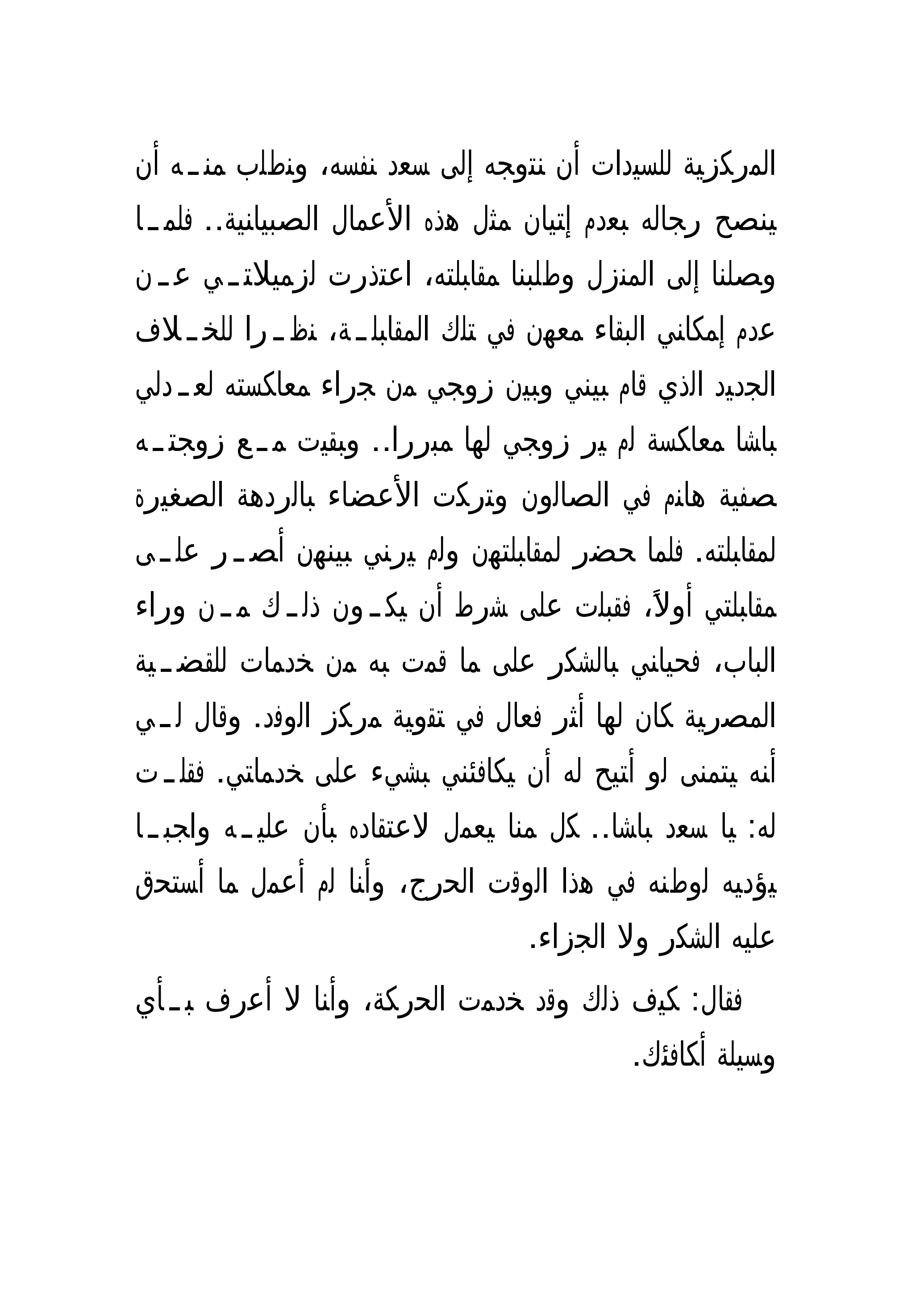


له بالمحطة وزيارتي للسرادق، ولكن كان سروري بعد ذلك عظيما جاء سعد باشا بعد ذلك بيوم وصافح زوجي في بيتنا. نعم فرحت كثيرا وقدرت فيه هذا الوفاء.

حملة على الوزارة:

قام سعد باشا بعد ذلك بحملة ضد الوزارة والمؤيدين لهـا في سفرها للمفاوضة، رغم نصائح زوجي وبعـض أقطـاب الوفد.. ولست أدري داعيا للخوض في تفاصيل هذه الحملـة الشعواء التي شنها ضدهم وإن ذلك شيء يطـول شـرحه، فضلاً عن وجوده في عدة كتب.

وقد تفاوض عدلي باشا في مشروع كيرزون، ولكنه لـم ينجح كما كان منتظرا لأنه لم يكون مؤيدا من الوفد الذي لـم يألُ جهدا في معاكسته بكل الطرق. فلما لم يصل إلى شـيء مما كان يأمل فيه، رفض الاستمرار في المفاوضـة ورجـع إلى بلاده راضي الضمير مستريح البال، فسررنا بذلك. ولكن علمنا أن الوفد بالرغم من رفض عدلي باشا قبول المعاهـدة يستعد للقائه بكل تحقير وازدراء بتنظيم مظـاهرات ضـده وإعداد بعض الناس ليرموه بالطماطم والبيض الفاسد.. فهالنا هذا الأمر، واتفقنا في اجتماع عقدناه نحن أعضاء لجنة الوفد



المركزية للسيدات أن نتوجه إلى سعد نفسه، ونطلب منـه أن ينصح رجاله بعدم إتيان مثل هذه الأعمال الصبيانية.. فلمـا وصلنا إلى المنزل وطلبنا مقابلته، اعتذرت لزميلاتـي عـن عدم إمكاني البقاء معهن في تلك المقابلـة، نظـرا للخـلاف الجديد الذي قام بيني وبين زوجي من جراء معاكسته لعـدلي باشا معاكسة لم ير زوجي لها مبررا.. وبقيت مـع زوجتـه صفية هانم في الصالون وتركت الأعضاء بالردهة الصغيرة لمقابلته. فلما حضر لمقابلتهن ولم يرني بينهن أصـر علـى مقابلتي أولاً، فقبلت على شرط أن يكـون ذلـك مـن وراء الباب، فحياني بالشكر على ما قمت به من خدمات للقضـية المصرية كان لها أثر فعال في تقوية مركز الوفد. وقال لـي أنه يتمنى لو أتيح له أن يكافئني بشيء على خدماتي. فقلـت له: يا سعد باشا.. كل منا يعمل لاعتقاده بأن عليـه واجبـا يؤديه لوطنه في هذا الوقت الحرج، وأنا لم أعمل ما أستحق عليه الشكر ولا الجزاء.

فقال: كيف ذلك وقد خدمت الحركة، وأنا لا أعرف بـأي وسيلة أكافئك.

فانتهزت فرصة سروره وتقديره لعملي، وقلت لـه: مـا دمت تصر على إقناعي بأنني أستحق مكافأتك، فإن لي عندك طلبا أرجو تحقيقه.

فقال: بكل سرور.. ما هذا الطلب؟

قلت له: أن تقابل عدلي باشا بمثل ما قابلك مـن حفـاوة وتكريم يوم عودتك إلى الوطن، وأن تمنع المظاهرات المزمع قيامها وتنظيمها لرميه بالطماطم والبيض الفاسد.

فتمهل قليلاً كأنه لم يكن ينتظر مني مثل هذا الطلب، ثـم قال: وا لو كان الأمر متعلقًا بي شخصيا، لأجبت رغبتـه إرضاء لخاطرك، ولكن إن رضيت أنا، لا يرضـي غيـري بذلك.

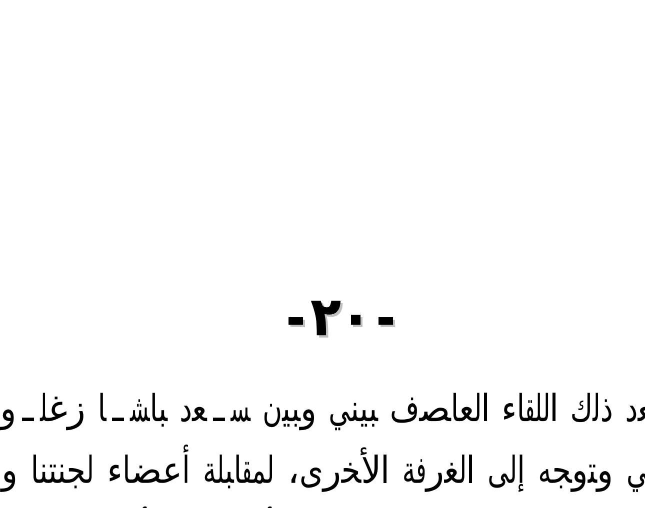
فقلت له: ومن الذي يخالفك في الرأي إذا أردت شيئًا؟

فأسرعت صفية هانم وقالت له: وا يا سعد لو وضـعت يدك في يد عدلي، لن أكون لك زوجة بعد الذي فعله.

فقال لي: أسمعت يا سيدتي بآذانك؟

فقلت: سمعت. ولم يبق لي كلام بعد ذلك إلا أن أطلب من ا عز وجل أن يهدئ الخواطر ويهيئ ما فيه الخير.

وكان أن تركني وانصرف لمقابلة أعضاء اللجنة، وكـان اللقاء بينه وبينهن.. قصة أخرى!..



-٢٠-

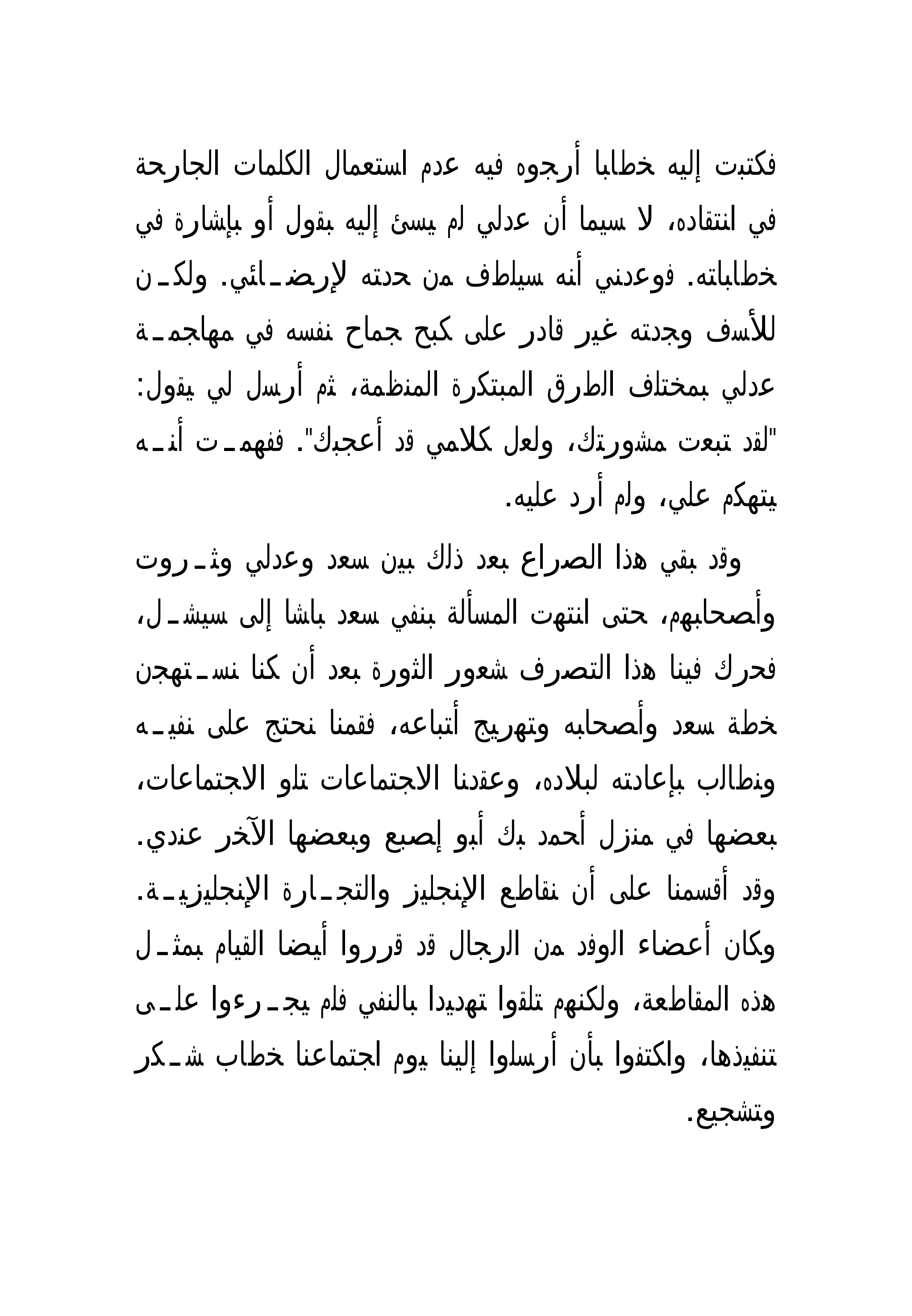
بعد ذلك اللقاء العاصف بيني وبين سـعد باشـا زغلـول تركني وتوجه إلى الغرفة الأخرى، لمقابلة أعضاء لجنتنا ولم يدم هذا اللقاء إلا دقائق قليلة؛ حيث أخبروني بأن السيدات قد خرجن من الغرفة ويردن الانصراف، وأن سعد باشـا قـد غادر المكان، وخرجت مع صفية هانم من الصالون فوجدت زميلاتي يرددن في حالة من التوتر والارتباك: "هيـا بنـا. مصر لها رب".

وبعد أن سلمنا على صفية هانم وخرجنا وركبنا عرباتنا، ركبت معي مدام ويصا خياط وسيدة ثالثة لا أتذكر من هـي الآن، فسألتهن عما دار بينهن وبين سعد باشـا بخصـوص الموضوع الذي جئنا من أجله، فأخبرنني أن سعد باشـا قـد دخل عليهن وهو يقول: "هل أعطيتن رشوة حتى تأتين لطلب مثل ذلك الطلب؟" فقلن له: "نحن لا نرتشي، ولو كان ذلك ما

وقفنا هذا الموقف". فقال لنا: "من هو ذا عدلي؟ الأمة كلهـا معي". فردت عليه مدام خياط قائلة: "إذا كان في الأمة واحد يخالفك الرأي، فالأمة إذن ليست بالإجماع معـك". فغضـب واحتد عليهن وعاد يقول: "لابد أنهم أعطوك رشوة". فقامـت السيدات محتدات، وأرسلن إلي لكي أخرج. ورجعنا بعد ذلك إلى منزلي. وبقينا نفكر فيما نفعل مجتمعات لدرء هذا العمل المخزي، وكان التليفون يدق بين الحين والآخر؛ حيث يسأل الطلبة وبعض الأعيان عن نتيجة مقابلتنـا لسـعد، بعـد أن سمعوا أن وفد السيدات قد توجه إليه ليطلب منه أن يحسـن مقابلة عدلي باشا، ويستفسرون عما إذا كان هـذا صـحيحا، وماذا تم في الأمر.

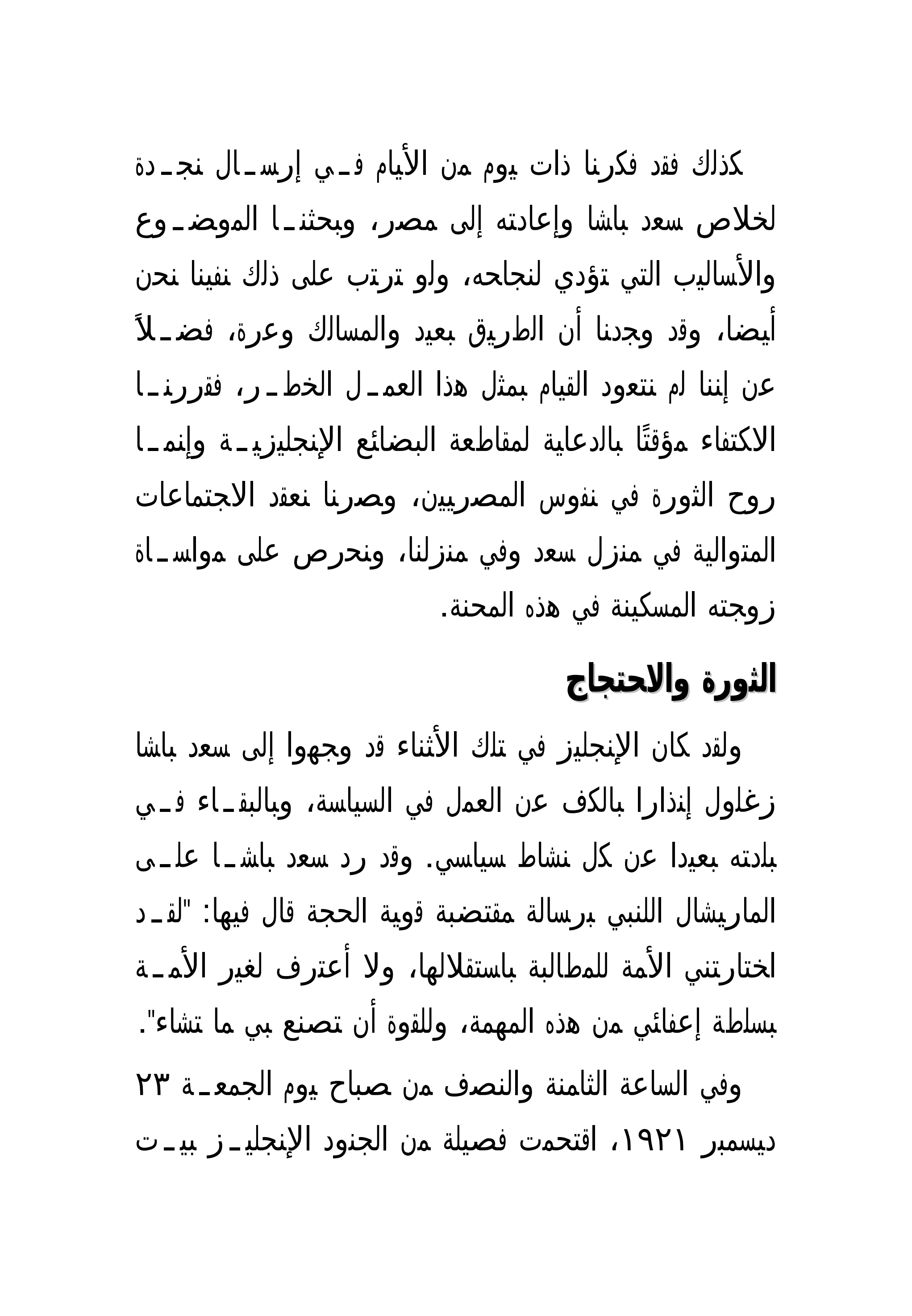
وهنا، لابد أن أعترف بأننا قد أخطأنا خطأ كبيرا عنـدما تسترنا على هذا الخبر ونفينا صحته، وأعتقد إننا لو كنا قـد أخبرناهم بالحقيقة، لعرف الناس نية سعد باشا ولأنفض مـن حوله كثيرون.

وقد وصل عدلي باشا في اليوم الثاني لهذا اللقاء بعـد أن قام بواجبه نحو بلاده، ولكن للأسف لم يقدر الشعب المصري جهود رجاله المخلصين. وقام سعد يرمي عـدلي بالخيانـة،



فكتبت إليه خطابا أرجوه فيه عدم استعمال الكلمات الجارحة في انتقاده، لا سيما أن عدلي لم يسئ إليه بقول أو بإشارة في خطاباته. فوعدني أنه سيلطف من حدته لإرضـائي. ولكـن للأسف وجدته غير قادر على كبح جماح نفسه في مهاجمـة عدلي بمختلف الطرق المبتكرة المنظمة، ثم أرسل لي يقول: "لقد تبعت مشورتك، ولعل كلامي قد أعجبك". ففهمـت أنـه يتهكم علي، ولم أرد عليه.

وقد بقي هذا الصراع بعد ذلك بين سعد وعدلي وثـروت وأصحابهم، حتى انتهت المسألة بنفي سعد باشا إلى سيشـل، فحرك فينا هذا التصرف شعور الثورة بعد أن كنا نسـتهجن خطة سعد وأصحابه وتهريج أتباعه، فقمنا نحتج على نفيـه ونطالب بإعادته لبلاده، وعقدنا الاجتماعات تلو الاجتماعات، بعضها في منزل أحمد بك أبو إصبع وبعضها الآخر عندي. وقد أقسمنا على أن نقاطع الإنجليز والتجـارة الإنجليزيـة. وكان أعضاء الوفد من الرجال قد قرروا أيضا القيام بمثـل هذه المقاطعة، ولكنهم تلقوا تهديدا بالنفي فلم يجـرءوا علـى تنفيذها، واكتفوا بأن أرسلوا إلينا يوم اجتماعنا خطاب شـكر وتشجيع.



كذلك فقد فكرنا ذات يوم من الأيام في إرسال نجدة لخلاص سعد باشا وإعادته إلى مصر، وبحثنا الموضوع والأساليب التي تؤدي لنجاحه، ولو ترتب على ذلك نفينا نحن أيضا، وقد وجدنا أن الطريق بعيد والمسالك وعرة، فضلاً عن إننا لم نتعود القيام بمثل هذا العمل الخطر، فقررنا الاكتفاء مؤقتًا بالدعاية لمقاطعة البضائع الإنجليزية وإنما روح الثورة في نفوس المصريين، وصرنا نعقد الاجتماعات المتوالية في منزل سعد وفي منزلنا، ونحرص على مواساة زوجته المسكينة في هذه المحنة.

الثورة والاحتجاج

ولقد كان الإنجليز في تلك الأثناء قد وجهوا إلى سعد باشا زغلول إنذارا بالكف عن العمل في السياسة، وبالبقاء في بلدته بعيدا عن كل نشاط سياسي. وقد رد سعد باشا على الماريشال اللنبي برسالة مقتضبة قوية الحجة قال فيها: "لقد اختارتني الأمة للمطالبة باستقلالها، ولا أعترف لغير الأمة بسلطة إعفائي من هذه المهمة، وللقوة أن تصنع بي ما تشاء".

وفي الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٢١، اقتحمت فصيلة من الجنود الإنجليز بيت

الأمة، واعتقلت سعدا، وذهبت به إلى جزيرة سيشل التي اختارها الإنجليز منفى له..

ولم تكد هذه الأخبار تعرف وتنتشر، حتى نشبت الثورة واندلعت نيرانها في القاهرة، وتأججت منتقلة إلى الوجه البحري والوجه القبلي إلى أن عمت مصر كلها.

وقد سار الشعب رحلة شديدة المراس في جهاده ضد الإنجليز وكان جهادا مليئًا بأعمال البطولة، وجدير بالذكر أنه على إثر قيام الثورة، اتحدت الصفوف من جديد، وزالت الخلافات الحزبية، وأصبح المصريون جميعهم رجلاً واحدا في الكفاح والجهاد.

ولقد كانت المظاهرات الصاخبة تجتاح كل نواحي القاهرة وتحتشد في الشوارع والميادين، وكانت هذه المظاهرات تواجه بأزيز رصاص الجنود البريطانيين ووقع حوافر فرسان الجيش الإنجليزي وعلى ظهورها الضباط والجنود وقد لمعت سيوفهم في محاولة لإخماد ثورة الشعب، فلا يجدون من المتظاهرين إلا كل أنواع البطولة والبسالة، رغم العشرات الذين كانوا يهوون تحت سنابك الخيل أو يسقطون قتلى بالرصاص.

وخلال هذه الملحمة الشعبية الهائلة، كتبت هذا الاحتجاج الذي هو أقرب ما يكون إلى الإنذار، وبعثت به إلى الماريشال اللنبي في ٢٥ ديسمبر ١٩٢١، نيابة عن السيدات المصريات:

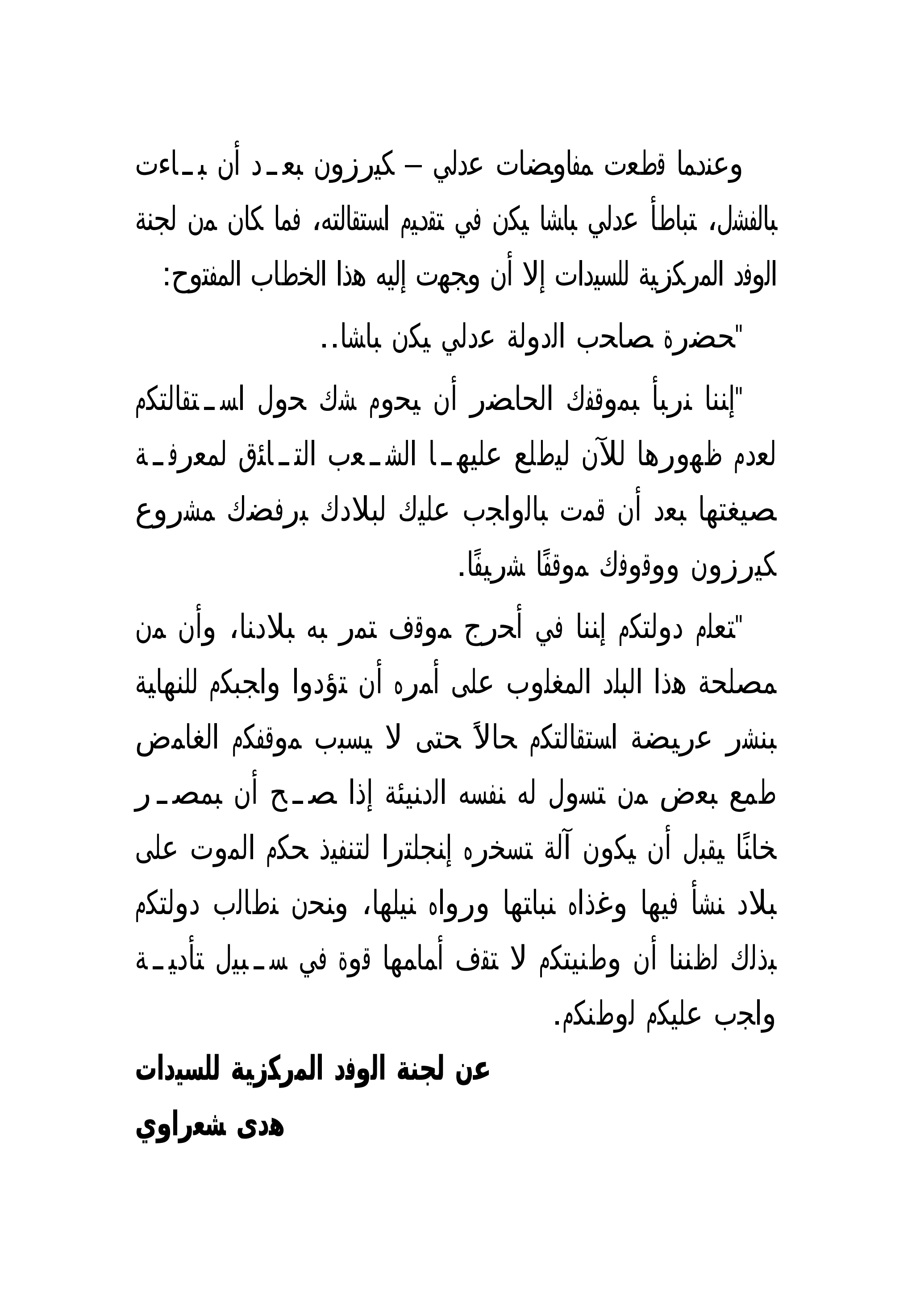
"إذا كنت يا صاحب الفخامة تعتقد في نفسك القدرة على خنق صوت الأمة المصرية بإبعاد الرجل الذي عهدت إليه بأن يتكلم باسمها، فارجع عن هذا الاعتقاد أيضا، إذ إن القوة تفنى والحق يبقى!.. وسوف نواصل احتجاجنا بلا انقطاع على التدابير الجائرة الظالمة التي تتخذها فخامتك ضدنا، وهي تدابير لن تؤدي إلا إلى إثارة غضب الشعب وغضب ا !..

عن السيدات المصريات

هدى شعراوي

خطاب مفتوح

ولقد حرصت لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات أن تكون في قلب الأحداث في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر، وكانت تتابع كل التطورات السياسية وتعبر عن رأيها في المواقف والأحداث دون أن يعنيها الأشخاص.



وعندما قطعت مفاوضات عدلي – كيرزون بعد أن باءت بالفشل، تباطأ عدلي باشا يكن في تقديم استقالته، فما كان من لجنة الوفد المركزية للسيدات إلا أن وجهت إليه هذا الخطاب المفتوح:

"حضرة صاحب الدولة عدلي يكن باشا..

"إننا نربأ بموقفك الحاضر أن يحوم شك حول استقالتكم لعدم ظهورها للآن ليطلع عليها الشعب التائق لمعرفة صيغتها بعد أن قمت بالواجب عليك لبلادك برفضك مشروع كيرزون ووقوفك موقفًا شريفًا.

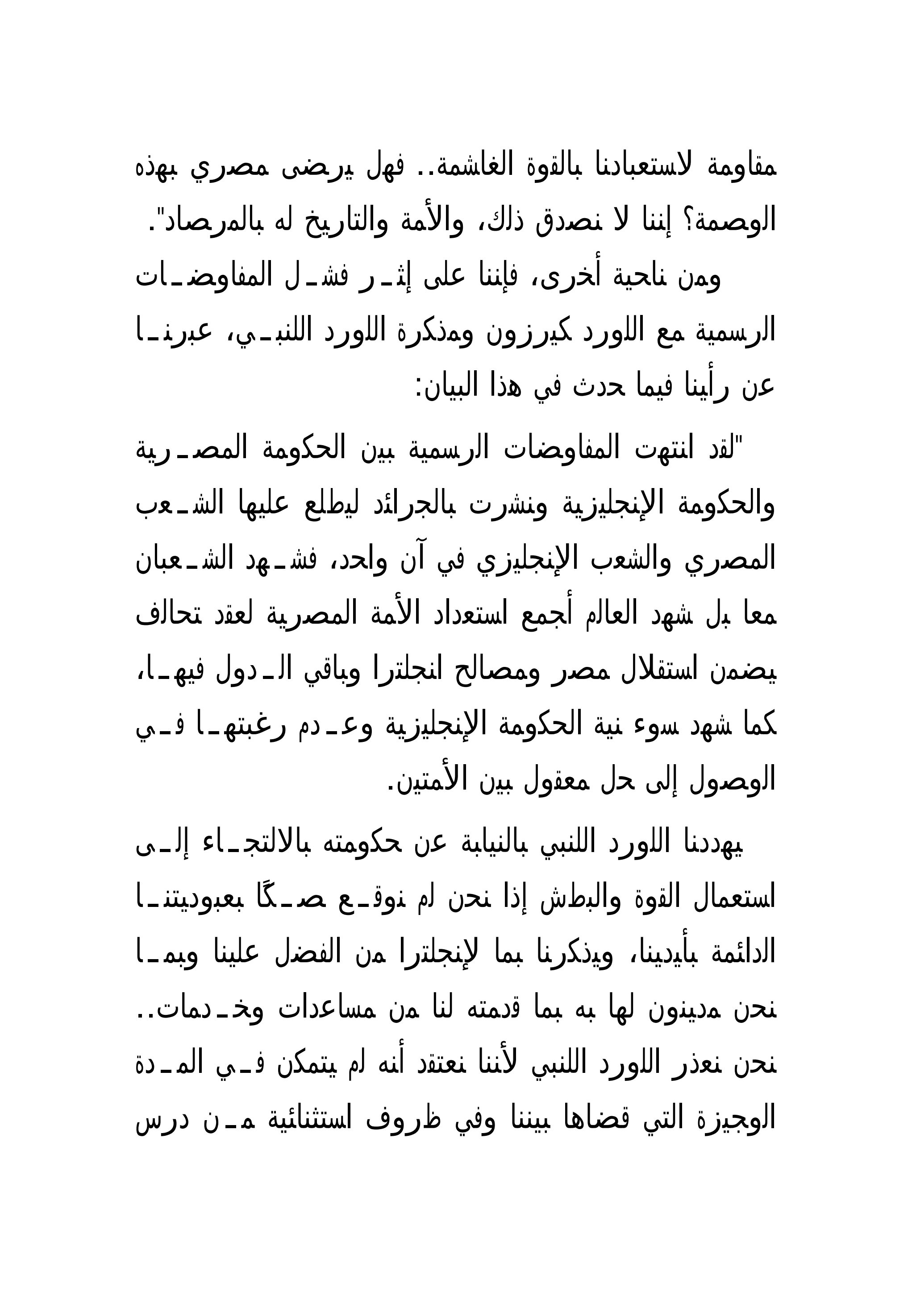
"تعلم دولتكم إننا في أحرج موقف تمر به بلادنا، وأن من مصلحة هذا البلد المغلوب على أمره أن تؤدوا واجبكم للنهاية بنشر عريضة استقالتكم حالاً حتى لا يسبب موقفكم الغامض طمع بعض من تسول له نفسه الدنيئة إذا صح أن بمصر خائنًا يقبل أن يكون آلة تسخره إنجلترا لتنفيذ حكم الموت على بلاد نشأ فيها وغذاه نباتها ورواه نيلها، ونحن نطالب دولتكم بذلك لظننا أن وطنيتكم لا تقف أمامها قوة في سبيل تأدية واجب عليكم لوطنكم.

عن لجنة الوفد المركزية للسيدات

هدى شعراوي

وبعد أن تناثرت الشائعات عن استقالة عدلي باشا يكـن، نتيجة فشل المفاوضات التي أجراها مع اللورد كيرزون، كان المتوقع أن تعيش البلاد فترة مماثلة لتلك التي عاشتها من قبل عقب استقالة وزارة حسين رشدي باشا، ولكن ظهر في ذلك الوقت احتمال قبول أحد المصريين تشكيل الوزارة؛ فواكبت لجنة الوفد المركزية للسيدات هذا الموقف الجديد، ونشـرت هذه الكلمة في الصحف:

"لقد أدى عدلي باشا الواجـب عليـه برفضـه مشـروع كيرزون وتقديم استقالته وإن كانت لم تظهر صيغتها لـلآن. غير إننا نسمع أن وزارة ستشكل، وإننـا إزاء ذلـك لنقـف مندهشين لا نكاد نصدق أن يوجد مصري تسمح له وطنيتـه أن يقبل الوزارة في أحرج وقت تمر به بلادنا المغلوبة على أمرها، إذا صح أن بمصر خائنًا يقبل أن يكون آلة تسـخره إنجلترا لتنفيذ حكم الموت على بلاده التي نشأ فيهـا وغـذاه نباتها ورواه نيلها، بعد أن ظهرت نيات إنجلترا الاستعمارية في مشروع كيرزون ومذكرة اللورد اللنبي، وبعد أن ظهـر ظهور الشمس أن إنجلترا تريد أن تكون الوزارة المصـرية عونًا لها على تنفيذ سياستها وقتل روح الوطنية ومحو كـل



مقاومة لاستعبادنا بالقوة الغاشمة.. فهل يرضى مصري بهذه الوصمة؟ إننا لا نصدق ذلك، والأمة والتاريخ له بالمرصاد".

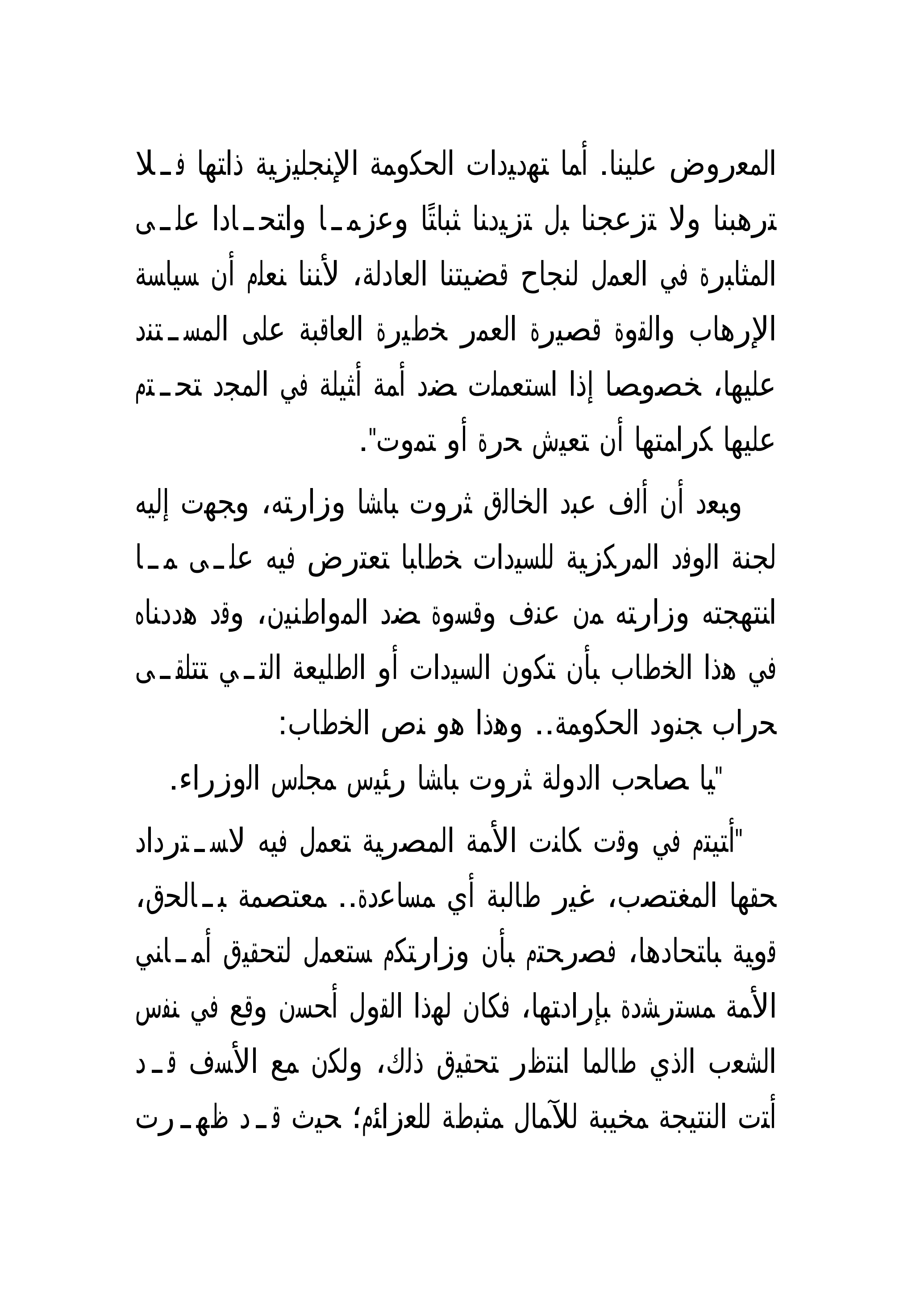
ومن ناحية أخرى، فإننا على إثر فشل المفاوضات الرسمية مع اللورد كيرزون ومذكرة اللورد اللنبي، عبرنا عن رأينا فيما حدث في هذا البيان:

"لقد انتهت المفاوضات الرسمية بين الحكومة المصرية والحكومة الإنجليزية ونشرت بالجرائد ليطلع عليها الشعب المصري والشعب الإنجليزي في آن واحد، فشهد الشعبان معا بل شهد العالم أجمع استعداد الأمة المصرية لعقد تحالف يضمن استقلال مصر ومصالح انجلترا وباقي الدول فيها، كما شهد سوء نية الحكومة الإنجليزية وعدم رغبتها في الوصول إلى حل معقول بين الأمتين.

يهددنا اللورد اللنبي بالنيابة عن حكومته بالالتجاء إلى استعمال القوة والبطش إذا نحن لم نوقع صكًا بعبوديتنا الدائمة بأيدينا، ويذكرنا بما لإنجلترا من الفضل علينا وبما نحن مدينون لها به بما قدمته لنا من مساعدات وخدمات.. نحن نعذر اللورد اللنبي لأننا نعتقد أنه لم يتمكن في المدة الوجيزة التي قضاها بيننا وفي ظروف استثنائية من درس

أخلاقنا وقوميتنا، وإن كنا لا نغنه على جهل تام من معرفة تاريخنا المجيد. وكذلك نعذر الحكومة الإنجليزية الحالية لأنها استعمارية وقد أعمتها مطامعها عن النظر إلى الحقائق وتقدير العواقب. ولكننا لا نجد عذرا ننتحله للأمة الإنجليزية بل وللأمم المتمدينة الأخرى إذا كانت هي أيضا تنظر بعيني اللورد اللنبي وحكومته، ولم تحسب حسابا للانقلاب الذي سيحدث في نفوس المصريين من قرب اليأس إلى قلوبهم، ولم تستدرك الأمر. إذا كان الإنجليزي فضل علينا، فذلك الفضل راجع إلى اللورد كيرزون الذي أدى إلينا بصراحة مشروعه خدمة لا تقدر، إذ كشف لنا النقاب عن نوايا إنجلترا الاستعمارية، وأوقفنا على درجة مهارة حكومتها من السياسة والحذق.

"فليعلم اللورد اللنبي ولتعلم حكومته أنه إذا كان كما يقول من صالح المصريين أن يعيشوا على وفاق تام مع الدولة الإنجليزية، فما من مصري يجهل أنه من صالح إنجلترا أكثر أن تحافظ هي على صداقة الأمة المصرية لها وحسن ثقتها بها، وأنه لا يمكننا أن نتجاهل ولا نقدر ما يهدد مصر بل والدول الأخرى من الخطر العظيم إذا نحن قبلنا المشروع

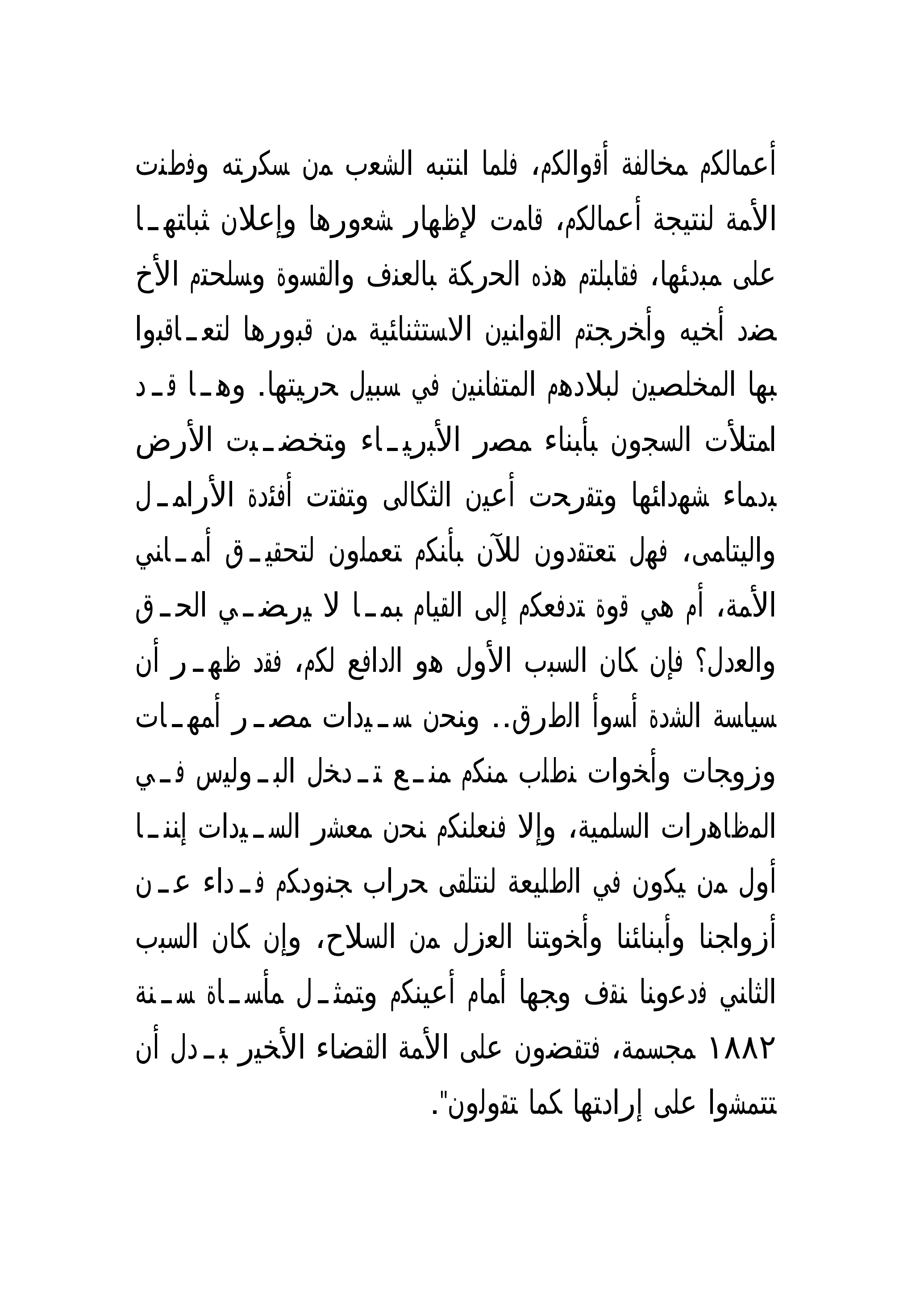


المعروض علينا. أما تهديدات الحكومة الإنجليزية ذاتها فـلا ترهبنا ولا تزعجنا بل تزيدنا ثباتًا وعزمـا واتحـادا علـى المثابرة في العمل لنجاح قضيتنا العادلة، لأننا نعلم أن سياسة الإرهاب والقوة قصيرة العمر خطيرة العاقبة على المسـتند عليها، خصوصا إذا استعملت ضد أمة أثيلة في المجد تحـتم عليها كرامتها أن تعيش حرة أو تموت".

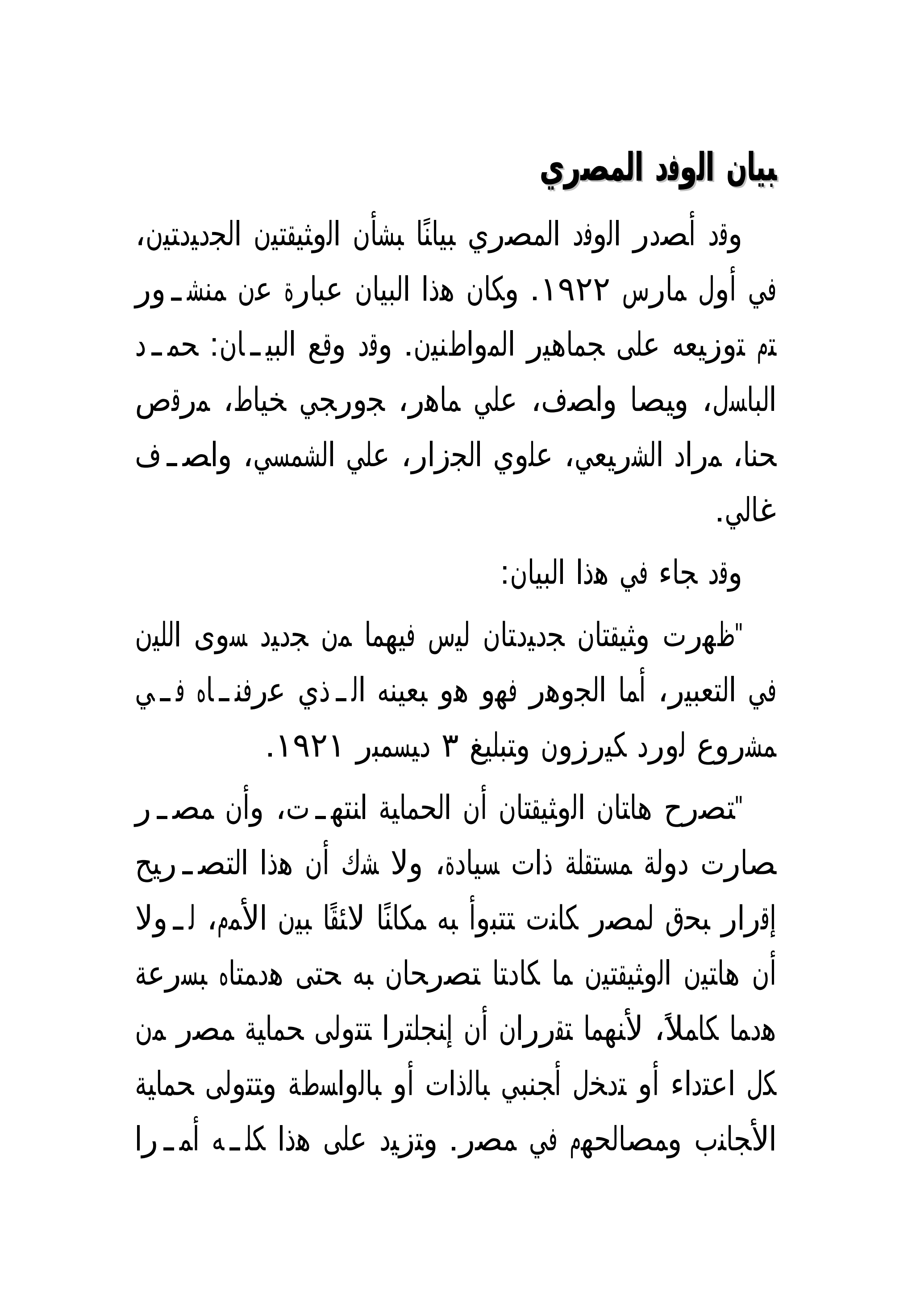
وبعد أن ألف عبد الخالق ثروت باشا وزارته، وجهت إليه لجنة الوفد المركزية للسيدات خطابا تعترض فيه علـى مـا انتهجته وزارته من عنف وقسوة ضد المواطنين، وقد هددناه في هذا الخطاب بأن تكون السيدات أو الطليعة التـي تتلقـى حراب جنود الحكومة.. وهذا هو نص الخطاب:

"يا صاحب الدولة ثروت باشا رئيس مجلس الوزراء.

"أتيتم في وقت كانت الأمة المصرية تعمل فيه لاسـترداد حقها المغتصب، غير طالبة أي مساعدة.. معتصمة بـالحق، قوية باتحادها، فصرحتم بأن وزارتكم ستعمل لتحقيق أمـاني الأمة مسترشدة بإرادتها، فكان لهذا القول أحسن وقع في نفس الشعب الذي طالما انتظر تحقيق ذلك، ولكن مع الأسف قـد أتت النتيجة مخيبة للآمال مثبطة للعزائم؛ حيث قـد ظهـرت



أعمالكم مخالفة أقوالكم، فلما انتبه الشعب من سكرته وفطنت الأمة لنتيجة أعمالكم، قامت لإظهار شعورها وإعلان ثباتها على مبدئها، فقابلتم هذه الحركة بالعنف والقسوة وسلحتم الأخ ضد أخيه وأخرجتم القوانين الاستثنائية من قبورها لتعاقبوا بها المخلصين لبلادهم المتفانين في سبيل حريتها. وها قد امتلأت السجون بأبناء مصر الأبرياء وتخضبت الأرض بدماء شهدائها وتقرحت أعين الثكالى وتفتت أفئدة الأرامل واليتامى، فهل تعتقدون للآن بأنكم تعملون لتحقيق أماني الأمة، أم هي قوة تدفعكم إلى القيام بما لا يرضي الحق والعدل؟ فإن كان السبب الأول هو الدافع لكم، فقد ظهر أن سياسة الشدة أسوأ الطرق.. ونحن سيدات مصر أمهات وزوجات وأخوات نطلب منكم منع تدخل البوليس في المظاهرات السلمية، وإلا فنعلنكم نحن معشر السيدات إننا أول من يكون في الطليعة لنتلقى حراب جنودكم فداء عن أزواجنا وأبنائنا وأخوتنا العزل من السلاح، وإن كان السبب الثاني فدعونا نقف وجها أمام أعينكم وتمثل مأساة سنة ١٨٨٢ مجسمة، فتقضون على الأمة القضاء الأخير بدل أن تتمشوا على إرادتها كما تقولون".



بيان الوفد المصري

وقد أصدر الوفد المصري بيانًا بشأن الوثيقتين الجديدتين، في أول مارس ١٩٢٢. وكان هذا البيان عبارة عن منشـور تم توزيعه على جماهير المواطنين. وقد وقع البيـان: حمـد الباسل، ويصا واصف، علي ماهر، جورجي خياط، مرقص حنا، مراد الشريعي، علوي الجزار، علي الشمسي، واصـف غالي.

وقد جاء في هذا البيان:

"ظهرت وثيقتان جديدتان ليس فيهما من جديد سوى اللين في التعبير، أما الجوهر فهو هو بعينه الـذي عرفنـاه فـي مشروع لورد كيرزون وتبليغ ٣ ديسمبر ١٩٢١.

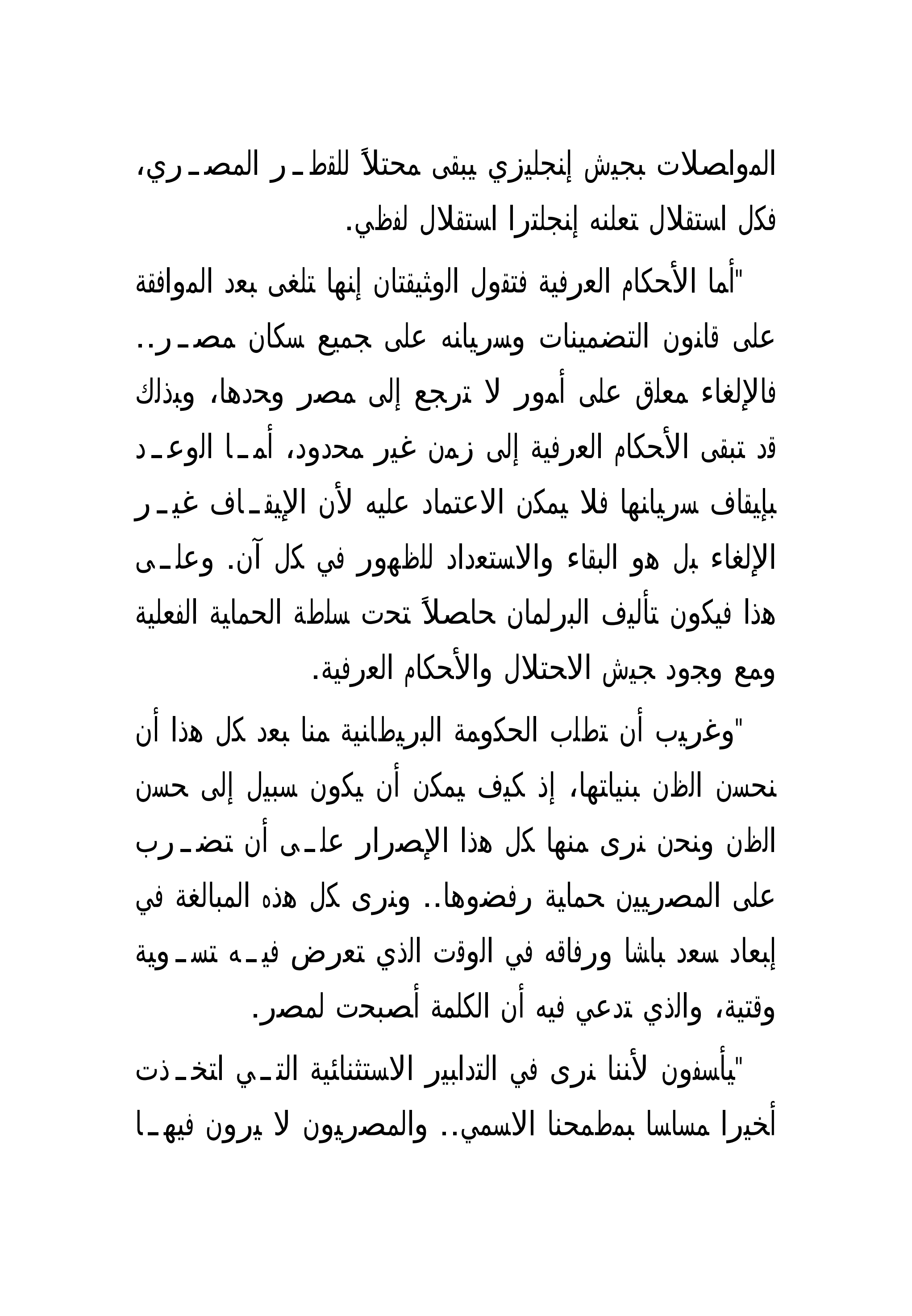
"تصرح هاتان الوثيقتان أن الحماية انتهـت، وأن مصـر صارت دولة مستقلة ذات سيادة، ولا شك أن هذا التصـريح إقرار بحق لمصر كانت تتبوأ به مكانًا لائقًا بين الأمم، لـولا أن هاتين الوثيقتين ما كادتا تصرحان به حتى هدمتاه بسرعة هدما كاملاً، لأنهما تقرران أن إنجلترا تتولى حماية مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة وتتولى حماية الأجانب ومصالحهم في مصر. وتزيد على هذا كلـه أمـرا

جديدا تقتضيه إنجلترا لنفسها وهو إنها هـي التـي تحمـي الأقليات، وهو تدخل بين الحكومة المصرية ورعاياها الـذين أجمعوا بأقليتهم وأكثريتهم على الخلاص من الحكم الأجنبي.

"فالدول على هذا لا تعرف لمصر مركزا دوليا غير إنهـا محمية بالسلطة الإنجليزية خارجا، وهذه السلطة هي نفسـها التي تحمي الأجانب والأقليات داخلاً، وليس هذا وذاك سوى الحماية قانونًا وفعلاً.

"وأما القول بأن هذه المسائل مؤقتة حتـى يحـين وقـت المفاوضات فلا يغير في الموضـوع شـيئًا، لأن التصـريح بإلغاء الحماية جاء في وثيقة واحدة مقترنًا بهذه القيود، ولأن تحديد وقت المفاوضة ليس من حق مصر وحدها. ومصـر التي تعاني الاحتلال المؤقت منذ أربعين سنة أعرف الـبلاد بالتسويات المؤقتة، على أن المفاوضات قد لا تفلـح، فتبقـى الضمانات التي احتفظت بها إنجلترا في يدها.

"ومتى كانت الحماية الفعلية باقية علـى هـذه الصـورة، وكانت انجلترا لا تزال تعتبـر مصـر كلهـا جـزءا مـن مواصلاتها الإمبراطورية وتحفظ في يدها حق تـأمين هـذه



المواصلات بجيش إنجليزي يبقى محتلاً للقطـر المصـري، فكل استقلال تعلنه إنجلترا استقلال لفظي.

"أما الأحكام العرفية فتقول الوثيقتان إنها تلغى بعد الموافقة على قانون التضمينات وسريانه على جميع سكان مصـر.. فالإلغاء معلق على أمور لا ترجع إلى مصر وحدها، وبذلك قد تبقى الأحكام العرفية إلى زمن غير محدود، أمـا الوعـد بإيقاف سريانها فلا يمكن الاعتماد عليه لأن الإيقـاف غيـر الإلغاء بل هو البقاء والاستعداد للظهور في كل آن. وعلـى هذا فيكون تأليف البرلمان حاصلاً تحت سلطة الحماية الفعلية ومع وجود جيش الاحتلال والأحكام العرفية.

"وغريب أن تطلب الحكومة البريطانية منا بعد كل هذا أن نحسن الظن بنياتها، إذ كيف يمكن أن يكون سبيل إلى حسن الظن ونحن نرى منها كل هذا الإصرار علـى أن تضـرب على المصريين حماية رفضوها.. ونرى كل هذه المبالغة في إبعاد سعد باشا ورفاقه في الوقت الذي تعرض فيـه تسـوية وقتية، والذي تدعي فيه أن الكلمة أصبحت لمصر.

"يأسفون لأننا نرى في التدابير الاستثنائية التـي اتخـذت أخيرا مساسا بمطمحنا الاسمي.. والمصريون لا يرون فيهـا

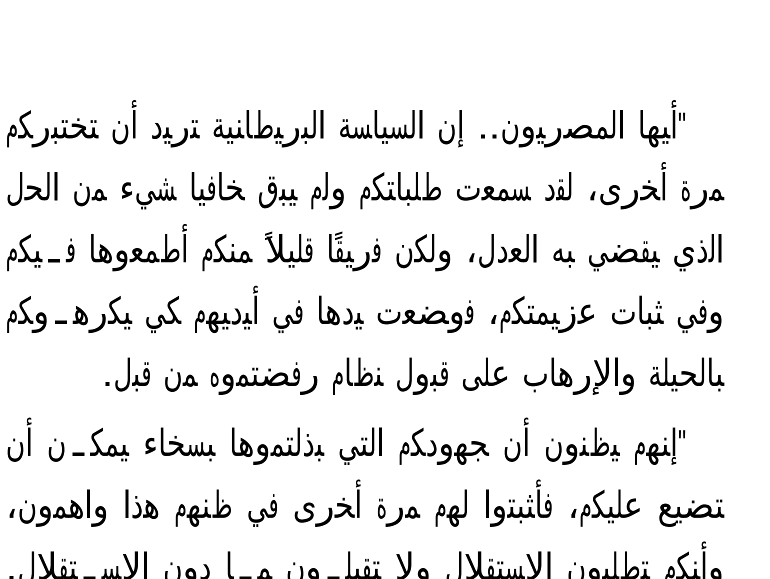
ذلك المساس لأن هذا المطمح أرفع من أن يمس. إنما يرون فيها مساسا بكرامتهم وشرفهم القومي، ويرون فيهـا إخـلالاً بمبادئ العدل الأولية.

"حريتنا الشخصية مصادرة.. وحريتنا السياسية مخنوقـة، والصحافة ما بين مكممة ومعطلـة لا تسـتطيع نشـر آراء الأفراد والهيئات في الحالة الجديدة. والاجتماعـات العامـة محرمة.. وزعيم البلاد رأس الحركة الوطنيـة مبعـد عـن الوطن.. والوطنيون مهددون بالنفي والاعتقـال، كـل هـذا ويريدون أن يقنعونا بأن ذلك في مصلحتنا.

"حقًا إن مصلحتنا ومصلحتهم تقتضيان بأن يوضع حد لهذا الهياج، ولكن ذلك الهياج ليس إلا وليـد سياسـة الإرهـاب والخديعة التي اتبعت في طول البلاد وعرضها.

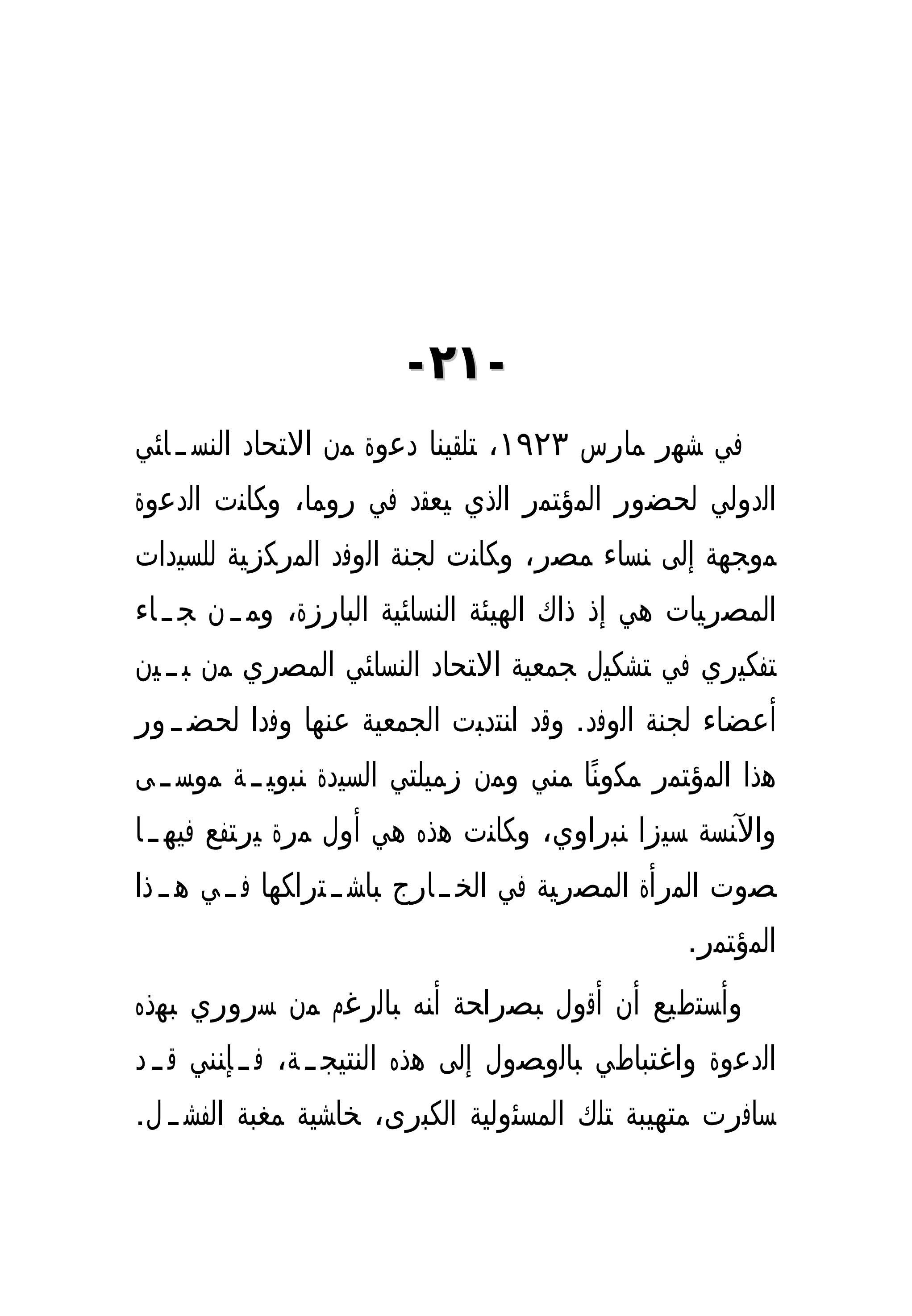
"إن مصلحتنا ومصلحتهم هي في رفع الظلم الذي وقع، وإلغاء التدابير الاستثنائية التي اتخذت، وتحطيم السلال التي تقيد حريتنا، وإعادة سعد والمنفيين إلى بلادهم، ورد المعتقلين السياسيين إلى أهلهم.

"حينذاك تطمئن النفوس ويصبح في الإمكان بحث المسألة المصرية في جو هادئ، فنقول مصر كلها:



"أيها المصريون.. إن السياسة البريطانية تريد أن تختبركم مرة أخرى، لقد سمعت طلباتكم ولم يبق خافيا شيء من الحل الذي يقضي به العدل، ولكن فريقًا قليلاً منكم أطمعوها فـيكم وفي ثبات عزيمتكم، فوضعت يدها في أيديهم كي يكرهـوكم بالحيلة والإرهاب على قبول نظام رفضتموه من قبل.

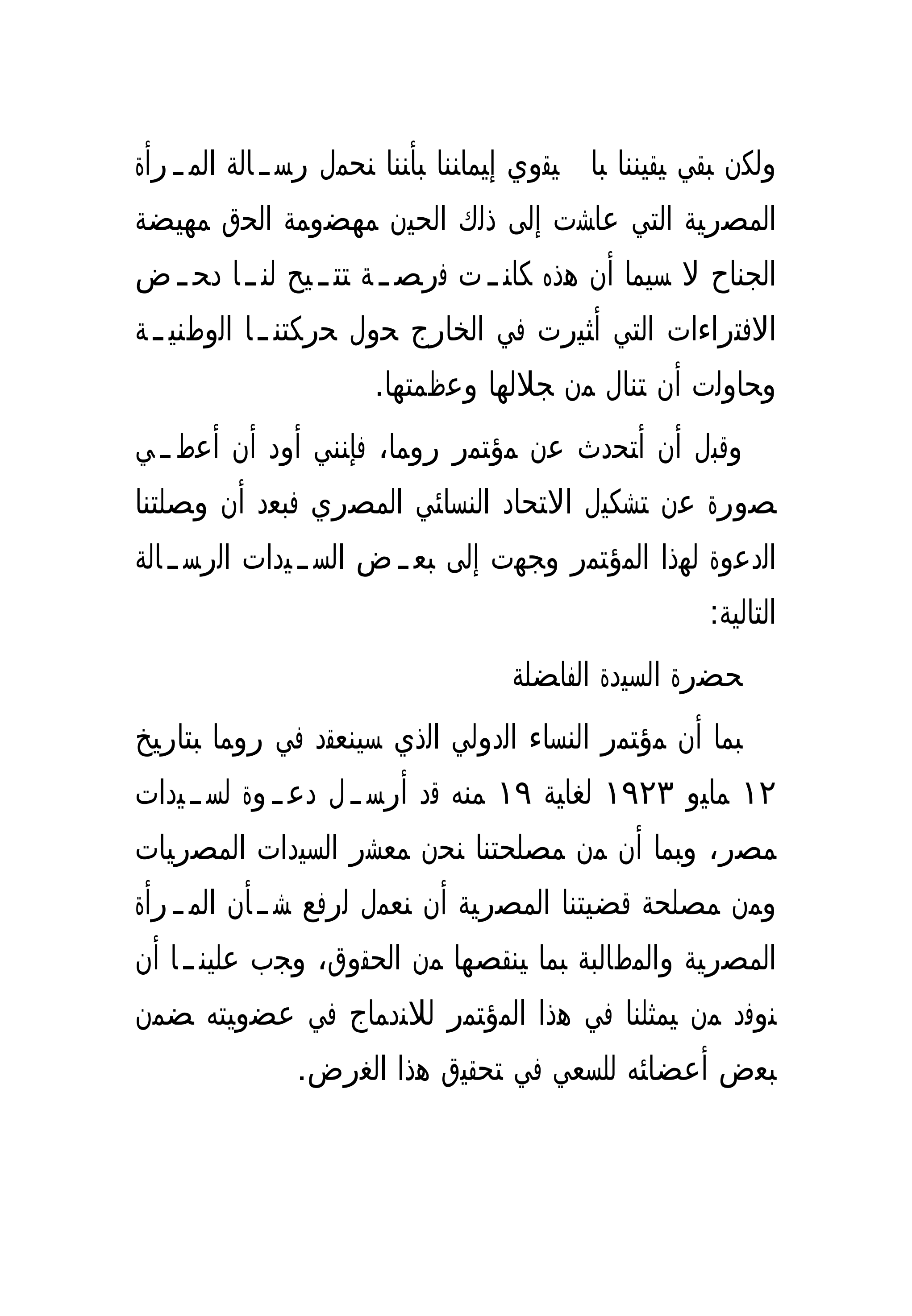
"إنهم يظنون أن جهودكم التي بذلتموها بسخاء يمكـن أن تضيع عليكم، فأثبتوا لهم مرة أخرى في ظنهم هذا واهمون، وأنكم تطلبون الاستقلال ولا تقبلـون مـا دون الاسـتقلال. "فلتحيا" مصر.. "وليحيا" سعد باشا".



-٢١-

في شهر مارس ١٩٢٣، تلقينا دعوة من الاتحاد النسائي الدولي لحضور المؤتمر الذي يعقد في روما، وكانت الدعوة موجهة إلى نساء مصر، وكانت لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات هي إذ ذاك الهيئة النسائية البارزة، ومن جاء تفكيري في تشكيل جمعية الاتحاد النسائي المصري من بين أعضاء لجنة الوفد. وقد انتدبت الجمعية عنها وفدا لحضور هذا المؤتمر مكونًا مني ومن زميلتي السيدة نبوية موسى والآنسة سيزا نبراوي، وكانت هذه هي أول مرة يرتفع فيها صوت المرأة المصرية في الخارج باشتراكها في هذا المؤتمر.

وأستطيع أن أقول بصراحة أنه بالرغم من سروري بهذه الدعوة واغتباطي بالوصول إلى هذه النتيجة، فإنني قد سافرت متهيبة تلك المسئولية الكبرى، خاشية مغبة الفشل.

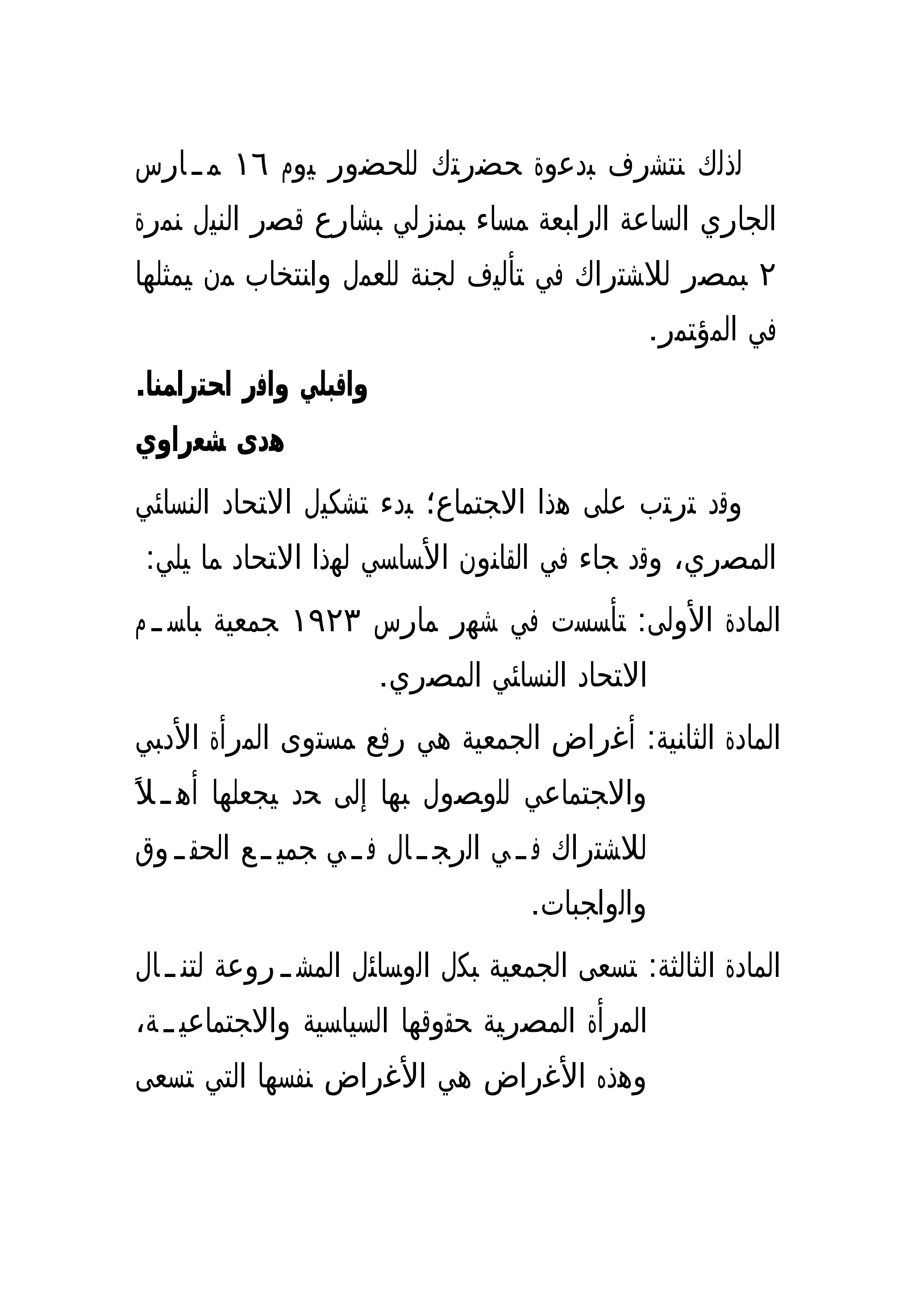


ولكن بقي يقيننا با يقوي إيماننا بأننا نحمل رسالة المرأة المصرية التي عاشت إلى ذلك الحين مهضومة الحق مهيضة الجناح لا سيما أن هذه كانت فرصة تتيح لنا دحض الافتراءات التي أثيرت في الخارج حول حركتنا الوطنية وحاولت أن تنال من جلالها وعظمتها.

وقبل أن أتحدث عن مؤتمر روما، فإنني أود أن أعطي صورة عن تشكيل الاتحاد النسائي المصري فبعد أن وصلتنا الدعوة لهذا المؤتمر وجهت إلى بعض السيدات الرسالة التالية:

حضرة السيدة الفاضلة

بما أن مؤتمر النساء الدولي الذي سينعقد في روما بتاريخ ١٢ مايو ١٩٢٣ لغاية ١٩ منه قد أرسل دعوة لسيدات مصر، وبما أن من مصلحتنا نحن معشر السيدات المصريات ومن مصلحة قضيتنا المصرية أن نعمل لرفع شأن المرأة المصرية والمطالبة بما ينقصها من الحقوق، وجب علينا أن نوفد من يمثلنا في هذا المؤتمر للاندماج في عضويته ضمن بعض أعضائه للسعي في تحقيق هذا الغرض.



لذلك نتشرف بدعوة حضرتك للحضور يوم ١٦ مـارس الجاري الساعة الرابعة مساء بمنزلي بشارع قصر النيل نمرة ٢ بمصر للاشتراك في تأليف لجنة للعمل وانتخاب من يمثلها في المؤتمر.

واقبلي وافر احترامنا.

هدى شعراوي

وقد ترتب على هذا الاجتماع؛ بدء تشكيل الاتحاد النسائي المصري، وقد جاء في القانون الأساسي لهذا الاتحاد ما يلي:

المادة الأولى: تأسست في شهر مارس ١٩٢٣ جمعية باسـم الاتحاد النسائي المصري.

المادة الثانية: أغراض الجمعية هي رفع مستوى المرأة الأدبي والاجتماعي للوصول بها إلى حد يجعلها أهـلاً للاشتراك فـي الرجـال فـي جميـع الحقـوق والواجبات.

المادة الثالثة: تسعى الجمعية بكل الوسائل المشـروعة لتنـال المرأة المصرية حقوقها السياسية والاجتماعيـة، وهذه الأغراض هي الأغراض نفسها التي تسعى

في تحقيقها جمعية الاتحاد النسائي المصـري أن تكون ممثلة لها في مصر.

المادة الرابعة: تمثل هذه الهيئة جمعية عمومية ومجلس إدارة.

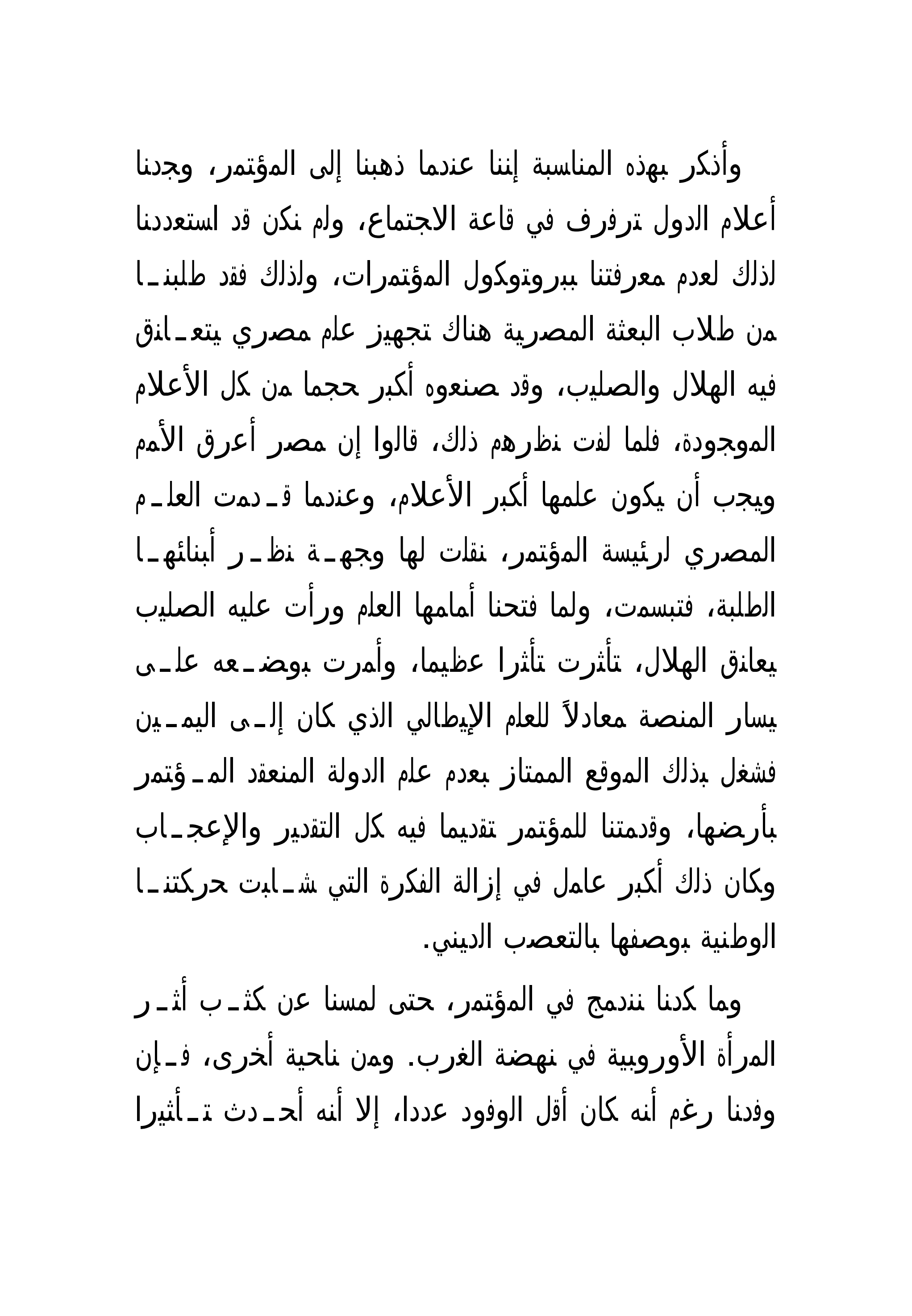
المادة الخامسة: تتألف الجمعيـة العموميـة مـن أعضـاء مشتركات وأعضاء مراسلات.

المادة السادسة: يتألف مجلس الإدارة من عشـرين عضـوا ينتخبن بواسطة الجمعية العموميـة ومـن بـين أعضائها المشتركات.

وبعد ذلك تأتي المواد الإدارية والتنظيمية.

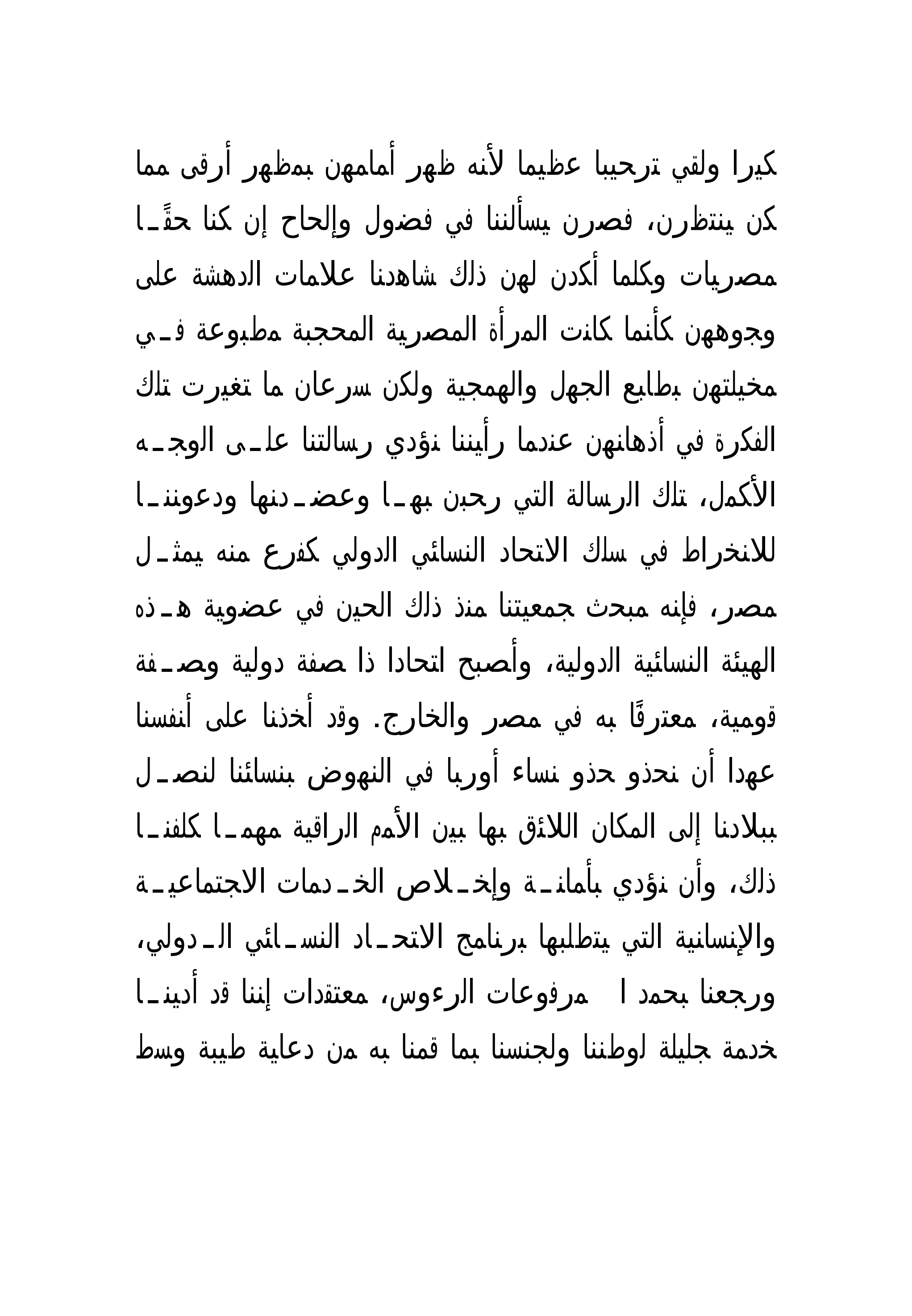
مؤتمر روما

ونعود بعد ذلك إلى اشتراكنا في المؤتمر الدولي الذي عقد في روما في مارس ١٩٢٣، فعندما وصـلنا إلـى رومـا، وجدناها تغص بمندوبات الدول الست والثلاثين التي اشتركت في هذا المؤتمر، وكانت كل دولة قد أوفدت أكثر من عشرين مندوبة عدا الصحافيات والصـحافيين والوافـدات لمشـاهدة المؤتمر.



وأذكر بهذه المناسبة إننا عندما ذهبنا إلى المؤتمر، وجدنا أعلام الدول ترفرف في قاعة الاجتماع، ولم نكن قد استعددنا لذلك لعدم معرفتنا ببروتوكول المؤتمرات، ولذلك فقد طلبنا من طلاب البعثة المصرية هناك تجهيز علم مصري يتعانق فيه الهلال والصليب، وقد صنعوه أكبر حجما من كل الأعلام الموجودة، فلما لفت نظرهم ذلك، قالوا إن مصر أعرق الأمم ويجب أن يكون علمها أكبر الأعلام، وعندما قدمت العلم المصري لرئيسة المؤتمر، نقلت لها وجهة نظر أبنائها الطلبة، فتبسمت، ولما فتحنا أمامها العلم ورأت عليه الصليب يعانق الهلال، تأثرت تأثرا عظيما، وأمرت بوضعه على يسار المنصة معادلاً للعلم الإيطالي الذي كان إلى اليمين فشغل بذلك الموقع الممتاز بعدم علم الدولة المنعقد المؤتمر بأرضها، وقدمتنا للمؤتمر تقديما فيه كل التقدير والإعجاب وكان ذلك أكبر عامل في إزالة الفكرة التي شابت حركتنا الوطنية بوصفها بالتعصب الديني.

وما كدنا نندمج في المؤتمر، حتى لمسنا عن كثب أثر المرأة الأوروبية في نهضة الغرب. ومن ناحية أخرى، فإن وفدنا رغم أنه كان أقل الوفود عددا، إلا أنه أحدث تأثيرا



كبيرا ولقي ترحيبا عظيما لأنه ظهر أمامهن بمظهر أرقى مما كن ينتظرن، فصرن يسألننا في فضول وإلحاح إن كنا حقًا مصريات وكلما أكدن لهن ذلك شاهدنا علامات الدهشة على وجوههن كأنما كانت المرأة المصرية المحجبة مطبوعة في مخيلتهن بطابع الجهل والهمجية ولكن سرعان ما تغيرت تلك الفكرة في أذهانهن عندما رأيننا نؤدي رسالتنا على الوجه الأكمل، تلك الرسالة التي رحبن بها وعضدنها ودعوننا للانخراط في سلك الاتحاد النسائي الدولي كفرع منه يمثل مصر، فإنه مبحث جمعيتنا منذ ذلك الحين في عضوية هذه الهيئة النسائية الدولية، وأصبح اتحادا ذا صفة دولية وصفة قومية، معترفًا به في مصر والخارج. وقد أخذنا على أنفسنا عهدا أن نحذو حذو نساء أوربا في النهوض بنسائنا لنصل ببلادنا إلى المكان اللائق بها بين الأمم الراقية مهما كلفنا ذلك، وأن نؤدي بأمانة وإخلاص الخدمات الاجتماعية والإنسانية التي يتطلبها برنامج الاتحاد النسائي الدولي، ورجعنا بحمد ا مرفوعات الرءوس، معتقدات إننا قد أدينا خدمة جليلة لوطننا ولجنسنا بما قمنا به من دعاية طيبة وسط

ذلك الجمع الحاشد من مندوبات الدول الست والثلاثين المشتركة في المؤتمر.

ولقد اندمجت جمعيتنا في الاتحاد النسائي الدولي على أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية والمدنية لتخويلها حق الانتخاب، وللعمل على نشر مبادئ السلام وتوطيد دعائمه، فأصبحت جهود المرأة المصرية عالمية لا محلية فقط، وهذا نصر كبير لبنات القرن العشرين في مصر.

لقد أخطأ الكثيرون فهم المبدأ الأساسي للاتحاد النسائي بشأن المطالبة بالمساواة في الحقوق السياسية للمرأة، فقد توهموا أن غرضها من الحصول على حريتها ومساواتها بالرجل في الحقوق هو الوصول إلى السفور ومزاحمة الرجل في مبادئ السياسة والعمل، مما أدى إلى تذمر بعض الرجال، والحقيقة أن مطالبة المرأة بحقها السياسي ليس معناه التدخل في الأمور السياسية والحزبية المحضة، بل للحصول على حقها في التشريع والتنفيذ حتى يمكنها المساهمة في علاج الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبخاصة ما كان منها متصلاً بشئون المرأة والطفل وكان سفورها من الوسائل اللازمة للحصول على هذا الحق لا حبا في السفور كوسيلة

للتبرج ولا سيما إلى مزاحمة الرجل كما اتهمت بـذلك زروا وبهتانًا.

حقوق المرأة المصرية

وكنت قد ألقيت خطابا في المؤتمر النسائي الـذي يمثـل مصر، وقد يكون من الأفضل أن أسجل هنا هـذا الخطـاب لتتضح أبعاد الصورة أمام كل الأعين، وهذا هو نص خطابي في المؤتمر:

"أنه ليسرني حقيقة أن أجد نفسي بينكن في هذه الجمعيـة المحترمة التي تمكنت فيها المرأة المصرية لأول مـرة فـي التاريخ من المجيء والمناقشة في حقوقها، وإنني لأجـد مـا يدعو إلى الفخر والغبطة في اختياري لإظهار تلك الرابطـة التي تربط بنات النيل بأخواتهن في أوربا.

حقًا لقد مر عصر طويل كنا نعمل فيه بمعزل عن العـالم أجمع خلا أزواجنا وأقاربنا، فنشأ عن ذلك انزواء شخصـيتنا وبقاؤنا وراء حجاب، على إننا إذا تأملنا في تاريخنا الغـابر رأينا أنه في الوقت الذي كانت مصر فيه تشرق فـي سـماء المجد ويتفجر نورها على البلدان، كانت المـرأة المصـرية تتمتع بحقوق الرجل نفسها. وقد حافظت على هذه الحقـوق

إلى اليوم الذي وقعت فيه مصر تحت نير الأجنبي، وأصاب المرأة ما أصاب نساء الشرق اللاتي ظللن ولا قانون يحميهن من استبداد الرجل وقد بقين في هذا الدرك حتى ظهر الإسلام الذي منح المرأة حقوقًا لم تحصل عليها من قبل، والتي تقاتل وستقاتل المرأة الغربية في سبيل الحصول عليها اليوم وغـدا وبعد غد.

وقد احتفظت المرأة حتى الساعة بهذه الحقوق التي يعترف بها القانون الديني، غير إنها لم تفكر في اسـتعمالها بسـبب الجهل الذي شبت فيه ودرجت أربعة قرون كاملة.

وما أفاقت مصر من سباتها العميق إلا في أوائـل حكـم محمد علي، ذلك المصلح الكبير الذي نهض بالبلاد، وأنشـأ المدارس التي فتح بعضها أبوابها للنسـاء ولـولا الاحـتلال الأجنبي لما وقفت في سيرها هذه الجهود التي كانت تعمـل على رفع مستوى المرأة العقلي، ولكان من المأمول اجتنـاء جمع ثمارها.

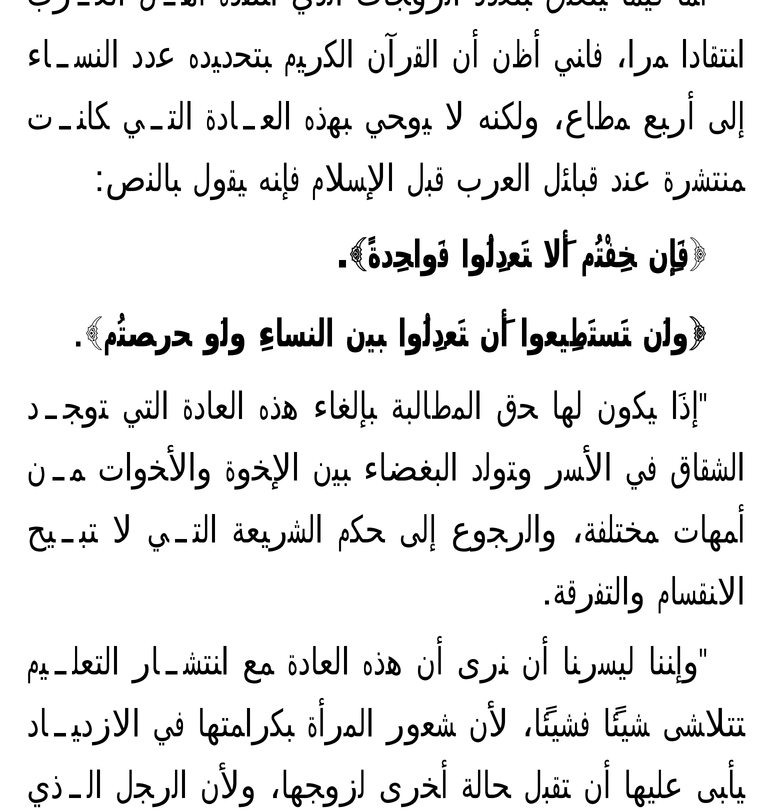
على أن مسألة التعليم الإجباري كانت موضوع المناقشـة والبحث في عهد السلطان حسين، ولكن أولي الأمر قر رأيهم على تأجيل إصدار هذا القانون بصفة نهائية ثلاثين عاما.

وقد حرمت الحكومة البنات ابتداء من سنة ١٩٠٩ من حق أداء امتحان البكالوريا، ثم حرمتهن من نيل شهادة الدراسة الابتدائية، ولهذا السبب فإن بناتنا اللاتي يتعلمن في مدارس الحكومة لا يسمح لهن أن يحترفن إلا إحدى المهنتين مهنة مدرسة ومهنة قابلة.

ولكن لا يجوز أن نغفل هذه الحقيقة الأخرى، وهي أن النقاب كان من أكبر العوامل التي أدت بقاء المرأة في درجة من العلم لا متأخر عنها ولا متقدم، ذلك بأنه في سن معينة يحال دون ذهاب الفتيات إلى معاهد التعليم، ورغما من هذه العقبات تمكنت الكثيرات منهن من ارتشاف مناهل العلم الراقي وبلوغ مكانة أخواتهن الأوروبيات، وقد قصد بعضهن جامعاتكن لإتمام دراستهن.

وقد بدأت المرأة المصرية – بفضل تعلمها ومعرفتها حقوقها أكثر من قبل – تظهر الميل إلى الاستفادة من الامتيازات التي يخولها القانون إياها، وها نحن أولاء نراها اليوم تحتل مكانة هامة في الأسرة والمجتمع والحياة السياسية.

والآن، فلنخلص الحقوق والمطالب التي سنبسطها غدا.



أما فيما يتعلق بتعدد الزوجات الذي انتقده أهل الغرب انتقادا مرا، فاني أظن أن القرآن الكريم بتحديده عدد النساء إلى أربع مطاع، ولكنه لا يوحي بهذه العادة التي كانت منتشرة عند قبائل العرب قبل الإسلام فإنه يقول بالنص:

﴿فَإِن خِفْتُمْ أَلا تَعدِلُوا فَواحِدةً﴾.

﴿ولَن تَستَطِيعوا أَن تَعدِلُوا بين النساءِ ولَو حرصتُم﴾.

"إذًا يكون لها حق المطالبة بإلغاء هذه العادة التي توجد الشقاق في الأسر وتولد البغضاء بين الإخوة والأخوات من أمهات مختلفة، والرجوع إلى حكم الشريعة التي لا تبيح الانقسام والتفرقة.

"وإننا ليسرنا أن نرى أن هذه العادة مع انتشار التعليم تتلاشى شيئًا فشيئًا، لأن شعور المرأة بكرامتها في الازدياد يأبى عليها أن تقبل حالة أخرى لزوجها، ولأن الرجل الذي يزداد حرصه على السعادة والطمأنينة في البيت لا يفكر اليوم مطلقًا في إدخال عوامل التفرقة من الباب.

"أما الطلاق فإنه وإن كان الرجل هو الذي يلجأ إليه عادة، إلا أن المرأة في وسعها أن تتخذه سلاحا تدافع به عن نفسها،

لأن القانون لا يعترض على استعمالها هذا الحـق. ويمكـن للمـرأة المصـرية أن تحـتفظ بأبنائهـا لغايـة السـابعة أو التاسعة من عمرهم.

"وفيما يتعلق بالوراثة، فإن البنت لا حق لها إلا في نصف ميراث الأخ، ولكن يجب ألا يفوتنا أن مقتضيات الـزواج أن يقوم الرجل بنفقات البيت أيا كانت ثروة زوجتـه. والمـرأة ترث عن زوجها ربع ما يملك إذا لم يكن له ولد، والثُمن في الحالة الأخرى، وللأبناء الذين يعترف بهم أبوهم عين حقوق الوراثة التي يتمتع بها الأبناء الشرعيون.

"وقد أدخلت أخيرا بعض إصلاحات من شـأنها تحسـين حالة المرأة من جهة النفقة التي يطالب بها الزوج في حالـة الانفصال. فإذا لم يدفع المبلغ الذي تراعي المحكمة في تعيينه مقدرته على الدفع، ألقي به فـي السـجن فالرجـل يخشـى الجزاء، والمرأة المهجورة تجد في القانون حماية لها.

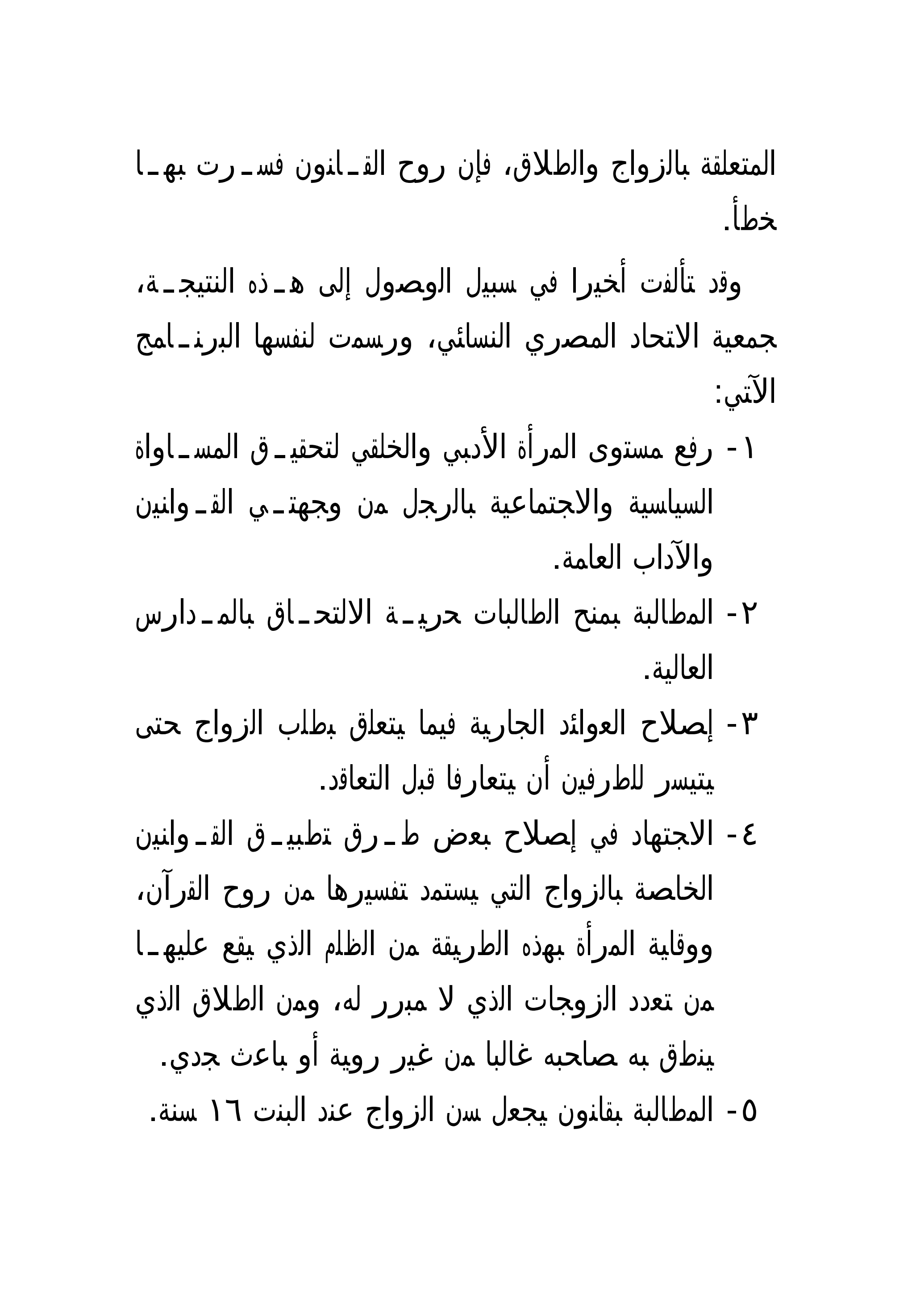
"وتتمتع المرأة المسلمة في الحياة المدنية بكفـاءة كاملـة، لأن القانون يكفل لها الاستقلال التام في التصرف في أملاكها متى بلغت سن الرشد، وفي إمكانها البيع والشراء والوصـية دون وجوب الحصول على تصريح مـن زوجهـا بـذلك،

والاشتراك في أي عمل مالي أو تجـاري بالتسـاوي مـع الرجل، وعدا ذلك فإنها تستمد من القـانون الإسـلام يحـق الاحتفاظ بجنسيتها في حالة ما إذا تزوجت بأجنبي.

ولم تأخذ المرأة إلى الآن من الحياة العامة بنصـيب مـن النشاط، ومنشأ ذلك جهلها، ولكن بما أن القوانين لا تشـتمل على أي تقييد يتعلق بكفاءتها، فسيكون في وسعها متى شاءت أن تطمح إلى الوظائف العمومية وجميع المهن التي يحترفها الرجال والاشتراك في كافة الجمعيات.

"وقد ظهرت المرأة المصرية في صورتها الحقيقيـة فـي حركة سنة ١٩١٩ في الوقت الذي كانت فيه الأمة من أولها إلى آخرها بحاجة إلى قواهـا كلهـا للمطالبـة باسـتقلالها. وشاركت المرأة الرجل في كفاحه السياسـي بتـداخلها فـي الإدارة والكتابة في الجرائد وتأسيس المجلات، وأنشأت بمالها الخاص مدارس حرف للفقراء وملاجئ للمرضـى الفقـراء وكونت جمعيات علمية.

يتبين مما تقدم أن المرأة المصرية التي تتمتع في المجتمع بامتيازات خاصة من وجهة القوانين، ليست بحاجة لتصـبح مساوية للرجل إلا إلى التعلم والمطالبة بإصلاح بعض العوائد


المتعلقة بالزواج والطلاق، فإن روح القـانون فسـرت بهـا خطأ.

وقد تألفت أخيرا في سبيل الوصول إلى هـذه النتيجـة، جمعية الاتحاد المصري النسائي، ورسمت لنفسها البرنـامج الآتي:

١- رفع مستوى المرأة الأدبي والخلقي لتحقيـق المسـاواة السياسية والاجتماعية بالرجل من وجهتـي القـوانين والآداب العامة.

٢- المطالبة بمنح الطالبات حريـة الالتحـاق بالمـدارس العالية.

٣- إصلاح العوائد الجارية فيما يتعلق بطلب الزواج حتى يتيسر للطرفين أن يتعارفا قبل التعاقد.

٤- الاجتهاد في إصلاح بعض طـرق تطبيـق القـوانين الخاصة بالزواج التي يستمد تفسيرها من روح القرآن، ووقاية المرأة بهذه الطريقة من الظلم الذي يقع عليهـا من تعدد الزوجات الذي لا مبرر له، ومن الطلاق الذي ينطق به صاحبه غالبا من غير روية أو باعث جدي.

٥- المطالبة بقانون يجعل سن الزواج عند البنت ١٦ سنة.

٦- العمل على نشر الدعوة في سبيل الصحة العمومية.
٧- تشجيع الفضيلة ومحاربة الرذيلة.
٨- محاربة الخرافات وبعض العوائد التي لا تتفق مع العقل.
٩- نشر الدعوة بمبادئ الجمعية بواسطة الصحافة.

والآن قبل أن أنسحب، اسمحن لي أيتها السيدات أن أشكركن على إلحاحكن في إظهار الرغبة في إشراك المرأة المصرية في عمل الاتحاد العظيم.

ولنا الأمل الكبير أن نصل بفضل نصائحكن التي هي لنا الهادي والاحتذاء على مثلكن الذي نجد خير مشجع إلى تحقيق رغباتنا وبلوغ القصد.

وإننا نضع أنفسنا تحت تصرفكن لخدمة مبادئكن ونشر أفكاركن، أما والاتحاد قوة، فإننا نرجو من صميم الفؤاد أن يتحقق في القريب العاجل، الغرض الذي نسعى إليه، أعني انتصار حقوق المرأة في العالم أجمع.

مقابلة موسوليني

كان من بين ما حققه مؤتمر روما الدولي، إننا التقينا بالسنيور موسوليني ثلاث مرات..

الأولى: عندما ترأس جلسة الافتتاح في سراي المعرض.. والثانية: عندما أقام حفل شاي للمندوبات في الكابيتول.. وكانت المرة الثالثة: بعد أن انتهى المؤتمر من أعماله؛ حيث توجهت المندوبات المشتركات في المؤتمر لمقابلته في قصر الرئاسة وتعمدن أن يذهبن سائرات على الأقدام كرجاء له في أن يمنح المرأة الإيطالية حق الانتخاب.

وقد استقبلنا وصافح أعضاء المؤتمر واحدة واحدة.. وعندما جاء دوري وقدمت إليه كرئيسة وفد مصر عبر عن جميل عواطفه ومشاعره نحو مصر، وقال إنه يرقب باهتمام حركات التحرير في مصر، وجهاد المصريين والمصريات في سبيل استقلال بلادهم، ثم تحدث عن تطلعه إلى توطيد العلاقات التي تربط إيطاليا بمصر وغيرها من دول البحر المتوسط، وأشاد بماضي مصر المجيد ومدنيتها العريقة وبما كان بين الدولتين من علاقات طيبة وصداقة قديمة وأعرب عن أمله في تجديد ذلك ودوام ارتباطه.

ولقد كانت هذه اللفتة منه نحو مصر جديرة بالتقدير، فأعربت له عن فائق تأثري بهذه العناية وبدوري تحدثت عن

مجد إيطاليا السابق والحاضر. ثم كررت رجـائي الخـاص بمنح المرأة الإيطالية حقوقها السياسية.

-٢٢-

بعد أن عدنا من المؤتمر النسائي الدولي الذي عقـد فـي روما، كان علينا أن نلتقي مع أعضاء جمعية الاتحاد النسائي المصري، لنستعرض جهود مندوبات الجمعية فـي مـؤتمر روما، ونتدارس مطالب المرأة المصرية، وقد انتهـى هـذا الاجتماع إلى تحديد هذه المطالب، واتخذنا فيه قرارا بتقديمها للوزارة..

وفي يوم ٢ يوليو ١٩٢٣ ذهب وفد من أعضاء الجمعيـة لمقابلة دولة رئيس مجلس الوزراء.. وكان هذا الوفد مكونًـا من السيدات: شريفة رياض.. إحسان أحمد.. عزيزة فوزي.. جميلة عطية.. وغيرهن، وكانت الجمعية قد حددت مطلبـين أساسيين:

أولهما: فتح باب التعليم الثانوي والعالي في وجه الفتيات.

ثانيهما: سن قانون يمنع زواج البنات قبل سـن السادسـة عشرة.

وكنت قد كتبت رسالة إلى دولة رئيس الوزراء، حملتهـا الزميلات إليه في هذا اللقاء.. وكان نص هذه الرسالة كتالي:

"حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء.

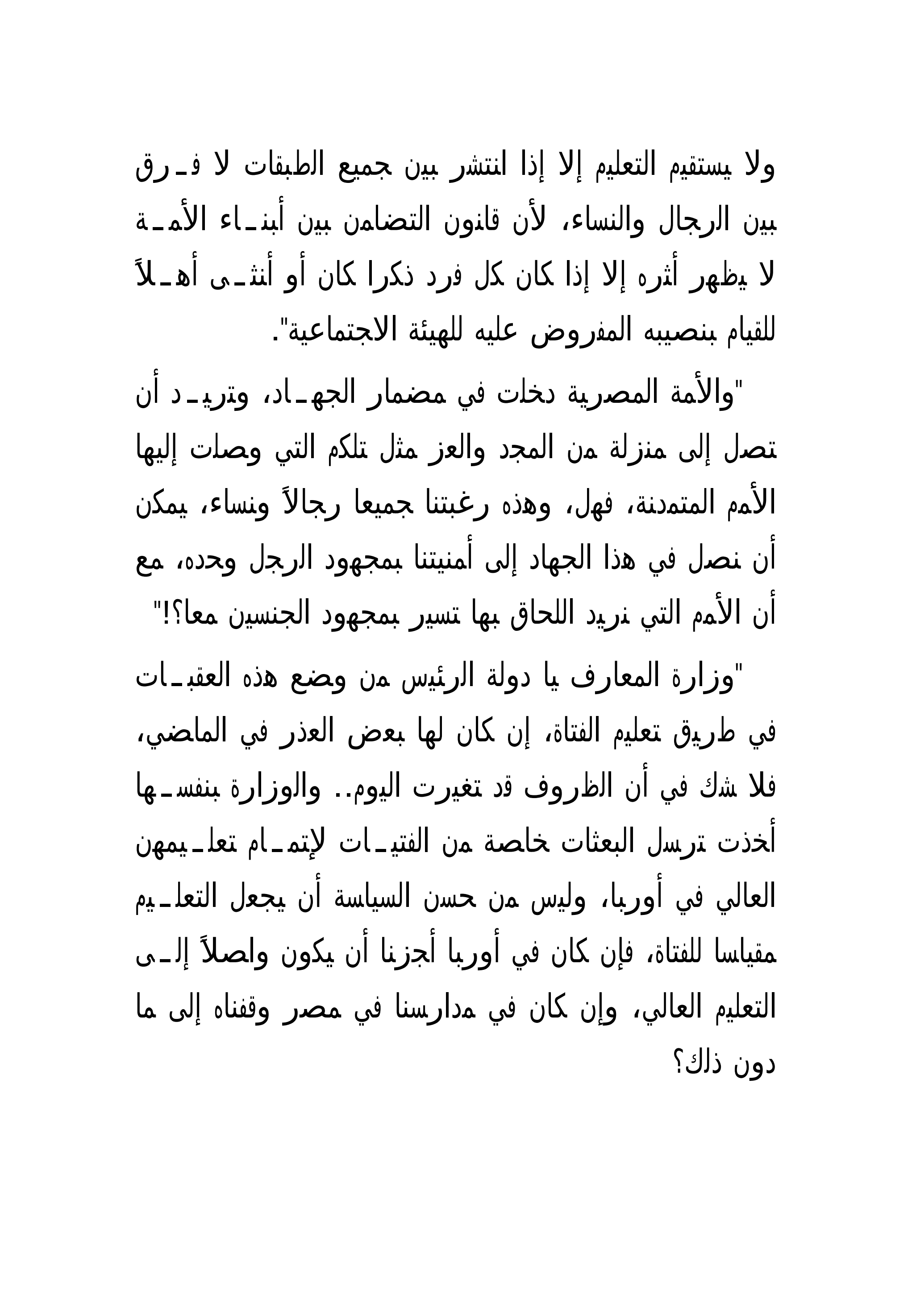
من أهم المسائل التي تناقشت فيها جمعية الاتحاد النسائي التي عقدت بدار الجامعة المصرية يوم الثلاثاء ٢٦ الجاري، موضوعان:

الأول: حالة التأخر الظاهر في التعليم العام للفتاة.

الثاني: إغفال الشروط الضرورية لمنع الحظـر الصـحي والعائلي عن زواج الفتاة.

وبعد المناقشة فيهما، رأت الجمعية في المسألة الأولى أن من أهم العقبات في طريق رقي الفتاة عدم السماح لهـا مـن وزارة المعارف في دخول الامتحانات العامة لنيل الشهادات الدراسية الثانوية والشهادات العالية.

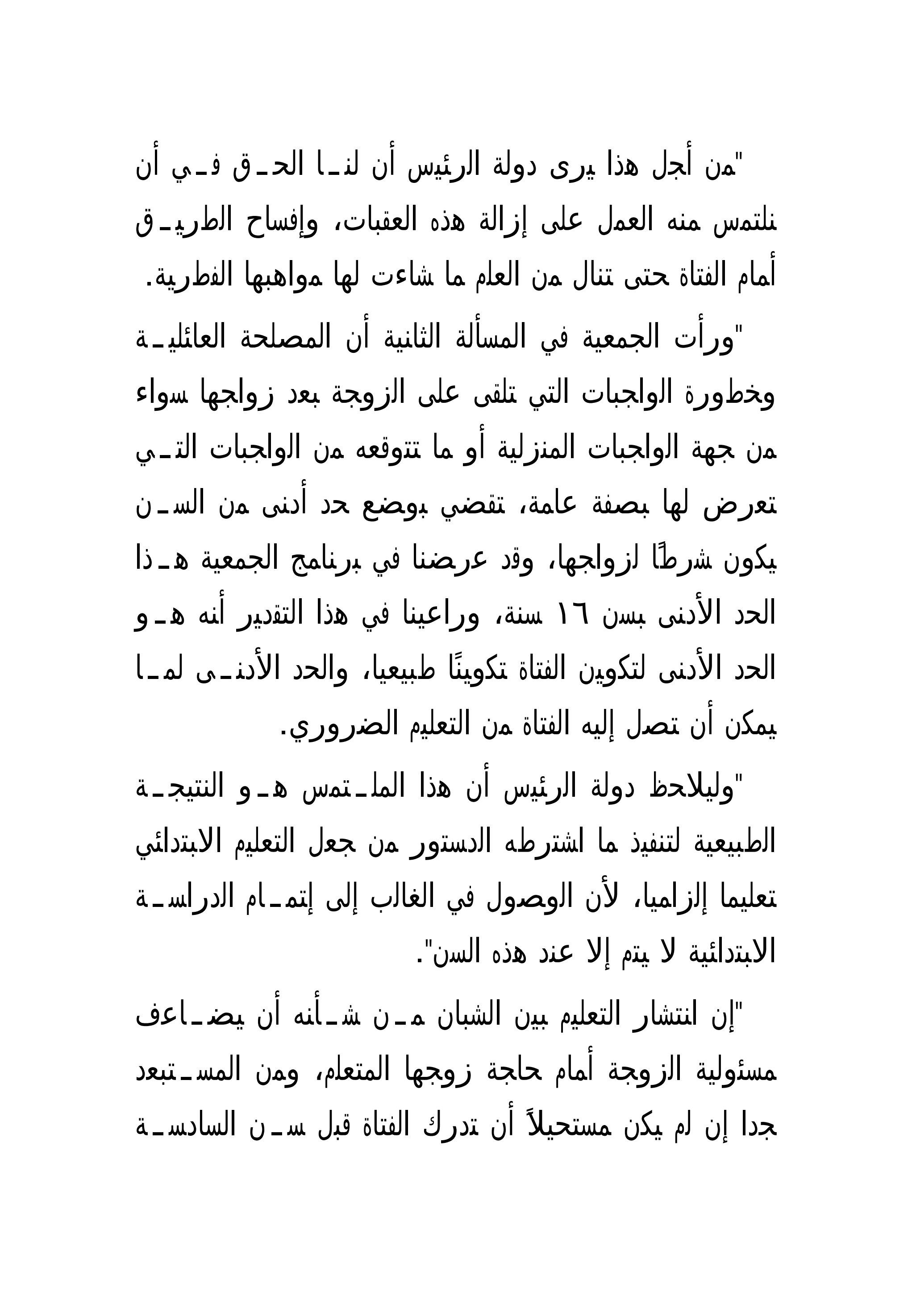
"إن تصرف الوزارة المشار إليه في هذا البـاب مخـالف للمصلحة العامة للرجال والنساء على السواء؛ حيث أصـبح من القضايا المسلم بها أن رقي الأمة تابع لدرجة التعليم فيها،



ولا يستقيم التعليم إلا إذا انتشر بين جميع الطبقات لا فـرق بين الرجال والنساء، لأن قانون التضامن بين أبنـاء الأمـة لا يظهر أثره إلا إذا كان كل فرد ذكرا كان أو أنثـى أهـلاً للقيام بنصيبه المفروض عليه للهيئة الاجتماعية".

"والأمة المصرية دخلت في مضمار الجهـاد، وتريـد أن تصل إلى منزلة من المجد والعز مثل تلكم التي وصلت إليها الأمم المتمدنة، فهل، وهذه رغبتنا جميعا رجالاً ونساء، يمكن أن نصل في هذا الجهاد إلى أمنيتنا بمجهود الرجل وحده، مع أن الأمم التي نريد اللحاق بها تسير بمجهود الجنسين معا؟!"

"وزارة المعارف يا دولة الرئيس من وضع هذه العقبـات في طريق تعليم الفتاة، إن كان لها بعض العذر في الماضي، فلا شك في أن الظروف قد تغيرت اليوم.. والوزارة بنفسـها أخذت ترسل البعثات خاصة من الفتيـات لإتمـام تعلـيمهن العالي في أوربا، وليس من حسن السياسة أن يجعل التعلـيم مقياسا للفتاة، فإن كان في أوربا أجزنا أن يكون واصلاً إلـى التعليم العالي، وإن كان في مدارسنا في مصر وقفناه إلى ما دون ذلك؟

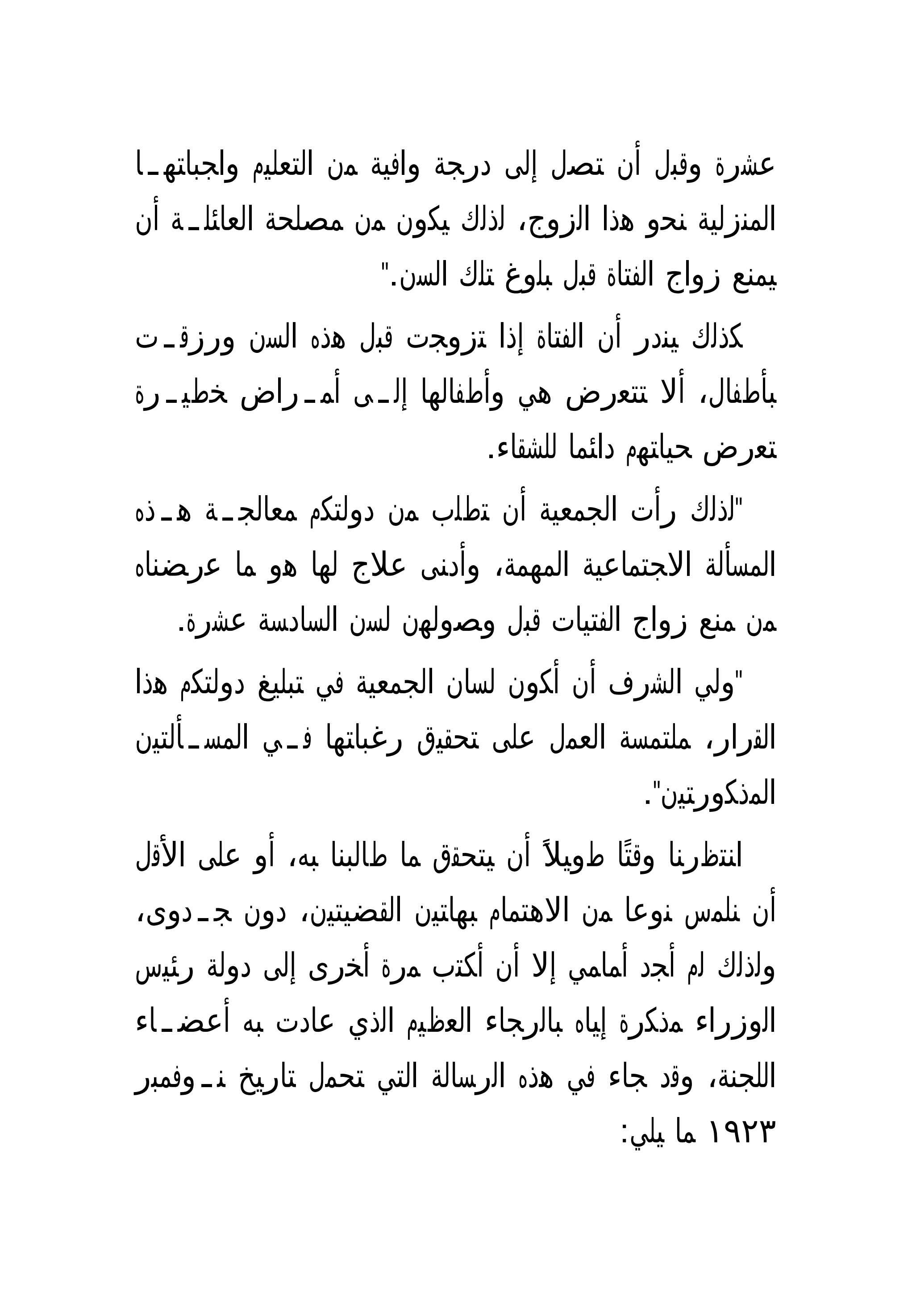


"من أجل هذا يرى دولة الرئيس أن لنـا الحـق فـي أن نلتمس منه العمل على إزالة هذه العقبات، وإفساح الطريـق أمام الفتاة حتى تنال من العلم ما شاءت لها مواهبها الفطرية.

"ورأت الجمعية في المسألة الثانية أن المصلحة العائليـة وخطورة الواجبات التي تلقى على الزوجة بعد زواجها سواء من جهة الواجبات المنزلية أو ما تتوقعه من الواجبات التـي تعرض لها بصفة عامة، تقضي بوضع حد أدنى من السـن يكون شرطًا لزواجها، وقد عرضنا في برنامج الجمعية هـذا الحد الأدنى بسن ١٦ سنة، وراعينا في هذا التقدير أنه هـو الحد الأدنى لتكوين الفتاة تكوينًا طبيعيا، والحد الأدنـى لمـا يمكن أن تصل إليه الفتاة من التعليم الضروري.

"وليلاحظ دولة الرئيس أن هذا الملـتمس هـو النتيجـة الطبيعية لتنفيذ ما اشترطه الدستور من جعل التعليم الابتدائي تعليما إلزاميا، لأن الوصول في الغالب إلى إتمـام الدراسـة الابتدائية لا يتم إلا عند هذه السن".

"إن انتشار التعليم بين الشبان مـن شـأنه أن يضـاعف مسئولية الزوجة أمام حاجة زوجها المتعلم، ومن المسـتبعد جدا إن لم يكن مستحيلاً أن تدرك الفتاة قبل سـن السادسـة

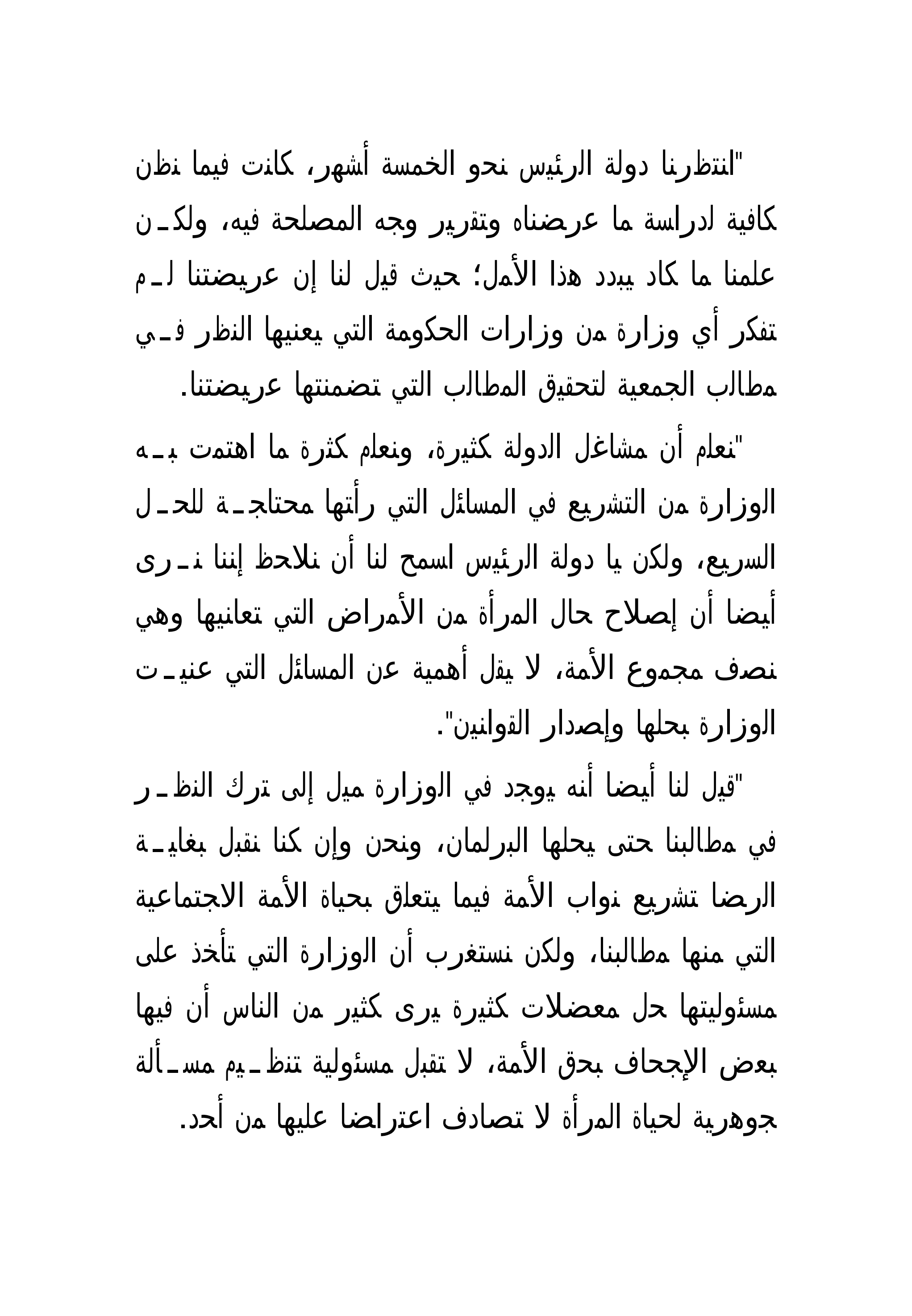

عشرة وقبل أن تصل إلى درجة وافية من التعليم واجباتهـا المنزلية نحو هذا الزوج، لذلك يكون من مصلحة العائلـة أن يمنع زواج الفتاة قبل بلوغ تلك السن."

كذلك يندر أن الفتاة إذا تزوجت قبل هذه السن ورزقـت بأطفال، ألا تتعرض هي وأطفالها إلـى أمـراض خطيـرة تعرض حياتهم دائما للشقاء.

"لذلك رأت الجمعية أن تطلب من دولتكم معالجـة هـذه المسألة الاجتماعية المهمة، وأدنى علاج لها هو ما عرضناه من منع زواج الفتيات قبل وصولهن لسن السادسة عشرة.

"ولي الشرف أن أكون لسان الجمعية في تبليغ دولتكم هذا القرار، ملتمسة العمل على تحقيق رغباتها فـي المسـألتين المذكورتين".

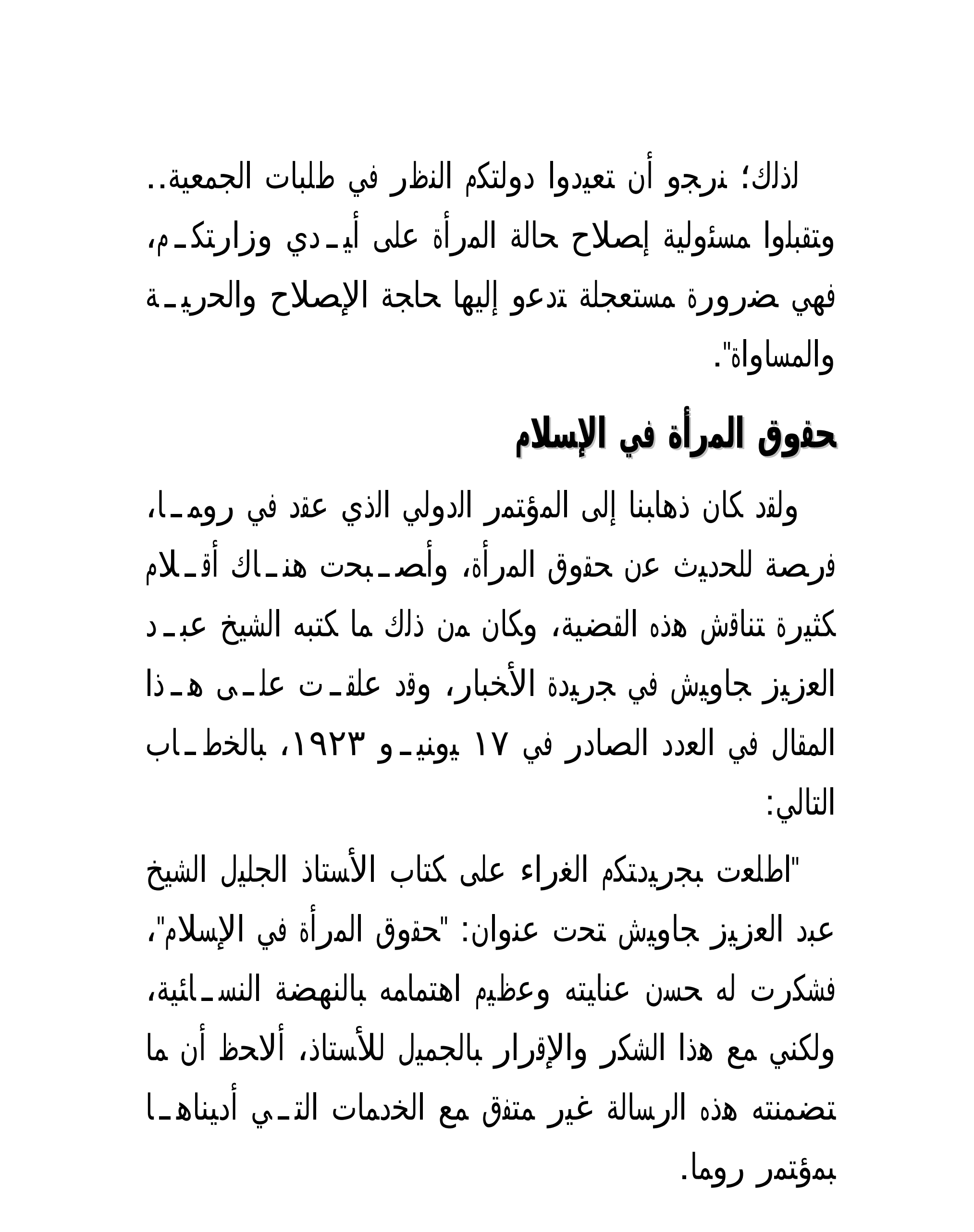
انتظرنا وقتًا طويلاً أن يتحقق ما طالبنا به، أو على الأقل أن نلمس نوعا من الاهتمام بهاتين القضيتين، دون جـدوى، ولذلك لم أجد أمامي إلا أن أكتب مرة أخرى إلى دولة رئيس الوزراء مذكرة إياه بالرجاء العظيم الذي عادت به أعضـاء اللجنة، وقد جاء في هذه الرسالة التي تحمل تاريخ نـوفمبر ١٩٢٣ ما يلي:



"انتظرنا دولة الرئيس نحو الخمسة أشهر، كانت فيما نظن كافية لدراسة ما عرضناه وتقرير وجه المصلحة فيه، ولكن علمنا ما كاد يبدد هذا الأمل؛ حيث قيل لنا إن عريضتنا لم تفكر أي وزارة من وزارات الحكومة التي يعنيها النظر في مطالب الجمعية لتحقيق المطالب التي تضمنتها عريضتنا.

"نعلم أن مشاغل الدولة كثيرة، ونعلم كثرة ما اهتمت به الوزارة من التشريع في المسائل التي رأتها محتاجة للحل السريع، ولكن يا دولة الرئيس اسمح لنا أن نلاحظ إننا نرى أيضا أن إصلاح حال المرأة من الأمراض التي تعانيها وهي نصف مجموع الأمة، لا يقل أهمية عن المسائل التي عنيت الوزارة بحلها وإصدار القوانين".

"قيل لنا أيضا أنه يوجد في الوزارة ميل إلى ترك النظر في مطالبنا حتى يحلها البرلمان، ونحن وإن كنا نقبل بغاية الرضا تشريع نواب الأمة فيما يتعلق بحياة الأمة الاجتماعية التي منها مطالبنا، ولكن نستغرب أن الوزارة التي تأخذ على مسئوليتها حل معضلات كثيرة يرى كثير من الناس أن فيها بعض الإجحاف بحق الأمة، لا تقبل مسئولية تنظيم مسألة جوهرية لحياة المرأة لا تصادف اعتراضا عليها من أحد.

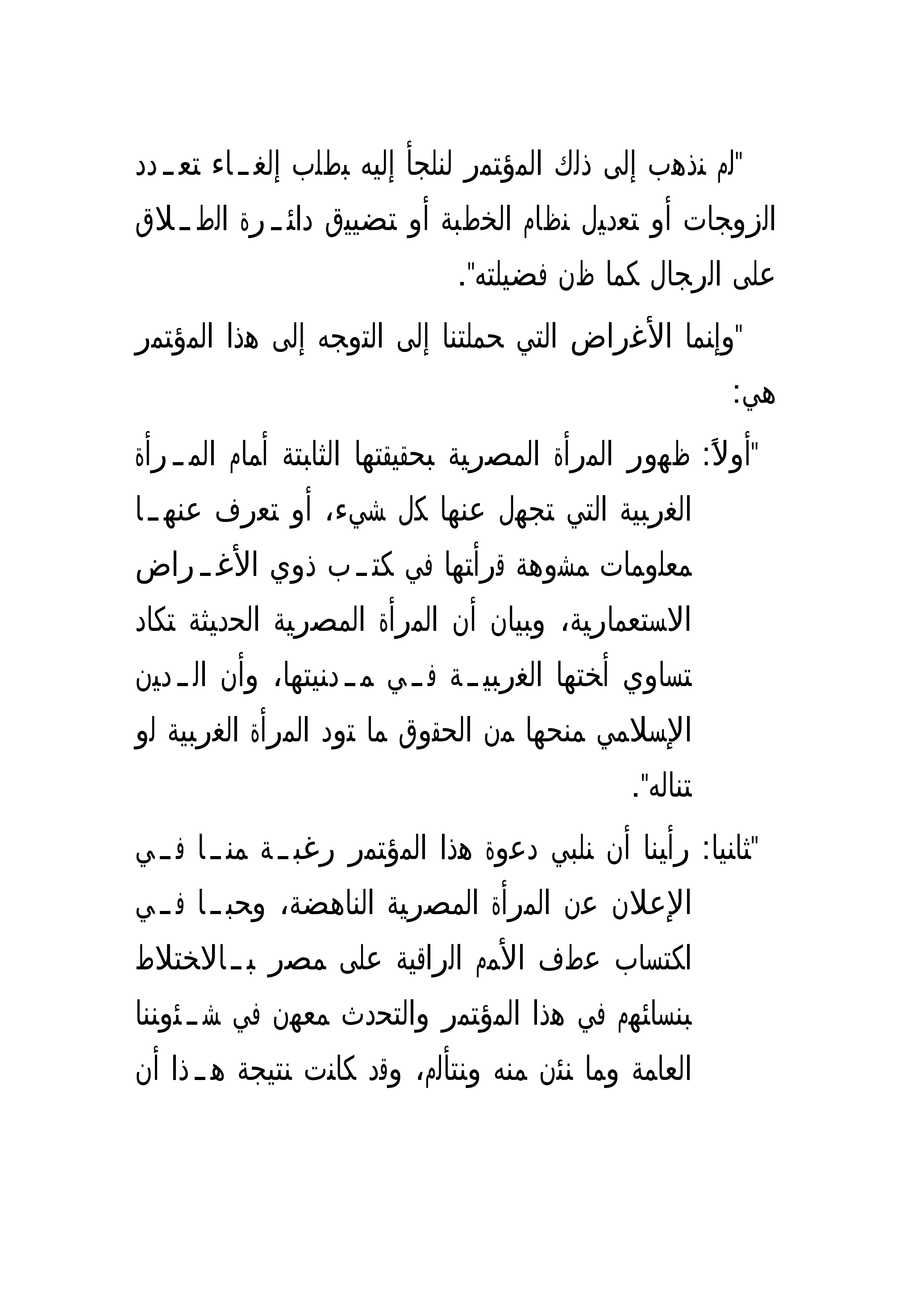


لذلك؛ نرجو أن تعيدوا دولتكم النظر في طلبات الجمعية.. وتقبلوا مسئولية إصلاح حالة المرأة على أيدي وزارتكم، فهي ضرورة مستعجلة تدعو إليها حاجة الإصلاح والحرية والمساواة".

حقوق المرأة في الإسلام

ولقد كان ذهابنا إلى المؤتمر الدولي الذي عقد في روما، فرصة للحديث عن حقوق المرأة، وأصبحت هناك أقلام كثيرة تناقش هذه القضية، وكان من ذلك ما كتبه الشيخ عبد العزيز جاويش في جريدة الأخبار، وقد علقت على هذا المقال في العدد الصادر في ١٧ يونيو ١٩٢٣، بالخطاب التالي:

"اطلعت بجريدتكم الغراء على كتاب الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز جاويش تحت عنوان: "حقوق المرأة في الإسلام"، فشكرت له حسن عنايته وعظيم اهتمامه بالنهضة النسائية، ولكني مع هذا الشكر والإقرار بالجميل للأستاذ، ألاحظ أن ما تضمنته هذه الرسالة غير متفق مع الخدمات التي أديناها بمؤتمر روما.

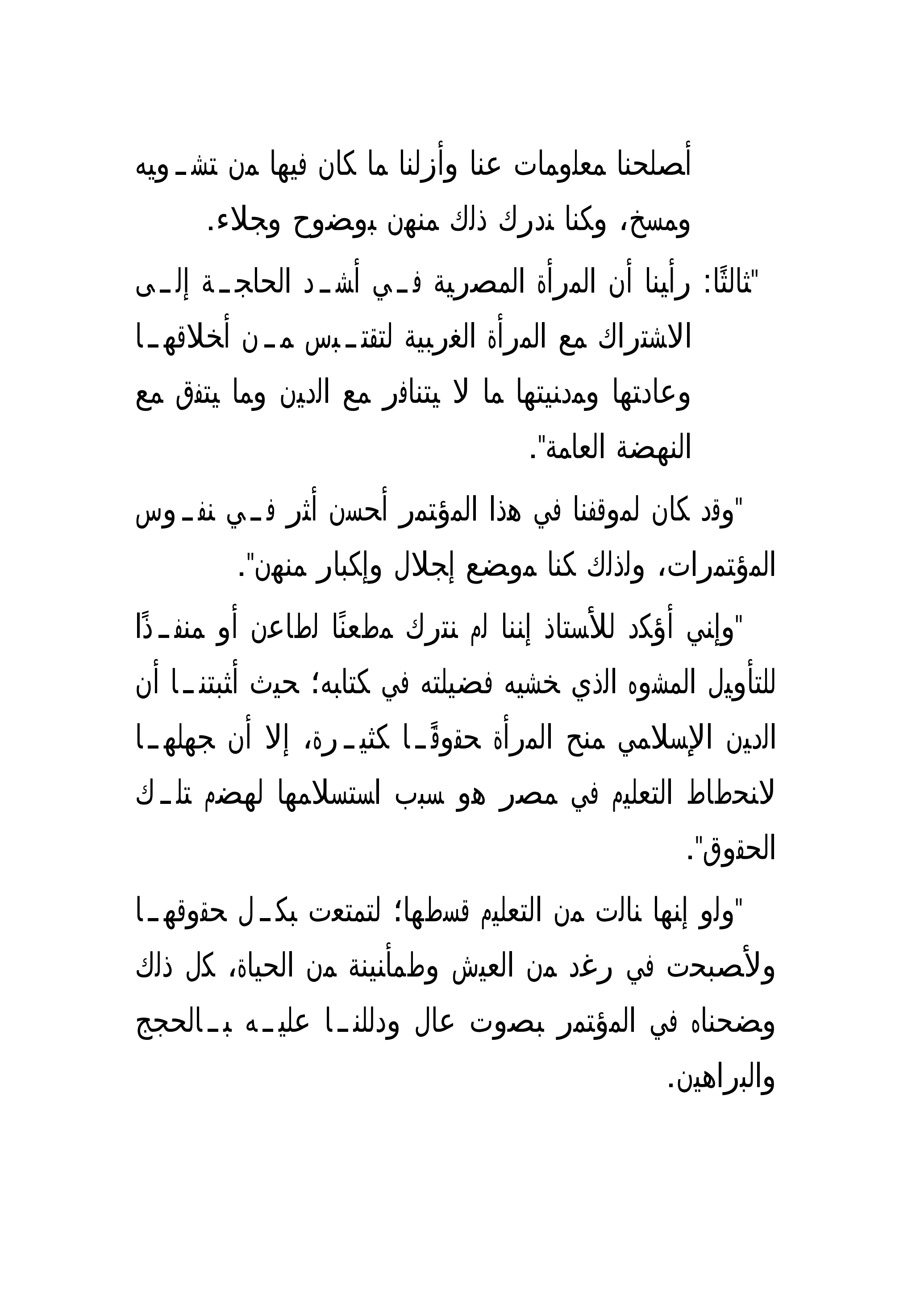


"لم نذهب إلى ذلك المؤتمر لنلجأ إليه بطلب إلغـاء تعـدد الزوجات أو تعديل نظام الخطبة أو تضييق دائـرة الطـلاق على الرجال كما ظن فضيلته".

"وإنما الأغراض التي حملتنا إلى التوجه إلى هذا المؤتمر هي:

"أولاً: ظهور المرأة المصرية بحقيقتها الثابتة أمام المـرأة الغربية التي تجهل عنها كل شيء، أو تعرف عنهـا معلومات مشوهة قرأتها في كتـب ذوي الأغـراض الاستعمارية، وبيان أن المرأة المصرية الحديثة تكاد تساوي أختها الغربيـة فـي مـدنيتها، وأن الـدين الإسلامي منحها من الحقوق ما تود المرأة الغربية لو تناله".

"ثانيا: رأينا أن نلبي دعوة هذا المؤتمر رغبـة منـا فـي الإعلان عن المرأة المصرية الناهضة، وحبـا فـي اكتساب عطف الأمم الراقية على مصر بـالاختلاط بنسائهم في هذا المؤتمر والتحدث معهن في شـئوننا العامة وما نئن منه ونتألم، وقد كانت نتيجة هـذا أن



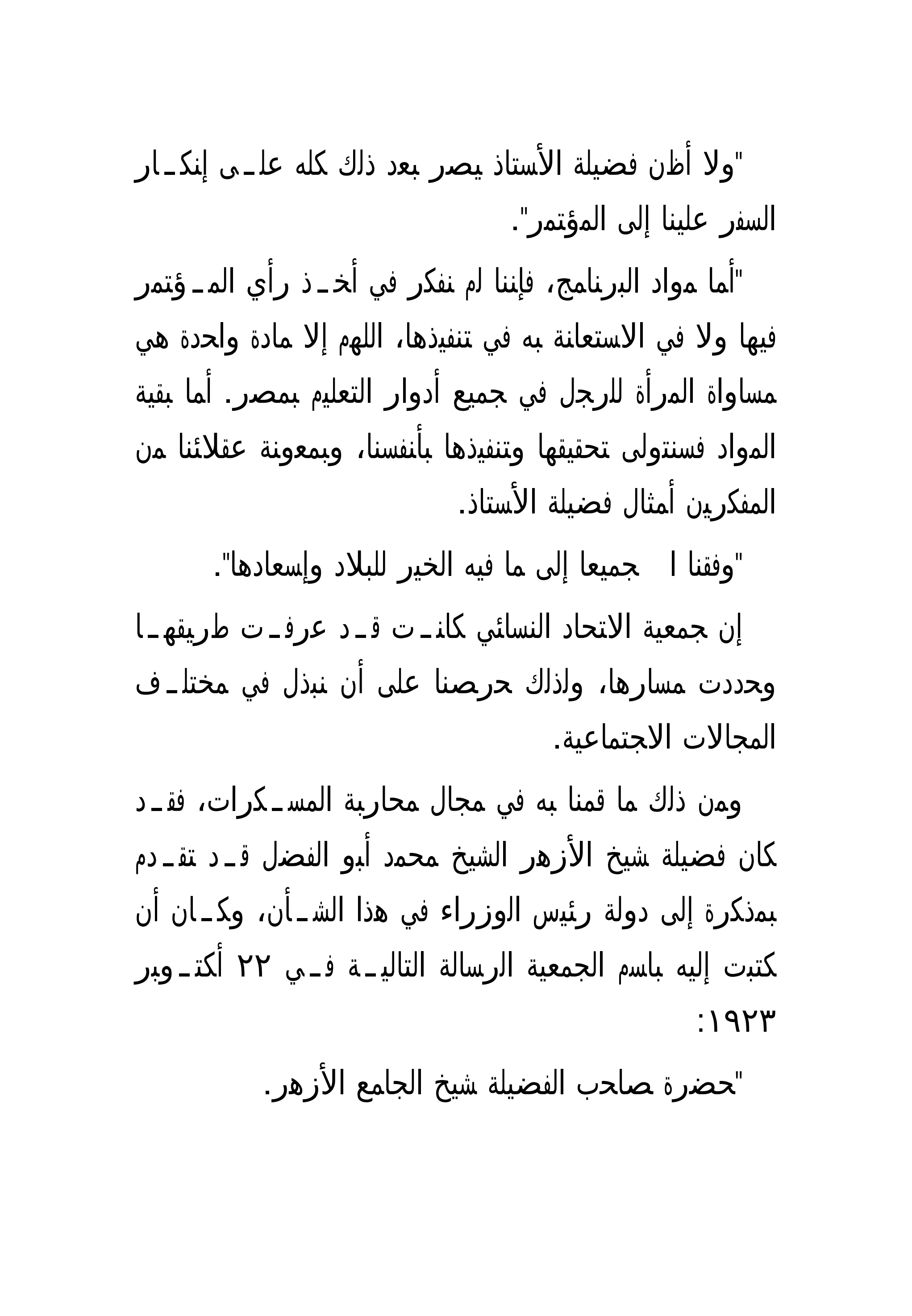
أصلحنا معلومات عنا وأزلنا ما كان فيها من تشويه ومسخ، وكنا ندرك ذلك منهن بوضوح وجلاء.

"ثالثًا: رأينا أن المرأة المصرية في أشد الحاجة إلى الاشتراك مع المرأة الغربية لتقتبس من أخلاقها وعادتها ومدنيتها ما لا يتنافر مع الدين وما يتفق مع النهضة العامة".

"وقد كان لموقفنا في هذا المؤتمر أحسن أثر في نفوس المؤتمرات، ولذلك كنا موضع إجلال وإكبار منهن".

"وإني أؤكد للأستاذ إننا لم نترك مطعنًا لطاعن أو منفذًا للتأويل المشوه الذي خشيه فضيلته في كتابه؛ حيث أثبتنا أن الدين الإسلامي منح المرأة حقوقًا كثيرة، إلا أن جهلها لانحطاط التعليم في مصر هو سبب استسلامها لهضم تلك الحقوق".

"ولو إنها نالت من التعليم قسطها؛ لتمتعت بكل حقوقها ولأصبحت في رغد من العيش وطمأنينة من الحياة، كل ذلك وضحناه في المؤتمر بصوت عال ودللنا عليه بالحجج والبراهين.



"ولا أظن فضيلة الأستاذ يصر بعد ذلك كله علـى إنكـار السفر علينا إلى المؤتمر".

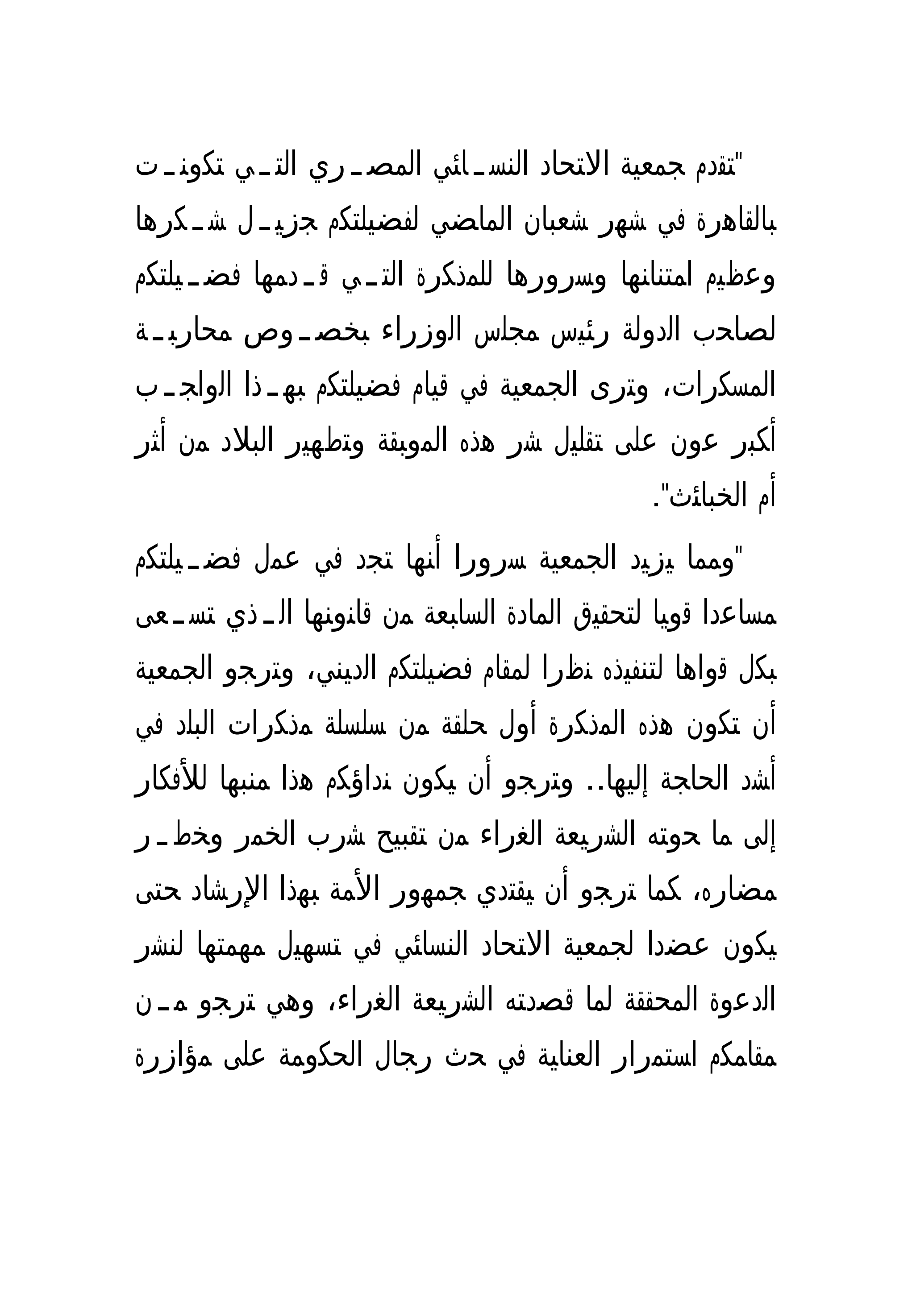
"أما مواد البرنامج، فإننا لم نفكر في أخـذ رأي المـؤتمر فيها ولا في الاستعانة به في تنفيذها، اللهم إلا مادة واحدة هي مساواة المرأة للرجل في جميع أدوار التعليم بمصر. أما بقية المواد فسنتولى تحقيقها وتنفيذها بأنفسنا، وبمعونة عقلائنا من المفكرين أمثال فضيلة الأستاذ.

"وفقنا ا جميعا إلى ما فيه الخير للبلاد وإسعادها".

إن جمعية الاتحاد النسائي كانـت قـد عرفـت طريقهـا وحددت مسارها، ولذلك حرصنا على أن نبذل في مختلـف المجالات الاجتماعية.

ومن ذلك ما قمنا به في مجال محاربة المسـكرات، فقـد كان فضيلة شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو الفضل قـد تقـدم بمذكرة إلى دولة رئيس الوزراء في هذا الشـأن، وكـان أن كتبت إليه باسم الجمعية الرسالة التاليـة فـي ٢٢ أكتـوبر ١٩٢٣:

"حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر.



"تقدم جمعية الاتحاد النسائي المصري التي تكونت بالقاهرة في شهر شعبان الماضي لفضيلتكم جزيل شكرها وعظيم امتنانها وسرورها للمذكرة التي قدمها فضيلتكم لصاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بخصوص محاربة المسكرات، وترى الجمعية في قيام فضيلتكم بهذا الواجب أكبر عون على تقليل شر هذه الموبقة وتطهير البلاد من أثر أم الخبائث".

"ومما يزيد الجمعية سرورا أنها تجد في عمل فضيلتكم مساعدا قويا لتحقيق المادة السابعة من قانونها الذي تسعى بكل قواها لتنفيذه نظرا لمقام فضيلتكم الديني، وترجو الجمعية أن تكون هذه المذكرة أول حلقة من سلسلة مذكرات البلاد في أشد الحاجة إليها.. وترجو أن يكون نداؤكم هذا منبها للأفكار إلى ما حوته الشريعة الغراء من تقبيح شرب الخمر وخطر مضاره، كما ترجو أن يقتدي جمهور الأمة بهذا الإرشاد حتى يكون عضدا لجمعية الاتحاد النسائي في تسهيل مهمتها لنشر الدعوة المحققة لما قصدته الشريعة الغراء، وهي ترجو من مقامكم استمرار العناية في حث رجال الحكومة على مؤازرة

الفضيلة، وفي حملها على إصدار قانون يحرم استعمال هـذه المسكرات.

"والجمعية ترجو من فضيلتكم أن تضيفوا إلى ما يستحق عنايتكم لفت نظر الحكومة إلى محلات الفسق التي انتشرت في البلاد بشكل أصبح خطرا على الأخلاق والفضيلة، ففي الاعتراف بها والتصريح بوجودها أكبر عار على حكومة إسلامية تنص في دستورها أن دين الدولة الإسلام".

"وللجمعية كبير الأمل في تعضيد فضيلتكم لكل من يعمل بما يعود على البلاد بالخير والإصلاح، ونتشرف بأن نهدي لفضيلتكم نسخة من قانون الجمعية راجية أن ينال من فضيلتكم عطفًا وقبولاً".

هدى شعراوي

وفي ٣٠ أكتوبر، تلقيت خطابا من فضيلة شيخ الأزهر ردا على خطابي إليه، وقد نشرته الصحف في اليوم التالي. وهذا نص الخطاب:

"إلى صاحبة العصمة السيدة هدى شعراوي رئيسة جمعية الاتحاد النسائي المصري.

"تلقينا بمزيد من السرور كتاب عصمتك الكريم المـؤرخ في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٣، الذي تفضلت فيه بإبلاغنا شكر الجمعية على المذكرة التي قدمناها لحضرة صاحب الدولـة رئيس مجلس الوزراء ببيان ما في المسكرات من الضـرر العقلي والبدني والمالي، والتماسا بلسان الشرع الشريف منع تعاطي المسكرات واقتنائها وإدخالها المملكة المصرية حافظاً للأمة وعملاً بما يقتضيه الدين الحنيف.

"ولقد علمنا من قدر هذه الجمعية الشريفة الأمـور حـق قدرها وسعيها في نشر الفضائل ومحاربة الرذائـل. إن فـي مصر الآن من فضليات السيدات من لا تقل شأناً عمن لهـم أثر صالح من الرجال في الهيئة الاجتماعية.. ونسأل ا جل شأنه أن يكثر من السيدات المتمسكات بـالآداب الشـرعية، الداعيات إليها، لتنال الأسرة المصرية سعادتها الكاملة.

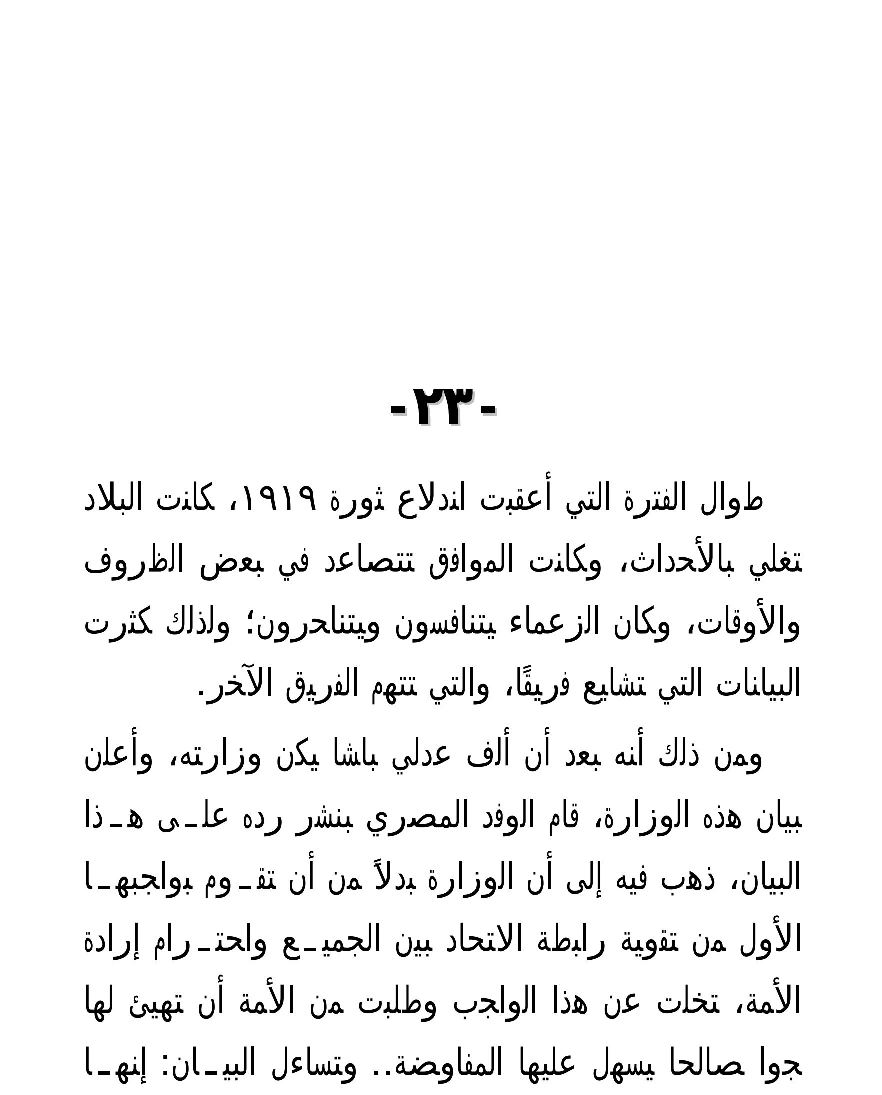
"ومما عنينا به ولا يزال نصب أعيننا ما أشـارت إليـه الجمعية من الكلام في تطهير البلاد المصرية مـن محـلات الفسق التي هي خطر عظيم على الأخلاق الدينية.

وإنّا لنثني على الجمعية الثناء المستطاب لتفكيرها في هذا الأمر أيضا، ونشكر لها تفضلها بإرسالها إلينا نسخة من قانونها الذي سننظر فيه من الوجهة الشرعية.

ونسأل ا لها المعونة والتوفيق إلى ما فيه الخير ولعصمتك وللجمعية منا التحية والسلام".

شيخ الأزهر

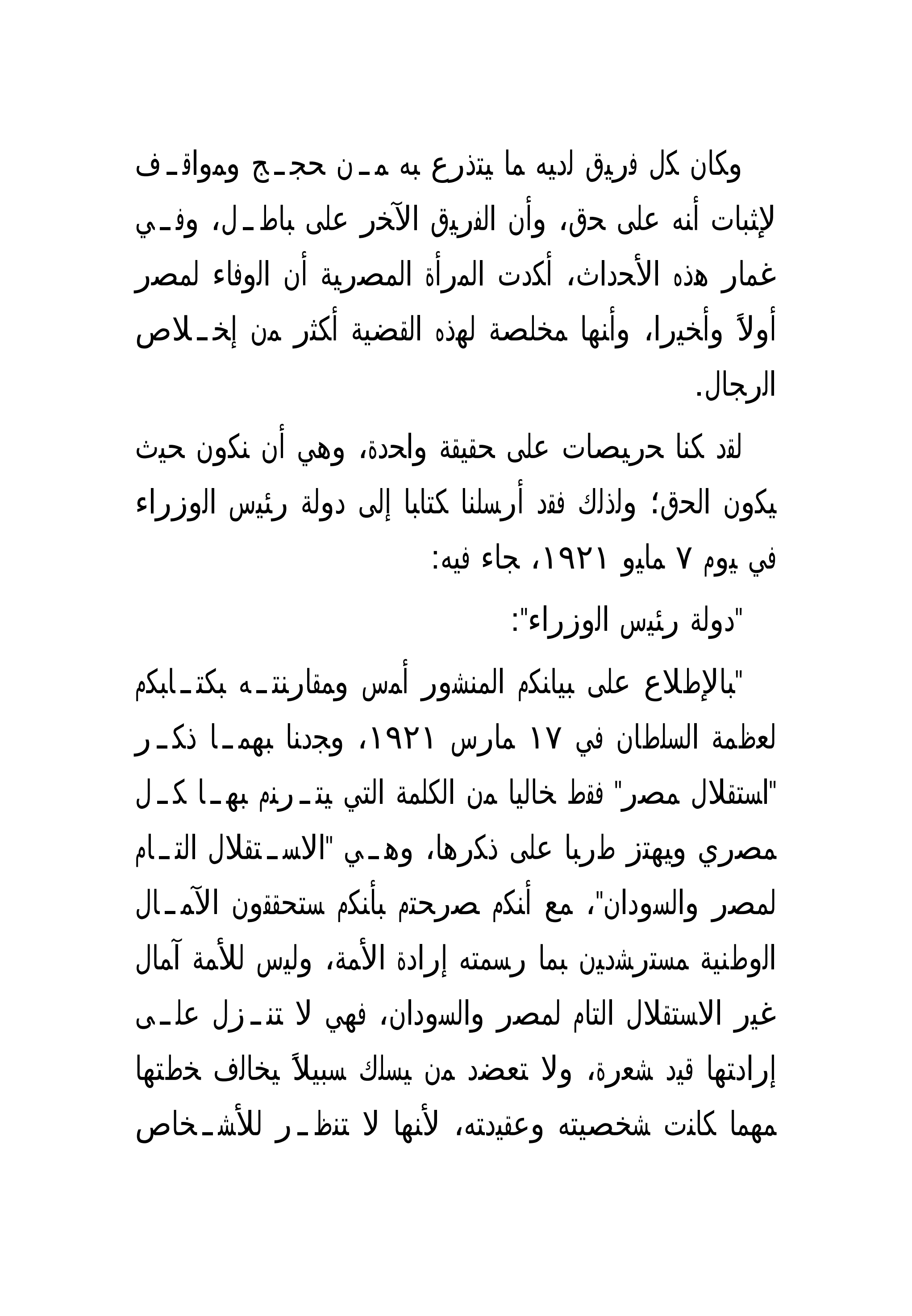
محمد أبو الفضل



-٢٣-

طوال الفترة التي أعقبت اندلاع ثورة ١٩١٩، كانت البلاد تغلي بالأحداث، وكانت المواقف تتصاعد في بعض الظروف والأوقات، وكان الزعماء يتنافسون ويتناحرون؛ ولذلك كثرت البيانات التي تشايع فريقًا، والتي تتهم الفريق الآخر.

ومن ذلك أنه بعد أن ألف عدلي باشا يكن وزارته، وأعلن بيان هذه الوزارة، قام الوفد المصري بنشر رده علـى هـذا البيان، ذهب فيه إلى أن الوزارة بدلاً من أن تقـوم بواجبهـا الأول من تقوية رابطة الاتحاد بين الجميـع واحتـرام إرادة الأمة، تخلت عن هذا الواجب وطلبت من الأمة أن تهيئ لها جوا صالحا يسهل عليها المفاوضة.. وتساءل البيـان: إنهـا فقدت نفوذها في الأمة، فكيف تلاقي الأجنبي وعلى أي قـوة تعتمد أمامه؟



وكان كل فريق لديه ما يتذرع به مـن حجـج ومواقـف لإثبات أنه على حق، وأن الفريق الآخر على باطـل، وفـي غمار هذه الأحداث، أكدت المرأة المصرية أن الوفاء لمصر أولاً وأخيرا، وأنها مخلصة لهذه القضية أكثر من إخـلاص الرجال.

لقد كنا حريصات على حقيقة واحدة، وهي أن نكون حيث يكون الحق؛ ولذلك فقد أرسلنا كتابا إلى دولة رئيس الوزراء في يوم ٧ مايو ١٩٢١، جاء فيه:

"دولة رئيس الوزراء":

"بالإطلاع على بيانكم المنشور أمس ومقارنتـه بكتـابكم لعظمة السلطان في ١٧ مارس ١٩٢١، وجدنا بهمـا ذكـر "استقلال مصر" فقط خاليا من الكلمة التي يتـرنم بهـا كـل مصري ويهتز طربا على ذكرها، وهـي "الاسـتقلال التـام لمصر والسودان"، مع أنكم صرحتم بأنكم ستحققون الآمـال الوطنية مسترشدين بما رسمته إرادة الأمة، وليس للأمة آمال غير الاستقلال التام لمصر والسودان، فهي لا تتنـزل علـى إرادتها قيد شعرة، ولا تعضد من يسلك سبيلاً يخالف خطتها مهما كانت شخصيته وعقيدته، لأنها لا تنظـر للأشـخاص

ولا تغتر بالظواهر والتمويهـات، ولكنهـا تنظـر للمبـادئ والأعمال، ولذلك فإن لجنة الوفد المركزية للسيدات قـررت بجلستها المنعقدة اليوم عدم تعضيد الوزارة للأسباب الآتية:

١- عدم برها بوعدها إلى الآن من رفع الأحكام العرفية والرقابة الصحفية، بل على العكس شـددتها بـدليل إصدار قرار جديد يمنع التجمهر وعدم نشر ما يرسل إلى الجرائد من القرارات، وهذا ينافي تصـريحاتها، وأيضا حوادث طنطا المؤلمة.

٢- عدم اتباعها برنامج الأمة وهو المطالبة بـالاعتراف باستقلال مصر والسودان.

٣- الاستعداد لانتخاب وفد رسمي بدون وكيل الأمة الذي تثق به وثوقًا تاما.

واقبلوا ما يليق بمقامكم من الاحترام".

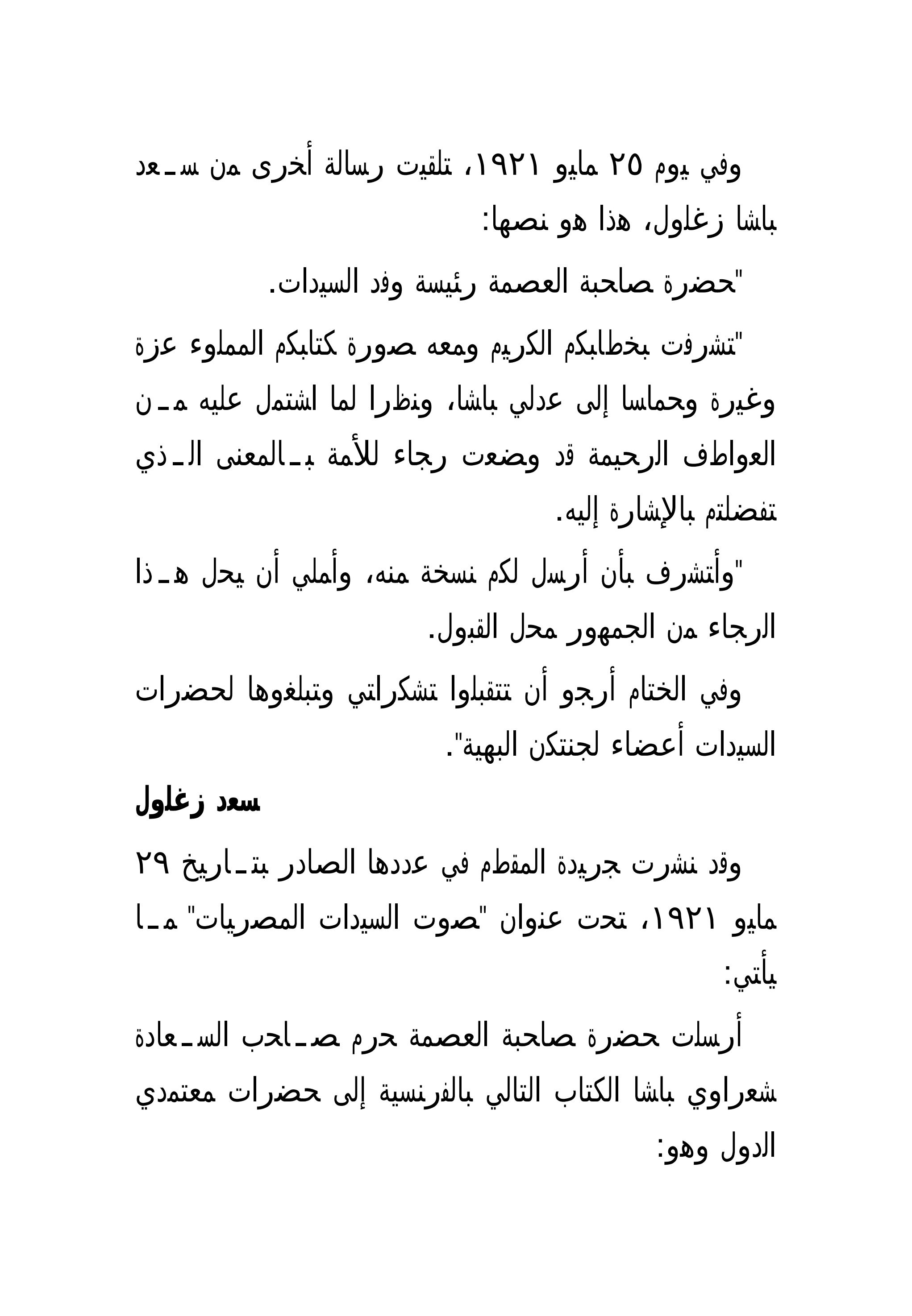
وكانت اللجنة قد أصدرت قبل ذلك بيانًا بتاريخ ٤ مـايو ١٩٢١، وكان أيضا موجها إلى رئيس الوزراء، بشأن حادثة طنطا المحزنة المؤلمة، وصدور الأمر بإعادة تنفيـذ قـانون التجمهر، علاوة على بقاء الأحكام العرفية والرقابة الصحفية.

وقد تلقيت خطابا من سعد باشا زغلول بتـاريخ ٩ مـايو ١٩٢١، تعليقًا على موقف اللجنة والبيانين اللذين أصدرتهما. وكان نص الخطاب كالتالي:

"حضرة صاحبة العصمة رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.

"اطلعت على صورة الكتابين اللذين أرسـلتهما لجنـتكن لرئيس الوزراء ومنعت الحكومة نشرها بالجرائد، ويظهر أن الوزارة عاملة جهدها الآن في منع نشر كل ما من شـأنه أن ينمي روح الوطنية في صدور الوطنيين والوطنيـات ويشـد عزائمهم، ويظهر بمظهر المطالبين للحق الغاضبين لإنكاره، ولكن الظلم لا يدوم، والضغط على الحرية لا يضـرها بـل يقيدها، وإنني أعجب لوطنية السـيدات عمومـا ووطنيـتهن خصوصا، وأعتقد تمام الاعتقاد أنه ما دام هذا الشعور الحي موجودا في صدور الأمة، فلابد أن تصل إلى مطلوبها مهما وضع أمامها من العقبات، وأرجو تبليغ تشكراتي إلى أعضاء لجنتكن البهية ووافر احتراماتي، وأهديكن تهنئـاتي بحلـول شهر الصوم المبارك، وأدعو ا أن يعيـده علينـا جميعـا ببركات الاستقلال التام".

سعد زغلول



وفي يوم ٢٥ مايو ١٩٢١، تلقيت رسالة أخرى من سعد باشا زغلول، هذا هو نصها:

"حضرة صاحبة العصمة رئيسة وفد السيدات.

"تشرفت بخطابكم الكريم ومعه صورة كتابكم المملوء عزة وغيرة وحماسا إلى عدلي باشا، ونظرا لما اشتمل عليه من العواطف الرحيمة قد وضعت رجاء للأمة بالمعنى الذي تفضلتم بالإشارة إليه.

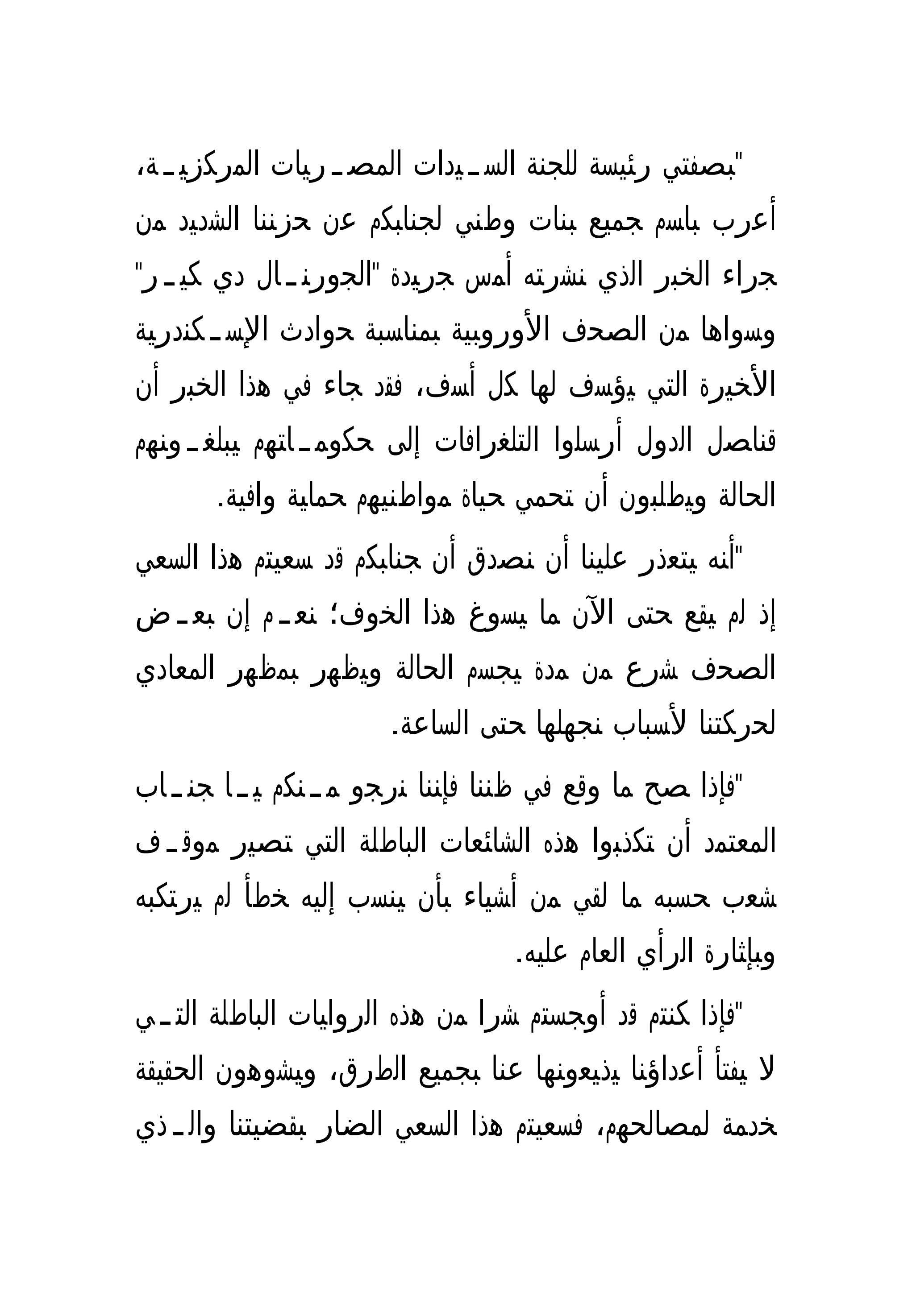
"وأتشرف بأن أرسل لكم نسخة منه، وأملي أن يحل هذا الرجاء من الجمهور محل القبول.

وفي الختام أرجو أن تتقبلوا تشكراتي وتبلغوها لحضرات السيدات أعضاء لجنتكن البهية".

سعد زغلول

وقد نشرت جريدة المقطم في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٢١، تحت عنوان "صوت السيدات المصريات" ما يأتي:

أرسلت حضرة صاحبة العصمة حرم صاحب السعادة شعراوي باشا الكتاب التالي بالفرنسية إلى حضرات معتمدي الدول وهو:

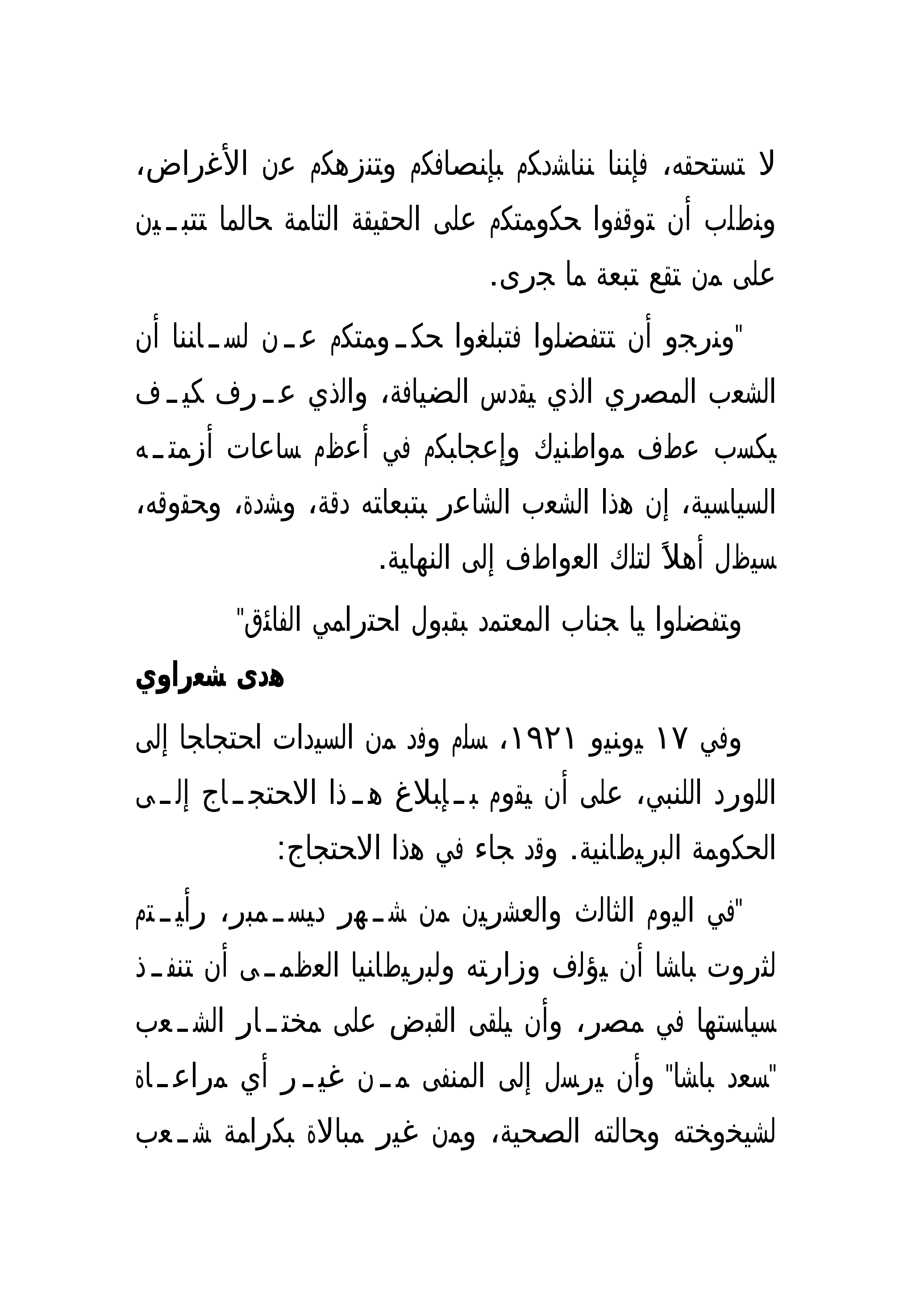


"بصفتي رئيسة للجنة السـيدات المصـريات المركزيـة، أعرب باسم جميع بنات وطني لجنابكم عن حزننا الشديد من جراء الخبر الذي نشرته أمس جريدة "الجورنـال دي كيـر" وسواها من الصحف الأوروبية بمناسبة حوادث الإسـكندرية الأخيرة التي يؤسف لها كل أسف، فقد جاء في هذا الخبر أن قناصل الدول أرسلوا التلغرافات إلى حكومـاتهم يبلغـونهم الحالة ويطلبون أن تحمي حياة مواطنيهم حماية وافية.

"أنه يتعذر علينا أن نصدق أن جنابكم قد سعيتم هذا السعي إذ لم يقع حتى الآن ما يسوغ هذا الخوف؛ نعـم إن بعـض الصحف شرع من مدة يجسم الحالة ويظهر بمظهر المعادي لحركتنا لأسباب نجهلها حتى الساعة.

"فإذا صح ما وقع في ظننا فإننا نرجو مـنكم يـا جنـاب المعتمد أن تكذبوا هذه الشائعات الباطلة التي تصير موقـف شعب حسبه ما لقي من أشياء بأن ينسب إليه خطأ لم يرتكبه وبإثارة الرأي العام عليه.

"فإذا كنتم قد أوجستم شرا من هذه الروايات الباطلة التـي لا يفتأ أعداؤنا يذيعونها عنا بجميع الطرق، ويشوهون الحقيقة خدمة لمصالحهم، فسعيتم هذا السعي الضار بقضيتنا والـذي



لا تستحقه، فإننا نناشدكم بإنصافكم وتنزهكم عن الأغراض، ونطلب أن توقفوا حكومتكم على الحقيقة التامة حالما تتبين على من تقع تبعة ما جرى.

"ونرجو أن تتفضلوا فتبلغوا حكومتكم عن لساننا أن الشعب المصري الذي يقدس الضيافة، والذي عرف كيف يكسب عطف مواطنيك وإعجابكم في أعظم ساعات أزمته السياسية، إن هذا الشعب الشاعر بتبعاته دقة، وشدة، وحقوقه، سيظل أهلاً لتلك العواطف إلى النهاية.

وتفضلوا يا جناب المعتمد بقبول احترامي الفائق"

هدى شعراوي

وفي ١٧ يونيو ١٩٢١، سلم وفد من السيدات احتجاجا إلى اللورد اللنبي، على أن يقوم بإبلاغ هذا الاحتجاج إلى الحكومة البريطانية. وقد جاء في هذا الاحتجاج:

"في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر، رأيتم لثروت باشا أن يؤلف وزارته ولبريطانيا العظمى أن تنفذ سياستها في مصر، وأن يلقى القبض على مختار الشعب "سعد باشا" وأن يرسل إلى المنفى من غير أي مراعاة لشيخوخته وحالته الصحية، ومن غير مبالاة بكرامة شعب

هو زعيمه ورمز أمانيه، واحتقارا للعدالة وكل قانون بـدون أي سؤال أو محاكمة أو حكم، أخذ سعد إلى عدن ومنها إلـى جزيرة سيشل.

"وارتفعت على إثر ذلك الاحتجاجات من كل ناحية تطلب لسعد إصلاح الظلم الذي ارتكب، وتطلب للأمة غسل الإهانة التي لحقت بشرفها، ولكن هذه الاحتجاجات الصـادرة مـن شعب بأسره وصوت العدالة الصارخ وصوت الشرف المثلوم لم يستطع أن يحرك أولئك الذين لم يريـدوا أن يصـغوا إلا لصوت الشهوة والمصلحة.

"والآن وقد ظهر تقرير رسمي بأن سعد باشـا مـريض، وأن جماعة من خيار الإنجليز قد طالبوا بإطلاق سراح هـذا المنفي العظيم، فها نحن أولاء: سيدات مصر ننتظر بفـارغ الصبر جواب الحكومة البريطانية.

"أتراها ستفهم أن شرفها ومصلحتها يحتمان عليها إطلاق سراحه فورا، أم تراها ستضيف إلى جنايات ارتكبت غلطة لا تمحى على مر الدهور؟

"أتراها ستجدد فينا روح الثقة وتخلق فينا شعور الصداقة، أم تراها تفضل استفزاز قضيتنا وإثارة الحقد والكراهية في صدورنا؟

إن آتون "رواية" قد جعل من راعية صغيرة أعظم رمز لأطهر وطنية، وإن أسر "سان هيلانة" قد أكسب نابليون من المجد ما لم تكسبه مئة نصر.

وسيشل قد جعلت من سعد زغلول رجلاً مقدسا، وإن اعتقاله بها لو طال سيجعل منا شعب أبطال وشهداء".

هدى شعراوي

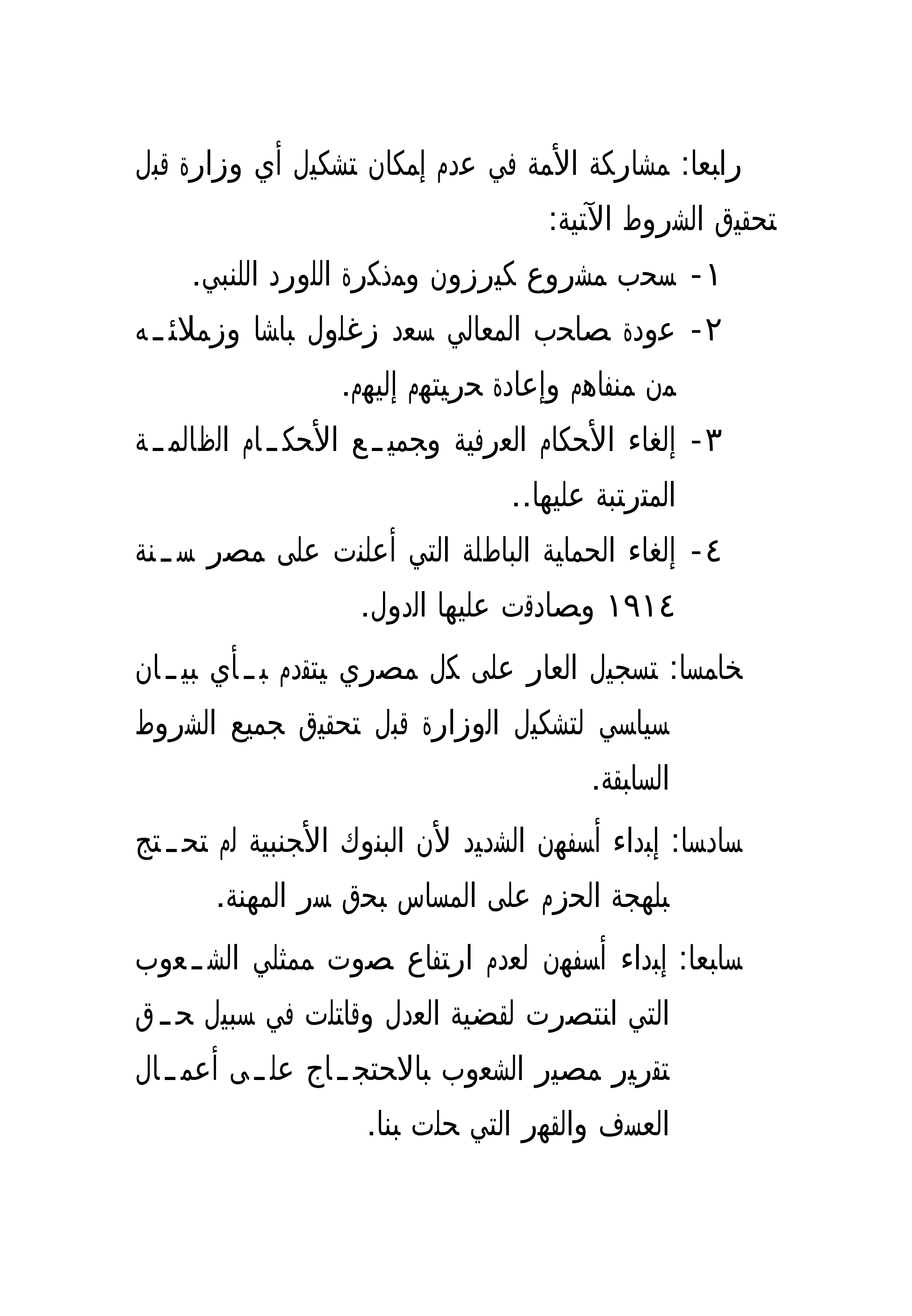
قرار:

وفي ٢٠ يناير ١٩٢٢ اجتمعت السيدات المصريات في جلسة فوق العادة، وقررن ما يأتي:

أولاً: إعلان إيمانهن القوي في مستقبل بلادهن.

ثانيا: تقديم أسمى عبارات الاحترام إلى زعيم الأمة وإهداء تحياتهن إلى رفاقه في المنفى.

ثالثًا: المعارضة بكل ما لديهن من قوة لفكرة تشكيل وزارة في الظروف الحاضرة.



رابعا: مشاركة الأمة في عدم إمكان تشكيل أي وزارة قبل تحقيق الشروط الآتية:

١- سحب مشروع كيرزون ومذكرة اللورد اللنبي.

٢- عودة صاحب المعالي سعد زغلول باشا وزملائه من منفاهم وإعادة حريتهم إليهم.

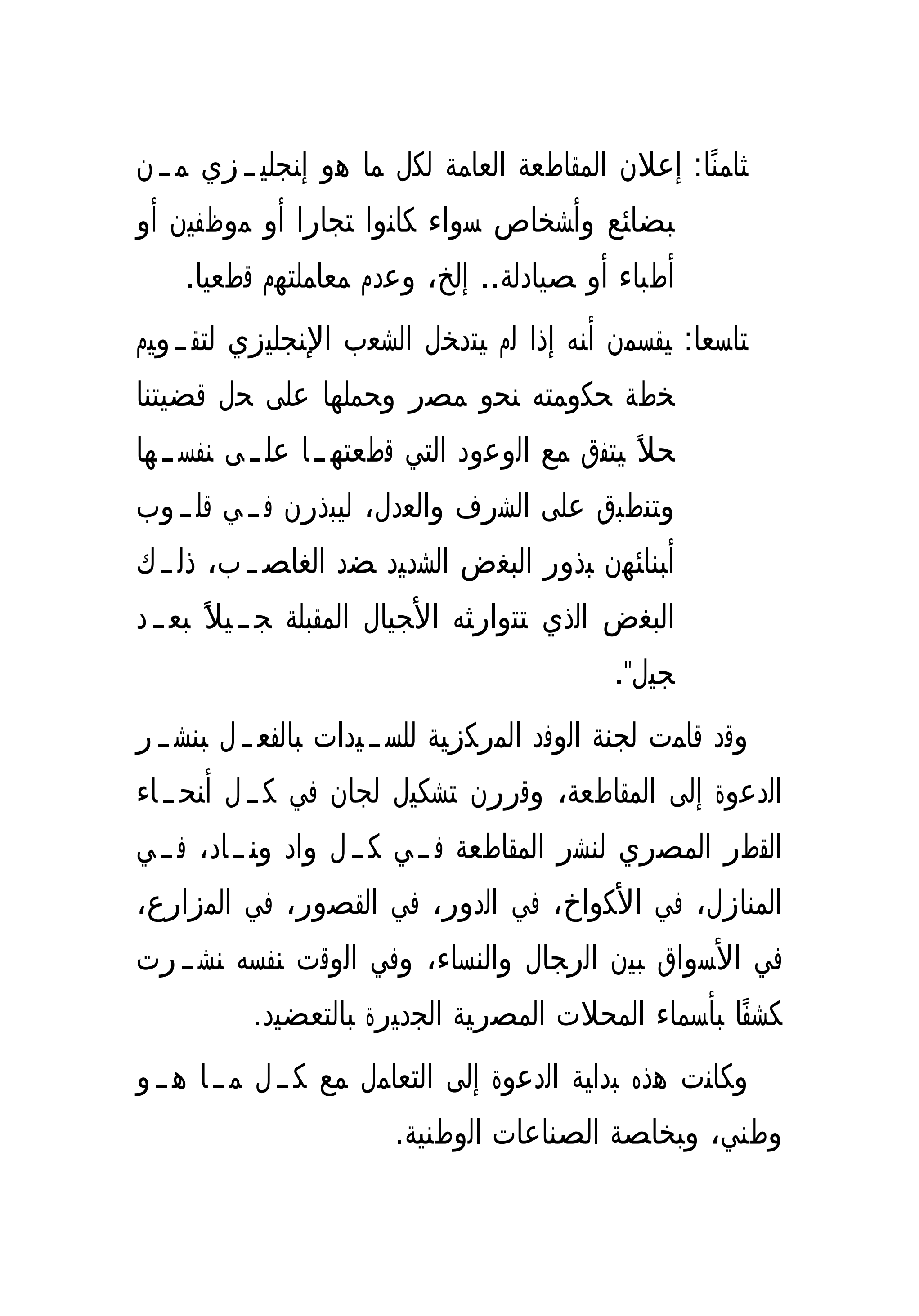
٣- إلغاء الأحكام العرفية وجميع الأحكام الظالمة المترتبة عليها..

٤- إلغاء الحماية الباطلة التي أعلنت على مصر سنة ١٩١٤ وصادقت عليها الدول.

خامسا: تسجيل العار على كل مصري يتقدم بأي بيان سياسي لتشكيل الوزارة قبل تحقيق جميع الشروط السابقة.

سادسا: إبداء أسفهن الشديد لأن البنوك الأجنبية لم تحتج بلهجة الحزم على المساس بحق سر المهنة.

سابعا: إبداء أسفهن لعدم ارتفاع صوت ممثلي الشعوب التي انتصرت لقضية العدل وقاتلت في سبيل حق تقرير مصير الشعوب بالاحتجاج على أعمال العسف والقهر التي حلت بنا.

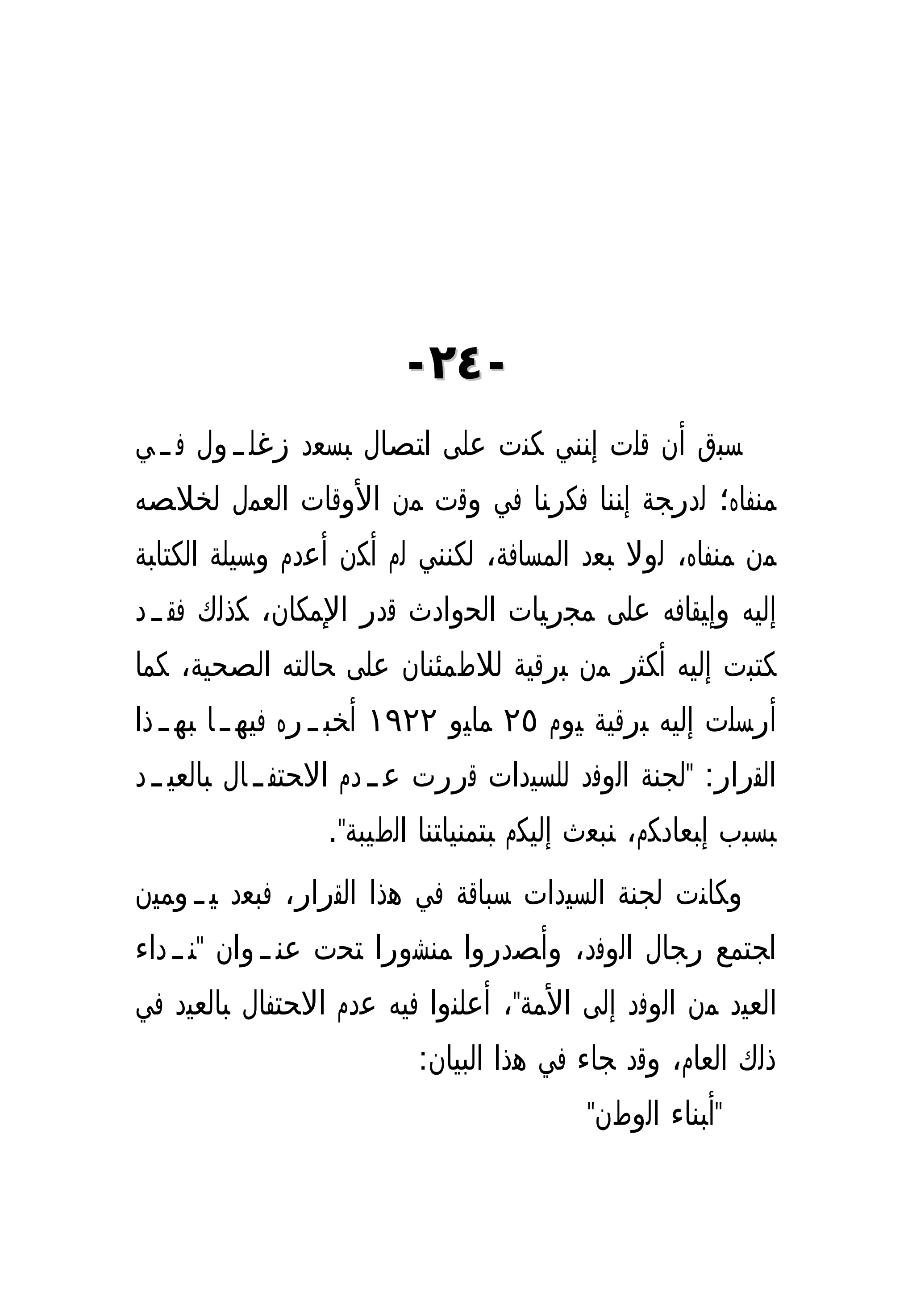


ثامنًا: إعلان المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزي من بضائع وأشخاص سواء كانوا تجارا أو موظفين أو أطباء أو صيادلة.. إلخ، وعدم معاملتهم قطعيا.

تاسعا: يقسمن أنه إذا لم يتدخل الشعب الإنجليزي لتقويم خطة حكومته نحو مصر وحملها على حل قضيتنا حلاً يتفق مع الوعود التي قطعتها على نفسها وتنطبق على الشرف والعدل، ليبذرن في قلوب أبنائهن بذور البغض الشديد ضد الغاصب، ذلك البغض الذي تتوارثه الأجيال المقبلة جيلاً بعد جيل".

وقد قامت لجنة الوفد المركزية للسيدات بالفعل بنشر الدعوة إلى المقاطعة، وقررن تشكيل لجان في كل أنحاء القطر المصري لنشر المقاطعة في كل واد وناد، في المنازل، في الأكواخ، في الدور، في القصور، في المزارع، في الأسواق بين الرجال والنساء، وفي الوقت نفسه نشرت كشفًا بأسماء المحلات المصرية الجديرة بالتعضيد.

وكانت هذه بداية الدعوة إلى التعامل مع كل ما هو وطني، وبخاصة الصناعات الوطنية.

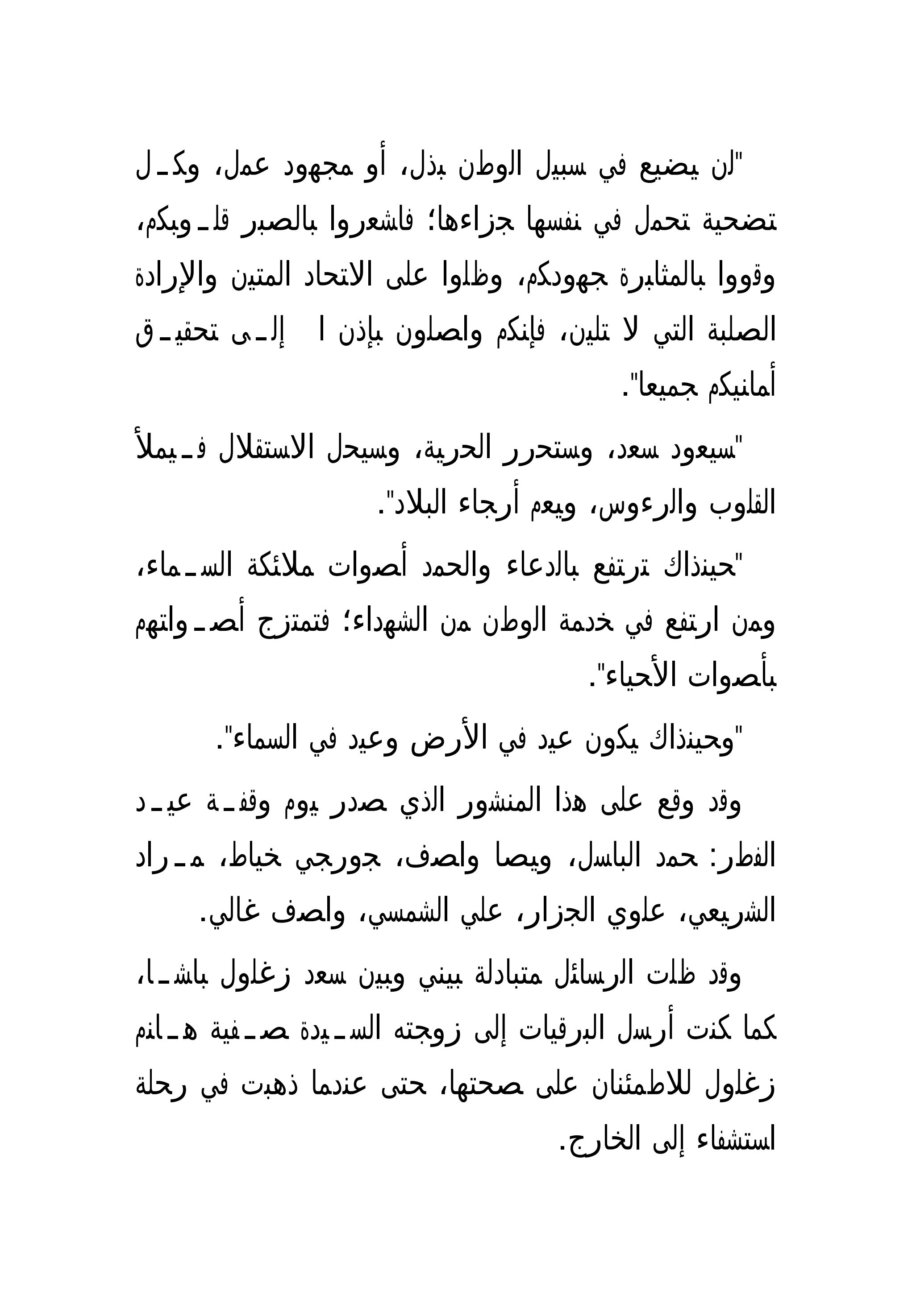


-٢٤-

سبق أن قلت إنني كنت على اتصال بسعد زغلـول فـي منفاه؛ لدرجة إننا فكرنا في وقت من الأوقات العمل لخلاصه من منفاه، لولا بعد المسافة، لكنني لم أكن أعدم وسيلة الكتابة إليه وإيقافه على مجريات الحوادث قدر الإمكان، كذلك فقـد كتبت إليه أكثر من برقية للاطمئنان على حالته الصحية، كما أرسلت إليه برقية يوم ٢٥ مايو ١٩٢٢ أخبـره فيهـا بهـذا القرار: "لجنة الوفد للسيدات قررت عـدم الاحتفـال بالعيـد بسبب إبعادكم، نبعث إليكم بتمنياتنا الطيبة".

وكانت لجنة السيدات سباقة في هذا القرار، فبعد يـومين اجتمع رجال الوفد، وأصدروا منشورا تحت عنـوان "نـداء العيد من الوفد إلى الأمة"، أعلنوا فيه عدم الاحتفال بالعيد في ذلك العام، وقد جاء في هذا البيان:

"أبناء الوطن"



"لن يضيع في سبيل الوطن بذل، أو مجهود عمل، وكـل تضحية تحمل في نفسها جزاءها؛ فاشعروا بالصبر قلـوبكم، وقووا بالمثابرة جهودكم، وظلوا على الاتحاد المتين والإرادة الصلبة التي لا تلين، فإنكم واصلون بإذن ا إلـى تحقيـق أمانيكم جميعا".

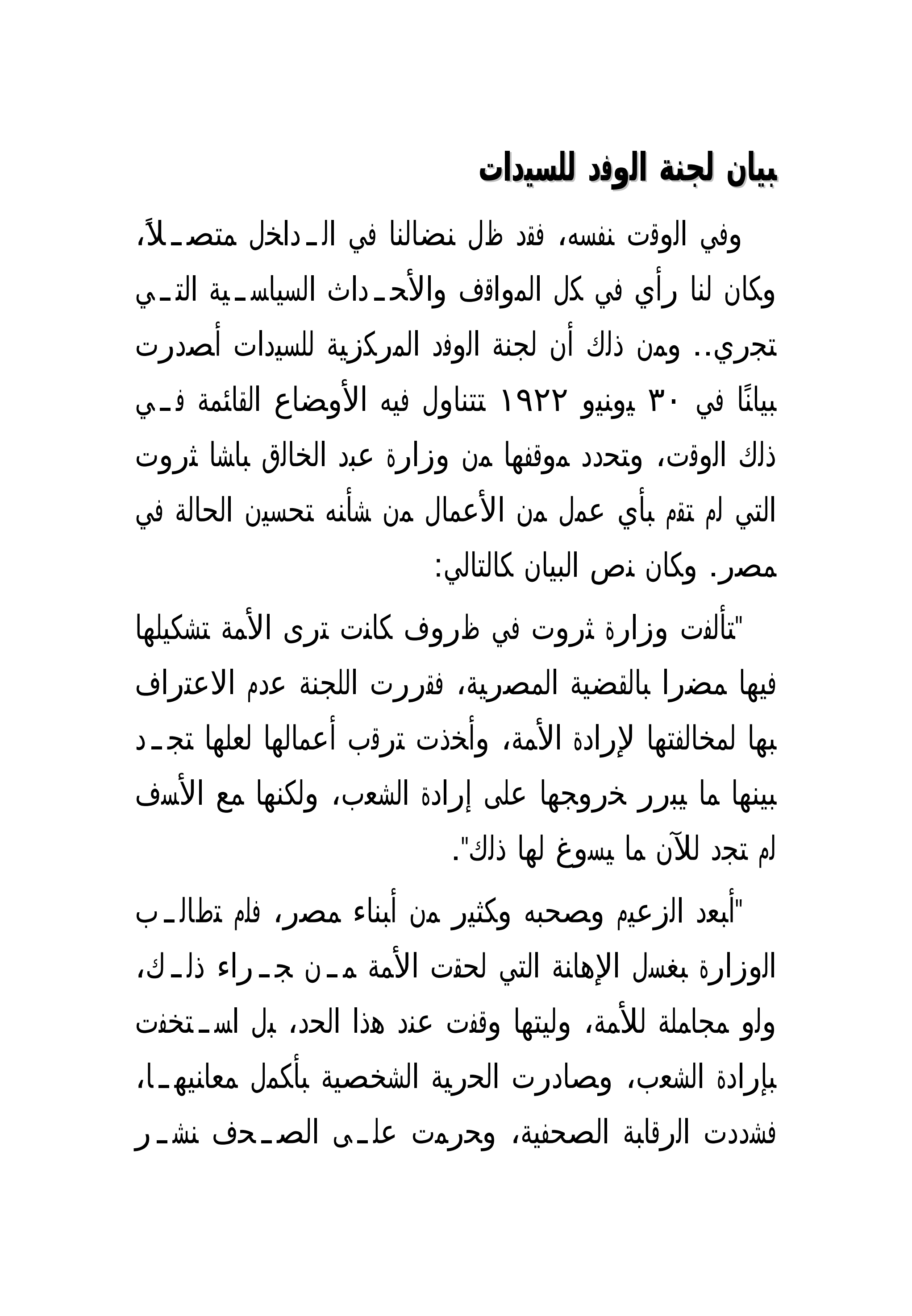
"سيعود سعد، وستحرر الحرية، وسيحل الاستقلال فـيملأ القلوب والرءوس، ويعم أرجاء البلاد".

"حينذاك ترتفع بالدعاء والحمد أصوات ملائكة السـماء، ومن ارتفع في خدمة الوطن من الشهداء؛ فتمتزج أصـواتهم بأصوات الأحياء".

"وحينذاك يكون عيد في الأرض وعيد في السماء".

وقد وقع على هذا المنشور الذي صدر يوم وقفـة عيـد الفطر: حمد الباسل، ويصا واصف، جورجي خياط، مـراد الشريعي، علوي الجزار، علي الشمسي، واصف غالي.

وقد ظلت الرسائل متبادلة بيني وبين سعد زغلول باشـا، كما كنت أرسل البرقيات إلى زوجته السـيدة صـفية هـانم زغلول للاطمئنان على صحتها، حتى عندما ذهبت في رحلة استشفاء إلى الخارج.



بيان لجنة الوفد للسيدات

وفي الوقت نفسه، فقد ظل نضالنا في الـداخل متصـلاً، وكان لنا رأي في كل المواقف والأحـداث السياسـية التـي تجري.. ومن ذلك أن لجنة الوفد المركزية للسيدات أصدرت بيانًا في ٣٠ يونيو ١٩٢٢ تتناول فيه الأوضاع القائمة فـي ذلك الوقت، وتحدد موقفها من وزارة عبد الخالق باشا ثروت التي لم تقم بأي عمل من الأعمال من شأنه تحسين الحالة في مصر. وكان نص البيان كالتالي:

"تألفت وزارة ثروت في ظروف كانت ترى الأمة تشكيلها فيها مضرا بالقضية المصرية، فقررت اللجنة عدم الاعتراف بها لمخالفتها لإرادة الأمة، وأخذت ترقب أعمالها لعلها تجـد بينها ما يبرر خروجها على إرادة الشعب، ولكنها مع الأسف لم تجد للآن ما يسوغ لها ذلك".

"أبعد الزعيم وصحبه وكثير من أبناء مصر، فلم تطالـب الوزارة بغسل الإهانة التي لحقت الأمة مـن جـراء ذلـك، ولو مجاملة للأمة، وليتها وقفت عند هذا الحد، بل اسـتخفت بإرادة الشعب، وصادرت الحرية الشخصية بأكمل معانيهـا، فشددت الرقابة الصحفية، وحرمت علـى الصـحف نشـر

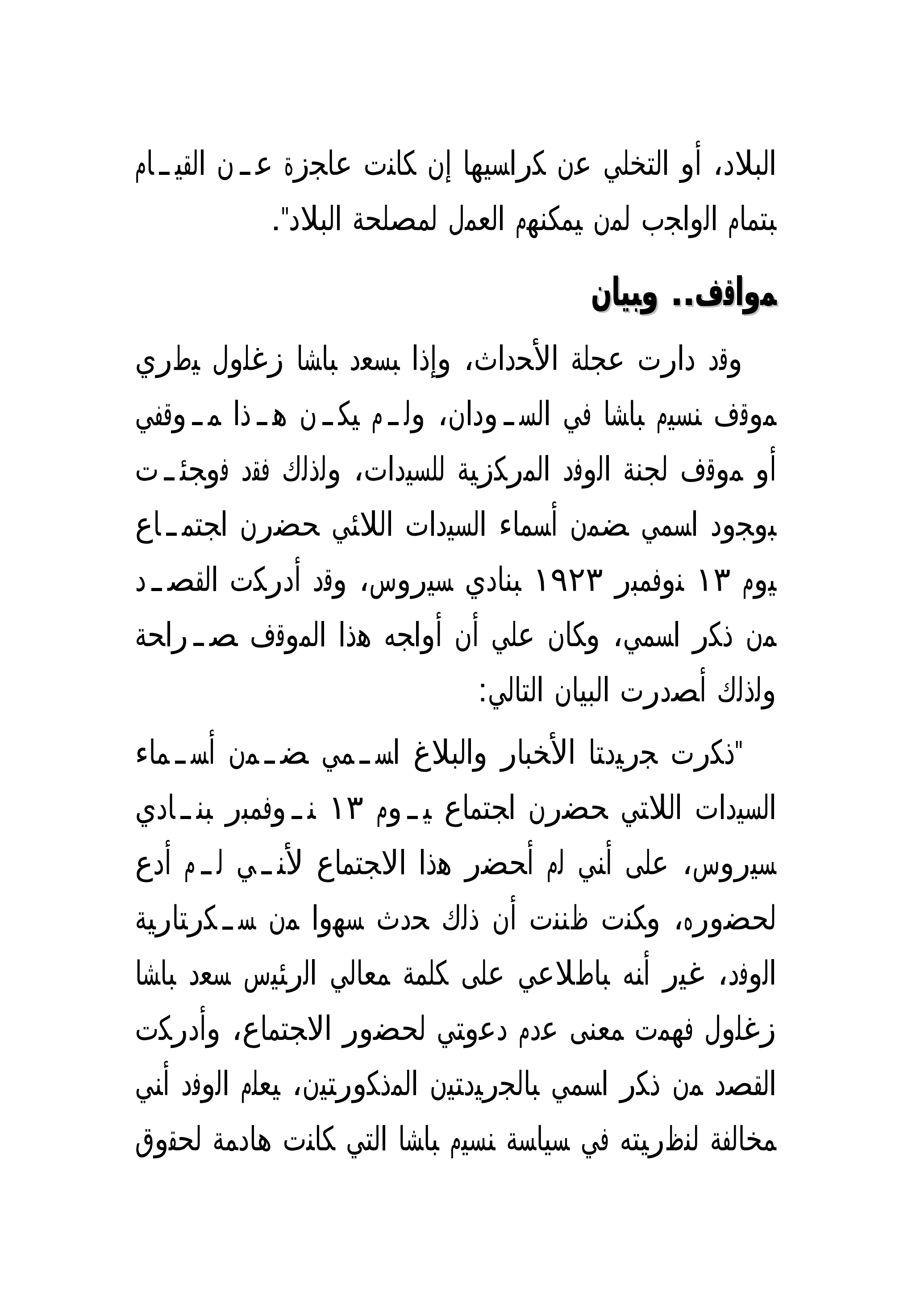
الاحتجاجات وكل ما يتعلق بالزعيم وحرمه وصـحبه حتـى ذكر أسمائهم، ما جعل محلاً للشك بأنها راضية عن إبعادهم، ومنعت الاجتماعات السلمية حتى لا يظهر معـارض لهـا، وتعدت على حقوق الأمة بتشكيل لجنـة الدسـتور، والأمـة تطالب جمعية وطنية أتت وزارة الاستقلال بكل ذلك، وانتهت بتعطيل لجنة الدستور عن العمل رغم إرادة أعضائها لأسباب ربما كانت عمل حضرات الأعضاء لصالح الأمة.

"كل ذلك والأمة صابرة صامتة تعلل نفسها بالآمال قائلـة "لعل لها عذرا وأنت تلوم"، وأما الآن وقد ظهر سـوء نيـة الإنجليز وصاروا يعملون علنًا على سلبنا حريتنـا وإذلالنـا وأخذ أموالنا وبلادنـا تـدريجيا منـا، مخـالفين عهـودهم وتصريحاتهم المتكررة؛ فهم يعملون الآن على سلخ السودان من مصر، وهو لها بمثابة الروح للجسد، واعتبار السودانيين رعايا بريطانيين رغما عنهم وعن شدة تمسـكهم بمصـر، والمصريين أجانب بالنسبة للسودانيين كما جاء في تصـريح الحاكم العام للسودان، وصادقوا على عمـل قـرض لتتمـيم خزان مكوار، مع أن العمل كان قد وقف لحين البـت فـي المسألة المصرية.

"ويضيقون على التجار المصريين في السـودان بفـرض الضرائب الباهظة عليهم ويعاملون الموظفين المصريين فـي السودان معاملة سيئة حتى يحملوهم على ترك السودان لهم. ويحاكمون المـوظفين الملكيـين والعسـكريين السـودانيين لإخلاصهم لمصر، ويمنعون المحامين المصريين من الدفاع عنهم.

"يقتل رجالهم العسكريون المصريين بدون ذنـب جنـوه، وحادثة بائع البطيخ بشارع الشيخ حمزة أعظم شاهد لـذلك، وكثيرا أمثالها من الحوادث التي لم ولن تعلم".

"يعملون على منح الموظفين الإنجليز بمصر بدل اغتراب مع ضيق ميزانية الحكومة المصرية، ويطلبون فرض مبلـغ كبير بصفة تعويض على الخزينة المصرية لكـل إنجليـزي يقتل بأي سبب من الأسباب، واعتبار أسباب القتل سياسية مع أنه لا توجد قرائن للآن تدل على أن القاتل مصـري، ولـم تعارض الحكومة في أي أمر من الأمور السابقة، ولم تقـف موقف الدفاع عن حقوق مصر وأبنائها كما يجب، فلا يسعنا إلا مصارحتها القول ومطالبتها بالسهر والعمـل لمصـلحة



البلاد، أو التخلي عن كراسيها إن كانت عاجزة عـن القيـام بتمام الواجب لمن يمكنهم العمل لمصلحة البلاد".

مواقف.. وبيان

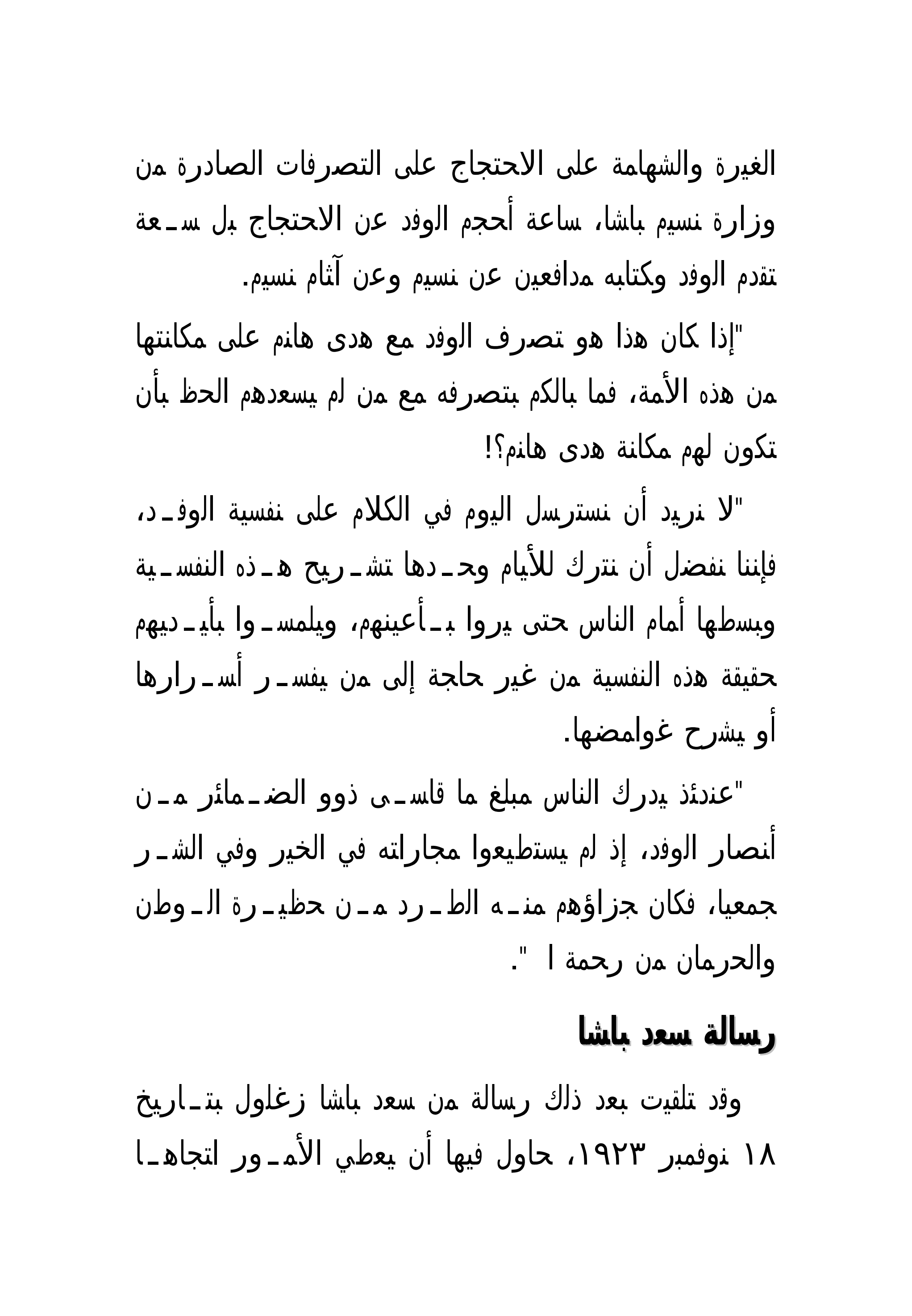
وقد دارت عجلة الأحداث، وإذا بسعد باشا زغلول يطري موقف نسيم باشا في السـودان، ولـم يكـن هـذا مـوقفي أو موقف لجنة الوفد المركزية للسيدات، ولذلك فقد فوجئـت بوجود اسمي ضمن أسماء السيدات اللائي حضرن اجتمـاع يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٣ بنادي سيروس، وقد أدركت القصـد من ذكر اسمي، وكان علي أن أواجه هذا الموقف صـراحة ولذلك أصدرت البيان التالي:

"ذكرت جريدتا الأخبار والبلاغ اسـمي ضـمن أسـماء السيدات اللاتي حضرن اجتماع يـوم ١٣ نـوفمبر بنـادي سيروس، على أني لم أحضر هذا الاجتماع لأنـي لـم أدع لحضوره، وكنت ظننت أن ذلك حدث سهوا من سـكرتارية الوفد، غير أنه باطلاعي على كلمة معالي الرئيس سعد باشا زغلول فهمت معنى عدم دعوتي لحضور الاجتماع، وأدركت القصد من ذكر اسمي بالجريدتين المذكورتين، يعلم الوفد أني مخالفة لنظريته في سياسة نسيم باشا التي كانت هادمة لحقوق

البلاد، ولذلك لم يدعني لتلك الحفلة مكتفيا بذكر اسمي بين أسماء الحاضرات، ولما كنت أخشى إذا لزمت الصمت أن يستنتج الشعب المصري الكريم من صمتي، موافقتي على نظرية معالي الرئيس والوفد في أعمال نسيم باشا وتمجيدها لحفلته التي احتجت عليها لجنتنا في حينه، فإني مع احترامي لمعالي الرئيس أرى من واجبي في الظروف الحرجة التي تجتازها البلاد أن أجاهر برأيي ورأي اللجنة، مجددة احتجاجنا على أعمال نسيم باشا وما نتج عنها من تفريط في حقوق البلاد، وأسأل ا أن يرشدنا جميعا إلى الطريق السوي بمنه وكرمه".

هدى شعراوي

وأذكر أن إحدى الصحف قد علقت على هذا البيان فقالت: "إنا لنرى في هذا البيان الموجز معاني كبيرة تدعو إلى التبصر والتفكير. ليس في مصر من أقصاها لأقصاها من ينكر على هدى هانم وطنيتها العالية وإخلاصها الذي لا تشوبه شائبة. وليس في مصر من ينكر ما للسيدة هدى هانم من اليد البيضاء على الوفد المصري نفسه. وليس في مصر من ينكر عليها وعلى أعضاء لجنتها ما أبدين من



الغيرة والشهامة على الاحتجاج على التصرفات الصادرة من وزارة نسيم باشا، ساعة أحجم الوفد عن الاحتجاج بل سـعة تقدم الوفد وكتابه مدافعين عن نسيم وعن آثام نسيم.

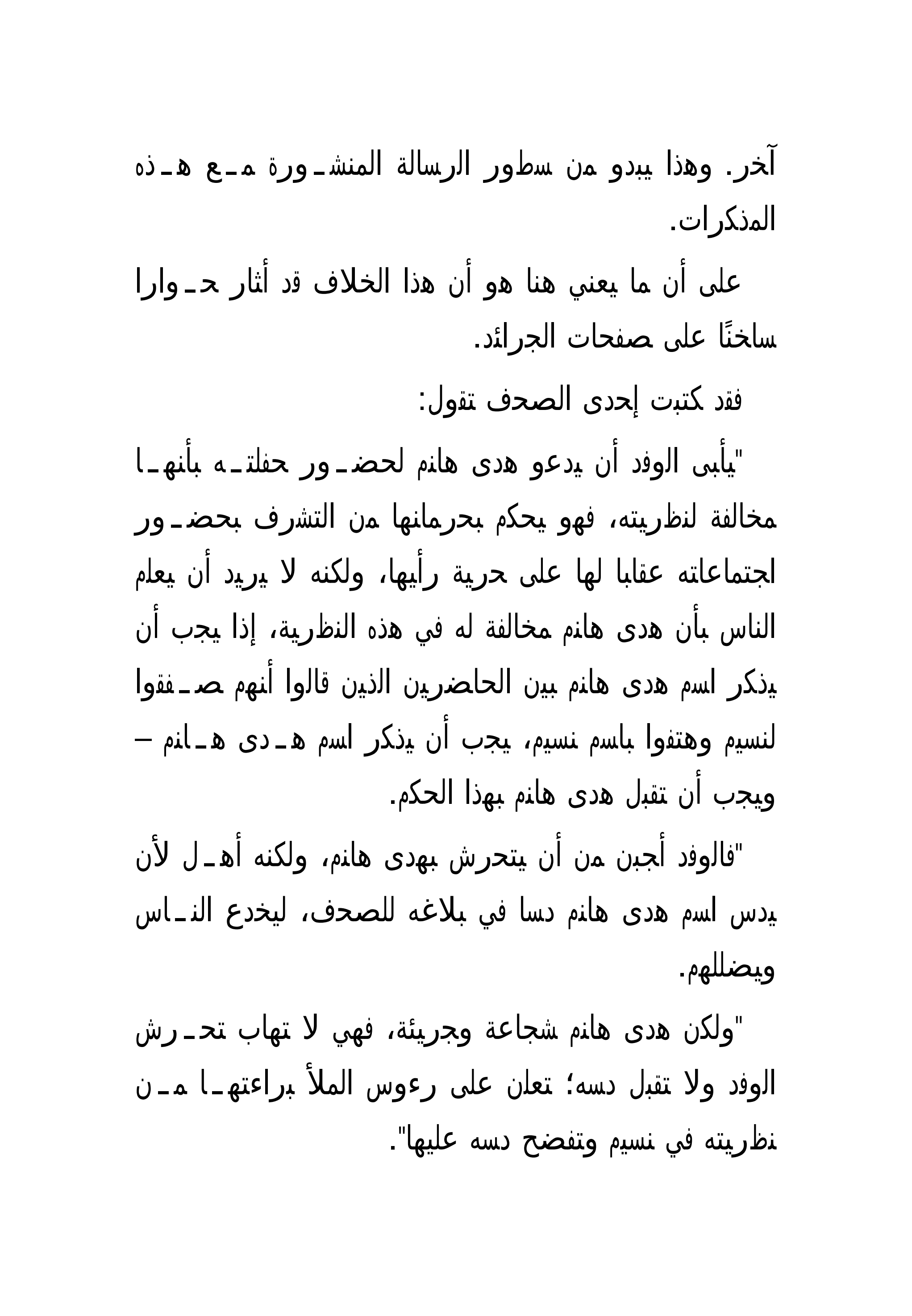
"إذا كان هذا هو تصرف الوفد مع هدى هانم على مكانتها من هذه الأمة، فما بالكم بتصرفه مع من لم يسعدهم الحظ بأن تكون لهم مكانة هدى هانم؟!

"لا نريد أن نسترسل اليوم في الكلام على نفسية الوفـد، فإننا نفضل أن نترك للأيام وحـدها تشـريح هـذه النفسـية وبسطها أمام الناس حتى يروا بـأعينهم، ويلمسـوا بأيـديهم حقيقة هذه النفسية من غير حاجة إلى من يفسـر أسـرارها أو يشرح غوامضها.

"عندئذ يدرك الناس مبلغ ما قاسـى ذوو الضـمائر مـن أنصار الوفد، إذ لم يستطيعوا مجاراته في الخير وفي الشـر جمعيا، فكان جزاؤهم منـه الطـرد مـن حظيـرة الـوطن والحرمان من رحمة ا ".

رسالة سعد باشا

وقد تلقيت بعد ذلك رسالة من سعد باشا زغلول بتـاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٢٣، حاول فيها أن يعطي الأمـور اتجاهـا



آخر. وهذا يبدو من سطور الرسالة المنشورة مع هذه المذكرات.

على أن ما يعني هنا هو أن هذا الخلاف قد أثار حوارا ساخنًا على صفحات الجرائد.

فقد كتبت إحدى الصحف تقول:

"يأبى الوفد أن يدعو هدى هانم لحضور حفلته بأنها مخالفة لنظريته، فهو يحكم بحرمانها من التشرف بحضور اجتماعاته عقابا لها على حرية رأيها، ولكنه لا يريد أن يعلم الناس بأن هدى هانم مخالفة له في هذه النظرية، إذا يجب أن يذكر اسم هدى هانم بين الحاضرين الذين قالوا أنهم صفقوا لنسيم وهتفوا باسم نسيم، يجب أن يذكر اسم هدى هانم – ويجب أن تقبل هدى هانم بهذا الحكم.

"فالوفد أجبن من أن يتحرش بهدى هانم، ولكنه أهل لأن يدس اسم هدى هانم دسا في بلاغه للصحف، ليخدع الناس ويضللهم.

"ولكن هدى هانم شجاعة وجريئة، فهي لا تهاب تحرش الوفد ولا تقبل دسه؛ تعلن على رءوس الملأ براءتها من نظريته في نسيم وتفضح دسه عليها".

وردت صحيفة أخرى على ما نشرته صحيفة "الليبرتية"، فقالت: يتعرض ذلك الكاتب السفيه في الليبرتية لهدى هـانم، فيصف كلمتها للصحف بأنها باعثة على السخرية والضحك، لا يستحي هؤلاء المتطفلون على مصر أن يرموا أبر أبنـاء مصر بسفاهاتهم ووقاحتهم.. ولكن ماذا يضير كتاب الليبرتية أن يطعنوا في كبار مصر وكبيراتها؟

"يظهر هؤلاء الكُتاب التحمس لسعد ولنسيم لأن مال سعد وفير، ولأن نسيما أغدق عليهم النعم فـي وزارتـه، وسـعد ونسيم لا يهمهما إلا أن يطعن كل إنسان يحـاول أن يحـتفظ بكرامته وحرية رأيه فكيف إذًا تجرؤ هدى هانم على تبرئـة نفسها من أي مخالفة لرأي أريد إلصاقه بها غصبا؟!".

ولست أريد أن أستطرد في ذكر تفاصيل كل ما حدث في ذلك الوقت، ولكنني فقط أردت أن أبين أبعاد الموقف الـذي حدث في احتفال ١٣ نوفمبر ١٩٢٣، وهو الموقـف الـذي ترتب على حوار سابق دار بيني وبين سعد باشا زغلول أثناء عودته إلى مصر من منفاه، فقد حدث إنني كنت في أوربا في ذلك الوقت، وشاءت الأقدار أن أعود على الباخرة نفسها التي عاد عليها سعد، وتطرق الحديث أثناء رحلـة العـودة إلـى

مسائل شتى، إلى أن انتهى عند موقفي من وزارة نسيم باشا بسبب التفريط في السودان.

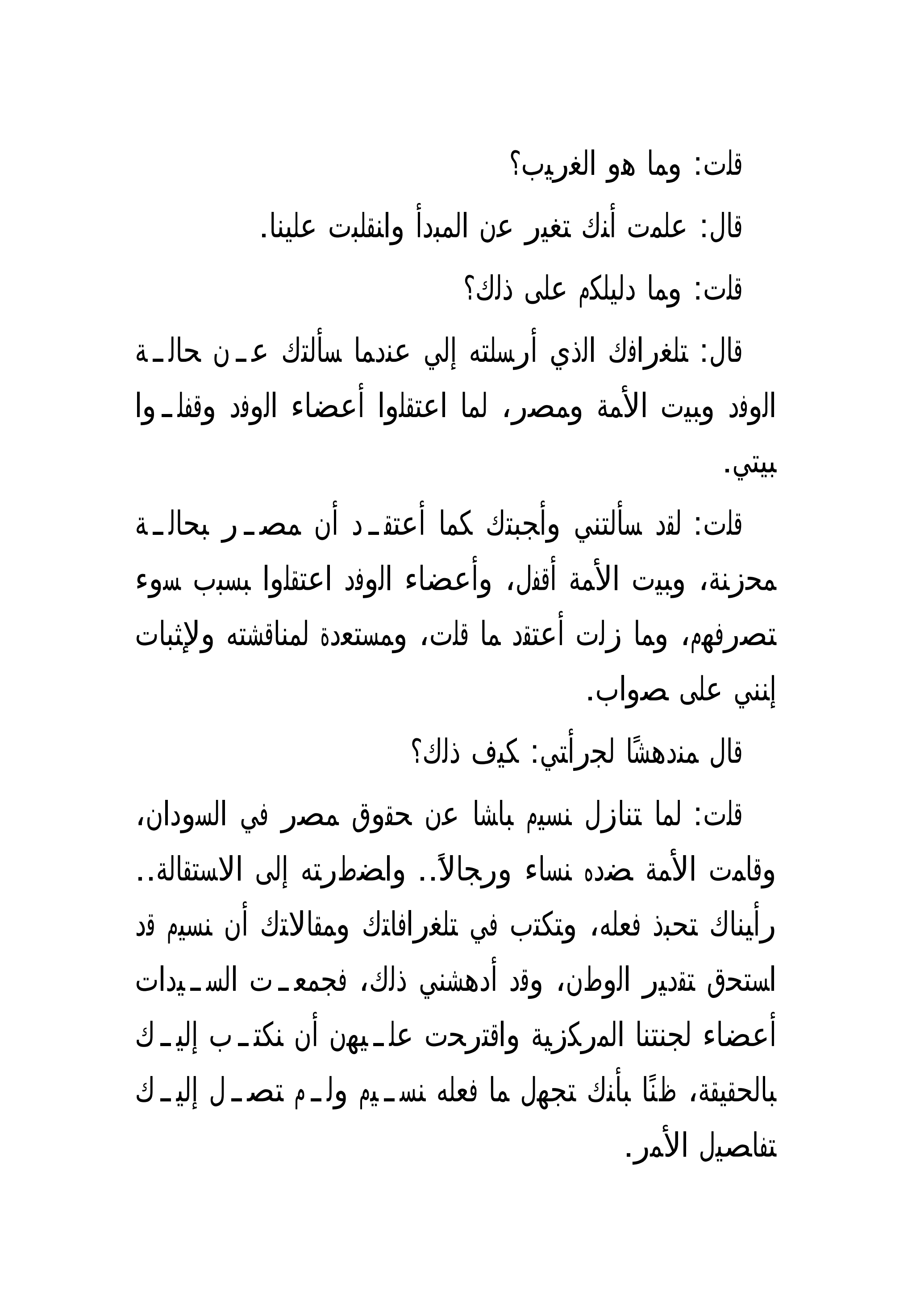
ورغم إنني ذهبت إلى بيت الأمة مهنئة بعد عـودة سـعد باشا إلى البلاد، فإنه ظل على موقفه مني، وبدا ذلك بوضوح في احتفال ١٣ نوفمبر ١٩٢٣، وإن كان قد حاول أن يغلـف هذا الموقف بدواع وتفسيرات أخرى، أراد بلباقته أن يردهـا إلى موقف لجنة الاحتفال، وليس إلى موقف الوفد نفسه.

أما ماذا دار بيننا من حوار العودة، فهذه هي القصة على ظهر الباخرة أثناء رحلته، وهي قصة نشرت في ذلك الحين، وكان نشرها هو الذي دفع سعد باشا إلى كتابة رسالته.

-٢٥-

كان الغرض من هذا البيان هو ألا يظن الناس إنني كنت أشارك سعد باشا زغلول آراءه في إطراء نسيم باشـا الـذي تناول عن حق مصر في السودان، فقد اعتبر سعد باشـا أن تخلي نسيم باشا عن الحكم بعد فعلته، جعله يسـتحق تقـدير الوطن، وكان هذا الاختلاف في وجهـات النظـر موضـع مناقشة حادة قامت بيني وبين سعد باشا بشأن هذا الموضوع، عندما تقابلنا على باخرة واحدة في رحلة العودة من أوربـا؛ حيث كان هو إذ ذاك عائدا من منفاه.

رست الباخرة في "برنديزي"؛ حيث كنت فـي انتظارهـا للعودة إلى مصر، ولما ركبت الباخرة، علمت أن سعد باشـا عائد على ظهرها من جبل طارق، فبادرت بزيارته، وهنأتـه على إطلاق سراحه وعودته إلى وطنه المحبوب، وبعـد أن شكرني، قال وهو مطرق: غريب جدا!.



قلت: وما هو الغريب؟

قال: علمت أنك تغير عن المبدأ وانقلبت علينا.

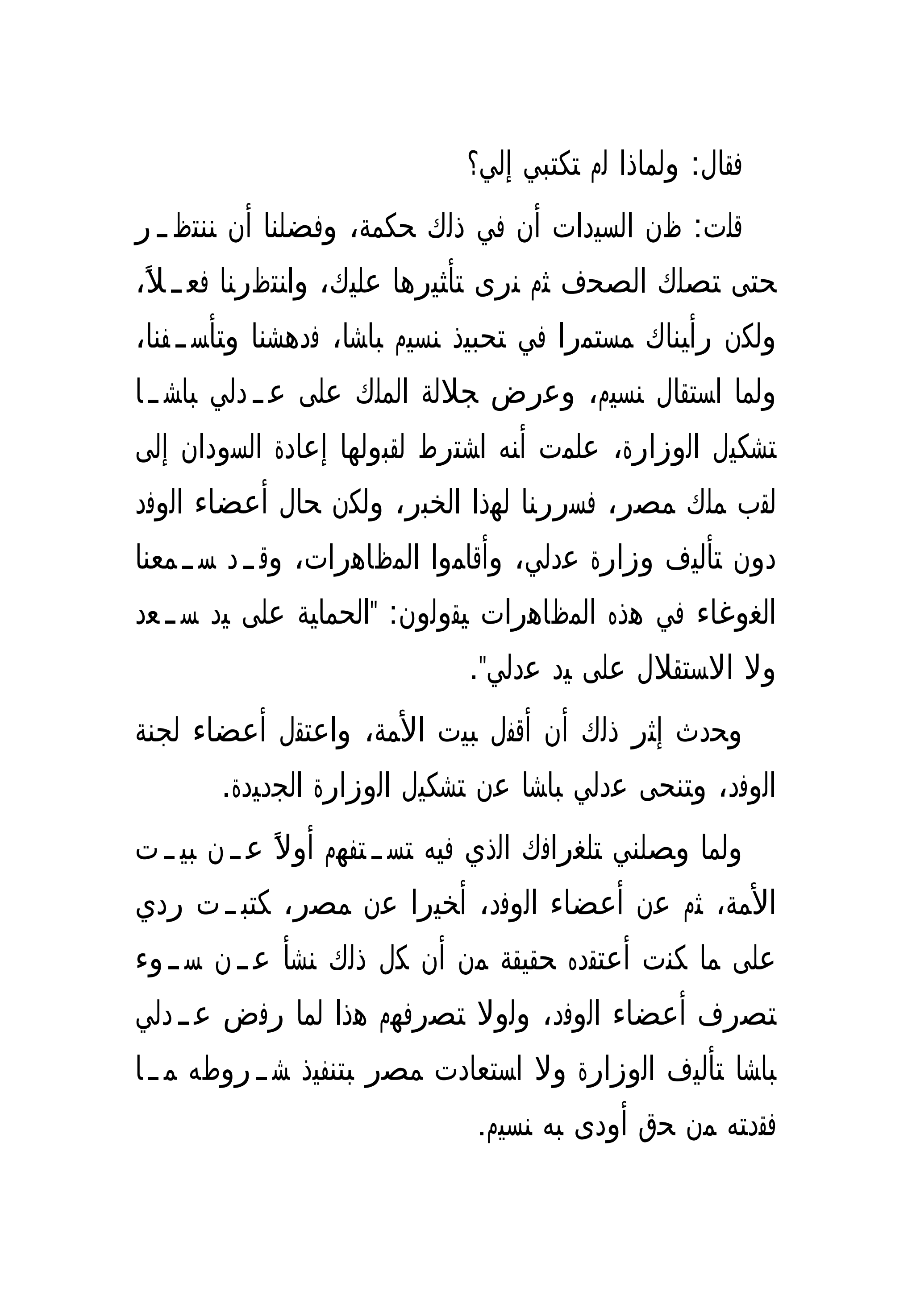
قلت: وما دليلكم على ذلك؟

قال: تلغرافك الذي أرسلته إلي عندما سألتك عـن حالـة الوفد وبيت الأمة ومصر، لما اعتقلوا أعضاء الوفد وقفلـوا بيتي.

قلت: لقد سألتني وأجبتك كما أعتقـد أن مصـر بحالـة محزنة، وبيت الأمة أقفل، وأعضاء الوفد اعتقلوا بسبب سوء تصرفهم، وما زلت أعتقد ما قلت، ومستعدة لمناقشته ولإثبات إنني على صواب.

قال مندهشًا لجرأتي: كيف ذلك؟

قلت: لما تنازل نسيم باشا عن حقوق مصر في السودان، وقامت الأمة ضده نساء ورجالاً.. واضطرته إلى الاستقالة.. رأيناك تحبذ فعله، وتكتب في تلغرافاتك ومقالاتك أن نسيم قد استحق تقدير الوطن، وقد أدهشني ذلك، فجمعـت السـيدات أعضاء لجنتنا المركزية واقترحت علـيهن أن نكتـب إليـك بالحقيقة، ظنًا بأنك تجهل ما فعله نسـيم ولـم تصـل إليـك تفاصيل الأمر.



فقال: ولماذا لم تكتبي إلي؟

قلت: ظن السيدات أن في ذلك حكمة، وفضلنا أن ننتظر حتى تصلك الصحف ثم نرى تأثيرها عليك، وانتظرنا فعلاً، ولكن رأيناك مستمرا في تحبيذ نسيم باشا، فدهشنا وتأسفنا، ولما استقال نسيم، وعرض جلالة الملك على عدلي باشا تشكيل الوزارة، علمت أنه اشترط لقبولها إعادة السودان إلى لقب ملك مصر، فسررنا لهذا الخبر، ولكن حال أعضاء الوفد دون تأليف وزارة عدلي، وأقاموا المظاهرات، وقد سمعنا الغوغاء في هذه المظاهرات يقولون: "الحماية على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلي".

وحدث إثر ذلك أن أقفل بيت الأمة، واعتقل أعضاء لجنة الوفد، وتنحى عدلي باشا عن تشكيل الوزارة الجديدة.

ولما وصلني تلغرافك الذي فيه تستفهم أولاً عن بيت الأمة، ثم عن أعضاء الوفد، أخيرا عن مصر، كتبت ردي على ما كنت أعتقده حقيقة من أن كل ذلك نشأ عن سوء تصرف أعضاء الوفد، ولولا تصرفهم هذا لما رفض عدلي باشا تأليف الوزارة ولا استعادت مصر بتنفيذ شروطه ما فقدته من حق أودى به نسيم.

فقال في ارتباك: أنا لا أحب نسيم، ولكني أعتقد أنه أحرج وتورط، وأنه أدى خدمة باستقالته.. ألم تقرئي ما نشره في الجرائد بعد ذلك؟

فقلت له: أني أدهش يا باشا من أنك ما زلت تجد في استقالة نسيم بعد تسليمه، شيئًا من الشجاعة والوطنية، لقد كان في إمكانه أن يستقيل قبل أن يفرط في حقوق البلاد.

فقال: ليس هذا ذنبه، لقد قدم استقالته، ولكن جلالة الملك لم يقبلها وجميع الوزراء في حضرته، وقال لهم إن في إصرارهم هذا خطرا على العرش.. وبكى واستبكاهم، فلم يسع نسيم إلا النزول على رغبة الملك، فإذًا هو معذور.

قلت له في دهشة كبرى: هل كنت تفعل هذا لو كنت محل نسيم باشا؟ تبيع البلد لأجل دموع الملك؟

فقال: لا.. لا..

قلت: لماذا إذا تحبذ ما لا تفعله؟

فسكت دون أن يظهر أي غضب، فظننت أنه اقتنع.

الحجاب الشرعي

وبعد ذلك دار الحديث في موضوعات أخرى، وقـد بـدأ يهنئني على توفيقي في الوصول إلى رفع الحجـاب وكيفيـة عمل الحجاب الشرعي الذي أرتديه، وقال إنه قد سر عنـدما رأى صورتي بهذا الزي الجديد في منفاه، ثم طلب من السيدة حرمه أن تقلدني، فوعدت بذلك.

وصرنا في وفاق وائتناس، وسعد باشا في تواضع غريب حتى اقتربنا من الإسكندرية، وبينما كنت جالسة مع صـفية هانم على ظهر الباخرة، أقبل سعد باشا متهللاً بيده برقيـة، وقال: صفية.. أتدرين ممن هذه البرقية؟

قالت: لا..

قال: هي من إسماعيل باشا أباظة..

وقرأ علينا ما معناه: "أكتب إليك هذا وأنا على حافة القبر، ولا أنتظر من الحياة شيئًا وليس لي مطمح فيها، راجيـا أن تزيل كل خلاف بينك وبين خصومك في خدمة الـبلاد، وأن توحد صفوف الأمة لخدمة الوطن.

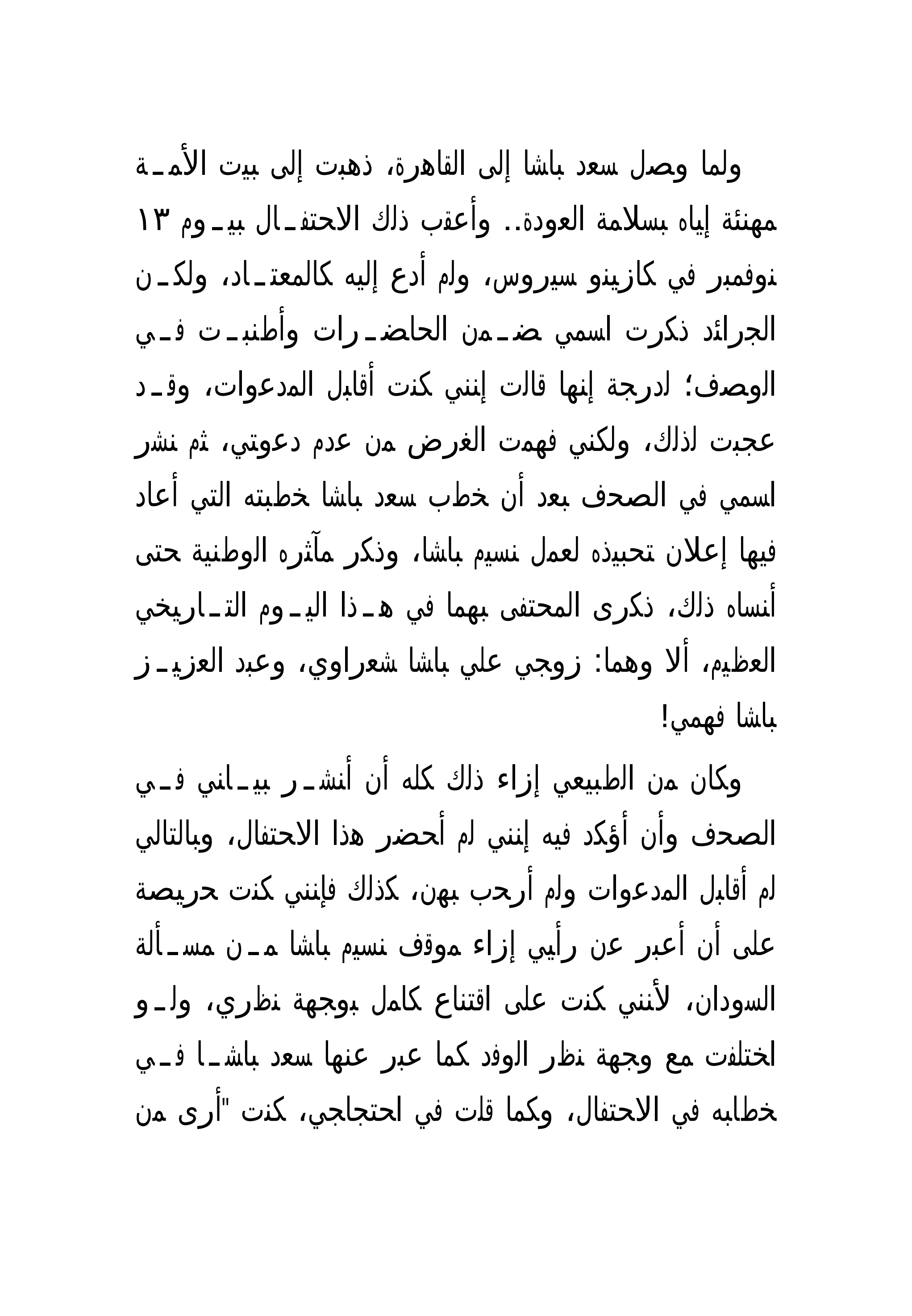
فقالت له صفية هانم: وهل ستجيب عليها؟

فقال: أنا؟

وسكت..

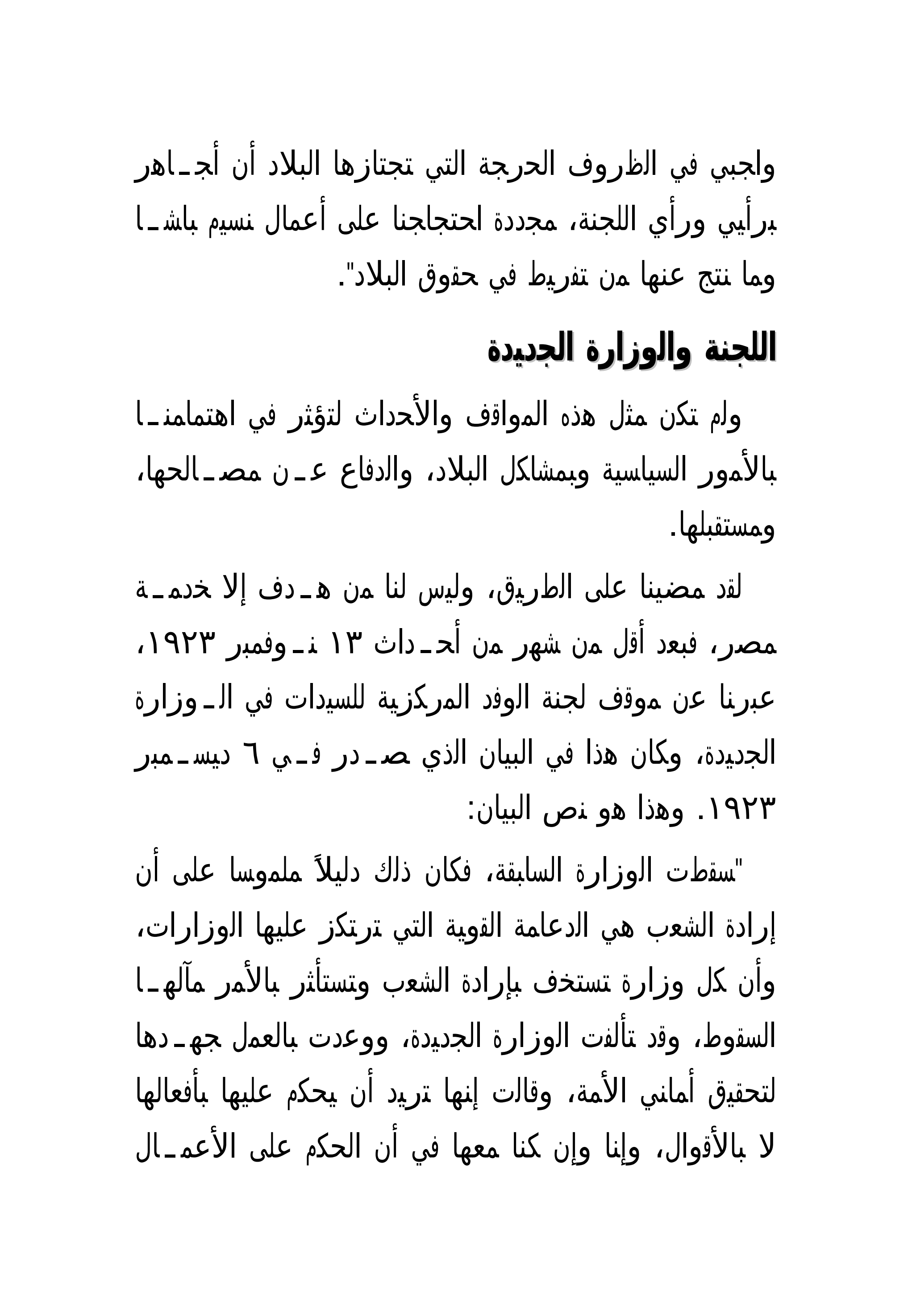
وقد قلت في نفسي: لقد عادت له عظمته لما فهم من هذه البرقية أن الأمة المصرية ما زالت تؤيده، وما كان ذلك التواضع الغريب الذي لاحظته إلا لظنه أنه فقد شيئًا من ثقة الأمة بتحبيذه لموقف نسيم باشا الذي أغضبها، ولكنه فهم من برقية إسماعيل أباظة باشا أن مركزه ما زال محفوظًا، وإلا لما تنازل أباظة بكتابة هذه البرقية إليه، وقد زاد في اطمئنانه ذلك الاستقبال العظيم الذي ظهرت بوادره عند دخول السفينة البوغاز، فقد التفت حولها القوارب المليئة بالجماهير الهاتفة باسمه.

صعدت إلى ظهر الباخرة للنزول، وإذ بصفية هانم تقابلني ببرقعها وملاءتها. فقلت لها: "أين وعدك لسعد باشا بارتداء الإزار الشرعي؟" فقالت: "أنا ليس لي زوج واحد.. واصف باشا غالي استحسن ألا أغير زيي حتى لا أحدث تأثيرا سيئًا في المستقبلين".. فعجبت من ذلك، وصافحتها، ونزلت إلى اللنش الذي كان في انتظاري.



ولما وصل سعد باشا إلى القاهرة، ذهبت إلى بيت الأمة مهنئة إياه بسلامة العودة.. وأعقب ذلك الاحتفال بيوم ١٣ نوفمبر في كازينو سيروس، ولم أدع إليه كالمعتاد، ولكن الجرائد ذكرت اسمي ضمن الحاضرات وأطنبت في الوصف؛ لدرجة إنها قالت إنني كنت أقابل المدعوات، وقد عجبت لذلك، ولكني فهمت الغرض من عدم دعوتي، ثم نشر اسمي في الصحف بعد أن خطب سعد باشا خطبته التي أعاد فيها إعلان تحبيذه لعمل نسيم باشا، وذكر مآثره الوطنية حتى أنساه ذلك، ذكرى المحتفى بهما في هذا اليوم التاريخي العظيم، ألا وهما: زوجي علي باشا شعراوي، وعبد العزيز باشا فهمي!

وكان من الطبيعي إزاء ذلك كله أن أنشر بياني في الصحف وأن أؤكد فيه إنني لم أحضر هذا الاحتفال، وبالتالي لم أقابل المدعوات ولم أرحب بهن، كذلك فإنني كنت حريصة على أن أعبر عن رأيي إزاء موقف نسيم باشا من مسألة السودان، لأنني كنت على اقتناع كامل بوجهة نظري، ولو اختلفت مع وجهة نظر الوفد كما عبر عنها سعد باشا في خطابه في الاحتفال، وكما قلت في احتجاجي، كنت "أرى من



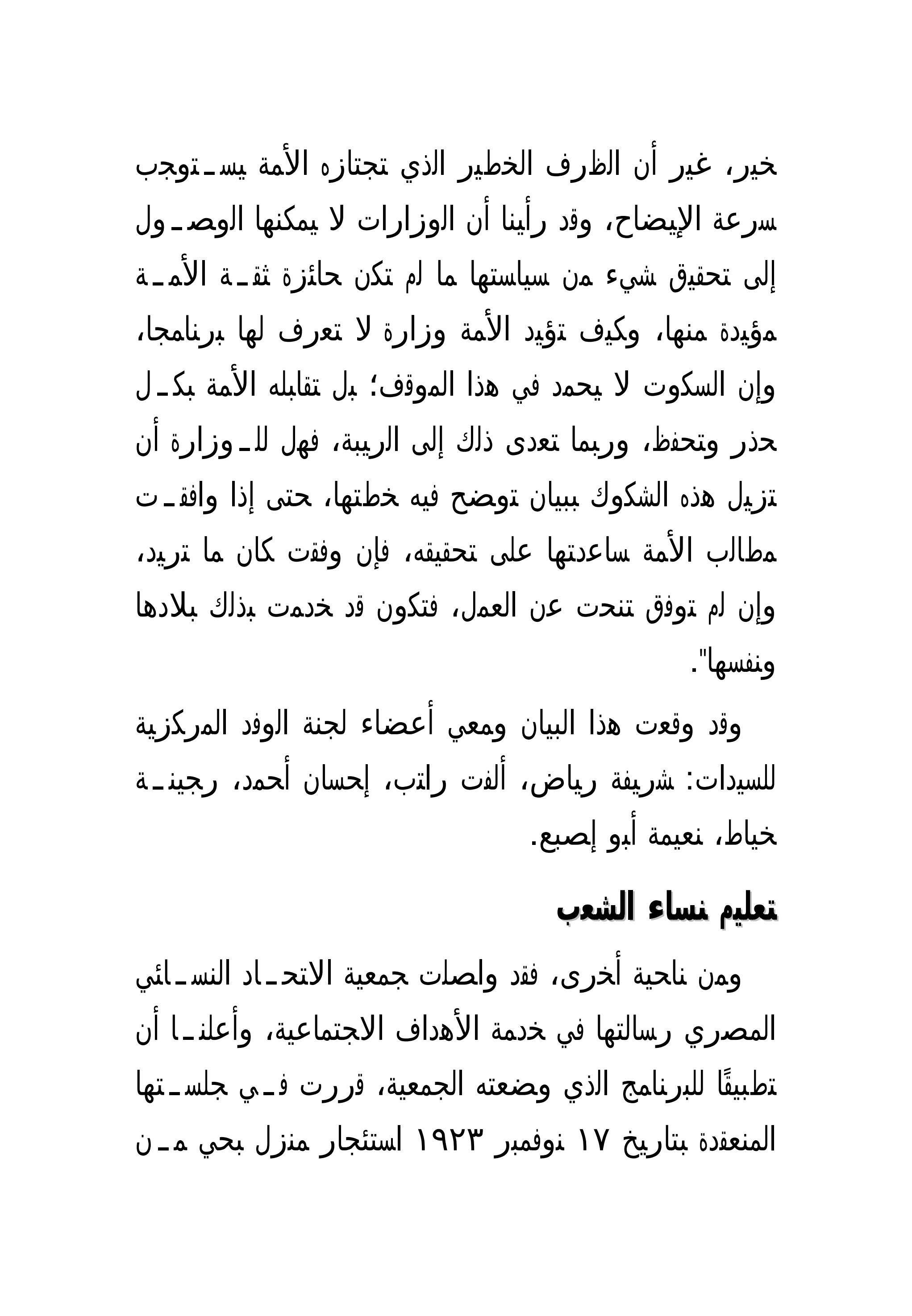
واجبي في الظروف الحرجة التي تجتازها البلاد أن أجـاهر برأيي ورأي اللجنة، مجددة احتجاجنا على أعمال نسيم باشـا وما نتج عنها من تفريط في حقوق البلاد".

اللجنة والوزارة الجديدة

ولم تكن مثل هذه المواقف والأحداث لتؤثر في اهتمامنـا بالأمور السياسية وبمشاكل البلاد، والدفاع عـن مصـالحها، ومستقبلها.

لقد مضينا على الطريق، وليس لنا من هـدف إلا خدمـة مصر، فبعد أقل من شهر من أحـداث ١٣ نـوفمبر ١٩٢٣، عبرنا عن موقف لجنة الوفد المركزية للسيدات في الـوزارة الجديدة، وكان هذا في البيان الذي صـدر فـي ٦ ديسـمبر ١٩٢٣. وهذا هو نص البيان:

"سقطت الوزارة السابقة، فكان ذلك دليلاً ملموسا على أن إرادة الشعب هي الدعامة القوية التي ترتكز عليها الوزارات، وأن كل وزارة تستخف بإرادة الشعب وتستأثر بالأمر مآلهـا السقوط، وقد تألفت الوزارة الجديدة، ووعدت بالعمل جهـدها لتحقيق أماني الأمة، وقالت إنها تريد أن يحكم عليها بأفعالها لا بالأقوال، وإنا وإن كنا معها في أن الحكم على الأعمـال



خير، غير أن الظرف الخطير الذي تجتازه الأمة يستوجب سرعة الإيضاح، وقد رأينا أن الوزارات لا يمكنها الوصول إلى تحقيق شيء من سياستها ما لم تكن حائزة ثقة الأمة مؤيدة منها، وكيف تؤيد الأمة وزارة لا تعرف لها برنامجا، وإن السكوت لا يحمد في هذا الموقف؛ بل تقابله الأمة بكل حذر وتحفظ، وربما تعدى ذلك إلى الريبة، فهل للوزارة أن تزيل هذه الشكوك ببيان توضح فيه خطتها، حتى إذا وافقت مطالب الأمة ساعدتها على تحقيقه، فإن وفقت كان ما تريد، وإن لم توفق تنحت عن العمل، فتكون قد خدمت بذلك بلادها ونفسها".

وقد وقعت هذا البيان ومعي أعضاء لجنة الوفد المركزية للسيدات: شريفة رياض، ألفت راتب، إحسان أحمد، رجينة خياط، نعيمة أبو إصبع.

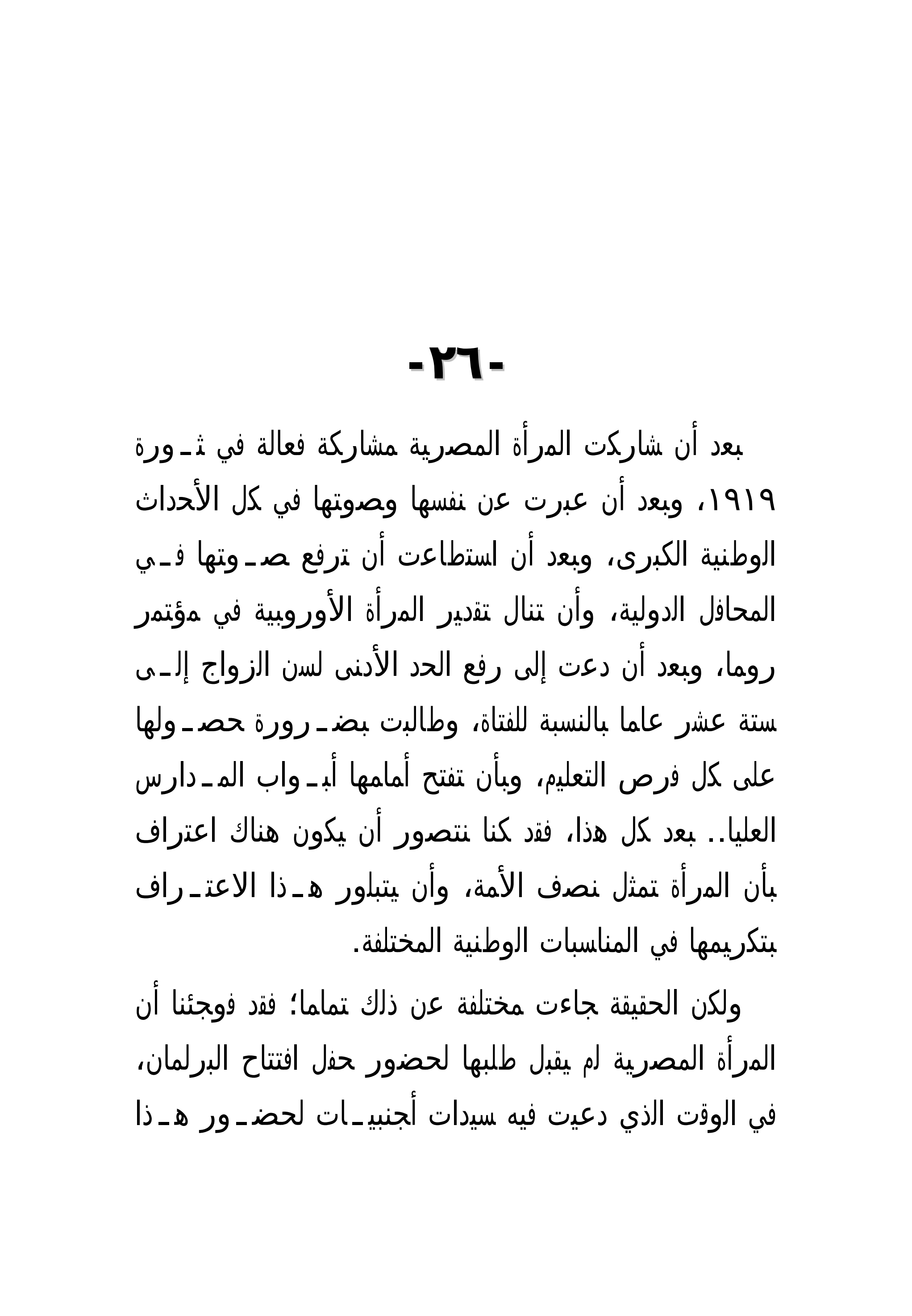
تعليم نساء الشعب

ومن ناحية أخرى، فقد واصلت جمعية الاتحاد النسائي المصري رسالتها في خدمة الأهداف الاجتماعية، وأعلنا أن تطبيقًا للبرنامج الذي وضعته الجمعية، قررت في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٢٣ استئجار منزل بحي من

الأحياء الوطنية يكون كمدرسة متنقلة لتعليم نساء الشعب مبادئ علم الصحة والتمريض وبعض الصناعات اليدوية، ومحاربة البدع والخرافات، ومعالجة المرضى منهن ومن أطفالهن مجانًا، حتى إذا أتمت مهمتها في ذلك الحي، انتقلت إلى حي غيره، وهكذا دواليك حتى يتسنى لأولئك النساء الإلمام بما يقوم نفوسهن.. وينير عقولهن، ويقي أطفالهن شر الأمراض تلافيا لكثرة الوفيات المنتشرة بينهم، وحتى تجد المعوزة منهن طريقًا شريفًا للكسب.

وقد استأجرت الجمعية دارا لهذا الغرض بشارع يحيى بن زيد رقم ٤٥ بالبغالة قسم السيدة زينب، سمتها "دار التعاون الإصلاحي".

وأعلنت الجمعية أن أعضاءها قد تطوعن لتعليم أولئك النساء، وهي في الوقت نفسه تقبل مع الشكر والسرور كل مساعدة من حضرات الأطباء وأصحاب المحلات التجارية والصيدليات ما يلزم للمعالجة ومساعدة الفقيرات، كما تقبل بكل ارتياح كل سيدة تتطوع لمعاونتها عمليا أو ماديا في القيام بهذا الواجب الإنساني.



-٢٦-

بعد أن شاركت المرأة المصرية مشاركة فعالة في ثـورة ١٩١٩، وبعد أن عبرت عن نفسها وصوتها في كل الأحداث الوطنية الكبرى، وبعد أن استطاعت أن ترفع صـوتها فـي المحافل الدولية، وأن تنال تقدير المرأة الأوروبية في مؤتمر روما، وبعد أن دعت إلى رفع الحد الأدنى لسن الزواج إلـى ستة عشر عاما بالنسبة للفتاة، وطالبت بضـرورة حصـولها على كل فرص التعليم، وبأن تفتح أمامها أبـواب المـدارس العليا.. بعد كل هذا، فقد كنا نتصور أن يكون هناك اعتراف بأن المرأة تمثل نصف الأمة، وأن يتبلور هـذا الاعتـراف بتكريمها في المناسبات الوطنية المختلفة.

ولكن الحقيقة جاءت مختلفة عن ذلك تماما؛ فقد فوجئنا أن المرأة المصرية لم يقبل طلبها لحضور حفل افتتاح البرلمان، في الوقت الذي دعيت فيه سيدات أجنبيـات لحضـور هـذا

الحفل، وكان أن أصدرنا في ١٦ مارس ١٩٢٤ بيان احتجاج على النحو التالي:

"لجنة الوفد المركزية للسيدات تحتج بشدة بصفتها هيئة تمثل الأمة التي اشتركت في الجهاد والتضحية لاستقلال بلادها، على رفض طلبها لحضور حفلة افتتاح البرلمان، وترى في إغفال وزارة الشعب دعوتها في وقت دعت فيه سيدات أجنبيات عملاً لا يليق بالكرامة.

وفي يوم الجمعة ٣١ مارس ١٩٢٤، اجتمعت لجنة الوفد المركزية للسيدات بدار جمعية المرأة الجديدة، وقررت بالإجماع توجيه ما يأتي لمجلس النواب والشيوخ بمناسبة خطاب العرش.

"مع ثقة أعضاء اللجنة بالوزارة، ترى أن خطبة العرش غير وافية، وفيها من الغموض ما يمكن أن يؤوله الخصم في مصلحته؛ لذلك تعتمد اللجنة على حضرات النواب أن يتداركوا بحكمتهم إدخال التعديلات الآتية على خطبة العرش:

١- النص على تعديل الدستور حتى يكون طبق الدساتير الحديثة، وأن تذكر فيه حدود الدولة المصرية مع النص على أن السودان جزء منها لا يتجزأ.

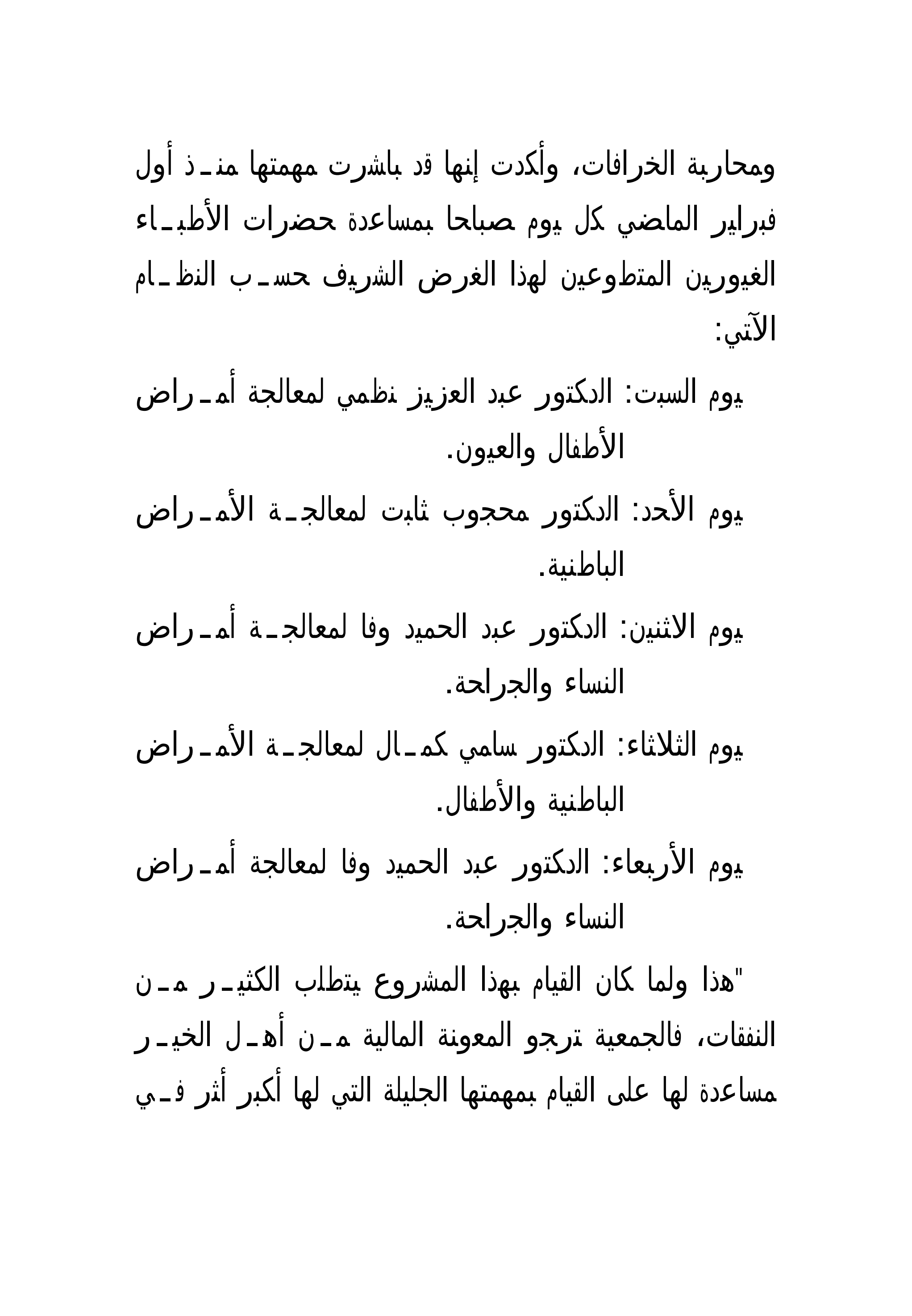
٢- النص على إصلاح القوانين الخاصة بحرية الاجتماعات والصحافة.

٣- النص على تعديل مواد الدستور الخاصة بالمسئولية الوزارية تعديلاً يجعل الأمة صاحبة الحق في حكم البلاد.

٤- النص على تقوية الجيش المصري والقوى الحربية الأخرى ما يكفل المحافظة على سلامة الدولة".

توقيعات: هدى شعراوي، نعيمة أبو إصبع، روجينة خياط، نعمت حجازي، استر ويصا، فايقة رفيق، ألفت راتب، عزيزة فوزي، إحسان أحمد، فكرية حسني.

وكما قلت من قبل، فإننا في الوقت الذي كنا نشارك فيه ونتابع الأحداث السياسية وتطوراتها، كنا أيضا وبالحماسة نفسها نبذل في ميدان الخدمة الاجتماعية، وهكذا فإنه في شهر إبريل ١٩٢٤، أعلنت جمعية الاتحاد النسائي المصري الجمهور إنها فتحت أبواب دار التعاون الإصلاحي التي أنشأتها بشارع يحيى بن زيد رقم ٤٥ بالبغالة لمعالجة الفقيرات وأطفالهن، وصرف الدواء لهن مجانًا، وتعليمهن بعض الأعمال اليدوية ومبادئ الدين والمبادئ الصحية


ومحاربة الخرافات، وأكدت إنها قد باشرت مهمتها منـذ أول فبراير الماضي كل يوم صباحا بمساعدة حضرات الأطبـاء الغيورين المتطوعين لهذا الغرض الشريف حسـب النظـام الآتي:

يوم السبت: الدكتور عبد العزيز نظمي لمعالجة أمـراض الأطفال والعيون.

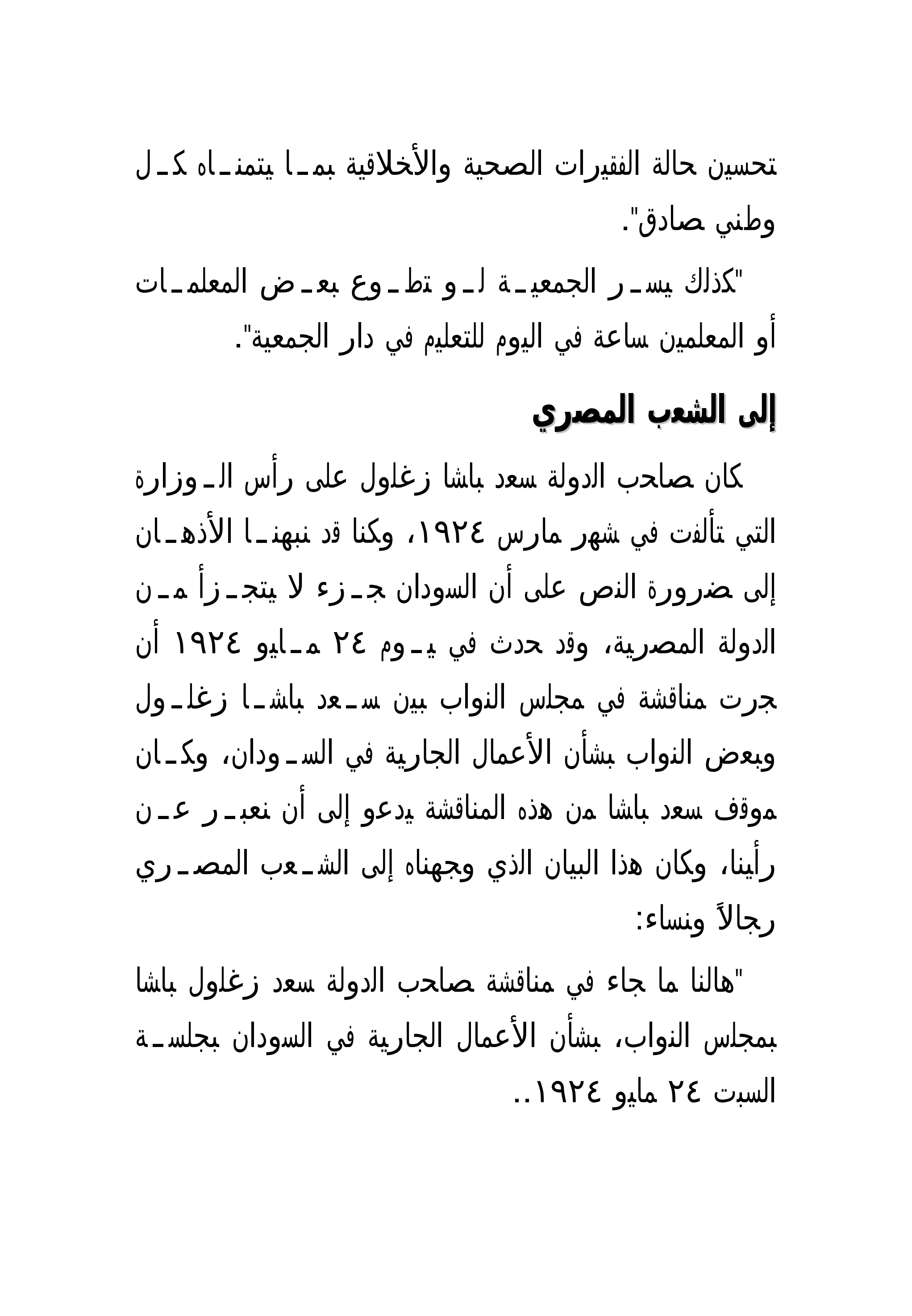
يوم الأحد: الدكتور محجوب ثابت لمعالجـة الأمـراض الباطنية.

يوم الاثنين: الدكتور عبد الحميد وفا لمعالجـة أمـراض النساء والجراحة.

يوم الثلاثاء: الدكتور سامي كمـال لمعالجـة الأمـراض الباطنية والأطفال.

يوم الأربعاء: الدكتور عبد الحميد وفا لمعالجة أمـراض النساء والجراحة.

"هذا ولما كان القيام بهذا المشروع يتطلب الكثيـر مـن النفقات، فالجمعية ترجو المعونة المالية مـن أهـل الخيـر مساعدة لها على القيام بمهمتها الجليلة التي لها أكبر أثر فـي



تحسين حالة الفقيرات الصحية والأخلاقية بما يتمناه كل وطني صادق".

"كذلك يسر الجمعية لو تطوع بعض المعلمات أو المعلمين ساعة في اليوم للتعليم في دار الجمعية".

إلى الشعب المصري

كان صاحب الدولة سعد باشا زغلول على رأس الوزارة التي تألفت في شهر مارس ١٩٢٤، وكنا قد نبهنا الأذهان إلى ضرورة النص على أن السودان جزء لا يتجزأ من الدولة المصرية، وقد حدث في يوم ٢٤ مايو ١٩٢٤ أن جرت مناقشة في مجلس النواب بين سعد باشا زغلول وبعض النواب بشأن الأعمال الجارية في السودان، وكان موقف سعد باشا من هذه المناقشة يدعو إلى أن نعبر عن رأينا، وكان هذا البيان الذي وجهناه إلى الشعب المصري رجالاً ونساء:

"هالنا ما جاء في مناقشة صاحب الدولة سعد زغلول باشا بمجلس النواب، بشأن الأعمال الجارية في السودان بجلسة السبت ٢٤ مايو ١٩٢٤..

- هالنا أن يوجه دولته إلى حضرة النائب المحترم عبد الرحمن بك الرافعي، العبارة الآتية (نريد أن نعرف الطريقة التي نملك بها السودان والمشروعات ونحن ليس في إمكاننا منع ما هو حاصل).
- تقبلنا البرنامج الذي وضعه دولته عند تشكيل وزارته بالرضا، واعتبرناه عهدا وميثاقًا على وزارته أمام الأمة، فلم يكن أحد يشك في أنه أعد مع من اختارهم من زملائه الوسائل والطرق التي توصله لتحقيق مطالب الأمة (في الاستقلال الحقيقي لمصر والسودان)، خصوصا عندما رأيناه راغبا كل الرغبة في تبوء منصة الحكم رغم نداء طبقة كبيرة من الأمة على رأسها صاحب السمو الأمير عمر طوسون بعدم قبولها. انتظرنا من عهد توليته الحكم أن يعمل على تحقيق برنامجه، وقد مرت عدة حوادث كان من شأنها أن توجب الريبة والشكوى من تصرف الوزارة مثل تنفيذ قانوني التعويضات والتضمينات، ومثل رفضها إجراء أي تعديل وتوضيح لخطبة العرش. فاحتطنا هذه التصرفات كلها انتظارا لما عسى أن تؤديه وزارة

الأمة من تحقيق مطالبها الحيوية الخاصة بمصر والسودان. فإذا بدولة سعد باشا رئيس الوزارة ورئيس الوفد وواضع ذلك البرنامج ينادي في جلسة مجلس النواب بأنه في حاجة لمن يرشده إلى الطريقة العملية التي تنال بها مصر حقها في السودان، وإذا به كذلك يقول أيضا مخاطبا نواب الأمة (إذا كان في إمكانكم عمل تجريدة أو عندكم قوة لمنع الإنجليز وأخذ السودان من أيديهم، فتفضلوا ودلوني عليها).

- إلا أن وضع هذا السؤال بهذه الكيفية – وسعد باشا يعلم كما يعلم غيره أن مصر لا طاقة لها على تعبئة تجريدة عسكرية تقوى على إخراج إنجلترا من السودان – هو اعتراف بالعجز وتصريح لا يقبل الإبهام بأن دولته لم يعد يعتمد على ذلك السلاح الذي كان يعتمد عليه قبل توليته الحكم، أي وهو سلاح الحق الذي تستمد منه الأمة قوتها ثقة أنه أعظم أثرا من القوة المادية التي يملكها خصمها.
- في هذه الحالة، يعلن الشعب المصري الكريم رجالاً ونساء أنه لا يوجد خطر على القضية المصرية أكبر



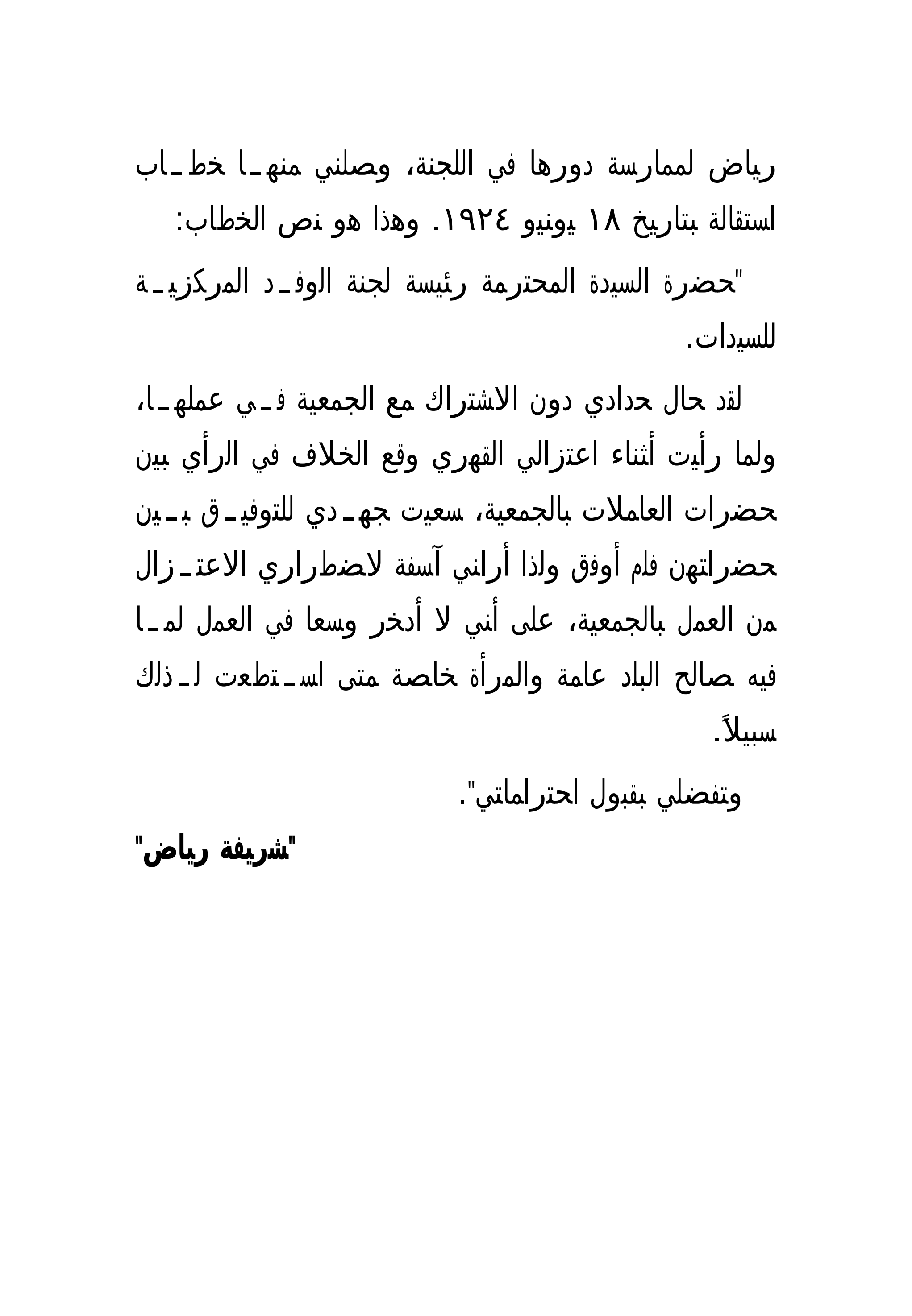
من أن يتولى المفاوضات مع انجلترا رجـل يعتـرف علانية أمام هيئة رسمية نيابية، بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل وعند توليه الحكم، ولعل سعد باشـا يكون أول من شعر بعظم المسـئولية ويهيـئ لأمتـه مخرجا من هذا الضيق".

هدى شعراوي

استقالة شريفة هانم رياض

كانت السيدة شريفة هانم رياض من أبرز الشخصيات في لجنة الوفد المركزية للسيدات وأكثرهن نشاطًا، وقد شاركتني في كثير من المواقف منذ بدأنا التفكيـر فـي إنشـاء لجنـة السيدات إثر اندلاع ثورة ١٩١٩.

وخلال الفترة الأخيرة، كانت قد اعتكفت بسبب ظـروف الحداد، ولذلك فإنها لم توقع معنا على البيان الذي أصـدرناه بمناسبة خطبة العرش في ٢١ مارس ١٩٢٤، ولقـد كانـت الموافقة على هذا البيان بالإجماع، ولكن إزاء تطور الأحداث والمواقف، وقعت بعض الخلافات نتيجة اخـتلاف وجهـات النظر، وفي الوقت الذي كنت أترقب فيه عودة شريفة هـانم



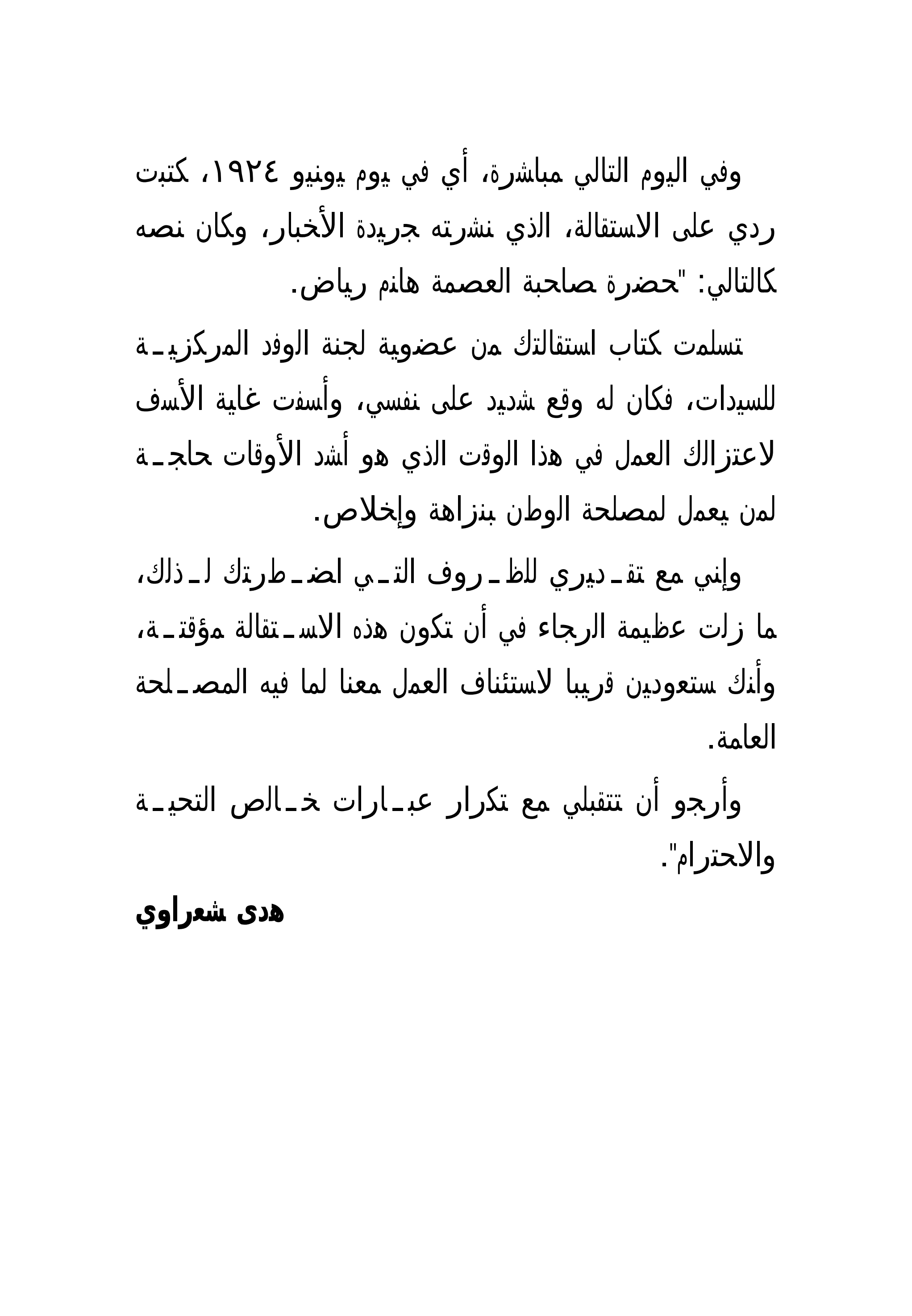
رياض لممارسة دورها في اللجنة، وصلني منها خطاب استقالة بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٢٤. وهذا هو نص الخطاب:

"حضرة السيدة المحترمة رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.

لقد حال حدادي دون الاشتراك مع الجمعية في عملها، ولما رأيت أثناء اعتزالي القهري وقع الخلاف في الرأي بين حضرات العاملات بالجمعية، سعيت جهدي للتوفيق بين حضراتهن فلم أوفق ولذا أراني آسفة لاضطراري الاعتزال من العمل بالجمعية، على أني لا أدخر وسعا في العمل لما فيه صالح البلد عامة والمرأة خاصة متى استطعت لذلك سبيلاً.

وتفضلي بقبول احتراماتي".

"شريفة رياض"



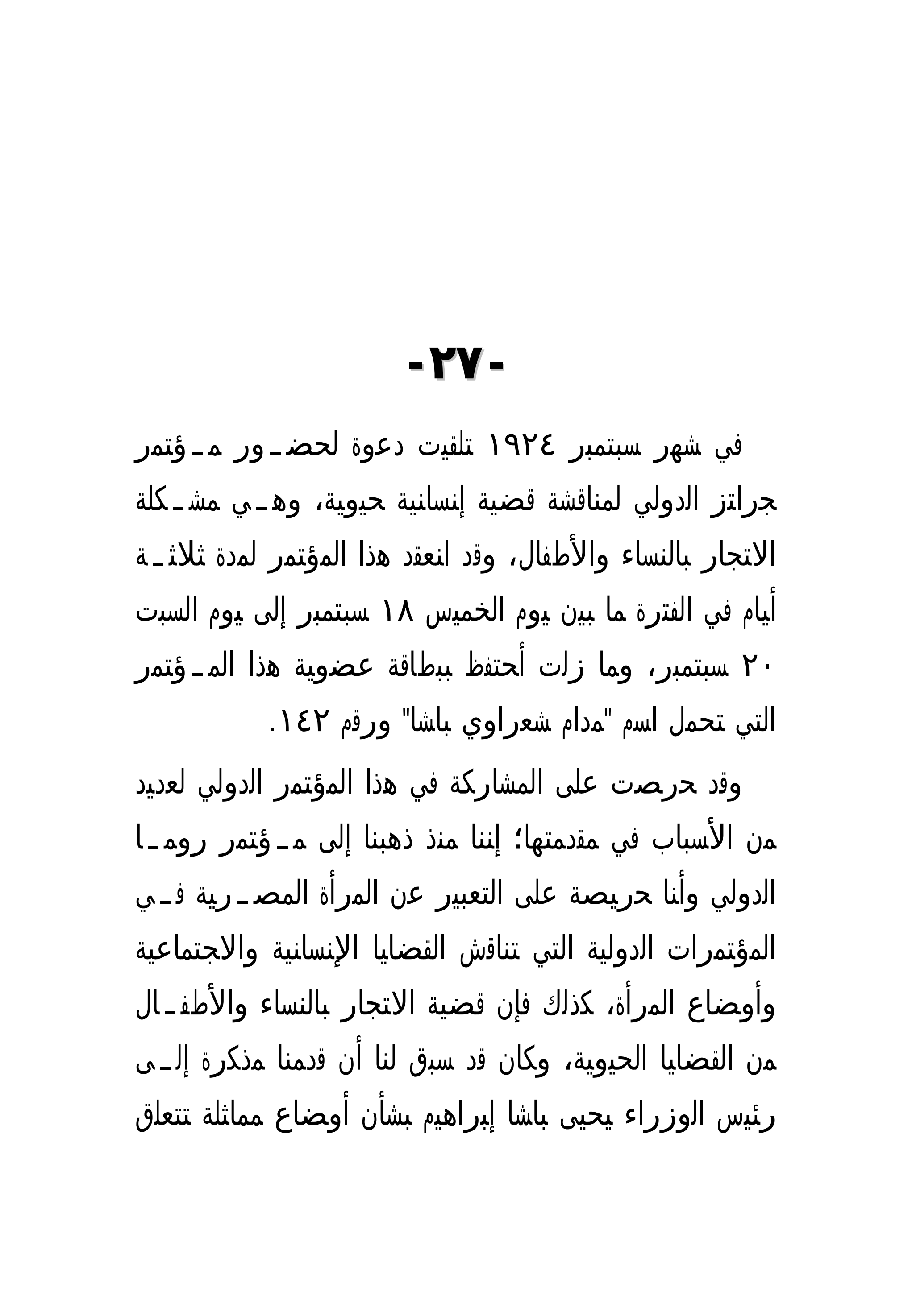
وفي اليوم التالي مباشرة، أي في يوم يونيو ١٩٢٤، كتبت ردي على الاستقالة، الذي نشرته جريدة الأخبار، وكان نصه كالتالي: "حضرة صاحبة العصمة هانم رياض.

تسلمت كتاب استقالتك من عضوية لجنة الوفد المركزية للسيدات، فكان له وقع شديد على نفسي، وأسفت غاية الأسف لاعتزالك العمل في هذا الوقت الذي هو أشد الأوقات حاجة لمن يعمل لمصلحة الوطن بنزاهة وإخلاص.

وإني مع تقديري للظروف التي اضطرتك لذلك، ما زلت عظيمة الرجاء في أن تكون هذه الاستقالة مؤقتة، وأنك ستعودين قريبا لاستئناف العمل معنا لما فيه المصلحة العامة.

وأرجو أن تتقبلي مع تكرار عبارات خالص التحية والاحترام".

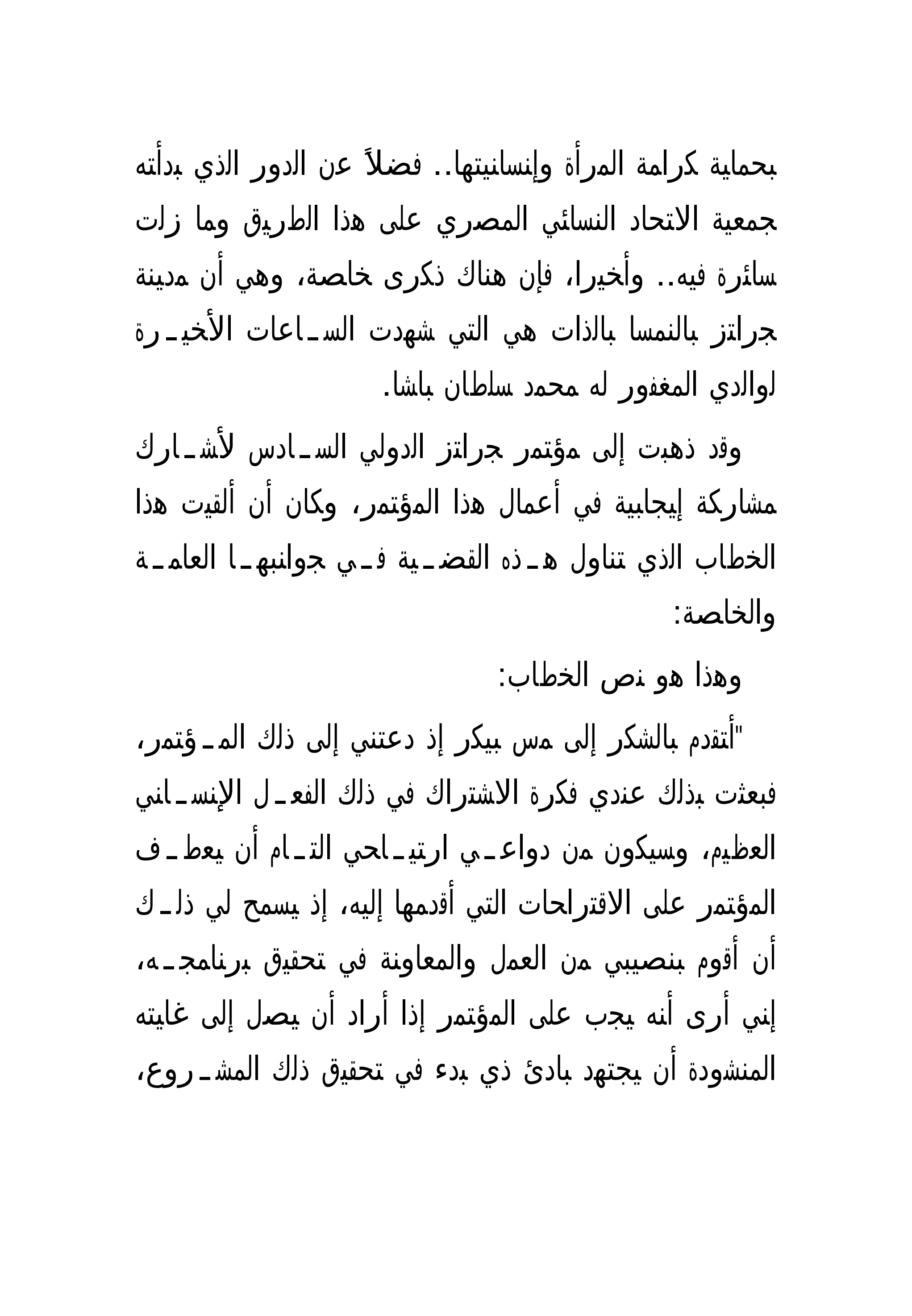
هدى شعراوي



-٢٧-

في شهر سبتمبر ١٩٢٤ تلقيت دعوة لحضـور مـؤتمر جراتز الدولي لمناقشة قضية إنسانية حيوية، وهـي مشـكلة الاتجار بالنساء والأطفال، وقد انعقد هذا المؤتمر لمدة ثلاثـة أيام في الفترة ما بين يوم الخميس ١٨ سبتمبر إلى يوم السبت ٢٠ سبتمبر، وما زلت أحتفظ ببطاقة عضوية هذا المـؤتمر التي تحمل اسم "مدام شعراوي باشا" ورقم ١٤٢.

وقد حرصت على المشاركة في هذا المؤتمر الدولي لعديد من الأسباب في مقدمتها؛ إننا منذ ذهبنا إلى مـؤتمر رومـا الدولي وأنا حريصة على التعبير عن المرأة المصـرية فـي المؤتمرات الدولية التي تناقش القضايا الإنسانية والاجتماعية وأوضاع المرأة، كذلك فإن قضية الاتجار بالنساء والأطفـال من القضايا الحيوية، وكان قد سبق لنا أن قدمنا مذكرة إلـى رئيس الوزراء يحيى باشا إبراهيم بشأن أوضاع مماثلة تتعلق

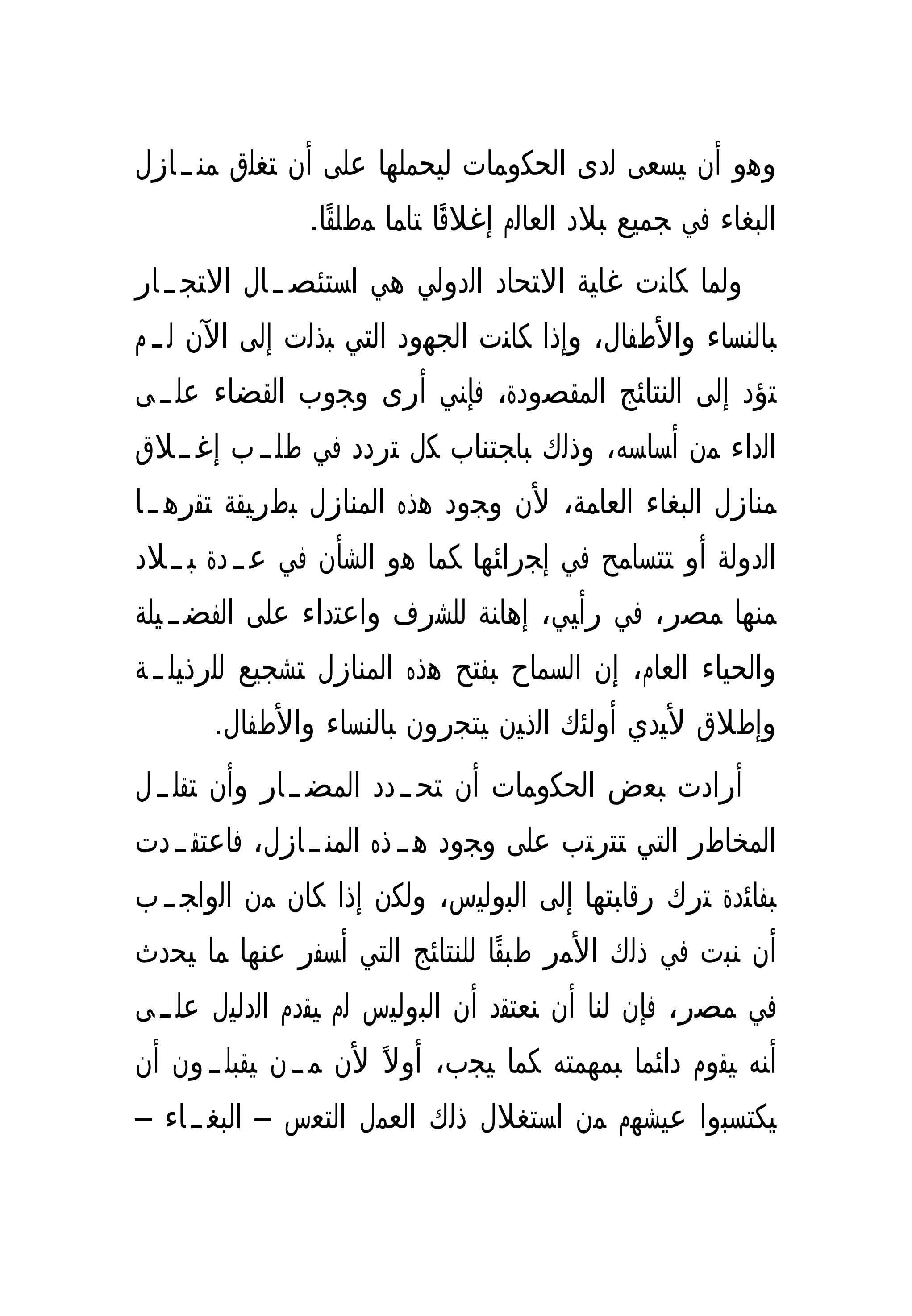


بحماية كرامة المرأة وإنسانيتها.. فضلاً عن الدور الذي بدأته جمعية الاتحاد النسائي المصري على هذا الطريق وما زلت سائرة فيه.. وأخيرا، فإن هناك ذكرى خاصة، وهي أن مدينة جراتز بالنمسا بالذات هي التي شهدت الساعات الأخيرة لوالدي المغفور له محمد سلطان باشا.

وقد ذهبت إلى مؤتمر جراتز الدولي السادس لأشارك مشاركة إيجابية في أعمال هذا المؤتمر، وكان أن ألقيت هذا الخطاب الذي تناول هذه القضية في جوانبها العامة والخاصة:

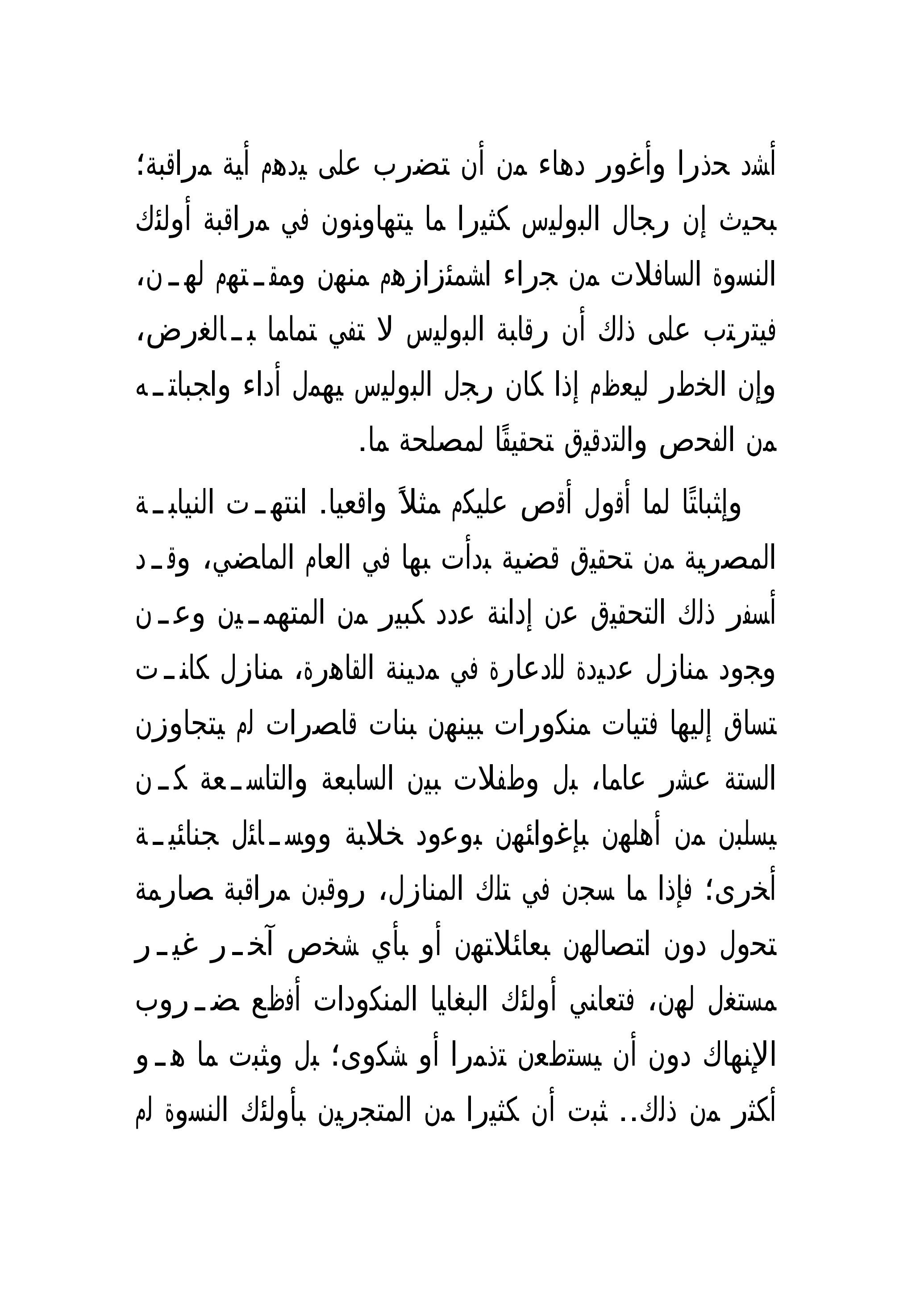
وهذا هو نص الخطاب:

"أتقدم بالشكر إلى مس بيكر إذ دعتني إلى ذلك المؤتمر، فبعثت بذلك عندي فكرة الاشتراك في ذلك الفعل الإنساني العظيم، وسيكون من دواعي ارتياحي التام أن يعطف المؤتمر على الاقتراحات التي أقدمها إليه، إذ يسمح لي ذلك أن أقوم بنصيبي من العمل والمعاونة في تحقيق برنامجه، إني أرى أنه يجب على المؤتمر إذا أراد أن يصل إلى غايته المنشودة أن يجتهد بادئ ذي بدء في تحقيق ذلك المشروع،


وهو أن يسعى لدى الحكومات ليحملها على أن تغلق منـازل البغاء في جميع بلاد العالم إغلاقًا تاما مطلقًا.

ولما كانت غاية الاتحاد الدولي هي استئصـال الاتجـار بالنساء والأطفال، وإذا كانت الجهود التي بذلت إلى الآن لـم تؤد إلى النتائج المقصودة، فإني أرى وجوب القضاء علـى الداء من أساسه، وذلك باجتناب كل تردد في طلـب إغـلاق منازل البغاء العامة، لأن وجود هذه المنازل بطريقة تقرهـا الدولة أو تتسامح في إجرائها كما هو الشأن في عـدة بـلاد منها مصر، في رأيي، إهانة للشرف واعتداء على الفضـيلة والحياء العام، إن السماح بفتح هذه المنازل تشجيع للرذيلـة وإطلاق لأيدي أولئك الذين يتجرون بالنساء والأطفال.

أرادت بعض الحكومات أن تحـدد المضـار وأن تقلـل المخاطر التي تترتب على وجود هـذه المنـازل، فاعتقـدت بفائدة ترك رقابتها إلى البوليس، ولكن إذا كان من الواجـب أن نبت في ذلك الأمر طبقًا للنتائج التي أسفر عنها ما يحدث في مصر، فإن لنا أن نعتقد أن البوليس لم يقدم الدليل علـى أنه يقوم دائما بمهمته كما يجب، أولاً لأن مـن يقبلـون أن يكتسبوا عيشهم من استغلال ذلك العمل التعس – البغـاء –


أشد حذرا وأغور دهاء من أن تضرب على يدهم أية مراقبة؛ بحيث إن رجال البوليس كثيرا ما يتهاونون في مراقبة أولئك النسوة السافلات من جراء اشمئزازهم منهن ومقـتهم لهـن، فيترتب على ذلك أن رقابة البوليس لا تفي تماما بـالغرض، وإن الخطر ليعظم إذا كان رجل البوليس يهمل أداء واجباتـه من الفحص والتدقيق تحقيقًا لمصلحة ما.

وإثباتًا لما أقول أقص عليكم مثلاً واقعيا. انتهـت النيابـة المصرية من تحقيق قضية بدأت بها في العام الماضي، وقـد أسفر ذلك التحقيق عن إدانة عدد كبير من المتهمـين وعـن وجود منازل عديدة للدعارة في مدينة القاهرة، منازل كانـت تساق إليها فتيات منكورات بينهن بنات قاصرات لم يتجاوزن الستة عشر عاما، بل وطفلات بين السابعة والتاسـعة كـن يسلبن من أهلهن بإغوائهن بوعود خلابة ووسـائل جنائيـة أخرى؛ فإذا ما سجن في تلك المنازل، روقبن مراقبة صارمة تحول دون اتصالهن بعائلاتهن أو بأي شخص آخـر غيـر مستغل لهن، فتعاني أولئك البغايا المنكودات أفظع ضـروب الإنهاك دون أن يستطعن تذمرا أو شكوى؛ بل وثبت ما هـو أكثر من ذلك.. ثبت أن كثيرا من المتجرين بأولئك النسوة لم

يكونوا يقنعون بالاتجار بهن في منازلهم؛ بل كانوا يبيعونهن أيضا إلى أقرانهم في المنازل الأخرى بثمن من المال كأنهن سلعة يجوز الاتجار فيها أو تعتبر مصدرا للكسب، وذلك دون أن يصيب الفريسة نصيب من الغنم، وثبت أيضا أن كثيـرا من أولئك الفتيات كن يقضين نحبهن بسبب الأمراض الفتاكة وإهمال وسائل الصحة والعـلاج، وأن الأطبـاء المكلفـين بالعناية بهن يغفلون أداء مهمتهم كما يجب؛ وذلـك للسـبب نفسه الذي أبديته عند كلامي عن البوليس.

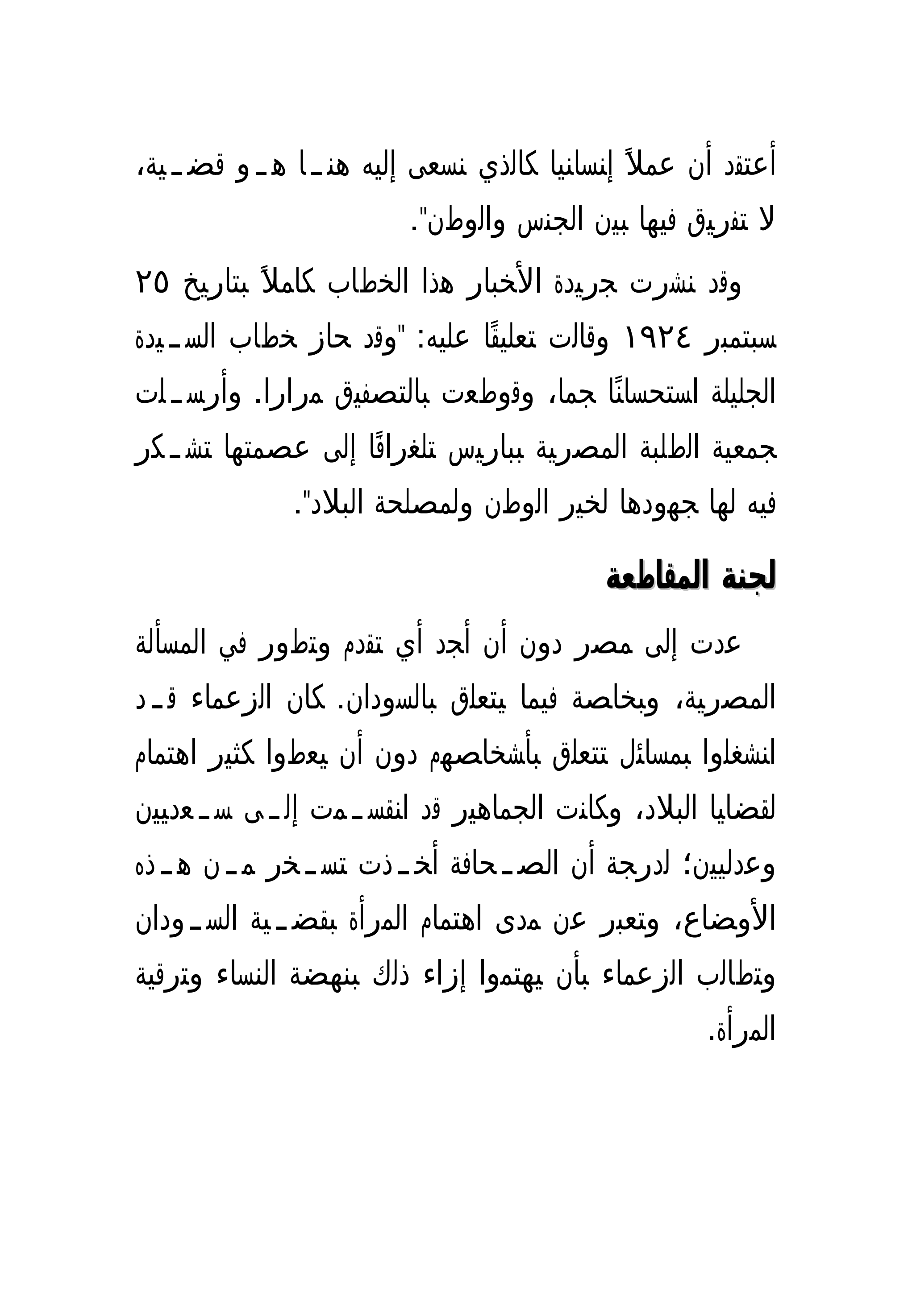
وكان من نكد الطالع أن أسفر التحقيق في هـذه القضـية أيضا عن أن عددا من ضـباط البـوليس، معظمهـم مـن الأوروبيين، كانوا يمالئون أصحاب هـذه المنـازل بإهمـال مراقبتها المطلوبة إهمالاً مقصودا، مما أدى إلى استكشـاف عدد عديد من الرخص سلم إلى بنـات دون العاشـرة، وإذ كانت هذه الرخص خلوا من صور حاملاتها خلافًا لما تقضي به اللوائح، فقد كانت تتداول من يد إلى أخرى دون أية رقابة أو مسئولية.

وقد ثبت أيضا أن معظم هذه المنازل السافلة تزاول تلـك الأعمال الشائنة منذ أكثر من عشرين سـنة تحـت بصـر البوليس وسمعه.

وفي الختام لا يسـعني إلا أن أبـدي شـكري للحكومـة المصرية الحاضرة لأنها اهتمت بتلك القضية، ولـم تـدخر وسعا في محاكمة المتهمين الأصليين وإحالة الضباط الـذين اشتركوا في تلك الفظائع وأهملوا في تطبيق القـانون عمـدا على مجالس التأديب، إذ كان تصرفهم سببا في ذيوع الدعارة في عاصمة الديار المصرية إلى درجة سريعة. لست أستطيع أن أتصور كيف أن الحكومات التي عهد إليها بالسهر علـى الأمن العام والأخلاق العامة؛ تسمح بوجـود هـذه المنـازل العامة، في حين أن الأزمة الحاضرة التي نجتازها عقب فقد الملايين الكثيرة من الفتيان الذين سقطوا في ميدان الشـرف أثناء الحرب الكبرى، تتطلب التشجيع على الزواج؛ لتكثيـر عدد السكان الذي تحول دون كثرته هذه المنازل، وإنا لنرجو أن تحتذي حكومات العالم كله ببريطانيا العظمـة وسويسـرا فتحظر وجود هذه المنازل.

وإني لأرجو المؤتمر أن يتنـاول تلـك المسـألة بعـين الاعتبار، وأن يضعها في مقدمة المسائل، وأن يسعى السعي اللازم لدى الحكومات ليفوز بمحو تلك البؤر الخبيثة. أما في مصر فإن وجود الامتيازات الأجنبيـة يحـول دون تشـريع يقضي بمحو هذه المنازل إذا كان أصحابها مـن الأجانـب، ولذلك فإني أطلب إلى المؤتمر أن يتدخل لـدى الحكومـات صاحبات الامتياز وأن يطلب إلى الدول أن تسمح للحكومـة المصرية بأن تغلق هذه المنازل.

وإني أختم كلمتي بأن أرجو المـؤتمر أن يغضـي عـن صراحتي فيما لاحظت إذ كنت أكثر مما يجب، فإني معتمدة على الاعتقاد الجازم والنزاهة الصـادقة اللتـين تخالجـان المؤتمر للسعي إلى غايته. لم أتردد فـي أن أصـرح فيمـا صرحت، ولو أني الشرقية الوحيدة التي حظيت بالمثول فـي تلك الجمعية الموقرة، فأنا مصرية ومن بلد تحميها حضارتها وتدفعها عواطفها الإنسانية الجمة الفياضة دائما إلى أن تعني بالصالح العام قبل صالحها الخاص. ولكم في ذلك المثل قناة السويس التي هي اليوم بالنسبة لمصر مصدر للشـقاء. إنـي



أعتقد أن عملاً إنسانيا كالذي نسعى إليه هنا هو قضية، لا تفريق فيها بين الجنس والوطن".

وقد نشرت جريدة الأخبار هذا الخطاب كاملاً بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ وقالت تعليقًا عليه: "وقد حاز خطاب السيدة الجليلة استحسانًا جما، وقوطعت بالتصفيق مرارا. وأرسلت جمعية الطلبة المصرية بباريس تلغرافًا إلى عصمتها تشكر فيه لها جهودها لخير الوطن ولمصلحة البلاد".

لجنة المقاطعة

عدت إلى مصر دون أن أجد أي تقدم وتطور في المسألة المصرية، وبخاصة فيما يتعلق بالسودان. كان الزعماء قد انشغلوا بمسائل تتعلق بأشخاصهم دون أن يعطوا كثير اهتمام لقضايا البلاد، وكانت الجماهير قد انقسمت إلى سعديين وعدليين؛ لدرجة أن الصحافة أخذت تسخر من هذه الأوضاع، وتعبر عن مدى اهتمام المرأة بقضية السودان وتطالب الزعماء بأن يهتموا إزاء ذلك بنهضة النساء وترقية المرأة.

وقد دعوت النساء المصريات إلى اجتماع في منزلي يوم الخميس ٣٠ أكتوبر ١٩٢٤. وقررنا في هذا الاجتماع ما يلي:

١- الاحتجاج على الحكومة الإنجليزية بشأن تصرفها الأخير في المسألة المصرية وبالأخص مسألة السودان، وأن يبلغ هذا الاحتجاج إلى الحكومتين المصرية والإنجليزية.

٢- المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزي داخل مصر وخارجها، ومطالبة الحكومة المصرية بمشاركة الشعب في هذه المقاطعة، ويكون ذلك:

(أ) سحب الودائع والأموال التي لها في البنك الأهلي.

(ب) سحب مكتب الحكومة المعين في إنجلترا لمباشرة مشترواتها وإلحاقه أو نقله لمملكة أخرى.

(ج) منع سفر العمال المصريين إلى السودان واستدعاء الموجود منهم في عمل الخزانات هناك، ومن كان منهم مرتبطًا بعقد لمدة معينة

فيؤمر بالعودة عند انتهاء تلـك المـدة لكـيلا تساعد مصر بأيدي أبنائها على إقامـة تلـك الخزانات التي في إتمامها خطر على مصـالح مصر.

٣- طلب الإفراج عن جميع المقبوض عليهم في السـودان بسبب الحوادث السياسية الأخيرة التي لا يعاقب عليهـا قانون العقوبات المصري والعمل علـى عـدم تنفيـذ الأحكام الصادرة عليهم.

٤- فتح كلية الخرطوم وإعادة التدريس فيها.

٥- أن تطالب حكومة مصر بحقها في إدارة السودان حتى يتم لها الاختصاص بالسلطة بكـل الوسـائل، والأمـة مستعدة لتأييدها فيها.

٦- طلب رفع الراية المصرية الحالية على جميع محـلات الحكومة عسكرية كانت أو ملكية في جميع مـديريات السودان.

٧- تشكيل لجنة من السيدات تسمى لجنة المقاطعة، وكذلك تشكيل لجنة أخرى من الرجال تعمل كلتاهمـا لتنفيـذ قرارات هذه الجمعية.

تحيتي للجنس اللطيف

وحتى تبدو أبعاد الصورة واضحة في ذلك الوقت، فـإنني أسجل هنا تلك التحية التي وجهها الأستاذ فكري أباظة إلـى الجنس اللطيف في شخصي وقد نشرت في جريدة "السياسة" في نوفمبر ١٩٢٤.

يقول الأستاذ فكري أباظة:

"سيدتي هدى شعراوي"

"أحييك ثم أهنئك: أما "التحية" فلجمالك الوطني، وجلالـك القومي، وأما "التهنئة" فلأن "دولة الرجال" في عـالم الجهـاد قد دالت وقامت على أنقاضها "دولة النساء".

كنت خصما "للجنس اللطيف" لما كان الجـنس اللطيـف لا يفكر إلا في الأزياء الجديدة والألوان العددية، وأما اليـوم وقد تظاهر للسودان قبل أن يتظاهر الرجال، وأما اليوم وقـد احتج على بلاغ السودان قبل أن يحتج الرجال، وأما اليـوم وقد استأنف الجهاد بعد الفشل، والرجال غرقى فـي بحـار الفشل.. فقد حق علي أن أعتذر، وقد حق علي أن أسـتغفر وأن أتوب.

سيدتي..

كان الجنس اللطيف فيما مضى مختصا بتدبير المنزل في الداخل، وكان علينا نحن الرجال تدبير الأمر في الخارج. أما اليوم يا سيدتي فسنعكس الموقف.

اهتمي أنت وجنسك اللطيف بالسودان وبـلاغ السـودان وتصريحات ماكدونالد عن السـودان وتحقيقـات السـودان ومحاكمات السودان ومظالم السـودان وسـجون السـودان، اتركي لنا – نحن الرجال- "تدبير المنزل"، فعلينا "الغسـيل" و"العجين" و "ترضيع الأطفال" و "مسح السلالم" و "توضـيب الأولاد" و "تخزين السمن". وعلى العمـوم سـندير المنـزل ونحن جلوس "على الشلت" حتى إذا عاد الجنس اللطيف مـن جهاده مع العدو الغاصب، قابلناه "بالزغاريد" ووجد كل شيء على أحسن حال؟!

سيدتي هدى..

لا وا ما قصرنا.. وإنما نحن هذه الأيـام مشـغولون، عندنا أمام محكمـة الجنايـات قضـايا الـواء والسياسـة والكشكول، وعندنا في دوائر الحكومات تعيينـات وترقيـات لأولادنا وأحبابنا وأبنائنا، وتشـفيات وانتقامـات ورفتيـات وإحالات لأعدائنا وأشباه أعدائنا، وعندنا "النـادي السـعدي"

نسع في إعداده وتأثيثه قبل انعقاد البرلمان. والنادي السعدي مشغولية كبيرة: فأودة الاستقبال القطيفة المشجرة لا نجد للآن لها "بساطًا" أو "سجادة عجمي" توافقها، وأودة "اللعب" لا يزال عليها نزال ونضال.. وأودة السكرتارية ينقصها ضرب الحيطان بالزيت.. والبوفيه لم ترد إليه الأصناف بعد من "اسكتلندا" و "ملقا" و "ألمانيا".. ألسنا معذورين إذا تأخرنا قليلاً في مسألة السودان وبلاغ السودان و "بلادي" السودان!!

سيدتي هدى.

فتح "الوفد" باب الاكتتاب لضحايا السودان من نصف عام، فجمع حتى الآن مئة جنيه وكسورا، وفتح في الوقت نفسه باب الاكتتاب "لنادي سعد" فجمع في "لحظة" لنادي سعد ثمانية عشر ألفًا من الجنيهات، ولو عملنا النسبة الحسابية لكانت النتيجة ما يأتي:

نادي سعد ١٨٠٠ جنيه

السودان ١٠٠ جنيه

إذن النادي أهم من السودان ١٨٠ مرة؟!!

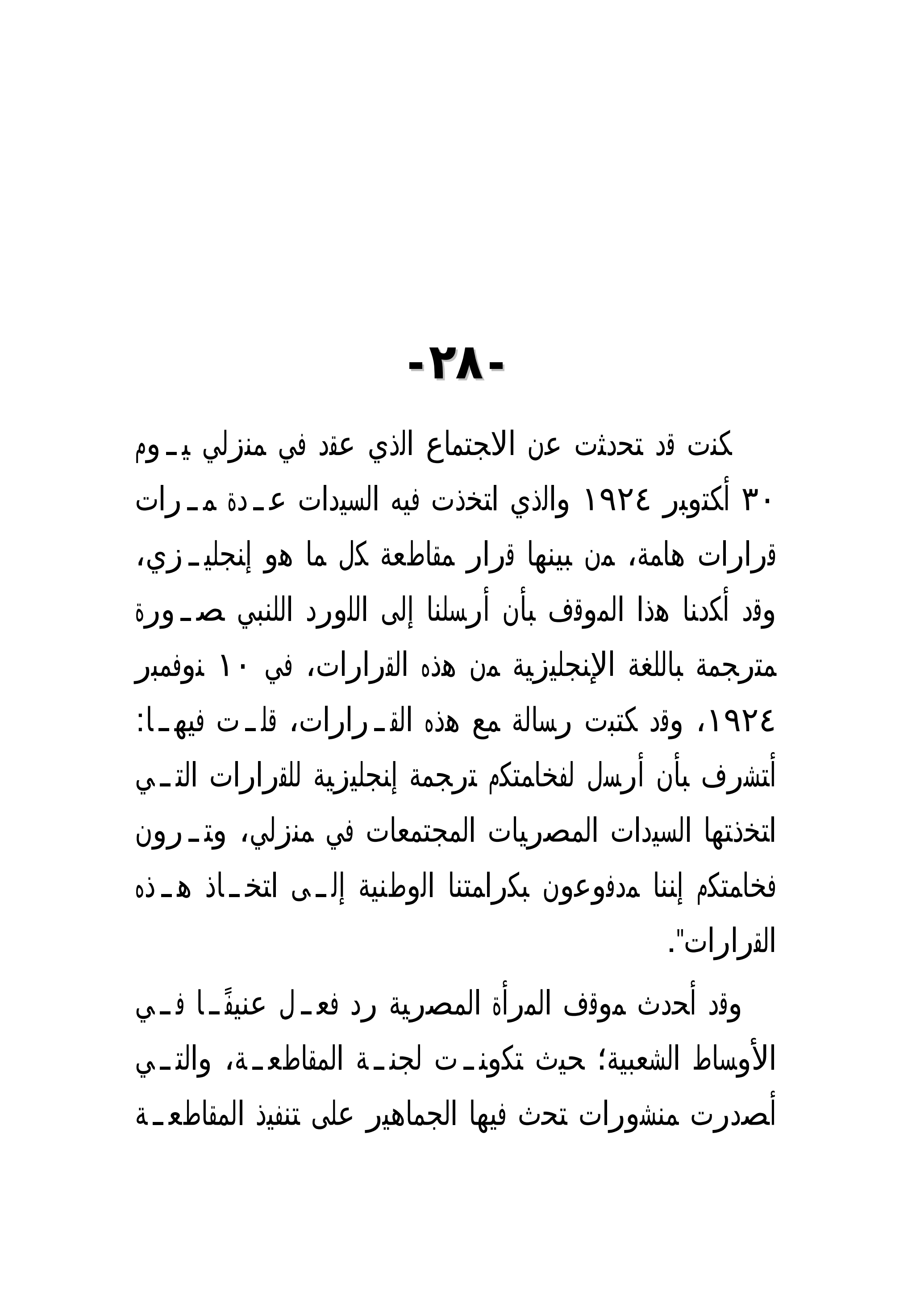
إذن لن يهتم الوفد بالسودان حتى "ينتهي" نادي سعد!

وعندما "ينتهي" نادي سعد، يكون السودان قد انتهى..

سيدتي هدى..

أحييك ثم أهنئك.. أما "التحية" فلجمالك الوطني، وجلالـك القومي.. أما "التهنئة" فلأن "دولة الرجال" في عـالم الجهـاد قد دالت.. وقامت على أنقاضها "دولة النساء"!!

فكري أباظة المحامي



-٢٨-

كنت قد تحدثت عن الاجتماع الذي عقد في منزلي يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٢٤ والذي اتخذت فيه السيدات عدة مرات قرارات هامة، من بينها قرار مقاطعة كل ما هو إنجليزي، وقد أكدنا هذا الموقف بأن أرسلنا إلى اللورد اللنبي صورة مترجمة باللغة الإنجليزية من هذه القرارات، في ١٠ نوفمبر ١٩٢٤، وقد كتبت رسالة مع هذه القرارات، قلت فيها: أتشرف بأن أرسل لفخامتكم ترجمة إنجليزية للقرارات التي اتخذتها السيدات المصريات المجتمعات في منزلي، وترون فخامتكم إننا مدفوعون بكرامتنا الوطنية إلى اتخاذ هذه القرارات".

وقد أحدث موقف المرأة المصرية رد فعل عنيفًا في الأوساط الشعبية؛ حيث تكونت لجنة المقاطعة، والتي أصدرت منشورات تحث فيها الجماهير على تنفيذ المقاطعة

والاقتداء بموقف المرأة المصرية، لتحقيق المقاطعة الكاملـة التي تعبر عن استياء الأمة وغضبها مـن موقـف إنجلتـرا بالنسبة للسودان.

وكان من بين ما جاء في نداء لجنة المقاطعة ما يلي:

"ها هو فريق من بنـات الـوطن قـام يرفـع صـوته بالاحتجاج على تصرفات إنجلترا الضـارة بحقـوق الأمـة والماسة بكرامتها.

فاجتمعت طائفة كبيرة منهن تربطها بكم صلة الوطن الذي مست كرامته، وقررت مقاطعة التجارة والصناعة الإنجليزية إعلانًا لاستياء الأمة وغضبها.

وها قد شكلت لجنة منهن لتنفيذ ما أقرته جمعيتهن، وهـي عاملة على اختيار لجنة من الرجال للتعاون بأفكاره ونفوذها على تعميم هذه المقاطعة بقدر المستطاع، ولا شـك فـي أن السيدات اللاتي اعتزمن القيام بهذا الواجب لم يقـدمن عليـه إلا وهن معتمدات على أن هذا النداء يصادف مـن نفوسـكم قبولاً، ومن وطنيتكم تشجيعا.

أبناء مصر، ها أنتم أولاء قرأتم الكتاب الأبيض الإنجليزي ينعي إليكم فصل السودان عن مصر، ويقر لكم حكم الإعدام عليكم بهذا الفصل.

وها أنتم علمتم ما أصاب إخوانكم بالسودان من السجن والإرهاب والطرد، لا لذنب جنوه سوى إظهار شعورهم نحو مصر والتمسك بها.

وما أنتم إزاء هذه التصرفات إلا بين أمرين: فإما أن تستسلموا لحياة تعسة وذل أبدي، وإما أن تبرهنوا على إبائكم وأنفتكم.

ليس لكم سلاح تشهرون، ولا أسطول تخوضون به غمار البحار، ليس لكم حول ولا قوة أمام حولهم وقوتهم، ولكن لكم سلاح أمضى ومدفع أبعد مدى، ذلك هو الإضراب عن معونة الإنجليز في جميع الأعمال الاقتصادية والتجارية والصناعية، فلا تشتروا بضائعهم، ولا تستأجروا مزارعهم، ولا تؤجروهم منازلكم، ولا تودعوا نقودا في مصارفهم، وطنوا أنفسكم على ذلك غيرة على حياتكم وشرفكم.

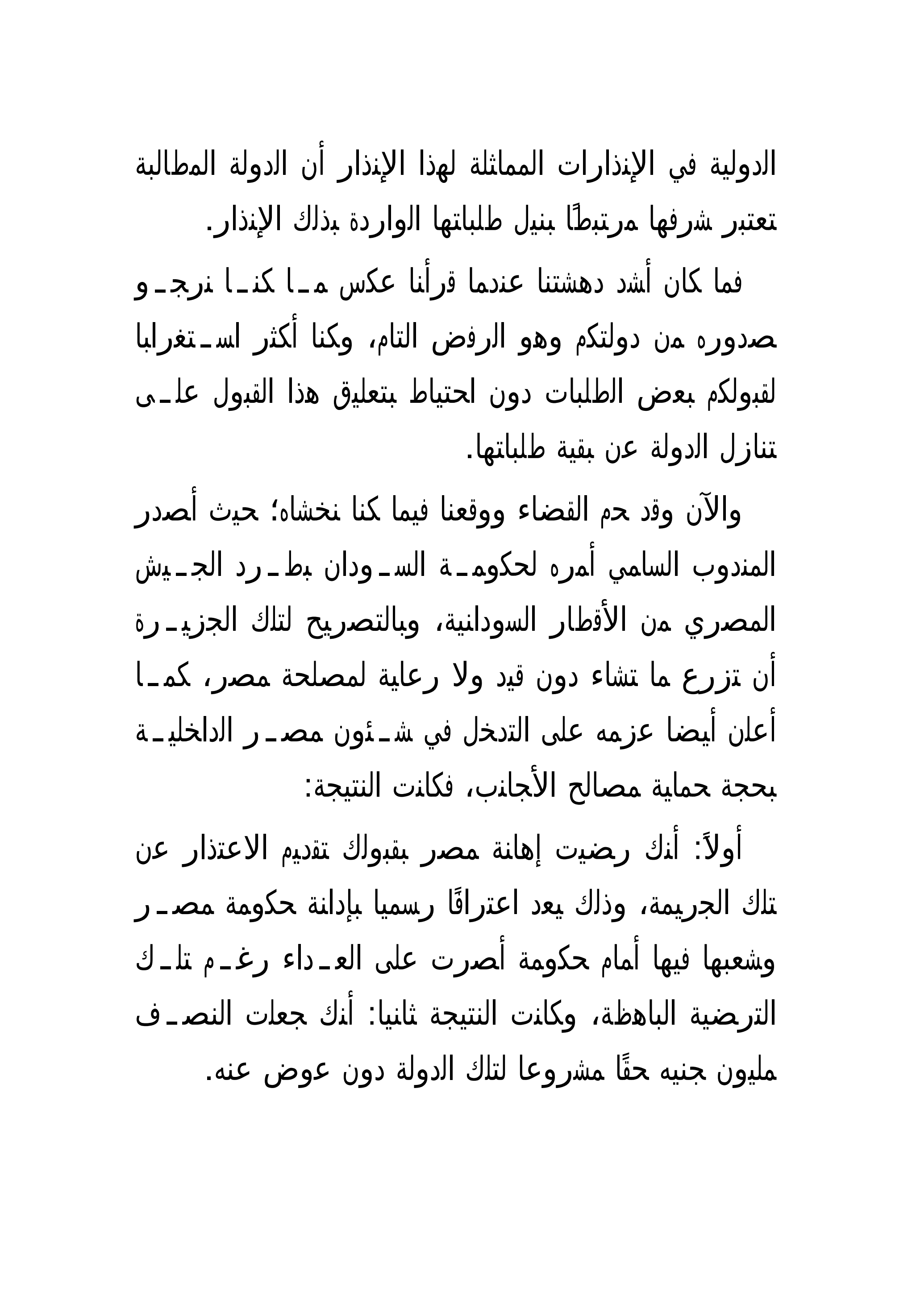
إنهم يريدون التحكم في مواردنا، ومنهل إسعادنا وإن شعبنا يريد بكم ذلك احتقارا لشأنكم، لخليق بأن تقطعوا كل صلة معاملة بينكم وبينه".

نداء الأمة

كنت قد أرسلت برقية إلى سعد باشا زغلول بشأن موقف الحكومة المصرية من قضية اغتيال السير لي ستاك، وكانت الصحف قد نشرت نص هذه البرقية تحت عنوان "نصيحة رشيدة لم يأخذ بها سعد باشا"؛ حيث طلبت إليه فيها أن يرفض كل طلبات إنجلترا.

وفي يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤، وجهت كتابا مفتوحا، لصاحب الدولة سعد زغلول باشا، وقد نشرته الصحف أيضا، وهذا هو نص الكتاب المفتوح:

"قبل أن نطلع على ردكم لطلبات إنجلترا التي وجهتها للحكومة المصرية لمناسبة الاعتداء على حياة السير لي ستاك باشا، بادرت عن لجنة المقاطعة بإرسال تلغراف لدولتكم بما رأته اللجنة أقرب لمصلحة مصر، وهو أن تجيبوا على تلك الطلبات برفضها جميعا، لأن ما هو معروف عن التقاليد



الدولية في الإنذارات المماثلة لهذا الإنذار أن الدولة المطالبة تعتبر شرفها مرتبطًا بنيل طلباتها الواردة بذلك الإنذار.

فما كان أشد دهشتنا عندما قرأنا عكس ما كنا نرجو صدوره من دولتكم وهو الرفض التام، وكنا أكثر استغرابا لقبولكم بعض الطلبات دون احتياط بتعليق هذا القبول على تنازل الدولة عن بقية طلباتها.

والآن وقد حم القضاء ووقعنا فيما كنا نخشاه؛ حيث أصدر المندوب السامي أمره لحكومة السودان بطرد الجيش المصري من الأقطار السودانية، وبالتصريح لتلك الجزيرة أن تزرع ما تشاء دون قيد ولا رعاية لمصلحة مصر، كما أعلن أيضا عزمه على التدخل في شئون مصر الداخلية بحجة حماية مصالح الأجانب، فكانت النتيجة:

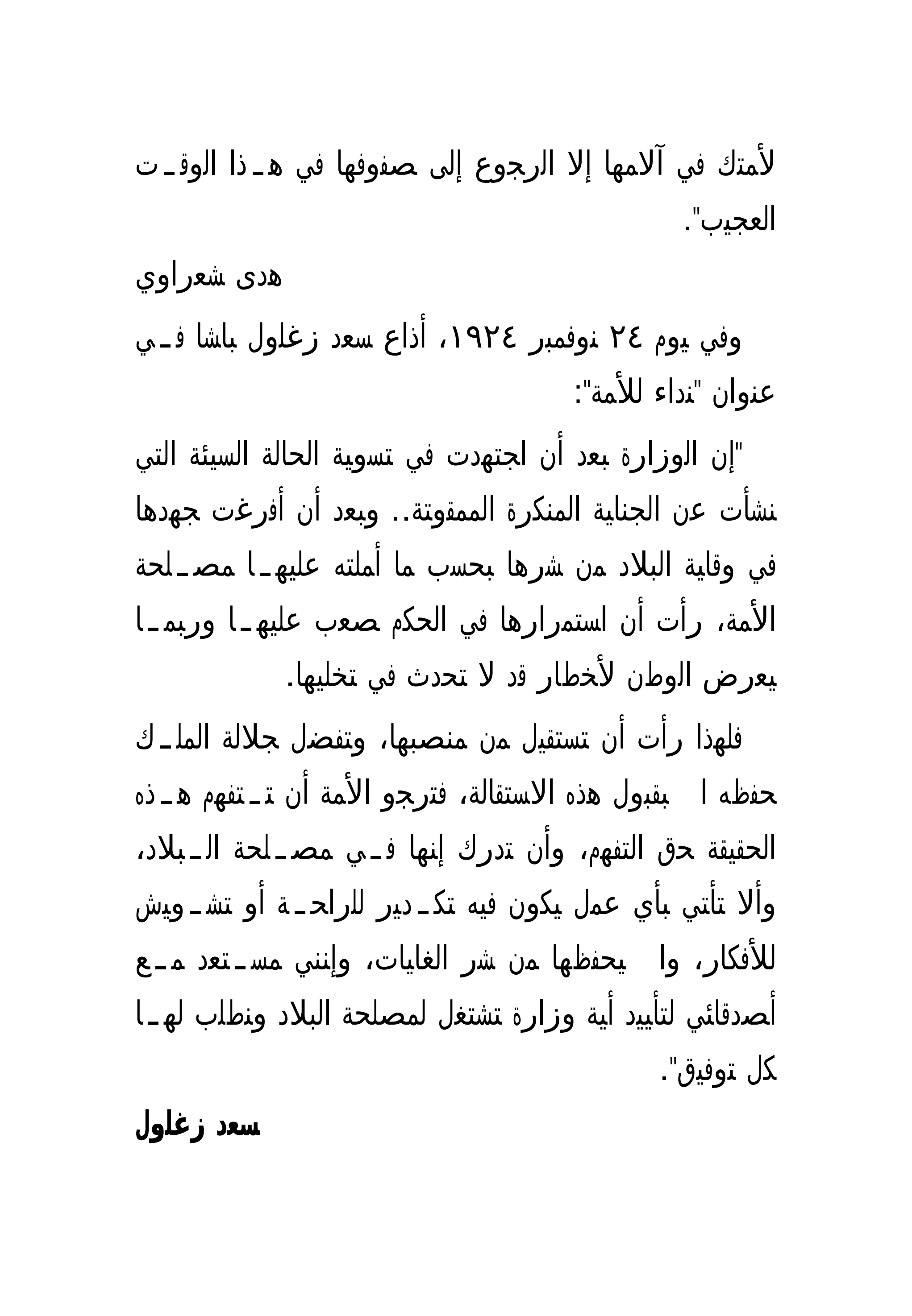
أولاً: أنك رضيت إهانة مصر بقبولك تقديم الاعتذار عن تلك الجريمة، وذلك يعد اعترافًا رسميا بإدانة حكومة مصر وشعبها فيها أمام حكومة أصرت على العداء رغم تلك الترضية الباهظة، وكانت النتيجة ثانيا: أنك جعلت النصف مليون جنيه حقًا مشروعا لتلك الدولة دون عوض عنه.

وكانت النتيجة ثالثًا: أنك حرمت على الشعب إظهار شعوره بالمظاهر العلنية مهما كانت سليمة، مخالفًا في ذلك الدستور، ولم تق البلاد من خطر تنفيذ ما بقي من الطلبات التي رفضتها بعدم احتياطك.

يا دولة الرئيس..

تمسكت بك البلاد، وعهدت إليك بالحكم رجاء أن تفي بما وعدتها من تحقيق استقلالها التام في مصر والسودان، وها أنت ترى أنه كلما طال العهد على ولايتك الحكم، بعدت الأمة عن نيل هذه المطالب، وها أنت ترى أن ختامها اليوم، ما وقع من فصل السودان وطرد المصريين منه وتدخل الإنجليز في شئون مصر الداخلية نفسها.

لذلك ألتمس منك ما دمت لم توفق وأنت في الحكم بتحقيق عهدك بعمل إيجابي، ألا تكون على الأقل حجرة عثرة في سبيل جهاد أمتك للتخلص من الحالة الحرجة التي وصلت إليها (لا أقول بسبب سياستك بل يكفي أن أقول أثناء حكمك)، وذلك بعمل سلبي هو التخلي عن الحكم، فلم يبق سبيل لإظهار استيائك واحتجاجك على هذه التعديات ومشاركتك



لأمتك في آلامها إلا الرجوع إلى صفوفها في هذا الوقت العجيب".

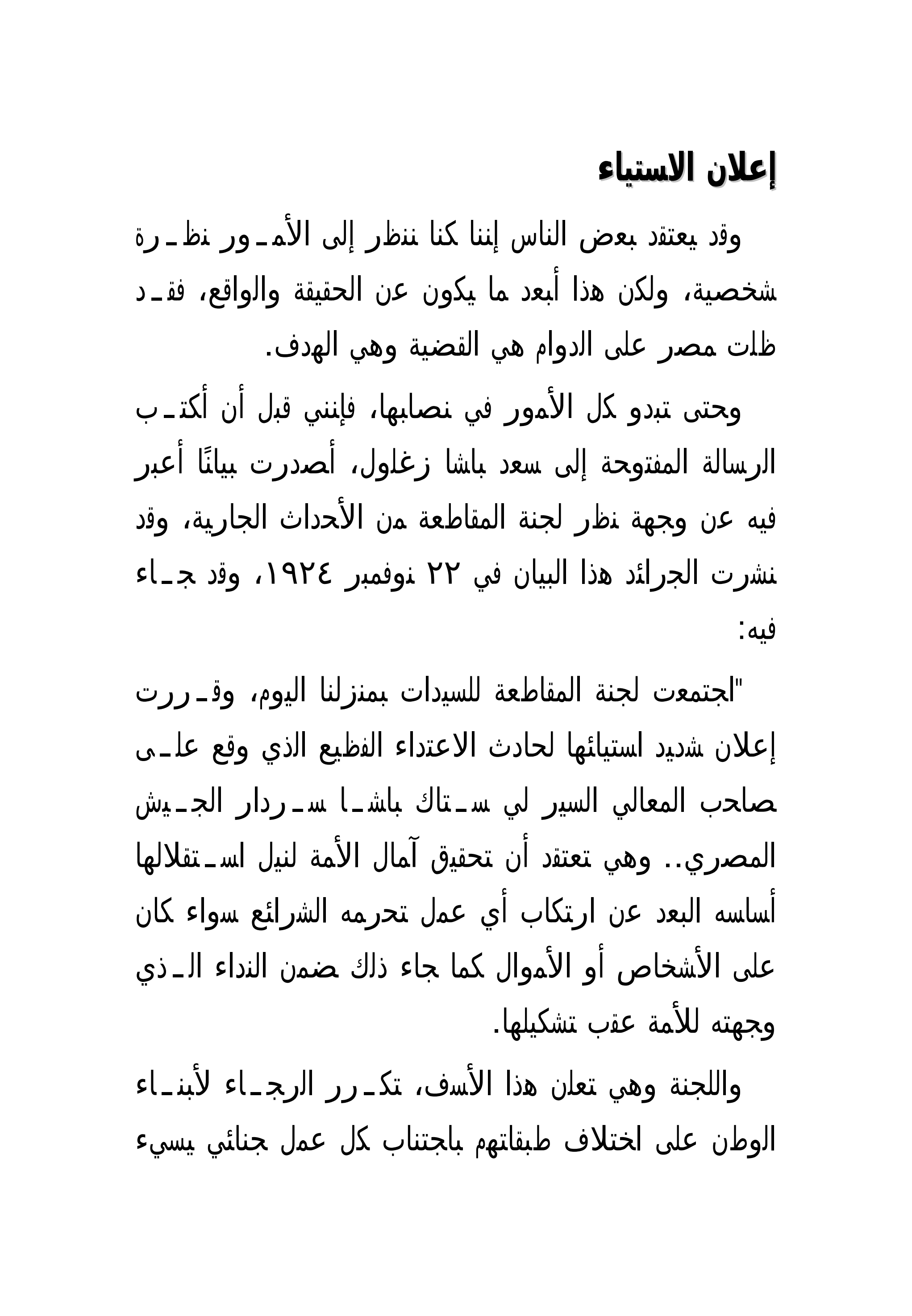
هدى شعراوي

وفي يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، أذاع سعد زغلول باشا في عنوان "نداء للأمة":

"إن الوزارة بعد أن اجتهدت في تسوية الحالة السيئة التي نشأت عن الجناية المنكرة الممقوتة.. وبعد أن أفرغت جهدها في وقاية البلاد من شرها بحسب ما أملته عليها مصلحة الأمة، رأت أن استمرارها في الحكم صعب عليها وربما يعرض الوطن لأخطار قد لا تحدث في تخليها.

فلهذا رأت أن تستقيل من منصبها، وتفضل جلالة الملك حفظه ا بقبول هذه الاستقالة، فترجو الأمة أن تتفهم هذه الحقيقة حق التفهم، وأن تدرك إنها في مصلحة البلاد، وألا تأتي بأي عمل يكون فيه تكدير للراحة أو تشويش للأفكار، وا يحفظها من شر الغايات، وإنني مستعد مع أصدقائي لتأييد أية وزارة تشتغل لمصلحة البلاد ونطلب لها كل توفيق".

سعد زغلول



إعلان الاستياء

وقد يعتقد بعض الناس إننا كنا ننظر إلى الأمـور نظـرة شخصية، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع، فقـد ظلت مصر على الدوام هي القضية وهي الهدف.

وحتى تبدو كل الأمور في نصابها، فإنني قبل أن أكتـب الرسالة المفتوحة إلى سعد باشا زغلول، أصدرت بيانًا أعبر فيه عن وجهة نظر لجنة المقاطعة من الأحداث الجارية، وقد نشرت الجرائد هذا البيان في ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤، وقد جـاء فيه:

"اجتمعت لجنة المقاطعة للسيدات بمنزلنا اليوم، وقـررت إعلان شديد استيائها لحادث الاعتداء الفظيع الذي وقع علـى صاحب المعالي السير لي سـتاك باشـا سـردار الجـيش المصري.. وهي تعتقد أن تحقيق آمال الأمة لنيل اسـتقلالها أساسه البعد عن ارتكاب أي عمل تحرمه الشرائع سواء كان على الأشخاص أو الأموال كما جاء ذلك ضمن النداء الـذي وجهته للأمة عقب تشكيلها.

واللجنة وهي تعلن هذا الأسف، تكـرر الرجـاء لأبنـاء الوطن على اختلاف طبقاتهم باجتناب كل عمل جنائي يسيء

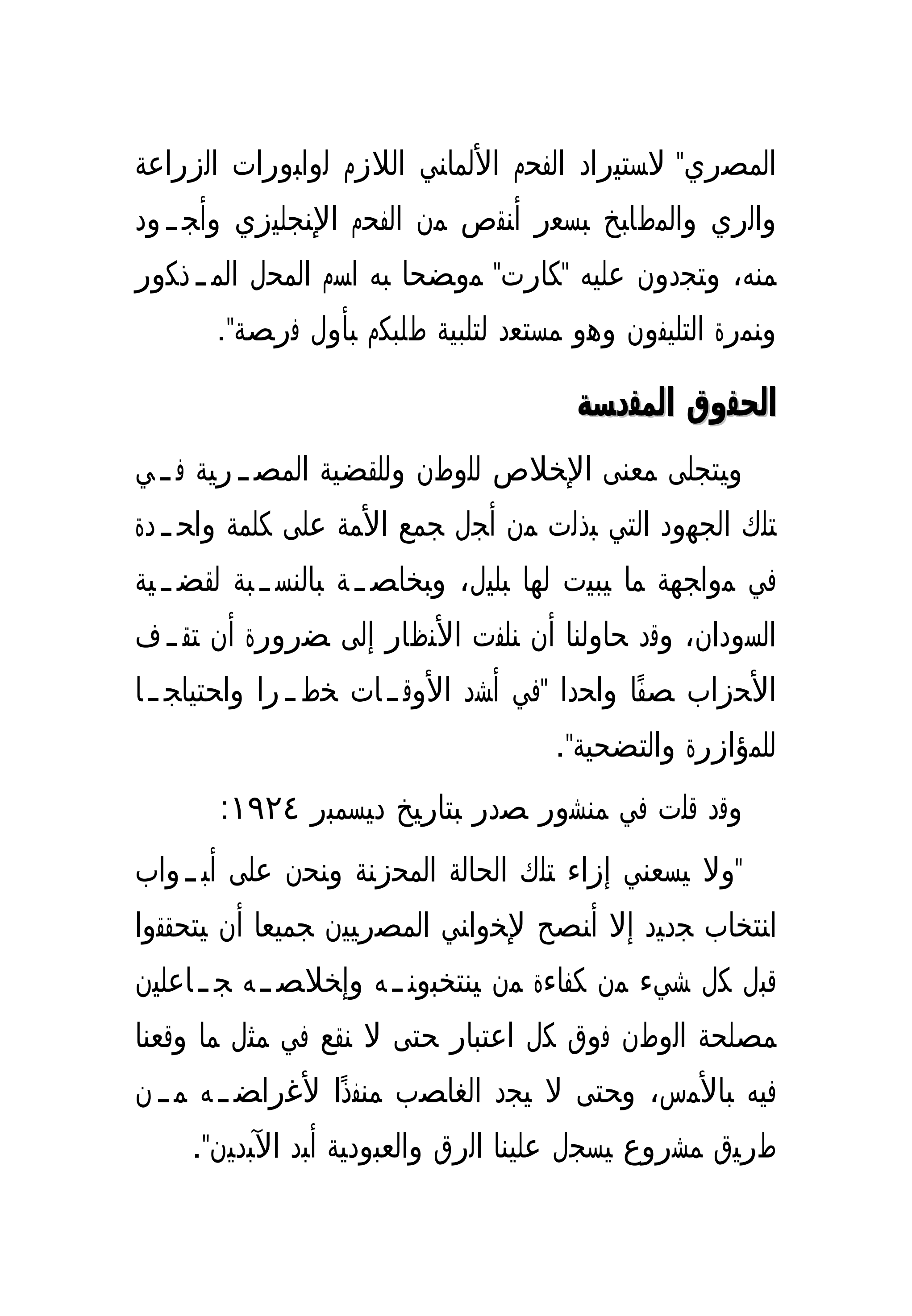
إلى سمعة مصر، ويكون من نتائجه الضرر علـى قضـيتها الكبرى، وهي في الوقت نفسه تأمل أن تسـاعدها الجرائـد الإنجليزية على تحقيق هذا الرجاء بتخفيف لهجتها عند الكلام على هذه الحادثة وعدم إلباسها ثوبا يشف عن غرض لا يتفق وما ترجوه مصر وإنجلترا من عدم زيادة الهوة ومن تقريب حسن التفاهم بين الشعبين".

الرئيسة: هدى شعراوي.

ومن ناحية أخرى، فقد اهتمت لجنة المقاطعة بأن تعطـي جهودها لخطوات إيجابية على هذا الطريق، واسـتطاعت أن تسهم في حل المشاكل التي كانت تعترض فكرة المقاطعـة، ومن ذلك المنشور الذي أصدرته في ١٩٢٤ بشـأن مشـكلة الفحم، والذي جاء فيه:

"اجتمعت لجنة المقاطعة يوم الجمعة ٢١ الجاري، وقررت لنجاح مشروعها أن تلجأ إلى وطنيتكم خدمة للقضية الكبرى راجية قبول دعوتها بمقاطعة المتاجر والمصانع الإنجليزية.

ولما كان صنف الفحم من الحاجات الضـرورية، وكـان يخشى صعوبة الحصول عليه من غير الإنجليز، فقد وفقـت اللجنة لمعاملة محل مصـري هـو "الكونتـوار التجـاري



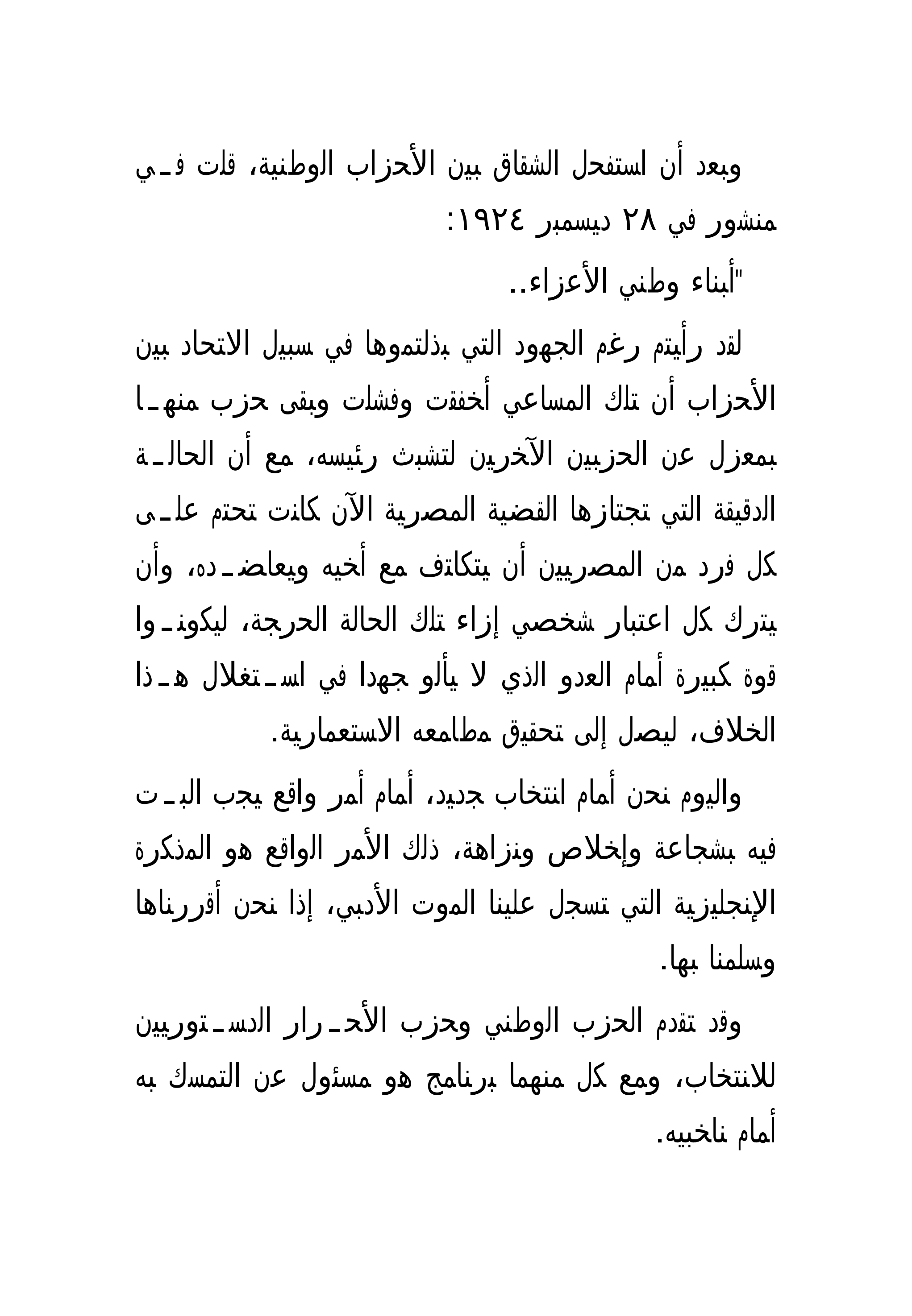
المصري" لاستيراد الفحم الألماني اللازم لوابورات الزراعة والري والمطابخ بسعر أنقص من الفحم الإنجليزي وأجـود منه، وتجدون عليه "كارت" موضحا به اسم المحل المـذكور ونمرة التليفون وهو مستعد لتلبية طلبكم بأول فرصة".

الحقوق المقدسة

ويتجلى معنى الإخلاص للوطن وللقضية المصـرية فـي تلك الجهود التي بذلت من أجل جمع الأمة على كلمة واحـدة في مواجهة ما يبيت لها بليل، وبخاصـة بالنسـبة لقضـية السودان، وقد حاولنا أن نلفت الأنظار إلى ضرورة أن تقـف الأحزاب صفًا واحدا "في أشد الأوقـات خطـرا واحتياجـا للمؤازرة والتضحية".

وقد قلت في منشور صدر بتاريخ ديسمبر ١٩٢٤:

"ولا يسعني إزاء تلك الحالة المحزنة ونحن على أبـواب انتخاب جديد إلا أنصح لإخواني المصريين جميعا أن يتحققوا قبل كل شيء من كفاءة من ينتخبونـه وإخلاصـه جـاعلين مصلحة الوطن فوق كل اعتبار حتى لا نقع في مثل ما وقعنا فيه بالأمس، وحتى لا يجد الغاصب منفذًا لأغراضـه مـن طريق مشروع يسجل علينا الرق والعبودية أبد الآبدين".



وبعد أن استفحل الشقاق بين الأحزاب الوطنية، قلت في منشور في ٢٨ ديسمبر ١٩٢٤:

"أبناء وطني الأعزاء..

لقد رأيتم رغم الجهود التي بذلتموها في سبيل الاتحاد بين الأحزاب أن تلك المساعي أخفقت وفشلت وبقى حزب منها بمعزل عن الحزبين الآخرين لتشبث رئيسه، مع أن الحالة الدقيقة التي تجتازها القضية المصرية الآن كانت تحتم على كل فرد من المصريين أن يتكاتف مع أخيه ويعاضده، وأن يترك كل اعتبار شخصي إزاء تلك الحالة الحرجة، ليكونوا قوة كبيرة أمام العدو الذي لا يألو جهدا في استغلال هذا الخلاف، ليصل إلى تحقيق مطامعه الاستعمارية.

واليوم نحن أمام انتخاب جديد، أمام أمر واقع يجب البت فيه بشجاعة وإخلاص ونزاهة، ذلك الأمر الواقع هو المذكرة الإنجليزية التي تسجل علينا الموت الأدبي، إذا نحن أقررناها وسلمنا بها.

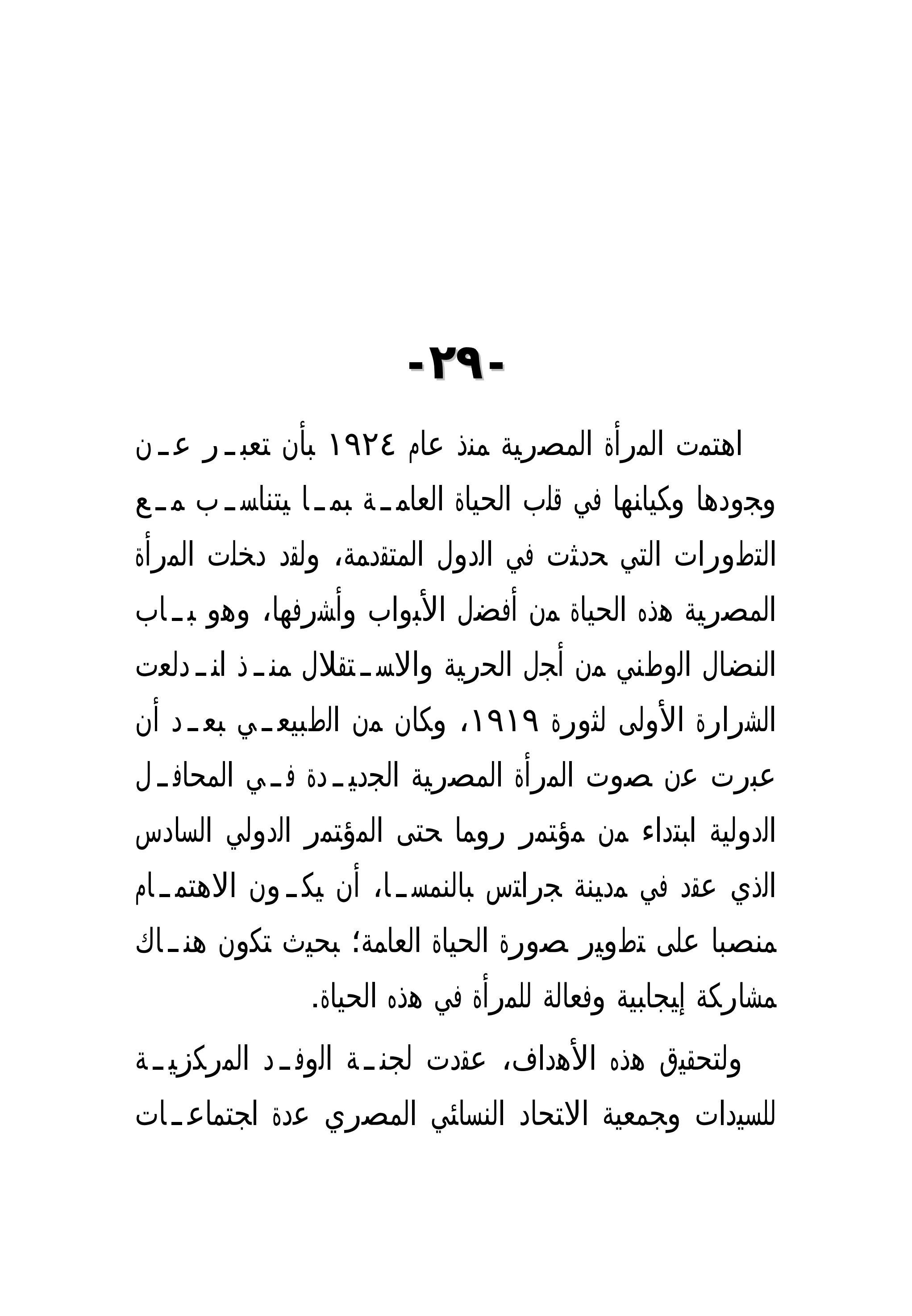
وقد تقدم الحزب الوطني وحزب الأحرار الدستوريين للانتخاب، ومع كل منهما برنامج هو مسئول عن التمسك به أمام ناخبيه.

أما الحزب السعدي، فلم يعلن إلى الآن برنامجا يرتبط به أمام الأمة، مع أن الحالة الراهنة تتطلب صراحة ولا تحتمل غموضا أو مغالاة في الثقة لما في ذلك من الخطر.

فإذا تقدم الحزب السعدي للانتخاب (وسيتقدم طبعا)، فواجب عليكم أن تطلبوا منه قبل كل شيء إعلان برنامجه، ليكون حجة عليه أمام ناخبيه، وهذه سنة متبعة في جميع الأمم المتمدينة، فإذا طلبتم ذلك فلم تطلبوا بدعة وإنما تطلبون حقًا لكم يجب أن يؤدي إليكم، وبذلك تبرهنون للعالم إننا لا ننقاد انقياد الأعمى لإنسان مهما كانت قيمته ومكانته بين الأمة – وإنما ننقاد للمبادئ الحقة.

هذه نصيحتي أسديها إليكم بإخلاص غير متحيزة لفريق دون آخر، وغير واضعة نصب عيني إلا حقوق البلاد المقدسة".

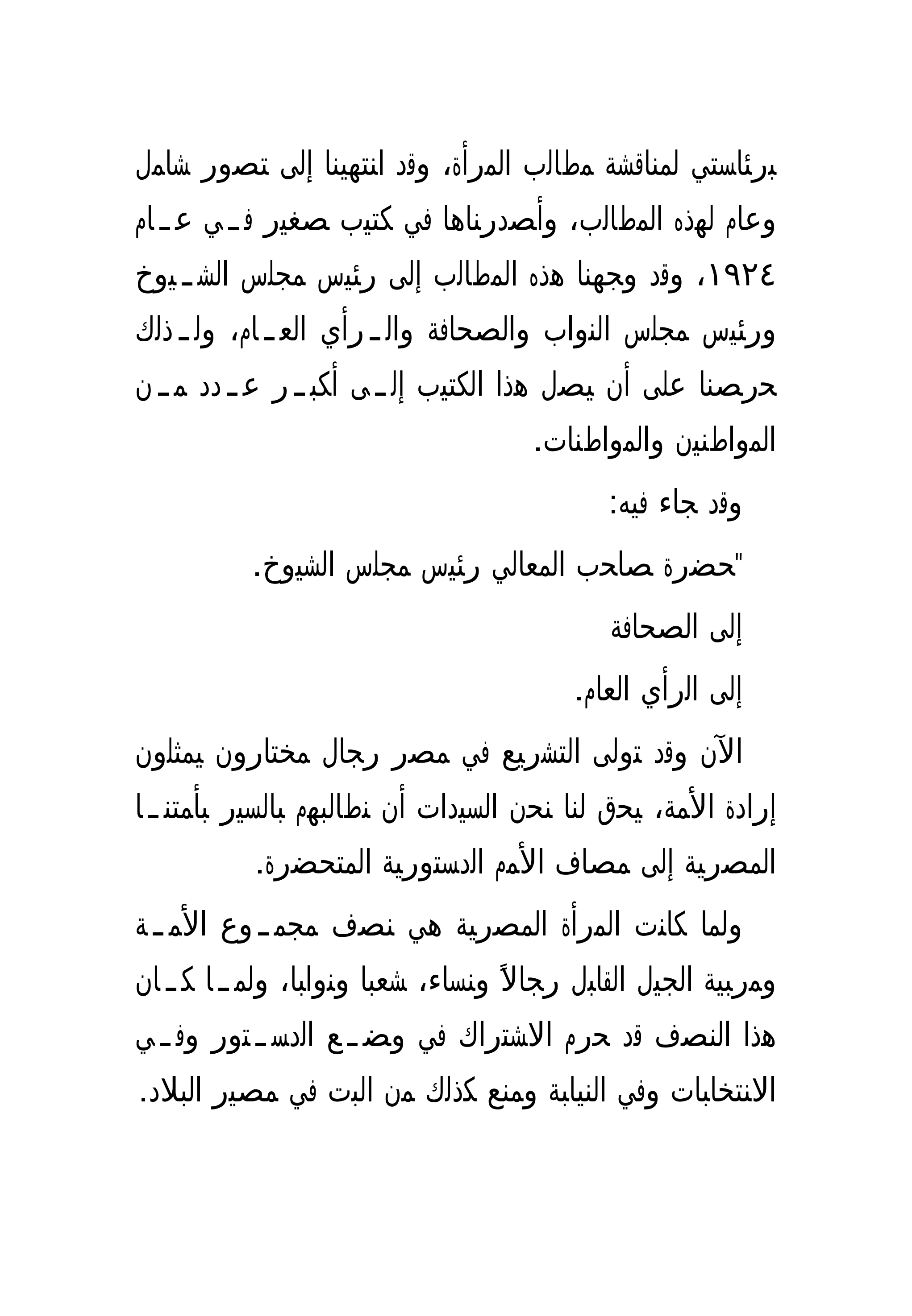
هدى شعراوي



-٢٩-

اهتمت المرأة المصرية منذ عام ١٩٢٤ بأن تعبـر عـن وجودها وكيانها في قلب الحياة العامـة بمـا يتناسـب مـع التطورات التي حدثت في الدول المتقدمة، ولقد دخلت المرأة المصرية هذه الحياة من أفضل الأبواب وأشرفها، وهو بـاب النضال الوطني من أجل الحرية والاسـتقلال منـذ انـدلعت الشرارة الأولى لثورة ١٩١٩، وكان من الطبيعـي بعـد أن عبرت عن صوت المرأة المصرية الجديـدة فـي المحافـل الدولية ابتداء من مؤتمر روما حتى المؤتمر الدولي السادس الذي عقد في مدينة جراتس بالنمسـا، أن يكـون الاهتمـام منصبا على تطوير صورة الحياة العامة؛ بحيث تكون هنـاك مشاركة إيجابية وفعالة للمرأة في هذه الحياة.

ولتحقيق هذه الأهداف، عقدت لجنـة الوفـد المركزيـة للسيدات وجمعية الاتحاد النسائي المصري عدة اجتماعـات



برئاستي لمناقشة مطالب المرأة، وقد انتهينا إلى تصور شامل وعام لهذه المطالب، وأصدرناها في كتيب صغير في عام ١٩٢٤، وقد وجهنا هذه المطالب إلى رئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب والصحافة والرأي العام، ولذلك حرصنا على أن يصل هذا الكتيب إلى أكبر عدد من المواطنين والمواطنات.

وقد جاء فيه:

"حضرة صاحب المعالي رئيس مجلس الشيوخ.

إلى الصحافة

إلى الرأي العام.

الآن وقد تولى التشريع في مصر رجال مختارون يمثلون إرادة الأمة، يحق لنا نحن السيدات أن نطالبهم بالسير بأمتنا المصرية إلى مصاف الأمم الدستورية المتحضرة.

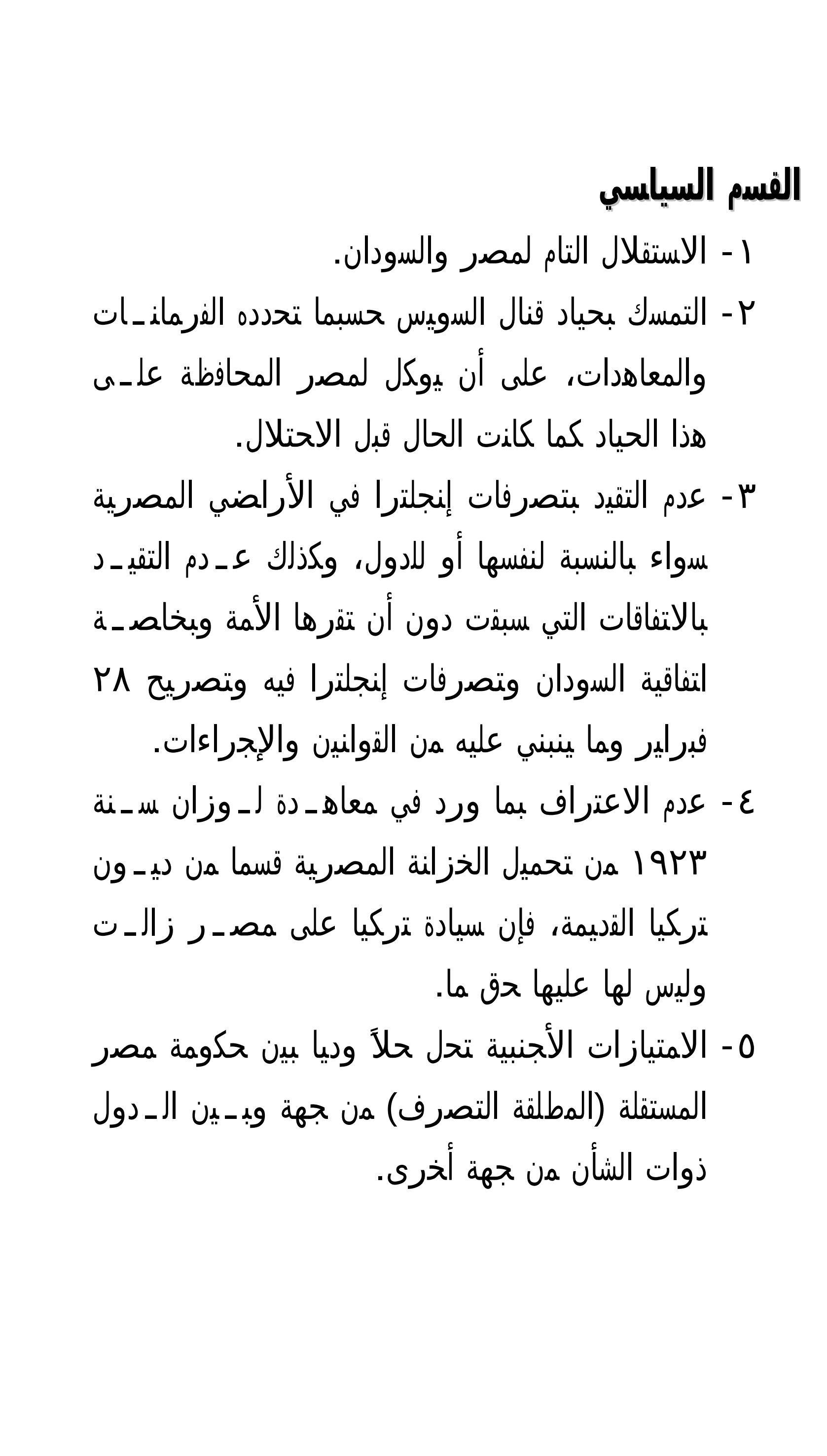
ولما كانت المرأة المصرية هي نصف مجموع الأمة ومربية الجيل القابل رجالاً ونساء، شعبا ونوابا، ولما كان هذا النصف قد حرم الاشتراك في وضع الدستور وفي الانتخابات وفي النيابة ومنع كذلك من البت في مصير البلاد.

رأت لجنة الوفد المركزية التي مثلت نساء القطـر منـذ ثورة سنة ١٩١٩ منضمة إليها جمعيـة الاتحـاد النسـائي المصري التي قامت بكثير من الأعمال الاجتماعية والنسوية لصالح هذا البلد، أن تدلي إلى الأمة بآرائها ومطالبها بالنيابة عن نساء هذا القطـر فـي الأمـور السياسـية والنسـوية والاجتماعية، راجية أن يفحصها المحترمـون بأقصـى مـا تستحق من همة وعناية وما يؤمل فيهم من شجاعة ووطنية.

وستسعى اللجنة من جهتها لتحقيق هـذه المطالـب بكـل الوسائل المشروعة.

على إننا لا نجهل أن هذه الإصلاحات كثيـرة متنوعـة. تستلزم مجهودات هائلة ونفقات عظيمة، غير أننا نلفت النظر إليها حتى تدرس من الآن ويبت فيها ثم تنفـذ علـى قاعـدة تفضيل الأهم على المهم، وعندنا أن أهـم مـا يعنينـا بعـد المحافظة على كيان القطر وسلامته واستقلاله هـي أمـور التعليم والصحة.

ونرجو من الجرائد والرأي العام السهر على درس هـذه المسائل وتشجيع الحكومة والبرلمان حتى يكـون المجهـود مضاعفًا، فتبني الأمة جميعها على أساس الاستقلال الحقيقي.



القسم السياسي

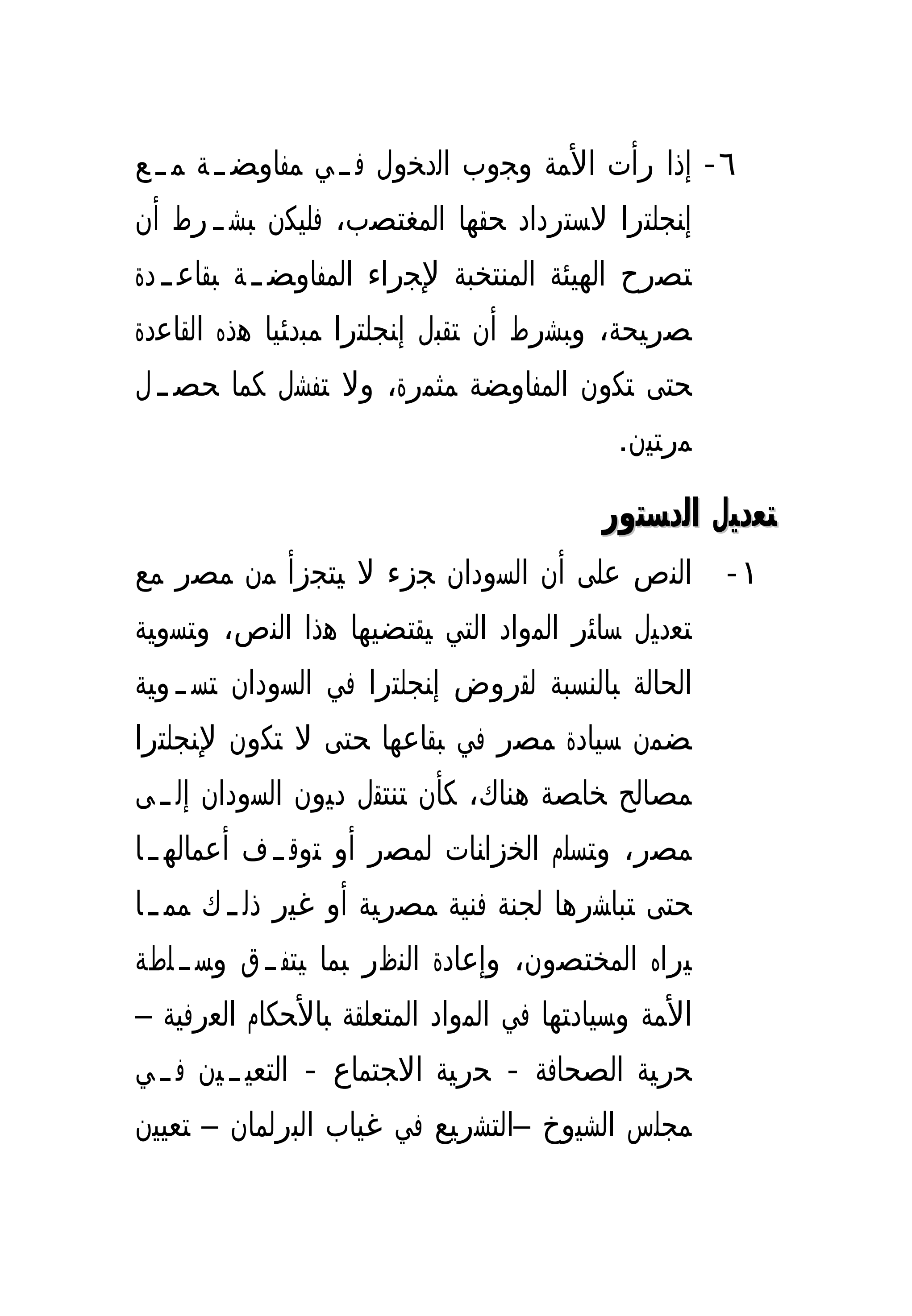
١- الاستقلال التام لمصر والسودان.

٢- التمسك بحياد قناة السويس حسبما تحدده الفرمانات والمعاهدات، على أن يوكل لمصر المحافظة على هذا الحياد كما كانت الحال قبل الاحتلال.

٣- عدم التقيد بتصرفات إنجلترا في الأراضي المصرية سواء بالنسبة لنفسها أو للدول، وكذلك عدم التقيد بالاتفاقات التي سبقت دون أن تقرها الأمة وبخاصة اتفاقية السودان وتصرفات إنجلترا فيه وتصريح ٢٨ فبراير وما ينبني عليه من القوانين والإجراءات.

٤- عدم الاعتراف بما ورد في معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ من تحميل الخزانة المصرية قسما من ديون تركيا القديمة، فإن سيادة تركيا على مصر زالت وليس لها عليها حق ما.

٥- الامتيازات الأجنبية تحل حلاً وديا بين حكومة مصر المستقلة (المطلقة التصرف) من جهة وبين الدول ذوات الشأن من جهة أخرى.



٦- إذا رأت الأمة وجوب الدخول فـي مفاوضـة مـع إنجلترا لاسترداد حقها المغتصب، فليكن بشـرط أن تصرح الهيئة المنتخبة لإجراء المفاوضـة بقاعـدة صريحة، وبشرط أن تقبل إنجلترا مبدئيا هذه القاعدة حتى تكون المفاوضة مثمرة، ولا تفشل كما حصـل مرتين.

تعديل الدستور

١- النص على أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر مع تعديل سائر المواد التي يقتضيها هذا النص، وتسوية الحالة بالنسبة لقروض إنجلترا في السودان تسـوية ضمن سيادة مصر في بقاعها حتى لا تكون لإنجلترا مصالح خاصة هناك، كأن تنتقل ديون السودان إلـى مصر، وتسلم الخزانات لمصر أو توقـف أعمالهـا حتى تباشرها لجنة فنية مصرية أو غير ذلـك ممـا يراه المختصون، وإعادة النظر بما يتفـق وسـلطة الأمة وسيادتها في المواد المتعلقة بالأحكام العرفية – حرية الصحافة - حرية الاجتماع - التعيـين فـي مجلس الشيوخ –التشريع في غياب البرلمان – تعيين

الضباط وعزلهم – صيغة يمين الملك (أن يقسم يمين الأمانة للملك الدستوري) – استجواب الوزراء، وغير ذلك مما يرى تعديله.

٢- تعديل قوانين الانتخاب بما يلائم لوائح البلاد المتمدينة لا سيما جعل الانتخاب درجة واحدة.

٣- إلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية وتعديلها:

(أ) سواء ما صدر منها قبل الحرب: قانون المطبوعات – إحالة الصحفيين على محكمة الجنايات – قانون التجمهر – النفي الإداري- المحاكم المخصوصة.

(ب) أو ما صدر منها بعد الحرب: قانون الأحكام العرفية – قانون الاجتماعات.

(ج) مراجعة التعديلات التي أدخلت على قانون العقوبات بشكل يتلاءم وروح العصر.

(د) استدراك ما عسى يمكن استدراكه من قانون التضمنيات.

٤- الدفاع:

١- وضع أساس شامل للبـدء فـي تنظـيم الجـيش والبحرية والطيران بقدر ما تقتضيه سلامة البلاد.

٢- تنظيم وسائل النقل والمواصلات البرية والنهريـة والجويــة والتلغرافيــة والتليفونيــة، وتوزيــع الإرساليات المصرية على هذه الأسلحة إلى أقصى حد تسمح به الميزانية من كل عام.

٣- التدرج في إلقاء مقاليد هذه الأمور إلى أيد مصرية عند نهاية مادة محدودة.

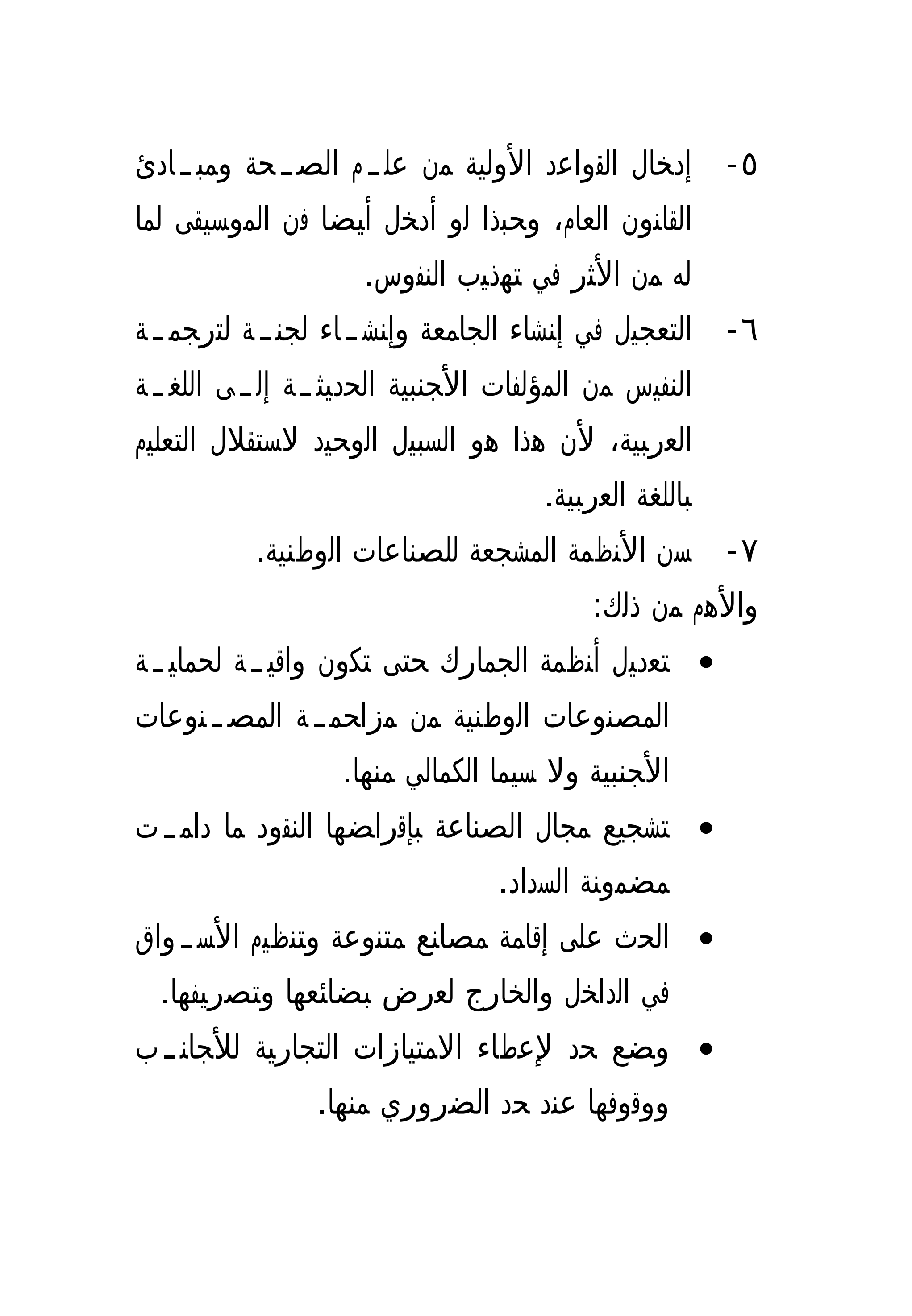
القسم الاجتماعي

١- المبادرة في تنفيذ حكم الدستور الخاص بنشر التعليم الابتدائي في جميع أنحاء القطر بصفة إلزامية.

٢- إدخال التعليم الديني والخلقي في عموم المدارس.

٣- الإكثار من البعثات العلمية وخصها بالعناية التي هي في أشد الحاجة إليها الآن وانتقاء المشرفين عليها من رجال التعليم الوطنيين الأكفاء.

٤- جعل التعليم الثانوي والعالي غير مقيد بأيـة سـن، مساعدة على نشر العلم.



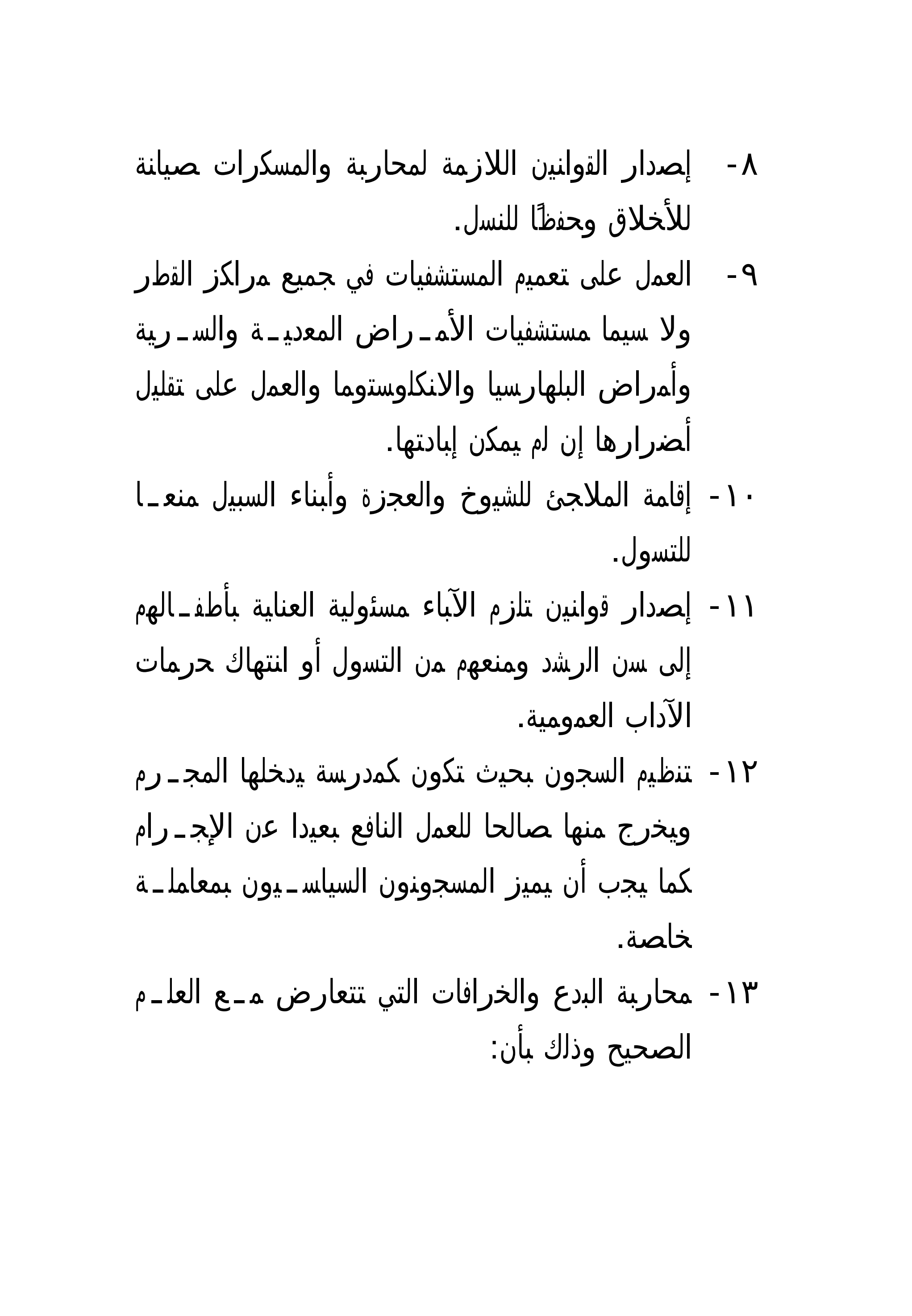
٥- إدخال القواعد الأولية من علـم الصـحة ومبـادئ القانون العام، وحبذا لو أدخل أيضا فن الموسيقى لما له من الأثر في تهذيب النفوس.

٦- التعجيل في إنشاء الجامعة وإنشـاء لجنـة لترجمـة النفيس من المؤلفات الأجنبية الحديثـة إلـى اللغـة العربية، لأن هذا هو السبيل الوحيد لاستقلال التعليم باللغة العربية.

٧- سن الأنظمة المشجعة للصناعات الوطنية.

والأهم من ذلك:

- تعديل أنظمة الجمارك حتى تكون واقيـة لحمايـة المصنوعات الوطنية من مزاحمـة المصـنوعات الأجنبية ولا سيما الكمالي منها.
- تشجيع مجال الصناعة بإقراضها النقود ما دامـت مضمونة السداد.
- الحث على إقامة مصانع متنوعة وتنظيم الأسـواق في الداخل والخارج لعرض بضائعها وتصريفها.
- وضع حد لإعطاء الامتيازات التجارية للأجانـب ووقوفها عند حد الضروري منها.



٨- إصدار القوانين اللازمة لمحاربة والمسكرات صيانة للأخلاق وحفظًا للنسل.

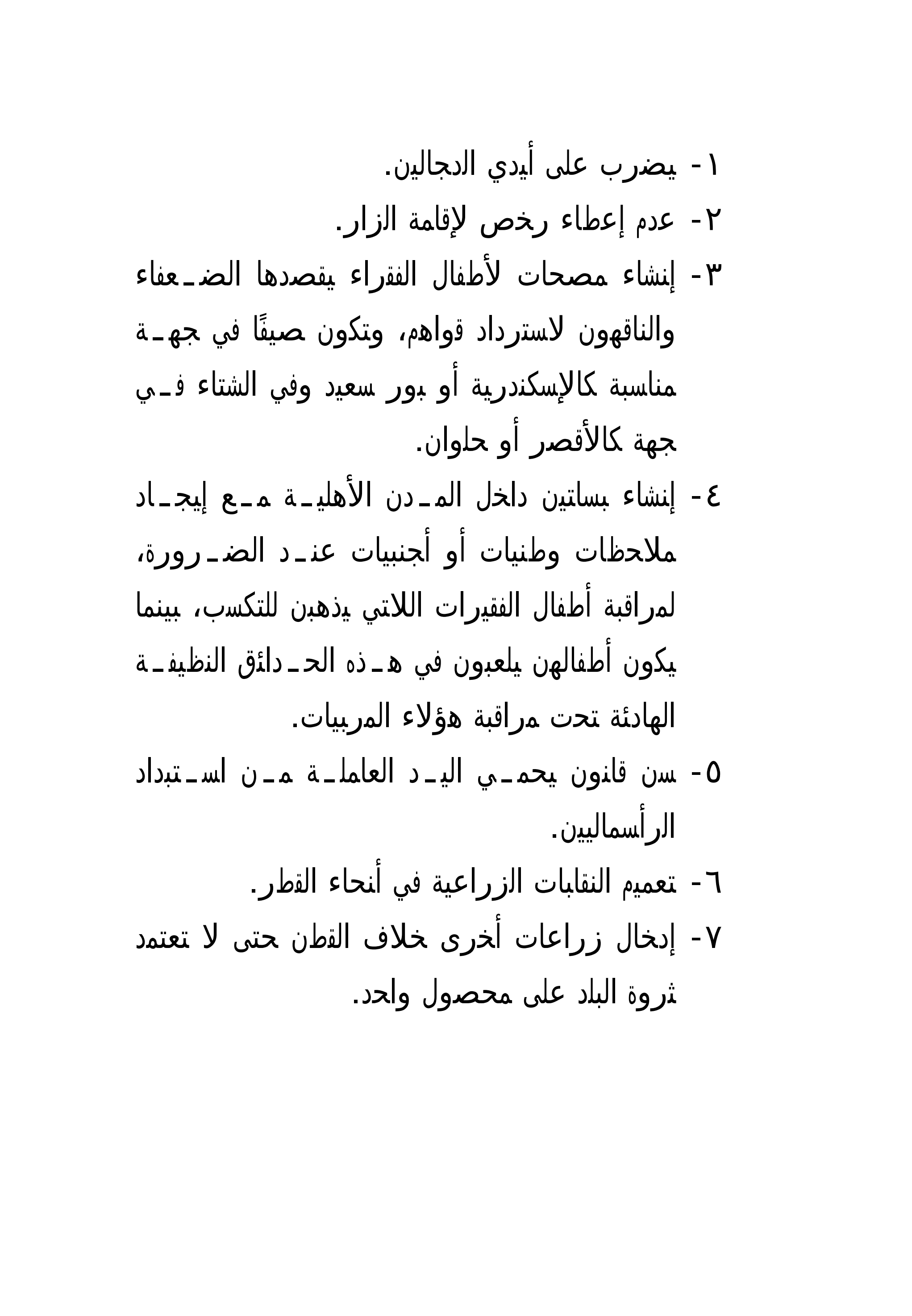
٩- العمل على تعميم المستشفيات في جميع مراكز القطر ولا سيما مستشفيات الأمـراض المعديـة والسـرية وأمراض البلهارسيا والانكلوستوما والعمل على تقليل أضرارها إن لم يمكن إبادتها.

١٠- إقامة الملاجئ للشيوخ والعجزة وأبناء السبيل منعـا للتسول.

١١- إصدار قوانين تلزم الآباء مسئولية العناية بأطفـالهم إلى سن الرشد ومنعهم من التسول أو انتهاك حرمات الآداب العمومية.

١٢- تنظيم السجون بحيث تكون كمدرسة يدخلها المجـرم ويخرج منها صالحا للعمل النافع بعيدا عن الإجـرام كما يجب أن يميز المسجونون السياسـيون بمعاملـة خاصة.

١٣- محاربة البدع والخرافات التي تتعارض مـع العلـم الصحيح وذلك بأن:



١- يضرب على أيدي الدجالين.

٢- عدم إعطاء رخص لإقامة الزار.

٣- إنشاء مصحات لأطفال الفقراء يقصدها الضعفاء والناقهون لاسترداد قواهم، وتكون صيفًا في جهة مناسبة كالإسكندرية أو بور سعيد وفي الشتاء في جهة كالأقصر أو حلوان.

٤- إنشاء بساتين داخل المدن الأهلية مع إيجاد ملاحظات وطنيات أو أجنبيات عند الضرورة، لمراقبة أطفال الفقيرات اللاتي يذهبن للتكسب، بينما يكون أطفالهن يلعبون في هذه الحدائق النظيفة الهادئة تحت مراقبة هؤلاء المربيات.

٥- سن قانون يحمي اليد العاملة من استبداد الرأسماليين.

٦- تعميم النقابات الزراعية في أنحاء القطر.

٧- إدخال زراعات أخرى خلاف القطن حتى لا تعتمد ثروة البلد على محصول واحد.

القسم النسوي

لا حاجة للتدليل على أن أعمال النساء اللاتي هن نصف مجموع الأمة تمثل حركة تقدمها جميعا، ولا حاجة للاستشهاد بالتاريخ في مواطن عدة على أن رقي الأمم مرتبط طردا وعكسا برقي النساء فيها، فنحن إذا طالبنا بإصلاح النساء خاصة، فلسنا نؤثر أنفسنا على غيرنا من عناصر الأمة، ولكننا نعرف أن في إصلاح المرأة إصلاح المجموع.

ولا ريب أن خير وجوه الإصلاح، العلم والتهذيب لأنهما العامل الحقيقي في إعداد كل فرد للقيام بواجبه على الوجه الأكمل مما ينهض بالبلاد نهوضا حقيقيا.

ولما كان الدين الإسلامي يأمر بتسوية الجنسين في أمور شتى (لا شك في أن التعليم أحدها) فلهذه الأسباب نلح على الحكومة والبرلمان والصحافة وطلاب الإصلاح الحقيقي أن يؤازرونا في هذا الباب الذي هو أولى الإصلاحات بالبدء.

ولا يمنعنا صرف همنا إلى التعليم من المطالبة بحقوق المرأة المهضومة، ولسنا بذلك نطالب ببدعة، ولكنا نطالب بالحقوق التي اعترف لنا بها الدين والحق.

١- مساواة الجنسين في التعليم وفتح أبواب التعليم العالي وامتحاناته لمن يهمها ذلك من الفتيات تشجيعا لنبوغ من لها مواهب خاصة. (ولا يفوتنا ذكر مدام كوري مكتشفة الراديوم استشـهادا علـى نبـوغ المـرأة)، وتسهيلاً للتكسب لمن تحتاج منهن، ورفعا لمسـتوى العقلية العامة في البلاد.

٢- الإكثار من المدارس الثانوية للبنات، ويبدأ بعواصـم المديريات ثم بالمراكز وهكذا.

٣- فصل إدارة تعليم البنات عن تعليم البنين (كما فصلت مراقبة التعليم الابتدائي عن التعليم الأولي على مـا بينهما من الشبه).

٤- إحلال الخبيرات بشئون التعليم مـن النسـاء محـل الرجال في كل فروع التعلـيم النسـوي ومراقبتـه تدريجيا؛ بحيث لا يبقى فيها أحد من الرجـال فـي نهاية مدة معينة، لأنهن أدرى بحاجة الفتـاة وأكثـر عناية بالسهر عليها.

٥- تعديل قانون الانتخابات بإشراك النساء مع الرجـال في حق الانتخاب ولو بقيـود فـي الـدور القـادم،

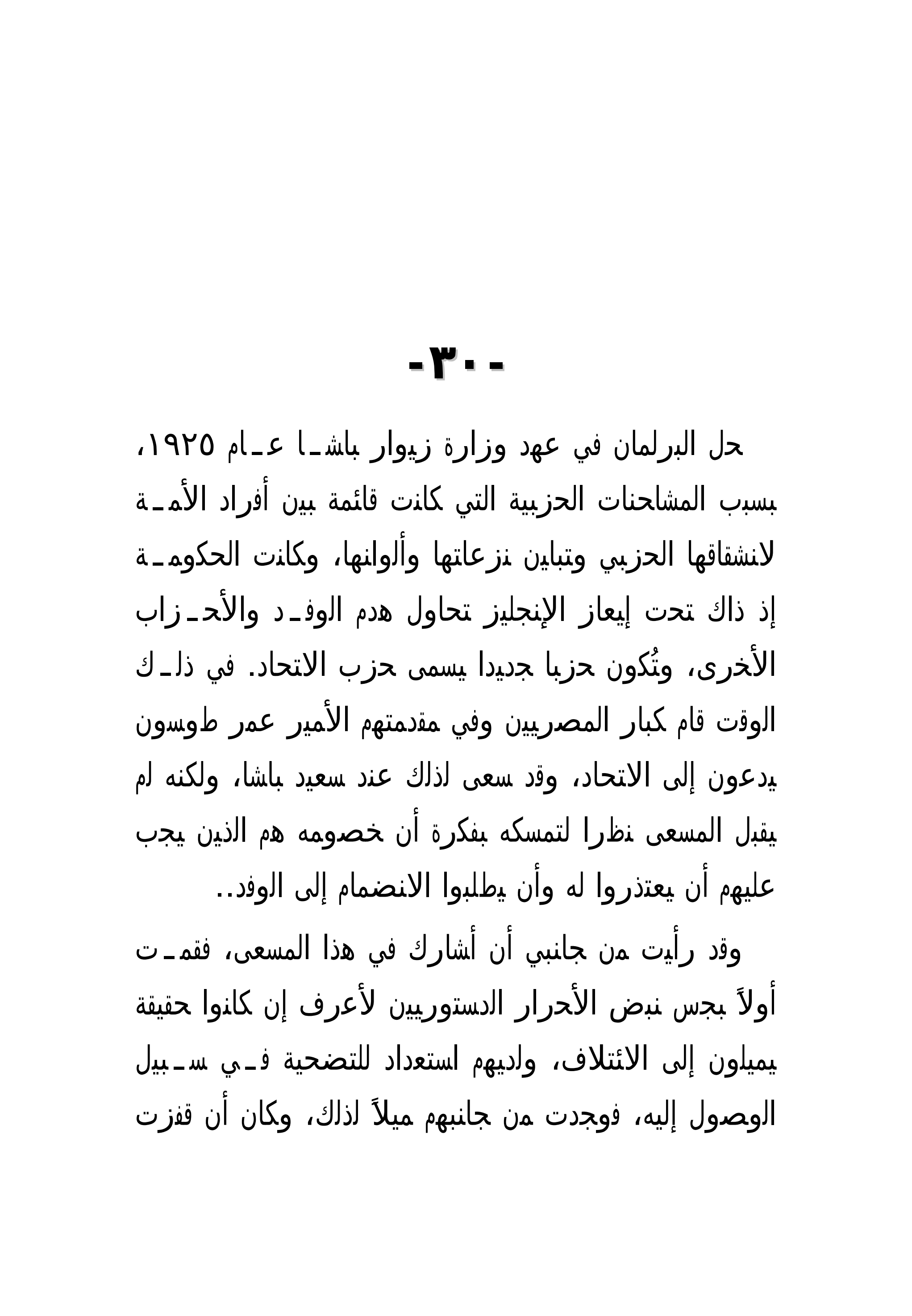
كاشتراط التعليم أو دفعها نصابا معينًا على ما لها من الملك. ولا يكون من الإنصاف الاعتـراض علـى إشراك هذه الطبقة من النساء ولا سـيما أن قـانون الانتخابات يجعل للرجل الأمي والخالي مـن الملـك حقًا في أن ينتخب وينتخب. وليس من المعقـول ولا من العدل وأغلبية الرجال كذلك أن تحرم المرأة مـع الشروط المتقدمة من المساواة بمثل هذا الجمهور من الرجال، كما أنه ليس من العدل أن تخضـع النسـاء للتشريع ويتجـرعن آثـاره وهـن نصـف الهيئـة الاجتماعية دون أن يكون لهن رأي في وضعه.

٦- إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجيـة وجعلهـا منطبقة على ما أرادته روح الدين من الأسر وإحكام الرابطة العائلية وذلك بأن:

١- يسن قانون يمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة كـأن تكون الزوجة عقيما أو مريضة بمرض يمنعها من أداء وظيفتها الزوجية وفي هذه الحالات يجـب أن يثبت ذلك الطبيب الشرعي.

٢- سن قانون يلزم المطلّق إلا يطلق زوجه إلا أمام القاضي الشرعي، والقاضي عليه معالجة التوفيق بحضور حكم من أهله وحكم من أهلها قبل الحكم بالطلاق طبقًا لنص الشرع الشريف.

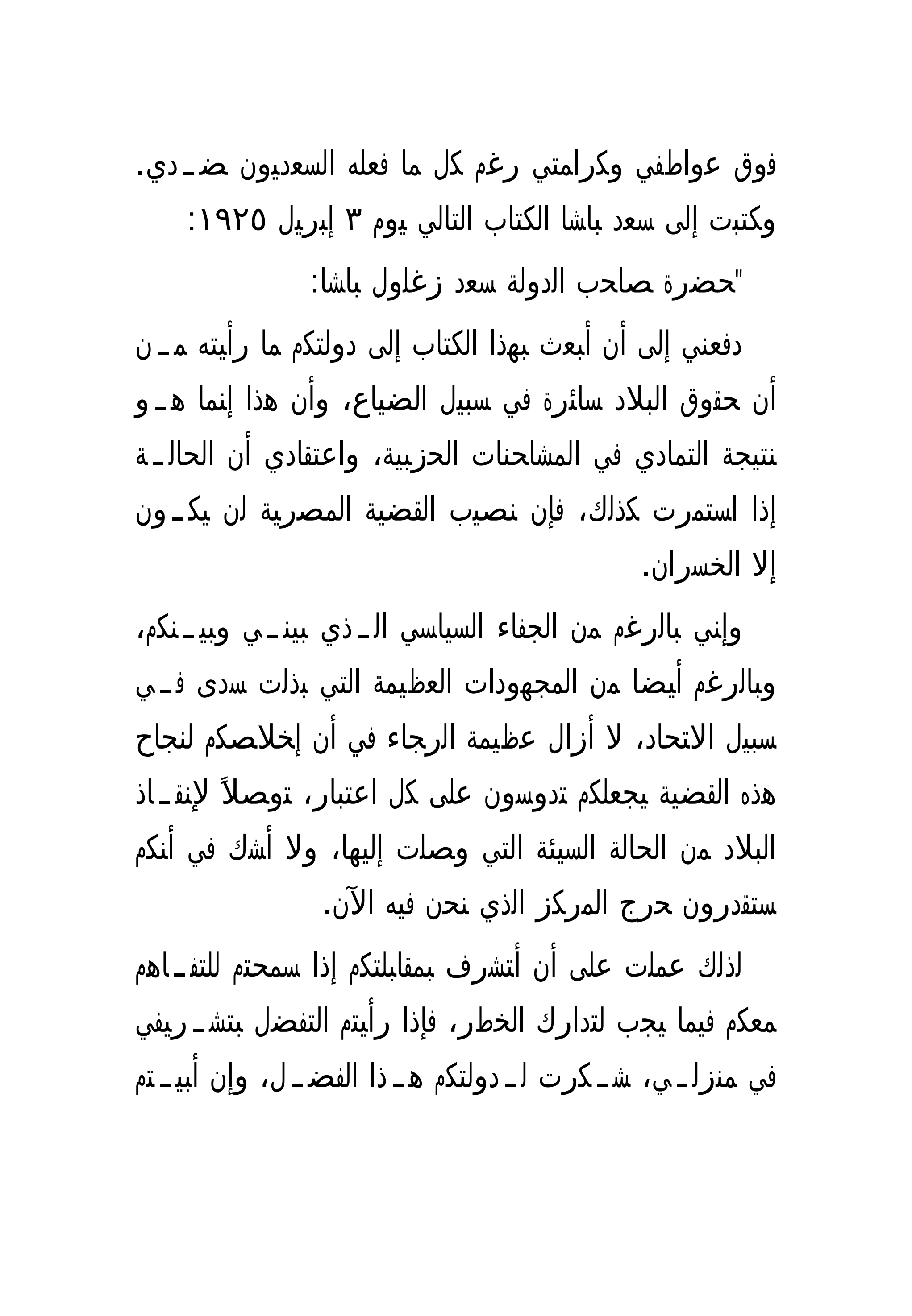
٣- العمل مع الدول الأجنبية على نيل رضاها، باعتبارها الأحكام الشرعية التي تصدر بالنفقة واجبة التنفيذ أينما وجد المحكوم عليه ولو في أرض أجنبية.



-٣٠-

حل البرلمان في عهد وزارة زيوار باشـا عـام ١٩٢٥، بسبب المشاحنات الحزبية التي كانت قائمة بين أفراد الأمـة لانشقاقها الحزبي وتباين نزعاتها وألوانها، وكانت الحكومـة إذ ذاك تحت إيعاز الإنجليز تحاول هدم الوفـد والأحـزاب الأخرى، وتُكون حزبا جديدا يسمى حزب الاتحاد. في ذلـك الوقت قام كبار المصريين وفي مقدمتهم الأمير عمر طوسون يدعون إلى الاتحاد، وقد سعى لذلك عند سعيد باشا، ولكنه لم يقبل المسعى نظرا لتمسكه بفكرة أن خصومه هم الذين يجب عليهم أن يعتذروا له وأن يطلبوا الانضمام إلى الوفد..

وقد رأيت من جانبي أن أشارك في هذا المسعى، فقمـت أولاً بجس نبض الأحرار الدستوريين لأعرف إن كانوا حقيقة يميلون إلى الائتلاف، ولديهم استعداد للتضحية فـي سـبيل الوصول إليه، فوجدت من جانبهم ميلاً لذلك، وكان أن قفزت



فوق عواطفي وكرامتي رغم كل ما فعله السعديون ضـدي.

وكتبت إلى سعد باشا الكتاب التالي يوم ٣ إبريل ١٩٢٥:

"حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا:

دفعني إلى أن أبعث بهذا الكتاب إلى دولتكم ما رأيته مـن أن حقوق البلاد سائرة في سبيل الضياع، وأن هذا إنما هـو نتيجة التمادي في المشاحنات الحزبية، واعتقادي أن الحالـة إذا استمرت كذلك، فإن نصيب القضية المصرية لن يكـون إلا الخسران.

وإني بالرغم من الجفاء السياسي الـذي بينـي وبيـنكم، وبالرغم أيضا من المجهودات العظيمة التي بذلت سدى فـي سبيل الاتحاد، لا أزال عظيمة الرجاء في أن إخلاصكم لنجاح هذه القضية يجعلكم تدوسون على كل اعتبار، توصلاً لإنقـاذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت إليها، ولا أشك في أنكم ستقدرون حرج المركز الذي نحن فيه الآن.

لذلك عملت على أن أتشرف بمقابلتكم إذا سمحتم للتفـاهم معكم فيما يجب لتدارك الخطر، فإذا رأيتم التفضل بتشـريفي في منزلـي، شـكرت لـدولتكم هـذا الفضـل، وإن أبيـتم

إلا حرماني من ذلك التفضيل، فإني مسـتعدة للقـائكم فـي الزمان والمكان اللذين تحددونهما".

هدى شعراوي

وقد رد دولته في اليوم التالي، أي يوم ٤ إبريـل ١٩٢٥، بالكتاب التالي:

"حضرة السيدة الجليلة هدى شعراوي:

تشرفت بكتابكم الكريم، وأشعر القصد الجميل الذي دعاكم إلى كتابته، ويسرني أن أقابلكم عنـدي فـي اليـوم الـذي تختارونه صباحا من الساعة العاشرة أو مساء مـن السـاعة الخامسة. ولحضرتكم فائق احترامي".

سعد زغلول

وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح يـوم ٥ إبريـل، طلبت منزل سعد باشا تليفونيا، فرد خادمه بغلاظة: من يريـد محادثة الرئيس؟ قلت: منزل شعراوي باشا. قال: ولكن مـن أنت؟ قلت: أبلغ الباشا ذلك وهو يفهم. قال: هـو لا يعـرف ولا يكلم من لا يبوح باسمه، فقولي من أنت وماذا تريـدين، أو انتظري إلى أن يحضر السكرتير في الساعة العاشرة.

اللقاء العاصف

وفي حوالي الحادية عشرة كلفت سـكرتيري أن يطلـب سكرتير سعد باشا الخاص، وذهب ليطلب المقابلة، ثم عـاد ليقول: لتتفضل السيدة، فذهبت على الفور.. وعندما وصـلت استقبلني الخادم على باب الحريم، وفتح لي، وكانت خادمـة إفرنجية تنتظرني من جهة الباب الثانية من الداخل، فمشـت أمامي إلى الصالون، وبعد أن استقر بي المقام، قالـت لـي بصوت مضطرب: "سيدي يعتذر لمرضه عن النزول، فـإذا كنت تنوين مقابلته ولا يصعب عليك الصعود إلـى الطـابق الأعلى فتفضلي لمقابلته". فقلت لها: "أستطيع الصعود.. فقط أخبريه بحضوري"، فذهب وعـادت بعـد قليـل تـدعوني للصعود.. وعندما دخلت، وجدت سعد باشـا جالسـا علـى كرسي بمسندين، ولما رآني هم قائما ببطء وقال: "اعـذريني إذا كنت قد كلفت خاطرك وأتعبتك بالصعود للدور العلـوي، ولكنني أشعر بتعب في صدري إثر النزلـة الشـعبية التـي اعترتني في الشتاء المنصرم، كنت قد تحسـنت فـي مينـا هاوس إلا أن المرض عاودني من مدة، فلم أخرج منذ أربعة أيام تقريبا". فقلت له: "لا بأس عليك يا دولة الباشا". وسألني

عن صحتي وعن أولادي، فشكرته. وبعد ذلك سكت. قلت له: "يا دولة الباشا أوضحت لكم في كتابي السبب الباعث لطلبي هذه المقابلة، وبالرغم من أني لم أجد في ردكم ما يشجعني على الحضور، إلا أنني أتيت لأتبين ما إذا كنت مخطئة في ظني أو كنت محقة". فقال: "ألم أشكرك في جوابي على القصد الجميل الذي دعاك إلى كتابته؟" قلت: "نعم. إن هذا ما تستوجبه المجاملة، ولكنه لا يفيد بأنكم توافقون على هذا المسعى".

قال: "هذا شيء آخر يجب أن نتناقش فيه".. قلت: "قبل المناقشة، أريد أن أعرف إذا كنتم توافقون مبدئيا على الغرض الذي أتيت من أجله".. قال: "يجب أن نتناقش أولاً".. قلت: "الموضوع واضح، فإما أنك تشعر مثلي بأن الحالة السيئة التي نحن فيها الآن تحتم الاتحاد.. وإما أنك لا تشاركني هذا الرأي، وفي هذه الحالة لا فائدة من المناقشة".. قال: "سبحان ا ، كيف دون مناقشة يمكنني أن أقول شيئًا؟ من يكره الاتحاد؟ لا أحد يميل للاتحاد مثلي، ولكني أريد أن أعرف مع من سيكون هذا الاتحاد؟ وعلى أي قاعدة ولأي غرض؟" قلت: "أما السؤال الأول، فالاتحاد يكون

مع خصومك، وعلى القاعدة التي تضعونها بعد التفاهم.. وأما الغرض فهو واضح كالشمس.. إخراج البلد من المأزق الذي هي فيه الآن بسبب الانقسام، ومنعها من السقوط في الهـوة السحيقة التي ستسقط فيها إن لم تتحد الأحزاب وتعمل كلهـا يدا واحدة لمقاومة عدو الجميع.. العـدو الخـارجي". قـال: "أتريدين أن أتحد مع من هدموا الدستور؟" قلت: "ومن هـدم الدستور؟ كيف يكون وراءك أربعة عشر مليونًا من الأنفـس ثم يأتي زيوار باشا إلى البرلمان بمفرده ويخرجه منـه ثـم لماذا لم تقل له عندما طلب منك الخروج وقفل مجلس النواب ما قلته عندما طلب الإنجليز نفيك.. أنـا هنـا بقـوة الأمـة ولا أخرج إلا برغبتها؟". قال متأثرا: "لم يكن هنـاك وقـت للتفكير".. قلت: "سبحان ا . هل في مثل هذه الظروف ينطق القلب أم العقل؟ كان يجب أن تخرج هذه الكلمة مـن قلبـك، فالوطنية الصادقة تنطق بما يوافق الظروف".

لماذا تحاسبينني وحدي

فأطرق ساكنًا ثم رفع رأسه وقال: "لماذا تؤاخذينني علـى كل ذنب ولا تفعلي ذلك مع غيري؟". قلت: "غيرك مسـئول عن نفسه ولا تؤيده الأمة.. فإذا أخطأ فلنفسه، أما أنت فتتكلم

عن أربعة عشر مليونًا، فإن أخطأت، أخطأت الأمة معـك.. ولذلك أحاسبك على كل ما فعل". فقال: "ومن أنـت؟ ومـن تكونين حتى تعطي لنفسك هذا الحق؟". قلت: "أنـا مصـرية واحدة من الأربعة عشر مليونًا الذين تتكلم بلسانهم، ولـذلك أجد نفسي الحق في أن أحاسبك على ما تفعل، وفضلاً عـن ذلك فإنك لا يمكنك أن تنكر من أنا، ولا ما قمـت بـه مـن خدمات لوطني، ولا ما لبيتي وأسرتي من الفضل والمساهمة في هذه القضية". قال: "هل نسيت كل ما فعلته في؟".. قلـت: "ليس هذا مجال عتاب". قال: "لا بل يجب أن نتعاتب، أتظنين أنه كان من السهل علي أن أوافق على مقابلتك بعد كل مـا فعلت بي؟" فأجبته على الفور: كنت أظن أنك ستفرح وتفخر اليوم بأني نسيت كل أعمالك وأني دست على كرامتي بعد ما فعلته صحفك في، وكنت أظن أنك سـتقدر وطنيتـي هـذه وتعرف أن ما دفعني إلى ذلك هو حبي لوطني وثقتي بأنـك ركن متين في بناء النهضة، فلما رأيت كل المعـاول تعمـل لهدمك، جئت لأقدم لك مساعدتي ناسية كل شيء.. وما دمت لم تقدر هذا كله.. فنهارك سعيد".

إذًا فالمسألة شخصية

وقمت خارجة، فقـام خلفـي، وأمسـك بيـدي وقـال: "أعذريني.. لقد تعديت حدود اللياقة، فلا تغضبي"، وأجبرنـي على الدخول ثانية والجلوس واستئناف المناقشة بعد عتـاب تناول بعض الموضوعات الشخصية، مثل عدم سؤالي عنـه وهو مريض.. فأعطيته الحق فيما هو محق فيـه وأعطيـت نفسي الحق فيما لا حق له فيه، وعند استئناف الحديث قـال: "من يقول إن سعدا يكره الاتحاد؟ ألست أنا الذي بـذلت كـل جهدي لكي أمنع الانقسام والخلاف وأنا في أوربا؟ ثم بعد أن عدت إلى مصر، ألم أذهب بنفسي لزيـارة خصـومي فـي بيوتهم؟ (ويقصد بذلك زوجي) واجتهدت أن ألم شعثهم".

قلت: "هذا صحيح، ولكنك بعد ذلك قمـت فـورا تنشـر الانقسام، هل نسيت خطبتك التي ألقيتها في شبرا وغيرهـا؟ لماذا لم تترك عدلي يسافر؟ وما الذي صنعه عدلي؟ إنه لـم يفرط في شيء، بل رفض مشروع كيرزون ورجع مرفـوع الرأس موفور الكرامة، فهل كان يستحق المقابلة التي قوبـل بها ولا سيما بعد أن أذن له الإنجليـز بمبلـغ ٣٠٠ جنيـه شهريا؟". قلت: "لهذه المناسبة، هل لك أن تقول لي ما هـي

الخيانة التي ارتكبها ثروت حتى اقتنع بأنه خائن؟ وهل لك أن تبرز ما عندك من الأدلة على خيانته، فقد داخلني في الرجل الشك وقتًا ما لما رميته بالخيانة، وكنت أنتظـر منـك عنـد تسلمك مقاليد الحكم بعده أن تقيم الأدلة على خيانتـه". قـال: "نعم.. كيف لم يرتكب أكبر خيانة؟ أنه انتهك حرمة منزلـي في غيابي وأمر بتفتيش أشياء من زوجتي". وهنا لم أتمكـن من منع نفسي من مقاطعته قائلة: "هل هذا كل مـا اقترفـه ثروت؟ إذًا فالمسألة شخصية لا تمس حقوق البلد في شيء.. وإن كنت ترى في عمل ثروت هذا خيانته للبلد، فاسمح لـي أن أخلفك في هذا التقدير"، فرد بحدة قائلاً: "لماذا تقاطعينني.. دعيني أتكلم كيف ترين هذا قليلاً وقد أقدم عليه موعزا مـن الإنجليز؟". قلت: "وما الذي يثبت لك ذلك؟ هل وجدت عندما وليت الحكم وتسلمت أوراق الوزارة ما يثبت هذا الظـن؟". قال: مرة ثانية: "ألم تقرئي الكتاب الأبيض؟" قلـت: "ومـاذا يقول ذلك الكتاب الأبيض؟". قال: "إذا كنت لم تقرئيه، فكيف تقولين إنك تشتغلين بالسياسة؟". قلت: "لقد قرأته، ولكـن لـم أجد فيه شيئًا مما تقول". قال: "ألم تقرئي فـي الفقـرة التـي كتبت فيه لمناسبة قفل بيت الأمة والاعتـداء علـى أشـياء

زوجتي بتفتيشها أن بعض رجـال الـدوائر الحكوميـة قـد ارتاحوا لهذا العمل؟".. قلت: "وهل هذا دليل أن ثروت كـان ذلك المرتاح؟ ربما كان غيره. ولو فرضنا أنه ارتـاح لهـذا العمل، فله بعض العذر، فثروت ليس ملاكًا يتغاضى عن كل المساوئ ولقد أسأت إليه كثيرا، فهو إنسان وعنده نفـس، إذًا فله العذر إن كان قد تشفى فيك، إن خصومك يا سعد خونـة كانوا أو غير خونة، أنكرتهم أم لم تنكرهم، هـم موجـودون ولهم حيثية ولهم أولاد وأصهار وأنساب وأحسـاب وأتبـاع. ولهم في البلاد مصالح. وهم من كبار البلاد وذوي العقـول الناضجة فيها، فلا يمكنك أن تبيدهم عن آخرهم، إذا رأيـت في ذلك تطهيرا للبلد منهم ووقاية لها من شرهم، ولكـن إذا أردت ذلك، فلا يكون إلا عن طريق واحد وهو تحويل هـذه العقول وتلك الهمم إلى ما فيه صالح الوطن وخيره وإزالـة الخلاف الذي بينكم، وبذلك تنتفع البلد بالتفافهم حولك بدلاً من أن تخسر كما هو جار الآن من جراء انشقاقكم. ولا يمكن أن يكون هذا صعبا عليك أنت الذي أمكنك أن تجتـذب قلـوب الأربعة عشر مليونًا مـن المصـريين، تضـللهم إذا شـئت وتهديهم بإشارة منك". قال: "أتريدين أن أتحد مع عبد العزيز

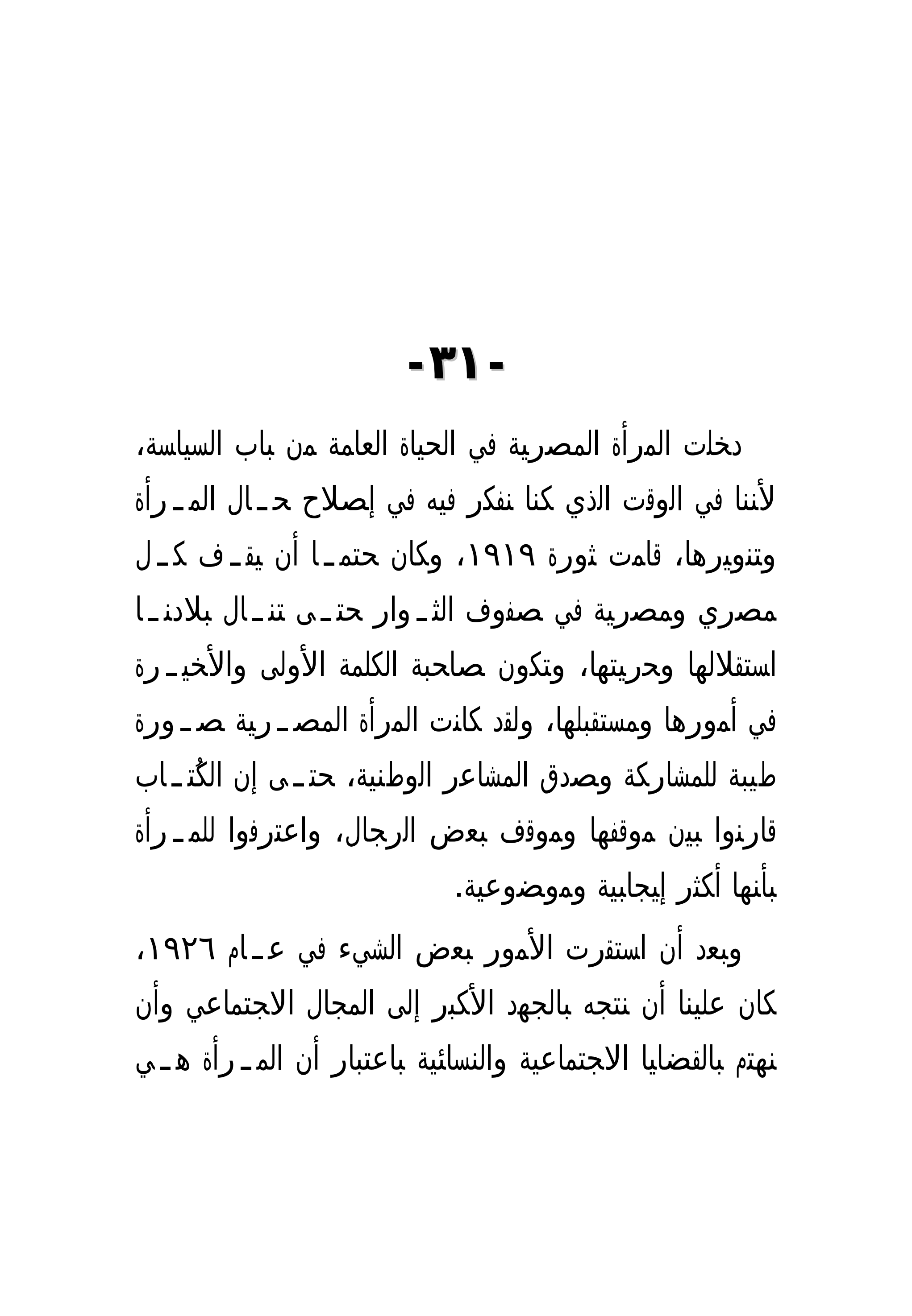
فهمي الذي قال إن الشعب المصري غبـي وجاهـل؟ هـل أعجبك منه هذا القول؟". قلت: "لا، أنا لـم تعجبنـي بعـض تصريحاته وما كان يليق به وهـو وزيـر أن يتفـوه بتلـك التصريحات يجاهر بجهل المصري حتى ولـو كـان ذلـك صحيحا". فقال بلهجة خطابية: "هل الأمة المصـرية غبيـة لأنها جاهلة؟ لا. وأنا أفضل الجاهل المخلص على المـتعلم". قلت: "كيف تفضل الجاهل على المتعلم العاقل؟.. وهل يقـود الأمم إلا نخبتها أم تقودها العامة والجهلة؟ إن الأمـة التـي تخضع للعامة تسودها الفوضى".

فقال: "إن الشعب الذي يقوم كما قام الشعب المصري لهو جدير بكل تبجيل، وأنه لشعب نبيل". قلت: "نعم، ولكنه لم يقم من تلقاء نفسه.. وأنت مثلي تعلم كيف هـب ومـن الـذين ساعدوه على هذا القيام.. وما هم إلا هؤلاء الرجـال الـذين تسميهم خصومك.. وحرام يا سعد أن تحرم الأمة الانتفـاع بهذه العقول النيرة وتلك الكفاءات". قال: "ولماذا لا ينضمون إلى الوفد؟". قلت: "كيف ينضمون للوفد وليس للوفد برنـامج ولهم برنامجهم؟" قال: "كيف؟.. لنا برنامج". قلـت: "وأيـن برنامجكم؟". قال: "ألا تعرفين أن برنامجنا هو الوصول إلـى

الاستقلال التام لمصر والسودان؟". قلت: "هذه غاية الجميـع، وهم وضعوا لتحقيقها برنامجا يوضح طريقة الوصول إلـى ذلك الاستقلال. لذلك نريد أن تتحدوا لتتفقوا على تنفيذ هـذه الوصية".

قال: "إذًا فليأتوا إلي ليعتذروا أولاً، ثم بعد ذلك نتباحـث". قلت: "لا يمكنني أن أطلب منهم ذلك بعد كل الشتائم والـتهم التي وجهتها إليهم لأن لكل واحد كرامته وعزة نفسه". قـال: "أتريدين أن أذهب أنا إليهم؟". قلت: "لا.. هناك طريقة تسهل عليكم هذا الأمر، يمكنكم أن تشرفوني وتحددوا موعدا لهـذا التشريف، وأنا أدعوهم للحضور والاجتماع بكم في أي وقت تريدون، وإن كنت لا تود أن يعرف أحد أن هذا الاجتماع قد انعقد عندي أو إنني قد نلت هذا الشرف، فلك ألا يعرف أحد ذلك حتى أهل منزلي.. ويمكنك أن تنسب ذلك إلـى مسـعى الأمير عمر طوسون باشا الذي كان له الفضـل الأول فـي السعي لهذا الاتحاد". قال: "لا.. لا يمكنني أن أتنـازل عـن رأيي وهو وجوب انضمامهم إلى الوفد إذا كـانوا يريـدون الاتحاد".. وهنا رأيت أن لا فائدة من الإلحاح.. لا سيما وقـد استغرقت المقابلة أكثر من ثلاث سـاعات، وقمـت متأهبـة

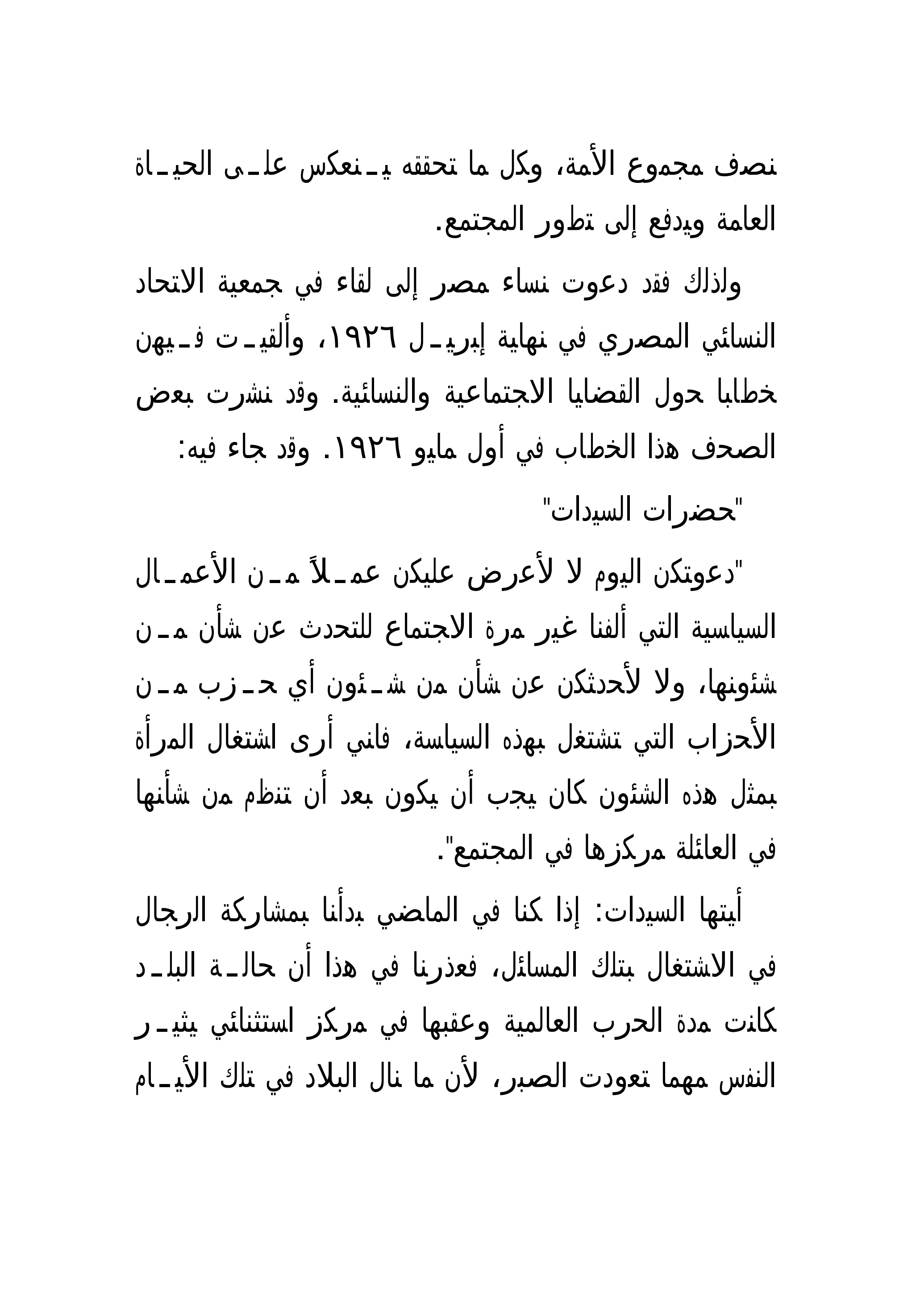
للخروج، فأوصلني حتى السلم، وهناك وضع يده على كتفي وقال: "لماذا لا تشتغلين معي؟".. قلت: "لا، أنا مـع الحـق". فقال محتدا: "وهل أنا الباطل؟". فقلت "لا أعلم". قـال: "غـدا ترين ما يحل بك!".. قلت: "أنا لا أخشى شيئًا لأننـي واثقـة بأنني لا أعمل لأي غرض إلا لخدمة بلادي، وإن يـدك يـا سعد لن تصل إلي ولو فرضنا أنك ستحرض علـى صـبيان الوفد ليرموا منزلي بالحجارة أو ليقتلني أحدهم، فهذا كل مـا أتمناه، وهو أقل تضحية في سبيل خدمة بلادي".



-٣١-

دخلت المرأة المصرية في الحياة العامة من باب السياسة، لأننا في الوقت الذي كنا نفكر فيه في إصلاح حـال المـرأة وتنويرها، قامت ثورة ١٩١٩، وكان حتمـا أن يقـف كـل مصري ومصرية في صفوف الثـوار حتـى تنـال بلادنـا استقلالها وحريتها، وتكون صاحبة الكلمة الأولى والأخيـرة في أمورها ومستقبلها، ولقد كانت المرأة المصـرية صـورة طيبة للمشاركة وصدق المشاعر الوطنية، حتـى إن الكُتـاب قارنوا بين موقفها وموقف بعض الرجال، واعترفوا للمـرأة بأنها أكثر إيجابية وموضوعية.

وبعد أن استقرت الأمور بعض الشيء في عـام ١٩٢٦، كان علينا أن نتجه بالجهد الأكبر إلى المجال الاجتماعي وأن نهتم بالقضايا الاجتماعية والنسائية باعتبار أن المـرأة هـي



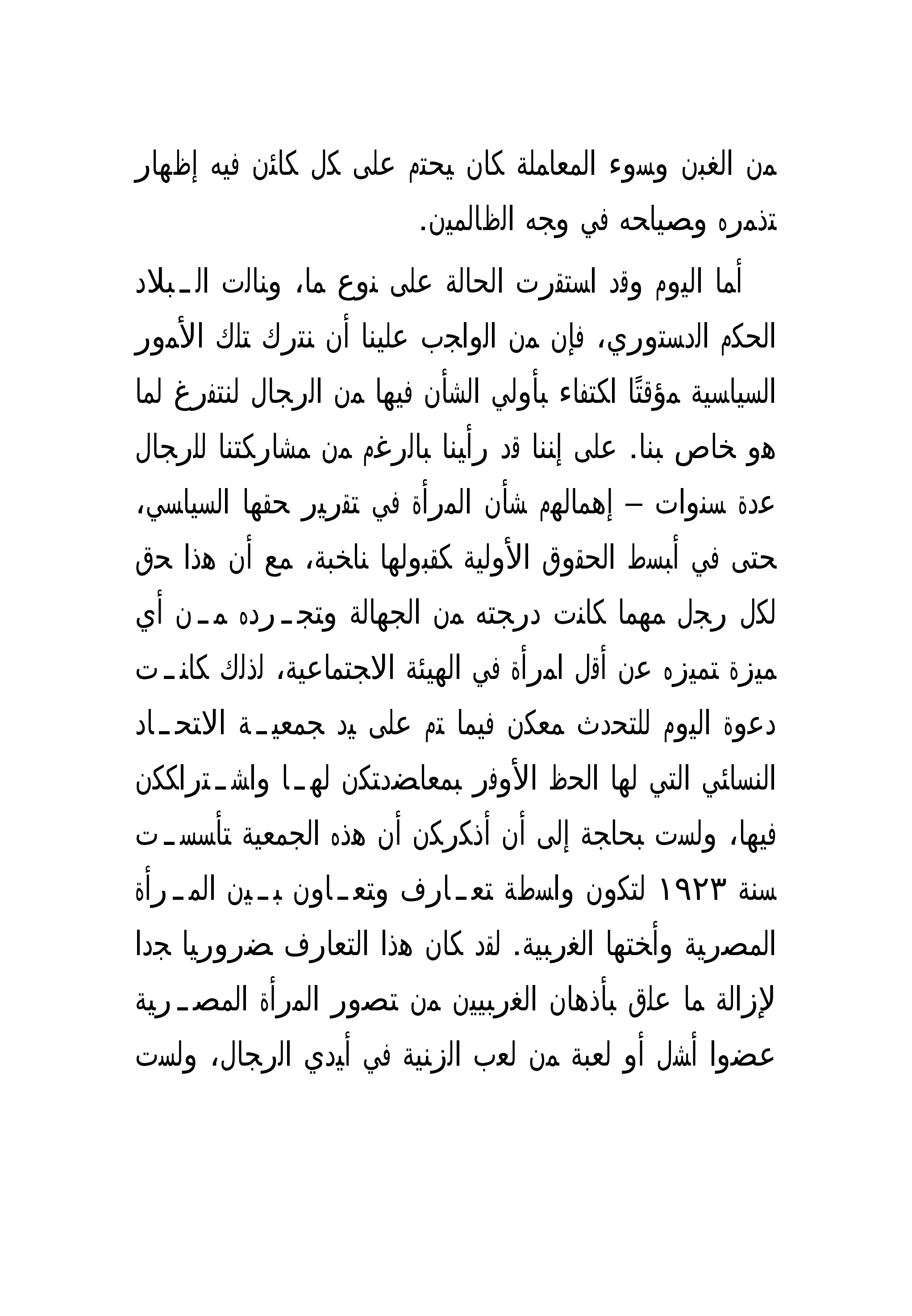
نصف مجموع الأمة، وكل ما تحققه يـنعكس علـى الحيـاة العامة ويدفع إلى تطور المجتمع.

ولذلك فقد دعوت نساء مصر إلى لقاء في جمعية الاتحاد النسائي المصري في نهاية إبريـل ١٩٢٦، وألقيـت فـيهن خطابا حول القضايا الاجتماعية والنسائية. وقد نشرت بعض الصحف هذا الخطاب في أول مايو ١٩٢٦. وقد جاء فيه:

"حضرات السيدات"

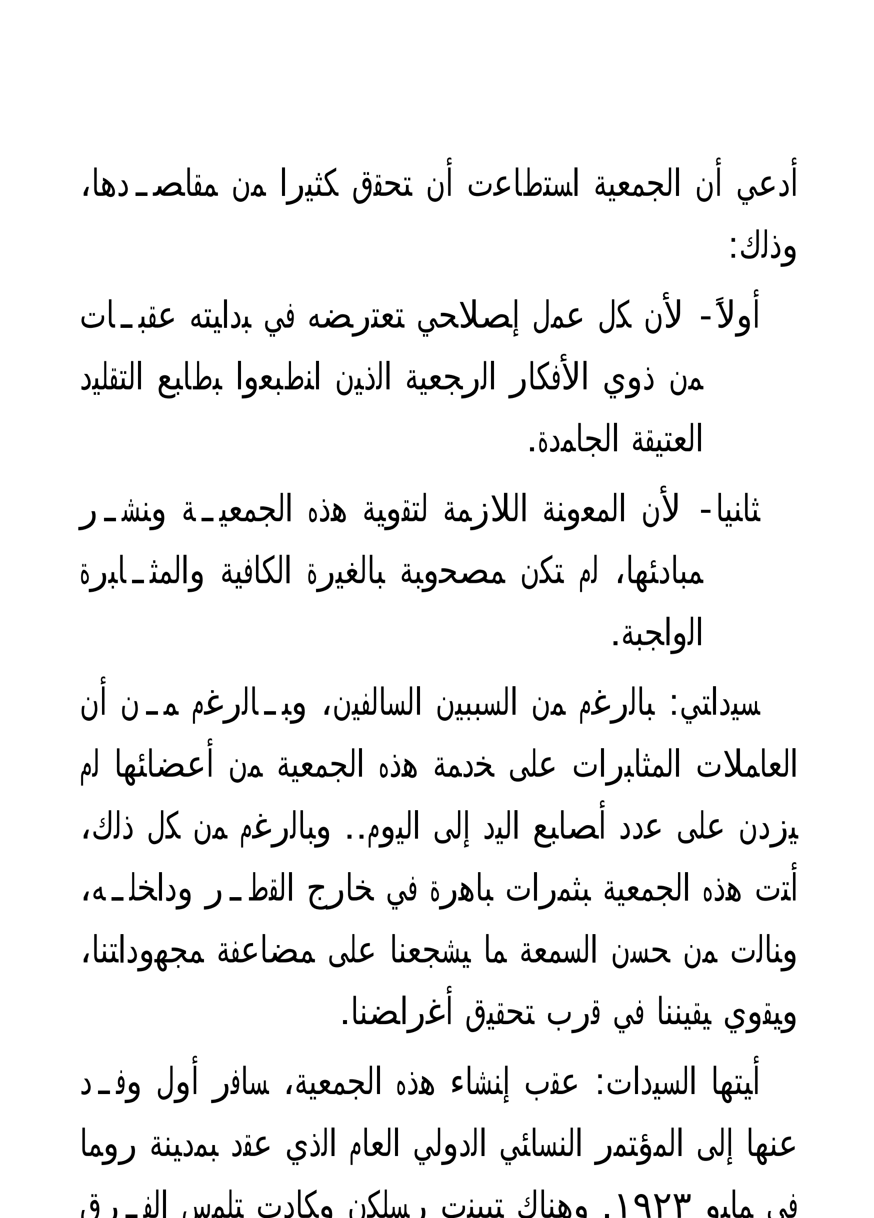
"دعوتكن اليوم لا لأعرض عليكن عمـلاً مـن الأعمـال السياسية التي ألفنا غير مرة الاجتماع للتحدث عن شأن مـن شئونها، ولا لأحدثكن عن شأن من شـئون أي حـزب مـن الأحزاب التي تشتغل بهذه السياسة، فاني أرى اشتغال المرأة بمثل هذه الشئون كان يجب أن يكون بعد أن تنظم من شأنها في العائلة مركزها في المجتمع".

أيتها السيدات: إذا كنا في الماضي بدأنا بمشاركة الرجال في الاشتغال بتلك المسائل، فعذرنا في هذا أن حالـة البلـد كانت مدة الحرب العالمية وعقبها في مركز استثنائي يثيـر النفس مهما تعودت الصبر، لأن ما نال البلاد في تلك الأيـام



من الغبن وسوء المعاملة كان يحتم على كل كائن فيه إظهار تذمره وصياحه في وجه الظالمين.

أما اليوم وقد استقرت الحالة على نوع ما، ونالت البلاد الحكم الدستوري، فإن من الواجب علينا أن نترك تلك الأمور السياسية مؤقتًا اكتفاء بأولي الشأن فيها من الرجال لنتفرغ لما هو خاص بنا. على إننا قد رأينا بالرغم من مشاركتنا للرجال عدة سنوات – إهمالهم شأن المرأة في تقرير حقها السياسي، حتى في أبسط الحقوق الأولية كقبولها ناخبة، مع أن هذا حق لكل رجل مهما كانت درجته من الجهالة وتجرده من أي ميزة تميزه عن أقل امرأة في الهيئة الاجتماعية، لذلك كانت دعوة اليوم للتحدث معكن فيما تم على يد جمعية الاتحاد النسائي التي لها الحظ الأوفر بمعاضدتكن لها واشتراككن فيها، ولست بحاجة إلى أن أذكركن أن هذه الجمعية تأسست سنة ١٩٢٣ لتكون واسطة تعارف وتعاون بين المرأة المصرية وأختها الغربية. لقد كان هذا التعارف ضروريا جدا لإزالة ما علق بأذهان الغربيين من تصور المرأة المصرية عضوا أشل أو لعبة من لعب الزنية في أيدي الرجال، ولست



أدعي أن الجمعية استطاعت أن تحقق كثيرا من مقاصدها، وذلك:

أولاً- لأن كل عمل إصلاحي تعترضه في بدايته عقبات من ذوي الأفكار الرجعية الذين انطبعوا بطابع التقليد العتيقة الجامدة.

ثانيا- لأن المعونة اللازمة لتقوية هذه الجمعية ونشر مبادئها، لم تكن مصحوبة بالغيرة الكافية والمثابرة الواجبة.

سيداتي: بالرغم من السببين السالفين، وبالرغم من أن العاملات المثابرات على خدمة هذه الجمعية من أعضائها لم يزدن على عدد أصابع اليد إلى اليوم.. وبالرغم من كل ذلك، أتت هذه الجمعية بثمرات باهرة في خارج القطر وداخله، ونالت من حسن السمعة ما يشجعنا على مضاعفة مجهوداتنا، ويقوي يقيننا في قرب تحقيق أغراضنا.

أيتها السيدات: عقب إنشاء هذه الجمعية، سافر أول وفد عنها إلى المؤتمر النسائي الدولي العام الذي عقد بمدينة روما في مايو ١٩٢٣. وهناك تبينت رسلكن وكادت تلمس الفرق العظيم بين حياة المرأة الغربية ومركزها في الهيئة

الاجتماعية وبين زميلتها في الشرق، وقد كان هـذا الـدرس أول قبس اتخذ أساسا لوضع قواعد الإصلاح الواجبة للمـرأة عندنا، لذلك فكرنا فيما يجب أن نبدأ به، لـذلك فكرنـا فـي الإصلاح وتنظيم حالة العائلة.

ولما كان الزواج أول مرحلة من مراحل تأسيس العائلـة، كان الاشتغال بتنظيمه الحجر الأول في بناء الإصلاح، ولما كان الزواج المبكر عندنا هو أول عقبة تحول بين الفتاة وبين تكوينها تكوينًا صحيحا ينهض بها في معترك الحياة، وكـان هذا النوع من الزواج شائعا بطريقة مفزعة في أنحاء القطـر ولا سيما في القرى والريف: رأينا أن نبـدأ عملنـا بطلـب تشريع يعصم الفتاة من الزواج قبل بلوغها السادسة عشـرة من عمرها، ليكون لديها من الوقـت مـا يسـمح لجسـمها بالتكوين ولعقلها بالتهذيب والتثقيف.

وقد كان نظام التعليم لذلك الوقت يحول بين الفتاة وبـين أمانيها في التعليم الثانوي، فطلبنا أيضا إلى الحكومة أن تذلل هذه العقبة وتساوي بين الولد والبنت فـي جميـع درجـات التعليم.

سيداتي: تذكرن أن وفدا منكن ذهب بتقرير أقرتـه هـذه الجمعية إلى رئيس الوزارة يومئذ صاحب الدولة يحيى باشـا إبراهيم، ومما يستحق أن يخلد بجميل الذكر ما نالتـه هـذه الطلبات من عناية دولته؛ إذ قبل انقضاء سنة ١٩٢٣ صـدر المرسوم بمنع مأذوني عقود الزواج عن تحريـر أي عقـد إلا بعد التثبت من بلوغ البنت السادسة عشرة مـن عمرهـا والولد الثامنة عشرة.

وفيما يتعلق بطلب المساواة في التعليم بين الجنسين، قـد تلقت الجمعية من صاحب المعالي زكي باشا أبـو السـعود وزير المعارف في ذلك الوقت كتابا أنه أخذ في درس هـذا الطلب ويعد تحقيقه وإجابته قريبا، وها قد تحقق أمر المساواة في التعليم من أوائل سنة ١٩٢٤.

إذا ذكرنا هذا – ونحن نغتبط بما صادفناه من النجـاح - فلا يسعنا أن نمر بدون إظهار أسفنا واستيائنا مما تلا مرسوم الزواج الصريح من صدور منشـور سـنة ١٩٢٤ يفسـره تفسيرا لا يتفق والروح التشريعية التي صدر مـن أجلهـا، إذ إن الحكمة في هذا التشريع صيانة البنـت مـن تصـرف والديها تصرفًا ضارا بتزويجها تزويجا مبكرا قبل بلوغ تلك

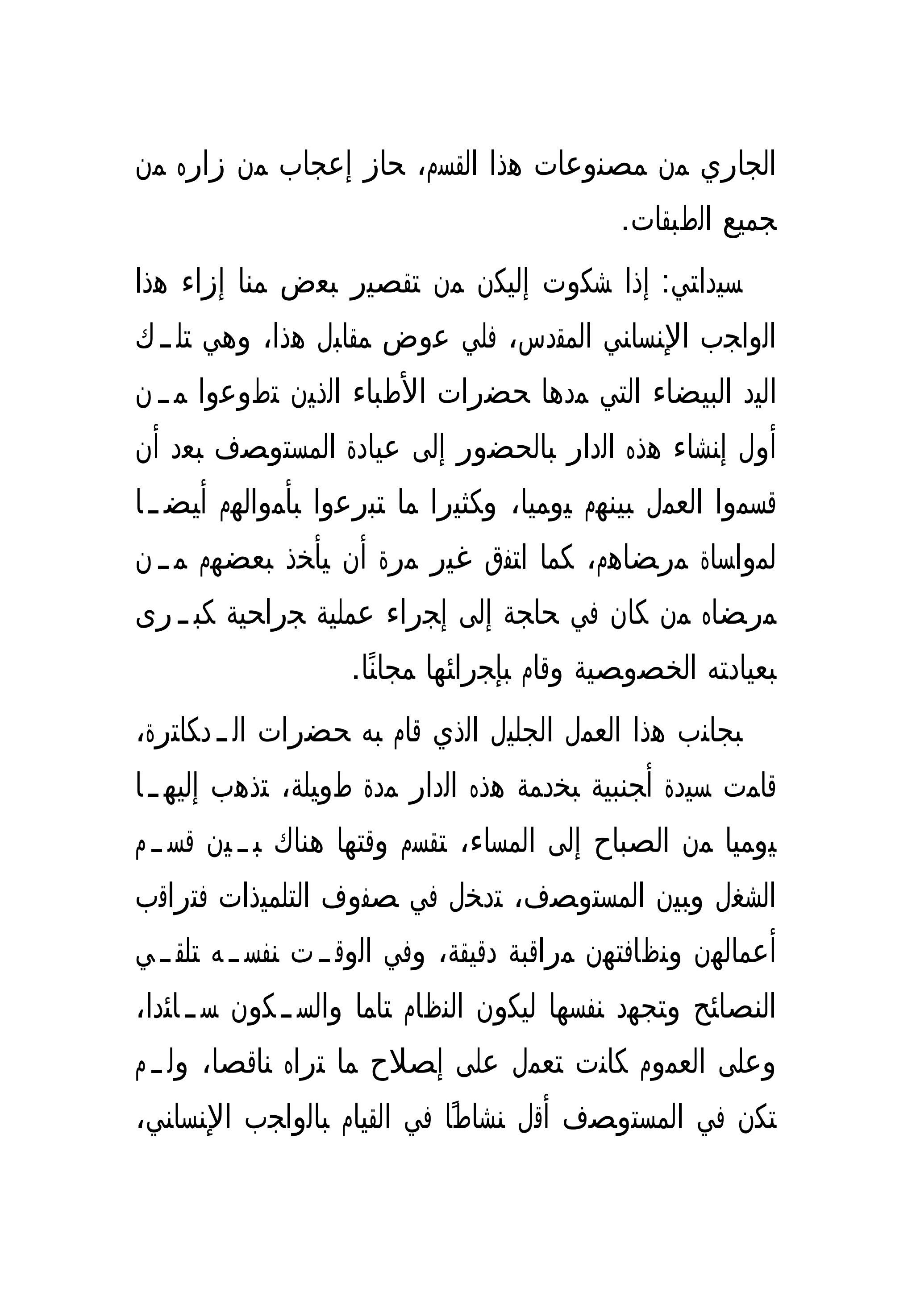
السن، فوزير الحقانية أجاز للقضاة في تفسيره أن يقبلوا زواج أية فتاة مما كانت سنها إذا شهد أبواها أو أحد من أولياء أمرها أنها بلغت السادسة عشرة دون أن يقدموا مع هذه الشهادة ما يؤيدها كورقة الميلاد أو أي وثيقة أخرى رسمية، فكأنه في ذلك اعتبر الخصم حكما، وبهذا أضاع المصلحة وساعد الأولياء على تأدية شهادة قد لا تكون في كثير من الأحوال متفقة مع الواقع.

وإنني في هذا المقام مضطرة لأن أطلب من الجمعية الاحتجاج على هذا المنشور، وأن يطلب من معالي وزير الحقانية الحالي إلغاؤه.

أيتها السيدات: إن نجاح الجمعية في فتح طريق التعليم للفتاة إلى آخر مدى، جعلنا نفكر فيما عسى أن يكون من مركز الأم الجاهلة أمام ابنتها المتعلمة؛ إذ كما بعدت الثقة بينهما في قوة الإدراك والحكم على الأشياء ضعف نفوذ الأم وكرامتها في نفس ابنتها، فرأينا علاجا لهذه الحالة أن نصرف همنا أيضا لإصلاح الأم وترقيتها بقدر الإمكان، فأنشأنا دارا سميت "دار التعاون الإصلاحي" لتدريب الأمهات على المسائل الأولية المنزلية وتعليمها مبادئ القراءة والكتابة

والحساب وبعض الصنائع اليدوية، وجعلنا بهذه الدار قسـما آخر لمعالجة من يؤمه من المرضـى الفقيـرات وصـرف الأدوية مجانًا وتقديم النصائح في كيفيـة تنظيـف أولادهـن وتمريضهن وإلقاء محاضرات في قانون الصحة. وكان لنـا رجاء أن تنال هذه الدار إقبالاً مـن الأمهـات والزوجـات الفقيرات معاضدة من السيدات بتطوع فريق منهن لإلقاء هذه المحاضرات والنصائح الصحية بالتناوب بينهن من يوم لآخر وبالمساعدة المالية التي تمكن الجمعية من إنشاء دور أخرى على هذا النمط في أنحاء متعددة من المدينة، ولكن بقيت هذه الدار وحيدة إلى اليوم، ومما يؤسف له أن السيدات القلـيلات اللاتي تطوعن في بداية الأمر لإلقاء النصائح على الأمهات، حينما انقطعن عن العمل لأسباب مختلفة، لم يتقدم من يخلفهن في القيام بهذا الواجب الإنساني، وصار القسم الصحي عيادة عادية كالعيادات الأخرى المخصصة للفقراء.

أما القسم الخاص بتعليم القراءة والأشغال، فقد علمتن مـا وصل إليه من الرقي والنجاح في مـدة قصـيرة، وأن مـا عرض بنادي الاتحاد النسائي بقصر الدوبارة في أوائل الشهر


الجاري من مصنوعات هذا القسم، حاز إعجاب من زاره من جميع الطبقات.

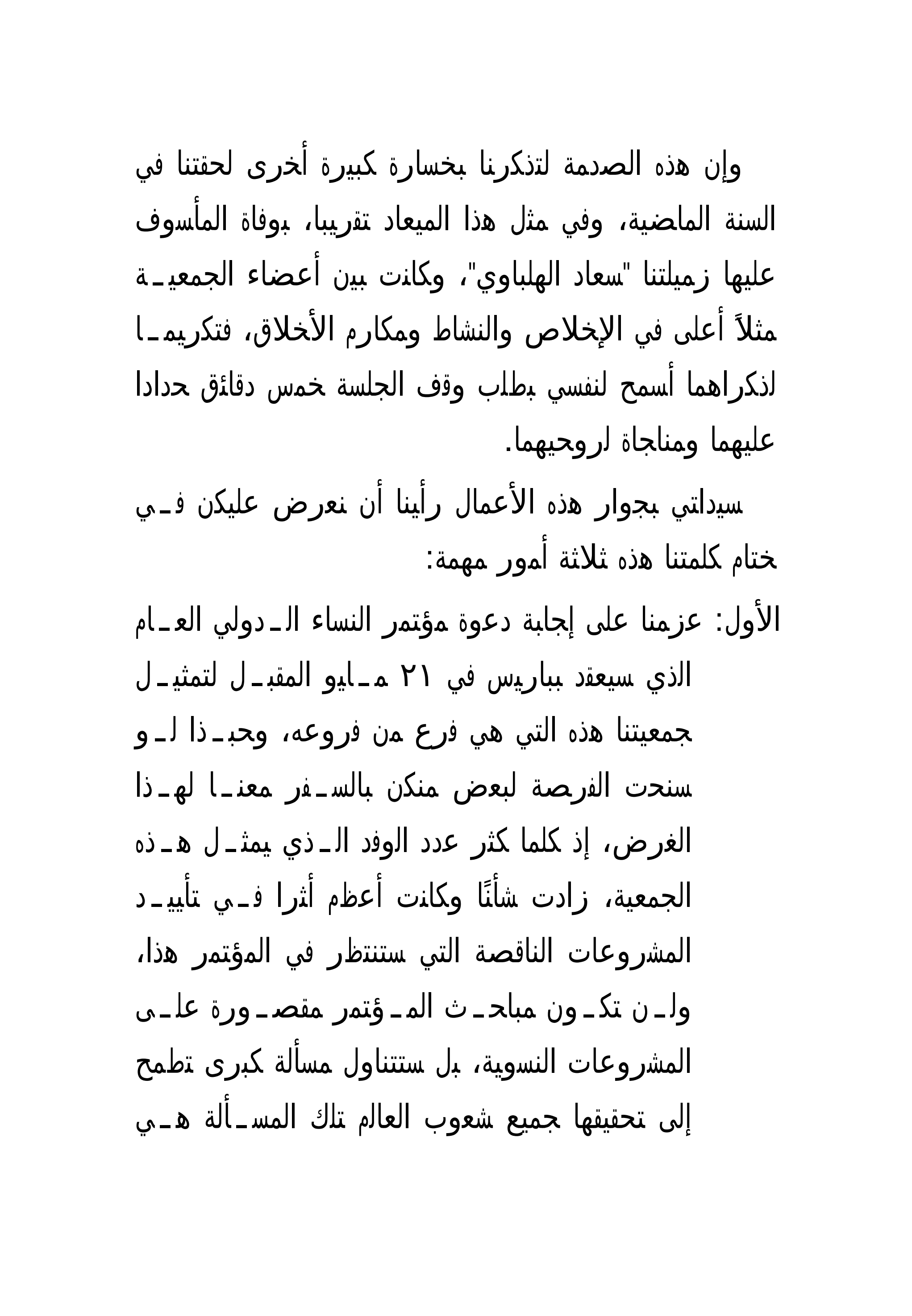
سيداتي: إذا شكوت إليكن من تقصير بعض منا إزاء هذا الواجب الإنساني المقدس، فلي عوض مقابل هذا، وهي تلـك اليد البيضاء التي مدها حضرات الأطباء الذين تطوعوا مـن أول إنشاء هذه الدار بالحضور إلى عيادة المستوصف بعد أن قسموا العمل بينهم يوميا، وكثيرا ما تبرعوا بأموالهم أيضـا لمواساة مرضاهم، كما اتفق غير مرة أن يأخذ بعضهم مـن مرضاه من كان في حاجة إلى إجراء عملية جراحية كبـرى بعيادته الخصوصية وقام بإجرائها مجانًا.

بجانب هذا العمل الجليل الذي قام به حضرات الـدكاترة، قامت سيدة أجنبية بخدمة هذه الدار مدة طويلة، تذهب إليهـا يوميا من الصباح إلى المساء، تقسم وقتها هناك بـين قسـم الشغل وبين المستوصف، تدخل في صفوف التلميذات فتراقب أعمالهن ونظافتهن مراقبة دقيقة، وفي الوقـت نفسـه تلقـي النصائح وتجهد نفسها ليكون النظام تاما والسـكون سـائدا، وعلى العموم كانت تعمل على إصلاح ما تراه ناقصا، ولـم تكن في المستوصف أقل نشاطًا في القيام بالواجب الإنساني،

وطالما ذهبت إلى بيوت المرضى لتتحقق من حالها الصحية وما تحتاج إليه، وما كانت تطرق هذه المنازل كزائرة عادية ولكن كناصحة ومرشدة للخير.

تلك السيدة اليابانية حرم المرحوم أحمد بك فضلي، وفي الواقع كانت اليد اليمنى لإدارة هذه الدار، وكل ما رأيته من تقدم ونجاح، فإنما هو ثمرات مجهودات هذه السيدة الفاضلة. وأنه ليحزنني جدا أن أخبركن أن هذه السيدة بارحت القطر في أوائل هذا الشهر، وقد دعتها إلى السفر ضرورات شخصية، فشيعت منا ومن كل من يعرفها بالعبرات والحسرات.

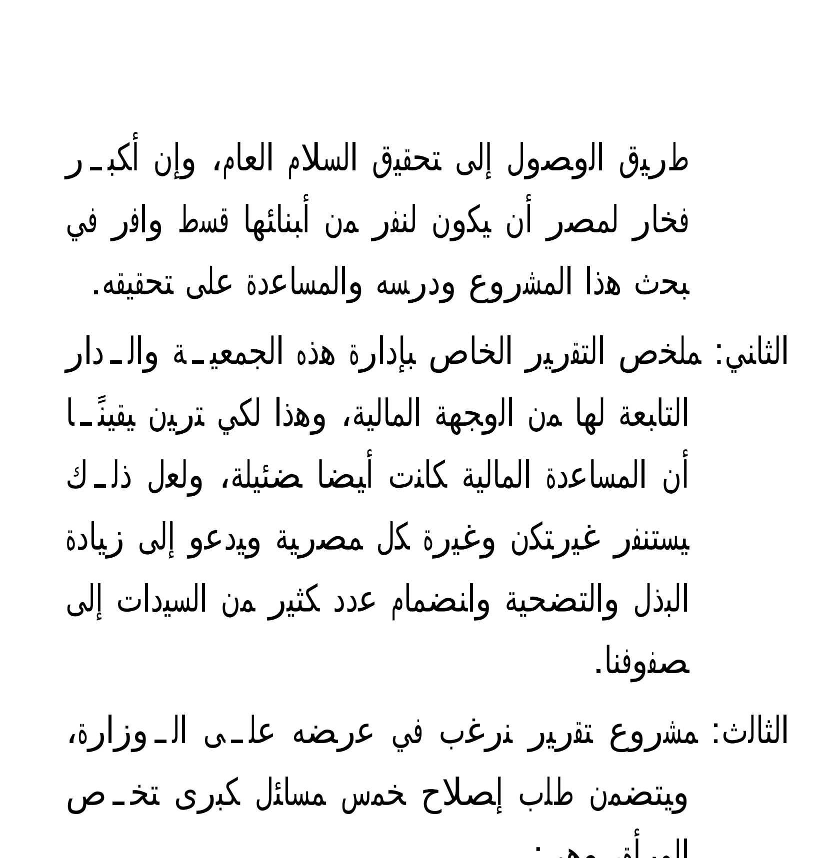
بعد هذا فوجئنا بصدمة أخرى لوفاة عضو عامل كفؤ في جمعيتنا، تلك هي صغرى أخواتنا الناهضات العاملات الآنسة "فكرية الصلح" وافتها المنية في الأسبوع الماضي وهي في الثالثة والعشرين من عمرها في السن التي لا تفكر فيها مثيلاتها إلا في ملابسهن وزينتهن، كانت كرفيقتها مدام فضلي بك تمضي أيامها في دار الإصلاح دون أن تضن بوقتها ومجهوداتها.



وإن هذه الصدمة لتذكرنا بخسارة كبيرة أخرى لحقتنا في السنة الماضية، وفي مثل هذا الميعاد تقريبا، بوفاة المأسوف عليها زميلتنا "سعاد الهلباوي"، وكانت بين أعضاء الجمعيـة مثلاً أعلى في الإخلاص والنشاط ومكارم الأخلاق، فتكريمـا لذكراهما أسمح لنفسي بطلب وقف الجلسة خمس دقائق حدادا عليهما ومناجاة لروحيهما.

سيداتي بجوار هذه الأعمال رأينا أن نعرض عليكن فـي ختام كلمتنا هذه ثلاثة أمور مهمة:

الأول: عزمنا على إجابة دعوة مؤتمر النساء الـدولي العـام الذي سيعقد بباريس في ٢١ مـايو المقبـل لتمثيـل جمعيتنا هذه التي هي فرع من فروعه، وحبـذا لـو سنحت الفرصة لبعض منكن بالسـفر معنـا لهـذا الغرض، إذ كلما كثر عدد الوفد الـذي يمثـل هـذه الجمعية، زادت شأنًا وكانت أعظم أثرا فـي تأييـد المشروعات الناقصة التي ستنتظر في المؤتمر هذا، ولـن تكـون مباحـث المـؤتمر مقصـورة علـى المشروعات النسوية، بل ستتناول مسألة كبرى تطمح إلى تحقيقها جميع شعوب العالم تلك المسـألة هـي



طريق الوصول إلى تحقيق السلام العام، وإن أكبر فخار لمصر أن يكون لنفر من أبنائها قسط وافر في بحث هذا المشروع ودرسه والمساعدة على تحقيقه.

الثاني: ملخص التقرير الخاص بإدارة هذه الجمعية والدار التابعة لها من الوجهة المالية، وهذا لكي ترين يقينًا أن المساعدة المالية كانت أيضا ضئيلة، ولعل ذلك يستنفر غيرتكن وغيرة كل مصرية ويدعو إلى زيادة البذل والتضحية وانضمام عدد كثير من السيدات إلى صفوفنا.

الثالث: مشروع تقرير نرغب في عرضه على الوزارة، ويتضمن طلب إصلاح خمس مسائل كبرى تخص المرأة، وهي:

١- وضع حد لتعدد الزوجات.

٢- وضع حد لفوضى الطلاق الحاصل الآن.

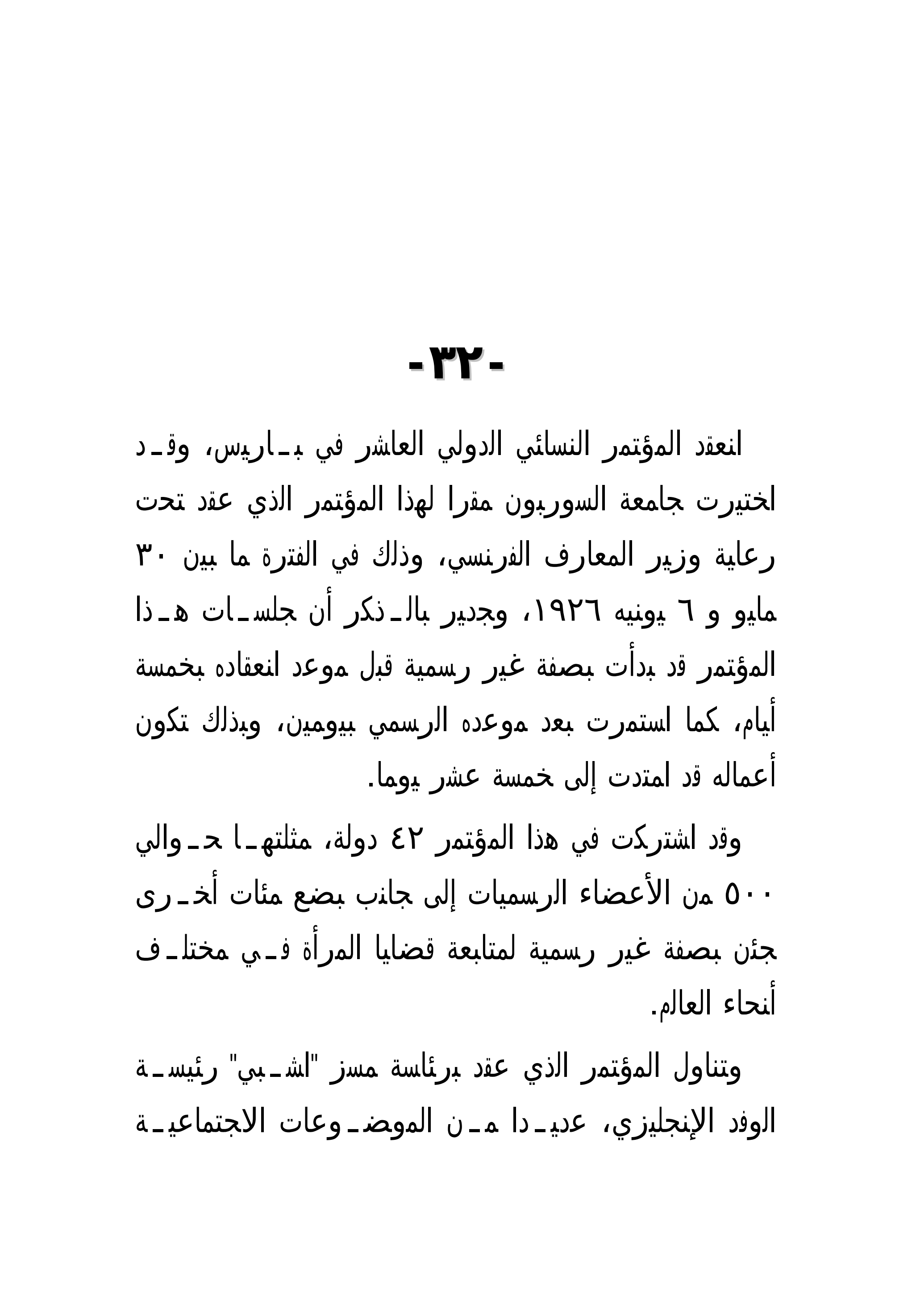
٣- إصلاح القوانين الخاصة بما يسمى دار الطاعة.

٤- حق الأم في حضانة أولادها.

٥- إلغاء منشور سنة ١٩٢٤ المعطل لقانون تحديد سن الزواج.

وإني لا أشك في أنكن ترين المصلحة العظيمة في إقرارنا على هذه المطالب، فأرجو إذا صح ظني هذا أن تنتخبن بعد الموافقة لجنة لتقوم بتقديمه إلى صاحب الدولة رئيس الوزراء وصاحب المعالي وزير الحقانية.

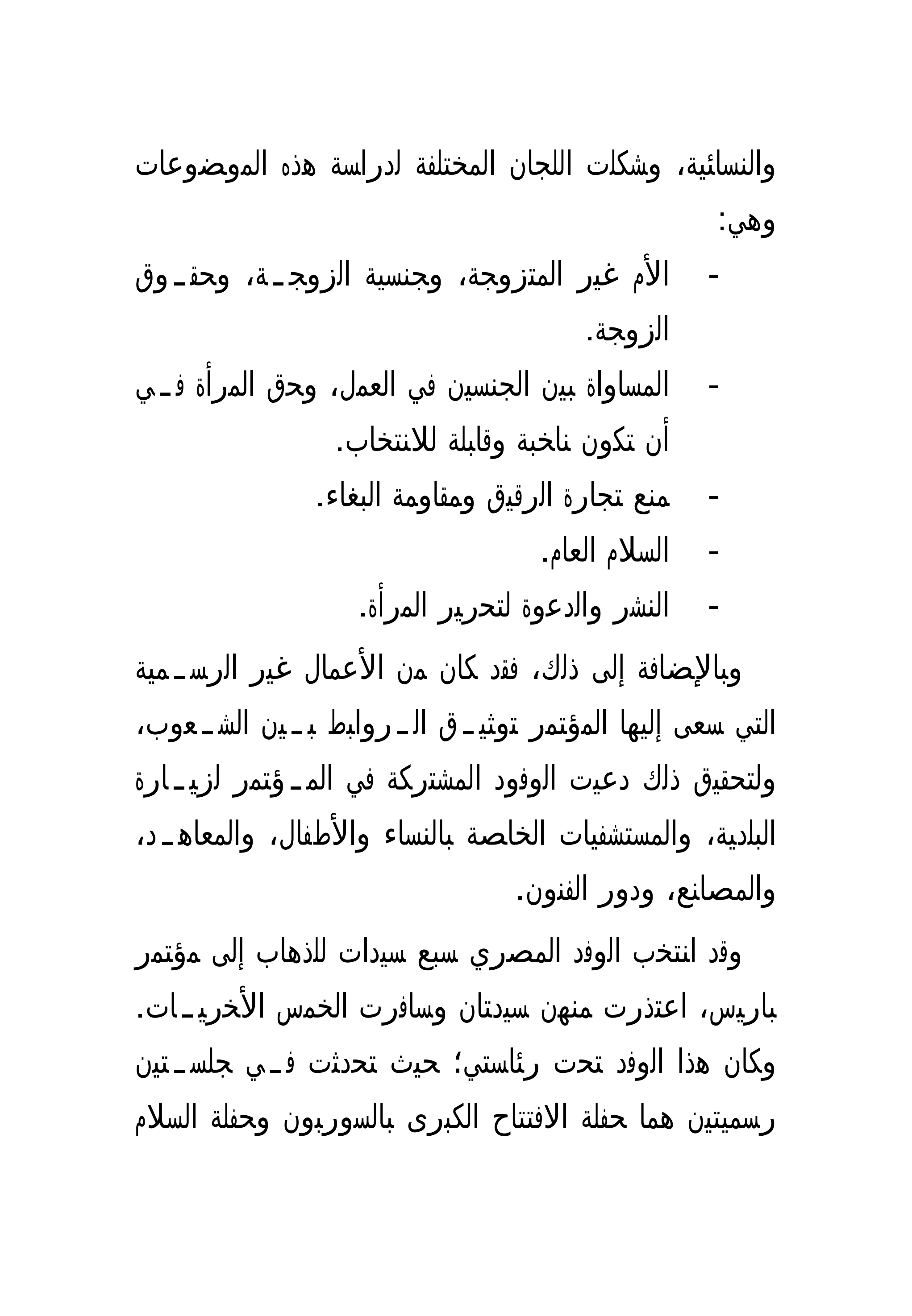
هذا ما أردت بيانه اليوم، وأسأل ا أن يوفقنا جميعا إلـى النجاح.



انعقد المؤتمر النسائي الدولي العاشر في بـاريس، وقـد اختيرت جامعة السوربون مقرا لهذا المؤتمر الذي عقد تحت رعاية وزير المعارف الفرنسي، وذلك في الفترة ما بين ٣٠ مايو و ٦ يونيه ١٩٢٦، وجدير بالـذكر أن جلسـات هـذا المؤتمر قد بدأت بصفة غير رسمية قبل موعد انعقاده بخمسة أيام، كما استمرت بعد موعده الرسمي بيومين، وبذلك تكون أعماله قد امتدت إلى خمسة عشر يوما.

وقد اشتركت في هذا المؤتمر ٤٢ دولة، مثلتهـا حـوالي ٥٠٠ من الأعضاء الرسميات إلى جانب بضع مئات أخـرى جئن بصفة غير رسمية لمتابعة قضايا المرأة فـي مختلـف أنحاء العالم.

وتناول المؤتمر الذي عقد برئاسة مسز "اشـبي" رئيسـة الوفد الإنجليزي، عديـدا مـن الموضـوعات الاجتماعيـة


والنسائية، وشكلت اللجان المختلفة لدراسة هذه الموضوعات وهي:

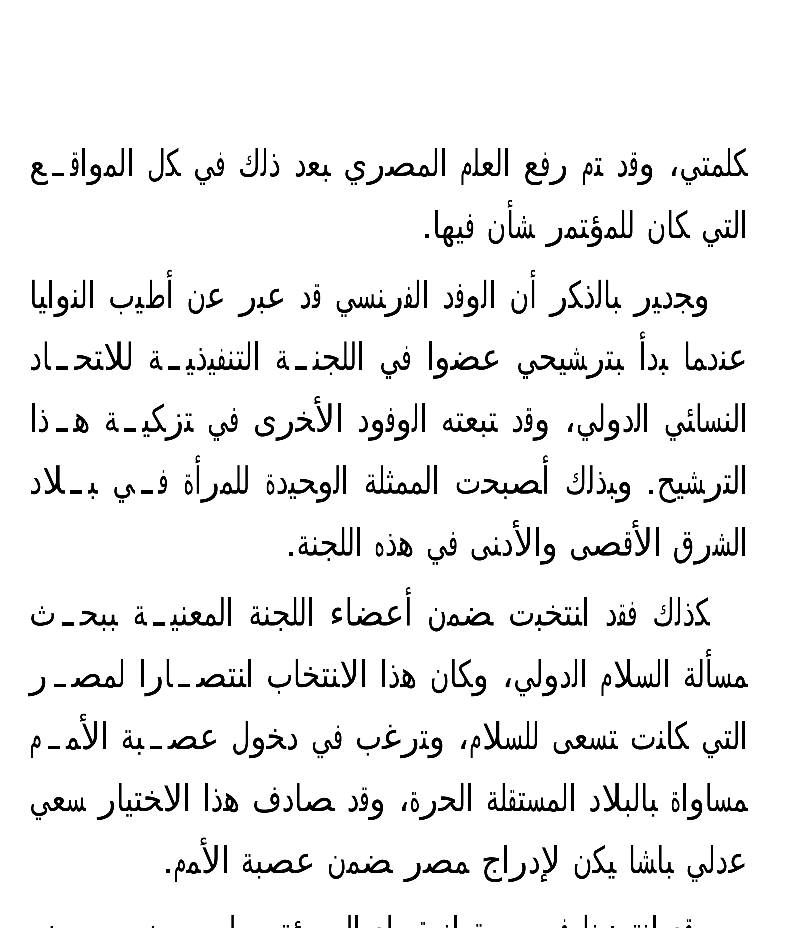
- الأم غير المتزوجة، وجنسية الزوجة، وحقوق الزوجة.
- المساواة بين الجنسين في العمل، وحق المرأة في أن تكون ناخبة وقابلة للانتخاب.
- منع تجارة الرقيق ومقاومة البغاء.
- السلام العام.
- النشر والدعوة لتحرير المرأة.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان من الأعمال غير الرسمية التي سعى إليها المؤتمر توثيق الروابط بين الشعوب، ولتحقيق ذلك دعيت الوفود المشتركة في المؤتمر لزيارة البلدية، والمستشفيات الخاصة بالنساء والأطفال، والمعاهد، والمصانع، ودور الفنون.

وقد انتخب الوفد المصري سبع سيدات للذهاب إلى مؤتمر باريس، اعتذرت منهن سيدتان وسافرت الخمس الأخريات. وكان هذا الوفد تحت رئاستي؛ حيث تحدثت في جلستين رسميتين هما حفلة الافتتاح الكبرى بالسوربون وحفلة السلام

في تروكاديرو، وتحدثت السكرتيرة الآنسة سيزا نبراوي في حفلة ممثلات الشعوب في مركز الجمعيات البلدية، وتحـدثت السيدة استر فهمي ويصا بالإنجليزية عن رأيها في عصـبة الأمم.

وقد وقعت حادثة صغيرة في جلسة الافتتاح، فقد كنت قـد سلمت العلم المصري إلى سكرتارية المؤتمر لترفعـه بـين الأعلام الأخرى في انفتياترو السوربون، ولكن حدث سـهو أدى إلى عدم رفعه وعندما جاء دور مصر في إلقاء كلمتها، بدأت خطبتي بإعلان الأسف إذ لم يكن العلم مرفوعـا بـين الأعلام الأخرى، رغم أن مصر كانت ولا تزال مهد السلام والاعتراف بحقوق المرأة، وهما الأمـران اللـذان اجتمـع المؤتمر للدفاع عنهما. وقد اعتذرت رئيسة المـؤتمر لهـذا النسيان، كما اعتذر وزير المعارف الفرنسي الذي كان يرأس جلسة الافتتاح وأضاف أن مصـر التـي هـي أول مناهـل الحضارة والتي لا تزال تتصل وفرنسا بروابط ود لا تُنسـى لا يمكن أن يحصل إزاءها هذا النقص قصدا بدليل العطـف والتقدير اللذين أظهرهما جمهور الفرنسيين عند قيامي بإلقاء



كلمتي، وقد تم رفع العلم المصري بعد ذلك في كل المواقـع التي كان للمؤتمر شأن فيها.

وجدير بالذكر أن الوفد الفرنسي قد عبر عن أطيب النوايا عندما بدأ بترشيحي عضوا في اللجنـة التنفيذيـة للاتحـاد النسائي الدولي، وقد تبعته الوفود الأخرى في تزكيـة هـذا الترشيح. وبذلك أصبحت الممثلة الوحيدة للمرأة فـي بـلاد الشرق الأقصى والأدنى في هذه اللجنة.

كذلك فقد انتخبت ضمن أعضاء اللجنة المعنيـة ببحـث مسألة السلام الدولي، وكان هذا الانتخاب انتصـارا لمصـر التي كانت تسعى للسلام، وترغب في دخول عصـبة الأمـم مساواة بالبلاد المستقلة الحرة، وقد صادف هذا الاختيار سعي عدلي باشا يكن لإدراج مصر ضمن عصبة الأمم.

وقد انتهزنا فرصـة انعقـاد المـؤتمر لعـرض بعـض المصنوعات المصرية الدقيقة إلى جانب معروضات الـبلاد الأخرى، وقد لقيت مصنوعاتنا إقبالاً ونجاحا كبيرين، وكانت وسيلة طيبة للدعاية لمصر ولقضيتها.

وأذكر أن رئيسة المؤتمر "مسز كوريت اشبي" قد هنأتني على نجاح مجلة "المصرية" واعتبرتها من عوامـل نهضـة

المرأة في مصر والشرق، وترجمانًا عن هذه النهضة في بلاد الغرب؛ حيث كانت تصدر باللغة الفرنسية، وقالت إنها من أرقى المجلات النسوية في العالم.

الحركة النسوية في مصر

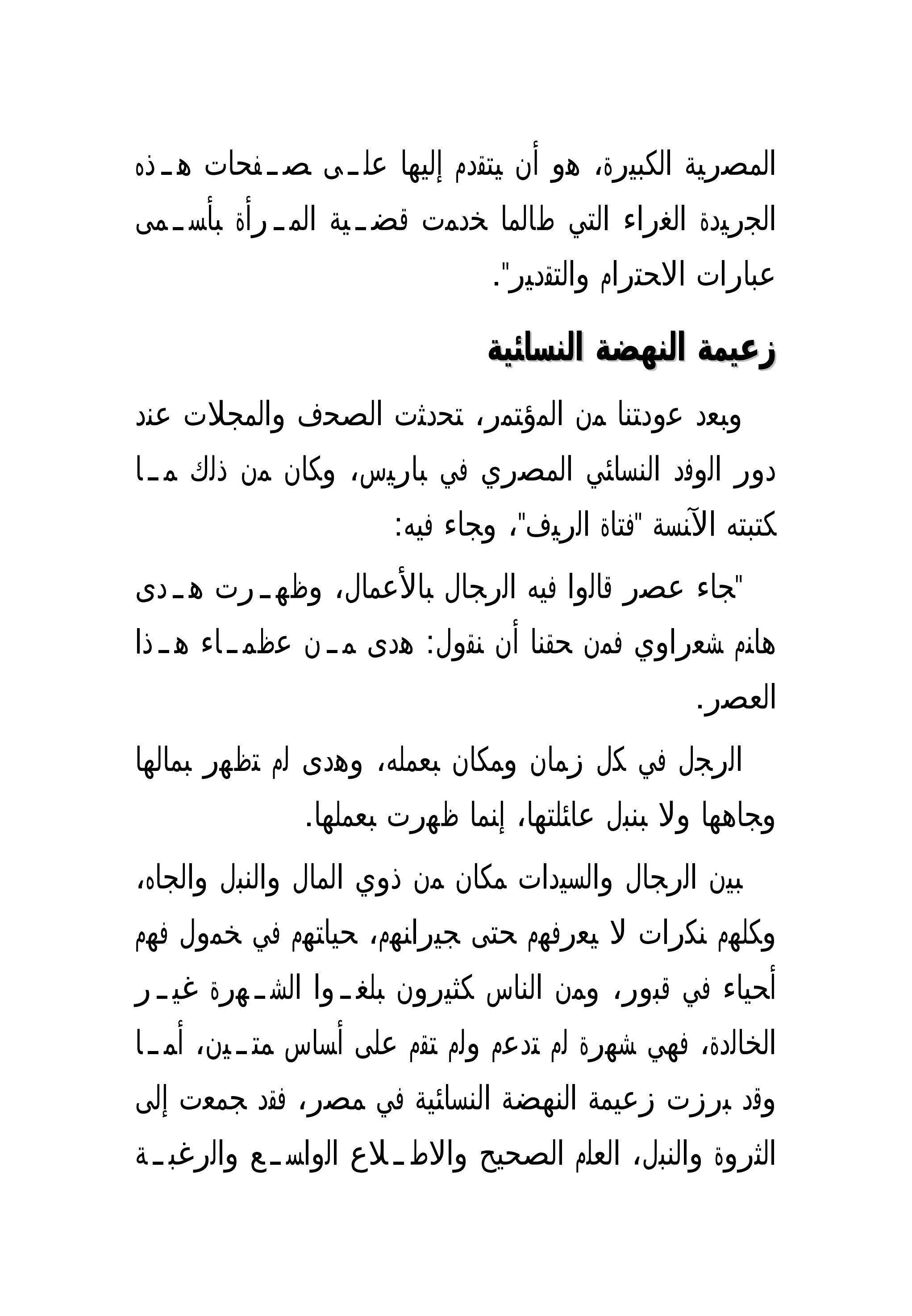
ولقد شهد مندوب جريدة السياسة هذا المؤتمر، وكتب إلى جريدته في أول يوليو ١٩٢٦ يتحدث عن المؤتمر فقال: "لقد ساعدني الحظ في شهود هذا المؤتمر فرأيت كيف تتضافر سيدات العالم في النضال عن حقوقهن وعن حقوق الإنسانية جمعاء، وعجبت كيف لا يزال بين المتعلمين النابهين من يمعن في الأثرة على حساب المرأة، وهي كما جاء في مطالب الاتحاد النسوي المصري نصف المجموع ومربية الجيل القابل جميعه، رجالاً ونساء، شعبا ونوابا. وشهدت المؤتمر وتتبعت آثاره في الإصلاح والنهوض والمعاونة، فازددت يقينًا على يقيني بأحقية المرأة في ضرورة فتح باب المساواة المطلقة يدخل منه كل من يستطيع بمقتضى الأحقية لا بمقتضى النوعية، لأن التمييز النوعي لا يفيد التفوق في الكفاءة.

"على أنه لا محل للصخب ولا للأخذ والرد الآن ولا تزال مطالب المرأة المصرية محدودة ضمن دائرة صغيرة لا تكاد تتعدى إصلاح العائلة، كتحديد الزواج والطلاق، وحماية المطلقة والطفل، ومقاومة الأمراض الضارة بالنسل، وتعميم التعليم الأولي بين الفتيات، وفتح باب التعليم العالي لمن تريد منهن.

وعندي أن وزارة عدلي باشا في غنى عمن يقنعها بأحقية هذه المطالب في العصر الحاضر، وأظن أن ثروت باشا كان قد شكل لجنة في الحقانية لإنصاف المرأة حسبما يوافق الشرع وروح العصر.

وبمناسبة هذا المؤتمر، أقول إن هدى هانم شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي ومؤسسته في مصر ورئيسة الوفد المصري النسائي خارج القطر؛ بذلت من الجهد سابقًا في روما وجراتز وواشنطن وفيينا، ولاحقًا في باريس، ما جعل مصر مرفوعة الرأس موفورة الكرامة.

إن هذه الجهود العظيمة على تواضعها، الشاملة على نزاهة مقصدها، الهادئة على ما فيها من تضحية، لتستحق التقدير، وكل ما يستطيع مثلي لا يملك إلا قليلاً إزاء هذه



المصرية الكبيرة، هو أن يتقدم إليها علـى صـفحات هـذه الجريدة الغراء التي طالما خدمت قضـية المـرأة بأسـمى عبارات الاحترام والتقدير".

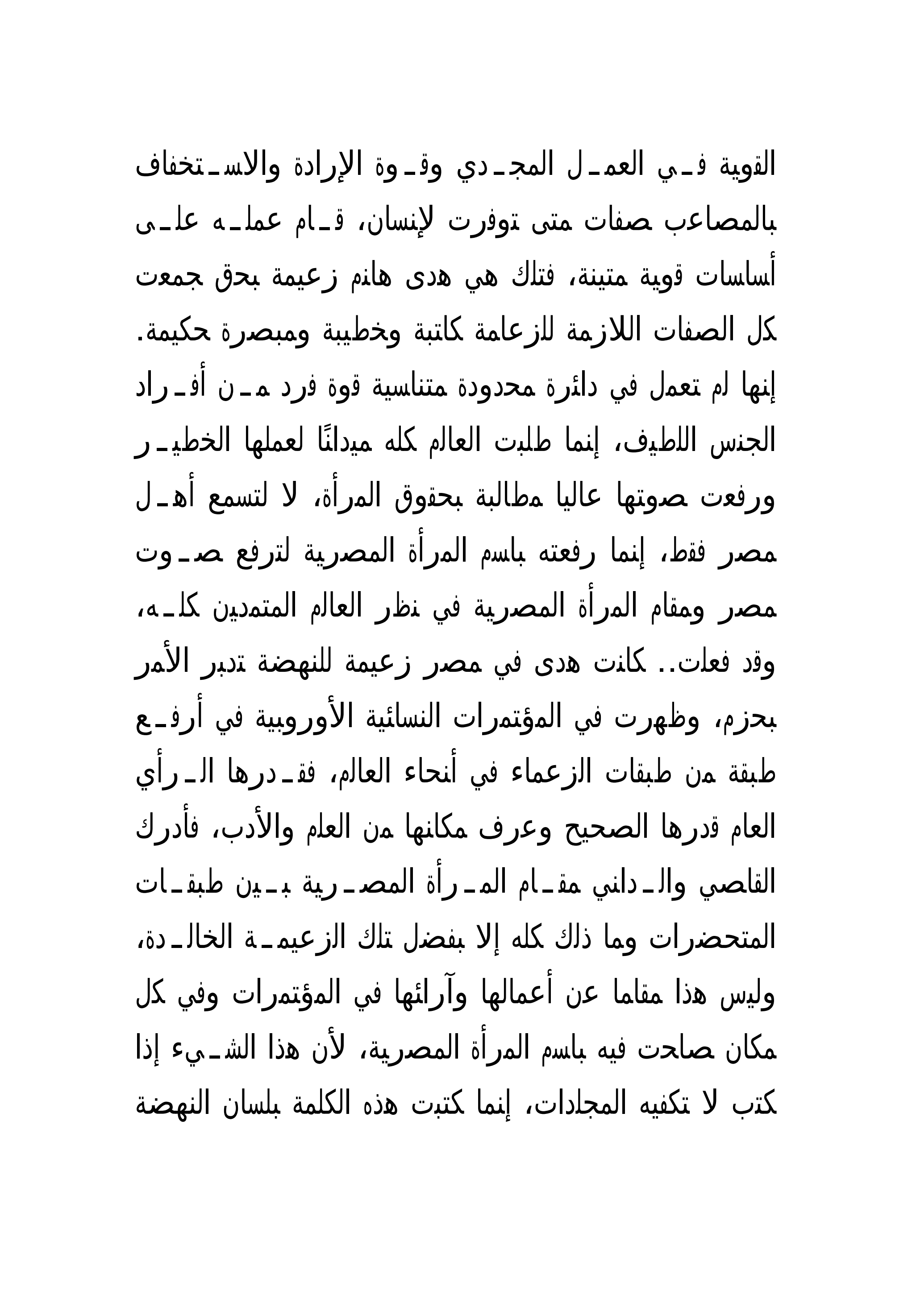
زعيمة النهضة النسائية

وبعد عودتنا من المؤتمر، تحدثت الصحف والمجلات عند دور الوفد النسائي المصري في باريس، وكان من ذلك مـا كتبته الآنسة "فتاة الريف"، وجاء فيه:

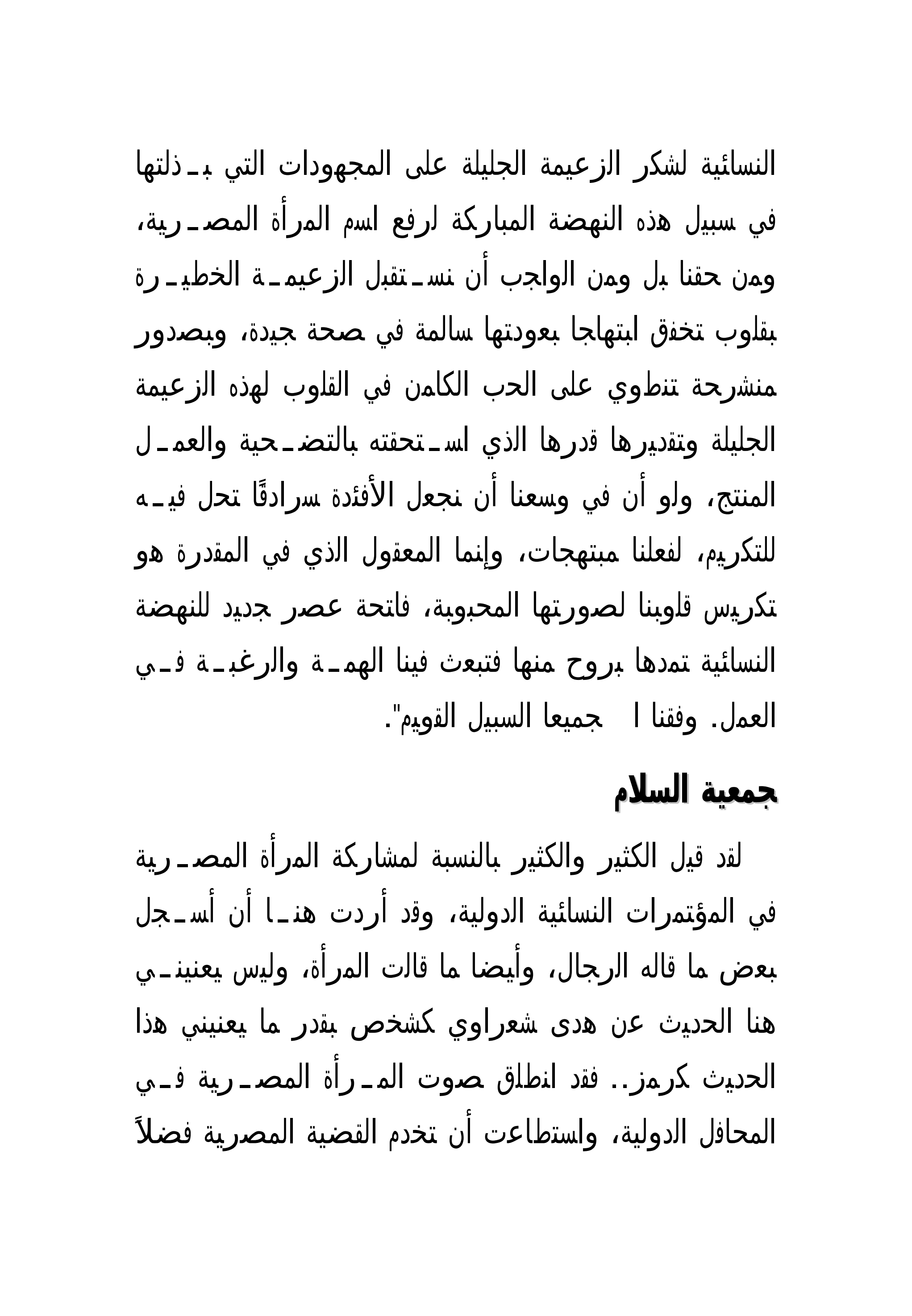
"جاء عصر قالوا فيه الرجال بالأعمال، وظهـرت هـدى هانم شعراوي فمن حقنا أن نقول: هدى مـن عظمـاء هـذا العصر.

الرجل في كل زمان ومكان بعمله، وهدى لم تظهر بمالها وجاهها ولا بنبل عائلتها، إنما ظهرت بعملها.

بين الرجال والسيدات مكان من ذوي المال والنبل والجاه، وكلهم نكرات لا يعرفهم حتى جيرانهم، حياتهم في خمول فهم أحياء في قبور، ومن الناس كثيرون بلغـوا الشـهرة غيـر الخالدة، فهي شهرة لم تدعم ولم تقم على أساس متـين، أمـا وقد برزت زعيمة النهضة النسائية في مصر، فقد جمعت إلى الثروة والنبل، العلم الصحيح والاطـلاع الواسـع والرغبـة



القوية فـي العمـل المجـدي وقـوة الإرادة والاسـتخفاف بالمصاعب صفات متى توفرت لإنسان، قـام عملـه علـى أساسات قوية متينة، فتلك هي هدى هانم زعيمة بحق جمعت كل الصفات اللازمة للزعامة كاتبة وخطيبة ومبصرة حكيمة. إنها لم تعمل في دائرة محدودة متناسية قوة فرد مـن أفـراد الجنس اللطيف، إنما طلبت العالم كله ميدانًا لعملها الخطيـر ورفعت صوتها عاليا مطالبة بحقوق المرأة، لا لتسمع أهـل مصر فقط، إنما رفعته باسم المرأة المصرية لترفع صـوت مصر ومقام المرأة المصرية في نظر العالم المتمدين كلـه، وقد فعلت.. كانت هدى في مصر زعيمة للنهضة تدبر الأمر بحزم، وظهرت في المؤتمرات النسائية الأوروبية في أرفـع طبقة من طبقات الزعماء في أنحاء العالم، فقـدرها الـرأي العام قدرها الصحيح وعرف مكانها من العلم والأدب، فأدرك القاصي والـداني مقـام المـرأة المصـرية بـين طبقـات المتحضرات وما ذلك كله إلا بفضل تلك الزعيمـة الخالـدة، وليس هذا مقاما عن أعمالها وآرائها في المؤتمرات وفي كل مكان صاحت فيه باسم المرأة المصرية، لأن هذا الشـيء إذا كتب لا تكفيه المجلدات، إنما كتبت هذه الكلمة بلسان النهضة



النسائية لشكر الزعيمة الجليلة على المجهودات التي بـذلتها في سبيل هذه النهضة المباركة لرفع اسم المرأة المصـرية، ومن حقنا بل ومن الواجب أن نسـتقبل الزعيمـة الخطيـرة بقلوب تخفق ابتهاجا بعودتها سالمة في صحة جيدة، وبصدور منشرحة تنطوي على الحب الكامن في القلوب لهذه الزعيمة الجليلة وتقديرها قدرها الذي اسـتحقته بالتضـحية والعمـل المنتج، ولو أن في وسعنا أن نجعل الأفئدة سرادقًا تحل فيـه للتكريم، لفعلنا مبتهجات، وإنما المعقول الذي في المقدرة هو تكريس قلوبنا لصورتها المحبوبة، فاتحة عصر جديد للنهضة النسائية تمدها بروح منها فتبعث فينا الهمـة والرغبـة فـي العمل. وفقنا ا جميعا السبيل القويم".

جمعية السلام

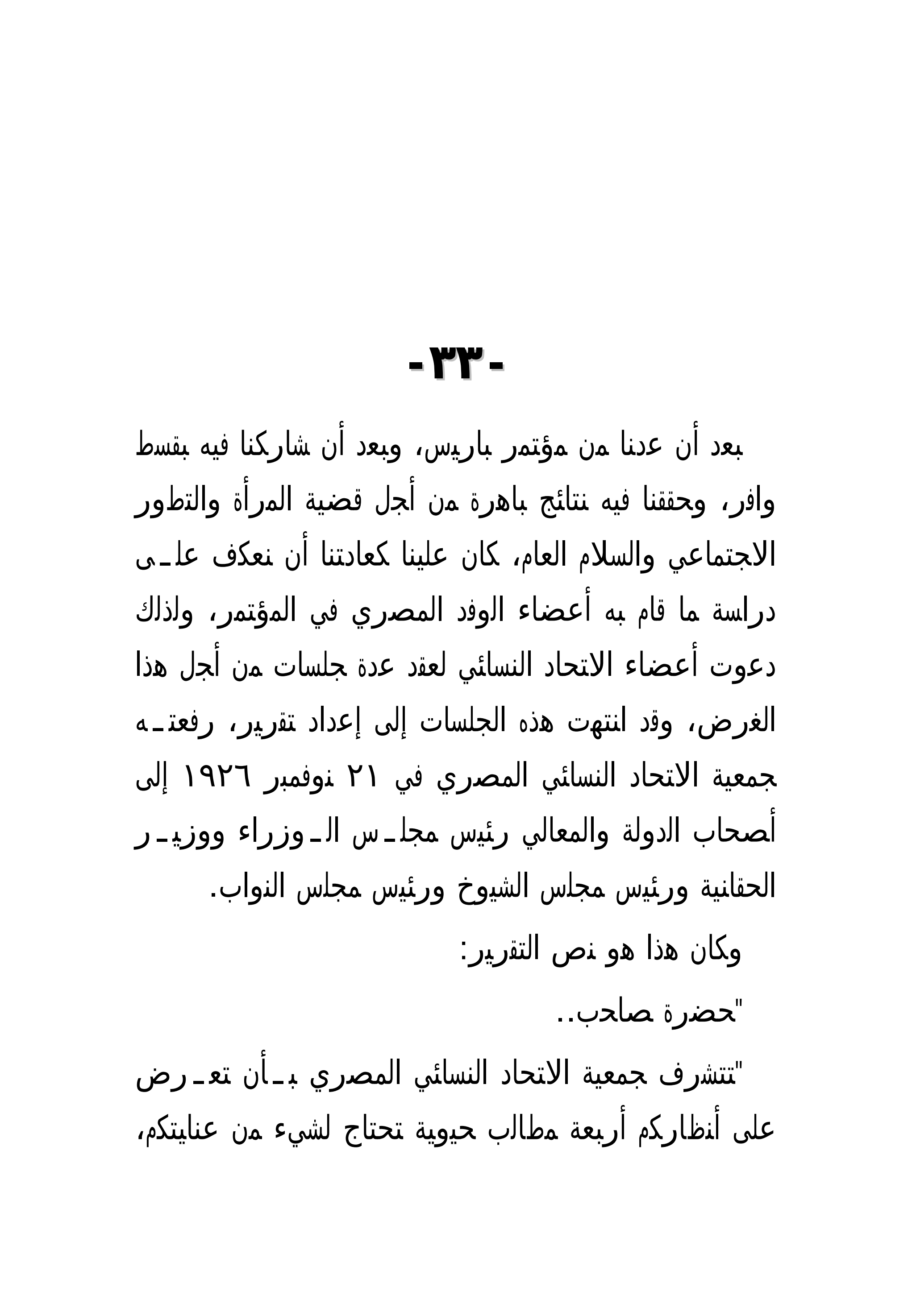
لقد قيل الكثير والكثير بالنسبة لمشاركة المرأة المصـرية في المؤتمرات النسائية الدولية، وقد أردت هنـا أن أسـجل بعض ما قاله الرجال، وأيضا ما قالت المرأة، وليس يعنينـي هنا الحديث عن هدى شعراوي كشخص بقدر ما يعنيني هذا الحديث كرمز.. فقد انطلق صوت المـرأة المصـرية فـي المحافل الدولية، واستطاعت أن تخدم القضية المصرية فضلاً

عن خدمة القضايا النسوية والاجتماعية.

لقد كتبت الصحف تقول: "خطبت السيدة هدى شعراوي وهي لابسة الثوب الوطني عن النساء المصريات، وكان الاستحسان العظيم الذي قوبلت به خطبتها بمثابة أعظم "بروباجندا" لمصر في الصحف العديدة والأوساط الكثيرة، وقد أذيعت الخطبة باللاسلكي".

ومن هذه السطور، يبرز معنى إننا كنا نحمل رسالة مصر إلى كل مكان، ونعبر عن وجه مصر في كل مؤتمر، ونتحدث باسم مصر في كل موقع.

ومن أجل هذا الهدف أيضا ذهبت إلى جنيف في سبتمبر من العام نفسه تلبية لدعوة من المكتب الدولي لجمعية السلام، باعتباري عضوا فيه، لحضور الاجتماعات والمناقشات الخاصة بتقرير أفضل الوسائل لاشتراك النساء في خدمة السلام العام، وقد انتهزت فرصة هذه الاجتماعات لكي أتحدث عن التطور العقلي للحركة النسائية المصرية، وأذكر أن أعضاء المكتب قد قابلن حديثي بإعجاب وتقدير، وكان هذا تعبيرا عن نظرة مصر إلى السلام، وعن جهادها من أجله، وعن دفاعها عن حق الشعوب في أن تعيش حرة كريمة في ظل السلام.

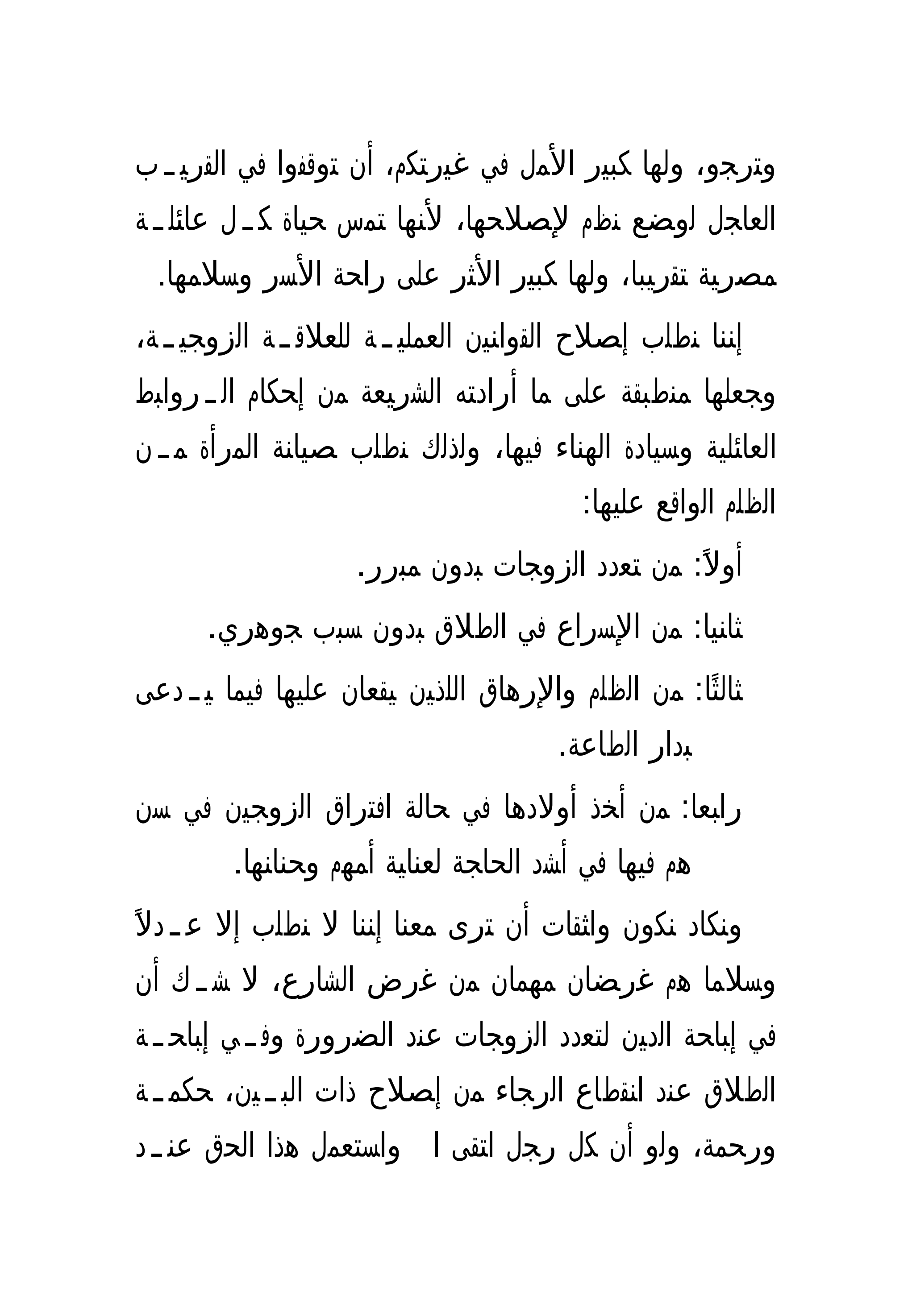


بعد أن عدنا من مؤتمر باريس، وبعد أن شاركنا فيه بقسط وافر، وحققنا فيه نتائج باهرة من أجل قضية المرأة والتطور الاجتماعي والسلام العام، كان علينا كعادتنا أن نعكف علـى دراسة ما قام به أعضاء الوفد المصري في المؤتمر، ولذلك دعوت أعضاء الاتحاد النسائي لعقد عدة جلسات من أجل هذا الغرض، وقد انتهت هذه الجلسات إلى إعداد تقرير، رفعتـه جمعية الاتحاد النسائي المصري في ٢١ نوفمبر ١٩٢٦ إلى أصحاب الدولة والمعالي رئيس مجلـس الـوزراء ووزيـر الحقانية ورئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب.

وكان هذا هو نص التقرير:

"حضرة صاحب..

"تتشرف جمعية الاتحاد النسائي المصري بـأن تعـرض على أنظاركم أربعة مطالب حيوية تحتاج لشيء من عنايتكم،



وترجو، ولها كبير الأمل في غيرتكم، أن توقفوا في القريب العاجل لوضع نظم لإصلاحها، لأنها تمس حياة كل عائلة مصرية تقريبا، ولها كبير الأثر على راحة الأسر وسلامها.

إننا نطلب إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية، وجعلها منطبقة على ما أرادته الشريعة من إحكام الروابط العائلية وسيادة الهناء فيها، ولذلك نطلب صيانة المرأة من الظلم الواقع عليها:

أولاً: من تعدد الزوجات بدون مبرر.

ثانيا: من الإسراع في الطلاق بدون سبب جوهري.

ثالثًا: من الظلم والإرهاق اللذين يقعان عليها فيما يدعى بدار الطاعة.

رابعا: من أخذ أولادها في حالة افتراق الزوجين في سن هم فيها في أشد الحاجة لعناية أمهم وحنانها.

ونكاد نكون واثقات أن ترى معنا إننا لا نطلب إلا عدلاً وسلاما هم غرضان مهمان من غرض الشارع، لا شك أن في إباحة الدين لتعدد الزوجات عند الضرورة وفي إباحة الطلاق عند انقطاع الرجاء من إصلاح ذات البين، حكمة ورحمة، ولو أن كل رجل اتقى ا واستعمل هذا الحق عند

الضرورات التي شرع لها، لما كان هناك محـل للشـكوى، غير أن هذين السلاحين اللذين أوجدهما الشارع ليكونا نعمـة ورحمة عند الضرورة، أسيء ويساء استعمالهما خصوصـا من الجمهور الجاهل وهو الأغلبية الساحقة في هذه الـبلاد، وأصبحنا.. وهذا السلاحان سيفا نقمة مسلولان يهددان هنـاء العائلات وسلامها، ومن أدرى سواكم بعدد ضـحايا الظلـم والجهل.

فإذا نحن طالبنا بسـن قـانون يمنـع تعـدد الزوجـات إلا لضرورة، كأن تكون الزوجة عقيما أو مريضة بمـرض يمنعها من أداء وظيفتها الزوجية (وفي هذه الحالات يجب أن يثبت ذلك الطبيب). وإذا نحن طالبنا بسن قانون يلزم المطلق إلا يطلق زوجه إلا أمام القاضي الشرعي الذي عليه معالجة التوفيق بحضور حكم من أهله وحكم من أهلها قبـل الحكـم بالطلاق، فلأن هذه القوانين تزيل الفوضـى الحاصـلة فـي مسائل الزواج والطلاق، وبالتالي تزيل التعس والشقاء اللذين يرزح تحتهما الألوف من النساء بسبب سوء تصرف الرجال في ذلك الحق، فكم من نساء يطلقن لأوهى الأسـباب، وفـي لحظة تنحل الرابطة العائلية المقدسة، وكم من نساء يتـزوج

أزواجهن بغيرهن لغير سبب إلا أنانية الرجل ناهيك بما يصيب الأولاد في الحالتين من جراء قطع الصلة بين والديهم، مما لا يحتاج إلى شرح.

أخطر من السجن!

"أما المسألة الثالثة، أي إكراه الزوجة على الذهاب إلى ما يدعى دار الطاعة، فتتطلب النظر في تحديد الحقوق المقررة في باب ولاية الزوج وما يدعيه من الحقوق على زوجته، لأن المسألة من الأهمية بمكان وأصبحت سلاحا يستعمله الرجل حينما تخرج زوجته من دار الزوجية لسوء معاملته أو تعذر العيش معه بهدوء وراحة. تخرج فيتركها تخرج لأي وقت شاءت، وقد يجد سعادة في هذا الفراق. فإن حدثتها نفسها بطلب الإنفاق عليها (وقد يكون الباعث لها على هذا الرغبة هو الطلاق من الزوج)، تراه يطلب من القاضي الشرعي الحكم عليها، لا رغبة في معاشرتها، وإنما هو سلاح يريد إكراهها به (إن كانت موسرة) على إعطائه مبلغًا مقابل الطلاق، وإن كانت معسرة فلإكراهها على إبراء ذمته من نفقة وغيرها.

إن دار الطاعة هي أخطر من دور السجن المعدة لإيـواء الأشقياء والمحكوم عليهم بارتكاب الجرائم والمنكـرات، لأن المسجونين تحت إشراف أناس محدودة سلطتهم في القـانون وليس بينهم وبين المحكوم عليهم عداء أو خصومة تستفزهم إلى التنكيل والتعدي على حدود السلطة التي لهم قانونًا، أمـا الزوج (وهو الخصم والحارس على المرأة التعيسة المقضـي عليها بالدخول تحت طاعته) فلا سلطان لأحد عليه أمام هذه المسكينة. وهو يملك كما يقول بعض الفقهاء إغـلاق البـاب عليها ومنع كل إنسان من الدخول عليها إلا بإذن، كما يملـك الادعاء عليها وهي في السجن أنها خالفت أمـرا، ويتعـدى عليها بالسب والضرب، والمحاكم الشرعية لا تعتبر كل هذا خروجا من الزوج على الحدود التي له شرعا على زوجته.

أيكون للحكومة تشريع عام يعاقب أي شخص يعتدي على حرية الغير بالحبس طال الوقت أم قصر. ويعاقب أي شخص اعتدى على كرامة الغير بالسـب أو بالشـتم، ويعاقـب أي شخص أذى غيره مهما كان الإيذاء خفيفًا. كل هذا التشـريع يتمتع به جميع أفراد الأمة إلا هذه الزوجة المسكينة إذا كـان المعتدي عليها زوجها، يحبسها ولا عقوبة عليه.. ويسبها ولا

عقوبة عليه.. ويضربها ولا عقوبة عليه.. كل هذه الجـرائم ترتكب باسم الدين، ونحن نعتقد ببراءة الدين من كل ذلـك، بدليل قوله تعالى: ﴿ **ولاَ تُمسِكُوهن ضِرارا لتَعتَدوا**﴾ وقولـه أيضا: ﴿ **فَأَمسِكُوهن بِمعروفٍ أَو سرحوهن بِمعروفٍ**﴾.

المسألة الرابعة، وهي رعاية الطفل وتقرير من له حـق الولاية عليه عند اختلاف الأبوين أو مـوت أحـدهما، مـن المسائل التي تستدعي النظر في إصلاحها، لأننـا نـرى أن الجاري عليه العمل في القضاء الشرعي ليس وافيـا دائمـا بوضع الطفل تحت مراقبة صحيحة عطوفة ويد باردة تعنـي بتربيته تربية صحيحة جسميا وأخلاقيـا، وأسـوأ الحـالات وأبعدها عن الإنصاف حالة وجود أم للطفل مطلقـة وغيـر متزوجة، أي متفرغة للسهر على مصلحة أولادهـا، ينـزع ولدها من حضانتها في سن السبع إن كان ذكرا والتسـع إن كانت أنثى، ينتزعون منها وهم في سن أحوج ما يكونون فيها لرعايتها وعنايتها، ينزعون منها وهي أحق الناس برعـايتهم وأحن عليهم من أي إنسان، تقضي المحاكم الشرعية بحرمان الأم من أولادها في السن المذكورة مع أنه بمقتضـى حكـم الشريعة يبقى الولد في حضانة أمه حتى يستغني عن النساء،

والبنت حتى تحيض، والإمام مالك نص على أن يبقى الصبي في حضانة أمه حتى يحتلم والبنت حتى تتزوج. فهل يصح، وهذا نص الشريعة ورأي إمام مشهور، أن تكـون السـابعة أو التاسعة سن الاستغناء عن النساء، وإن صح ذلك محتمـل يوم أن كانت الحياة أقل تعقيدا وأقرب إلى البداوة منها اليوم، فهل يصح في العصر الذي نعيش فيه وقد تضاعفت الحاجات وتعددت وسائل التربية وطرق الوقاية الصحيحة؟ المشاهد أنه لا يمكن الاستغناء عن معونة الأم ونصائحها قبل السادسـة عشرة، والدليل على ذلك أن الحكومة نفسها جرت على هذه القاعدة وقررت حديثًا اعتبار سن الرشد مبتدئًا من الحاديـة والعشرين.

الإصلاح الاجتماعي:

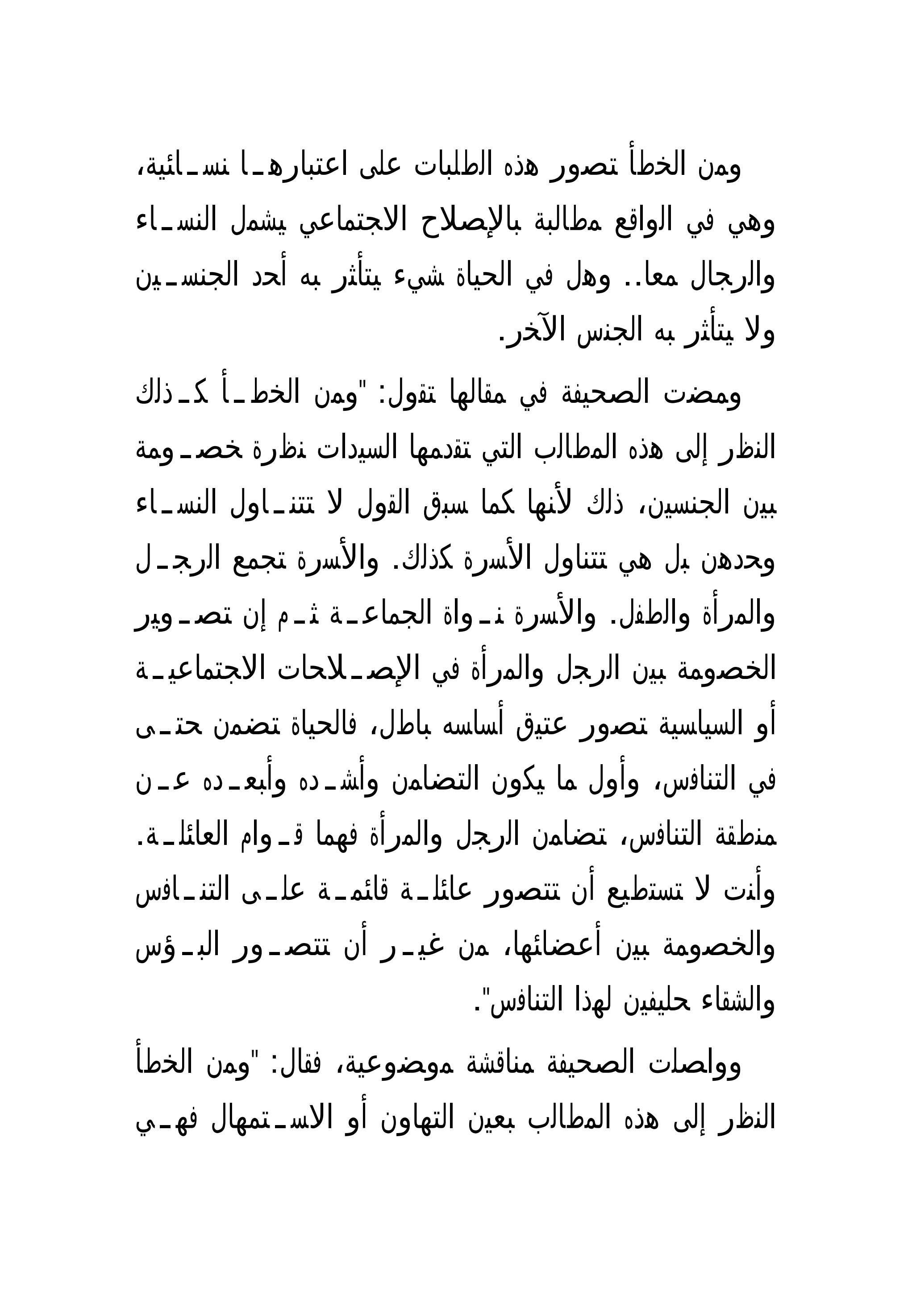
ولقد كان ما ينادي به الاتحاد النسائي المصري موضـع تقدير الرأي العام. وكانت الصحافة تؤيد المطالب التي ننادي بها، ليس باعتبارها مطالب نسائية وإنما باعتبارها في الواقع مطالبة بالإصلاح الاجتماعي.

وقد كتبت جريدة السياسة اليومية فـي عـددها الصـادر بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٢٦ تحت عنـوان "الاتحـاد النسـائي المصري ومطالبه في سبيل الإصلاح الاجتماعي" تقول:

"يقوم الاتحاد النسائي المصري برئاسة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي إلى جانب نشاطه السياسي بنشـاط اجتمـاعي بعيد المدى في حياة الأسرة المصرية.

"ولم يقف نشاط الاتحاد النسـائي عنـد السـعي لتطـور العادات القديمة تطورا يكفل سير المرأة في السبيل الصـالح ويحول دون الطفرة المفسدة" بل أضاف إلى ما قام به في هذه الناحية والسعي لتطور التشريع في الأحوال الشخصية تطورا يجعله دائما في حدود الشريعة الإسلامية السمحة علـى مـا أقرها أكابر الفقهاء عليهم رضوان ا مع اتفاقه وحاجات هذا العصر الذي نعيش فيه.

والقراء يذكرون ما تقدم به الاتحاد النسائي في شأن تحديد سن الزواج وما لقيه من نجاح. كما يذكرون مطالبه في شأن الطلاق وتعدد الزوجات وسائر الإصلاحات التي طالب بهـا ملحا في تحقيقها.



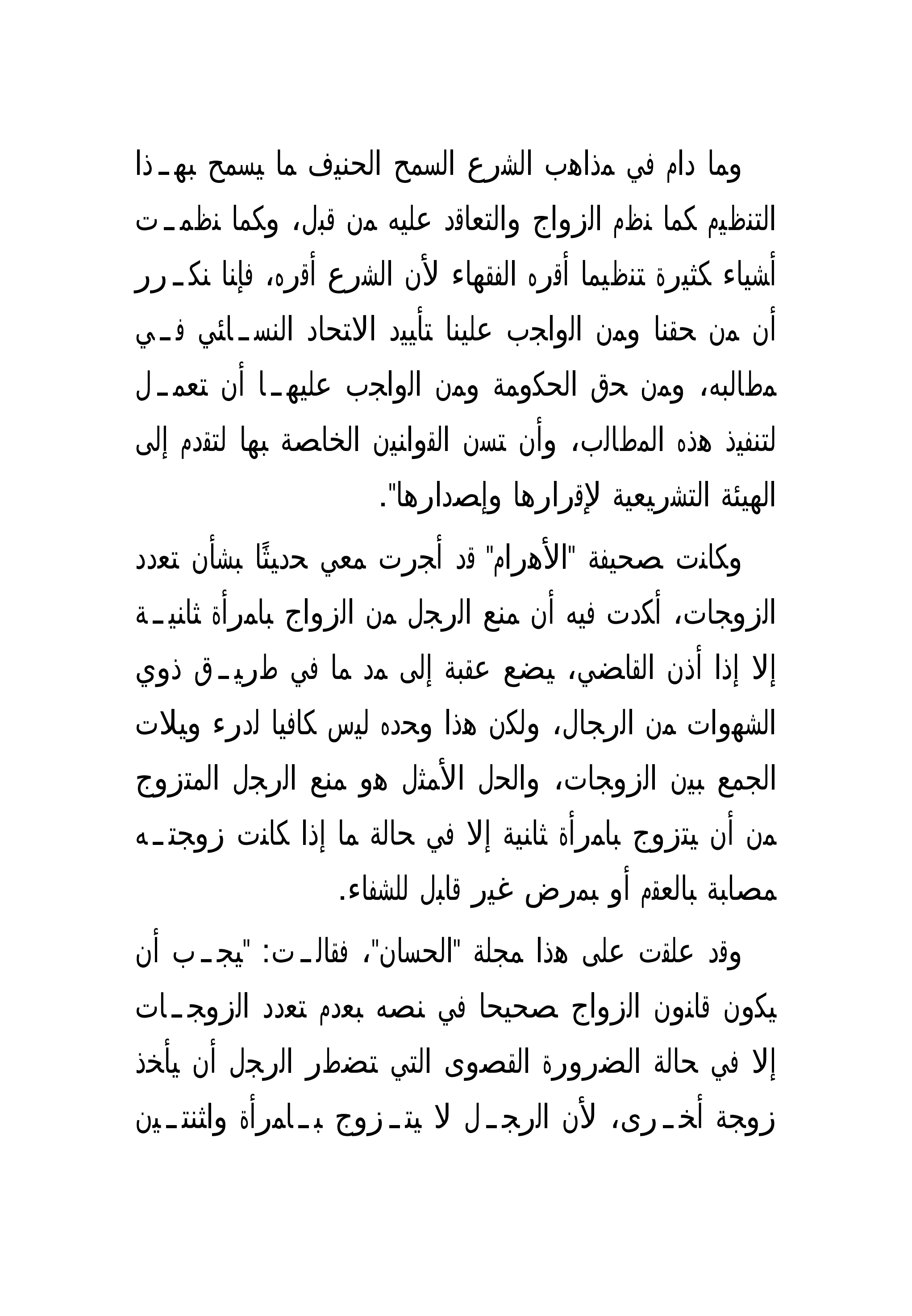
ومن الخطأ تصور هذه الطلبات على اعتبارها نسائية، وهي في الواقع مطالبة بالإصلاح الاجتماعي يشمل النساء والرجال معا.. وهل في الحياة شيء يتأثر به أحد الجنسين ولا يتأثر به الجنس الآخر.

ومضت الصحيفة في مقالها تقول: "ومن الخطأ كذلك النظر إلى هذه المطالب التي تقدمها السيدات نظرة خصومة بين الجنسين، ذلك لأنها كما سبق القول لا تتناول النساء وحدهن بل هي تتناول الأسرة كذلك. والأسرة تجمع الرجل والمرأة والطفل. والأسرة نواة الجماعة ثم إن تصوير الخصومة بين الرجل والمرأة في الإصلاحات الاجتماعية أو السياسية تصور عتيق أساسه باطل، فالحياة تضمن حتى في التنافس، وأول ما يكون التضامن وأشده وأبعده عن منطقة التنافس، تضامن الرجل والمرأة فهما قوام العائلة. وأنت لا تستطيع أن تتصور عائلة قائمة على التنافس والخصومة بين أعضائها، من غير أن تتصور البؤس والشقاء حليفين لهذا التنافس".

وواصلت الصحيفة مناقشة موضوعية، فقال: "ومن الخطأ النظر إلى هذه المطالب بعين التهاون أو الاستمهال فهي

ليست بنت اليوم بل هي بنت سنة ١٨٩٩ حين تقدم بها المرحوم قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة، بل هي أقدم من ذلك عهدا، فقد كان الناس في كل زمان ومكان يطالبون بإصلاح نظام الأسرة وبالعمل لإزالة كل ما يقوم عائقًا في سبيل هناءتها وتمكينها من القيام بالواجب الاجتماعي والسياسي العظيم الملقى على عاتق كل فرد من أفرادها. وهبها كانت بنت اليوم، فهي لن تكون كذلك أقل خطورة واستعداء للعناية والاهتمام فليس من ينكر أن لحالة العائلة في مصر اليوم تأثيرا مباشرا على كثير من أمراضنا الاجتماعية، وأن إصلاح هذه الحال يترتب على شفاء هذه الأمراض".

وانتهت الصحيفة إلى القول: "ومسألة الطلاق ليست أقل من مسألة تعدد الزوجات خطرا. ونحن في غنى عن وصف الشقاء والبؤس المترتب على إلقاء حبل الرجال على غاربهم في هاتين المسألتين، وفي غنى عن القول إن الشقاء والبؤس لا يتناول النساء والأطفال وحدهم بل يتناول الرجال معهم. وهم إذا لم يحسوا به أول ارتكاب هذه الآثام فإنهم يحسون به فيما بعد.

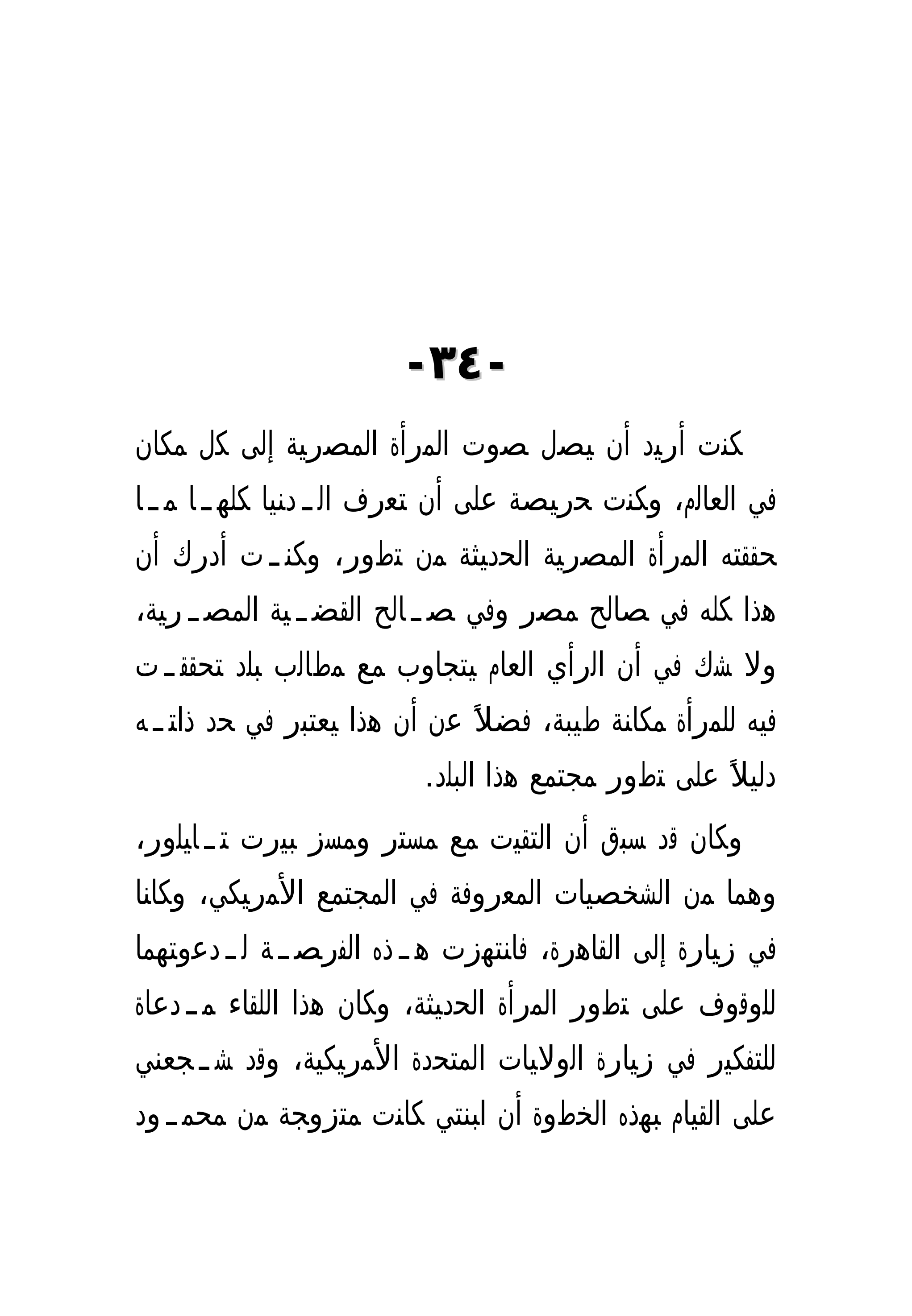


وما دام في مذاهب الشرع السمح الحنيف ما يسمح بهـذا التنظيم كما نظم الزواج والتعاقد عليه من قبل، وكما نظمـت أشياء كثيرة تنظيما أقره الفقهاء لأن الشرع أقره، فإنا نكـرر أن من حقنا ومن الواجب علينا تأييد الاتحاد النسـائي فـي مطالبه، ومن حق الحكومة ومن الواجب عليهـا أن تعمـل لتنفيذ هذه المطالب، وأن تسن القوانين الخاصة بها لتقدم إلى الهيئة التشريعية لإقرارها وإصدارها".

وكانت صحيفة "الأهرام" قد أجرت معي حديثًا بشأن تعدد الزوجات، أكدت فيه أن منع الرجل من الزواج بامرأة ثانيـة إلا إذا أذن القاضي، يضع عقبة إلى حد ما في طريـق ذوي الشهوات من الرجال، ولكن هذا وحده ليس كافيا لدرء ويلات الجمع بين الزوجات، والحل الأمثل هو منع الرجل المتزوج من أن يتزوج بامرأة ثانية إلا في حالة ما إذا كانت زوجتـه مصابة بالعقم أو بمرض غير قابل للشفاء.

وقد علقت على هذا مجلة "الحسان"، فقالـت: "يجـب أن يكون قانون الزواج صحيحا في نصه بعدم تعدد الزوجـات إلا في حالة الضرورة القصوى التي تضطر الرجل أن يأخذ زوجة أخـرى، لأن الرجـل لا يتـزوج بـامرأة واثنتـين

إلا لشهوته ومطامعه البهيمية، وبذلك أصبحت المـرأة فـي نظره مثل الثياب تتغير مـع الموضـات ويجـددها بتغيـر الفصول"!!



- ٣٤ -

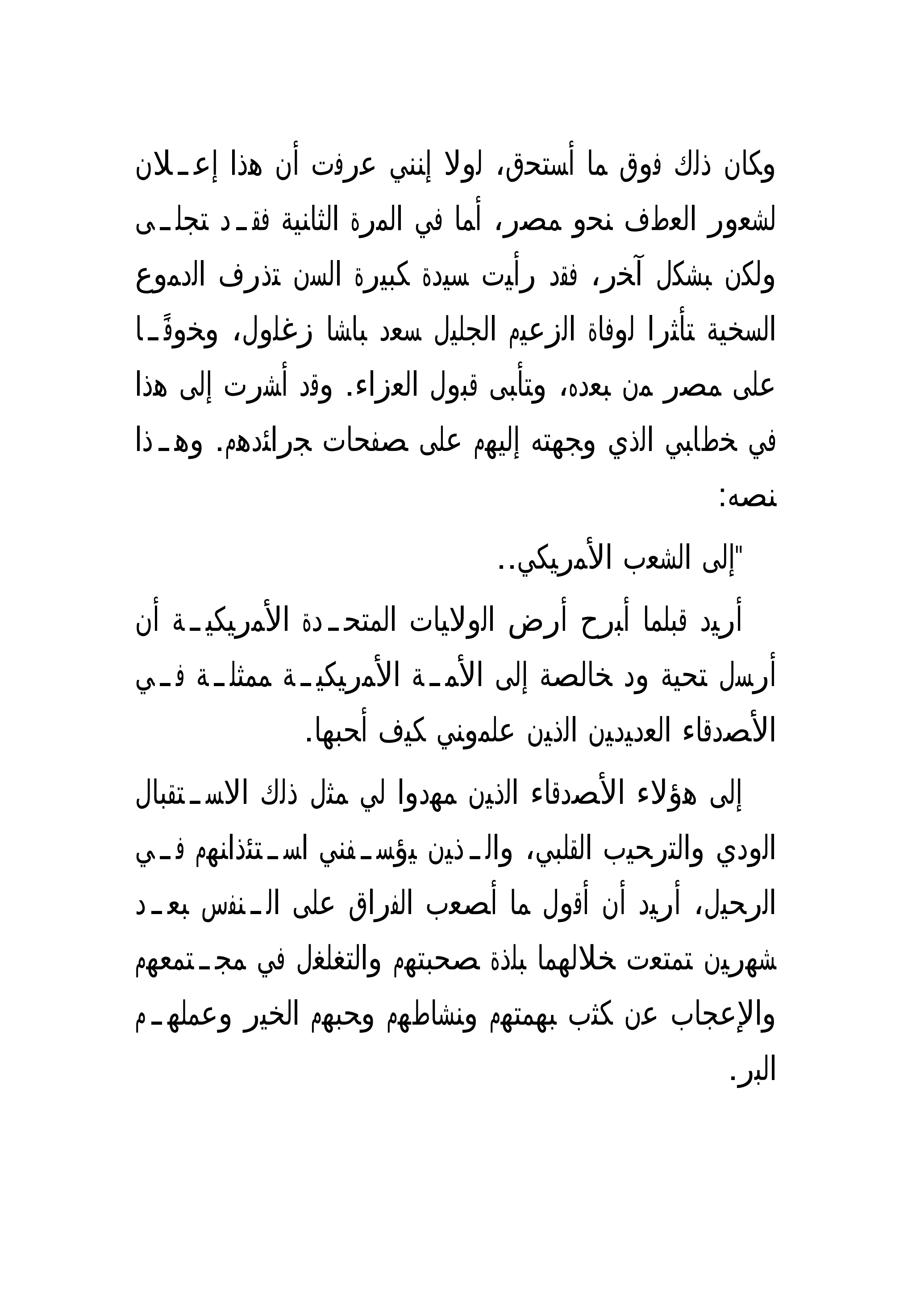
كنت أريد أن يصل صوت المرأة المصرية إلى كل مكان في العالم، وكنت حريصة على أن تعرف الدنيا كلها ما حققته المرأة المصرية الحديثة من تطور، وكنت أدرك أن هذا كله في صالح مصر وفي صالح القضية المصرية، ولا شك في أن الرأي العام يتجاوب مع مطالب بلد تحققت فيه للمرأة مكانة طيبة، فضلاً عن أن هذا يعتبر في حد ذاته دليلاً على تطور مجتمع هذا البلد.

وكان قد سبق أن التقيت مع مستر ومسز بيرت تايلور، وهما من الشخصيات المعروفة في المجتمع الأمريكي، وكانا في زيارة إلى القاهرة، فانتهزت هذه الفرصة لدعوتهما للوقوف على تطور المرأة الحديثة، وكان هذا اللقاء مدعاة للتفكير في زيارة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد شجعني على القيام بهذه الخطوة أن ابنتي كانت متزوجة من محمود

سامي باشا، الذي كان يشغل منصب وزير مصر المفـوض في واشنطن في ذلك الوقت.

وقد وصلت إلى أمريكا يوم ٢٧ يوليو ١٩٢٧، وكنت قـد أعددت للقاءات واجتماعات في هذه الرحلة، أكشف فيها عن حقيقة الأوضاع تخلفها عن الركب الحضاري، ولكن قبل أن أبدأ نشاطي هناك، استقبلني منـدوبو الصـحف الأمريكيـة ليسألوني عن قضية تعدد الزوجات.. وقد قلت لهم إن تعـدد الزوجات أمر شرعي في مصر، ولكنه غيـر مـألوف الآن إذ إن أغلب الناس لا يمكنهم تحمل نفقات أكثر مـن امـرأة واحدة، وأضفت أيضا بأن مصر تحاول الآن سن قانون لمنع تعدد الزوجات، وإن وزير الحقانية قدم مشروعا بذلك إلـى البرلمان المصري. كذلك فقد تحدثت إلى مندوبي الصـحف عن أهمية التعليم بالنسبة للمرأة، وقلت إنه أكثر أهميـة مـن المطالبة بحقوقهن الانتخابية، وإن كان هذا لا يمنعنـي مـن المطالبة بحق المرأة في التصويت في الانتخابات النيابية.

وقد تمثل لي شعور الأمريكيين نحو المصريين في حادثين مختلفين كل الاختلاف. فقد أكرموني الإكرام كله وأحسـنوا استقبالي في نيويورك وواشنطن وبخاصة فـي ديترويـت،

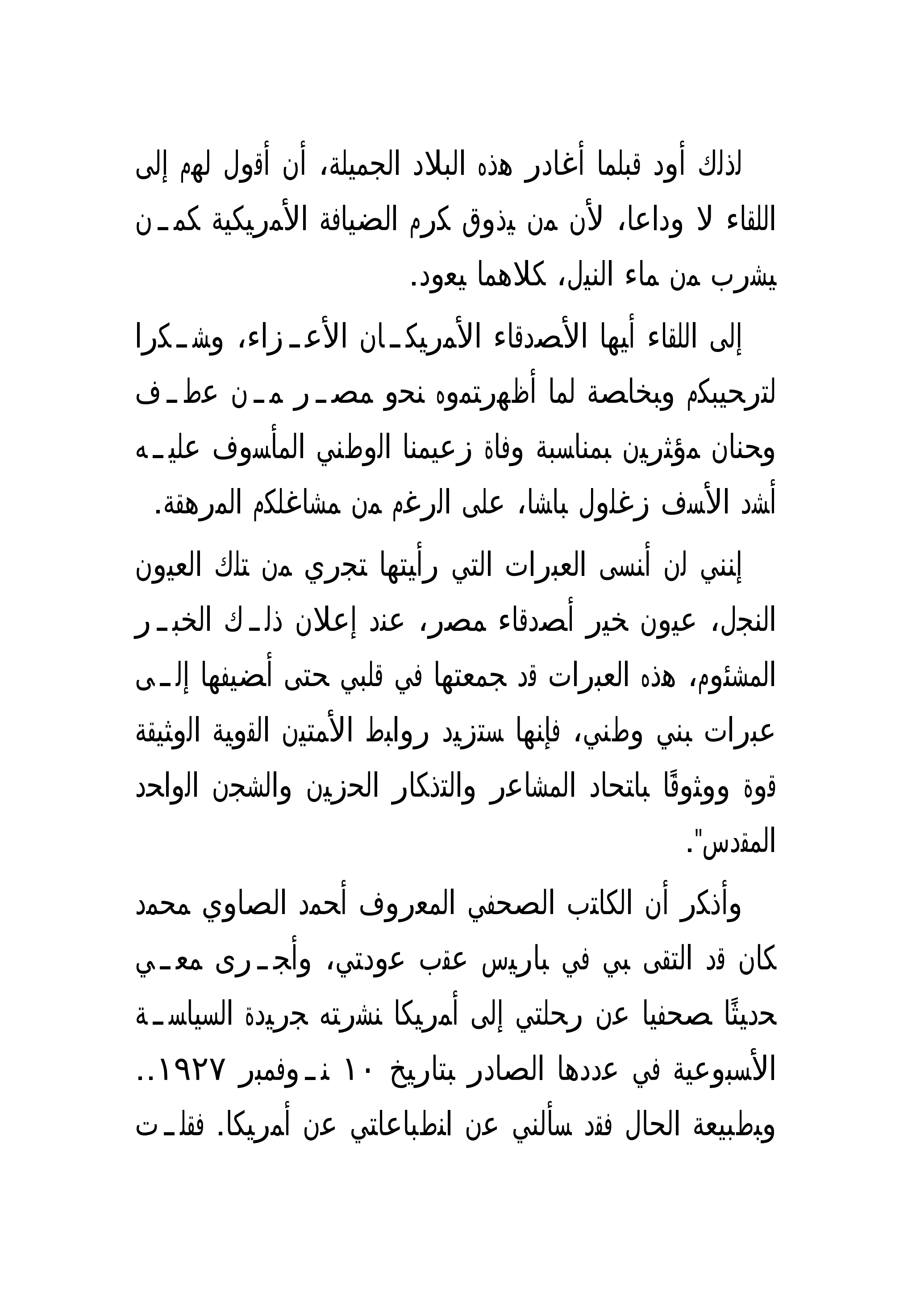


وكان ذلك فوق ما أستحق، لولا إنني عرفت أن هذا إعلان لشعور العطف نحو مصر، أما في المرة الثانية فقد تجلى ولكن بشكل آخر، فقد رأيت سيدة كبيرة السن تذرف الدموع السخية تأثرا لوفاة الزعيم الجليل سعد باشا زغلول، وخوفًا على مصر من بعده، وتأبى قبول العزاء. وقد أشرت إلى هذا في خطابي الذي وجهته إليهم على صفحات جرائدهم. وهذا نصه:

"إلى الشعب الأمريكي..

أريد قبلما أبرح أرض الولايات المتحدة الأمريكية أن أرسل تحية ود خالصة إلى الأمة الأمريكية ممثلة في الأصدقاء العديدين الذين علموني كيف أحبها.

إلى هؤلاء الأصدقاء الذين مهدوا لي مثل ذلك الاستقبال الودي والترحيب القلبي، والذين يؤسفني استئذانهم في الرحيل، أريد أن أقول ما أصعب الفراق على النفس بعد شهرين تمتعت خلالهما بلذة صحبتهم والتغلغل في مجتمعهم والإعجاب عن كثب بهمتهم ونشاطهم وحبهم الخير وعملهم البر.



لذلك أود قبلما أغادر هذه البلاد الجميلة، أن أقول لهم إلى اللقاء لا وداعا، لأن من يذوق كرم الضيافة الأمريكية كمـن يشرب من ماء النيل، كلاهما يعود.

إلى اللقاء أيها الأصدقاء الأمريكـان الأعـزاء، وشـكرا لترحيبكم وبخاصة لما أظهرتموه نحو مصـر مـن عطـف وحنان مؤثرين بمناسبة وفاة زعيمنا الوطني المأسوف عليـه أشد الأسف زغلول باشا، على الرغم من مشاغلكم المرهقة.

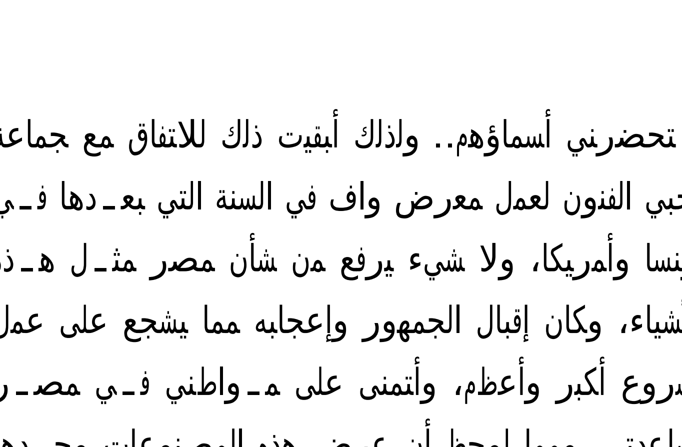
إنني لن أنسى العبرات التي رأيتها تجري من تلك العيون النجل، عيون خير أصدقاء مصر، عند إعلان ذلـك الخبـر المشئوم، هذه العبرات قد جمعتها في قلبي حتى أضيفها إلـى عبرات بني وطني، فإنها ستزيد روابط الأمتين القوية الوثيقة قوة ووثوقًا باتحاد المشاعر والتذكار الحزين والشجن الواحد المقدس".

وأذكر أن الكاتب الصحفي المعروف أحمد الصاوي محمد كان قد التقى بي في باريس عقب عودتي، وأجـرى معـي حديثًا صحفيا عن رحلتي إلى أمريكا نشرته جريدة السياسـة الأسبوعية في عددها الصادر بتاريخ ١٠ نـوفمبر ١٩٢٧.. وبطبيعة الحال فقد سألني عن انطباعاتي عن أمريكا. فقلـت

له: لقد أردت أن أدرس حركة المرأة فقط، ولكن الحياة الاجتماعية الأمريكية شاقتني، فقد رأيتهم ذوي حيوية نادرة ونشاط خارق، وأمكنني بمساعدة مدام تايلور التي كانت ضيفتنا في مصر في العام الماضي وأرادت ضيافتي هذا العام، أن أزور مستشفيات ومعاهد للأطفال وبيوتًا لتعليم الفقراء، أخذت عنها مذكرات أظنها تنفع البلد، وسأعرضها عند عودتي على أولي الشأن لتطبيقها بقدر الإمكان.

أما بالنسبة لمعرض الخزف، فقد استحسنت عرض هذه المصنوعات المصرية في أرض مصرية، ولذلك رفضت عروض بيوت المعارض في نيويورك، واخترت عرضها في المفوضية المصرية بواشنطن. وكانت محل إعجاب كل من رآها وبخاصة من الشرقيين كسفراء اليابان والصين والهند وغيرهم من رجال السياسة.

ومما جعلني لا أعرضها في "جاليري" هو عدم وجود صور زيتية أو تماثيل ودمى لأنهم يعتقدون أن الفن الجميل قد مات في مصر، فأبيت أن تثبت هذه الفكرة، ولو بطريق غير مباشر، فعدلت عن المعرض. وعندنا مختار ويوسف كامل وعياد وناجي وأحمد يوسف وهدايت وغيرهم ممن



لا تحضرني أسماؤهم.. ولذلك أبقيت ذلك للاتفاق مع جماعة محبي الفنون لعمل معرض واف في السنة التي بعدها في فرنسا وأمريكا، ولا شيء يرفع من شأن مصر مثل هذه الأشياء، وكان إقبال الجمهور وإعجابه مما يشجع على عمل مشروع أكبر وأعظم، وأتمنى على مواطني في مصر مساعدتي، ومما لوحظ أن عرض هذه المصنوعات وحدها غير كاف، بل يجب أن يكون مكتوبا "صنع في مصر" على كل قطعة، فهذه وحدها لها قيمتها الكبرى.

وقد سألني الأستاذ الصاوي: وما حكاية المؤتمرات التي تتنازع فخر وجودك فيها؟

فقلت له: لقد وصلتني وأنا في أمريكا دعوة من مؤتمر التدبير المنزلي بروما، فأرسلت تلغرافًا بالاعتذار لبعدي عن المكان، وأرسلت إلى الحكومة المصرية تعرض علي رئاسة وفدها، وهي ثقة أقدرها وأشكرها عليها، ولكنني اعتذرت لأنني مضطرة لحضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي العام الذي أنا عضو في مكتبه الرئيسي. وسيعقد في ٢١ الجاري في أمستردام.. وكنت قد رجوت وزارة المعارف الاشتراك في مؤتمر روما، لأن الاطلاع على ما يعمل في البلاد

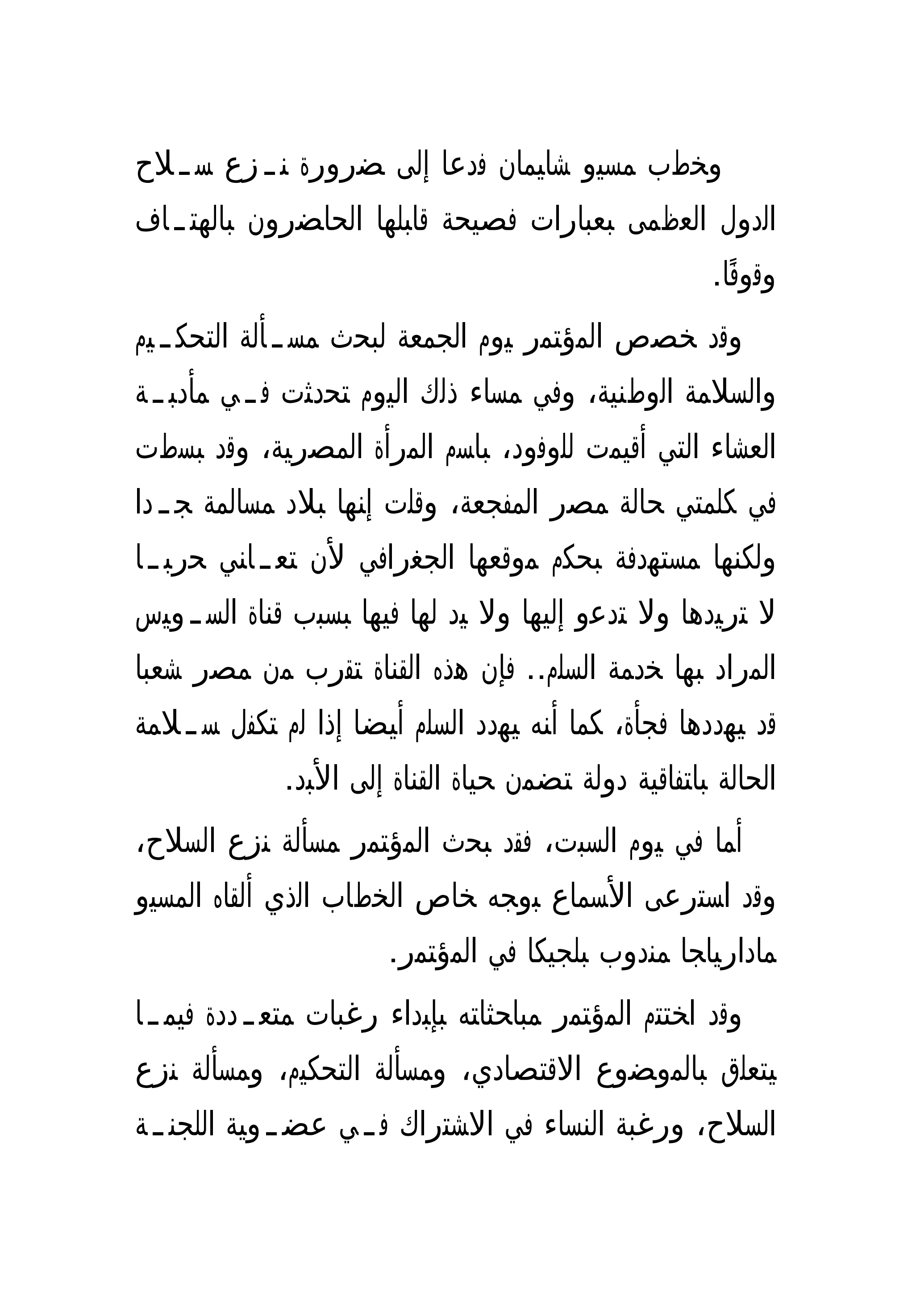
المتمدنة يهم بناتنا، ولأنني أحب أن تكون مصر ممثلة في جميع بلاد العالم لأننا في صف الأمم الممتازة، والاحتكاك بالغربيين له نفع جزيل.

مؤتمر أمستردام

عقد المؤتمر النسائي الدولي بأمستردام في موعده، أي في ١٢ نوفمبر ١٩٢٧، وقد بدأ المؤتمر يوم الخميس واختتم أعماله يوم الأحد التالي، وجدير بالذكر أن هذا المؤتمر لم يقتصر على بحث المطالب والرغبات النسائية، ولكنه كان ذات أهمية عامة بما لأعضائه وعضواته من الشخصية والصفات الفردية، وبما كان للموضوعات التي طرحت على بساط البحث من الصبغة السياسية الدولية.

فقد تحدث المسيو مريبت في أسباب الحروب، وأكد أن العامل الاقتصادي له تأثير كبير في هذه الأسباب، واختتم حديثه بالدعوة إلى تشييد نظم الدول على قاعدة اقتصادية عامة تقاوم الروح الاقتصادية التي تسودها الوطنية.

وتكلمت مدام مالاتير، وهي فرنسية، فقالت إن التعاون الدولي يتم بحركة تطور وتحول كالحركة التي أدت إلى إفهام الناس أن الوطنية والحماسة لا تعنيان بغض الأجنبي.



وخطب مسيو شايمان فدعا إلى ضرورة نـزع سـلاح الدول العظمى بعبارات فصيحة قابلها الحاضرون بالهتـاف وقوفًا.

وقد خصص المؤتمر يوم الجمعة لبحث مسـألة التحكـيم والسلامة الوطنية، وفي مساء ذلك اليوم تحدثت فـي مأدبـة العشاء التي أقيمت للوفود، باسم المرأة المصرية، وقد بسطت في كلمتي حالة مصر المفجعة، وقلت إنها بلاد مسالمة جـدا ولكنها مستهدفة بحكم موقعها الجغرافي لأن تعـاني حربـا لا تريدها ولا تدعو إليها ولا يد لها فيها بسبب قناة السـويس المراد بها خدمة السلم.. فإن هذه القناة تقرب من مصر شعبا قد يهددها فجأة، كما أنه يهدد السلم أيضا إذا لم تكفل سـلامة الحالة باتفاقية دولة تضمن حياة القناة إلى الأبد.

أما في يوم السبت، فقد بحث المؤتمر مسألة نزع السلاح، وقد استرعى الأسماع بوجه خاص الخطاب الذي ألقاه المسيو مادارياجا مندوب بلجيكا في المؤتمر.

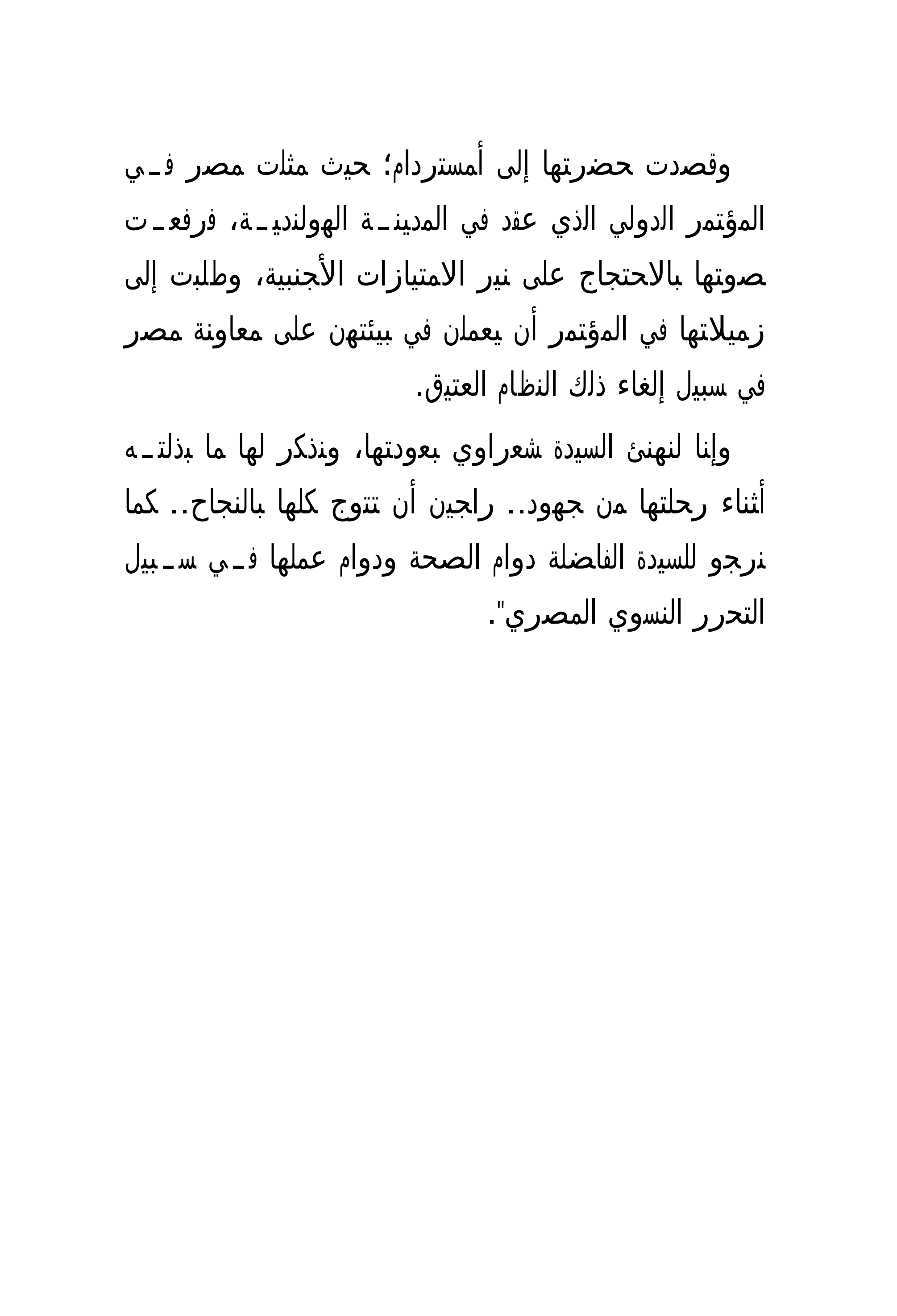
وقد اختتم المؤتمر مباحثاته بإبداء رغبات متعـددة فيمـا يتعلق بالموضوع الاقتصادي، ومسألة التحكيم، ومسألة نزع السلاح، ورغبة النساء في الاشتراك فـي عضـوية اللجنـة

الاستشارية الاقتصادية المؤلفة في جنيف، وقد انتهزت هـذه الفرصة لأعبر للمؤتمر عـن رغبـة خاصـة فـي إلغـاء الامتيازات الأجنبية في مصر، وقد أحيلت هذه الرغبة إلـى لجنة البحث، ومن ناحية أخرى فقط طلبت إلى زميلاتي فـي المؤتمر أن يعملان على معاونة مصر في سبيل إلغـاء هـذا النظام العتيق.

وبعد انتهاء المؤتمر، عدت إلى مصر يـوم ٣ ديسـمبر ١٩٢٧، وفي اليوم التالي نشرت جريدة السياسة هذا التعليق على رحلتي إلى أمريكا ثم هولندا:

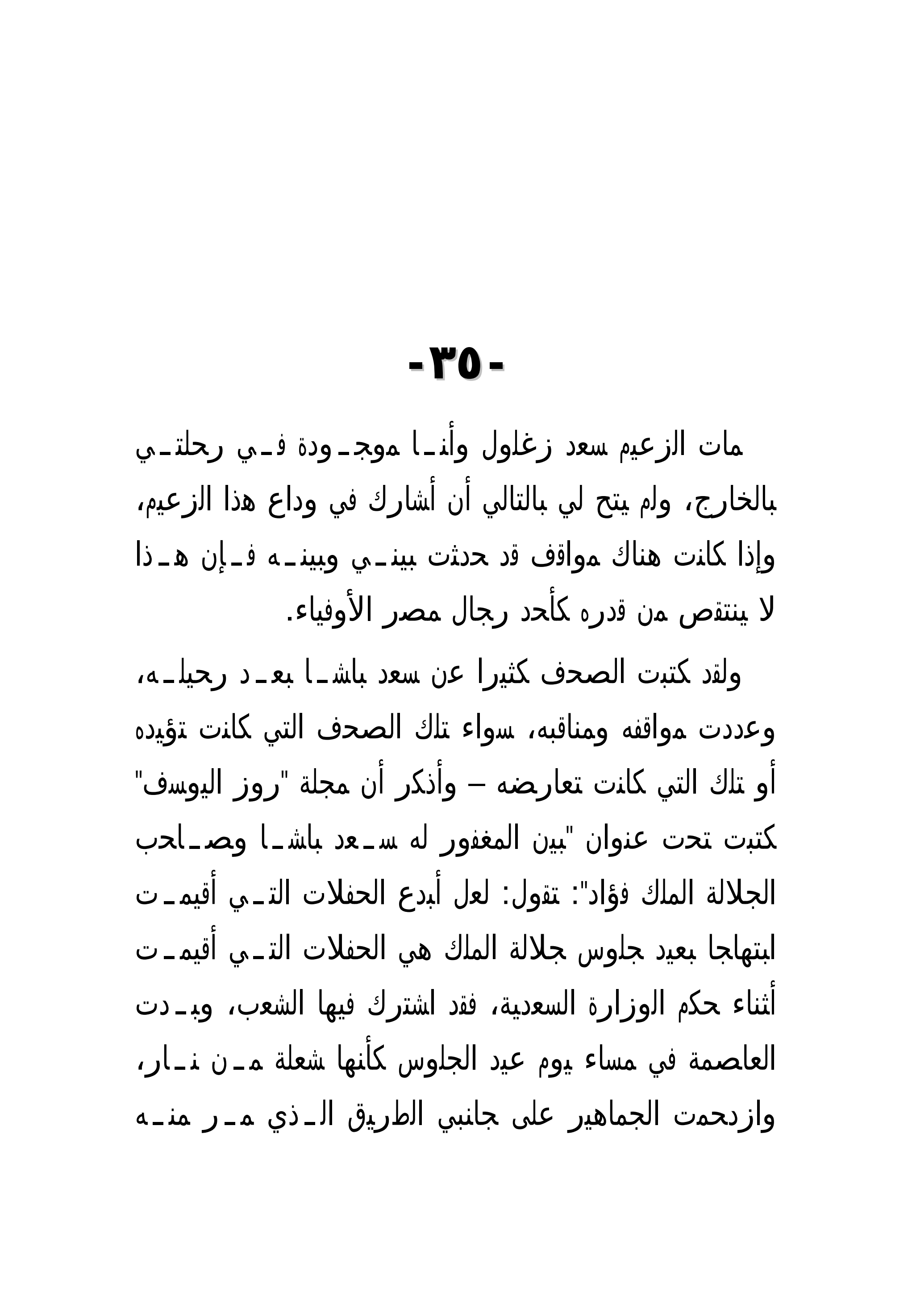
"وصلت في منتصف الساعة الحادية عشرة مـن مسـاء أمس صاحبة العصمة السيدة الفاضلة هدى هانم شـعراوي، عائدة من رحلتها الطويلة التي تنقلت فيها بين أوربا وأمريكا، باذلة جهودها في سبيل رفع اسـم مصـر وإعـلاء شـأن المصريات.

فقد أقامت حضرتها في المفوضية المصـرية بواشـنطن معرضا للمنتجات المصرية النسوية، كان له أحسن الأثر في نفوس الأمريكيات والأمريكيين الذين لـم يكونـوا يعرفـون مصر إلا من خلال الأقاصيص التي تروى لهم.



وقصدت حضرتها إلى أمستردام؛ حيث مثلت مصر فـي المؤتمر الدولي الذي عقد في المدينـة الهولنديـة، فرفعـت صوتها بالاحتجاج على نير الامتيازات الأجنبية، وطلبت إلى زميلاتها في المؤتمر أن يعملن في بيئتهن على معاونة مصر في سبيل إلغاء ذلك النظام العتيق.

وإنا لنهنئ السيدة شعراوي بعودتها، ونذكر لها ما بذلتـه أثناء رحلتها من جهود.. راجين أن تتوج كلها بالنجاح.. كما نرجو للسيدة الفاضلة دوام الصحة ودوام عملها فـي سـبيل التحرر النسوي المصري".



-٣٥-

مات الزعيم سعد زغلول وأنا موجودة في رحلتي بالخارج، ولم يتح لي بالتالي أن أشارك في وداع هذا الزعيم، وإذا كانت هناك مواقف قد حدثت بيني وبينه فإن هذا لا ينتقص من قدره كأحد رجال مصر الأوفياء.

ولقد كتبت الصحف كثيرا عن سعد باشا بعد رحيله، وعددت مواقفه ومناقبه، سواء تلك الصحف التي كانت تؤيده أو تلك التي كانت تعارضه – وأذكر أن مجلة "روز اليوسف" كتبت تحت عنوان "بين المغفور له سعد باشا وصاحب الجلالة الملك فؤاد": تقول: لعل أبدع الحفلات التي أقيمت ابتهاجا بعيد جلوس جلالة الملك هي الحفلات التي أقيمت أثناء حكم الوزارة السعدية، فقد اشترك فيها الشعب، وبدت العاصمة في مساء يوم عيد الجلوس كأنها شعلة من نار، وازدحمت الجماهير على جانبي الطريق الذي مر منه

الموكب الملكي إلى ميدان باب الحديد؛ حيث أقامـت لجنـة الاحتفال سرادقًا فخما شرفه جلالة الملك بزيارته، ازدحمـت الجماهير تحيي الركب الملكي بالتصفيق وهتافها العالي يشق عنان السماء: سعد.. سعد.. ويعيش الملك.

ومرت بين الجموع المتراصة سيارة جلالة الملك، وقـد ركب المغفور له سعد باشا إلى يسار جلالته، ولما توسـطت العربة ميدان الأوبرا، وكان الزحام هنا على أشده، والهتـاف يعلو ويتجمع ثم يتدافع، التفت سعد باشا إلى جلالـة الملـك وقال: "إنهم يهتفون لجلالتكم". فأجابه صاحب الجلالة علـى الفور وهو يبتسم: "هل أنت متأكد؟!"

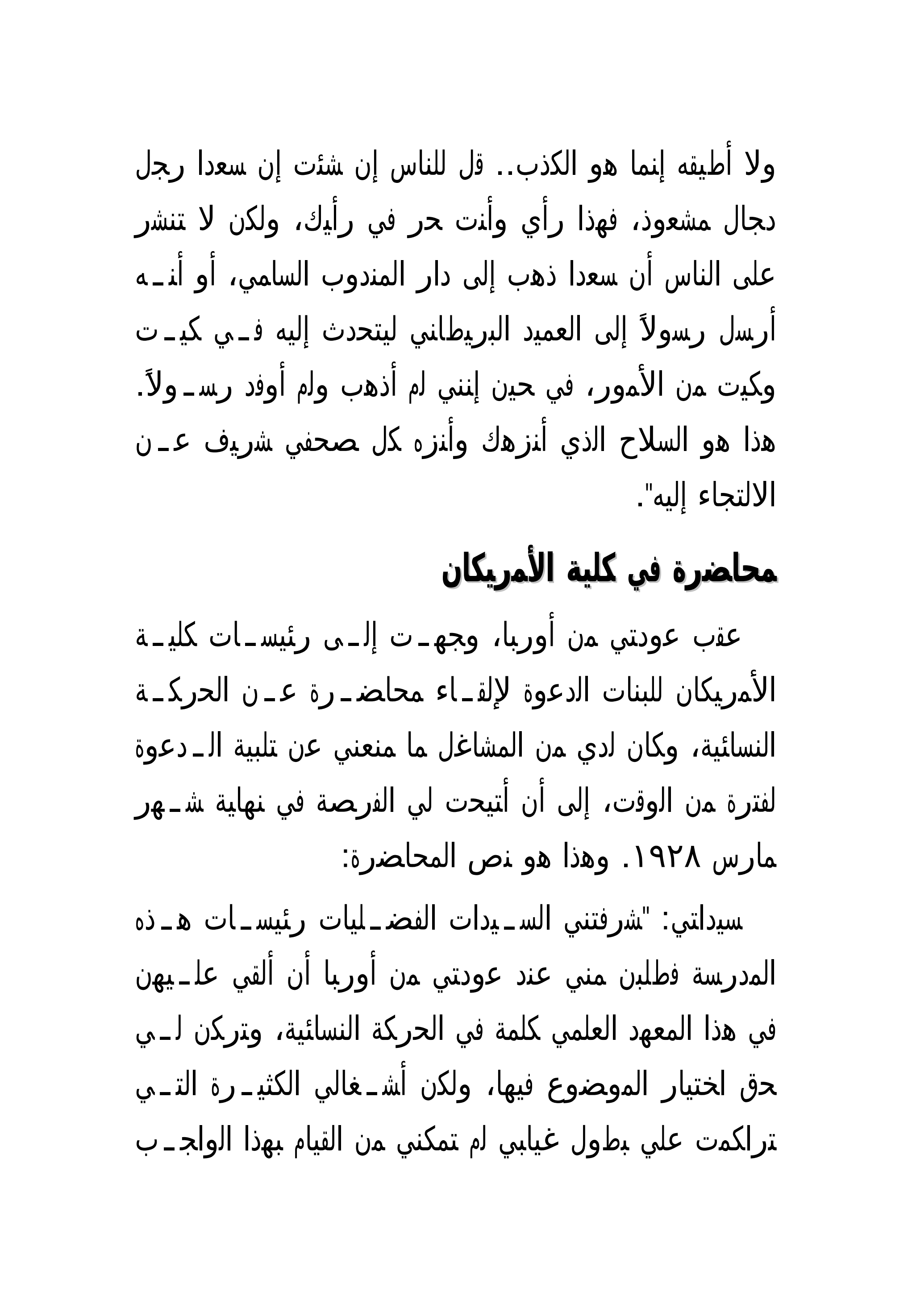
وكانت حادثة السـردار المشـئومة، واسـتقالة الـوزارة السعدية، وطلب السلطة البريطانية إلى سعد باشا أن يتـرك القاهرة ويقيم إلى حين في فندق مينا هاوس.

وزاره ذات يوم في الفندق المذكور نفـر مـن النـواب والعيان ودار الحديث حول الحادثة المشئومة ودسائس بعض رجال السراي، والشائعات التي كانت تتناقلها الأفواه في تلك الأيام العصيبة عن البرلمان والدسـتور والـدس للدسـتور، ورأى سعد باشا أن الحديث يتطور، وأن بعض الألسن بدأت

تتكلم بغير ما يجب، فأسكتهم قائلاً: "أنا لا أصدق أن جلالة الملك يرضى عن هذه الأفعال، أو يشجع بسكوته على الاستمرار فيها. لقد رأيت من جلالته في أكثر من مناسبة واحدة أنه حريص كل الحرص على صونه، وأن جلالته يعتبر الدستور شجرة من غرس يديه".

وأضاف قائلاً: "وإذا كان في ظواهر الأحوال ما يدعو إلى التأمل أو يدخل على النفس شيئًا من سوء الظن، فمن الواجب ألا ينطق اللسان مع الهوى، وأخيرا يحسن بنا أن نقول مع من قال "لعل له عذرا وأنت تلوم"!.

وزاره رحمه ا بعد ائتلاف الأحزاب الأستاذ سليمان أفندي فوزي صاحب جريدة الكشكول، وكان متهيبا من مقابلة الفقيد العظيم، ولاحظ سعد باشا على زائره أنه مضطرب قليلاً، فقابله ببشر وحفاوة وأخذ يؤانسه حتى ذهب روعه، ثم قال له: "شوف يا سليمان أفندي.. أنا رجل أقدس النقد وحرية الرأي، أنا لا أطلب من أحد أن ينظر إلى أعمالي بغير عينيه، أو يحكم عليها بغير عقله أو ينزل ضميره على غير ما يرضى. لك أن تقول في إعمالي ما تشاء، وأن تبدي فيها رأيا سواء كان لي أو علي، ولكن الذي أبغضه وأمقته



ولا أطيقه إنما هو الكذب.. قل للناس إن شئت إن سعدا رجل دجال مشعوذ، فهذا رأي وأنت حر في رأيك، ولكن لا تنشر على الناس أن سعدا ذهب إلى دار المندوب السامي، أو أنه أرسل رسولاً إلى العميد البريطاني ليتحدث إليه في كيت وكيت من الأمور، في حين إنني لم أذهب ولم أوفد رسولاً. هذا هو السلاح الذي أنزهك وأنزه كل صحفي شريف عن الالتجاء إليه".

محاضرة في كلية الأمريكان

عقب عودتي من أوربا، وجهت إلى رئيسات كلية الأمريكان للبنات الدعوة لإلقاء محاضرة عن الحركة النسائية، وكان لدي من المشاغل ما منعني عن تلبية الدعوة لفترة من الوقت، إلى أن أتيحت لي الفرصة في نهاية شهر مارس ١٩٢٨. وهذا هو نص المحاضرة:

سيداتي: "شرفتني السيدات الفضليات رئيسات هذه المدرسة فطلبن مني عند عودتي من أوربا أن ألقي عليهن في هذا المعهد العلمي كلمة في الحركة النسائية، وتركن لي حق اختيار الموضوع فيها، ولكن أشغالي الكثيرة التي تراكمت علي بطول غيابي لم تمكني من القيام بهذا الواجب

في حينهن فأرجو قبول معذرتي.. وأشكر السـيدات اللاتـي منحنني هذا الشرف وتلك الثقة الغالية بـالرغم مـن أنهـن وضعنني في مركز حرج، وهو الوقوف أمام سيدات أمثالكن، نلن من العلوم والمعارف وسعة الإطلاع ما لهن فيـه غنـى عن سماع كلمتي.

وقد توخيت أن يكون حديثي اليوم في موضوع المقارنـة بين المرأة المصرية وأختها الغربية في الحركـة النسـائية، إذ إنني صرفت وقتًا طويلاً في معالجة هذا الموضوع.

سيداتي: بالرغم من العقبات التي تعترض المرأة في سبيل رقيها من فريق المتشائمين بحركتها والمستخفين بكفاءتهـا، تسير المرأة في طريق نهضتها للوصول إلى تحقيق غرضها، إلا وهو إسعاد الأسرة البشرية وذلك منذ أدركت أن سـعادة هذه الأسرة مرتبطة بسعادتها هي، وأن بيدها وحدها مقاليـد الأمور لما لها من السلطان على الرجل في كل أدوار حياته، فهي مربيته طفلاً، وعونه زوجا، وممرضته أيـام مرضـه وشيخوخته وهي مدبرة البيت وقوام نظامه.

أيتها السيدات: بينما الرجل يحترف حرفة واحـدة، تقـوم المرأة الضعيفة (كما يزعمون) بأعمال شتى تندمج فيها كثير

من الوظائف الرئيسة فلها شأن كبير في التربية والتدابير الاقتصادية والصحية والسياسية، فهي تجمع في وظيفتها كل ما له اتصال بالحياة، لأجل هذا وجب عليها أن تتهيأ لهذه الوظائف، ولا يتسنى لها القيام بها إلا إذا نالت قسطًا وفيرا من الحرية والحقوق التي تمكنها من أداء الواجب عليها.

ولما كانت الأنظمة في بلاد الغرب أكثر إجحافًا بحقوق المرأة منها في بلاد الشرق، المرأة الغربية أول من صاح بالمطالبة برفع هذا الغبن عنها، ونالها من العنف والاضطهاد بالسجن والتعذيب ما نالها حتى وصلت في بعض البلاد إلى ما تصبو إليه من المساواة بالرجل وحتى وقفت معه جنبا إلى جنب في جميع الوظائف.

وفي بعض ولايات أمريكا اتسع المجال أمام المرأة حتى صارت تشترك مع الرجل في جميع الحرف الحرة والمراكز العمومية، وذلك بعد أن تقررت لها الحقوق السياسية كالرجل سواء بسواء، ويوجد الآن في تلك البلاد عدد عظيم من النساء أعضاء في المجالس البلدية ومجالس الأقاليم والمجالس النيابية، وفي كثير من المحاكم الابتدائية والاستئنافية عدد غير قليل منهن بين قاضية ونائبة ومحامية، كما يوجد في

القارة الأوروبية كثير من الممالك التي نالت فيها المرأة مثل هذه الحقوق. وقد أظهرت المرأة في وظائف القضاء بجلادها وصبرها وحكمتها وعلمها بنفسية الأحداث مقـدرة قـلّ أن تجاري فيها، فإن الإحصاءات والمشاهدات دلـت علـى أن كثيرا من الأحداث يثوبون إلى الرشد ويصـبحون أعضـاء نافعة صحيحة بفضل تأثير النصائح التي تسدى إلـيهم مـن القضاة النساء.

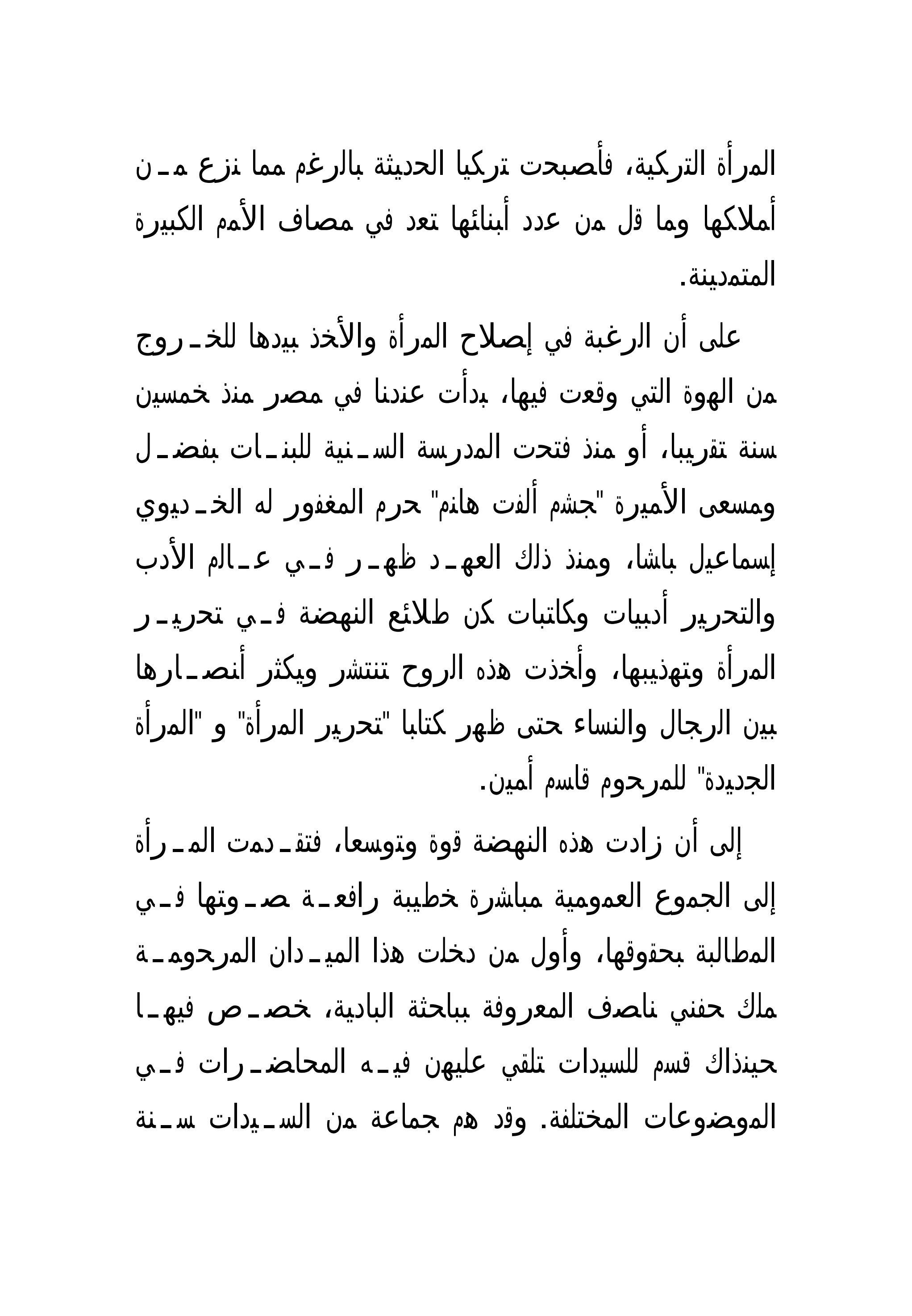
سيداتي: أتظنن أن المرأة الغربية التـي جاهـدت لنيـل حقوقها، انتهت معركتها منذ تربعها على منصة الحكم بجانب الرجل؟ كلا. إنها لم تجاهد طمعا فـي المناصـب الرفيعـة أو حبا في مساواتها بالرجل فقط، بل إنها أرادت مـن وراء ذلك غرضا أسمى ومقصدا نبيلاً هو تهذيب الهيئة البشـرية وتقليل الشرور فيها والسمو بها إلى الكمال، فقامت الآن تنشد السلام في العالم وتستعد لمكافحة أسباب الحرب التي هي آفة الإنسانية، وويلاتها.

ولتحقيق هذا الغرض الجليل، يجـب أن تتضـافر نسـاء العالم، ولا أخال الطبقات المتعلمة من نساء مصر يحجمـن عن مد يد العون وشرف الاشتراك في تحقيق هـذه الغايـة

السامية، وها هو ذا باب الاتحاد النسائي المصـري مفتـوح على مصراعيه لمن تهزه نخوة الإنسانية للاشتراك في هـذه الخدمة المقدسة.

سيداتي: حقًا لقد أعجبت بما كانت تبذله السيدات أعضـاء الاتحاد النسائي الدولي في درس هذه المسائل العظيمة الشأن في المحاضرات التي ألقيت في اجتماع أمستردام، وكم تمنيت لو أن عددا من السيدات المصريات حضرن هذا الاجتمـاع ليشاهدن ما كانت تبذله المؤتمرات من الجهد في دراسة هذه المسألة الكبرى من جميع وجوهها.

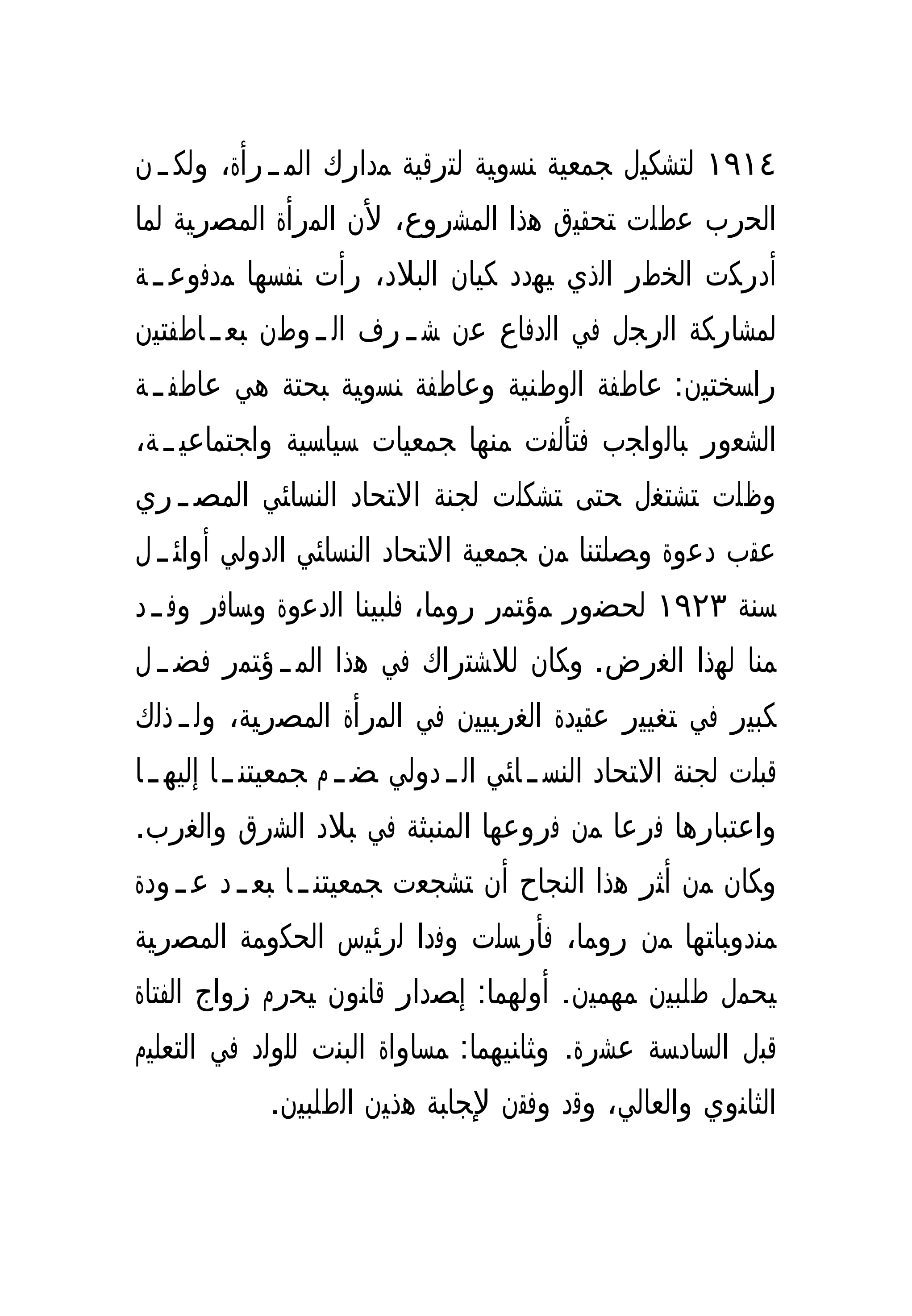
أما المرأة الشرقية التي منحتها الشريعة السمحاء حقوقًـا تكاد تساوي حقوق الرجل بل تفوقها في بعض المواطن، فمن الأسف إنها لم تخط خطوات تذكر. وقد يعترض على قـولي هذا بأن المرأة التركية وثبت وثبة واسعة المـدى فـي مـدة وجيزة، وهذا صحيح، غير إنها لم تصل إلى ما وصلت إليه بمحض مجهوداتها، بل يظهر أن الأمة التي تريد رقيا كاملاً تشعر أن ذلك لا يتم إلا برقي الجنسـين معـا، أدرك ذلـك مصطفى كمال مؤسس تركيا الفتاة؛ فحث المرأة فـي بـلاده على الاشتراك مع الرجل في القيام بالواجب. وبفضله ارتقت



المرأة التركية، فأصبحت تركيا الحديثة بالرغم مما نزع من أملاكها وما قل من عدد أبنائها تعد في مصاف الأمم الكبيرة المتمدينة.

على أن الرغبة في إصلاح المرأة والأخذ بيدها للخروج من الهوة التي وقعت فيها، بدأت عندنا في مصر منذ خمسين سنة تقريبا، أو منذ فتحت المدرسة السنية للبنات بفضل ومسعى الأميرة "جشم ألفت هانم" حرم المغفور له الخديوي إسماعيل باشا، ومنذ ذلك العهد ظهر في عالم الأدب والتحرير أدبيات وكاتبات كن طلائع النهضة في تحرير المرأة وتهذيبها، وأخذت هذه الروح تنتشر ويكثر أنصارها بين الرجال والنساء حتى ظهر كتابا "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" للمرحوم قاسم أمين.

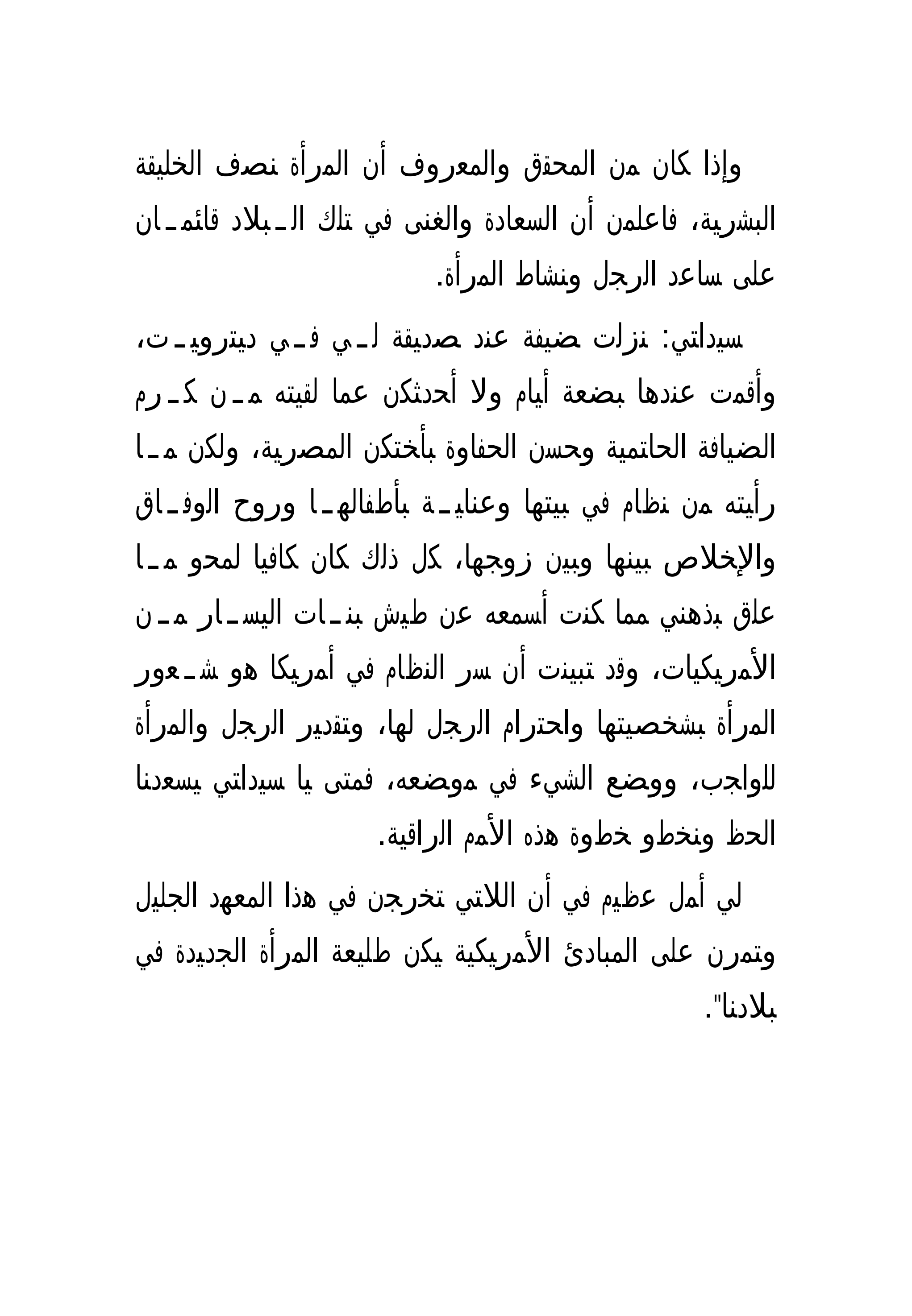
إلى أن زادت هذه النهضة قوة وتوسعا، فتقدمت المرأة إلى الجموع العمومية مباشرة خطيبة رافعة صوتها في المطالبة بحقوقها، وأول من دخلت هذا الميدان المرحومة ملك حفني ناصف المعروفة بباحثة البادية، خصص فيها حينذاك قسم للسيدات تلقي عليهن فيه المحاضرات في الموضوعات المختلفة. وقد هم جماعة من السيدات سنة



١٩١٤ لتشكيل جمعية نسوية لترقية مدارك المرأة، ولكن الحرب عطلت تحقيق هذا المشروع، لأن المرأة المصرية لما أدركت الخطر الذي يهدد كيان البلاد، رأت نفسها مدفوعة لمشاركة الرجل في الدفاع عن شرف الوطن بعاطفتين راسختين: عاطفة الوطنية وعاطفة نسوية بحتة هي عاطفة الشعور بالواجب فتألفت منها جمعيات سياسية واجتماعية، وظلت تشتغل حتى تشكلت لجنة الاتحاد النسائي المصري عقب دعوة وصلتنا من جمعية الاتحاد النسائي الدولي أوائل سنة ١٩٢٣ لحضور مؤتمر روما، فلبينا الدعوة وسافر وفد منا لهذا الغرض. وكان للاشتراك في هذا المؤتمر فضل كبير في تغيير عقيدة الغربيين في المرأة المصرية، ولذلك قبلت لجنة الاتحاد النسائي الدولي ضم جمعيتنا إليها واعتبارها فرعا من فروعها المنبثة في بلاد الشرق والغرب. وكان من أثر هذا النجاح أن تشجعت جمعيتنا بعد عودة مندوباتها من روما، فأرسلت وفدا لرئيس الحكومة المصرية يحمل طلبين مهمين. أولهما: إصدار قانون يحرم زواج الفتاة قبل السادسة عشرة. وثانيهما: مساواة البنت للولد في التعليم الثانوي والعالي، وقد وفقن لإجابة هذين الطلبين.

بعد هذا أخذت جمعية الاتحاد النسائي تتدرج في معالجـة المسائل الخاصة بإصلاح المرأة سـواء كانـت مـن جهـة التشريع أو من جهة التربية العقلية والجسمية بإنشائها مشغل ومستوصف دار الاتحاد أوائل سنة ١٩٢٤، أما مـن جهـة الإصلاح التشريعي فقد قدمت للحكومـة مشـروعا مطـولاً بطلب إصلاح قانون الأحوال الشخصية، وهي تعتقد أن جميع النقط التي طلبت إصلاحها ضرورية لتحسين حـال العائلـة لا المرأة وحدها، لذلك لنا أمـل عظـيم فـي أن الحكومـة المصرية التي تمثل إرادة الشـعب وتسـهر علـى راحتـه وسعادته ستحقق هذا المشروع الحيوي المفيد.

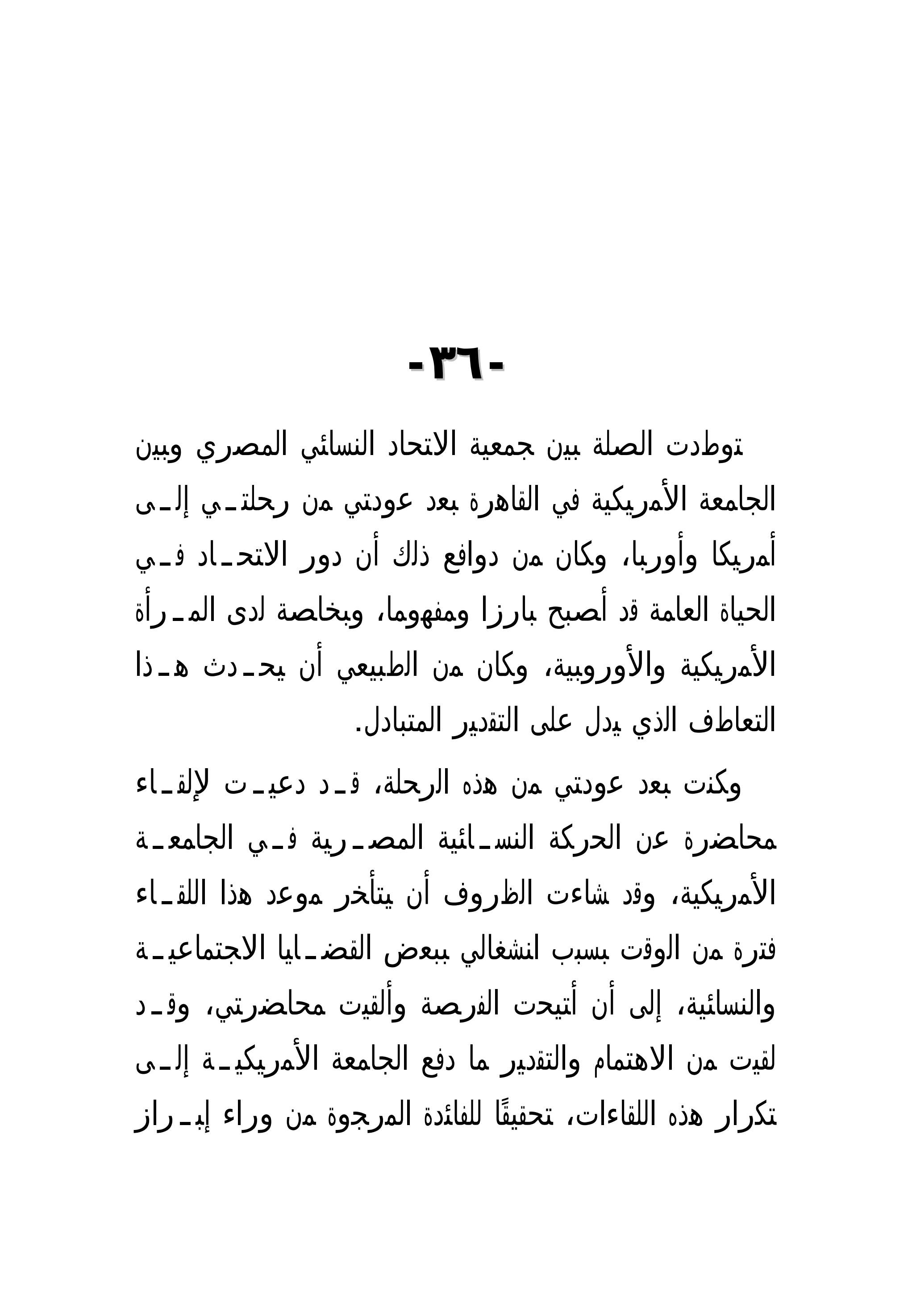
سيداتي: طالما كنت فخورة بما أحرزته المرأة المصـرية منا لتقدم في هذه المدة القصيرة، ولكني كلما اتصلت بالمرأة الغربية وعلى الأخص الأمريكية ضعف ما كنت أشعر به من الارتياح لحركتنا لأني إذا قست خطواتنا بخطـوات المـرأة هناك، مع مراعاة أقدميتها في الحركة النسوية أو الاجتماعية أجد ما تتقدم إليه الغربية في عام قد لا نصل إلى مثلـه فـي جيل.



وإذا كان من المحقق والمعروف أن المرأة نصف الخليقة البشرية، فاعلمن أن السعادة والغنى في تلك الـبلاد قائمـان على ساعد الرجل ونشاط المرأة.

سيداتي: نزلت ضيفة عند صديقة لـي فـي ديترويـت، وأقمت عندها بضعة أيام ولا أحدثكن عما لقيته مـن كـرم الضيافة الحاتمية وحسن الحفاوة بأختكن المصرية، ولكن مـا رأيته من نظام في بيتها وعنايـة بأطفالهـا وروح الوفـاق والإخلاص بينها وبين زوجها، كل ذلك كان كافيا لمحو مـا علق بذهني مما كنت أسمعه عن طيش بنـات اليسـار مـن الأمريكيات، وقد تبينت أن سر النظام في أمريكا هو شـعور المرأة بشخصيتها واحترام الرجل لها، وتقدير الرجل والمرأة للواجب، ووضع الشيء في موضعه، فمتى يا سيداتي يسعدنا الحظ ونخطو خطوة هذه الأمم الراقية.

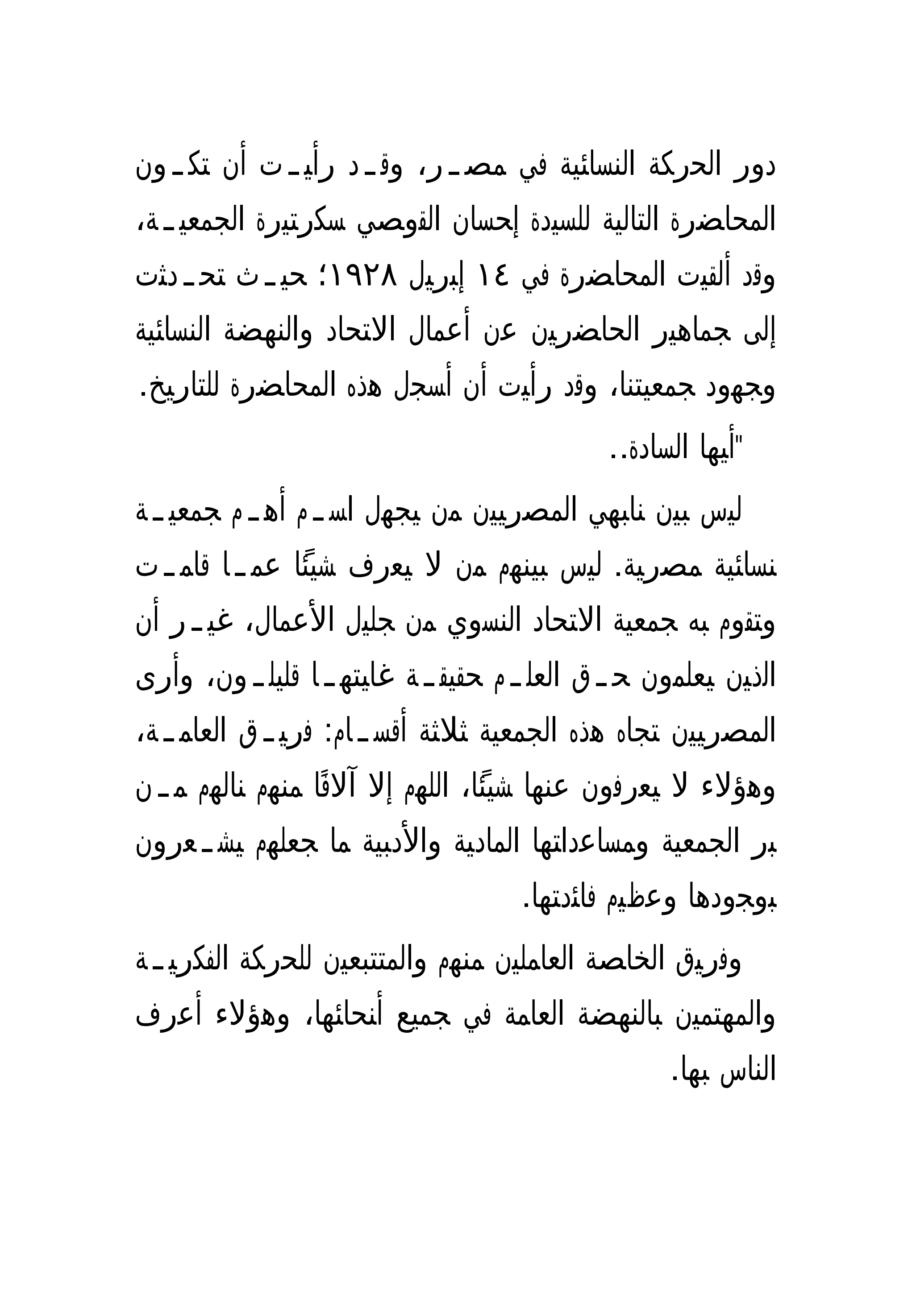
لي أمل عظيم في أن اللاتي تخرجن في هذا المعهد الجليل وتمرن على المبادئ الأمريكية يكن طليعة المرأة الجديدة في بلادنا".



-٣٦-

توطدت الصلة بين جمعية الاتحاد النسائي المصري وبين الجامعة الأمريكية في القاهرة بعد عودتي من رحلتي إلى أمريكا وأوربا، وكان من دوافع ذلك أن دور الاتحاد في الحياة العامة قد أصبح بارزا ومفهوما، وبخاصة لدى المرأة الأمريكية والأوروبية، وكان من الطبيعي أن يحدث هذا التعاطف الذي يدل على التقدير المتبادل.

وكنت بعد عودتي من هذه الرحلة، قد دعيت لإلقاء محاضرة عن الحركة النسائية المصرية في الجامعة الأمريكية، وقد شاءت الظروف أن يتأخر موعد هذا اللقاء فترة من الوقت بسبب انشغالي ببعض القضايا الاجتماعية والنسائية، إلى أن أتيحت الفرصة وألقيت محاضرتي، وقد لقيت من الاهتمام والتقدير ما دفع الجامعة الأمريكية إلى تكرار هذه اللقاءات، تحقيقًا للفائدة المرجوة من وراء إبراز

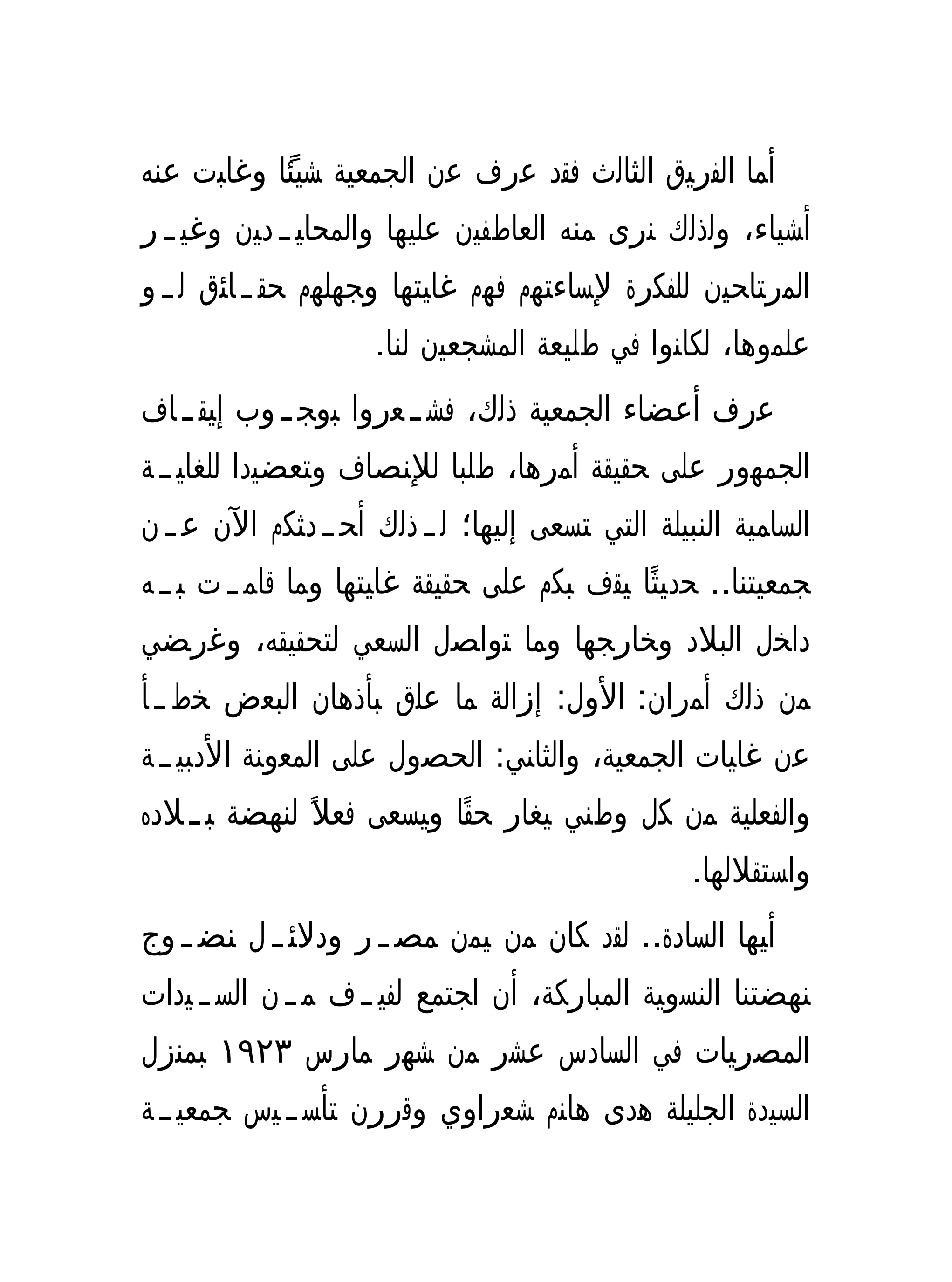


دور الحركة النسائية في مصر، وقد رأيت أن تكون المحاضرة التالية للسيدة إحسان القوصي سكرتيرة الجمعية، وقد ألقيت المحاضرة في ١٤ إبريل ١٩٢٨؛ حيث تحدثت إلى جماهير الحاضرين عن أعمال الاتحاد والنهضة النسائية وجهود جمعيتنا، وقد رأيت أن أسجل هذه المحاضرة للتاريخ.

"أيها السادة..

ليس بين نابهي المصريين من يجهل اسم أهم جمعية نسائية مصرية. ليس بينهم من لا يعرف شيئًا عما قامت وتقوم به جمعية الاتحاد النسوي من جليل الأعمال، غير أن الذين يعلمون حق العلم حقيقة غايتها قليلون، وأرى المصريين تجاه هذه الجمعية ثلاثة أقسام: فريق العامة، وهؤلاء لا يعرفون عنها شيئًا، اللهم إلا آلافًا منهم نالهم من بر الجمعية ومساعداتها المادية والأدبية ما جعلهم يشعرون بوجودها وعظيم فائدتها.

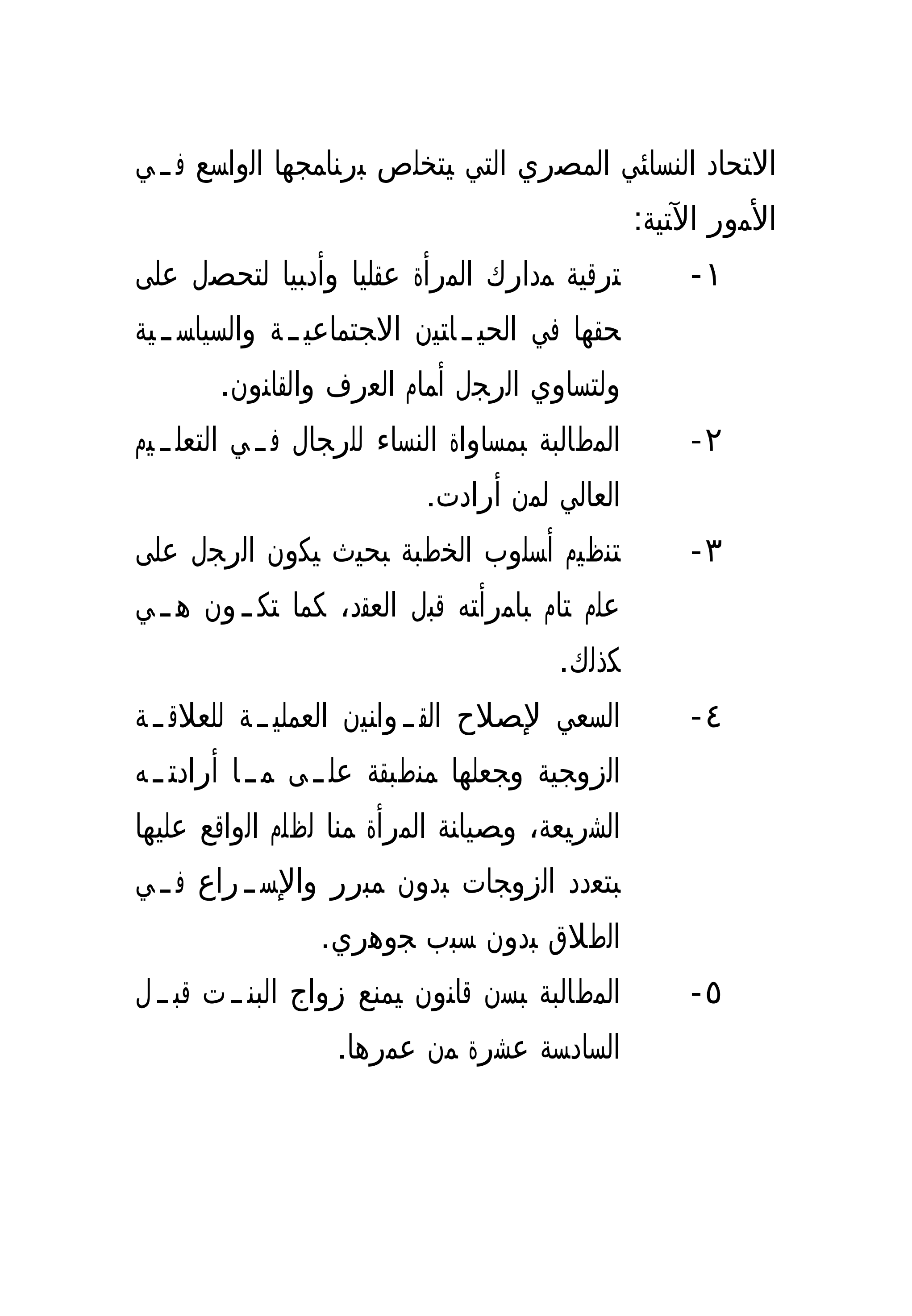
وفريق الخاصة العاملين منهم والمتتبعين للحركة الفكرية والمهتمين بالنهضة العامة في جميع أنحائها، وهؤلاء أعرف الناس بها.



أما الفريق الثالث فقد عرف عن الجمعية شيئًا وغابت عنه أشياء، ولذلك نرى منه العاطفين عليها والمحايـدين وغيـر المرتاحين للفكرة لإساءتهم فهم غايتها وجهلهم حقـائق لـو علموها، لكانوا في طليعة المشجعين لنا.

عرف أعضاء الجمعية ذلك، فشـعروا بوجـوب إيقـاف الجمهور على حقيقة أمرها، طلبا للإنصاف وتعضيدا للغايـة السامية النبيلة التي تسعى إليها؛ لـذلك أحـدثكم الآن عـن جمعيتنا.. حديثًا يقف بكم على حقيقة غايتها وما قامـت بـه داخل البلاد وخارجها وما تواصل السعي لتحقيقه، وغرضي من ذلك أمران: الأول: إزالة ما علق بأذهان البعض خطـأ عن غايات الجمعية، والثاني: الحصول على المعونة الأدبيـة والفعلية من كل وطني يغار حقًا ويسعى فعلاً لنهضة بـلاده واستقلالها.

أيها السادة.. لقد كان من يمن مصـر ودلائـل نضـوج نهضتنا النسوية المباركة، أن اجتمع لفيـف مـن السـيدات المصريات في السادس عشر من شهر مارس ١٩٢٣ بمنزل السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي وقررن تأسـيس جمعيـة



الاتحاد النسائي المصري التي يتخلص برنامجها الواسع في الأمور الآتية:

١- ترقية مدارك المرأة عقليا وأدبيا لتحصل على حقها في الحياتين الاجتماعية والسياسية ولتساوي الرجل أمام العرف والقانون.

٢- المطالبة بمساواة النساء للرجال في التعليم العالي لمن أرادت.

٣- تنظيم أسلوب الخطبة بحيث يكون الرجل على علم تام بامرأته قبل العقد، كما تكون هي كذلك.

٤- السعي لإصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وجعلها منطبقة على ما أرادته الشريعة، وصيانة المرأة منا لظلم الواقع عليها بتعدد الزوجات بدون مبرر والإسراع في الطلاق بدون سبب جوهري.

٥- المطالبة بسن قانون يمنع زواج البنت قبل السادسة عشرة من عمرها.

٦- السعي بمختلف الوسائل لتحسين حالة الشعب الصحية.

٧- السعي لنشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

٨- محاربة البدع والخرافات التي تتعارض مع العلم الصحيح.

٩- نشر الدعوة بكل الوسائل المشروعة.

وهنا أيها السادة يجدر بي أن أقول كلمة موجزة عن كل مادة من المواد السابقة وما استطعنا الوصول إلى تحقيقه.. تطالب الجمعية في المادة الأولى حق الانتخاب والمساواة مع الرجل اجتماعيا وسياسيا وأمام العرف والقانون، وما أظن منصفًا حتى ولو كان من غلاة الرجعيين ينكر أن المرأة تدفع الضرائب كالرجل سواء بسواء، وأنها مسئولة مثله أمام الشريعة والقانون، وأن الوطن وطنها كما هو وطن الرجل ويهمها من أمره ما يهمه.. فبأي حق يمنعها الرجل من الاهتمام بشئونه ومشاركته في العمل لخيره؟ وبأي حق وهي تدفع من ثروتها ما ينفق على مختلف المرافق العامة تبعد عن الاشتراك في تقرير وجوه صرفه؟ وبأي حق تخضع لتشريع وتتحمل آثاره وليس لها صوت في وضعه؟

هذه الأسباب أيها السادة مضافًا إليها شعور المرأة بشخصيتها وكرامتها، هي التي حدت بنا للاحتجاج على الحكومة سنة ١٩٢٢ لإغفالنا عند وضع الدستور وعدم إعطائنا حق الانتخاب، ذلك الحق الذي يتمتع به الأمي الجاهل ويملكه الخالي من الملك ولا تملكه المرأة ولو كانت متعلمة وتدفع الضرائب.

أما المادة الثانية فتطالب بمساواة النساء للرجال في التعليم العالي لمن أرادت، وهو طلب عادل يقضي به المنطق للأسباب الآتية:

أولاً: نعرف أنه كلما زاد تعليم المرأة أحسنت القيام بالواجب عليها زوجة وأما بيدها صوغ رجال المستقبل.

ثانيا: تسهيلاً لمن تبغي من ورائه الكسب الشريف.

ثالثًا: مساعدة لمن تمتاز بمواهبها على ظهور نبوغها والانتفاع به.

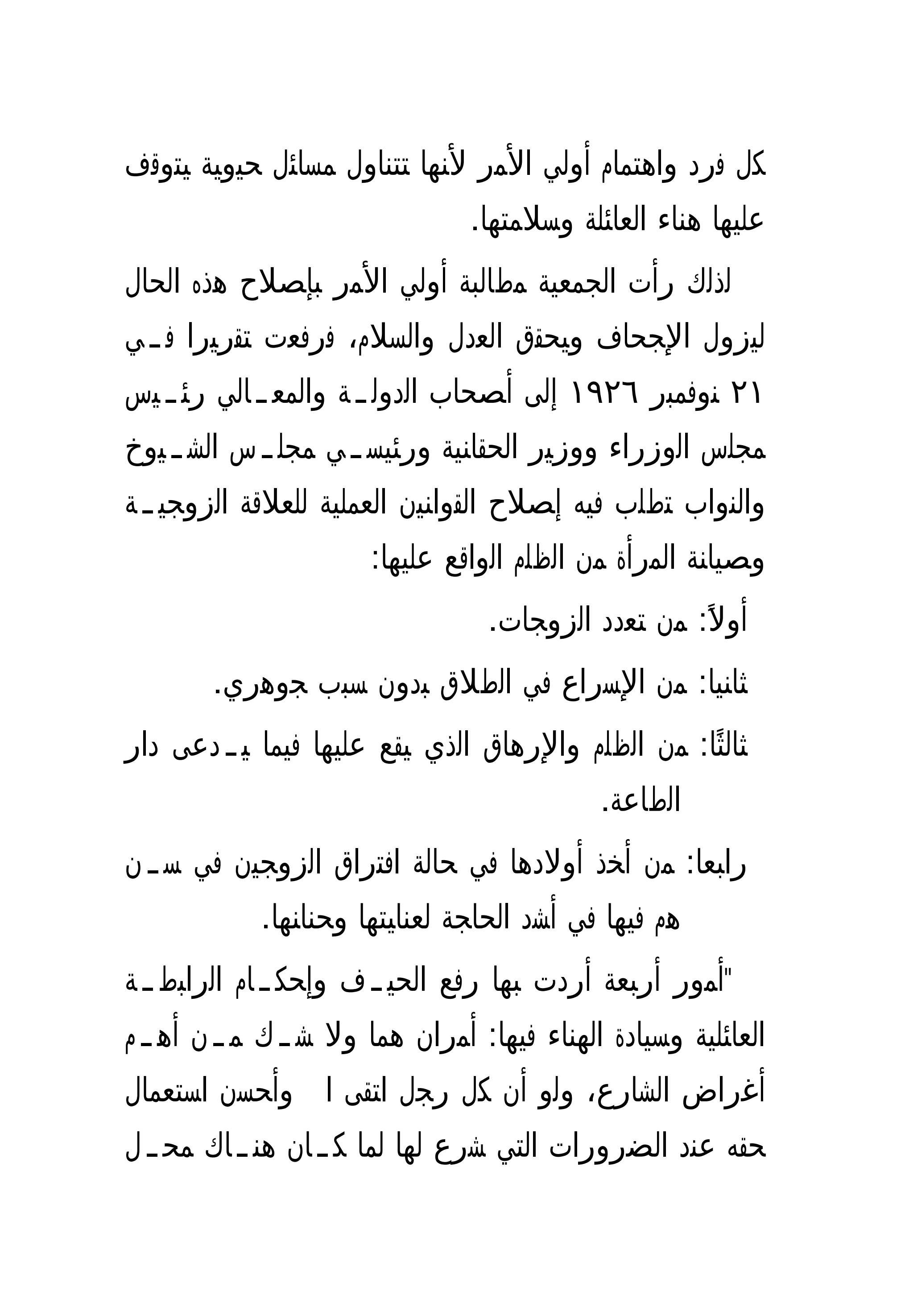
رابعا: رفعا لمستوى العقلية العامة في البلاد.

خامسا: لأن التفاهم أساس السعادة العائلية ولا يكون على أتمه بين زوج متعلم وامرأة لـم تنـل التعلـيم إلا يسيرا.

حقائق لم تغب عن ولاة الأمور، وبذلك أجاب سعادة زكي باشا أبو السعود وزير المعارف في ذلك الوقت بأنه سيدرس الموضوع ووعد بتحقيقه قريبـا، ويسـرنا أن قـد تحققـت المساواة في التعليم في أوائل سنة ١٩٢٤.

أما المادة الثالثة فتقول بتنظيم أسـلوب الخطبـة؛ بحيـث يكون الزوجان بعضهما على علم ببعض قبل العقـد ابتغـاء للسعادة العائلية وتجنبا لما عساه أن يحدث من عدم الوفـاق لاختلاف الأذواق والمشارب بين الأفراد، والجمعية في ذلـك غرضها تحقيق ما تقول به الشـريعة وتتطلـب المصـلحة، ولا تريد بذلك التوسع في مقدمات الزواج كما هو في الـبلاد الغربية.

أما المادة الرابعة التي تنص على السعي لإصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وجعلها منطبقة علـى مـا أرادتـه الشريعة وصيانة المرأة من الواقع عليها بتعـدد الزوجـات بدون مبرر والطلاق بدون سبب جوهري، فتحتاج إلى عناية



كل فرد واهتمام أولي الأمر لأنها تتناول مسائل حيوية يتوقف عليها هناء العائلة وسلامتها.

لذلك رأت الجمعية مطالبة أولي الأمر بإصلاح هذه الحال ليزول الإجحاف ويحقق العدل والسلام، فرفعت تقريرا في ٢١ نوفمبر ١٩٢٦ إلى أصحاب الدولة والمعالي رئيس مجلس الوزراء ووزير الحقانية ورئيسي مجلس الشيوخ والنواب تطلب فيه إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وصيانة المرأة من الظلم الواقع عليها:

أولاً: من تعدد الزوجات.

ثانيا: من الإسراع في الطلاق بدون سبب جوهري.

ثالثًا: من الظلم والإرهاق الذي يقع عليها فيما يدعى دار الطاعة.

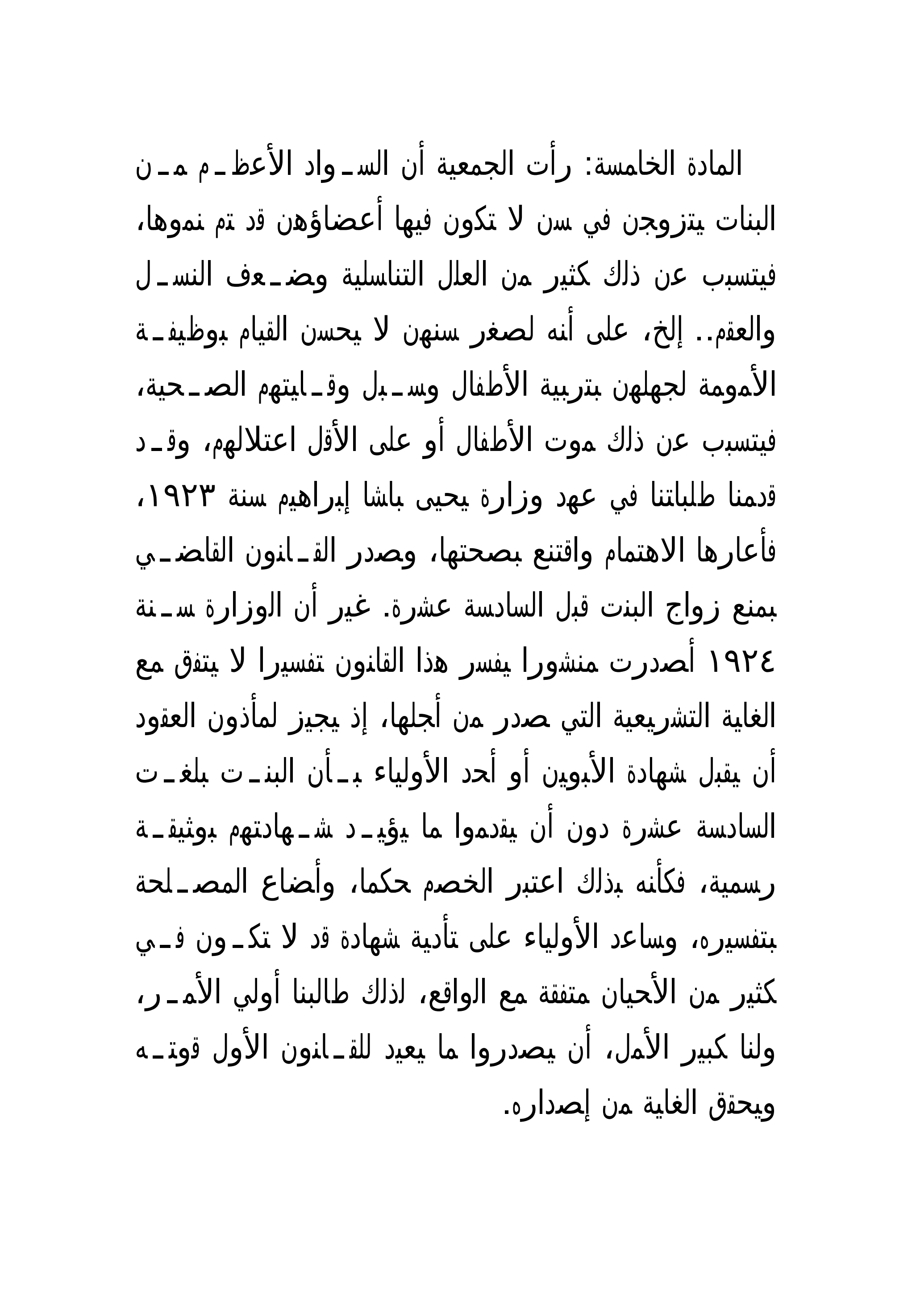
رابعا: من أخذ أولادها في حالة افتراق الزوجين في سن هم فيها في أشد الحاجة لعنايتها وحنانها.

"أمور أربعة أردت بها رفع الحيف وإحكام الرابطة العائلية وسيادة الهناء فيها: أمران هما ولا شك من أهم أغراض الشارع، ولو أن كل رجل اتقى ا وأحسن استعمال حقه عند الضرورات التي شرع لها لما كان هناك محل

لشكوانا، لكن كم من نساء يطلقن لأوهى الأسباب، وكم من نساء يتزوج أزواجهن لغير ما سبب إلا أنانية الرجل وهواه".

"أما مسألة إكراه الزوجة على الذهاب إلى ما يدعى دار الطاعة، فمسألة من الأهمية بمكان لأنها أصبحت سلاحا يستعمله الرجل حينما تخرج زوجته من داره لسوء معاملته أو تعذر العيش معه بهناء وراحة. تخرج فيتركها لأي وقت شاءت وقد يجد سعادة في هذا الفراق، فإن حدثتها نفسها بطلب الإنفاق عليها، وقد يكون الباعث لها على ذلك رغبتها في الطلاق منه، فإنك تراه يطلب من القاضي الشرعي الحكم عليها بالدخول في طاعته، لا رغبة في معاشرتها وإنما يريد إكراهها على إعطائه مبلغًا من المال نظير الطلاق إن كانت موسرة، أو إبراء ذمته من النفقة ومؤخر الصداق إن كانت معسرة".

"بقيت المسألة الرابعة، ألا وهي رعاية الطفل وتقرير من له حق الولاية عليه عند اختلاف الأبوين أو موت أحدهما، وهي تستدعي النظر في إصلاحها لأننا نرى أن الجاري عليه العمل في القضاء الشرعي ليس وافيا دائما بوضع الطفل تحت مراقبة صحية ويد باردة تعني بتربيته.



المادة الخامسة: رأت الجمعية أن السـواد الأعظـم مـن البنات يتزوجن في سن لا تكون فيها أعضاؤهن قد تم نموها، فيتسبب عن ذلك كثير من العلل التناسلية وضـعف النسـل والعقم.. إلخ، على أنه لصغر سنهن لا يحسن القيام بوظيفـة الأمومة لجهلهن بتربية الأطفال وسـبل وقـايتهم الصـحية، فيتسبب عن ذلك موت الأطفال أو على الأقل اعتلالهم، وقـد قدمنا طلباتنا في عهد وزارة يحيى باشا إبراهيم سنة ١٩٢٣، فأعارها الاهتمام واقتنع بصحتها، وصدر القـانون القاضـي بمنع زواج البنت قبل السادسة عشرة. غير أن الوزارة سـنة ١٩٢٤ أصدرت منشورا يفسر هذا القانون تفسيرا لا يتفق مع الغاية التشريعية التي صدر من أجلها، إذ يجيز لمأذون العقود أن يقبل شهادة الأبوين أو أحد الأولياء بـأن البنـت بلغـت السادسة عشرة دون أن يقدموا ما يؤيـد شـهادتهم بوثيقـة رسمية، فكأنه بذلك اعتبر الخصم حكما، وأضاع المصـلحة بتفسيره، وساعد الأولياء على تأدية شهادة قد لا تكـون فـي كثير من الأحيان متفقة مع الواقع، لذلك طالبنا أولي الأمـر، ولنا كبير الأمل، أن يصدروا ما يعيد للقـانون الأول قوتـه ويحقق الغاية من إصداره.

المادة السادسة: السعي بمختلف الوسائل لتحسين حالة الشعب الصحية، فقد عملت له الجمعية أولاً بأن ضمنت مطالبها التي قدمتها لنواب الأمة وصحافتها سنة ١٩٢٤ متحدة مع لجنة الوفد المركزية للسيدات الأمور الآتية:

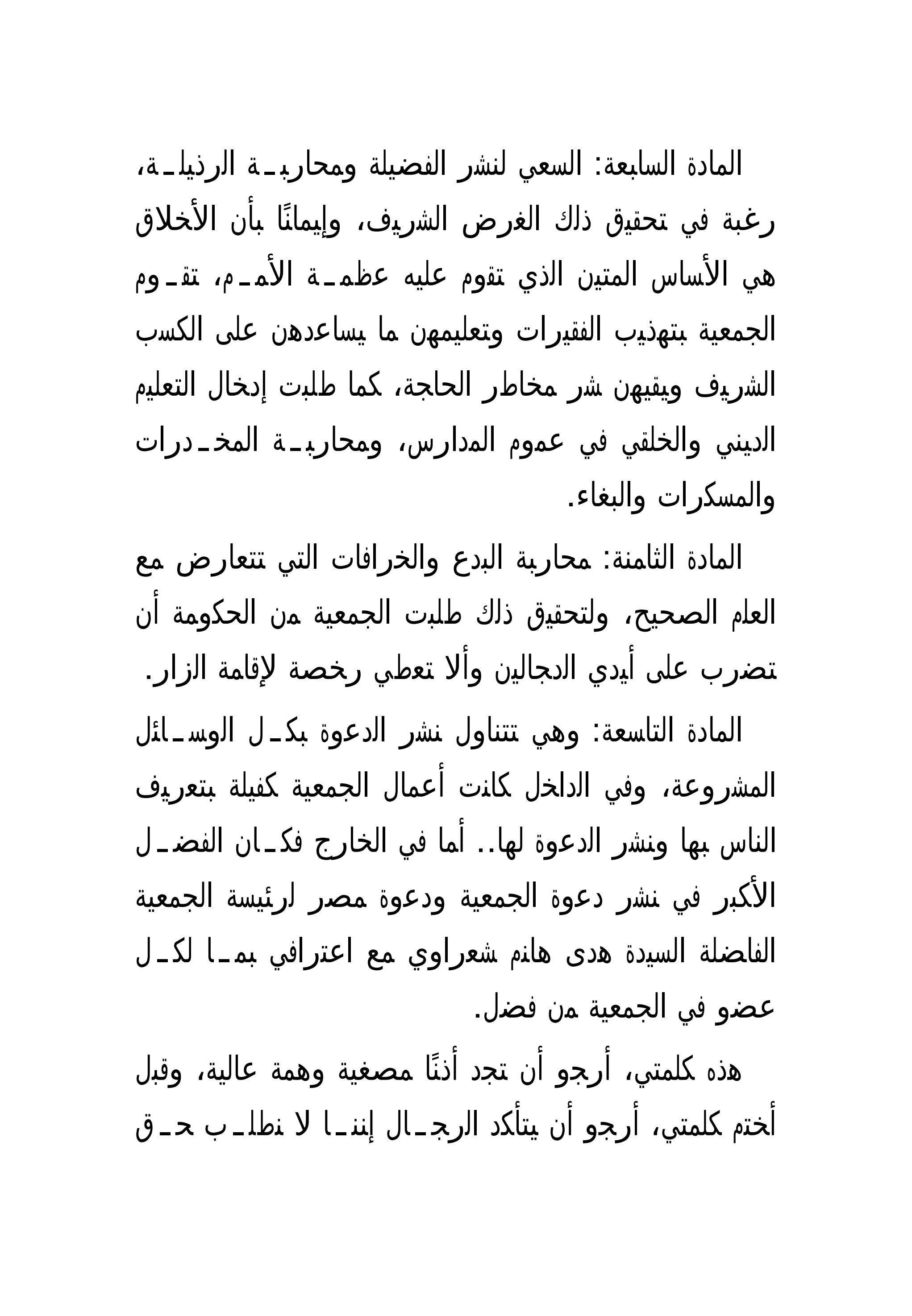
أولاً: إدخال القواعد الأولية من علم الصحة في برنامج التعليم.

ثانيا: إصدار القوانين اللازمة لمحاربة المخدرات والمسكرات صيانة للأخلاق وحفظًا للنسل.

ثالثًا: العمل على تعميم المستشفيات في جميع مراكز القطر لا سيما مستشفيات الأمراض المعدية والسرية وأمراض البلهارسيا والانكلستوما.

رابعا: إنشاء مصحات لأطفال الفقراء يقصدها الضعفاء والناقهون لاسترداد قواهم.

خامسا: إنشاء بساتين داخل المدن مع إيجاد ملاحظات لمراقبة أطفال الفقيرات اللاتي يذهبن للتكسب ويتركن أطفالهن يلعبون في هذه الحدائق الصحية النظيفة.



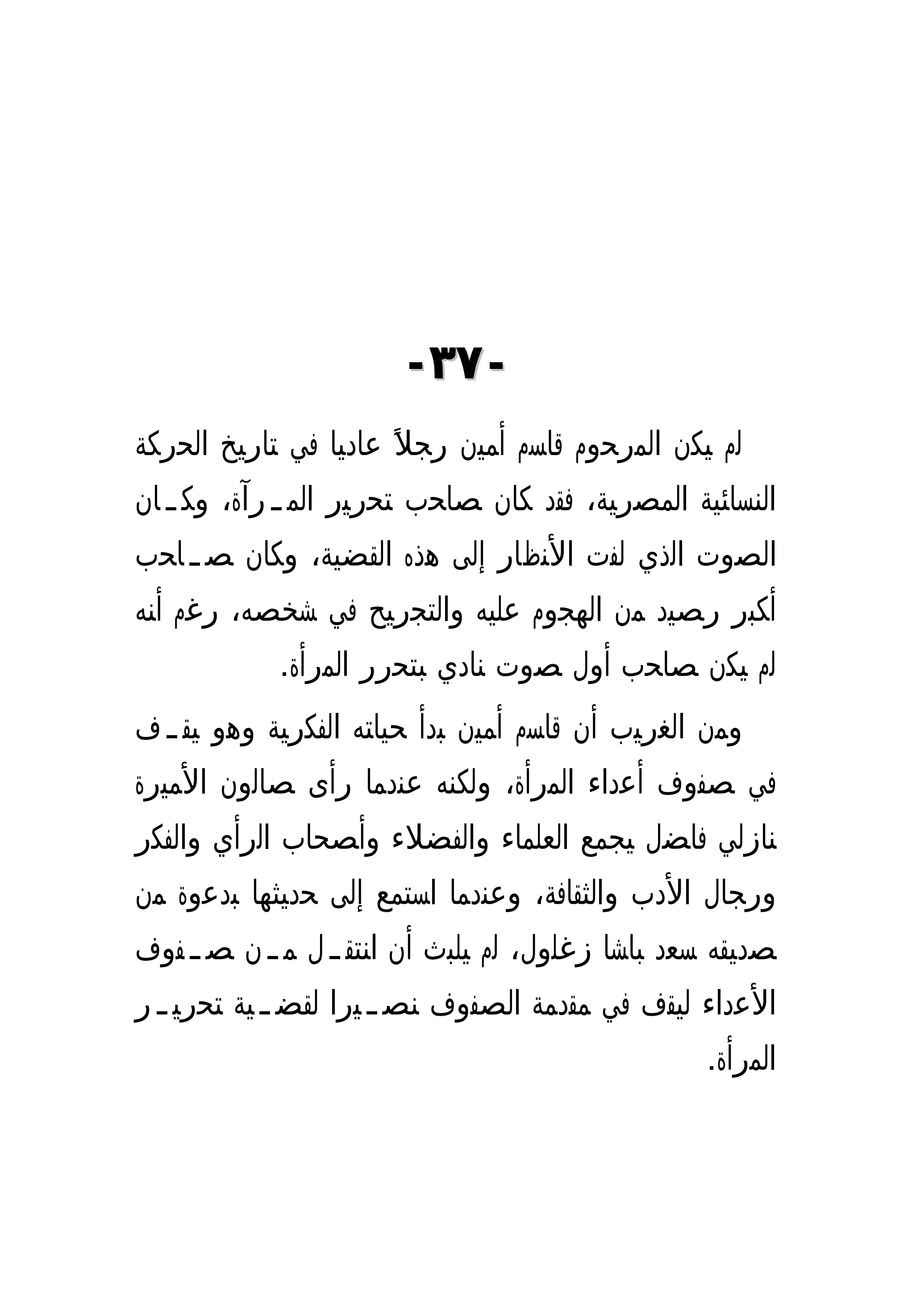
المادة السابعة: السعي لنشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة، رغبة في تحقيق ذلك الغرض الشريف، وإيمانًا بأن الأخلاق هي الأساس المتين الذي تقوم عليه عظمة الأمم، تقوم الجمعية بتهذيب الفقيرات وتعليمهن ما يساعدهن على الكسب الشريف ويقيهن شر مخاطر الحاجة، كما طلبت إدخال التعليم الديني والخلقي في عموم المدارس، ومحاربة المخدرات والمسكرات والبغاء.

المادة الثامنة: محاربة البدع والخرافات التي تتعارض مع العلم الصحيح، ولتحقيق ذلك طلبت الجمعية من الحكومة أن تضرب على أيدي الدجالين وألا تعطي رخصة لإقامة الزار.

المادة التاسعة: وهي تتناول نشر الدعوة بكل الوسائل المشروعة، وفي الداخل كانت أعمال الجمعية كفيلة بتعريف الناس بها ونشر الدعوة لها.. أما في الخارج فكان الفضل الأكبر في نشر دعوة الجمعية ودعوة مصر لرئيسة الجمعية الفاضلة السيدة هدى هانم شعراوي مع اعترافي بما لكل عضو في الجمعية من فضل.

هذه كلمتي، أرجو أن تجد أذنًا مصغية وهمة عالية، وقبل أختم كلمتي، أرجو أن يتأكد الرجال إننا لا نطالب بحق

المساواة لنزاحمهم وننافسهم، وإنما نطلبه لنتعاون وإياهم على ما فيه خيرنا جميعا وخير مستقبل بلادنا، فما الوطن إلا عائلة كبرى في حاجة لتعاون كل فرد فيها. ولا يتم التعاون الحقيقي إلا إذا ساد حسن التفاهم المؤسس على الحق والعدل".



-٣٧-

لم يكن المرحوم قاسم أمين رجلاً عاديا في تاريخ الحركة النسائية المصرية، فقد كان صاحب تحرير المرآة، وكان الصوت الذي لفت الأنظار إلى هذه القضية، وكان صاحب أكبر رصيد من الهجوم عليه والتجريح في شخصه، رغم أنه لم يكن صاحب أول صوت نادي بتحرر المرأة.

ومن الغريب أن قاسم أمين بدأ حياته الفكرية وهو يقف في صفوف أعداء المرأة، ولكنه عندما رأى صالون الأميرة نازلي فاضل يجمع العلماء والفضلاء وأصحاب الرأي والفكر ورجال الأدب والثقافة، وعندما استمع إلى حديثها بدعوة من صديقه سعد باشا زغلول، لم يلبث أن انتقل من صفوف الأعداء ليقف في مقدمة الصفوف نصيرا لقضية تحرير المرأة.

وفي مايو ١٩٢٨ انتهزنا فرصة مرور عشرين عاما على رحيل المصلح الاجتماعي قاسم أمين لنقيم احتفالاً لتكريم ذكراه، وقد أقيم هذا الاحتفال في دار مسرح حديقة الأزبكية، وضم عديدا من الشخصيات العامة والقيادات النسائية.. وكان مهرجانًا لرد اعتبار الرجل العظيم الذي قضى نحبه حزينًا محسورا بعد أن تكاثرت عليه سهام الأعداء من كل جانب، وبعد أن وصل التجريح إلى بيته وأسرته.

وقد كتبت جريدة السياسة في عددها الصادر في ٦ مايو ١٩٢٨ عن هذا الاحتفال بإفاضة، وكان من بين ما قالته عن هذه المناسبة: "إن الوفاء وعرفان الجميل من أخلاق المرأة، فالاتحاد النسائي بدعوته إلى الاحتفال بتكريم ذكرى قاسم أمين زاد شأن المرأة رفعة، وأرضى روح ذلك المصلح العظيم، وبرهن على أن المرأة خليقة بالمقام الرفيع الذي تسعى إلى تبوئه بمساعدة أفضل المصلحين من الرجال".

وأضافت الصحيفة قائلة: "وحسبنا أن ندل على مقام الحفلة بذكر الذين حضروا وفي مقدمتهم صاحبة العصمة أم المصريين وأصحاب المعالي واصف غالي باشا وعلي الشمسي باشا ومحمد صفوت باشا وأحمد طلعت باشا ومحمد

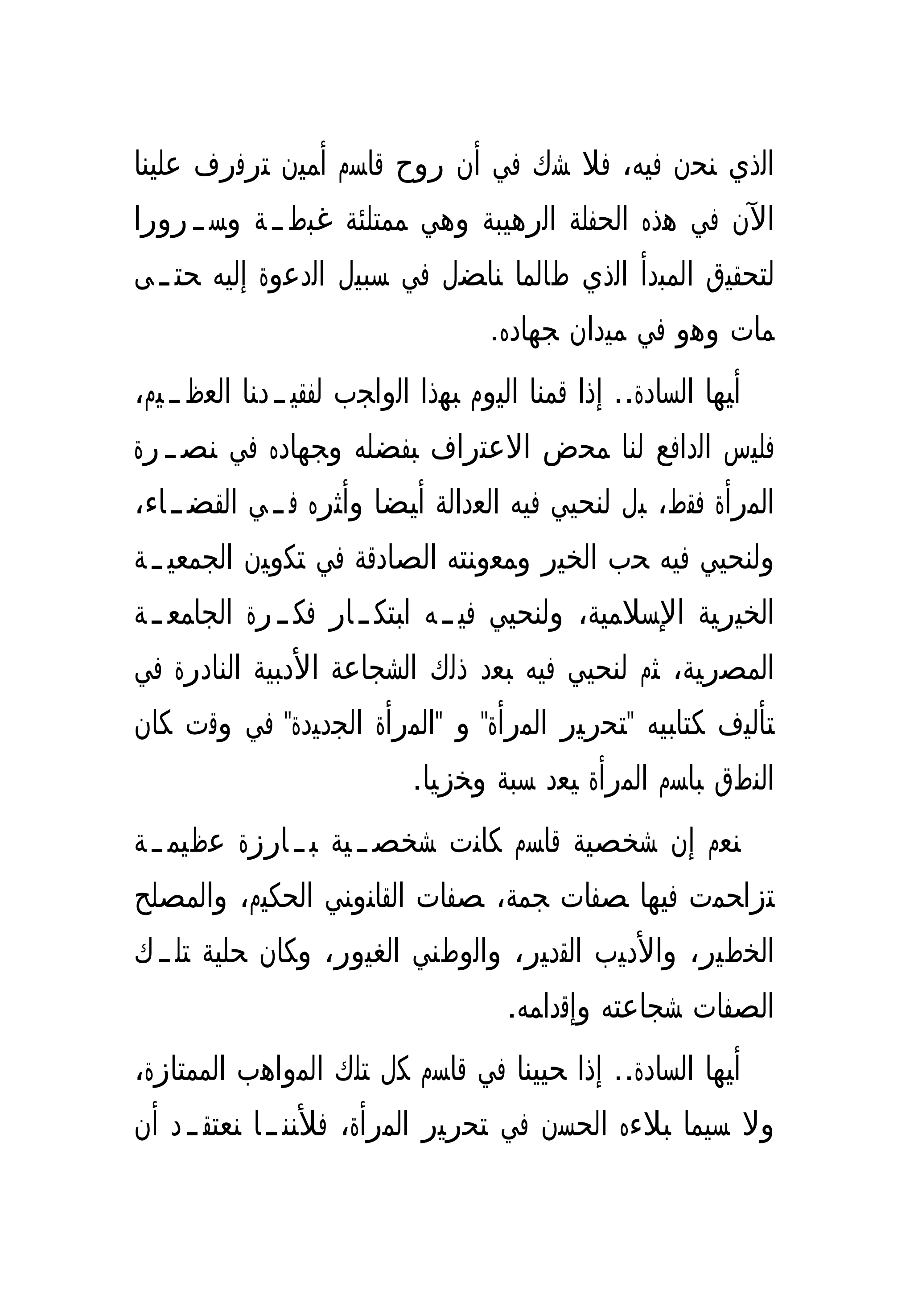
علي باشا وتوفيق دوس باشا وأحمد شفيق باشا ولطفي السيد بك وعلي عمر بك والدكتور طه حسين والدكتور مصـطفى فهمي والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وإسماعيل شيرين بك وعدد كبير من السيدات والأوانس".

وقد ألقيت بهذه المناسبة كلمة قلت فيها:

"سادتي وسيداتي..

اسمحوا لي أن أبدأ كلمتي بآخر كلمة نطق بها المرحـوم قاسم بك أمين في حفلة نادي المدارس العليـا وهـو يحيـي الطلبة الرومانيين ليلة وفاته، إذ قال: (كم أكون سـعيدا فـي اليوم الذي أرى فيه سيداتنا يزين مجالسنا كما تزين طاقـات الزهور قاعات الجلوس)، هذه هي آخر جملـة نطـق بهـا المرحوم قاسم قبل أن يلبي دعوة ربه ببرهة وجيزة، وهـي كما ترون تتضمن أمنية غالية لم يمهله الموت حتى يشهدها.

ولما كان من أجلّ مظاهر البر بالموتى والوفاء لهم، القيام بما كان يجلب سرورهم لو أنهم على قيد الحياة، رأت جمعية الاتحاد النسائي أن أقل ما عليها نحو روح الفقيد العظيم إنما هو تحقيق تلك الأمنية بالاشتراك في هذه الحفلـة اشـتراكًا عمليا، فإذا كانت الأرواح في عالمها الأعلى متصلة بعالمنـا



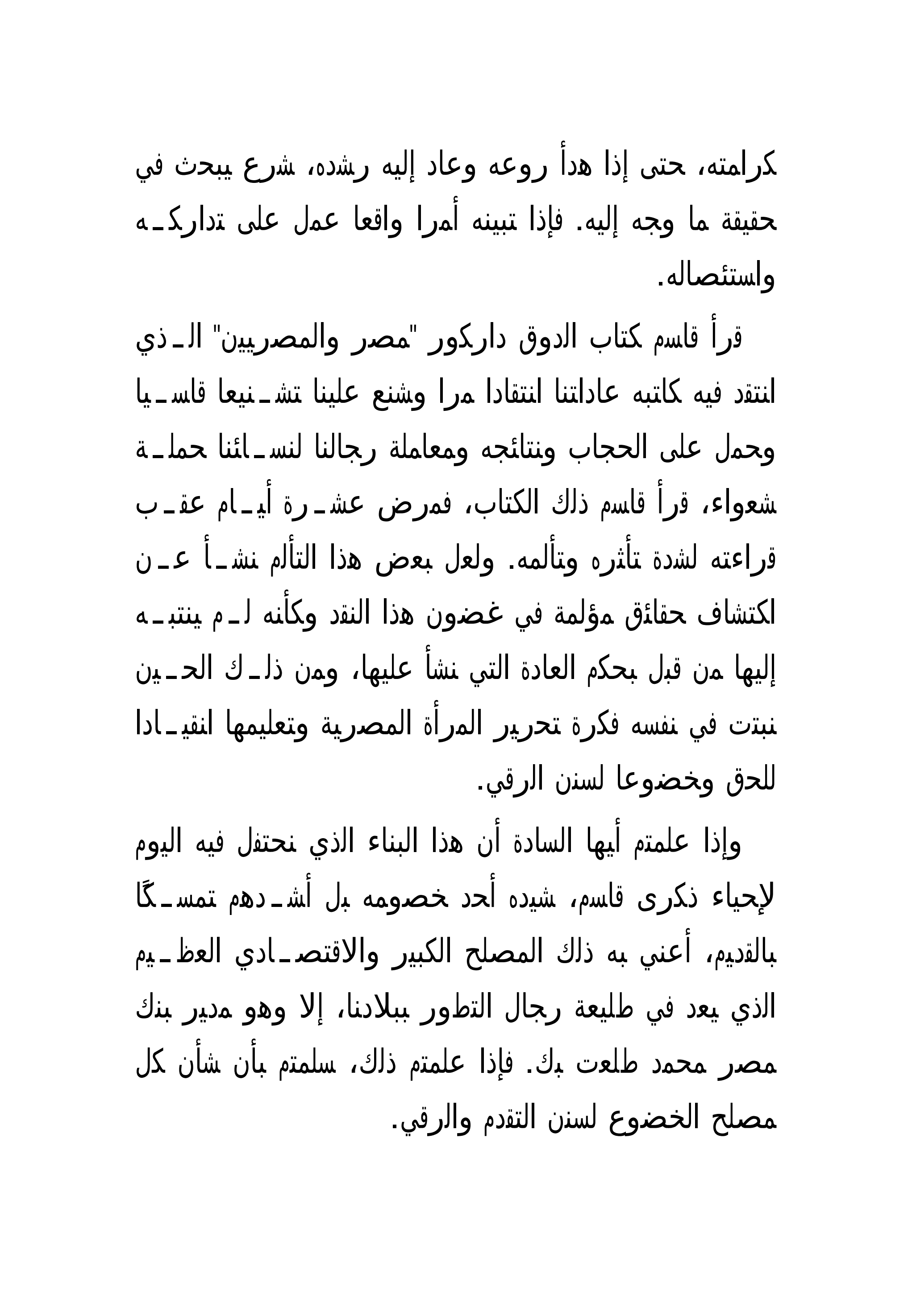
الذي نحن فيه، فلا شك في أن روح قاسم أمين ترفرف علينا الآن في هذه الحفلة الرهيبة وهي ممتلئة غبطـة وسـرورا لتحقيق المبدأ الذي طالما ناضل في سبيل الدعوة إليه حتـى مات وهو في ميدان جهاده.

أيها السادة.. إذا قمنا اليوم بهذا الواجب لفقيـدنا العظـيم، فليس الدافع لنا محض الاعتراف بفضله وجهاده في نصـرة المرأة فقط، بل لنحيي فيه العدالة أيضا وأثره فـي القضـاء، ولنحيي فيه حب الخير ومعونته الصادقة في تكوين الجمعيـة الخيرية الإسلامية، ولنحيي فيـه ابتكـار فكـرة الجامعـة المصرية، ثم لنحيي فيه بعد ذلك الشجاعة الأدبية النادرة في تأليف كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" في وقت كان النطق باسم المرأة يعد سبة وخزيا.

نعم إن شخصية قاسم كانت شخصـية بـارزة عظيمـة تزاحمت فيها صفات جمة، صفات القانوني الحكيم، والمصلح الخطير، والأديب القدير، والوطني الغيور، وكان حلية تلـك الصفات شجاعته وإقدامه.

أيها السادة.. إذا حيينا في قاسم كل تلك المواهب الممتازة، ولا سيما بلاءه الحسن في تحرير المرأة، فلأننـا نعتقـد أن

شعوره بواجب تحريرها وقيامه بالدفاع عنها والـدعوة إلـى تعليمها، لم يدفعه إليه مجرد احترامـه للعـدل والإنصـاف فحسب بل وخالص حبه لمصر وتفانيه في رفع شـأنها بـين الأمم الحية، وهذه الغاية هي غايتنا نفسها التي ننشدها نحـن معشر السيدات من وراء نهضتنا النسائية، ولو أمهله الموت وقدره قومه وأنصفه خصومه حينما شرع يطالـب بتحريـر المرأة ليتمم سلسلة إصلاحه، لخطت مصر خطوات واسـعة من عشرين سنة مضت. ولكن القدر أبى علينـا أن نتمتـع بمواهبه السامية، فحاربه خصومه وخذله قومـه وعاجلتـه المنية فكان موته خطبا فادحا، وقد كان من أمضى الأسـلحة التي استعملها خصوم قاسم ضد مبدئه ما توهموه من تناقض بين رده على الدوق داركور وبين كتابيـه تحريـر المـرأة والمرأة الجديدة، إذ أنه في كتابه الأول يدافع عـن عـادات بلاده ويحبذ تقاليدها، وفي كتابه الثاني يطالب بتحرير المرأة وفك قيودها. ولم يفهموا أنه في الحالة الأولى كان مـدفوعا بعوامل الإصلاح والإخلاص لبلاده بعد تفكير عميق وبحـث دقيق فيما يقتضيه النهوض، وكان مثله في رده مثل الرجـل الأبي إذ مس شرفه بكلمة جارحة، دفعه إباؤه للـزود عـن



كرامته، حتى إذا هدأ روعه وعاد إليه رشده، شرع يبحث في حقيقة ما وجه إليه. فإذا تبينه أمرا واقعا عمل على تداركه واستئصاله.

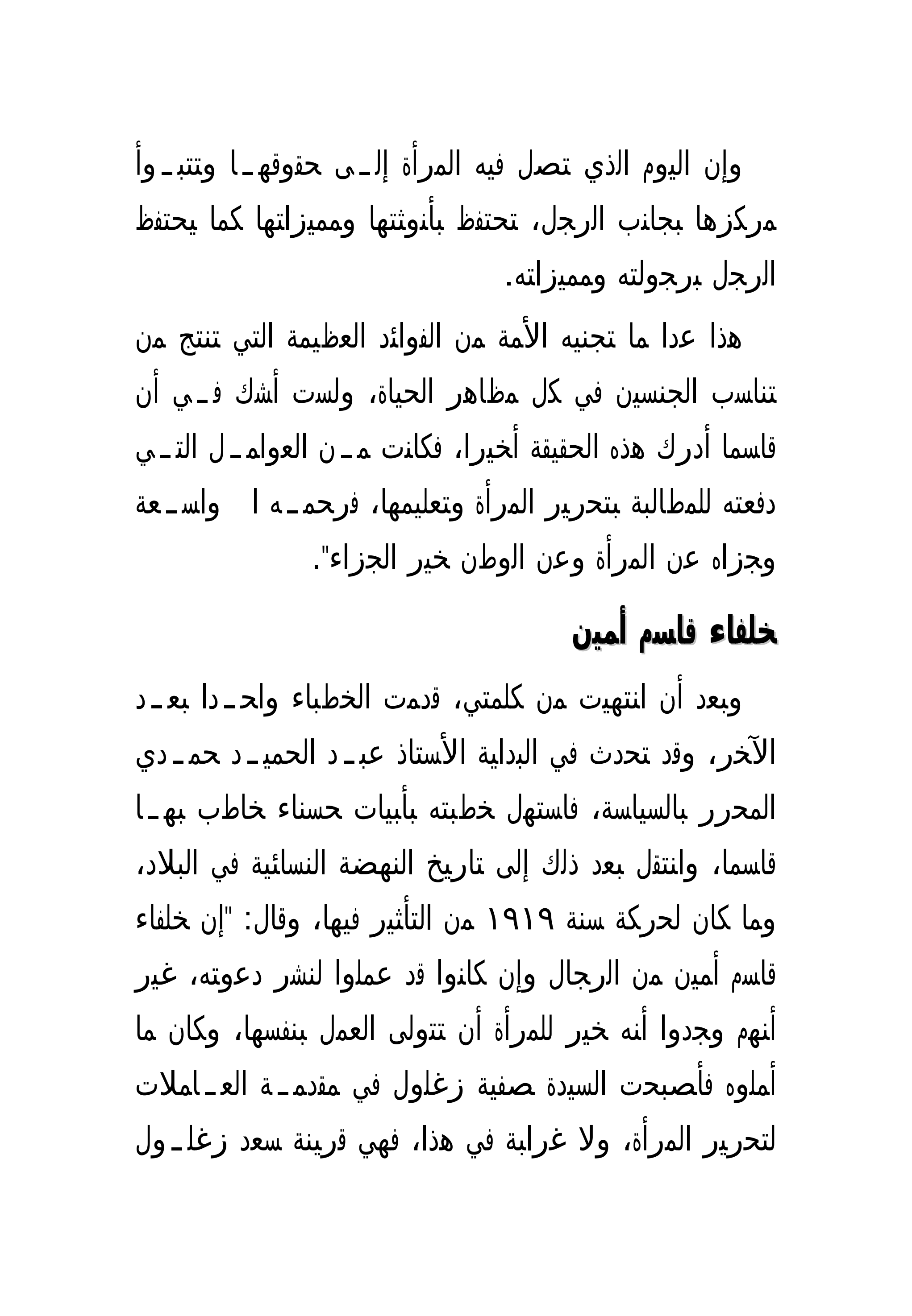
قرأ قاسم كتاب الدوق داركور "مصر والمصريين" الذي انتقد فيه كاتبه عاداتنا انتقادا مرا وشنع علينا تشنيعا قاسيا وحمل على الحجاب ونتائجه ومعاملة رجالنا لنسائنا حملة شعواء، قرأ قاسم ذلك الكتاب، فمرض عشرة أيام عقب قراءته لشدة تأثره وتألمه. ولعل بعض هذا التألم نشأ عن اكتشاف حقائق مؤلمة في غضون هذا النقد وكأنه لم ينتبه إليها من قبل بحكم العادة التي نشأ عليها، ومن ذلك الحين نبتت في نفسه فكرة تحرير المرأة المصرية وتعليمها انقيادا للحق وخضوعا لسنن الرقي.

وإذا علمتم أيها السادة أن هذا البناء الذي نحتفل فيه اليوم لإحياء ذكرى قاسم، شيده أحد خصومه بل أشدهم تمسكًا بالقديم، أعني به ذلك المصلح الكبير والاقتصادي العظيم الذي يعد في طليعة رجال التطور ببلادنا، إلا وهو مدير بنك مصر محمد طلعت بك. فإذا علمتم ذلك، سلمتم بأن شأن كل مصلح الخضوع لسنن التقدم والرقي.

أيها السادة.. إذا تسنى لبني مصر أن يقيموا التماثيل لأولي الفضل من عظمائهم، وجب عليهم أن يذكروا أن قاسما في طليعة المصلحين المخلصين.

"أيها السادة.. يظن البعض أن تعليم المرأة وإعطاءها حريتها يذهب بشيء من مميزاتها الطبيعية ويدخل في طباعها شيئًا من الخشونة والرجولة، وقد وقع قاسم في خطأ ذلك الظن عند رده على الدوق داركور، إذ قال في دفاعه عن موضوع المرأة وهو يقارن بين الشرقية والغربية المتعلمة: (إن منظر الأم البارة يملك عواطفي.. ومنظر المرأة وهي قائمة بشئون بيتها يسرني، ولكني حينما أشاهد امرأة تبادرني وكتابها في يدها وتهز يدي بعنف صارخ: كيف الحال يا صديقي؟ أشعر نحوها بشيء لا يبعد عن النفور).

وقد تعلمون أيها السادة أن الإنسان ميال بفطرته لتشبهه بمن هو أرفع منه قدرا، فإذا حاولت المرأة المهضومة الحقوق أن تتشبه بالرجل، فلأنها تراه أرفع منها وأعز سلطانًا في الهيئة الاجتماعية لتمتعه بكل حقوقه.

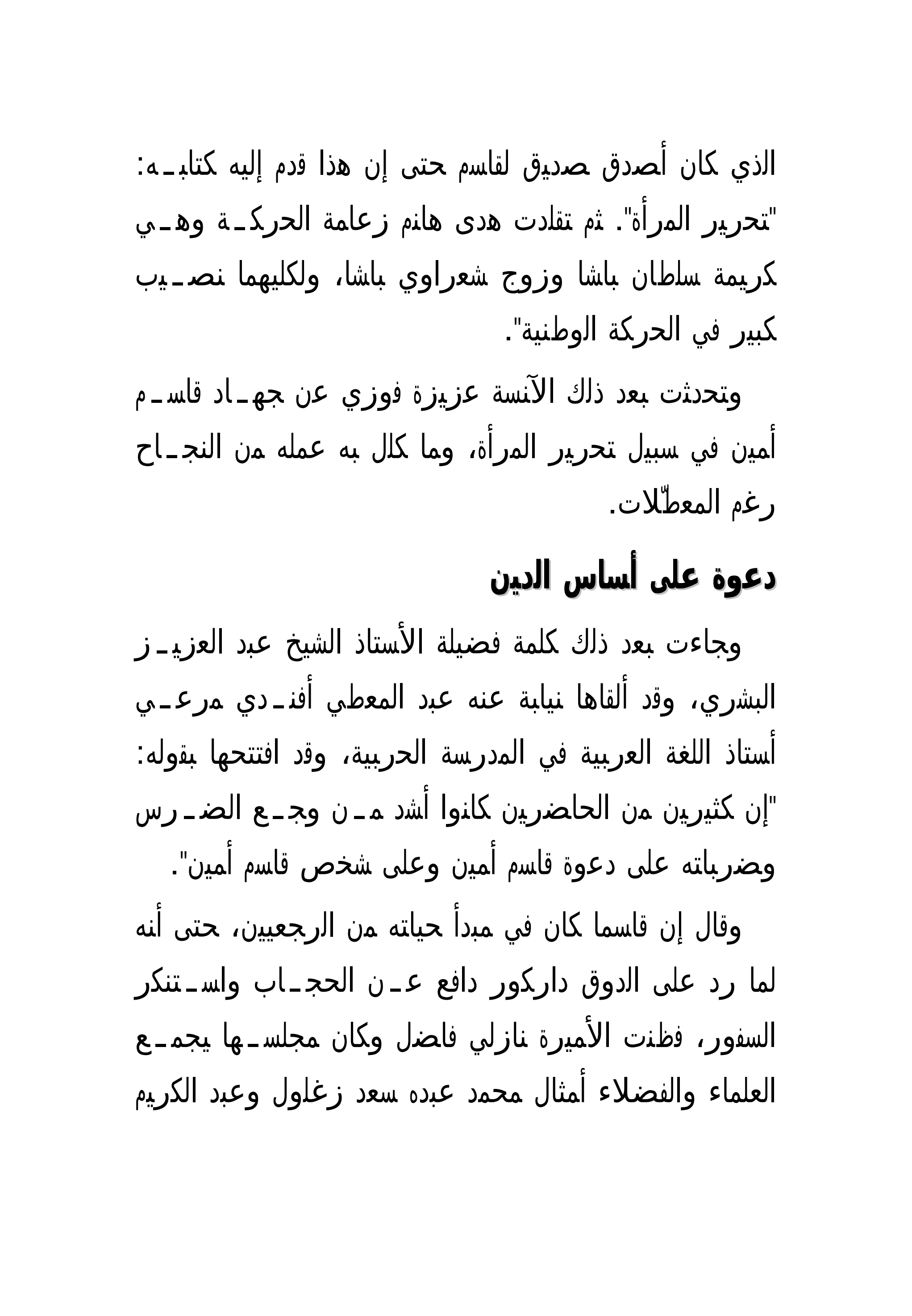


وإن اليوم الذي تصل فيه المرأة إلـى حقوقهـا وتتبـوأ مركزها بجانب الرجل، تحتفظ بأنوثتها ومميزاتها كما يحتفظ الرجل برجولته ومميزاته.

هذا عدا ما تجنيه الأمة من الفوائد العظيمة التي تنتج من تناسب الجنسين في كل مظاهر الحياة، ولست أشك فـي أن قاسما أدرك هذه الحقيقة أخيرا، فكانت مـن العوامـل التـي دفعته للمطالبة بتحرير المرأة وتعليمها، فرحمـه ا واسـعة وجزاه عن المرأة وعن الوطن خير الجزاء".

خلفاء قاسم أمين

وبعد أن انتهيت من كلمتي، قدمت الخطباء واحـدا بعـد الآخر، وقد تحدث في البداية الأستاذ عبـد الحميـد حمـدي المحرر بالسياسة، فاستهل خطبته بأبيات حسناء خاطب بهـا قاسما، وانتقل بعد ذلك إلى تاريخ النهضة النسائية في البلاد، وما كان لحركة سنة ١٩١٩ من التأثير فيها، وقال: "إن خلفاء قاسم أمين من الرجال وإن كانوا قد عملوا لنشر دعوته، غير أنهم وجدوا أنه خير للمرأة أن تتولى العمل بنفسها، وكان ما أملوه فأصبحت السيدة صفية زغلول في مقدمـة العـاملات لتحرير المرأة، ولا غرابة في هذا، فهي قرينة سعد زغلـول



الذي كان أصدق صديق لقاسم حتى إن هذا قدم إليه كتابه: "تحرير المرأة". ثم تقلدت هدى هانم زعامة الحركة وهي كريمة سلطان باشا وزوج شعراوي باشا، ولكليهما نصيب كبير في الحركة الوطنية".

وتحدثت بعد ذلك الآنسة عزيزة فوزي عن جهاد قاسم أمين في سبيل تحرير المرأة، وما كلل به عمله من النجاح رغم المعطّلات.

دعوة على أساس الدين

وجاءت بعد ذلك كلمة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري، وقد ألقاها نيابة عنه عبد المعطي أفندي مرعي أستاذ اللغة العربية في المدرسة الحربية، وقد افتتحها بقوله: "إن كثيرين من الحاضرين كانوا أشد من وجع الضرس وضرباته على دعوة قاسم أمين وعلى شخص قاسم أمين".

وقال إن قاسما كان في مبدأ حياته من الرجعيين، حتى أنه لما رد على الدوق داركور دافع عن الحجاب واستنكر السفور، فظنت الأميرة نازلي فاضل وكان مجلسها يجمع العلماء والفضلاء أمثال محمد عبده سعد زغلول وعبد الكريم

سلمان وفارس نمر ويعقوب صروف والمويلحي وابنه، أنـه يقصدها، فغضبت لذلك، ولكن سعدا قدم صديقه إليها.

ولما رأى شدة عقلها ورجاحة حلمها ووثاقة فضلها، انقلب عن رأيه وأخذ يطالب بتحرير المرأة.

وأضاف بأن قاسما لم يكن ملحدا في مطالبتـه بتحريـر المرأة بل بنى دعوته على قواعد الدين، كما أنـه لـم يـرد تحرير المرأة من الرجل، بل أراد تحرير الرجل من المـرأة الجاهلة".

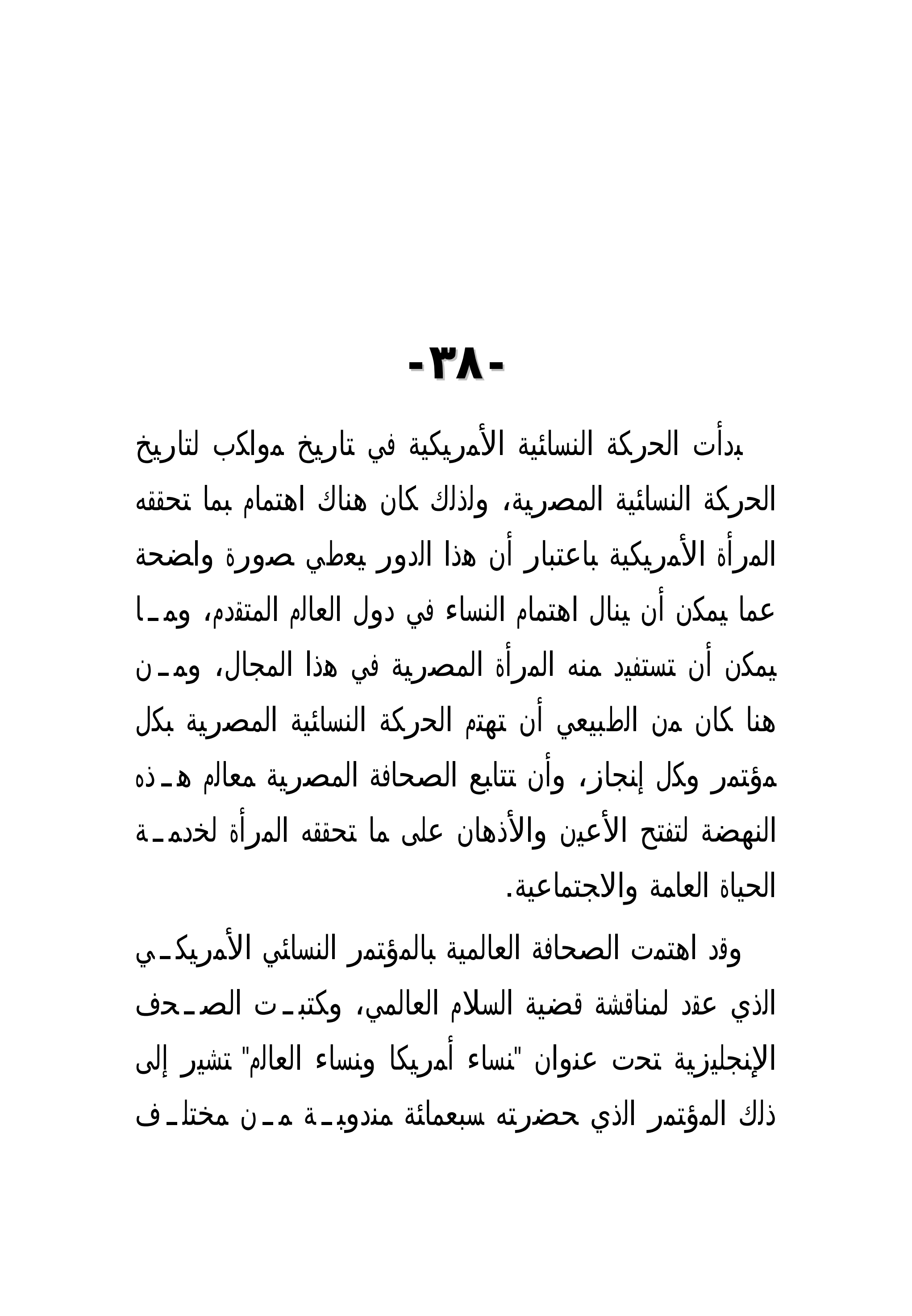
***

وبعد ذلك تحدثت الآنسة درية أحمد شـفيق مـن فتيـات الإسكندرية، وألقت خطبة فرنسية قابلها السامعون بالتصفيق.

وكان أمير الشعراء أحمد شوقي بك قد أعد قصيدة بهـذه المناسبة، وقد ألقاها بصوت جهوري شفيق بك جبـر مـدير مكتب معالي وزير المالية، ولقد كان من آيات نجاح دعـوة قاسم أمين أن أمير الشعراء قد أصبح من مؤيديها بعد أن كان من معارضيها.

وكان من بين المتحدثين في هذا المهرجان، السيدة روفية رمضان ناظرة مدرسة الحلمية الابتدائية والأستاذ إبراهيم الهلباوي بك.

وختم الحفل الشاب قاسم أفندي أمين حفيد المرحوم قاسم أمين ونجل حضرة توفيق بك رشدي القاضي بمحكمة مصر، فشكر الاتحاد النسائي والخطيبات والخطباء الذين اشتركوا في حفلة التكريم بكلمات رقيقة، وقال إن والديه سمياه باسم جده تيمنًا باسم جده بذلك وأملاً في أن ينهج نهجه.



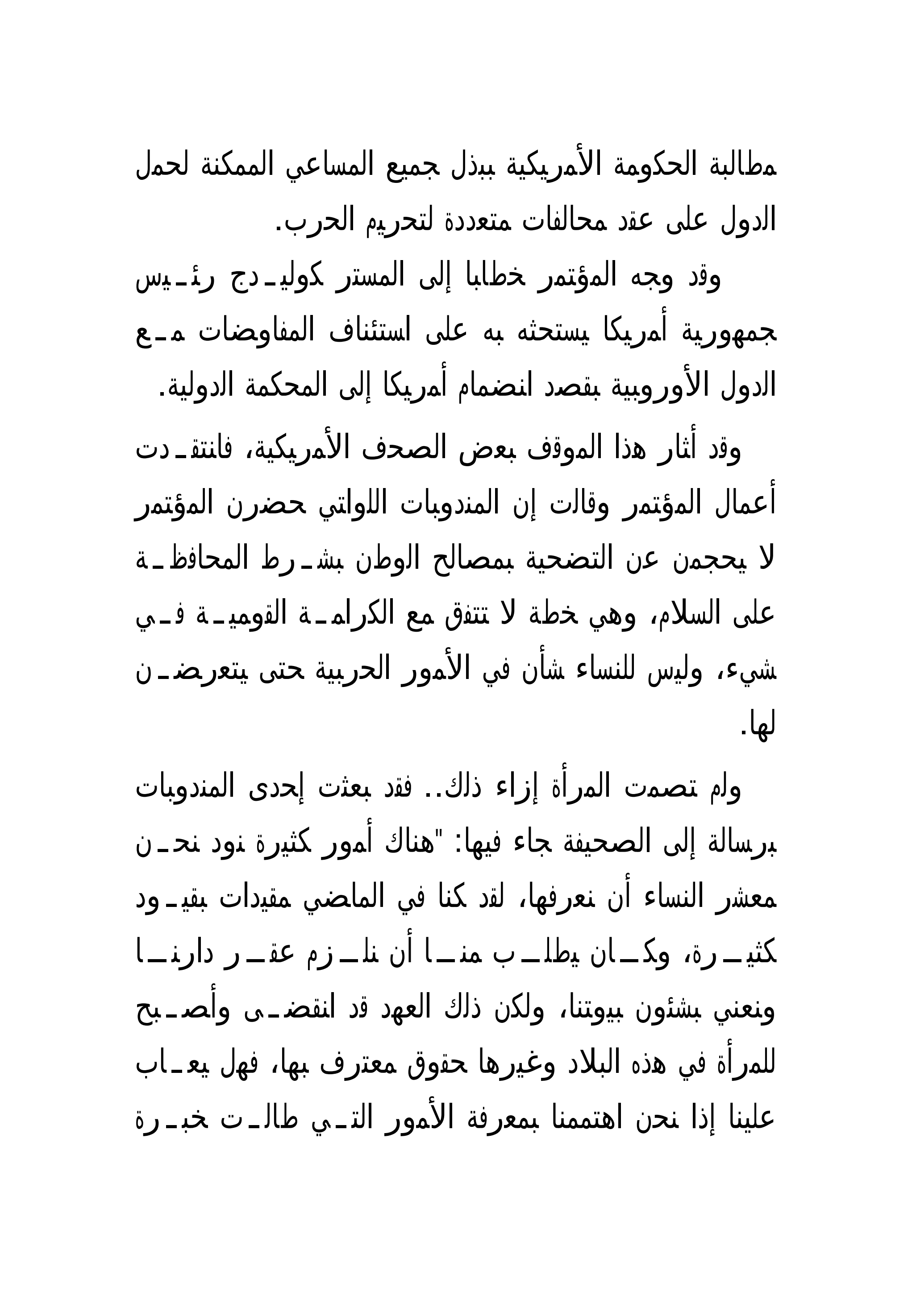
بدأت الحركة النسائية الأمريكية في تاريخ مواكب لتاريخ الحركة النسائية المصرية، ولذلك كان هناك اهتمام بما تحققه المرأة الأمريكية باعتبار أن هذا الدور يعطي صورة واضحة عما يمكن أن ينال اهتمام النساء في دول العالم المتقدم، ومـا يمكن أن تستفيد منه المرأة المصرية في هذا المجال، ومـن هنا كان من الطبيعي أن تهتم الحركة النسائية المصرية بكل مؤتمر وكل إنجاز، وأن تتابع الصحافة المصرية معالم هـذه النهضة لتفتح الأعين والأذهان على ما تحققه المرأة لخدمـة الحياة العامة والاجتماعية.

وقد اهتمت الصحافة العالمية بالمؤتمر النسائي الأمريكـي الذي عقد لمناقشة قضية السلام العالمي، وكتبـت الصـحف الإنجليزية تحت عنوان "نساء أمريكا ونساء العالم" تشير إلى ذلك المؤتمر الذي حضرته سبعمائة مندوبـة مـن مختلـف

الولايات يمثلن عشرة ملايين امرأة في تلك البلاد، وقد بحث هذا المؤتمر موقف الحكومة الأمريكية إزاء دول العالم، وانتقد عزلة أمريكا وعدم تعاونها ومشاركتها في السياسة العالمية، وذهب المؤتمر إلى أن هذا الموقف هو الذي يفرض على الشعب الأمريكي بذل النفقات الطائلة لإنشاء أسطول عظيم يرقب الطوارئ ويدفع الملمات.

ومما يدل على أهمية هذا المؤتمر أنه قد حضره المستر دافيز وزير البحرية الأمريكية والأدميرال سكوفيلد بالنيابة عن الأساطيل، وقد ألقى كلاهما خطبة أيد بها سياسة تعزيز الأسطول الأمريكي لأغراض دفاعية فقط، ولكن المؤتمر النسوي استهجن هذا الأسلوب، وأصدر قرارا بأن الحكومة تسير على خطة من شأنها أن تزيد عوامل القلق وتجعل سلام العالم مهددا بأعظم الأخطار، لأن هذا البرنامج البحري الأمريكي سيزيد المنافسة بين الدول البحرية، وستؤدي الزيادة إلى تعكير جو السلام.

ولعل أهم القرارات التي أصدرها المؤتمر هو تنظيم خطة حملة عامة لتنوير أذهان الشعب الأمريكي وتحريضه على

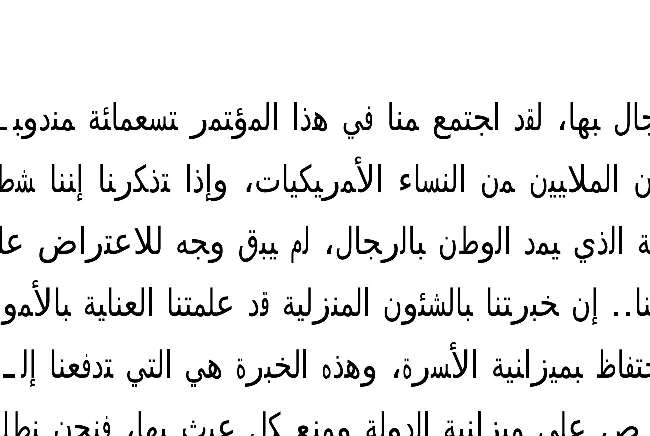


مطالبة الحكومة الأمريكية ببذل جميع المساعي الممكنة لحمل الدول على عقد محالفات متعددة لتحريم الحرب.

وقد وجه المؤتمر خطابا إلى المستر كوليدج رئيس جمهورية أمريكا يستحثه به على استئناف المفاوضات مع الدول الأوروبية بقصد انضمام أمريكا إلى المحكمة الدولية.

وقد أثار هذا الموقف بعض الصحف الأمريكية، فانتقدت أعمال المؤتمر وقالت إن المندوبات اللواتي حضرن المؤتمر لا يحجمن عن التضحية بمصالح الوطن بشرط المحافظة على السلام، وهي خطة لا تتفق مع الكرامة القومية في شيء، وليس للنساء شأن في الأمور الحربية حتى يتعرضن لها.

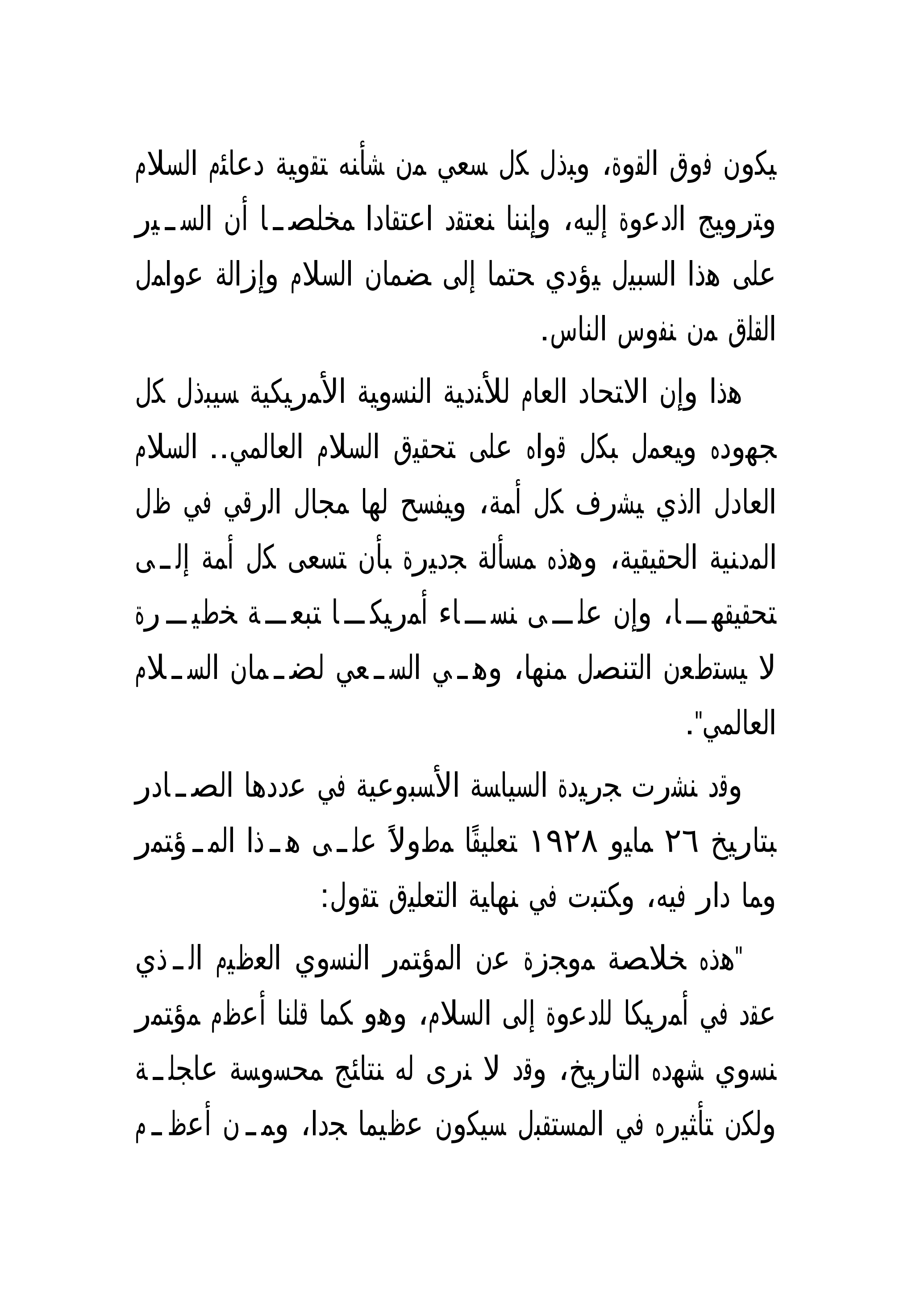
ولم تصمت المرأة إزاء ذلك.. فقد بعثت إحدى المندوبات برسالة إلى الصحيفة جاء فيها: "هناك أمور كثيرة نود نحن معشر النساء أن نعرفها، لقد كنا في الماضي مقيدات بقيود كثيرة، وكان يطلب منا أن نلزم عقر دارنا ونعني بشئون بيوتنا، ولكن ذلك العهد قد انقضى وأصبح للمرأة في هذه البلاد وغيرها حقوق معترف بها، فهل يعاب علينا إذا نحن اهتممنا بمعرفة الأمور التي طالت خبرة



الرجال بها، لقد اجتمع منا في هذا المؤتمر تسعمائة مندوبة يمثلن الملايين من النساء الأمريكيات، وإذا تذكرنا إننا شطر الأمة الذي يمد الوطن بالرجال، لم يبق وجه للاعتراض على علمنا.. إن خبرتنا بالشئون المنزلية قد علمتنا العناية بالأموال للاحتفاظ بميزانية الأسرة، وهذه الخبرة هي التي تدفعنا إلى الحرص على ميزانية الدولة ومنع كل عبث بها، فنحن نطالب أن نعرف – ولنا الحق أن نعرف - كيف تنفق أموال وما هي وجوه ذلك الإنفاق".

طريق السلام

كذلك فقد ألقت المسز شابمان، رئيسة الاتحاد العام للأندية النسوية الأمريكية، خطبة في المؤتمر قالت فيها: "إننا لا نعرف شيئًا يضمن سلام العالم ويقصي شبح الحرب، وإنما نعرف أشياء كثيرة يجب أن نعمل معا إذا أريد تحقيق تلك الغاية، ومن جملة تلك الأشياء إنشاء نظام يضمن السلام ويوجد الطمأنينة في قلوب الدول ولا سيما الصغرى منها، وإيجاد نظام للفصل في المنازعات الدولية، وترسيخ فكرة السلام في عقول الناس وإزالة جميع عوامل القلق من النفوس، وتعويد الناس هذه الفكرة وهي أن القانون يجب أن

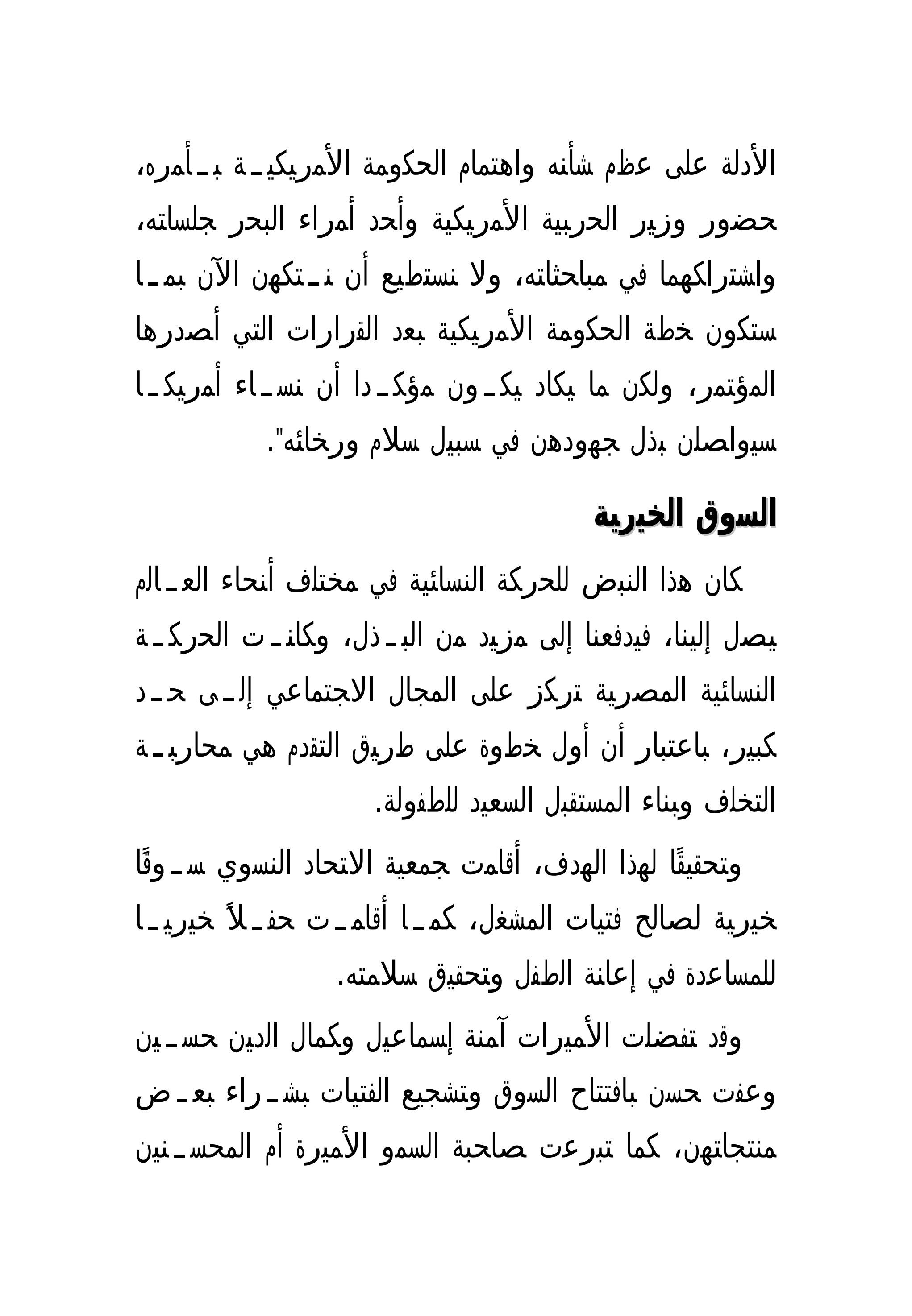


يكون فوق القوة، وبذل كل سعي من شأنه تقوية دعائم السلام وترويج الدعوة إليه، وإننا نعتقد اعتقادا مخلصـا أن السـير على هذا السبيل يؤدي حتما إلى ضمان السلام وإزالة عوامل القلق من نفوس الناس.

هذا وإن الاتحاد العام للأندية النسوية الأمريكية سيبذل كل جهوده ويعمل بكل قواه على تحقيق السلام العالمي.. السلام العادل الذي يشرف كل أمة، ويفسح لها مجال الرقي في ظل المدنية الحقيقية، وهذه مسألة جديرة بأن تسعى كل أمة إلـى تحقيقهـا، وإن علـى نسـاء أمريكـا تبعـة خطيـرة لا يستطعن التنصل منها، وهـي السـعي لضـمان السـلام العالمي".

وقد نشرت جريدة السياسة الأسبوعية في عددها الصـادر بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٢٨ تعليقًا مطولاً علـى هـذا المـؤتمر وما دار فيه، وكتبت في نهاية التعليق تقول:

"هذه خلاصة موجزة عن المؤتمر النسوي العظيم الـذي عقد في أمريكا للدعوة إلى السلام، وهو كما قلنا أعظم مؤتمر نسوي شهده التاريخ، وقد لا نرى له نتائج محسوسة عاجلـة ولكن تأثيره في المستقبل سيكون عظيما جدا، ومـن أعظـم



الأدلة على عظم شأنه واهتمام الحكومة الأمريكية بأمره، حضور وزير الحربية الأمريكية وأحد أمراء البحر جلساته، واشتراكهما في مباحثاته، ولا نستطيع أن نتكهن الآن بما ستكون خطة الحكومة الأمريكية بعد القرارات التي أصدرها المؤتمر، ولكن ما يكاد يكون مؤكدا أن نساء أمريكا سيواصلن بذل جهودهن في سبيل سلام ورخائه".

السوق الخيرية

كان هذا النبض للحركة النسائية في مختلف أنحاء العالم يصل إلينا، فيدفعنا إلى مزيد من البذل، وكانت الحركة النسائية المصرية تركز على المجال الاجتماعي إلى حد كبير، باعتبار أن أول خطوة على طريق التقدم هي محاربة التخلف وبناء المستقبل السعيد للطفولة.

وتحقيقًا لهذا الهدف، أقامت جمعية الاتحاد النسوي سوقًا خيرية لصالح فتيات المشغل، كما أقامت حفلاً خيريا للمساعدة في إعانة الطفل وتحقيق سلامته.

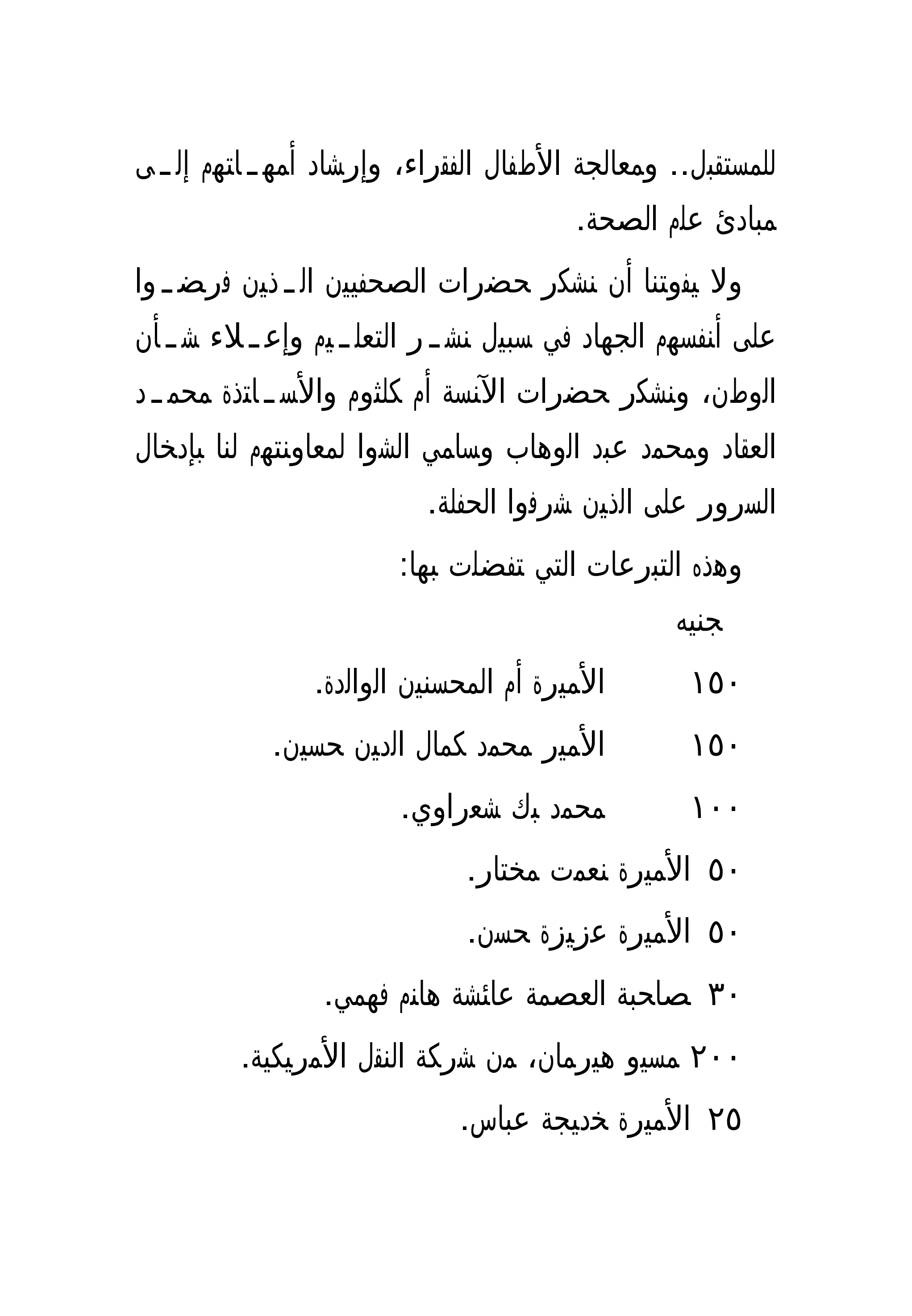
وقد تفضلت الأميرات آمنة إسماعيل وكمال الدين حسين وعفت حسن بافتتاح السوق وتشجيع الفتيات بشراء بعض منتجاتهن، كما تبرعت صاحبة السمو الأميرة أم المحسنين

الوالدة ببعض الأموال للجمعية، فضلاً عن مكافأة أربع عشرة فتاة من أوائل الناجحات بأسوار وأقراط ذهبية جميلة، كـذلك فقد وضع الأمراء آل لطف ا كازينة الجزيرة تحت تصرف الجمعية لإقامة حفلتها الخيرية.

وجدير بالذكر أن كرائم العقائل والآنسات قـد تطـوعن للظهور في المناظر الحية "التمثيل"، فكان لعلمهن نصيب في نجاح الحفلة وجمال تنسيقها.

وقد اجتمعت جمعية الاتحاد النسوي برئاستي لتقديم الشكر لكل من أسهم في هذا العمل الخيري، وقلنا في البيان الـذي أصدرناه بهذه المناسبة:

"إن إقبال حضرات الأميرات الكريمـات علـى افتتـاح السوق، والمساعدة في إعانة الطفل وسلامته، وحماية الفتـاة والعناية بأمرها، يبعث في نفوسنا الأمل، ويقوي في صدورنا العزم، وإن هذا التشجيع الذي تلقاه جمعيتنا من أولـي البـر والإحسان يشد أزرنا ويدفعنا إلى مضاعفة الجهاد، فنحمد لهن جميعا سعيهن الجميل، وسنبدأ متى تهيأت لنا الأسـباب فـي تشييد بناء مشغل ومكتب دار الاتحاد النسوي ومستوصـفه، ليتسنى لنا توسيع دائرة عملنا في إعـداد أمهـات كـاملات

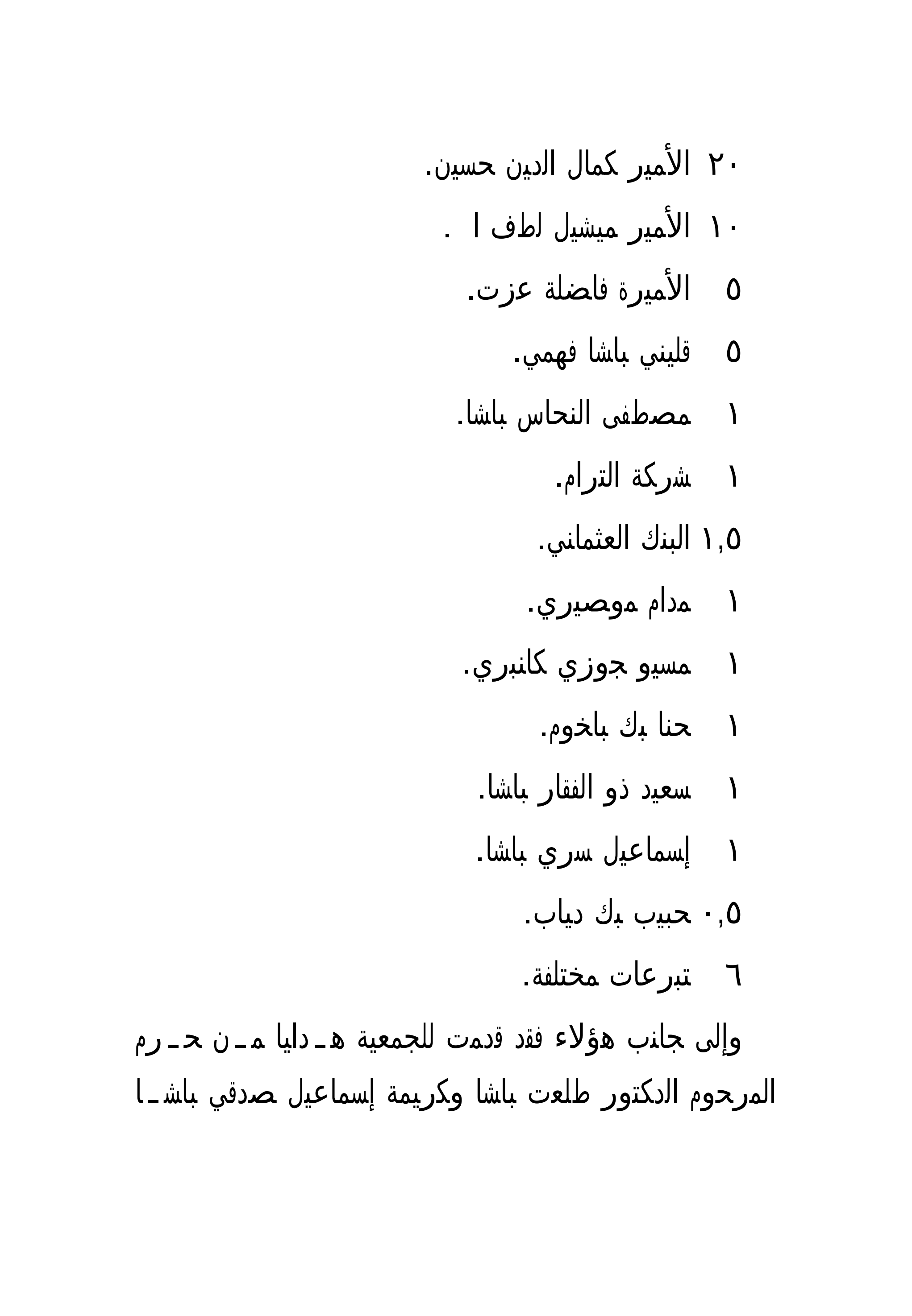


للمستقبل.. ومعالجة الأطفال الفقراء، وإرشاد أمهاتهم إلى مبادئ علم الصحة.

ولا يفوتنا أن نشكر حضرات الصحفيين الذين فرضوا على أنفسهم الجهاد في سبيل نشر التعليم وإعلاء شأن الوطن، ونشكر حضرات الآنسة أم كلثوم والأساتذة محمد العقاد ومحمد عبد الوهاب وسامي الشوا لمعاونتهم لنا بإدخال السرور على الذين شرفوا الحفلة.

وهذه التبرعات التي تفضلت بها:

جنيه	
١٥٠	الأميرة أم المحسنين الوالدة.
١٥٠	الأمير محمد كمال الدين حسين.
١٠٠	محمد بك شعراوي.
٥٠	الأميرة نعمت مختار.
٥٠	الأميرة عزيزة حسن.
٣٠	صاحبة العصمة عائشة هانم فهمي.
٢٠٠	مسيو هيرمان، من شركة النقل الأمريكية.
٢٥	الأميرة خديجة عباس.



٢٠ الأمير كمال الدين حسين.

١٠ الأمير ميشيل لطف ا .

٥ الأميرة فاضلة عزت.

٥ قليني باشا فهمي.

١ مصطفى النحاس باشا.

١ شركة الترام.

١,٥ البنك العثماني.

١ مدام موصيري.

١ مسيو جوزي كانبري.

١ حنا بك باخوم.

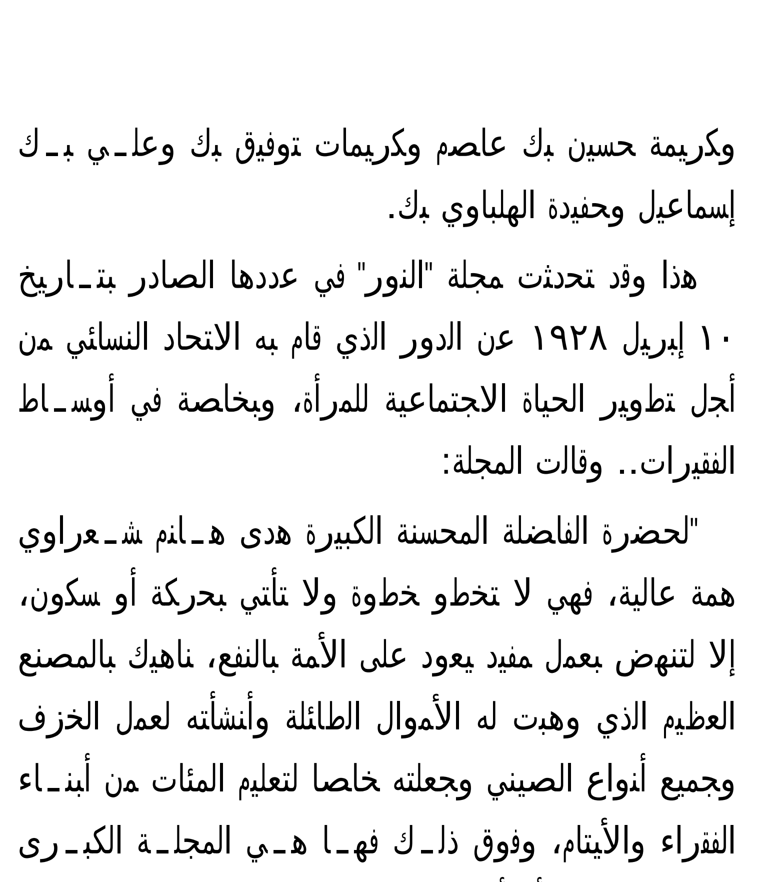
١ سعيد ذو الفقار باشا.

١ إسماعيل سري باشا.

٠,٥ حبيب بك دياب.

٦ تبرعات مختلفة.

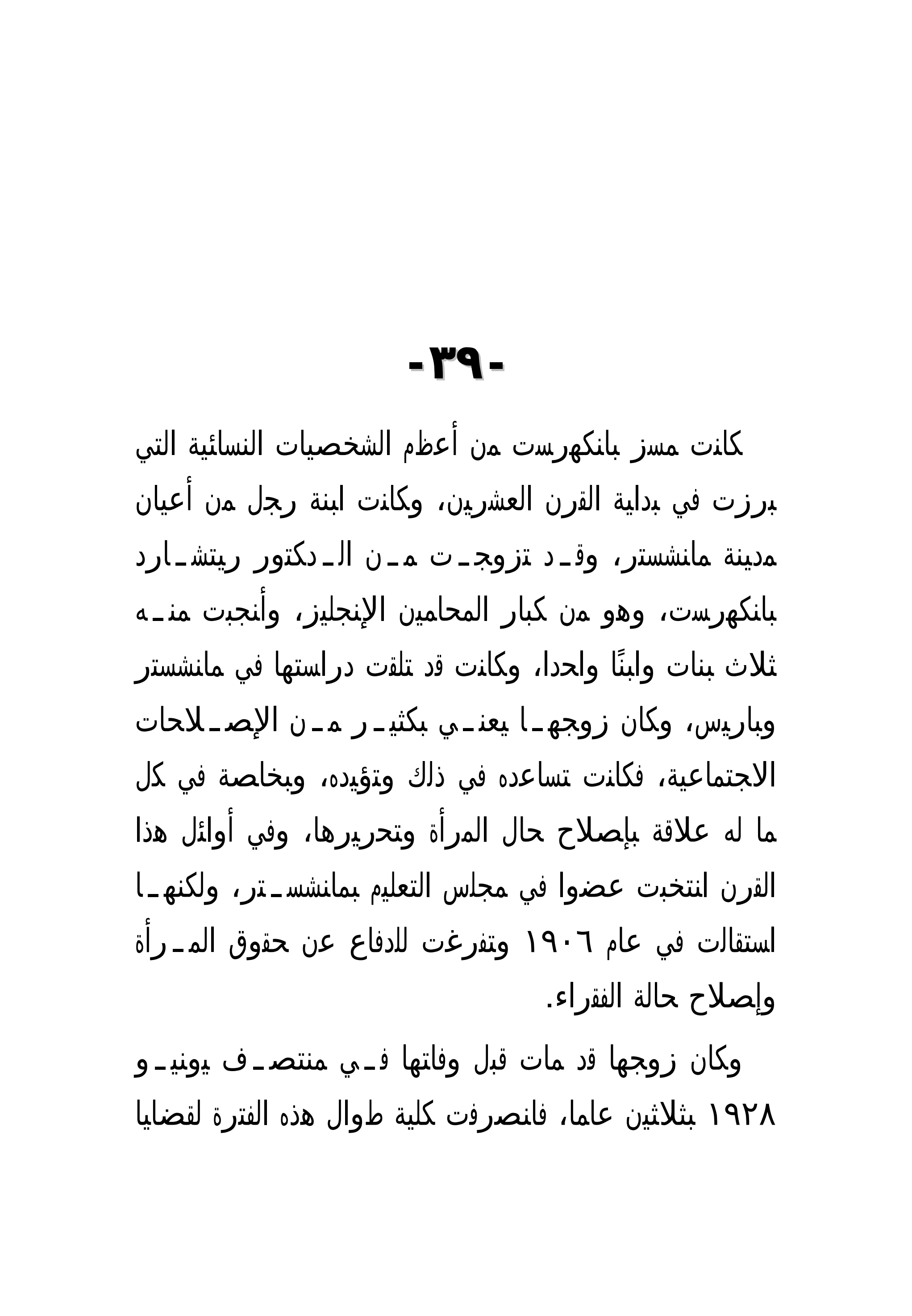
وإلى جانب هؤلاء فقد قدمت للجمعية هـدايا مـن حـرم المرحوم الدكتور طلعت باشا وكريمة إسماعيل صدقي باشـا



وكريمة حسين بك عاصم وكريمات توفيق بك وعلـي بـك إسماعيل وحفيدة الهلباوي بك.

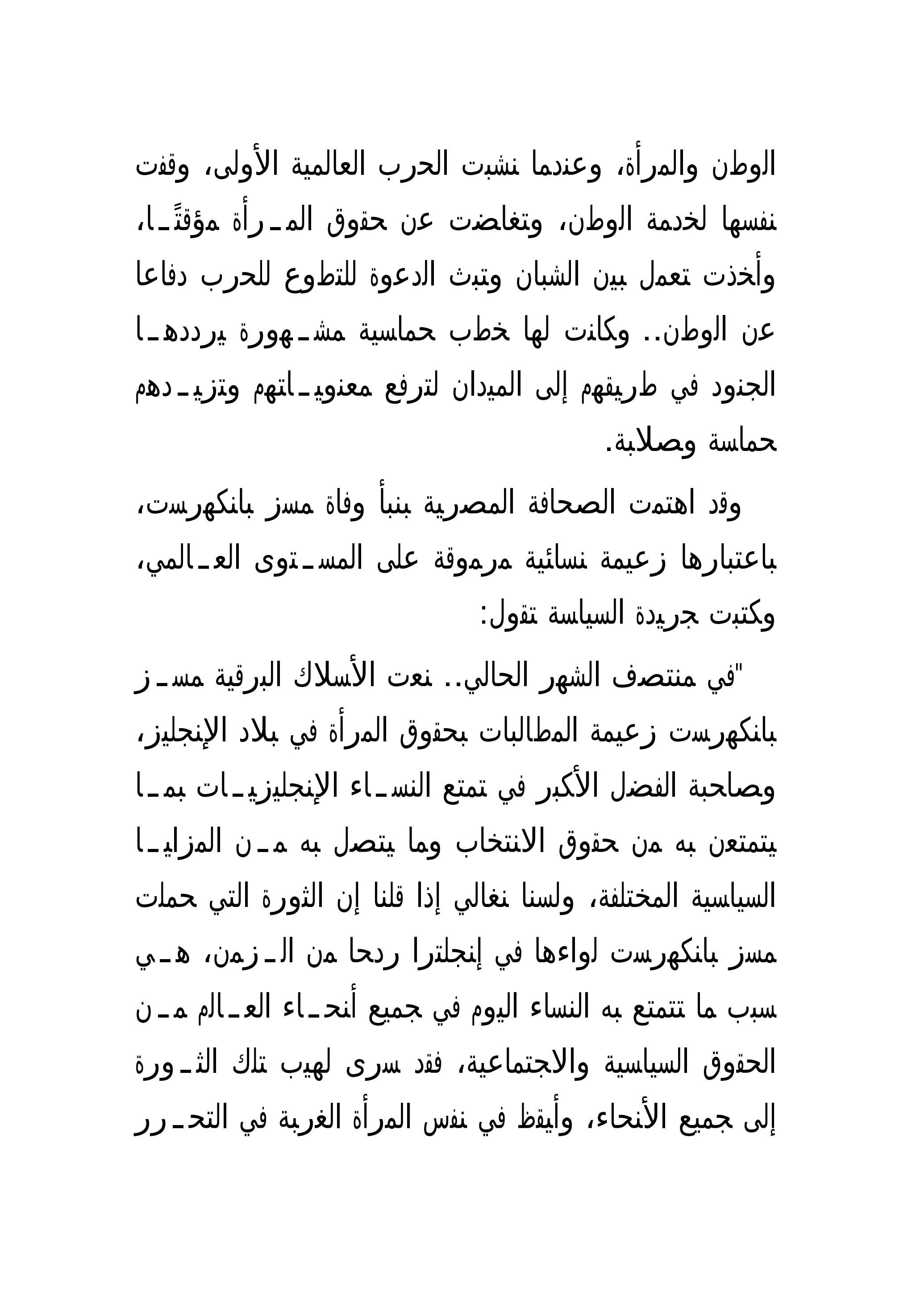
هذا وقد تحدثت مجلة "النور" في عددها الصادر بتـاريخ ١٠ إبريل ١٩٢٨ عن الدور الذي قام به الاتحاد النسائي من أجل تطوير الحياة الاجتماعية للمرأة، وبخاصة في أوسـاط الفقيرات.. وقالت المجلة:

"لحضرة الفاضلة المحسنة الكبيرة هدى هـانم شـعراوي همة عالية، فهي لا تخطو خطوة ولا تأتي بحركة أو سكون، إلا لتنهض بعمل مفيد يعود على الأمة بالنفع، ناهيك بالمصنع العظيم الذي وهبت له الأموال الطائلة وأنشأته لعمل الخزف وجميع أنواع الصيني وجعلته خاصا لتعليم المئات من أبنـاء الفقراء والأيتام، وفوق ذلـك فهـا هـي المجلـة الكبـرى "المصرية" التي أنشأتها في مصر باللغة الفرنسية للدفاع عن كرامة السيدات المصريات تبرهن على سمو أفكارها، وكـم لحضرتها رحلات في عواصم أوربا وفي أمريكـا ولأعظـم مؤتمرات السيدات في الغرب، كانت فيها خير مثال لتشريف اسم السيدة المصرية".



كانت مسز بانكهرست من أعظم الشخصيات النسائية التي برزت في بداية القرن العشرين، وكانت ابنة رجل من أعيان مدينة مانشستر، وقـد تزوجـت مـن الـدكتور ريتشـارد بانكهرست، وهو من كبار المحامين الإنجليز، وأنجبت منـه ثلاث بنات وابنًا واحدا، وكانت قد تلقت دراستها في مانشستر وباريس، وكان زوجهـا يعنـي بكثيـر مـن الإصـلاحات الاجتماعية، فكانت تساعده في ذلك وتؤيده، وبخاصة في كل ما له علاقة بإصلاح حال المرأة وتحريرها، وفي أوائل هذا القرن انتخبت عضوا في مجلس التعليم بمانشسـتر، ولكنهـا استقالت في عام ١٩٠٦ وتفرغت للدفاع عن حقوق المـرأة وإصلاح حالة الفقراء.

وكان زوجها قد مات قبل وفاتها فـي منتصـف يونيـو ١٩٢٨ بثلاثين عاما، فانصرفت كلية طوال هذه الفترة لقضايا



الوطن والمرأة، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى، وقفت نفسها لخدمة الوطن، وتغاضت عن حقوق المـرأة مؤقتًـا، وأخذت تعمل بين الشبان وتبث الدعوة للتطوع للحرب دفاعا عن الوطن.. وكانت لها خطب حماسية مشـهورة يرددهـا الجنود في طريقهم إلى الميدان لترفع معنويـاتهم وتزيـدهم حماسة وصلابة.

وقد اهتمت الصحافة المصرية بنبأ وفاة مسز بانكهرست، باعتبارها زعيمة نسائية مرموقة على المسـتوى العـالمي، وكتبت جريدة السياسة تقول:

"في منتصف الشهر الحالي.. نعت الأسلاك البرقية مسـز بانكهرست زعيمة المطالبات بحقوق المرأة في بلاد الإنجليز، وصاحبة الفضل الأكبر في تمتع النسـاء الإنجليزيـات بمـا يتمتعن به من حقوق الانتخاب وما يتصل به مـن المزايـا السياسية المختلفة، ولسنا نغالي إذا قلنا إن الثورة التي حملت مسز بانكهرست لواءها في إنجلترا ردحا من الـزمن، هـي سبب ما تتمتع به النساء اليوم في جميع أنحـاء العـالم مـن الحقوق السياسية والاجتماعية، فقد سرى لهيب تلك الثـورة إلى جميع الأنحاء، وأيقظ في نفس المرأة الغربية في التحـرر

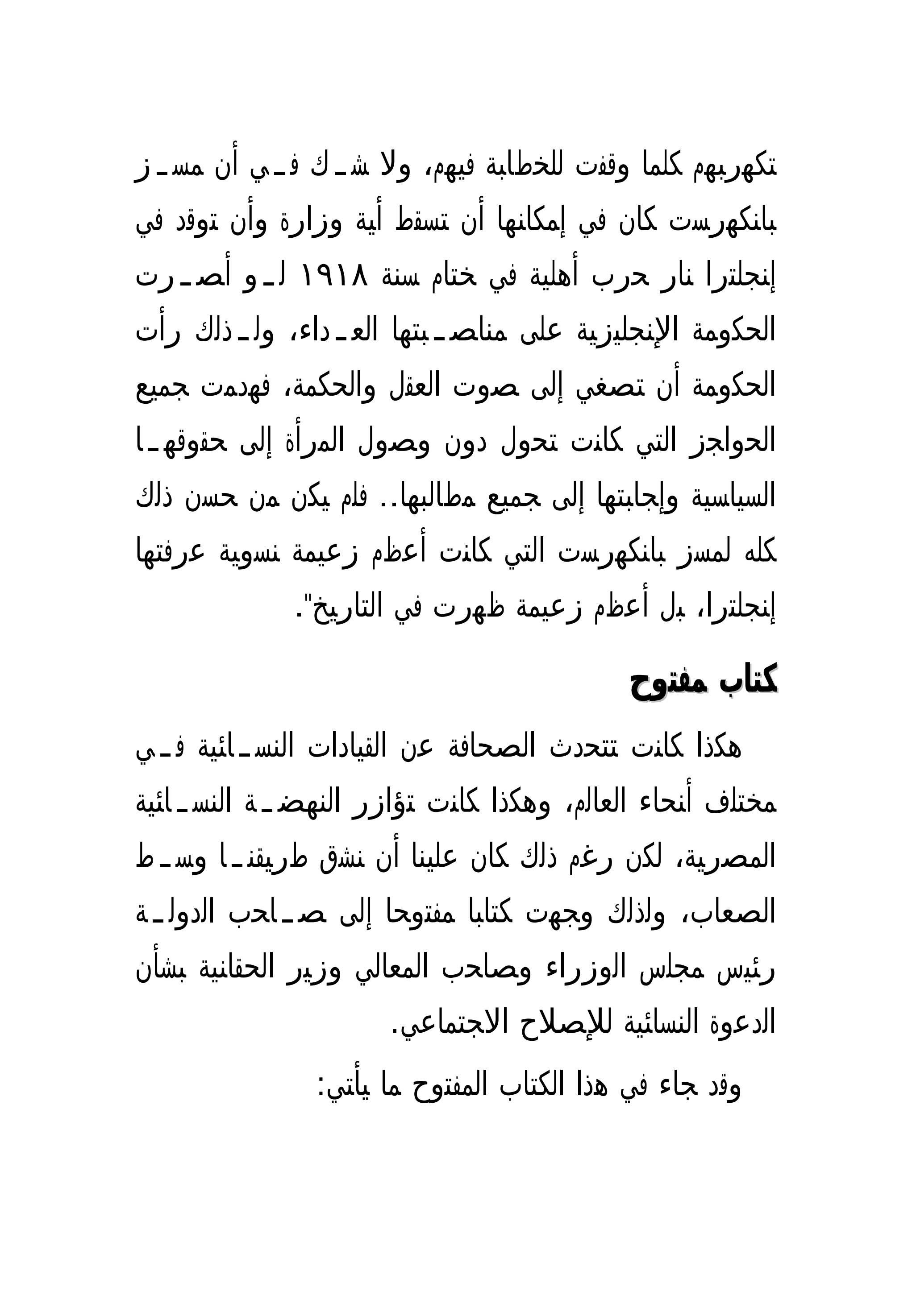
من أصفاد الرق التي كانت ترسف بها منذ العصور المظلمة".

واستطردت الصحيفة تتحدث عن جوانب شخصية مسز بانكهرست، فقالت:

"ولم تكن زعامة النهضة النسوية السياسية لتلهي مسز بانكهرست عن السعي لرفع مستوى تعليم المرأة والعناية بالعمال والعاملات وإصلاح شئونهم، وقد وقفت على ذلك قواها العقلية والجسدية.. ولحسن حظها كان زوجها يؤيدها في جميع مساعيها.. فكانت تزور المراكز التي تكثر فيها النساء العاملات فتدرس أحوالهن وتقف على جميع مطالبهن، ولم تكن حالة المرأة الإنجليزية يومئذ أحسن بكثير من حالة المرأة في العصور المتوسطة، ومع أن مسز بانكهرست رفعت صوتها بالشكوى من تلك الحالة مرارا.. إلا أن عظماء السياسة من الرجال وجميع الذين كان بيدهم مقاليد الأمور كانوا يسخرون بمطالبها ويصمون أذانهم عن سماع صوتها ضاحكين هازئين، ولم يكن عنادهم يزيدها إلا عنادا، فأخذت من سنة ١٩٠٦ تجمع الأموال اللازمة لها لبث دعوتها.. وقد نجحت في هذا نجاحا غير منتظر حتى قيل إنه

ما من نهضة في إنجلترا جمعت لها الأموال التي جمعتها مسز بانكهرست لنشر دعوتها وإصلاح حالة المرأة الإنجليزية.

وما كادت الحرب تنشب في سنة ١٩١٤ حتى تناست مسز بانكهرست وجميع نساء إنجلترا قضيتهن، فسكتن عن المطالبة بحقوقهن مؤقتًا وأخذن يوجهن كل جهودهن لخدمة الوطن وبث الدعوة بين الرجال لكي يتطوعوا للحرب، وفي مدة الحرب كله لم يسمع أحد في إنجلترا بقضية حقوق المرأة، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها وعاد الرجال إلى أعمالهم، عادت مسز بانكهرست وأترابها إلى النضال والكفاح، وكانت نفسيات الرجال في إنجلترا قد تغيرت إذ ذاك، فأصبح القوم أكثر عطفًا على مطالب المرأة لما أدته لهم من الخدمات الجليلة في الحرب، وفي الواقع إن تلك الخدمات عادت على قضية المرأة الإنجليزية بأحسن النتائج؛ فقد شعرت الحكومة الإنجليزية بعد الحرب بأن الجنود العائدين من ميادين القتال، قد أصبحوا من أكبر مؤيدي المرأة العاطفين على مطالبها، فلم يكن من حسن السياسة الاستخفاف بعواطف الجنود وبدعوة مسز بانهرست التي



تكهربهم كلما وقفت للخطابة فيهم، ولا شـك فـي أن مسـز بانكهرست كان في إمكانها أن تسقط أية وزارة وأن توقد في إنجلترا نار حرب أهلية في ختام سنة ١٩١٨ لـو أصـرت الحكومة الإنجليزية على مناصـبتها العـداء، ولـذلك رأت الحكومة أن تصغي إلى صوت العقل والحكمة، فهدمت جميع الحواجز التي كانت تحول دون وصول المرأة إلى حقوقهـا السياسية وإجابتها إلى جميع مطالبها.. فلم يكن من حسن ذلك كله لمسز بانكهرست التي كانت أعظم زعيمة نسوية عرفتها إنجلترا، بل أعظم زعيمة ظهرت في التاريخ".

كتاب مفتوح

هكذا كانت تتحدث الصحافة عن القيادات النسـائية فـي مختلف أنحاء العالم، وهكذا كانت تؤازر النهضـة النسـائية المصرية، لكن رغم ذلك كان علينا أن نشق طريقنـا وسـط الصعاب، ولذلك وجهت كتابا مفتوحا إلى صـاحب الدولـة رئيس مجلس الوزراء وصاحب المعالي وزير الحقانية بشأن الدعوة النسائية للإصلاح الاجتماعي.

وقد جاء في هذا الكتاب المفتوح ما يأتي:

"في شهر يونيو ١٩٢٣ أوفدت جمعية الاتحاد النسائي التي لي شرف رئاستها وفدا من أعضائها لرئيس مجلس الوزراء يرفع إليه طلبين مهمين: تحديد سن زواج البنت، ومساواتها بالبنين في التعليم الثانوي والعالي، فرحبت وزارة صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا بهذين الطلبين مقتنعين بعدالتهما، وعملت فعلاً على تنفيذهما.

امتلأنا غبطة وسرورا لإنصاف حكومتنا وحبها في الإصلاح، فشجعنا ذلك على تقديم مطالب أخرى حيوية تكفل سعادة الأسرة المصرية لما فيها من عدل وإنصاف يتفقان مع مقتضيات العصر الحاضر وروح الشريعة السمحاء.

رفعنا تلك المطالب في شهر نوفمبر ١٩٢٦ في عهد وزارة صاحب الدولة عدلي باشا يكن إلى صاحب المعالي أبي السعود باشا وزير الحقانية إذ ذاك، فأعارها من الاهتمام ما هو معهود فيه من حب الإصلاح، ثم رفعناها أيضا إلى مجلس الشيوخ والنواب فصادفت ارتياحا من قبل الحكومة ونواب الأمة، فأحيلت على لجنة مكونة من نخبة من رجال الدين والقانون لدرسها درسا دقيقًا، فرأت هذه اللجنة (اتقاء التصادم بأفكار الرجعيين) إدخال تعديلات كادت تذهب

بمزاياها، وبعد الانتهاء من تعديلها، عرضها على مجلس النواب للتصديق عليها، فلم تسمح الظروف بنظرها، وتأجلت من جلسة لأخرى لاشتغال المجلس بغيرها من الأمور المستعجلة.

والآن وقد عطلت الحياة النيابية، وأخذت الحكومة الحاضرة على عاتقها القيام بتحقيق كل إصلاح ترى فيه سعادة الأمة المصرية بأسرها، رجالها ونسائها أغنيائها وفقرائها، كنا نأمل أن تعير مشروع الأحوال الشخصية ما يستحقه من العناية والاعتبار، غير متأثرة بعامل من العوامل إلا حب الإصلاح.

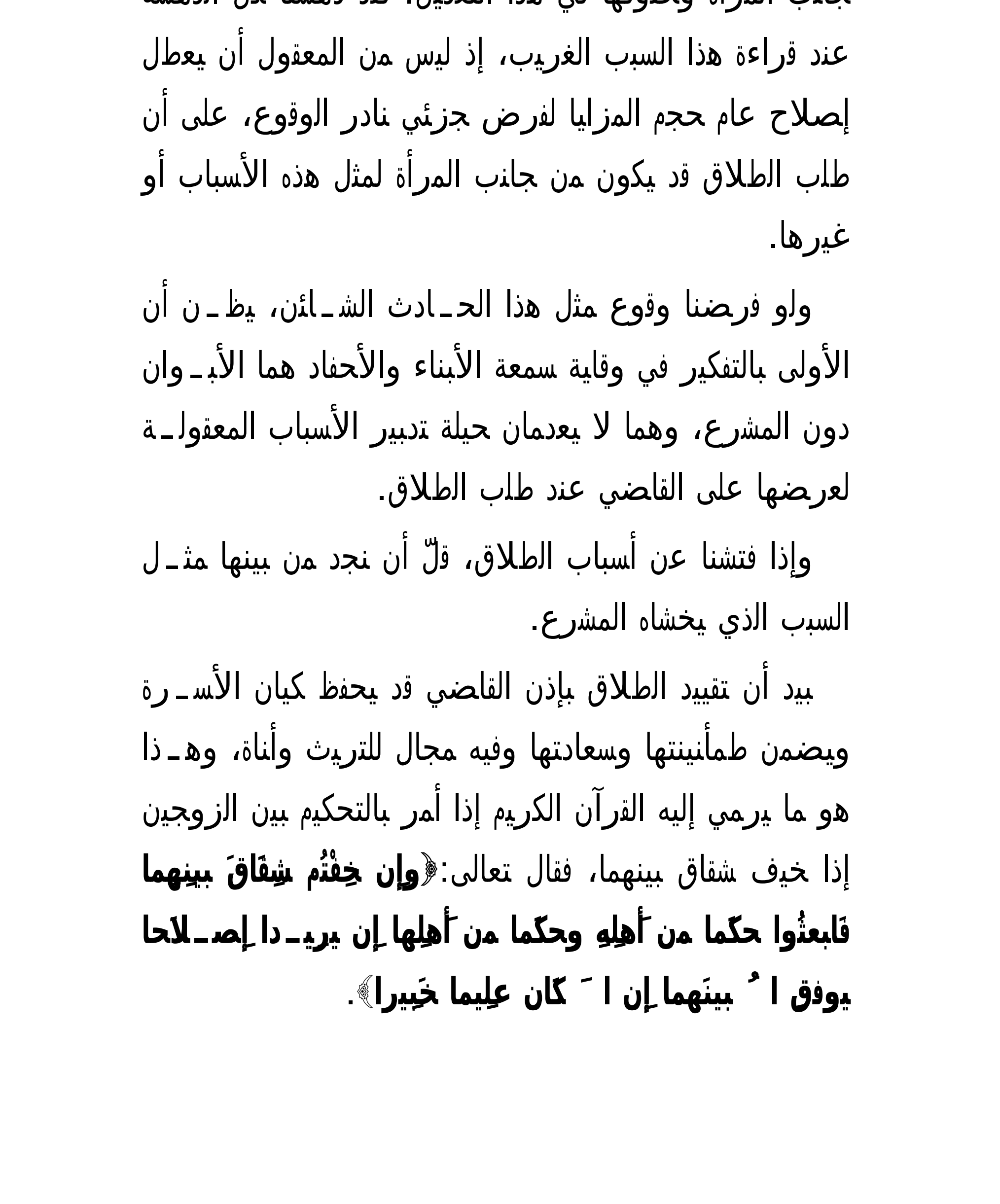
ولما كانت هذه عقيدتنا في الوزارة الحاضرة، هالنا ما قرأناه في جريدة المقطم مما يفهم منه أن الحكومة شارعة في إهمال مسألتي تعدد الزوجات وفوضى الطلاق أو تعديلهما تعديلاً يذهب بالبقية الباقية من مزاياهما، بحجة أن تعدد الزوجات أخذ في التلاشي بسبب كثرة النفقات ولانتشار العلم والمعرفة، ولأن وقوع الطلاق على يد القاضي بعد ذكر أسبابه قد لا يكون في مصلحة الزوجين إذا فرض وكان لرجل ولزوجته ابنة في الثامنة عشرة من عمرها مثلاً، وقد

أتت الزوجة عملاً منكرا يستحق الطلاق، فيكون في ذلك من التشويه بسمعة البنت ما يضر بمستقبلها ويقف حجر عثـرة في طريق زواجها.

فهل هذه هي الأسباب الخطيرة التي مـن أجلهـا تـرى الوزارة إهمال النظر في المسألتين السابقتين الحيويتين؟

لا نظن أن وزير الحقانية على ما نعهده فيه من الحكمـة وسداد الرأي، يبدي مثل هذه الأسباب التافهة إذا أراد إهمـال النظر في هاتين المسألتين.

أما عن المسألة الأولى، فإذا كنا نسلم بأن تعدد الزوجـات قد أخذ في التلاشي، فقد يكون ذلك منحصـرا فـي الطبقـة الراقية من الأغنياء؟ لأننا لا نزال نرى بمزيد مـن الأسـف كثيرا من المتعلمين يتزوجون بغير واحدة لا لسـبب سـوى إرضاء شهواتهم، كما نرى تعـدد الزوجـات شـائعا بـين الطبقتين المتوسطة والفقيرة، بالرغم من غلاء المعيشة، حتى إن بعض الفقراء إذا ادخر شيئًا ولو قليلاً من أجره اليـومي، سارع إلى الزواج بزوجة أخرى بدلاً من إنفاق ما ادخره في حاجات بيته الضرورية والعناية بأولاده وذويه.



أما المسألة الثانية، فإننا فضلاً عن استيائنا لإهمال الوزارة جانب المرأة وحقوقها في هذا التعديل، فقد دهشنا كل الدهشة عند قراءة هذا السبب الغريب، إذ ليس من المعقول أن يعطل إصلاح عام حجم المزايا لفرض جزئي نادر الوقوع، على أن طلب الطلاق قد يكون من جانب المرأة لمثل هذه الأسباب أو غيرها.

ولو فرضنا وقوع مثل هذا الحـادث الشـائن، يظـن أن الأولى بالتفكير في وقاية سمعة الأبناء والأحفاد هما الأبـوان دون المشرع، وهما لا يعدمان حيلة تدبير الأسباب المعقولـة لعرضها على القاضي عند طلب الطلاق.

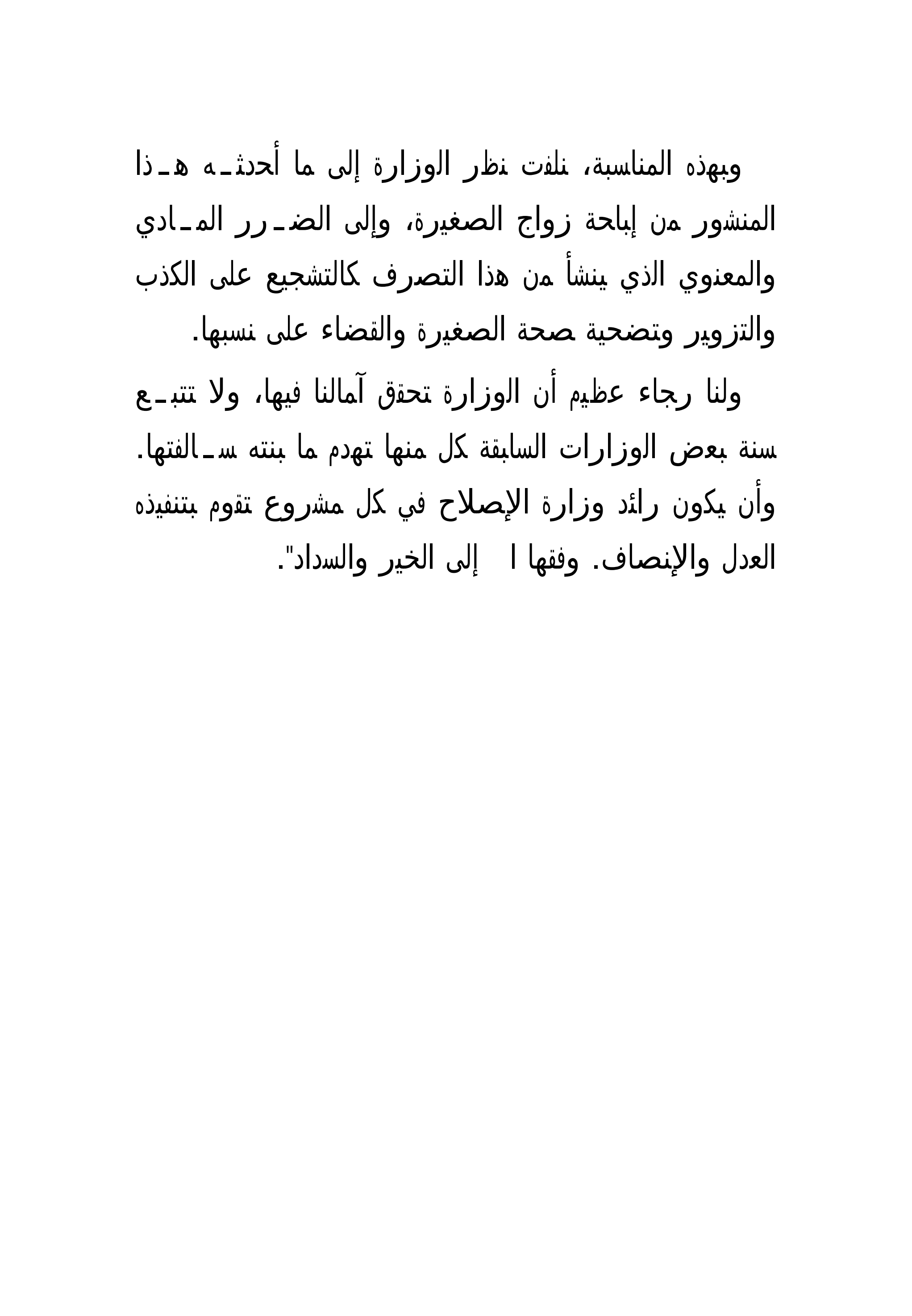
وإذا فتشنا عن أسباب الطلاق، قلّ أن نجد من بينها مثـل السبب الذي يخشاه المشرع.

بيد أن تقييد الطلاق بإذن القاضي قد يحفظ كيان الأسـرة ويضمن طمأنينتها وسعادتها وفيه مجال للتريث وأناة، وهـذا هو ما يرمي إليه القرآن الكريم إذا أمر بالتحكيم بين الزوجين إذا خيف شقاق بينهما، فقال تعالى:﴿**وإن خِفْتُم شِقَاقَ بينِهما فَابعثُوا حكَما من أَهلِهِ وحكَما من أَهلِها إِن يريـدا إِصـلاَحا يوفق ا ُ بينَهما إِن ا َ كَان علِيما خَبِيرا**﴾.

فنرجو الوزارة باسم العدالة والحق أن تعير هذا المشروع ما يستحقه من العناية والرعاية، واضعة نصب أعينها أن سعادة الأسرة مرتكزة على سعادة المرأة، وأن امرأة اليوم ليست هي امرأة الأمس، وأنها لن تستطيع صبرا على هضم حقوقها إرضاء لشهوة الرجل.

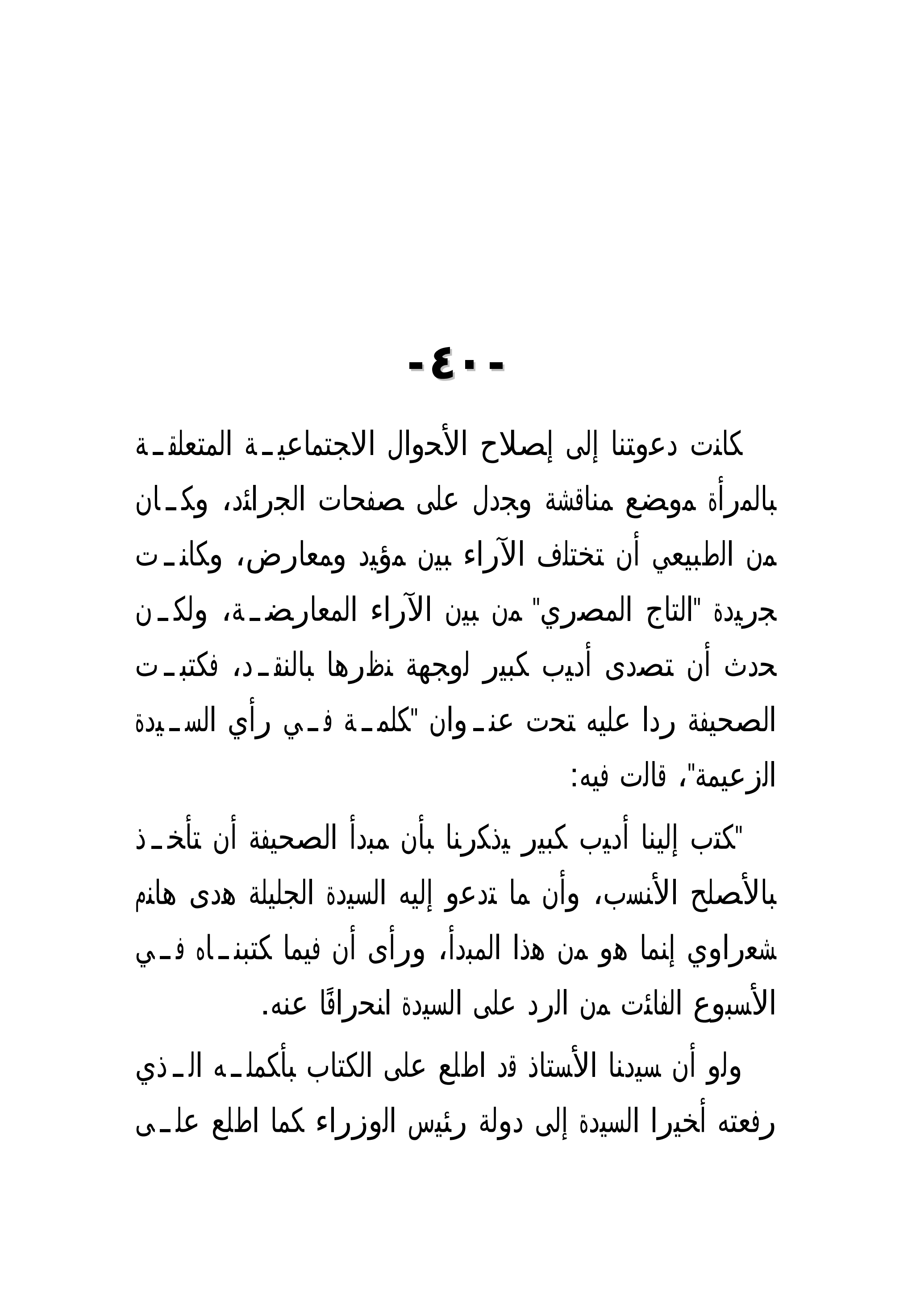
ولنا أمل عظيم أن الوزارة تقدر الموقف، وتتدارك ما عسى أن يكون من ثورة نفس المرأة ونتائجها، فلا يكون نصيب هذا المشروع الحيوي المفيد في عهد وزارة الإصلاح الحاضرة نصيب قانون سن الزواج الذي سنته وزارة صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا، فجاءت وزارة المرحوم سعد باشا وأردفته بمنشور جرده من كل مزاياه وذهب بالفائدة التي كانت مرجوة منه، إذ أباح لموثقي العقود أن يكتفوا بشهادة الآباء والأولياء في تحديد السن دون أن يقدموا وثيقة رسمية بشهادة الميلاد أو شهادة طبيب تثبت السن الحقيقية.

وكان الغرض من سن هذا القانون، وقاية البنت من الزواج المبكر وحمايتها من تحكم آبائها وأوليائها في زواجها.



وبهذه المناسبة، نلفت نظر الوزارة إلى ما أحدثه هذا المنشور من إباحة زواج الصغيرة، وإلى الضرر المادي والمعنوي الذي ينشأ من هذا التصرف كالتشجيع على الكذب والتزوير وتضحية صحة الصغيرة والقضاء على نسبها.

ولنا رجاء عظيم أن الوزارة تحقق آمالنا فيها، ولا تتبع سنة بعض الوزارات السابقة كل منها تهدم ما بنته سالفتها. وأن يكون رائد وزارة الإصلاح في كل مشروع تقوم بتنفيذه العدل والإنصاف. وفقها ا إلى الخير والسداد".



-٤٠-

كانت دعوتنا إلى إصلاح الأحوال الاجتماعية المتعلقة بالمرأة موضع مناقشة وجدل على صفحات الجرائد، وكان من الطبيعي أن تختلف الآراء بين مؤيد ومعارض، وكانت جريدة "التاج المصري" من بين الآراء المعارضة، ولكن حدث أن تصدى أديب كبير لوجهة نظرها بالنقد، فكتبت الصحيفة ردا عليه تحت عنوان "كلمة في رأي السيدة الزعيمة"، قالت فيه:

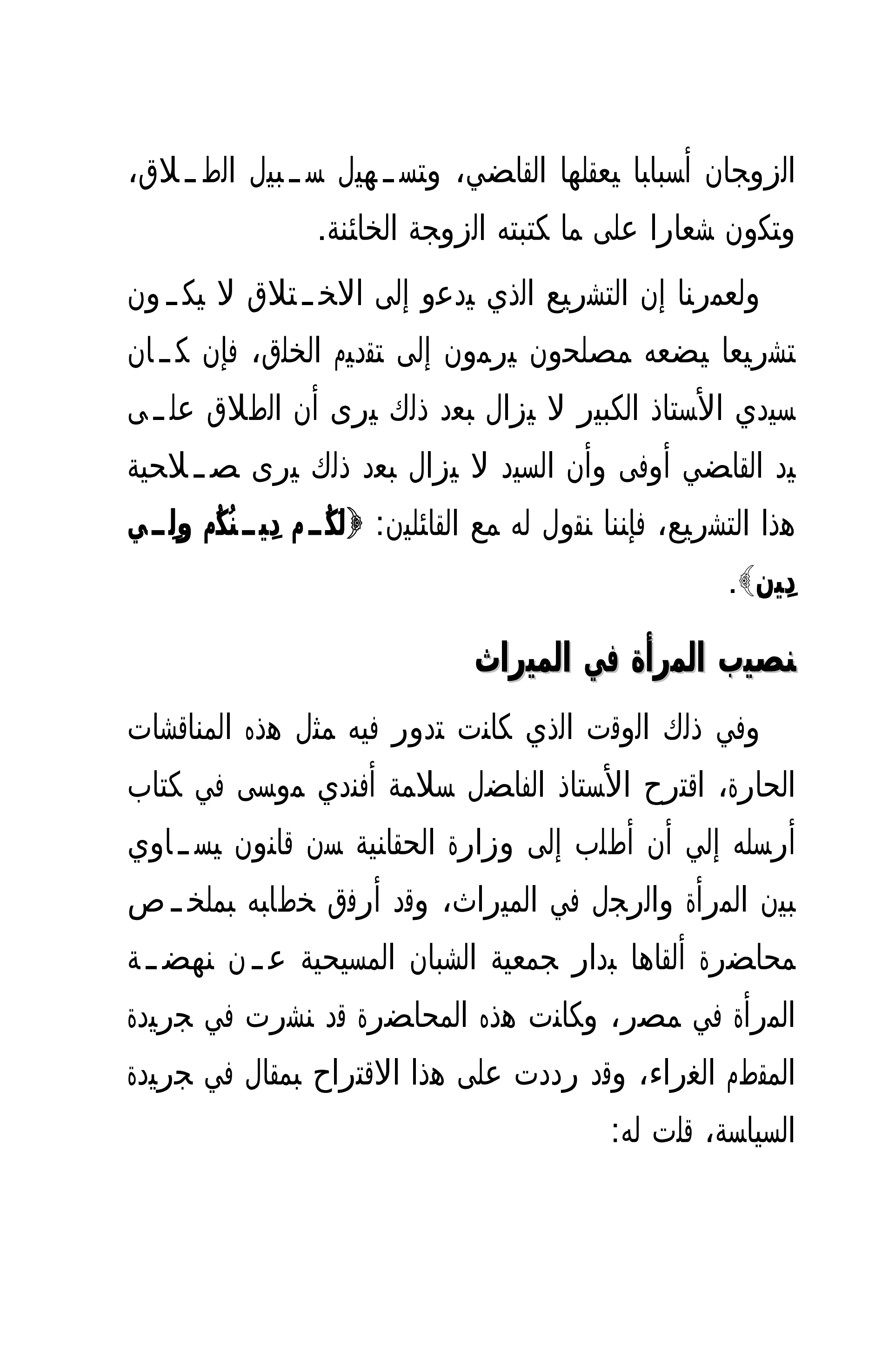
"كتب إلينا أديب كبير يذكرنا بأن مبدأ الصحيفة أن تأخذ بالأصلح الأنسب، وأن ما تدعو إليه السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي إنما هو من هذا المبدأ، ورأى أن فيما كتبناه في الأسبوع الفائت من الرد على السيدة انحرافًا عنه.

ولو أن سيدنا الأستاذ قد اطلع على الكتاب بأكمله الذي رفعته أخيرا السيدة إلى دولة رئيس الوزراء كما اطلع على

ما كتبناه، لتأكد إننا في ردنا لم ننحرف عن مبدأ الصـحيفة، ذلك لأن السيدة تطلب فيما رفعته أمرين: أولهما: منع تعـدد الزوجات، وثانيهما: أن يكون الطلاق على يد القاضي، ونحن لم نرد عليها إلا في الأمر الثاني وتركنا الأول، لأننا نعتقـد اعتقادا جازما إنها محقة فيه لأن تعليق تعدد الزوجات علـى شرط العدل، وإن العدل غير قائم وأنه لفظ لا مدلول له فـي هذا الأمر، يشعر بأن هذا التعليق ضرب من التحـريم، وأن الأولى مع هذا وما يسبب عنه من التعب العائلي واضطراب التربية أن يعدل عنه الراغب فيه.

ولكننا في الأمر الثاني أخذنا في نقده، لأننا نعتقد أن مـا تطلبه السيدة ليس بالأصلح ولا بالأنسب وإنما هـو إحـراج ضرره أكبر من نفعه. وقد أبان معالي وزير الحقانيـة فـي حديث له بعض ضرره ومعايبه، ما دعانا إلى أن نعتبره غير صالح وما همنا فوق ذلك مما ذكرته السيدة إلا قولها: "وهما أي الوالدان لا يعدمان حيلة لتدبير الأسباب المعقولة لعرضها على القاضي عند طلب الطلاق".

وواضح في هذه الدعوة التشبث بأن يكون الطلاق على يد القاضي، وأنه في حال وقوع مـا يشـين الزوجـة يختلـق



الزوجان أسبابا يعقلها القاضي، وتسهيل سبيل الطلاق، وتكون شعارا على ما كتبته الزوجة الخائنة.

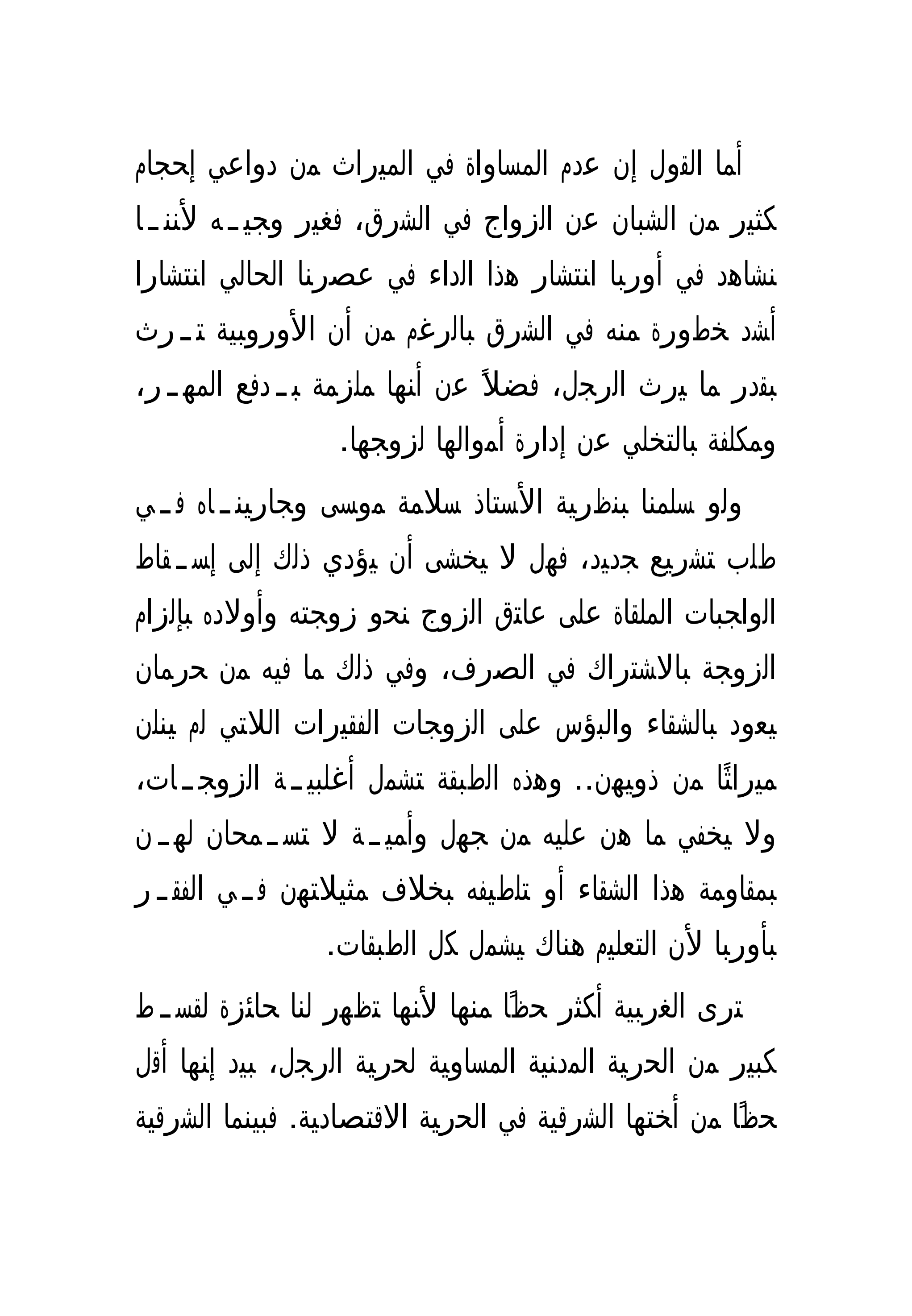
ولعمرنا إن التشريع الذي يدعو إلى الاختلاق لا يكون تشريعا يضعه مصلحون يرمون إلى تقديم الخلق، فإن كان سيدي الأستاذ الكبير لا يزال بعد ذلك يرى أن الطلاق على يد القاضي أوفى وأن السيد لا يزال بعد ذلك يرى صلاحية هذا التشريع، فإننا نقول له مع القائلين: ﴿**لَكُم دِينُكُم ولِي دِين**﴾.

نصيب المرأة في الميراث

وفي ذلك الوقت الذي كانت تدور فيه مثل هذه المناقشات الحارة، اقترح الأستاذ الفاضل سلامة أفندي موسى في كتاب أرسله إلي أن أطلب إلى وزارة الحقانية سن قانون يساوي بين المرأة والرجل في الميراث، وقد أرفق خطابه بملخص محاضرة ألقاها بدار جمعية الشبان المسيحية عن نهضة المرأة في مصر، وكانت هذه المحاضرة قد نشرت في جريدة المقطم الغراء، وقد رددت على هذا الاقتراح بمقال في جريدة السياسة، قلت له:

"يهمني أن أبلغ حضرة الأستاذ ومن حضروا خطبته أنـي في خدمتي لهذه النهضة أؤدي واجبا معهودا إلى من جمعيـة الاتحاد النسائي التي شرفتني برئاستها، ولما كـان نصـيب المرأة في الميراث ليس مـن المسـائل الداخلـة فـي هـذا الموضوع، لا بإقرار الحالة الحاضرة ولا بتعديلها.

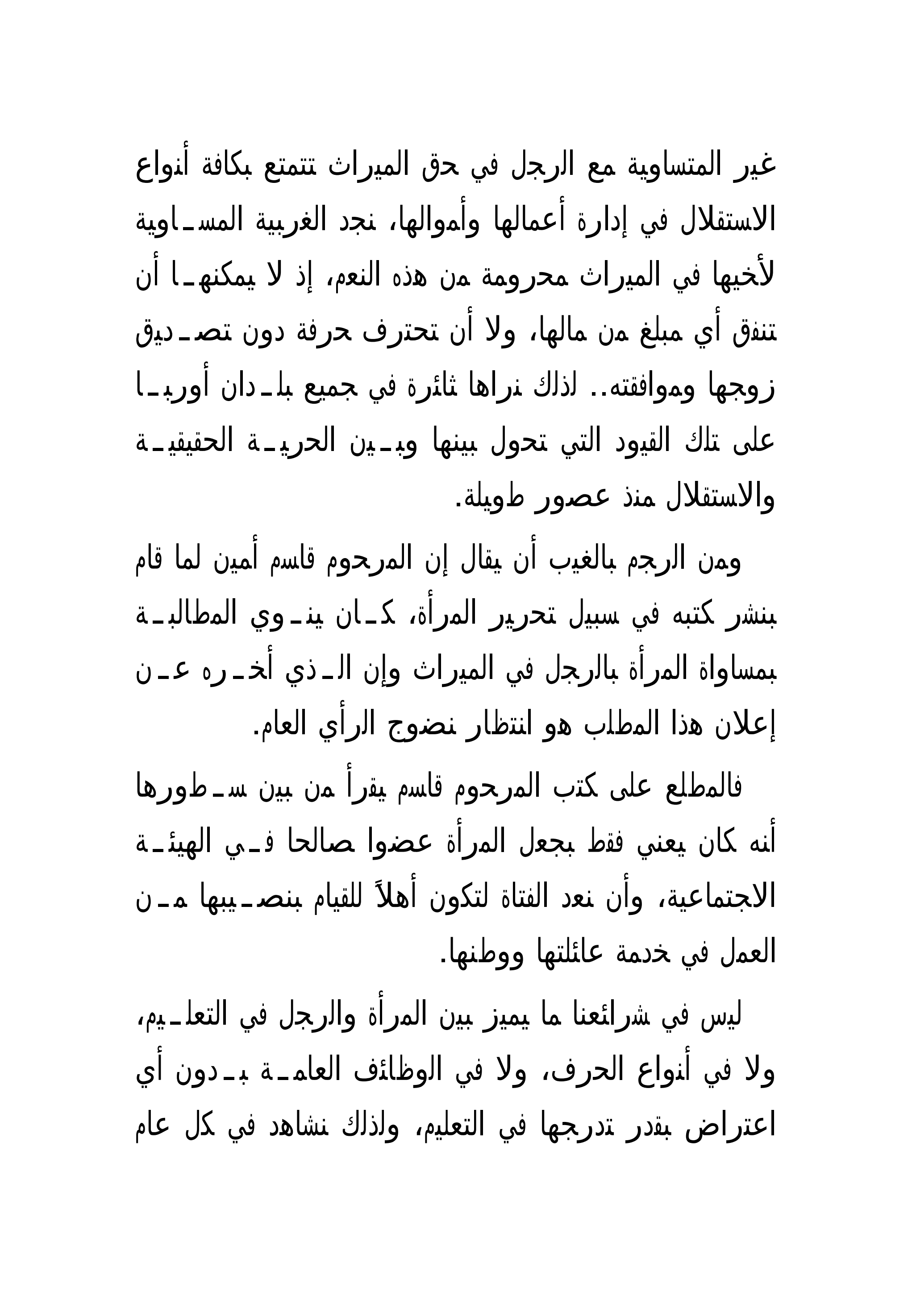
وإن كان لابد من إبداء رأيي في هذا الموضوع، فـأقول بصفتي الشخصية أني لست من الموافقين على رأي الأسـتاذ الخطيب فيما يتعلق بتعديل نصيب المـرأة فـي الميـراث. ولا أظن أن النهضة النسوية في هذه البلاد لتأثرها بالحركـة النسوية بأوربا يجب أن تتبعها في كل مظهر من مظاهرهـا، وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده وليس كل ما يصلح فـي بعضها يصلح في البعض الآخر، على إننا لم نلاحظ تـذمرا من المرأة أو شكوى من عدم مساواتها لرجل في الميـراث، والظاهر أن اقتناعها بما قسم لها من نصيب، ناشئ مـن أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالإنفاق عليهـا وعلى أولادهما، كما منحتها حق اسـتقلال التصـرف فـي أموالها.



أما القول إن عدم المساواة في الميراث من دواعي إحجام كثير من الشبان عن الزواج في الشرق، فغير وجيـه لأننـا نشاهد في أوربا انتشار هذا الداء في عصرنا الحالي انتشارا أشد خطورة منه في الشرق بالرغم من أن الأوروبية تـرث بقدر ما يرث الرجل، فضلاً عن أنها ملزمة بـدفع المهـر، ومكلفة بالتخلي عن إدارة أموالها لزوجها.

ولو سلمنا بنظرية الأستاذ سلامة موسى وجارينـاه فـي طلب تشريع جديد، فهل لا يخشى أن يؤدي ذلك إلى إسـقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده بإلزام الزوجة بالاشتراك في الصرف، وفي ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات اللاتي لم ينلن ميراثًا من ذويهن.. وهذه الطبقة تشمل أغلبيـة الزوجـات، ولا يخفي ما هن عليه من جهل وأميـة لا تسـمحان لهـن بمقاومة هذا الشقاء أو تلطيفه بخلاف مثيلاتهن فـي الفقـر بأوربا لأن التعليم هناك يشمل كل الطبقات.

ترى الغربية أكثر حظًا منها لأنها تظهر لنا حائزة لقسـط كبير من الحرية المدنية المساوية لحرية الرجل، بيد إنها أقل حظًا من أختها الشرقية في الحرية الاقتصادية. فبينما الشرقية


غير المتساوية مع الرجل في حق الميراث تتمتع بكافة أنواع الاستقلال في إدارة أعمالها وأموالها، نجد الغربية المساوية لأخيها في الميراث محرومة من هذه النعم، إذ لا يمكنها أن تنفق أي مبلغ من مالها، ولا أن تحترف حرفة دون تصديق زوجها وموافقته.. لذلك نراها ثائرة في جميع بلدان أوربا على تلك القيود التي تحول بينها وبين الحرية الحقيقية والاستقلال منذ عصور طويلة.

ومن الرجم بالغيب أن يقال إن المرحوم قاسم أمين لما قام بنشر كتبه في سبيل تحرير المرأة، كان ينوي المطالبة بمساواة المرأة بالرجل في الميراث وإن الذي أخره عن إعلان هذا المطلب هو انتظار نضوج الرأي العام.

فالمطلع على كتب المرحوم قاسم يقرأ من بين سطورها أنه كان يعني فقط بجعل المرأة عضوا صالحا في الهيئة الاجتماعية، وأن نعد الفتاة لتكون أهلاً للقيام بنصيبها من العمل في خدمة عائلتها ووطنها.

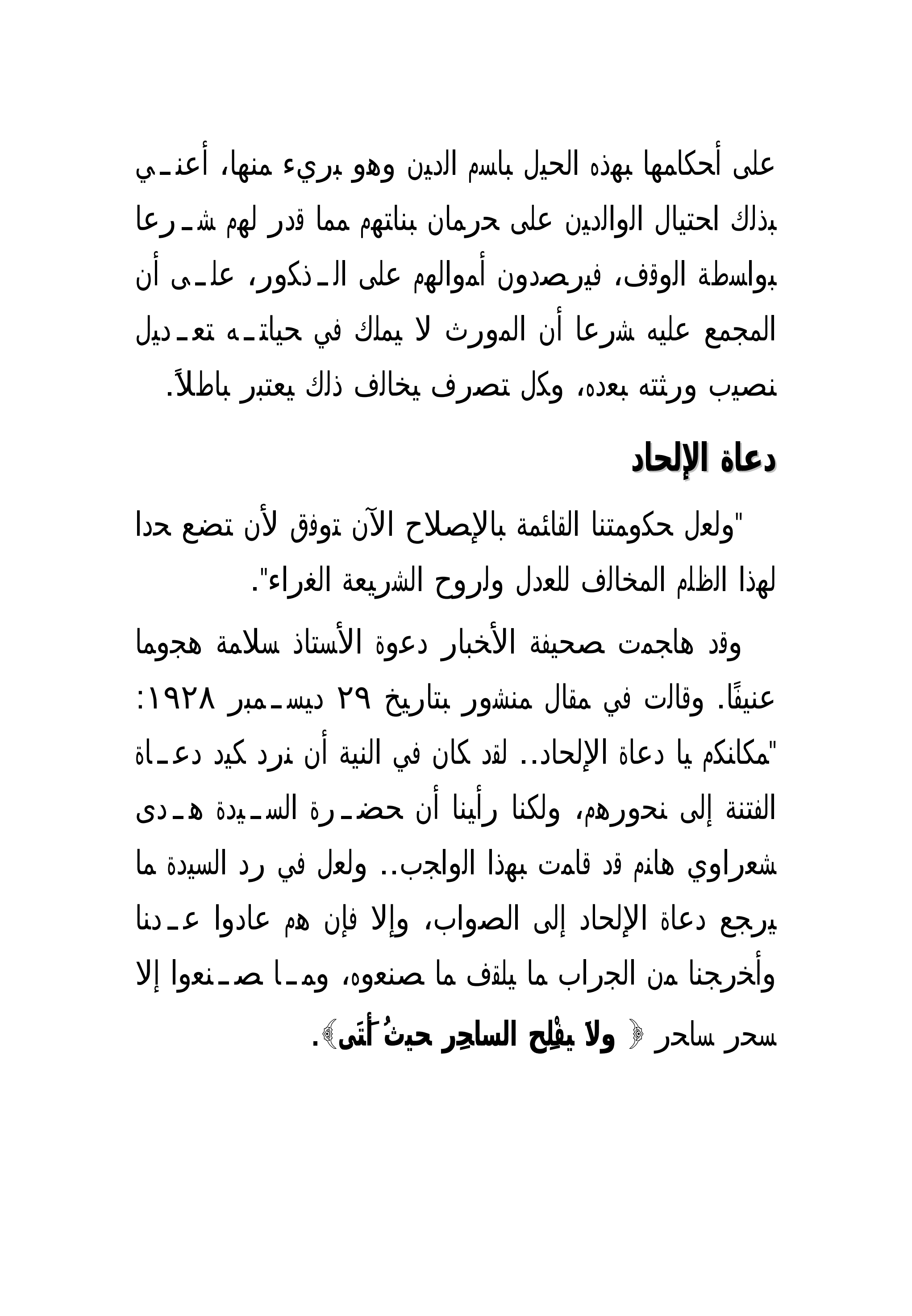
ليس في شرائعنا ما يميز بين المرأة والرجل في التعليم، ولا في أنواع الحرف، ولا في الوظائف العامة بدون أي اعتراض بقدر تدرجها في التعليم، ولذلك نشاهد في كل عام

ازدياد عدد الموظفات في وظائف التعليم ومصالح التليفونات والطب وغيرها، ولا فرق في الأجر بين الرجـل والمـراة المتساويين في الكفاءة بخلاف ما هو جار في أوربا اليوم.

إن أهم ما يشغلنا اليوم في الوصول بالمرأة إلى المركـز اللائق بها، ليس هو السعي لتغيير القوانين أو قلب الشريعة، فلله الحمد لم نجد في هذه ولا تلك من الأحكام ما يحملنا على التذمر والشكوى.. بل كل ما نسعى إليه هو حسن تطبيق هذه القوانين بما يطابق غرض الشارع وحكمه، وكـل المطالـب التي تقدمنا بها إلى الحكومة ترجع إلى تحقيق هذا الغـرض لتحسين حال العائلة وهنائها.

وما عرضناه تنظيما لمسائل الطلاق والزواج والحضـانة وبيت الطاعة يرجع إلى هذا أيضا، ولا يخرج عـن أحكـام الشريعة الغراء".

فإذا كان هناك من موجب لاستياء المرأة وشكواها، فليس من رجحان نصيب الرجل على نصيبها في الميراث، بل من تصرفات أخرى يتبعها الوالدان، وكثيرا مـا تفضـي إلـى حرمانها من هذا النصيب الضئيل بطريق الوقف. وإذا شكونا منها لا نكون متظلمين من الشريعة نفسها بل من الخـروج



على أحكامها بهذه الحيل باسم الدين وهو بريء منها، أعني بذلك احتيال الوالدين على حرمان بناتهم مما قدر لهم شرعا بواسطة الوقف، فيرصدون أموالهم على الذكور، على أن المجمع عليه شرعا أن المورث لا يملك في حياته تعديل نصيب ورثته بعده، وكل تصرف يخالف ذلك يعتبر باطلاً.

دعاة الإلحاد

"ولعل حكومتنا القائمة بالإصلاح الآن توفق لأن تضع حدا لهذا الظلم المخالف للعدل ولروح الشريعة الغراء".

وقد هاجمت صحيفة الأخبار دعوة الأستاذ سلامة هجوما عنيفًا. وقالت في مقال منشور بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٢٨: "مكانكم يا دعاة الإلحاد.. لقد كان في النية أن نرد كيد دعاة الفتنة إلى نحورهم، ولكنا رأينا أن حضرة السيدة هدى شعراوي هانم قد قامت بهذا الواجب.. ولعل في رد السيدة ما يرجع دعاة الإلحاد إلى الصواب، وإلا فإن هم عادوا عدنا وأخرجنا من الجراب ما يلقف ما صنعوه، وما صنعوا إلا سحر ساحر ﴿ **ولاَ يفْلِح الساحِر حيثُ أَتَى**﴾.

رسالة الأمير طوسون

وقد تلقيت في أعقاب نشر المقال، رسالة من الأمير عمر طوسون يعلق فيها على موقفي من مسـألة الميـراث، وقـد نشرت الصحف نص هذه الرسالة التي جاء فيها:

"قرأنا المقال الحكيم المنشور في جريدة الأهرام الغـراء تحت عنوان "نصيب المرأة في الميراث"، فسـرنا أن تكـون الحكمة رائد عصمتك فيما تتوخيته من نهضة المرأة المصرية والعمل على رقيها مع الاحتفاظ بالشرائع الإلهية والصالح من عاداتنا وأخلاقنا ومميزاتنا القومية كأمة لها كيان بمقوماتهـا ومشخصاتها. فهذه هي طريق الإصلاح النافع وسبيل النهضة الصحيحة.

أما الدعوة إلى إطراح قوميتنا والانفصال شيئًا فشيئًا عـن أصول ديانتنا، تلك الدعوة التي يدعو إليها الآن نفر منا رأوا الشقة بيننا وبين الغربيين بعيدة، فأرادوا بحسن قصـد فيمـا نظن أن يعلوا بنا إليهم من طريق الطفـرة، وحسـبوا مـن استحكام حلقات التأخر وتغلغلـه فينـا أن لـيس لنـا نجـاة إلا بتحطيم ما نحن عليه من خلق وعادات ودين، فتلك دعوة

خطرة المغبة، سيرون بأعينهم قريبا من عملوا بها قد ضلوا الطريق وأصبحوا حيارى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

لذلك كان إعجابنا بمقال عصمتك في وسط هذه المحن التي تحدق بالشرق والشرقيين إعجابا لا حد له، وارتياحنا إليه من هذه الناحية عظيما كبيرا، خصوصا أنك أيدت فيه جانب الشريعة الإسلامية الغراء، وبينت وجه الحكمة وسر التشريع في نقص نصيب المرأة عن الرجل في الميراث.. وإذا كان اللائق في بعض الأحيان يدعو إلى الإغضاء على القذى والغض عن الإساءة، فالواجب يحتم أن يقال للمحسن أحسنت، وهذا هو الذي أردناه من كتابنا هذا إلى عصمتك".

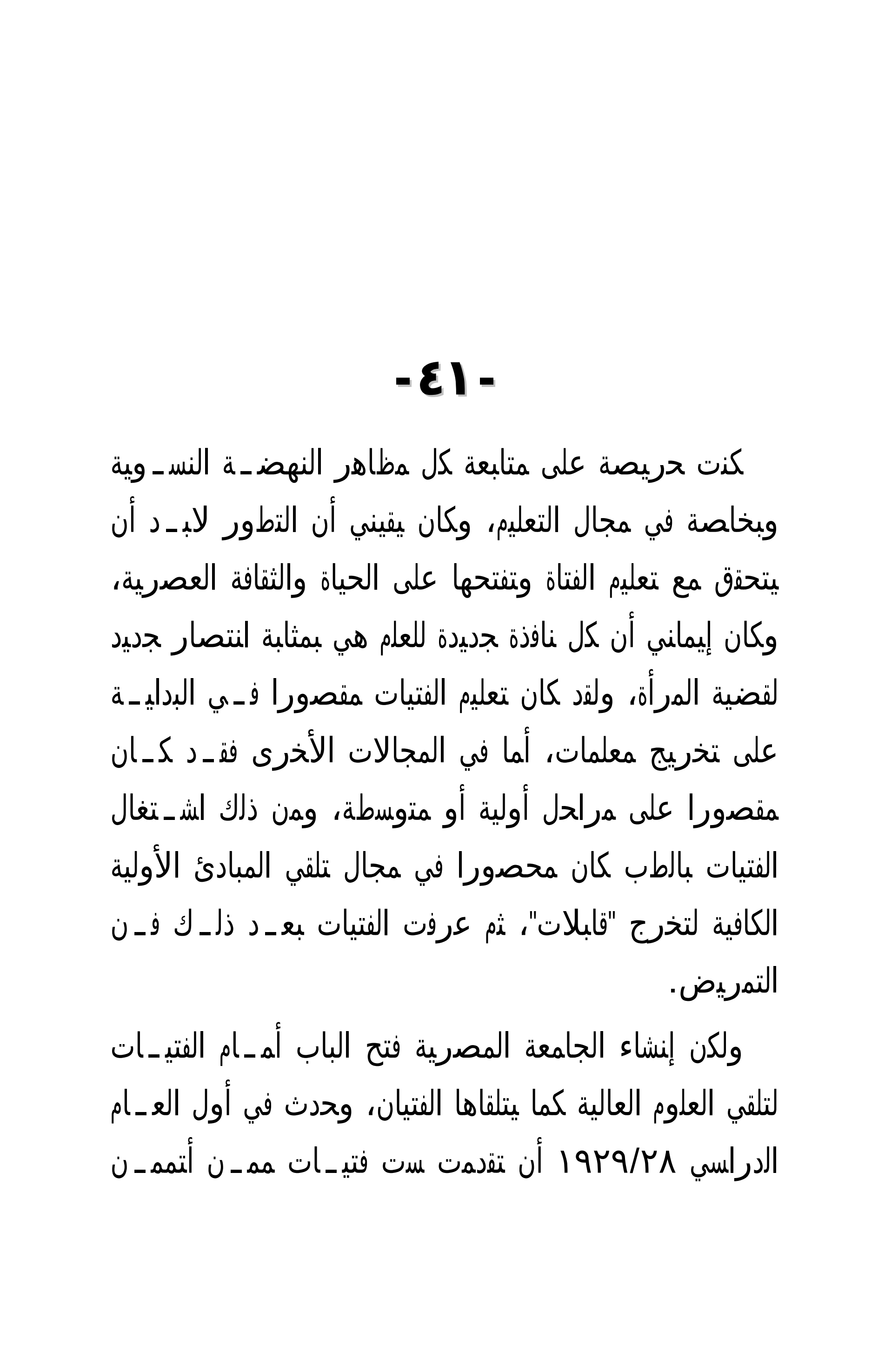
عيد المصرية

وخلال هذه الفترة.. وبالتحديد في يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٢٨، احتفلنا بالذكرى الثالثة لصدور مجلة المصرية "الاجبسيين"، وهي مجلة كنت أصدرها باللغة الفرنسية للتعريف بأحوال المرأة المصرية وتطوراتها.. وقد أقيم هذا الاحتفال في منزلي، وشاركت فيه شخصيات عامة من الرجال والنساء، تقديرا لدور هذه المجلة.

وقد كتبت جريدة المقطم بهذه المناسبة تقول: "اليوم تستقبل مجلة "المصرية" الذكرى الثالثة لظهورها، وإننا لسعداء بـأن نحييها عند بزوغ فجر هذا اليوم سائلين لها عمـرا طـويلاً وجولات صالحة في ميدان الخير العام.

إن مجلة "المصرية" هي مجلة نسوية تنادي بمـا يخـالف مبادئنا وخطتنا في تربية المرأة وفي تحديد حقـوق المـرأة وبيان مهمتها، وفي القرن العشرين، عهد توزيـع الأعمـال والتخصص في فروع كل مهنة، تقـول بمزاحمـة الجـنس اللطيف للجنس الخشن، ولكنها مع ذلك سـدت مـن ناحيـة أعمال البر بالإنسانية وإغاثة الملهوفين وتشـجيع الصـنائع المصرية وبخاصة القديمة منها.

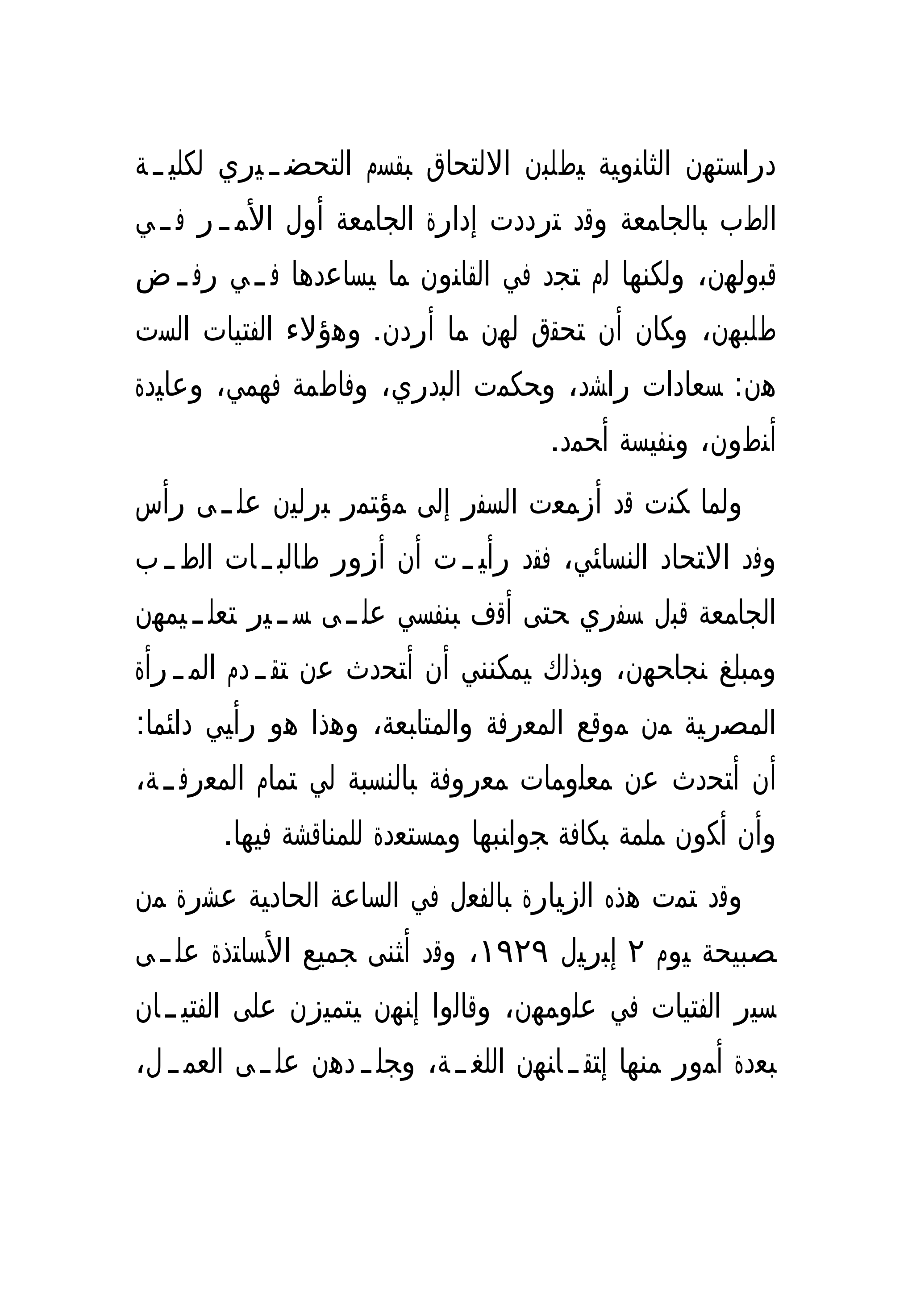
على أن الخلاف في الرأي لا بد منـه فـي أمـة تريـد النهوض.. بل هو بمثابة عنصر في الدواء العـام لمختلـف الأمراض".



-٤١-

كنت حريصة على متابعة كل مظاهر النهضة النسوية وبخاصة في مجال التعليم، وكان يقيني أن التطور لابد أن يتحقق مع تعليم الفتاة وتفتحها على الحياة والثقافة العصرية، وكان إيماني أن كل نافذة جديدة للعلم هي بمثابة انتصار جديد لقضية المرأة، ولقد كان تعليم الفتيات مقصورا في البداية على تخريج معلمات، أما في المجالات الأخرى فقد كان مقصورا على مراحل أولية أو متوسطة، ومن ذلك اشتغال الفتيات بالطب كان محصورا في مجال تلقي المبادئ الأولية الكافية لتخرج "قابلات"، ثم عرفت الفتيات بعد ذلك فن التمريض.

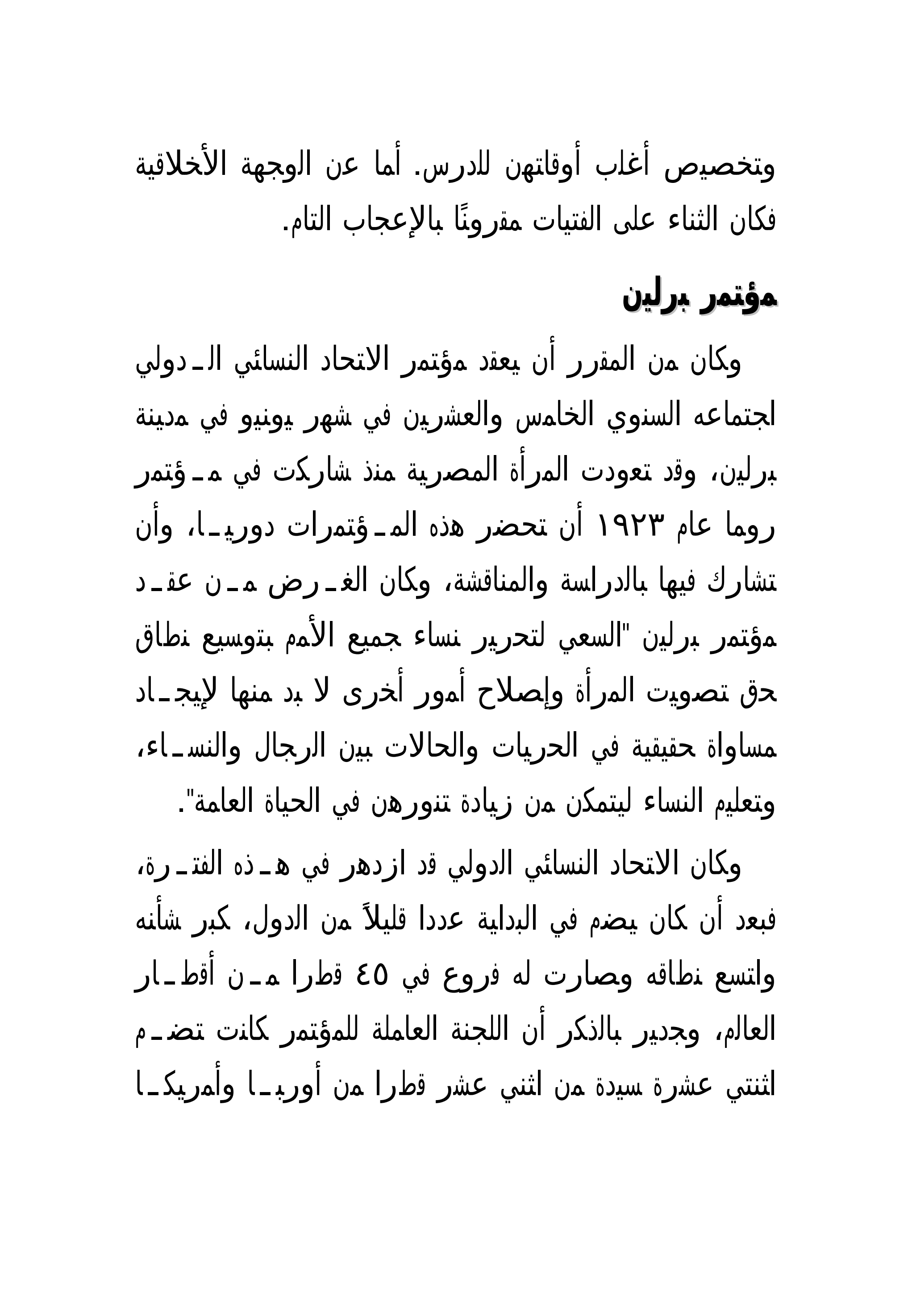
ولكن إنشاء الجامعة المصرية فتح الباب أمام الفتيات لتلقي العلوم العالية كما يتلقاها الفتيان، وحدث في أول العام الدراسي ١٩٢٩/٢٨ أن تقدمت ست فتيات ممن أتممن



دراستهن الثانوية يطلبن الالتحاق بقسم التحضيري لكلية الطب بالجامعة وقد ترددت إدارة الجامعة أول الأمر في قبولهن، ولكنها لم تجد في القانون ما يساعدها في رفض طلبهن، وكان أن تحقق لهن ما أردن. وهؤلاء الفتيات الست هن: سعادات راشد، وحكمت البدري، وفاطمة فهمي، وعايدة أنطون، ونفيسة أحمد.

ولما كنت قد أزمعت السفر إلى مؤتمر برلين على رأس وفد الاتحاد النسائي، فقد رأيت أن أزور طالبات الطب الجامعة قبل سفري حتى أقف بنفسي على سير تعليمهن ومبلغ نجاحهن، وبذلك يمكنني أن أتحدث عن تقدم المرأة المصرية من موقع المعرفة والمتابعة، وهذا هو رأيي دائما: أن أتحدث عن معلومات معروفة بالنسبة لي تمام المعرفة، وأن أكون ملمة بكافة جوانبها ومستعدة للمناقشة فيها.

وقد تمت هذه الزيارة بالفعل في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم ٢ إبريل ١٩٢٩، وقد أثنى جميع الأساتذة على سير الفتيات في علومهن، وقالوا إنهن يتميزن على الفتيان بعدة أمور منها إتقانهن اللغة، وجلدهن على العمل،



وتخصيص أغلب أوقاتهن للدرس. أما عن الوجهة الأخلاقية فكان الثناء على الفتيات مقرونًا بالإعجاب التام.

مؤتمر برلين

وكان من المقرر أن يعقد مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي اجتماعه السنوي الخامس والعشرين في شهر يونيو في مدينة برلين، وقد تعودت المرأة المصرية منذ شاركت في مؤتمر روما عام ١٩٢٣ أن تحضر هذه المؤتمرات دوريا، وأن تشارك فيها بالدراسة والمناقشة، وكان الغرض من عقد مؤتمر برلين "السعي لتحرير نساء جميع الأمم بتوسيع نطاق حق تصويت المرأة وإصلاح أمور أخرى لا بد منها لإيجاد مساواة حقيقية في الحريات والحالات بين الرجال والنساء، وتعليم النساء ليتمكن من زيادة تنورهن في الحياة العامة".

وكان الاتحاد النسائي الدولي قد ازدهر في هذه الفترة، فبعد أن كان يضم في البداية عددا قليلاً من الدول، كبر شأنه واتسع نطاقه وصارت له فروع في ٤٥ قطرا من أقطار العالم، وجدير بالذكر أن اللجنة العاملة للمؤتمر كانت تضم اثنتي عشرة سيدة من اثني عشر قطرا من أوربا وأمريكا

ومصر، فلم يكن بين هذه الأقطار أي قطر شرقي آخر غيـر مصر.

وقد عقد المؤتمر فـي ١٧ يونيـو ١٩٢٩، وبلـغ عـدد أعضائه ٥٠٠ عضو، وكان هناك من بين الدول المشـتركة فيه ٢٥ دولة قد منحت النساء حق الانتخاب.

وكان المؤتمر وأعضاؤه موضع عناية تامة من الشـعب الألماني والحكومة الألمانية.. وقد اشترك وخطب فيه كبـار رجال الدولة من وزراء وحكام وسياسـيين. وإذا عرفنـا أن ٥٥ في المئة من نساء ألمانيا يشاركن الرجال في الأعمـال، فإننا نستطيع أن ندرك من خلال ذلك مدى اهتمـام الشـعب الألماني بالجمعيات والمؤتمرات النسوية.

وقد ألقى الهر سفرنج وزير الداخلية خطبة الافتتاح، وكان مما جاء فيها: لو كان للنساء حق الانتخاب قبل سـنة ١٩١٤ لما اندلعت الحرب وأنزلت الخراب بالعالم، لأن النسـاء قـد يقدرن مخاطر الحرب ويألمن من عواقبها أكثر من الرجال، فبواسطتهن سيتحقق حلم الإنسانية الرامي إلى نشـر السـلام والإخاء بين الأمم، وعلينا ألا ننسى أن المرأة هي رئة الأمة، منها يدخل الهواء النقي المنعش لسائر أعضاء الجسم.

وقد أتيح لنا أثناء إقامتنا في برلين زيارة المستوصفات وملاجئ الأطفال وجمعيات رعاية الأمهات، وقد درسنا نظام تلك النشاطات الاجتماعية التي تمت وازدهرت في ألمانيا أكثر من سواها، وكان يتولى إرشاد الأعضاء في هذه الزيارة طائفة من سيدات الطبقة الراقية في برلين.

وإذا كان الوفد النسائي المصري قد استطاع أن يحقق فوائد أدبية كثيرة في هذا المؤتمر، فلا جدال في أن فوزه الأكبر كان في حمل المؤتمر على إقرار الاقتراح التالي:

جهودنا لإلغاء الامتيازات

نظرا لأن نظام الامتيازات لا يدع للسلطات المصرية أية سيطرة على منازل البغاء الأجنبية، كما أنه لا يدع لها أية سلطة لمراقبة تجارة المواد المخدرة التي تفتك بالشرق فتكًا ذريعا.

ونظرا لضرورة إلغاء تلك المنازل وهذه التجارة كما تقدمت توصيات بذلك إلى جمعية الأمم.

فإن المؤتمر يطلب من الجمعيات المشتركة فيه أن تسعى كل لدى حكوماتها لتسهيل ما تقوم به السلطات المصرية من أعمال التطهير صحيا وأدبيا".

وقد لقي هذا الاقتراح بعض الاعتراض، وبخاصة من جانب رئيسة الوفد الإنجليزي لعلاقته بنظام الامتيازات ما يجعل له صفة سياسية. وكان المطلوب هو إرجاء النظر فيه إلى مؤتمر قادم. ولكني حرصت على الاتصال برئيسات سائر الوفود بين الجلسات حتى كللت مجهوداتنا بالنجاح. ونذكر هنا بالفضل دور رئيسة الوفد الفرنسي مدام كرامر باك المحامية، فقد حملت على نظام الامتيازات المجحف حملة صادقة، فوافق المؤتمر على الاقتراح المصري بالإجماع ما عدا الوفد الإنجليزي الذي امتنع عن التصويت.

ومما يذكر أيضا أن المؤتمر قرر قبل انفضاض جلساته أن ينتخب مكتبا يسمى "مكتب الاتحاد النسوي العام" وهو مؤلف من عشرين عضوا، وقد أعيد انتخاب رئيسة الوفد المصري عضوا في هذا المكتب بعد أن رشحتها للعضوية ممثلات ٢١١ دولة ونالت في الانتخاب العام ١٦١ صوتًا. فكان هذا إشادة بذكر مصر ورفع اسمها بين الدول.

المرأة المصرية في برلين

وقد كتب الأستاذ كريم ثابت، وهو أحد الصحفيين المصريين البارزين وابن رئيس تحرير جريدة المقطم، مقالاً

تحت هذا العنوان؛ حيث تصادف وجوده في ألمانيـا أثنـاء انعقاد مؤتمر برلين، قال فيه:

"اتفق وجودي في برلين في الشهر الماضي فـي أثنـاء انعقاد المؤتمر النسائي الذي دعا إليه الاتحاد النسائي الدولي. وقد مثلت مصر فيه السيدة هدى هانم شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري والآنسة حداد والآنسـة سـيزا نبـراوي والآنسة ماري كحيل تمثيلاً لائقًا مشرقًا لهذه البلاد ولسيداتها الناهضات.. وحسبي أن أورد هنا للقراء ما حدث في المأدبة الشائقة التي أقامتها السيدة هدى هانم في فندق "كايزر هوف" ببرلين لجمهور من وزراء الألمان الحاليين والسابقين وكرائم السيدات والأوانس اللواتي ينتمين إلى أكبر البيوت الألمانيـة العريقة في الحسب والنسب.

وقد كان في مقدمة من لبى الدعوة إلى المأدبة المصـرية سعادة الدكتور جرارد وزير الحقانية الألمانية الحالي وسعادة الهر روزن وزير الخارجية الألمانيـة الأسـبق وقرينـاتهم والبارونة كاردورف عقيلة وكيل مجلس الرخستاغ وزعيمـة الحركة النسائية في ألمانيا وغيرهم من الكبراء والعظمـاء. وكان الرجال لابسين ملابـس السـهرة الرسـمية (الفـراك

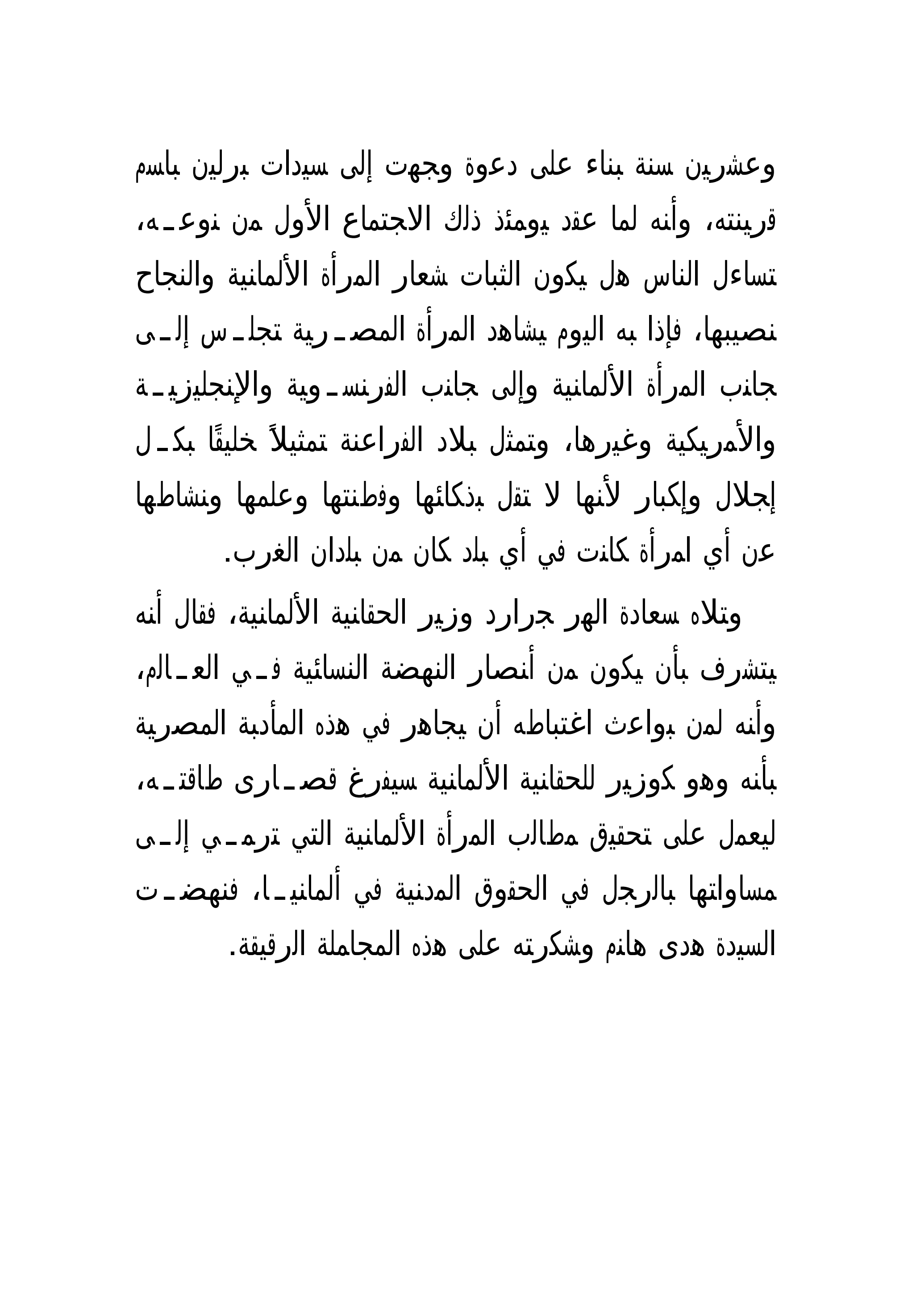
لا السموكنج) ومتقادين أرفع نياشينهم دلالة على عظمة تقديرهم للدعوة التي وجهت إليهم وشدة اعتبارهم لها.

وبعد الفراغ من الطعام، نهضت السيدة هدى هام شعراوي وخطبت خطبة بليغة باللغة الفرنسوية، شكرت فيها الألمان ولا سيما السيدات الألمانيات على ما لقيه الوفد النسائي المصري من حفاوتهن وإكرامهن، وعلى ما صادفته الاقتراحات المصرية من العطف والتأييد في جلسات المؤتمر وخصوصا ما يتعلق بوجوب تعديل الامتيازات الأجنبية تعديلاً يشد أزر الحكومة المصرية في الضرب على أيدي المتاجرين بالمواد المخدرة. وعقبتها الآنسة ماري كحيل فخطبت بالألمانية بطلاقة أدهشت سامعيها من أبناء تلك اللغة وبناتها. فبسطت للحاضرين المراحل المتعاقبة التي اجتازتها النهضة النسائية في مصر في السنوات الأخيرة.

ونهضت بعد ذلك البارونة كاردورف، وارتجلت خطبة ضافية باللغة الألمانية تولت الآنسة ماري كحيل ترجمتها إلى الفرنسوية، ومما قالت زعيمة الحركة النسائية في ألمانيا إنها زارت مصر في الشتاء الماضي للاستشفاء، فانتهزت فرصة إقامتها فيها لتدرس حقيقة النهضة النسائية المصرية عن

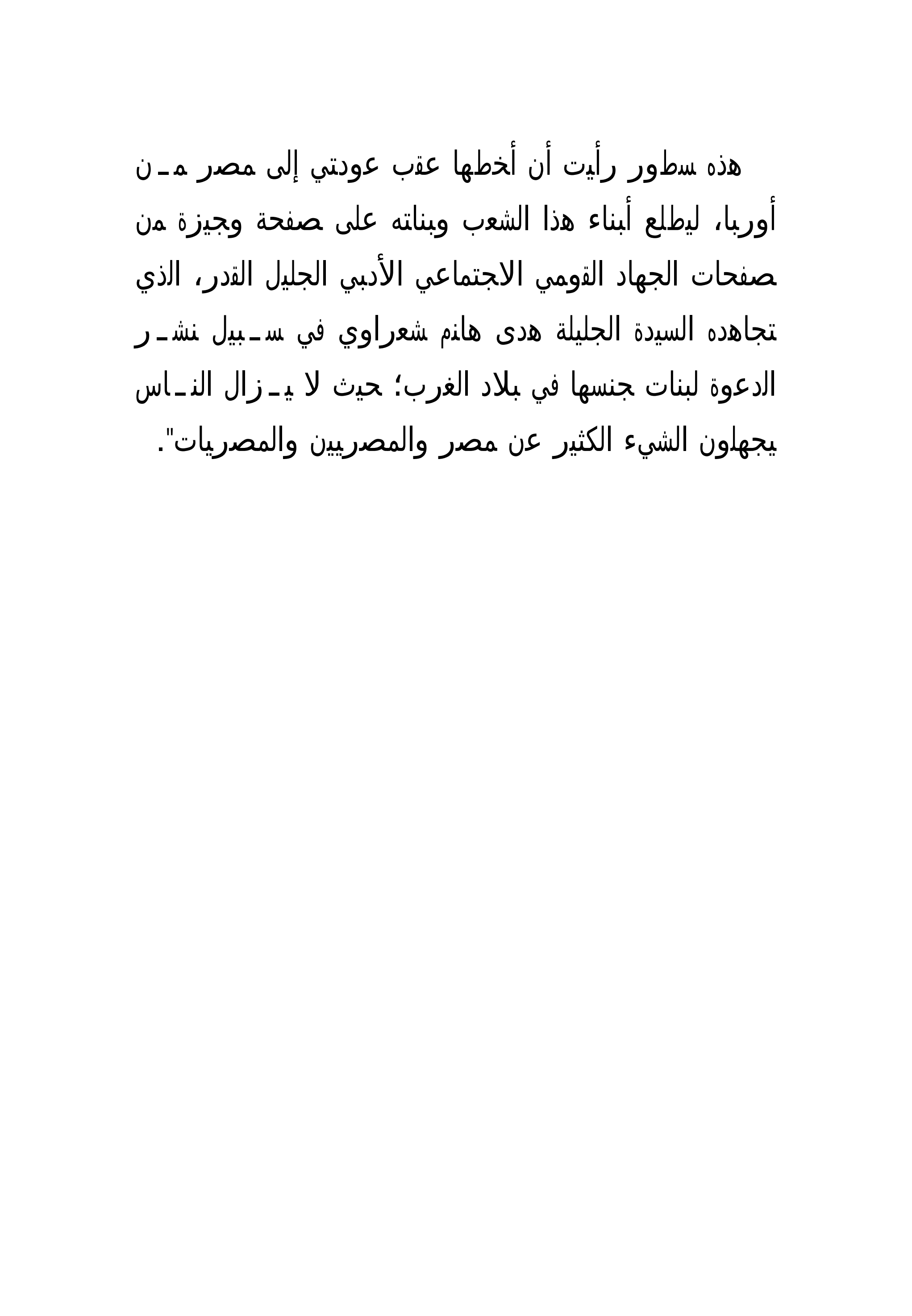
كتب، فخرجت من هذا الـدرس وهـي مطأطئـة احترامـا للمجهود الذي بذلته سيدات مصر في هذا الميـدان، وقالـت "وبلغ من شدة إعجابي بنشاطهن وحماستهن إنني قلـت فـي نفسي لو لم أكن ألمانية لأحببت أن أكـون مصـرية". ثـم استطردت إلى الكلام عن السجون والإصلاحيات والملاجـئ والعيادات النسائية في مصر. فأفاضت في الكلام عما شاهدته من النظام والنظافة وحسن المعاملة في سجن النساء، وتكلمت بعد ذلك عن الملجأ الذي أنشأته السيدة هدى هانم شـعراوي فوصفت أقسامه وما شاهدته من إقبال اليتيمات وغيرهن على الاستفادة من العلوم والصناعات التي يتلقينها فيه. وهنا نوهت الخطيبة بمآثر السيدة هدى هانم ومناقبها وبحسن بلائها فـي سبيل رفع لواء النهضـة النسـائية فـي مصـر، فصـفق الحاضرون وهتفوا لرئيسة الاتحاد النسائي المصري، فسارت البارونة كاردورف إلى حيث كانت السيدة هدى هانم جالسـة وقبلتها بين تصفيق المدعوين الشديد. ثم تكلـم كاتـب هـذه السطور بالفرنسوية.

وعقب سعادة الهر سفرنج.. فقال إن أول اجتماع للنهضة النسائية الألمانية عقد في حديقـة داره مـن نحـو خمـس

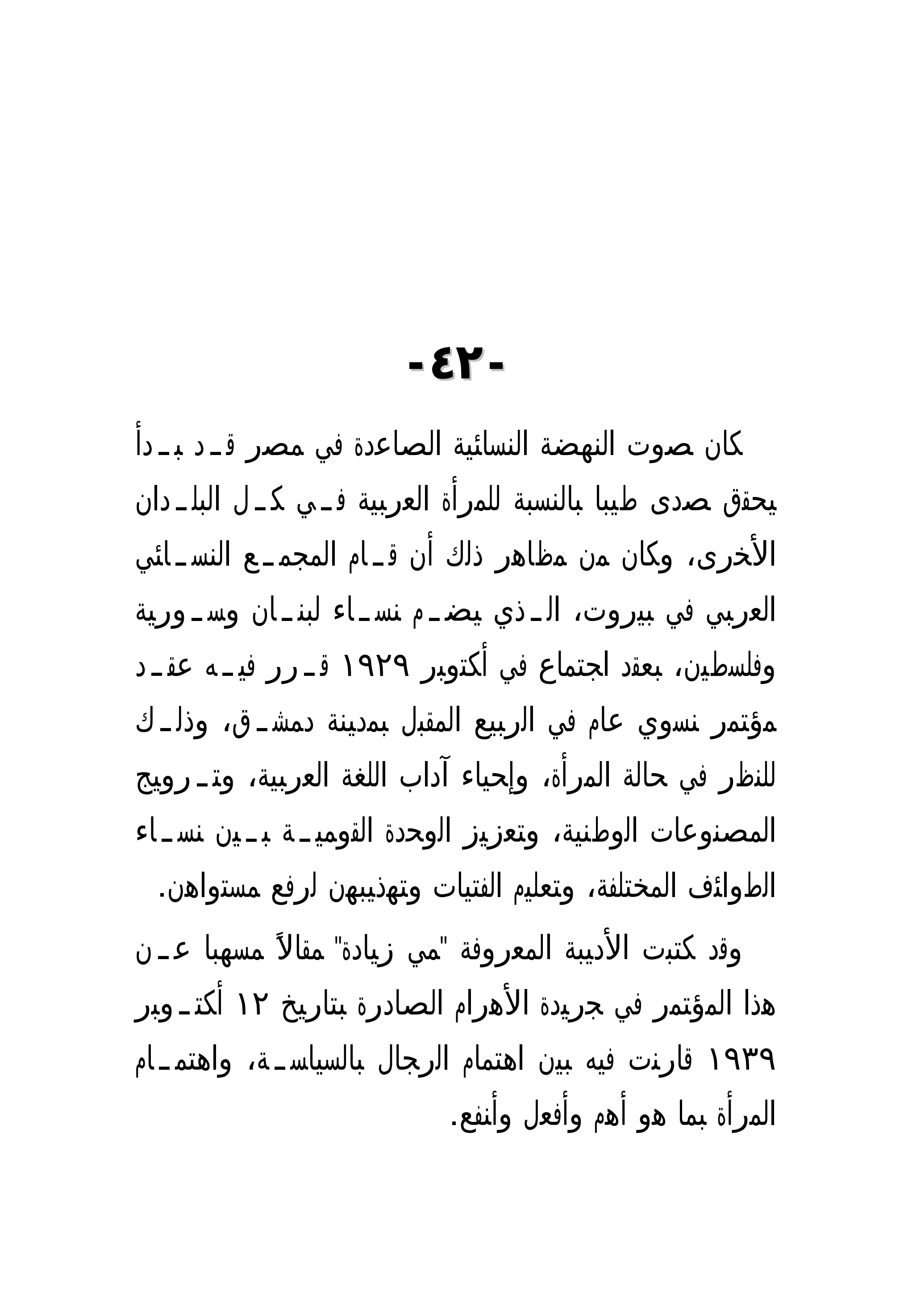


وعشرين سنة بناء على دعوة وجهت إلى سيدات برلين باسم قرينته، وأنه لما عقد يومئذ ذلك الاجتماع الأول من نوعـه، تساءل الناس هل يكون الثبات شعار المرأة الألمانية والنجاح نصيبها، فإذا به اليوم يشاهد المرأة المصـرية تجلـس إلـى جانب المرأة الألمانية وإلى جانب الفرنسـوية والإنجليزيـة والأمريكية وغيرها، وتمثل بلاد الفراعنة تمثيلاً خليقًا بكـل إجلال وإكبار لأنها لا تقل بذكائها وفطنتها وعلمها ونشاطها عن أي امرأة كانت في أي بلد كان من بلدان الغرب.

وتلاه سعادة الهر جرارد وزير الحقانية الألمانية، فقال أنه يتشرف بأن يكون من أنصار النهضة النسائية فـي العـالم، وأنه لمن بواعث اغتباطه أن يجاهر في هذه المأدبة المصرية بأنه وهو كوزير للحقانية الألمانية سيفرغ قصـارى طاقتـه، ليعمل على تحقيق مطالب المرأة الألمانية التي ترمـي إلـى مساواتها بالرجل في الحقوق المدنية في ألمانيـا، فنهضـت السيدة هدى هانم وشكرته على هذه المجاملة الرقيقة.



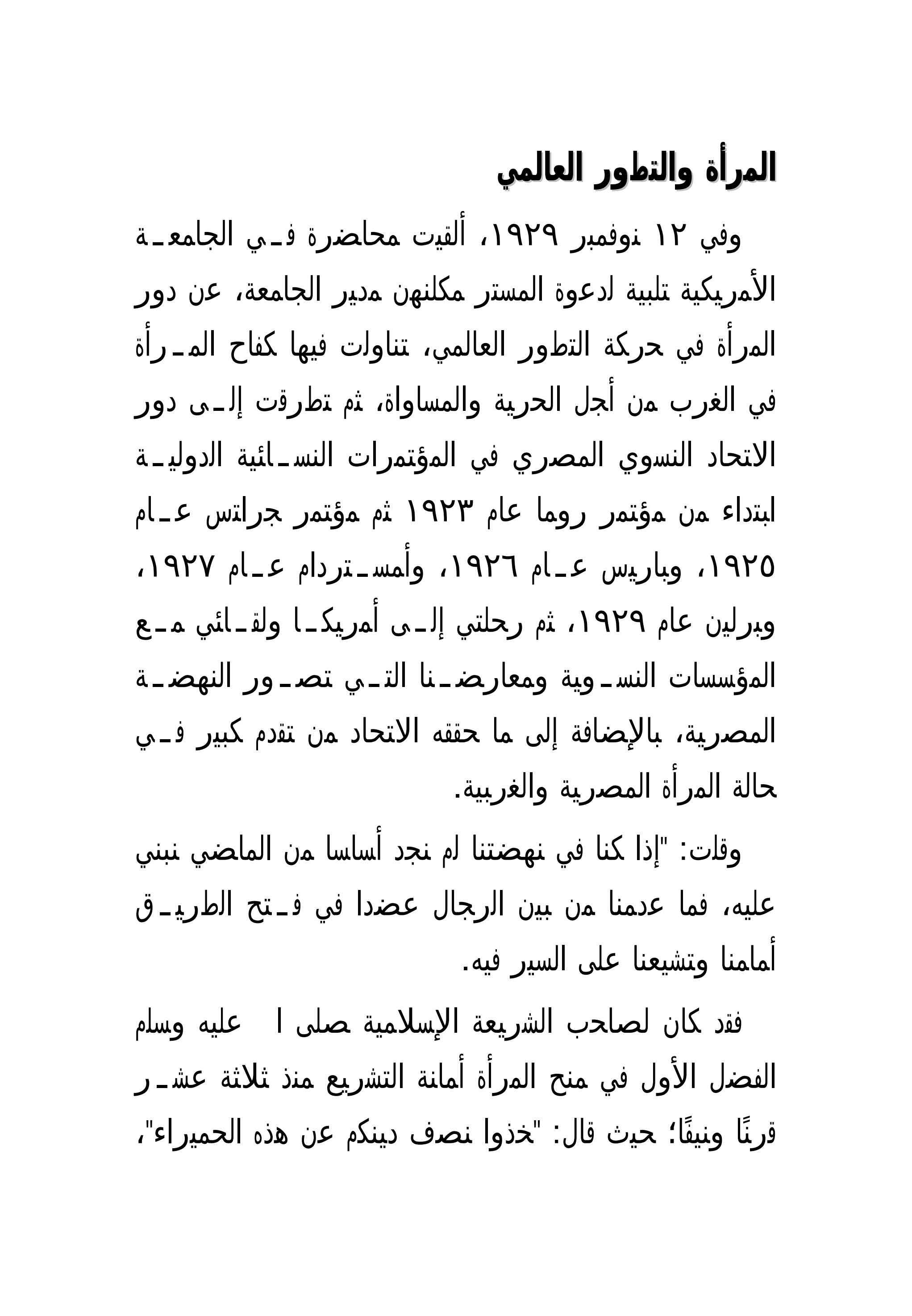
هذه سطور رأيت أن أخطها عقب عودتي إلى مصر من أوربا، ليطلع أبناء هذا الشعب وبناته على صفحة وجيزة من صفحات الجهاد القومي الاجتماعي الأدبي الجليل القدر، الذي تجاهده السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي في سبيل نشر الدعوة لبنات جنسها في بلاد الغرب؛ حيث لا يزال الناس يجهلون الشيء الكثير عن مصر والمصريين والمصريات".



-٤٢-

كان صوت النهضة النسائية الصاعدة في مصر قد بدأ يحقق صدى طيبا بالنسبة للمرأة العربية في كل البلدان الأخرى، وكان من مظاهر ذلك أن قام المجمع النسائي العربي في بيروت، الذي يضم نساء لبنان وسورية وفلسطين، بعقد اجتماع في أكتوبر ١٩٢٩ قرر فيه عقد مؤتمر نسوي عام في الربيع المقبل بمدينة دمشق، وذلك للنظر في حالة المرأة، وإحياء آداب اللغة العربية، وترويج المصنوعات الوطنية، وتعزيز الوحدة القومية بين نساء الطوائف المختلفة، وتعليم الفتيات وتهذيبهن لرفع مستواهن.

وقد كتبت الأديبة المعروفة "مي زيادة" مقالاً مسهبا عن هذا المؤتمر في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٣٩ قارنت فيه بين اهتمام الرجال بالسياسة، واهتمام المرأة بما هو أهم وأفعل وأنفع.

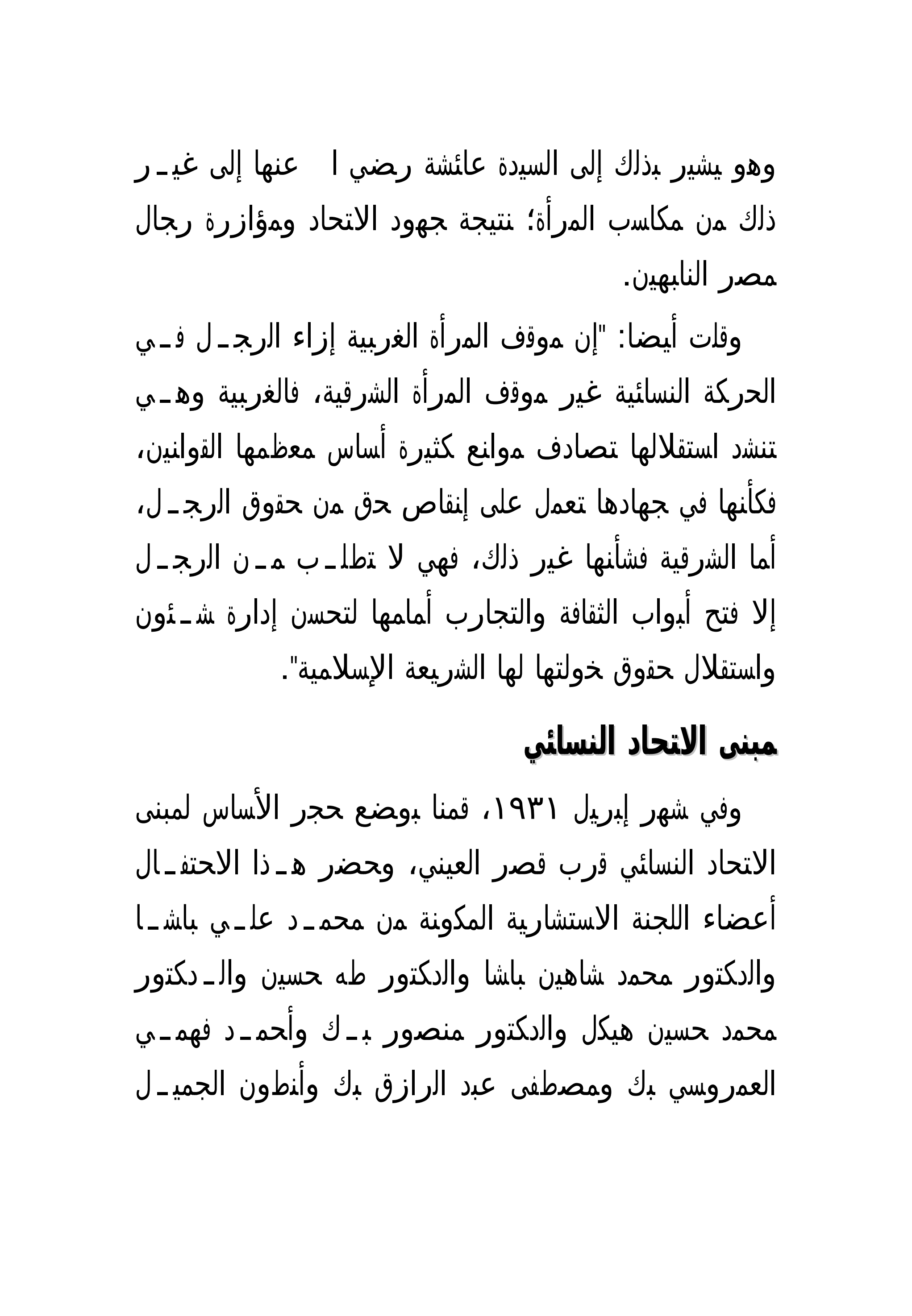


المرأة والتطور العالمي

وفي ١٢ نوفمبر ١٩٢٩، ألقيت محاضرة في الجامعة الأمريكية تلبية لدعوة المستر مكلنهن مدير الجامعة، عن دور المرأة في حركة التطور العالمي، تناولت فيها كفاح المرأة في الغرب من أجل الحرية والمساواة، ثم تطرقت إلى دور الاتحاد النسوي المصري في المؤتمرات النسائية الدولية ابتداء من مؤتمر روما عام ١٩٢٣ ثم مؤتمر جراتس عام ١٩٢٥، وباريس عام ١٩٢٦، وأمستردام عام ١٩٢٧، وبرلين عام ١٩٢٩، ثم رحلتي إلى أمريكا ولقائي مع المؤسسات النسوية ومعارضنا التي تصور النهضة المصرية، بالإضافة إلى ما حققه الاتحاد من تقدم كبير في حالة المرأة المصرية والغربية.

وقلت: "إذا كنا في نهضتنا لم نجد أساسا من الماضي نبني عليه، فما عدمنا من بين الرجال عضدا في فتح الطريق أمامنا وتشيعنا على السير فيه.

فقد كان لصاحب الشريعة الإسلامية صلى ا عليه وسلم الفضل الأول في منح المرأة أمانة التشريع منذ ثلاثة عشر قرنًا ونيفًا؛ حيث قال: "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء"،

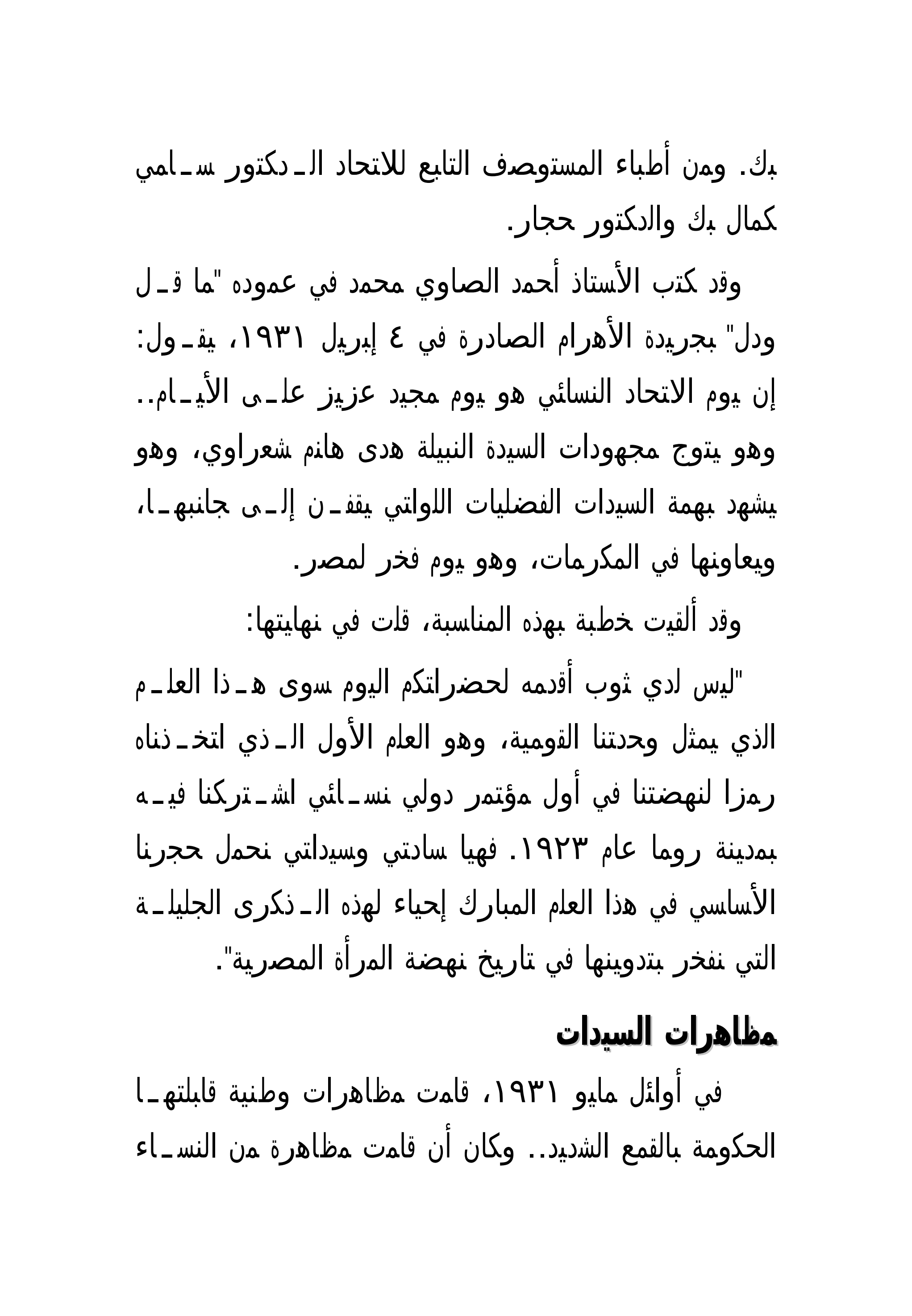


وهو يشير بذلك إلى السيدة عائشة رضي الله عنها إلى غير ذلك من مكاسب المرأة؛ نتيجة جهود الاتحاد ومؤازرة رجال مصر النابهين.

وقلت أيضا: "إن موقف المرأة الغربية إزاء الرجل في الحركة النسائية غير موقف المرأة الشرقية، فالغربية وهي تنشد استقلالها تصادف موانع كثيرة أساس معظمها القوانين، فكأنها في جهادها تعمل على إنقاص حق من حقوق الرجل، أما الشرقية فشأنها غير ذلك، فهي لا تطلب من الرجل إلا فتح أبواب الثقافة والتجارب أمامها لتحسن إدارة شئون واستقلال حقوق خولتها لها الشريعة الإسلامية".

مبنى الاتحاد النسائي

وفي شهر إبريل ١٩٣١، قمنا بوضع حجر الأساس لمبنى الاتحاد النسائي قرب قصر العيني، وحضر هذا الاحتفال أعضاء اللجنة الاستشارية المكونة من محمد علي باشا والدكتور محمد شاهين باشا والدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور منصور بك وأحمد فهمي العمروسي بك ومصطفى عبد الرازق بك وأنطون الجميل



بك. ومن أطباء المستوصف التابع للاتحاد الدكتور سامي كمال بك والدكتور حجار.

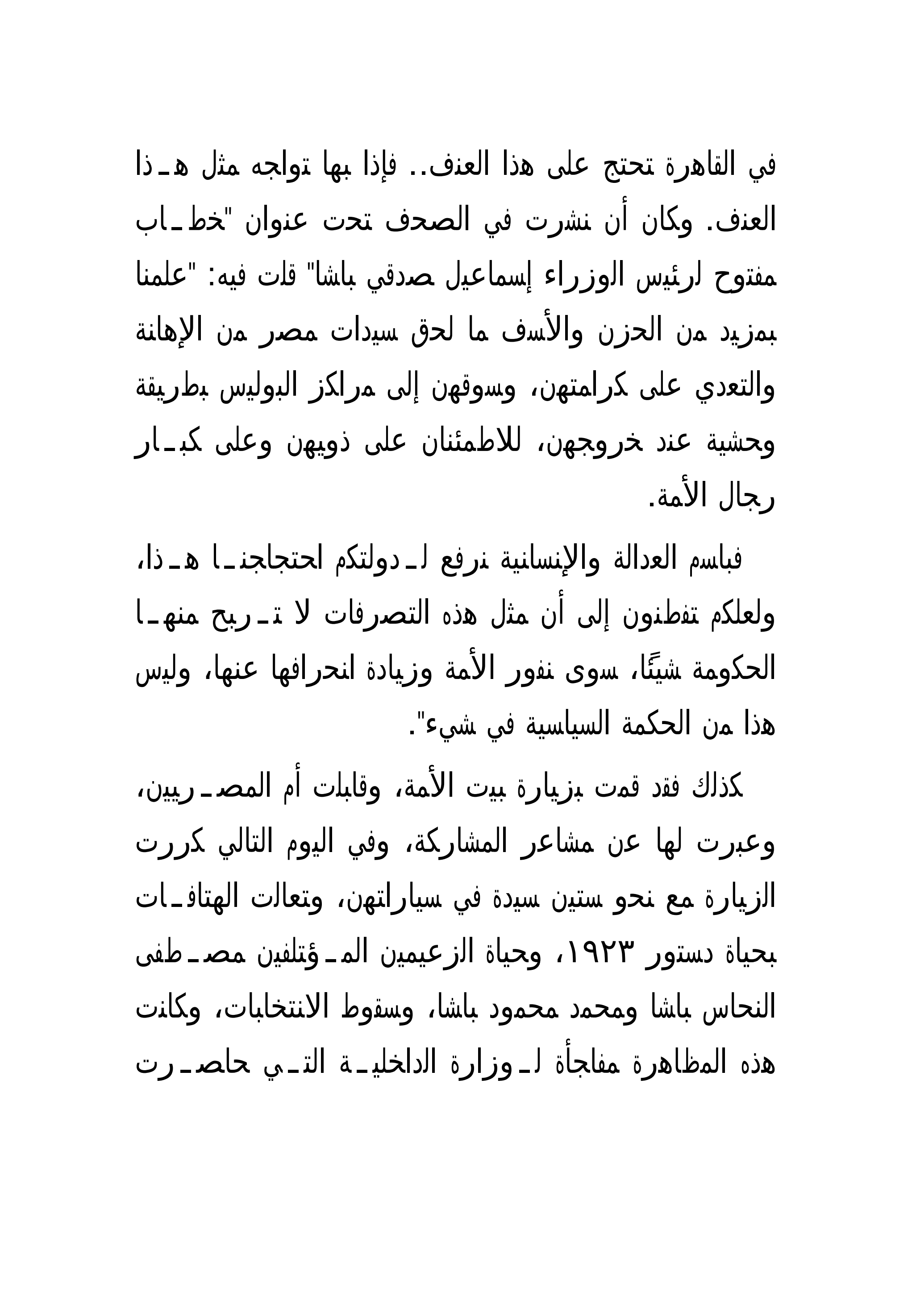
وقد كتب الأستاذ أحمد الصاوي محمد في عموده "ما قل ودل" بجريدة الأهرام الصادرة في ٤ إبريل ١٩٣١، يقول: إن يوم الاتحاد النسائي هو يوم مجيد عزيز على الأيام.. وهو يتوج مجهودات السيدة النبيلة هدى هانم شعراوي، وهو يشهد بهمة السيدات الفضليات اللواتي يقفن إلى جانبها، ويعاونها في المكرمات، وهو يوم فخر لمصر.

وقد ألقيت خطبة بهذه المناسبة، قلت في نهايتها:

"ليس لدي ثوب أقدمه لحضراتكم اليوم سوى هذا العلم الذي يمثل وحدتنا القومية، وهو العلم الأول الذي اتخذناه رمزا لنهضتنا في أول مؤتمر دولي نسائي اشتركنا فيه بمدينة روما عام ١٩٢٣. فهيا سادتي وسيداتي نحمل حجرنا الأساسي في هذا العلم المبارك إحياء لهذه الذكرى الجليلة التي نفخر بتدوينها في تاريخ نهضة المرأة المصرية".

مظاهرات السيدات

في أوائل مايو ١٩٣١، قامت مظاهرات وطنية قابلتها الحكومة بالقمع الشديد.. وكان أن قامت مظاهرة من النساء



في القاهرة تحتج على هذا العنف.. فإذا بها تواجه مثل هذا العنف. وكان أن نشرت في الصحف تحت عنوان "خطاب مفتوح لرئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا" قلت فيه: "علمنا بمزيد من الحزن والأسف ما لحق سيدات مصر من الإهانة والتعدي على كرامتهن، وسوقهن إلى مراكز البوليس بطريقة وحشية عند خروجهن، للاطمئنان على ذويهن وعلى كبار رجال الأمة.

فباسم العدالة والإنسانية نرفع لدولتكم احتجاجنا هذا، ولعلكم تفطنون إلى أن مثل هذه التصرفات لا تربح منها الحكومة شيئًا، سوى نفور الأمة وزيادة انحرافها عنها، وليس هذا من الحكمة السياسية في شيء".

كذلك فقد قمت بزيارة بيت الأمة، وقابلت أم المصريين، وعبرت لها عن مشاعر المشاركة، وفي اليوم التالي كررت الزيارة مع نحو ستين سيدة في سياراتهن، وتعالت الهتافات بحياة دستور ١٩٢٣، وحياة الزعيمين المؤتلفين مصطفى النحاس باشا ومحمد محمود باشا، وسقوط الانتخابات، وكانت هذه المظاهرة مفاجأة لوزارة الداخلية التي حاصرت

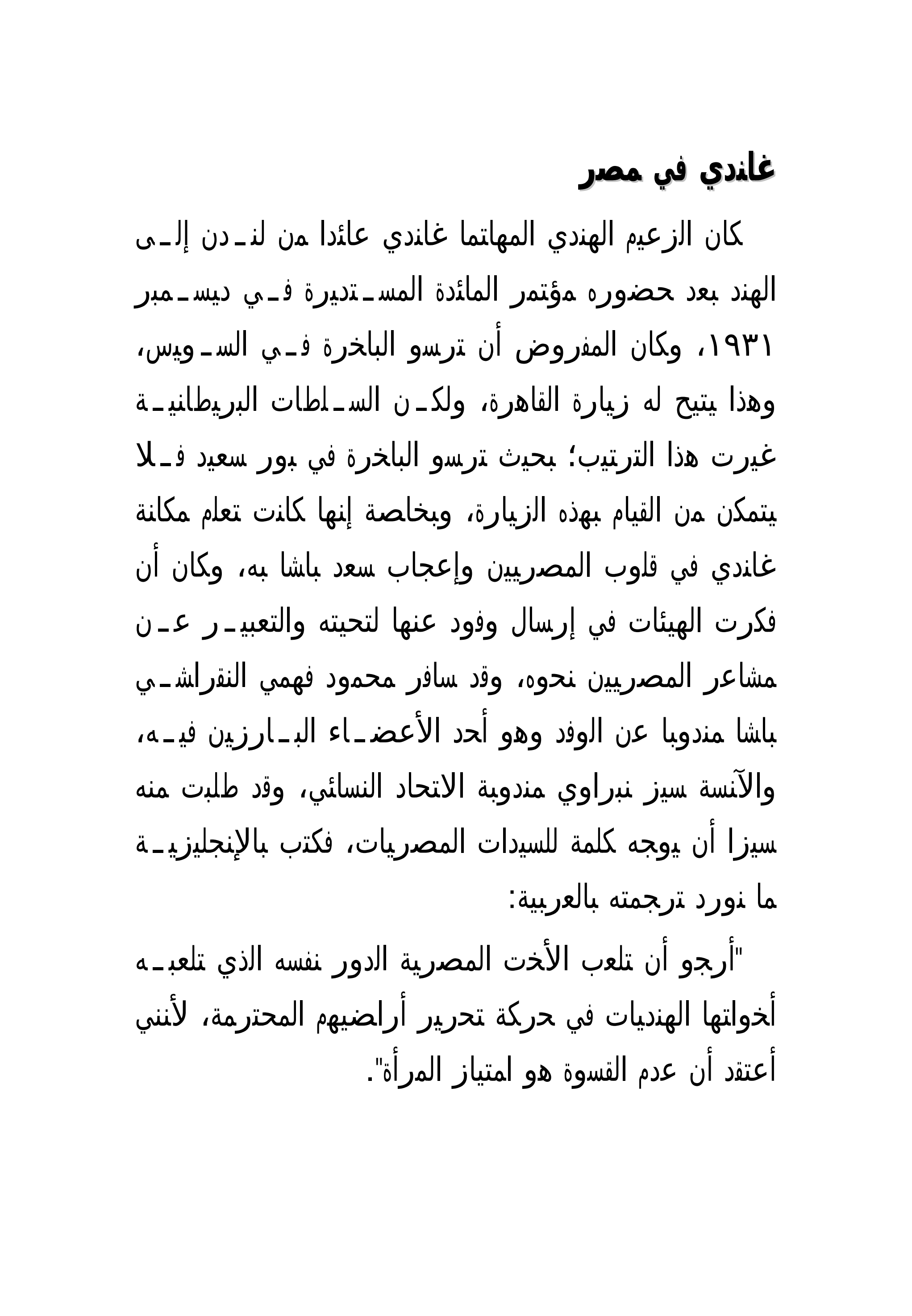
السيارات، ثم أفرجت عنها واحدة بعد الأخرى، على أن تسير كل سيارة في اتجاه مخالف.

رفقًا بالأطفال

وقد هالنا فيما بعد ما اتصل بنا من أخبار تعدي رجال البوليس على الأطفال الصغار الذين تجمعوا في شوارع القاهرة لمشاهدة مواكب السيدات، وأصدرنا احتجاجا باسم الإنسانية والقانون ضد هذه التصرفات التي لا مبرر لها إلا نشر الرهبة والفزع بين كل طبقات الأمة.

كذلك فقد احتجت الهيئات النسائية في مصر على هدم الدستور، واستمرار وزارة صدقي باشا في نشر سياسة الطغيان والإرهاب في البلاد، وأعلنا مقاطعة الانتخابات.

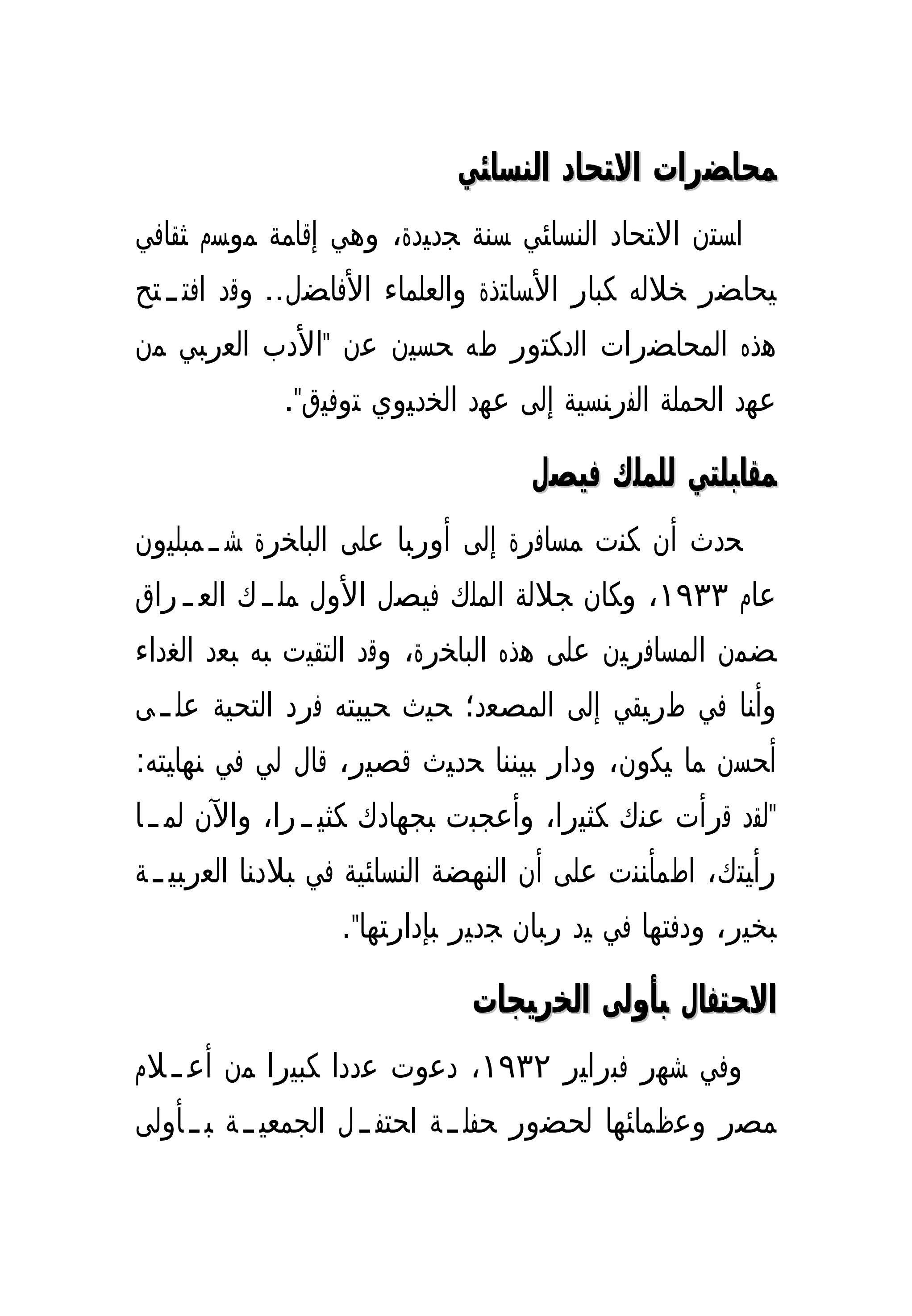
وقد امتدت المظاهرات إلى كل أنحاء البلاد، لدرجة إلقاء القبض على الأطفال في بني سويف، وتصدى البوليس لمظاهرة النساء في بور سعيد، ما أدى إلى جرح ثلاثين عسكريا.



غاندي في مصر

كان الزعيم الهندي المهاتما غاندي عائدا من لنـدن إلـى الهند بعد حضوره مؤتمر المائدة المسـتديرة فـي ديسـمبر ١٩٣١، وكان المفروض أن ترسو الباخرة فـي السـويس، وهذا يتيح له زيارة القاهرة، ولكـن السـلطات البريطانيـة غيرت هذا الترتيب؛ بحيث ترسو الباخرة في بور سعيد فـلا يتمكن من القيام بهذه الزيارة، وبخاصة إنها كانت تعلم مكانة غاندي في قلوب المصريين وإعجاب سعد باشا به، وكان أن فكرت الهيئات في إرسال وفود عنها لتحيته والتعبيـر عـن مشاعر المصريين نحوه، وقد سافر محمود فهمي النقراشـي باشا مندوبا عن الوفد وهو أحد الأعضـاء البـارزين فيـه، والآنسة سيز نبراوي مندوبة الاتحاد النسائي، وقد طلبت منه سيزا أن يوجه كلمة للسيدات المصريات، فكتب بالإنجليزيـة ما نورد ترجمته بالعربية:

"أرجو أن تلعب الأخت المصرية الدور نفسه الذي تلعبـه أخواتها الهنديات في حركة تحرير أراضيهم المحترمة، لأنني أعتقد أن عدم القسوة هو امتياز المرأة".



محاضرات الاتحاد النسائي

استن الاتحاد النسائي سنة جديدة، وهي إقامة موسم ثقافي يحاضر خلاله كبار الأساتذة والعلماء الأفاضل.. وقد افتـتح هذه المحاضرات الدكتور طه حسين عن "الأدب العربي من عهد الحملة الفرنسية إلى عهد الخديوي توفيق".

مقابلتي للملك فيصل

حدث أن كنت مسافرة إلى أوربا على الباخرة شـمبليون عام ١٩٣٣، وكان جلالة الملك فيصل الأول ملـك العـراق ضمن المسافرين على هذه الباخرة، وقد التقيت به بعد الغداء وأنا في طريقي إلى المصعد؛ حيث حييته فرد التحية علـى أحسن ما يكون، ودار بيننا حديث قصير، قال لي في نهايته: "لقد قرأت عنك كثيرا، وأعجبت بجهادك كثيـرا، والآن لمـا رأيتك، اطمأننت على أن النهضة النسائية في بلادنا العربيـة بخير، ودفتها في يد ربان جدير بإدارتها".

الاحتفال بأولى الخريجات

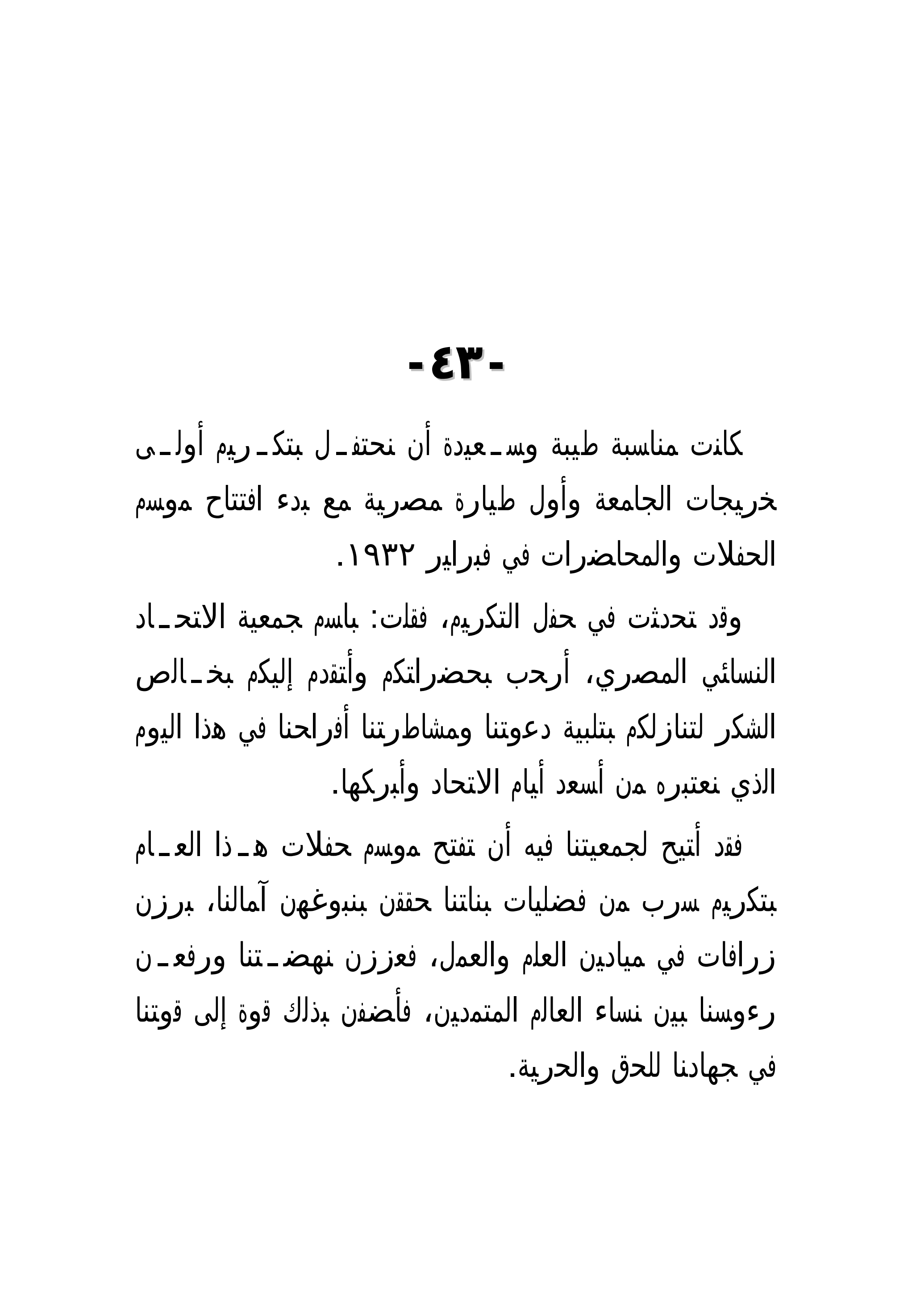
وفي شهر فبراير ١٩٣٢، دعوت عددا كبيرا من أعـلام مصر وعظمائها لحضور حفلـة احتفـل الجمعيـة بـأولى

خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية، وقد لبى الدعوة عدد كبير في مقدمتهم الأمير محمد باشا، والدكتور بهي الدين بركات باشا، وأحمد شفيق باشا، ومحمد علي علوبة باشا.

وقد تصدر المنصة الدكتور طه حسين والسيدة قرينته والآنسة الأستاذة نعيمة الأيوبي وخريجات كلية الآداب، الآنسة سهير القلماوي، والآنسة فاطمة فهمي خليل، والآنسة زهيرة عبد العزيز، والآنسة فاطمة سالم، وفي الصفوف الأخرى كان الدكتور سامي كمال وبجانبه الآنسة الدكتورة كوكب حفني ناصف، والأستاذ فؤاد أباظة وبجانبه الآنسة لطيفة النادي، ثم جمعية شقيقات الاتحاد النسائي تتوسطهن الآنسة حواء إدريس، والآنسة أمينة السعيد، والآنسة عظيمة السعيد، ثم الآنسة سيزا نبراوي، وبجانبهن الشاعر الكبير خليل مطران.

وفي كلمتي التي ألقيتها بهذه المناسبة، قلت: "يقولون في الأمثال السائرة (أول الغيث قطرة ثم ينهمر المطر) غير أن الغيث المصري إذ بدأ، انهمر انهمارا، والمصري أزلي في مدنيته، فإذا صادفه جو طيب جنح إلى أصله وتخطى دور الطفولة في نهضته".

وقد قام محمد علي علوبة باشـا بتقـديم الآنسـة نعيمـة الأيوبي، وقام الدكتور طه حسين بتقـديم خريجـات كليـة الآداب، وقام الدكتور سامي كمال – وهو أحد الأطباء الذين تطوعوا لخدمة الإنسانية في مستوصف الاتحاد منذ إنشائه – بتقديم الآنسة الدكتورة كوكب ناصف خريجة لندرة من بعثة مستشفى كتشنر.

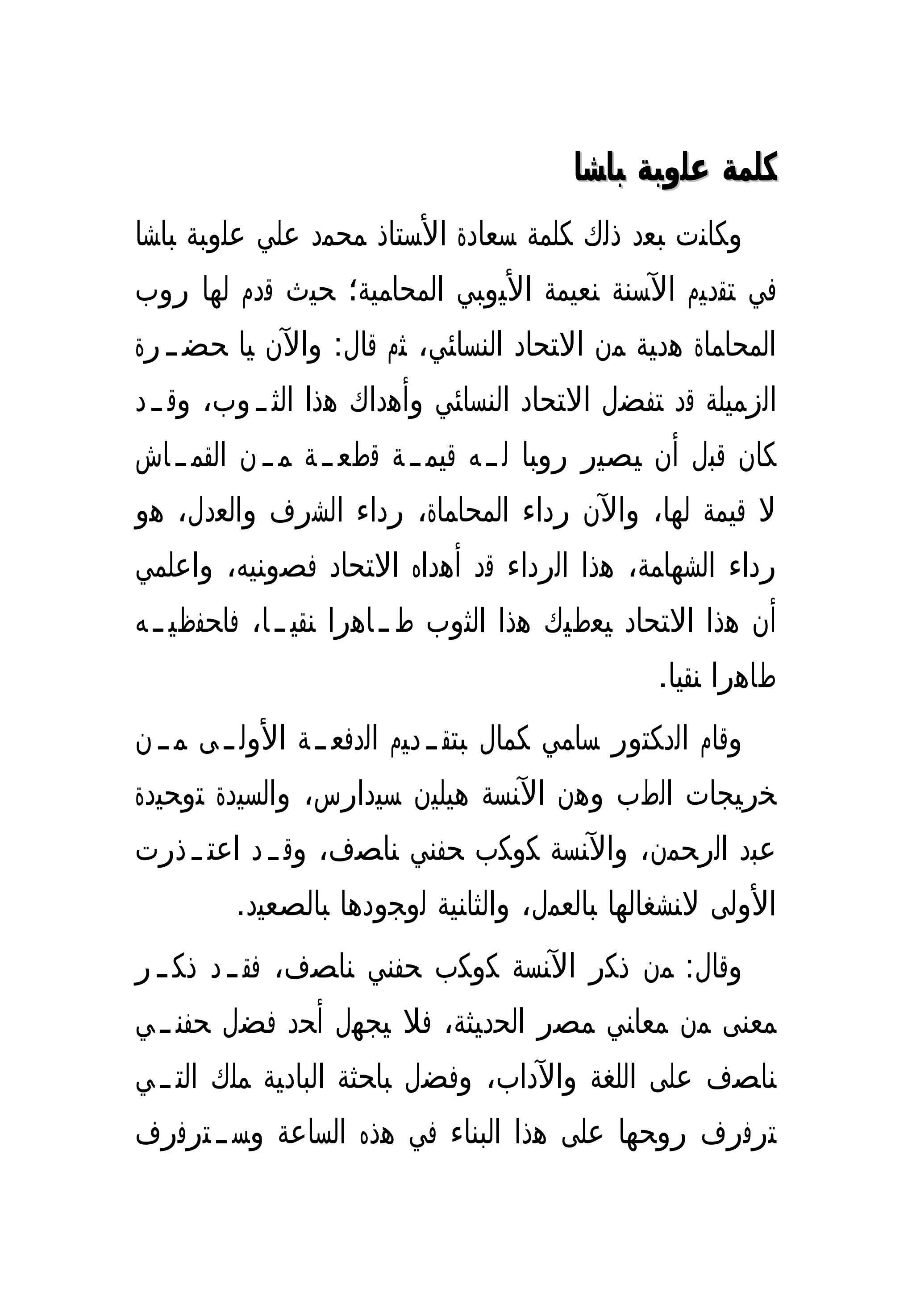


-٤٣-

كانت مناسبة طيبة وسـعيدة أن نحتفـل بتكـريم أولـى خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية مع بدء افتتاح موسم الحفلات والمحاضرات في فبراير ١٩٣٢.

وقد تحدثت في حفل التكريم، فقلت: باسم جمعية الاتحـاد النسائي المصري، أرحب بحضراتكم وأتقدم إليكم بخـالص الشكر لتنازلكم بتلبية دعوتنا ومشاطرتنا أفراحنا في هذا اليوم الذي نعتبره من أسعد أيام الاتحاد وأبركها.

فقد أتيح لجمعيتنا فيه أن تفتح موسم حفلات هـذا العـام بتكريم سرب من فضليات بناتنا حققن بنبوغهن آمالنا، برزن زرافات في ميادين العلم والعمل، فعززن نهضـتنا ورفعـن رءوسنا بين نساء العالم المتمدين، فأضفن بذلك قوة إلى قوتنا في جهادنا للحق والحرية.



كلمة علوبة باشا

وكانت بعد ذلك كلمة سعادة الأستاذ محمد علي علوبة باشا في تقديم الآنسة نعيمة الأيوبي المحامية؛ حيث قدم لها روب المحاماة هدية من الاتحاد النسائي، ثم قال: والآن يا حضرة الزميلة قد تفضل الاتحاد النسائي وأهداك هذا الثوب، وقد كان قبل أن يصير روبا له قيمة قطعة من القماش لا قيمة لها، والآن رداء المحاماة، رداء الشرف والعدل، هو رداء الشهامة، هذا الرداء قد أهداه الاتحاد فصونيه، واعلمي أن هذا الاتحاد يعطيك هذا الثوب طاهرا نقيا، فاحفظيه طاهرا نقيا.

وقام الدكتور سامي كمال بتقديم الدفعة الأولى من خريجات الطب وهن الآنسة هيلين سيدارس، والسيدة توحيدة عبد الرحمن، والآنسة كوكب حفني ناصف، وقد اعتذرت الأولى لانشغالها بالعمل، والثانية لوجودها بالصعيد.

وقال: من ذكر الآنسة كوكب حفني ناصف، فقد ذكر معنى من معاني مصر الحديثة، فلا يجهل أحد فضل حفني ناصف على اللغة والآداب، وفضل باحثة البادية ملك التي ترفرف روحها على هذا البناء في هذه الساعة وسترفرف

بجناحيها على هذا الوادي كلما فكرت المرأة فـي النهـوض والرقي.

د. طه حسين والمؤامرة

وقدم الدكتور طه حسين تلميذاته خريجات كليـة الآداب: سهير القلماوي وفاطمة فهمي خليل وزهيرة عبـد العزيـز وفاطمة سالم، وقال في كلمته: أظن أن موقفي الآن، ولسـت من الرجال الرسميين، يسمح لي بأن أكشف لحضراتكم عـن مؤامرة خطيرة جدا حدثت منذ أعوام وكان قوامها جماعـة من الجامعيين، فقد ائتمر الجامعيون وقرروا فيما بيـنهم أن يخدعوا الحكومة وأن يختلسوا منها حقًا اختلاسا لا ينبئونهـا به ولا يشاورونها فيه، وهو الإذن للفتيات بالتعليم العالي في الجامعة المصرية. وأؤكد لكم أيها السـادة أنـه لـولا هـذه المؤامرة التي اشترك فيها الجامعيون وبنوع خـاص أحمـد لطفي السيد باشا وعلي إبراهيم باشا وهذا الذي يتحدث إليكم، لولا هذه المؤامرة التي دبرناها سـرا فـي غرفـة محكمـة الإغلاق لما أتيح لنا ولا للاتحاد النسائي أن أقدم إلـيكم الآن محامية مصرية وأديبات مصريات؛ اتفق هؤلاء الثلاثة فيمـا بينهم أن يضعوا وزارة المعارف أمام الأمر الواقـع، وكـان

القانون الأساسي في الجامعة يبيح دخول المصريين، وهـو وإن كان لفظًا مذكرا ينطبق على المصريين والمصـريات. وعلى ذلك ائتمرنا على أن تقبل الفتيـات إذا تقـدمن إلـى الجامعة، وفعلاً تقدم هؤلاء الفتيات فقبلناهن ولم نحدث أحـدا بذلك، حتى إذا تم الأمر وأصبح لهـن حـق مكتسـب فـي الجامعة، علمت الوزارة أن الفتيات دخلن الجامعة!

كلمة فؤاد أباظة

ثم وقف فؤاد باشا أباظة، فقدم الآنسة لطفية النـادي أول طيارة مصرية، وأشاد بجرأتها وشجاعتها، وعرج على مـا ينتظر الطيران في مصر من مستقبل، ثم قدم للآنسة باقة من الزهور باسم الجمعية.

شقيقات الاتحاد النسائي

لم يكن الدور الذي قام به الاتحاد النسائي المصري مؤثرا في مستقبل الفتاة المصرية التعليمي فقط، بل إنه امتد أيضـا إلى دورها الاجتماعي، ولذلك فقد سعت سعادة عظيمة بتلـك الرسالة التي وصلتني من إحدى الفتيات النابهات وهي الآنسة أمينة السعيد؛ حيث رأيت فيها ثمرة لمبادئ الاتحاد واستجابة

من بنات مصر المثقفات لداعي الوطن، ورغبة مـنهن فـي خدمة البلاد.

وما أن وصلني خطابها حتى عرضته على جمعيتنا التـي وافقت بمنتهى السرور والتقدير على تحقيق رغبتهن، وشكلت جمعية الشقيقات منها ومن الآنسات المثقفات، وقـد أسـهمن بقسط وافر في خدمة الاتحاد منذ شكلت لجنتهن، وانضـممن إلى صفوف الاتحاد فيما بعد، وكانت لهن أدوار هامـة فـي خدمة الوطن.

وهذا هو نص الخطاب الذي بعثت به الآنسة أمينة السعيد في ٢٧ نوفمبر ١٩٣٢:

"حضرة السيدة الجليلة رئيسة الاتحاد النسائي المصري..

أهدي عصمتك تحية الإجلال والاحترام..

في يوم الجمعة ١٨ نوفمبر اجتمع فريـق مـن الفتيـات المصريات، وبعد تشاورهن قررن تأسـيس جمعيـة مـنهن سمينها شقيقات النهضة النسائية، ولما كان الغرض الأكبـر من ذلك هو إيجاد هيئة تتقدم بمجهوداتهـا إلـى عصـمتك كرئيسة للاتحاد النسائي لترفع عنك عبء العمل ولو قلـيلاً، وتضع مجهوداتها وإن كانت ضئيلة بين يديك ورهن إشارتك

في تنفيذ مشروعاتك النسائية، فلا شك في أن عملنا هذا ما هو إلا تلبية لداعي الوطن واعترافًا بخدماتك الجليلة التي بذلت في سبيلها النفس والنفيس، ولم تألي جهدا في سبيل رفع شأن مواطناتك المعترفات بجميلك العظيم، فضربت لنا خاصة ولأمتك عامة المثل الأعلى في الوطنية المنزهة، وجدت بشخصيتك البارزة لقيادة بنات وطنك قيادة يعجز عنها عظماء الرجال، فكنت عزاء لمصر التي هي في حاجة قصوى لأمثالك ومثيلاتك.

ولسنا نريد تكوين هيئة جديدة، بل كل غايتنا أن نمدك بجماعة يملؤها نشاط الشباب وحماسه، ينفذن ما تأمرين ويعملن ما تشائين، فإن قبلت ما نقدمه لك من مجهود، فقد أنلتنا شرف العمل تحت قيادتك وأدخلت علينا غبطة واطمئنانًا على شخصك الجليل الذي نشعر أنه مرهق بكثرة العمل والإجهاد.

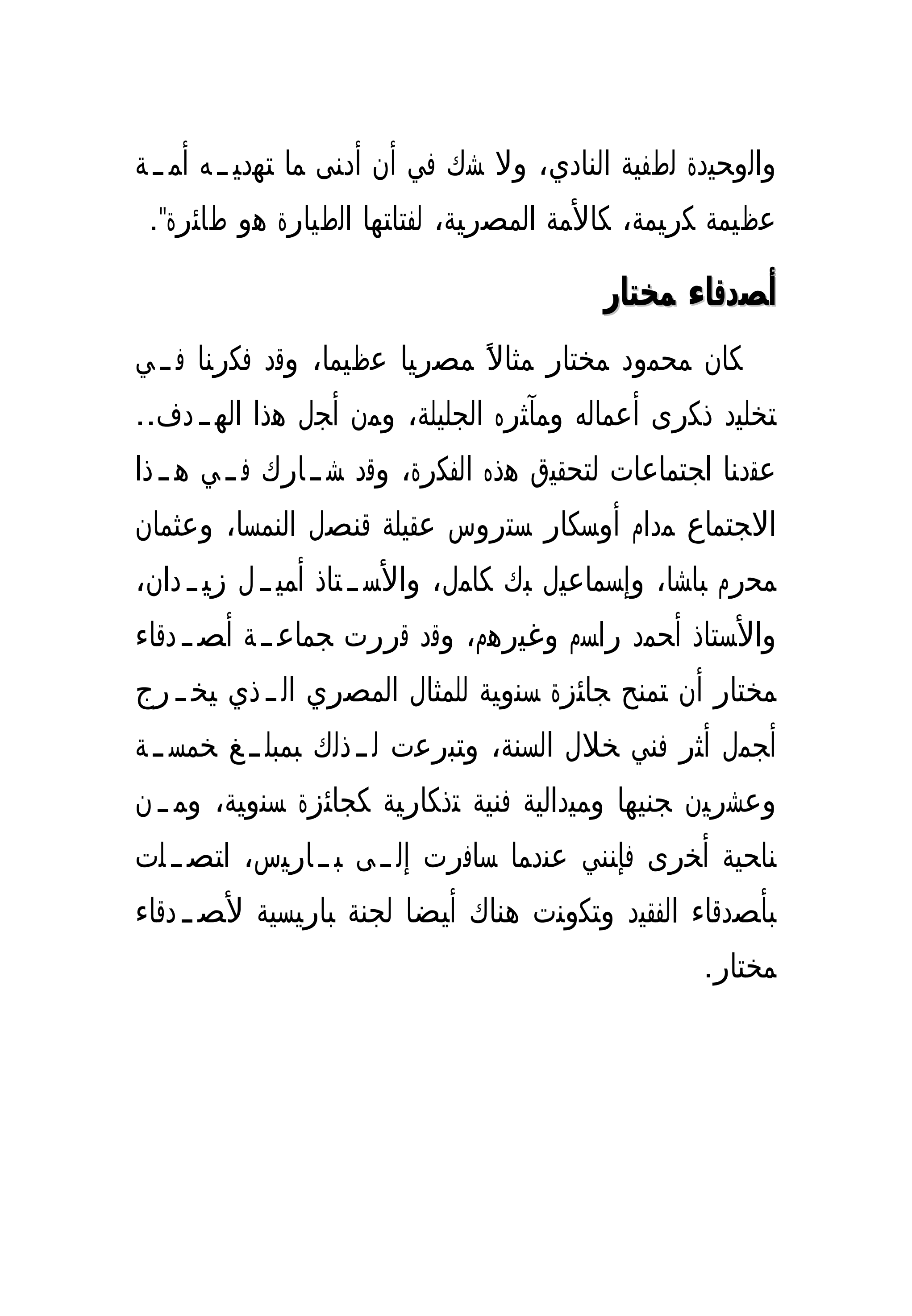
وقبل أن أختم خطابي هذا، أدعو ا أن يمن على شخص العزيز بدوام التوفيق وأن يكلل حسن مسعاك بالنجاح، ومـا زلت أيتها الزعيمة الجليلة مرشدة لأمتك ونصـيرة لبنـات جنسك والسلام".

عن شقيقات الاتحاد النسائي

أمينة السعيد (سكرتيرة)

الاكتتاب لشراء الطائرات

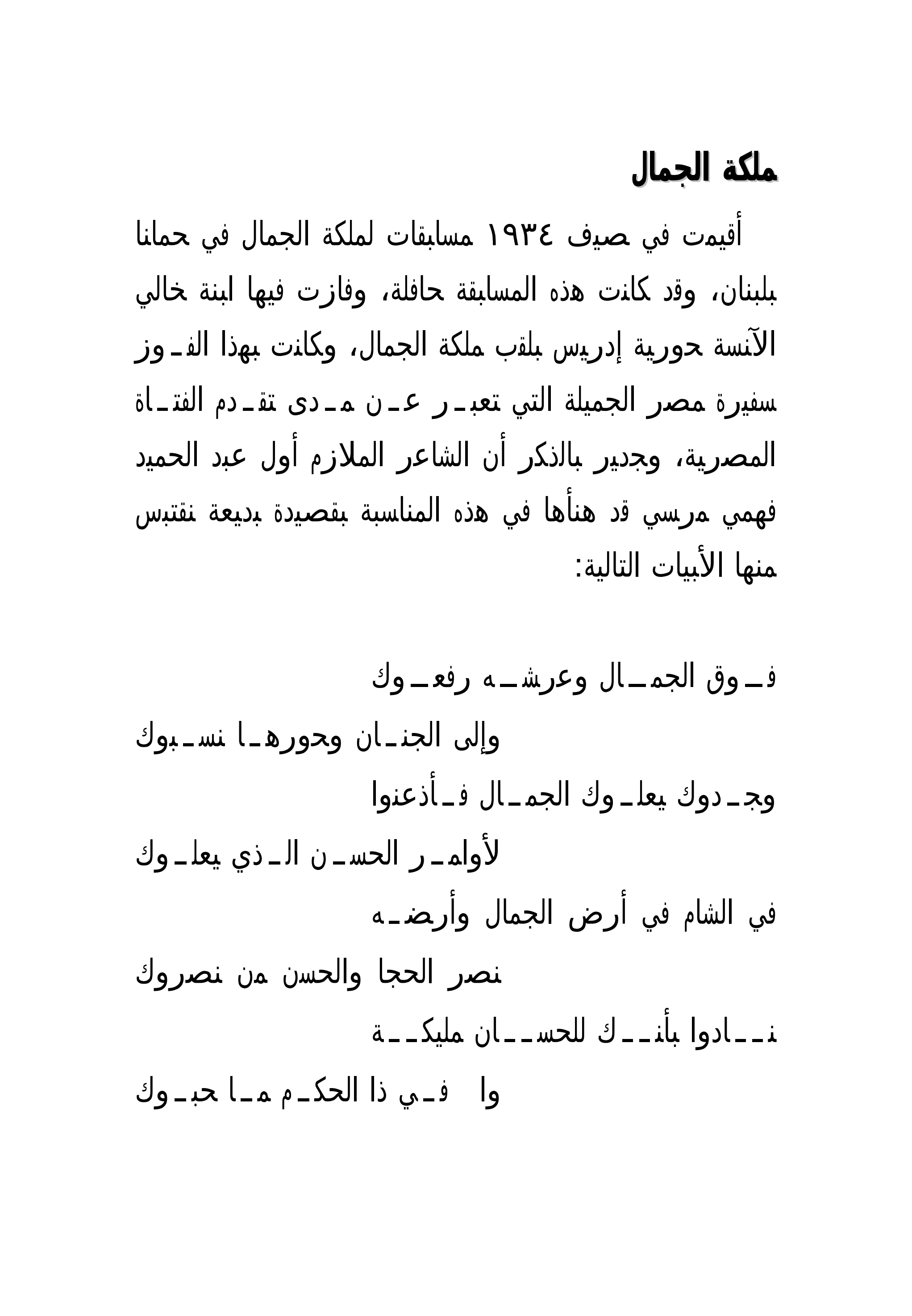
كانت "الآنسة لطفية" النادي موظفـة فـي المطـار، ثـم استطاعت أن تتفوق، وتصبح أول طيارة مصرية، ولذلك فقد دعوت المواطنين المصريين إلى الاكتتاب لشراء طائرة للفتاة المصرية الباسلة والطيارة الأولى "لطفية النادي" وقد اهتمت جريدة الأهرام بهذه الدعوة فكتبت في ٣٠ ديسـمبر ١٩٣٣ تقول: "لقد كان نجاح الطيران مقرونًا بالاكتتابـات الأهليـة، كان ذلك في فرنسا فيما قبل الحرب، وفي تركيا، وفي إيران الجديدة، وفي تركيا الفتاة، وقد اقتصدت معلمات اليابان جزءا من مرتباتهن لشراء طائرتين.. والمصـريون والمصـريات مطالبون جمعيا بالاكتتاب لشراء طائرة لطيـارتهم الأولـى



والوحيدة لطفية النادي، ولا شك في أن أدنى ما تهديه أمة عظيمة كريمة، كالأمة المصرية، لفتاتها الطيارة هو طائرة".

أصدقاء مختار

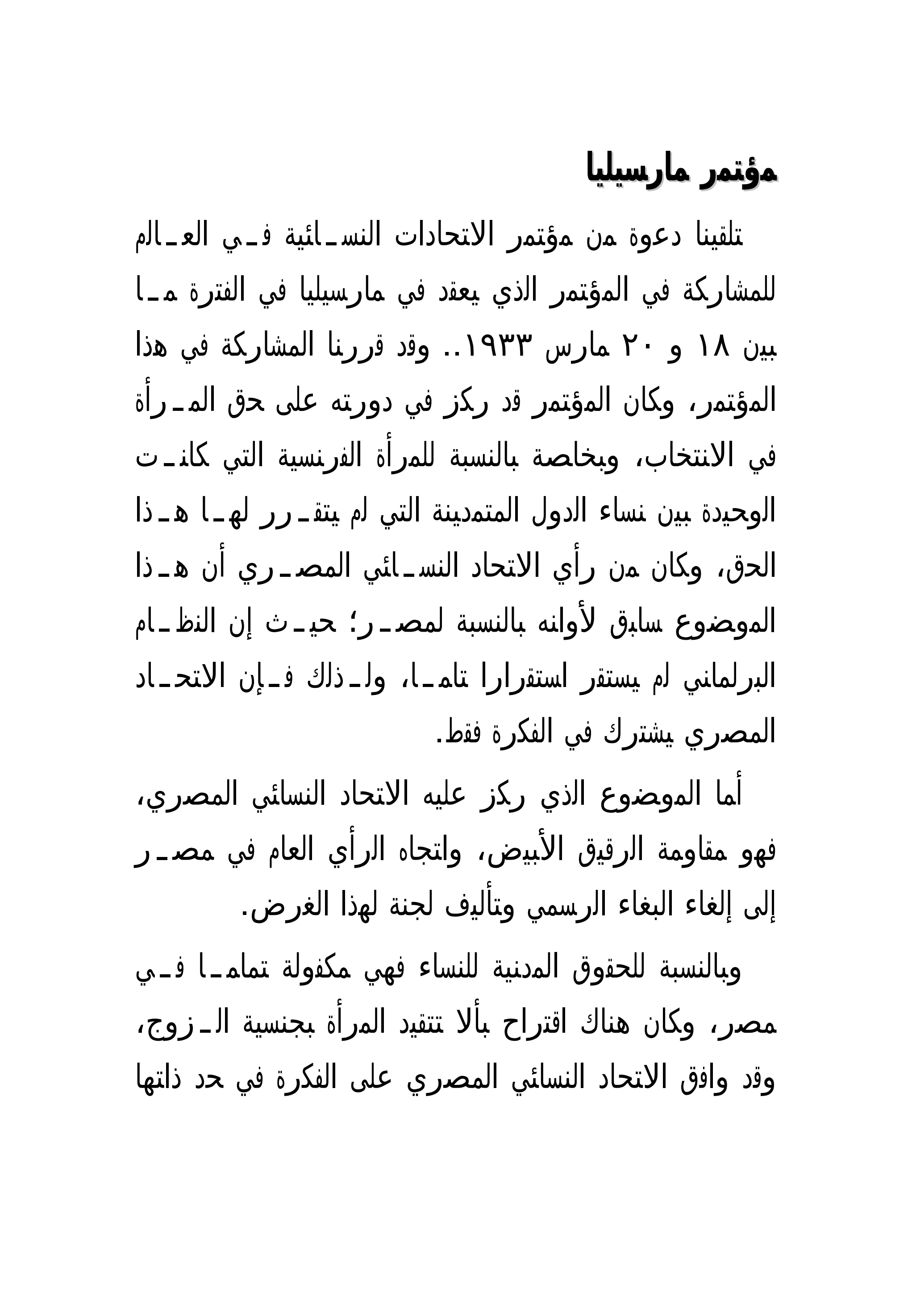
كان محمود مختار مثالاً مصريا عظيما، وقد فكرنا في تخليد ذكرى أعماله ومآثره الجليلة، ومن أجل هذا الهدف.. عقدنا اجتماعات لتحقيق هذه الفكرة، وقد شارك في هذا الاجتماع مدام أوسكار ستروس عقيلة قنصل النمسا، وعثمان محرم باشا، وإسماعيل بك كامل، والأستاذ أميل زيدان، والأستاذ أحمد راسم وغيرهم، وقد قررت جماعة أصدقاء مختار أن تمنح جائزة سنوية للمثال المصري الذي يخرج أجمل أثر فني خلال السنة، وتبرعت لذلك بمبلغ خمسة وعشرين جنيها وميدالية فنية تذكارية كجائزة سنوية، ومن ناحية أخرى فإنني عندما سافرت إلى باريس، اتصلت بأصدقاء الفقيد وتكونت هناك أيضا لجنة باريسية لأصدقاء مختار.



ملكة الجمال

أقيمت في صيف ١٩٣٤ مسابقات لملكة الجمال في حمانا بلبنان، وقد كانت هذه المسابقة حافلة، وفازت فيها ابنة خالي الآنسة حورية إدريس بلقب ملكة الجمال، وكانت بهذا الفـوز سفيرة مصر الجميلة التي تعبـر عـن مـدى تقـدم الفتـاة المصرية، وجدير بالذكر أن الشاعر الملازم أول عبد الحميد فهمي مرسي قد هنأها في هذه المناسبة بقصيدة بديعة نقتبس منها الأبيات التالية:

فــوق الجمــال وعرشــه رفعــوك
وإلى الجنـان وحورهـا نسـبوك
وجـدوك يعلـوك الجمـال فـأذعنوا
لأوامـر الحسـن الـذي يعلـوك
في الشام في أرض الجمال وأرضـه
نصر الحجا والحسن من نصروك
نـــادوا بأنـــك للحســان مليكـــة
وا فـي ذا الحكـم مـا حبـوك



مؤتمر مارسيليا

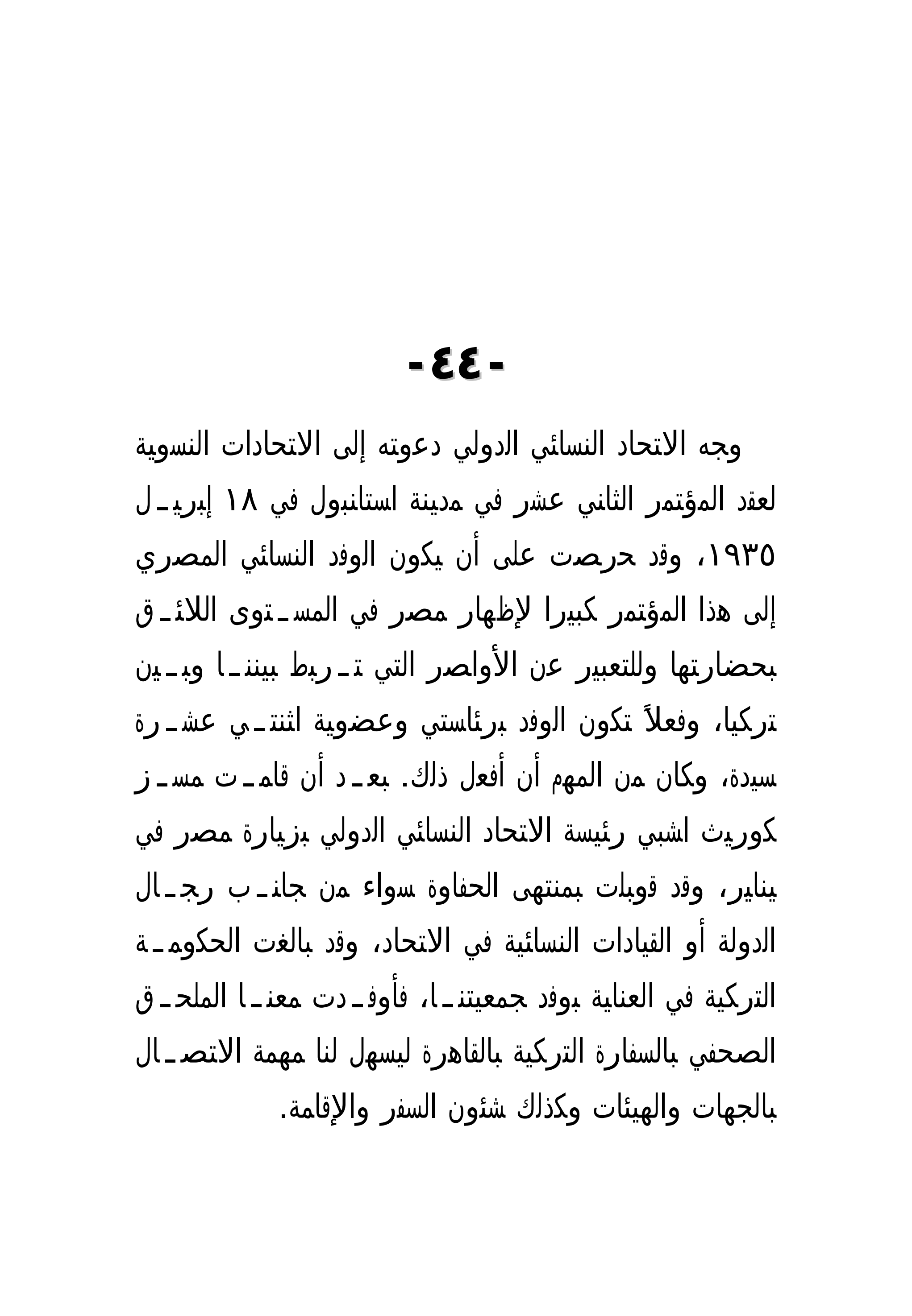
تلقينا دعوة من مؤتمر الاتحادات النسائية في العالم للمشاركة في المؤتمر الذي يعقد في مارسيليا في الفترة ما بين ١٨ و ٢٠ مارس ١٩٣٣.. وقد قررنا المشاركة في هذا المؤتمر، وكان المؤتمر قد ركز في دورته على حق المرأة في الانتخاب، وبخاصة بالنسبة للمرأة الفرنسية التي كانت الوحيدة بين نساء الدول المتمدينة التي لم يتقرر لها هذا الحق، وكان من رأي الاتحاد النسائي المصري أن هذا الموضوع سابق لأوانه بالنسبة لمصر؛ حيث إن النظام البرلماني لم يستقر استقرارا تاما، ولذلك فإن الاتحاد المصري يشترك في الفكرة فقط.

أما الموضوع الذي ركز عليه الاتحاد النسائي المصري، فهو مقاومة الرقيق الأبيض، واتجاه الرأي العام في مصر إلى إلغاء البغاء الرسمي وتأليف لجنة لهذا الغرض.

وبالنسبة للحقوق المدنية للنساء فهي مكفولة تماما في مصر، وكان هناك اقتراح بألا تتقيد المرأة بجنسية الزوج، وقد وافق الاتحاد النسائي المصري على الفكرة في حد ذاتها

مع عدم الاشتراك في تنفيذها ما دامت الامتيازات الأجنبيـة قائمة في مصر.

وجدير بالذكر أن هذا المؤتمر قد جاء في الوقت الذي كان فيه الاتحاد النسائي المصري قد تأسس منذ عشـر سـنوات، ولذلك فقد كان المؤتمر مناسبة طيبة لعرض إنجازاتنا طوال هذه السنوات العشر.



-٤٤-

وجه الاتحاد النسائي الدولي دعوته إلى الاتحادات النسوية لعقد المؤتمر الثاني عشر في مدينة استانبول في ١٨ إبريـل ١٩٣٥، وقد حرصت على أن يكون الوفد النسائي المصري إلى هذا المؤتمر كبيرا لإظهار مصر في المسـتوى اللائـق بحضارتها وللتعبير عن الأواصر التي تـربط بيننـا وبـين تركيا، وفعلاً تكون الوفد برئاستي وعضوية اثنتـي عشـرة سيدة، وكان من المهم أن أفعل ذلك. بعـد أن قامـت مسـز كوريث اشبي رئيسة الاتحاد النسائي الدولي بزيارة مصر في يناير، وقد قوبلت بمنتهى الحفاوة سواء من جانـب رجـال الدولة أو القيادات النسائية في الاتحاد، وقد بالغت الحكومـة التركية في العناية بوفد جمعيتنـا، فأوفـدت معنـا الملحـق الصحفي بالسفارة التركية بالقاهرة ليسهل لنا مهمة الاتصـال بالجهات والهيئات وكذلك شئون السفر والإقامة.

وقد أبحرنا على الباخرة التركيـة "أزميـر" مـن مينـاء الإسكندرية، وكان معنا الوفد الهندي، ووصلنا إلى أزمير بعد ثلاثة أيام؛ حيث كان الوالي في استقبالنا نيابة عن الحكومة، كما استقبلنا استقبالاً حافلاً من الهيئات الرسمية ومن الشـعب التركي، كذلك فقد وصلتني كثير من رسائل التشجيع والتأييد من مواطنينا ومواطناتنا الأعزاء، ومن بينها برقية من صفية هانم زغلول تتمنى فيها النجاح والتوفيق لأعمالنا.

وفي منتصف إبريل، كان قد اجتمع وفود أربعين دولـة، وكذلك مندوبو الصحف من جميع أنحاء العالم، وقـد نشـط الوفد المصري؛ حيث قام بمجهود مشكور في سبيل الدعايـة لمصر ونهضة المـرأة المصـرية سـواء فـي المحافـل أو الأحاديث والمقابلات الصحفية ما كان له أثر فعـال فـي توجيه الاهتمام بنوع خاص إلـى مصـر وممثلاتهـا فـي المؤتمر.

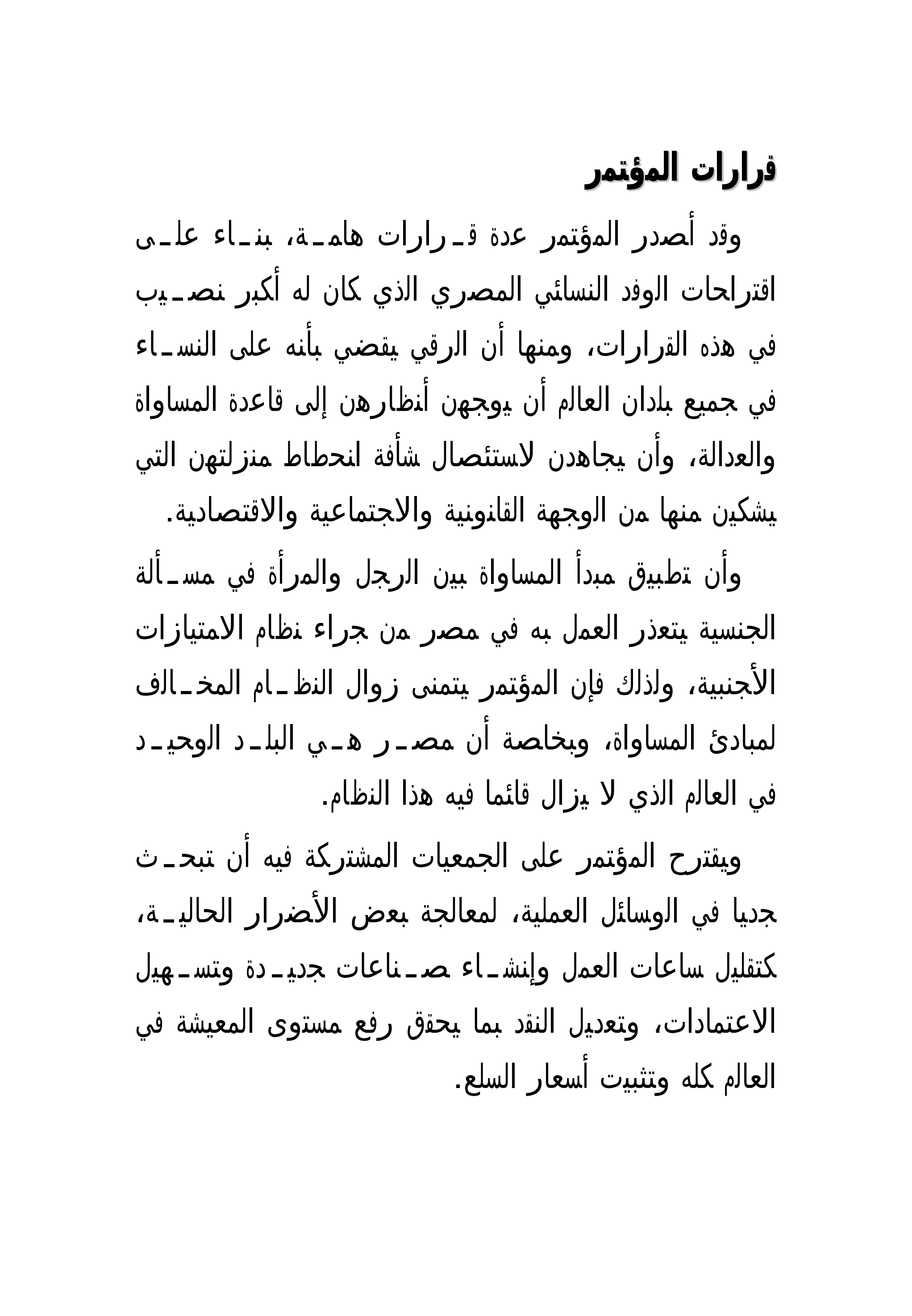
وفي ١٨ إبريل، افتتح المؤتمر رسميا؛ حيـث اجتمعـت مندوبات أربعين دولة يمثلن مائتي مليون من نساء العالم في سراي يلدز. ومن الغريب أن هذه السراي كانت في سـالف

الزمن تؤوي نساء السلطان عبد الحميد، ثم دار الزمن دورته لتملي النساء على العالم رغباتهن من سراي يلدز نفسها!

رسالة السلام

وقد افتتحت المؤتمر مسز كوريث اشبي رئيسة الاتحـاد النسائي الدولي؛ حيث ألقت خطابا مؤثرا وبليغًا، دعت فيـه الجميع إلى التعاون لتحرير المرأة ونشر السلام العـام بـين الأمم.

وتكلمت عن الوفد النسائي المصري، ولكننا قبل أن ألقـي كلمتي بالفرنسية، ألقيت كلمة باللغة التركيـة شـكرت فيهـا السلطات التركية والاتحاد النسائي التركـي علـى الحفـاوة البالغة التي يلاقيها أعضاء المؤتمر، ثم ألقيت خطبتـي عـن ضرورة تعاون الشرق والغرب ومقاومة الحروب التي تعدد العالم، وتحدثت عن انضمام الأمم الشـرقية إلـى الاتحـاد النسائي الدولي رغبة في التعاون مع الغرب لنشـر السـلام العام بين الأمم جميعا، على أن يكون هذا السلام مبنيا علـى أسس العدل واحترام حقوق الشعوب وإزالة الفوارق الجنسية والدينية وغير ذلك من المسائل الجوهرية.

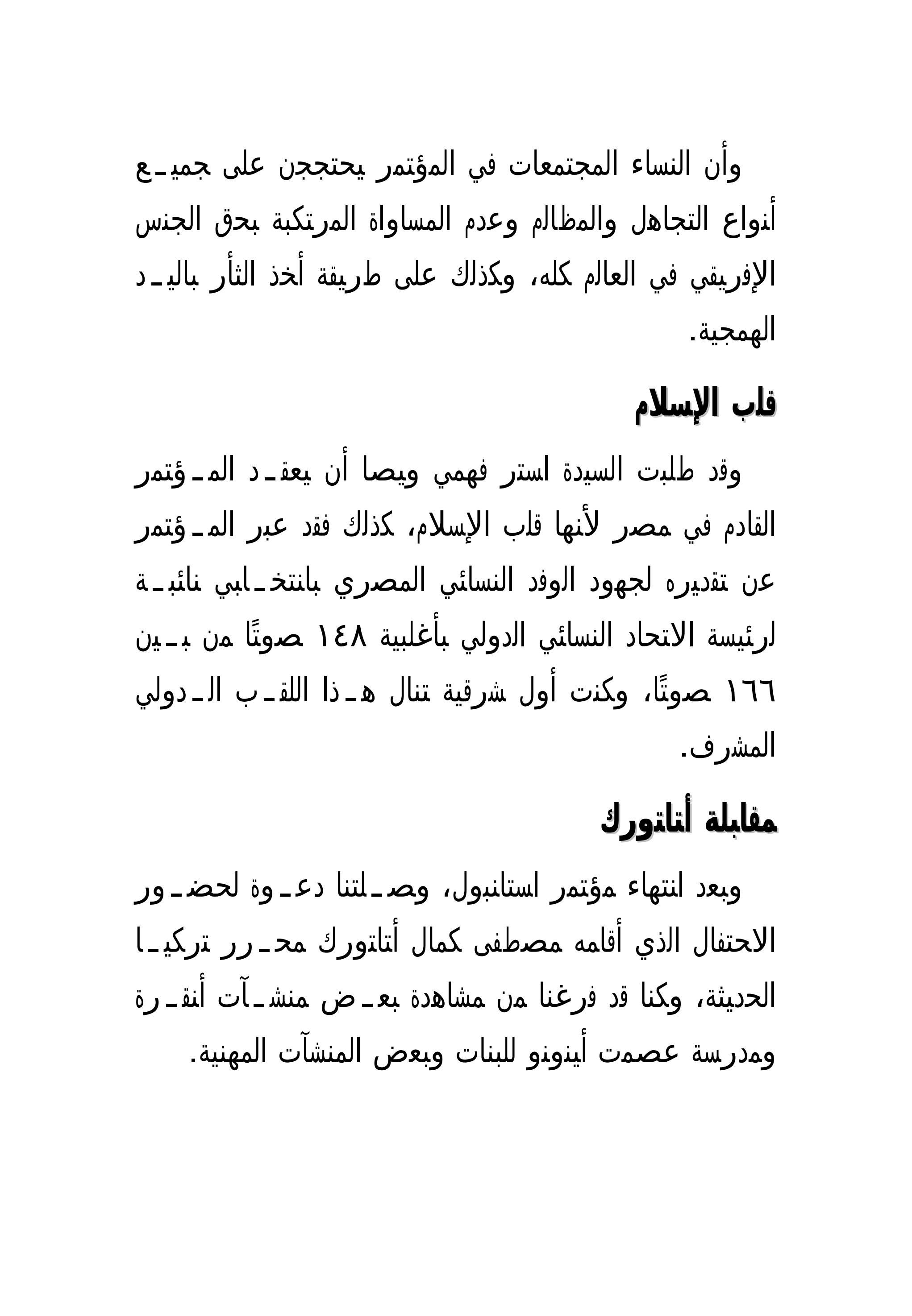


قرارات المؤتمر

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات هامة، بناء على اقتراحات الوفد النسائي المصري الذي كان له أكبر نصيب في هذه القرارات، ومنها أن الرقي يقضي بأنه على النساء في جميع بلدان العالم أن يوجهن أنظارهن إلى قاعدة المساواة والعدالة، وأن يجاهدن لاستئصال شأفة انحطاط منزلتهن التي يشكين منها من الوجهة القانونية والاجتماعية والاقتصادية.

وأن تطبيق مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في مسألة الجنسية يتعذر العمل به في مصر من جراء نظام الامتيازات الأجنبية، ولذلك فإن المؤتمر يتمنى زوال النظام المخالف لمبادئ المساواة، وبخاصة أن مصر هي البلد الوحيد في العالم الذي لا يزال قائما فيه هذا النظام.

ويقترح المؤتمر على الجمعيات المشتركة فيه أن تبحث جديا في الوسائل العملية، لمعالجة بعض الأضرار الحالية، كتقليل ساعات العمل وإنشاء صناعات جديدة وتسهيل الاعتمادات، وتعديل النقد بما يحقق رفع مستوى المعيشة في العالم كله وتثبيت أسعار السلع.



وأن النساء المجتمعات في المؤتمر يحتججن على جميع أنواع التجاهل والمظالم وعدم المساواة المرتكبة بحق الجنس الإفريقي في العالم كله، وكذلك على طريقة أخذ الثأر باليد الهمجية.

قلب الإسلام

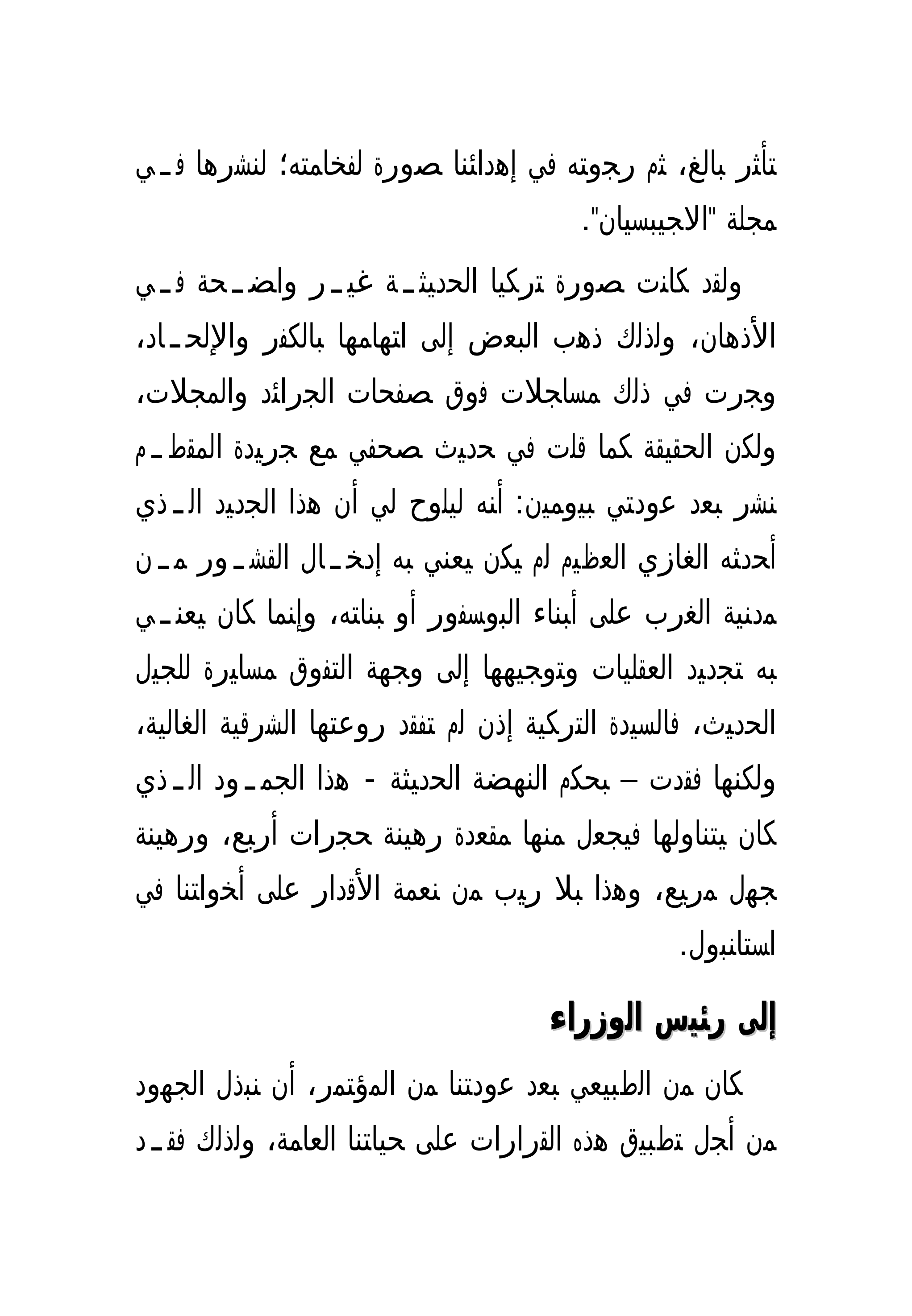
وقد طلبت السيدة استر فهمي ويصا أن يعقد المؤتمر القادم في مصر لأنها قلب الإسلام، كذلك فقد عبر المؤتمر عن تقديره لجهود الوفد النسائي المصري بانتخابي نائبة لرئيسة الاتحاد النسائي الدولي بأغلبية ١٤٨ صوتًا من بين ١٦٦ صوتًا، وكنت أول شرقية تنال هذا اللقب الدولي المشرف.

مقابلة أتاتورك

وبعد انتهاء مؤتمر استانبول، وصلتنا دعوة لحضور الاحتفال الذي أقامه مصطفى كمال أتاتورك محرر تركيا الحديثة، وكنا قد فرغنا من مشاهدة بعض منشآت أنقرة ومدرسة عصمت أينونو للبنات وبعض المنشآت المهنية.

وفي الصالون المجاور لمكتبه وقفت المندوبات المدعوات على شكل نصف دائرة، وبعد لحظات قليلة فتح الباب، ودخل أتاتورك تحيطه هالة من الجلال والعظمة. وسادنا شعور الهيبة والإجلال؛ لدرجة أن مسز كوريث اشبي رئيسة الاتحاد النسائي الدولي كان يبدو عليها الوجل والتأثر، وهي تلقي كلمتها نيابة عن أعضاء المؤتمر.

ورد أتاتورك بالتركية، فشكر لها وللسيدات وحيا جهودهن في خدمة بلادهن، بدئ في تقديم رئيسة وفد كل دولة، وعندما جاء دوري تحدثت إليه مباشرة من غير ترجمان، وكان المنظر فريدا أن تقف سيدة شرقية مسلمة وكيلة عن الهيئة النسائية الدولية، وتلقي كلمة باللغة التركية تعبر فيها عن شكر وإعجاب سيدات مصر بحركة التحرير التي قادها في تركيا، وقلت إن هذا المثل الأعلى من تركيا الشقيقة الكبرى للبلاد الإسلامية شجع كل بلاد الشرق على محاولة التحرر والمطالبة بحقوق المرأة، وقلت إذا كان الأتراك قد اعتبروك (أتاتورك) فأنا أقول إن هذا لا يكفي، بل أنت بالنسبة لنا "أنا الشرق" فتأثر كثيرا بهذا الكلام الذي انفردت به، ولم يصدر معناه عن أي رئيسة وفد، وشكرني كثيرا في



تأثر بالغ، ثم رجوته في إهدائنا صورة لفخامته؛ لنشرها فـي مجلة "الاجيبسيان".

ولقد كانت صورة تركيا الحديثـة غيـر واضـحة فـي الأذهان، ولذلك ذهب البعض إلى اتهامها بالكفر والإلحـاد، وجرت في ذلك مساجلات فوق صفحات الجرائد والمجلات، ولكن الحقيقة كما قلت في حديث صحفي مع جريدة المقطـم نشر بعد عودتي بيومين: أنه ليلوح لي أن هذا الجديد الـذي أحدثه الغازي العظيم لم يكن يعني به إدخـال القشـور مـن مدنية الغرب على أبناء البوسفور أو بناته، وإنما كان يعنـي به تجديد العقليات وتوجيهها إلى وجهة التفوق مسايرة للجيل الحديث، فالسيدة التركية إذن لم تفقد روعتها الشرقية الغالية، ولكنها فقدت – بحكم النهضة الحديثة - هذا الجمـود الـذي كان يتناولها فيجعل منها مقعدة رهينة حجرات أربع، ورهينة جهل مريع، وهذا بلا ريب من نعمة الأقدار على أخواتنا في استانبول.

إلى رئيس الوزراء

كان من الطبيعي بعد عودتنا من المؤتمر، أن نبذل الجهود من أجل تطبيق هذه القرارات على حياتنا العامة، ولذلك فقـد

أرسلت باعتباري رئيسة للاتحاد خطابا إلـى دولـة رئـيس الوزراء، ألفت فيه نظر دولته إلى ما جاء في هذه القـرارات خاصا بمساواة الجنسين من الوجهة الأخلاقية وبمنـع تعـدد الزوجات وبحقوق المرأة السياسية.

وقلت في هذا الخطاب أنه فيما يتعلق بـالقرار الخـاص بالناحية الأخلاقية، فقد علمنا أن الحكومة مهتمة بتنفيذ التقرير الذي قدمته اللجنة الخاصة ببحث مسالة إلغاء البغاء الرسمي في البلاد، وبقاء تعدد الزوجات، فضلاً عن كونه يسيء إلى سمعتنا الأدبية أمام العالم المتمدين، فإن له تأثيره المؤلم فـي الحياة العائلية والاجتماعية، وهو في الحقيقـة يخـالف روح الشريعة التي لم تسمح به إلا تحت شروط يستحيل تحقيقها.

وفيما يختص بحقوق المرأة، فقد سجل المـؤتمر عقيدتـه الراسخة في أنه لا يتحقق أي نظام حكومي بصفة دائمة ما لم يراع فيه هناءة المرأة والطفل، وما لم يعمل على الاسـتفادة من مواهب المرأة.

منشور إلى نواب الأمة

كذلك فقد وجهنا منشورا إلى نواب الأمة تحت هذا الشعار "أنصفوا المرأة تسعد الأمة"، وطالبنا فيـه بتحقيـق مطالـب

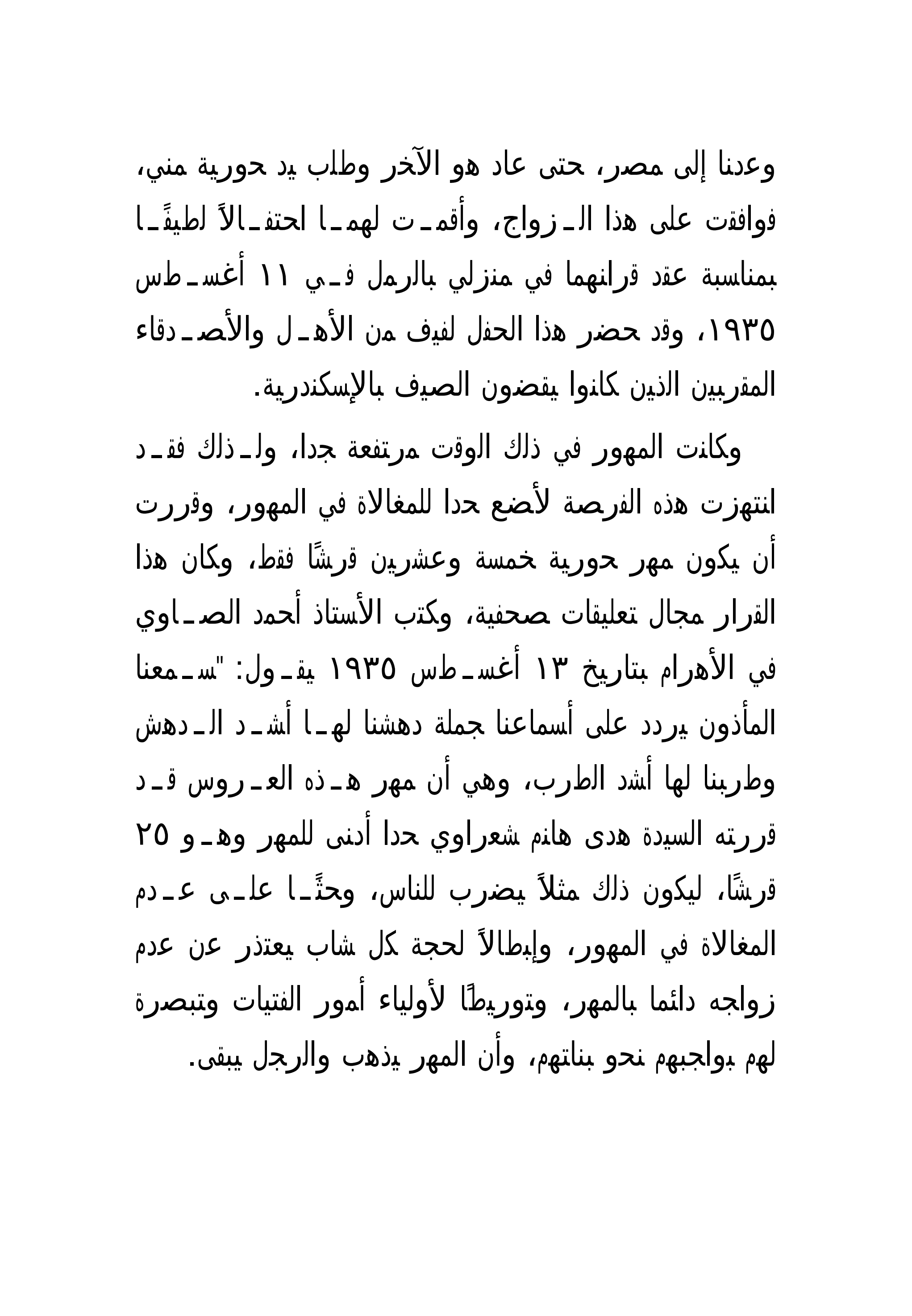
المرأة المشروعة، وهي: منع تعدد الزوجات لغير الضرورة، ومنع فوضى الطلاق، وإلغاء قضايا الطاعـة، ومـد أجـل الحضانة للولد حتى يبلغ وللبنت حتى تتزوج، وتحديـد سـن الزواج.

زواج حورية إدريس

كانت الآنسة حورية إدريس (ابنة خالي) ضمن أعضـاء وفد الاتحاد النسائي المصري الذي اشـترك فـي المـؤتمر الدولي الرابع عشر في استانبول، ولم تكـن تركيـا غريبـة بالنسبة لنا، فإن والدتي تنحدر أصلاً منهـا، وقـد تعـددت زياراتي لها، كما أسلفت في مستهل هذه المذكرات.

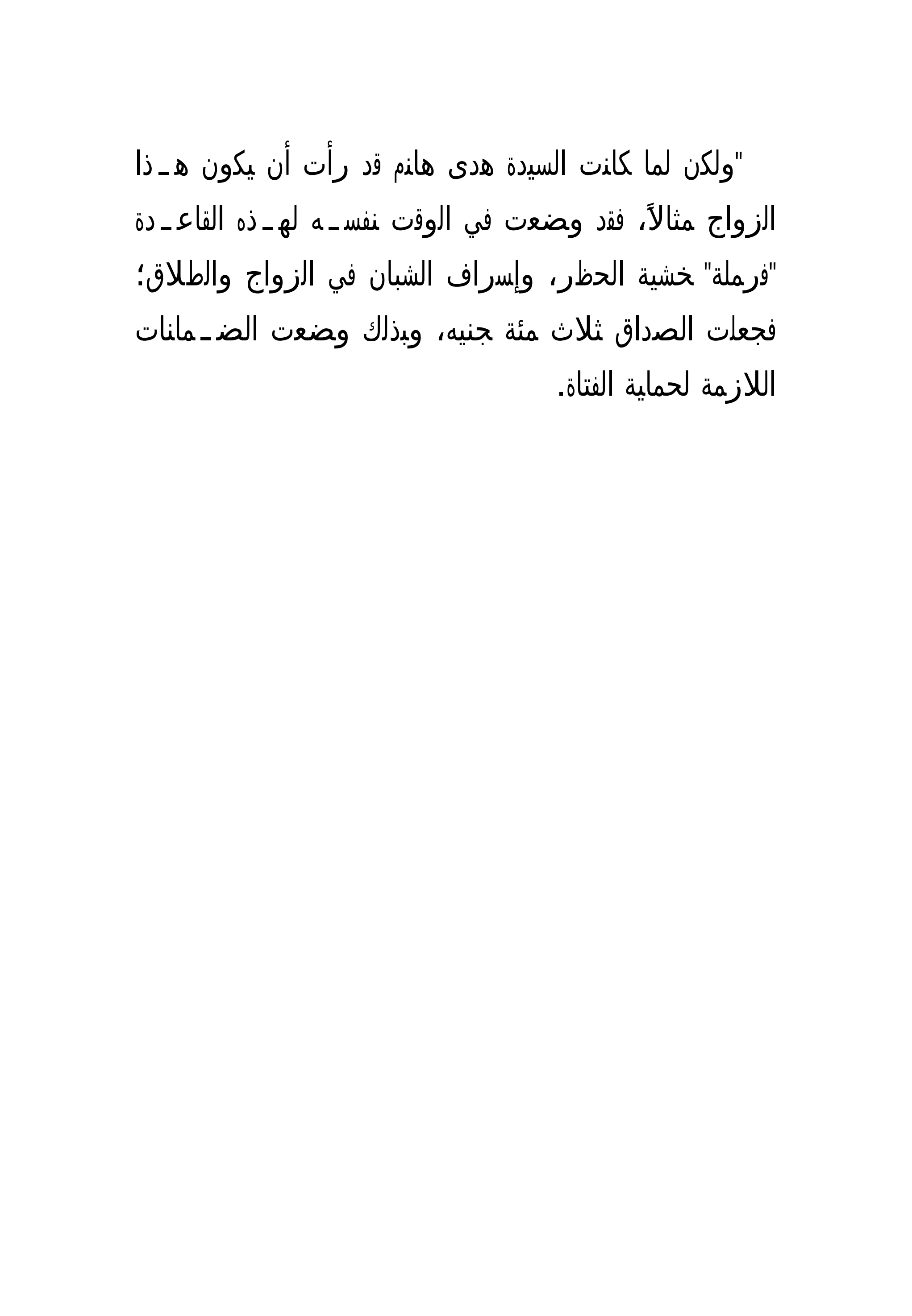
وكان من بين الهيئات التي قامت بتكريمنا هناك سـفارتنا المصرية، وكان ضمن أعضاء السفارة سـكرتير أول هـو الأستاذ "حسن شفيق" ابن أحمد شفيق باشا، الذي كان رئيسـا لديوان الخديوي، وهو رجل فاضل خدم وطنه حقبة طويلـة من الزمن، وكتب تاريخ مصر في ثلاثة مجلـدات سـماها "مذكراتي في نصف قرن".

وقد نشأت بين حسن وحورية ألفة خلال الفترة القصـيرة التي أمضيناها في استانبول، وما إن انتهينـا مـن المـؤتمر



وعدنا إلى مصر، حتى عاد هو الآخر وطلب يد حورية مني، فوافقت على هذا الـزواج، وأقمـت لهمـا احتفـالاً لطيفـًا بمناسبة عقد قرانهما في منزلي بالرمل فـي ١١ أغسـطس ١٩٣٥، وقد حضر هذا الحفل لفيف من الأهـل والأصـدقاء المقربين الذين كانوا يقضون الصيف بالإسكندرية.

وكانت المهور في ذلك الوقت مرتفعة جدا، ولـذلك فقـد انتهزت هذه الفرصة لأضع حدا للمغالاة في المهور، وقررت أن يكون مهر حورية خمسة وعشرين قرشًا فقط، وكان هذا القرار مجال تعليقات صحفية، وكتب الأستاذ أحمد الصـاوي في الأهرام بتاريخ ١٣ أغسـطس ١٩٣٥ يقـول: "سـمعنا المأذون يردد على أسماعنا جملة دهشنا لهـا أشـد الـدهش وطربنا لها أشد الطرب، وهي أن مهر هـذه العـروس قـد قررته السيدة هدى هانم شعراوي حدا أدنى للمهر وهـو ٢٥ قرشًا، ليكون ذلك مثلاً يضرب للناس، وحثًـا علـى عـدم المغالاة في المهور، وإبطالاً لحجة كل شاب يعتذر عن عدم زواجه دائما بالمهر، وتوريطًا لأولياء أمور الفتيات وتبصرة لهم بواجبهم نحو بناتهم، وأن المهر يذهب والرجل يبقى.



"ولكن لما كانت السيدة هدى هانم قد رأت أن يكون هـذا الزواج مثالاً، فقد وضعت في الوقت نفسـه لهـذه القاعـدة "فرملة" خشية الحظر، وإسراف الشبان في الزواج والطلاق؛ فجعلت الصداق ثلاث مئة جنيه، وبذلك وضعت الضـمانات اللازمة لحماية الفتاة.